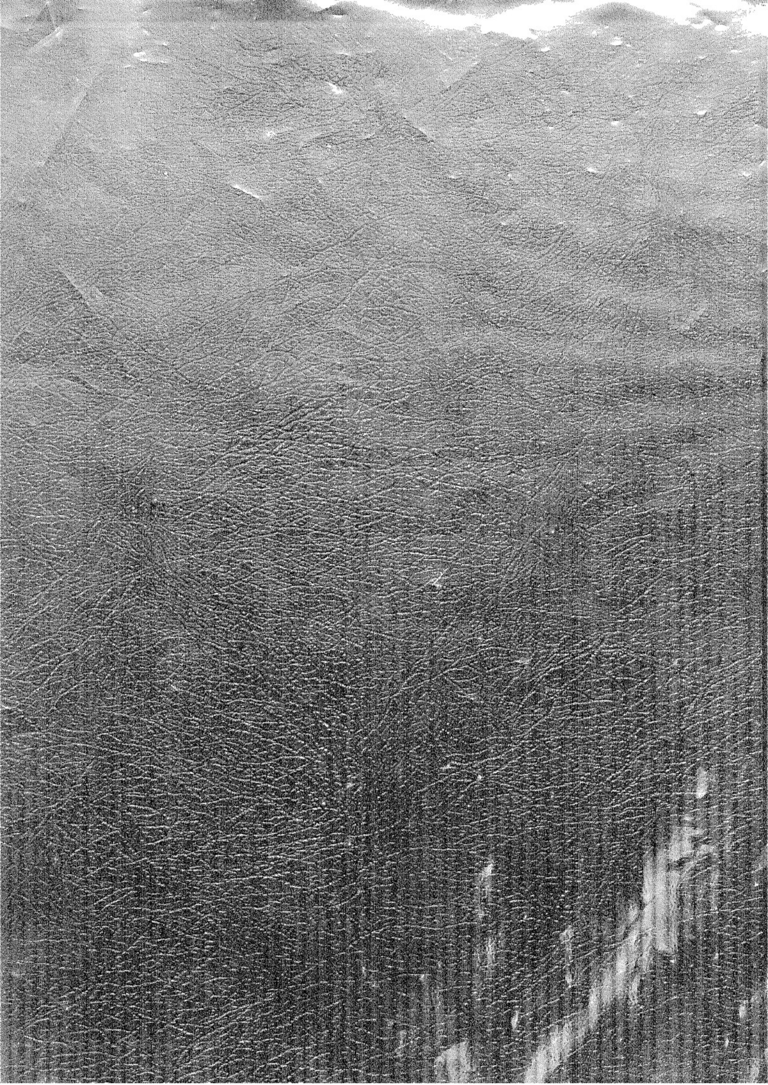
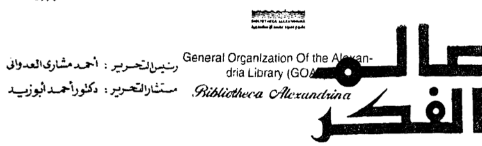


عالم الفكر

المجلد السابع - العدد الثالث - اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٦

الطفولة والمراهقة

- النمّو الجسمي في مرحلتي الطفولة
- النمّو النفسي من الطفل الى الراشد
- الانفصال عن العالم والرحيل الى الاعماق
- النمّو الروحي والخلقي والتنشئة الاجتماعية



رئيس التحرير : أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير : دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة اشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٦
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم .

الطفولـــة والمراهقـــة



زاد الاهتمام فى السنوات الاخيرة ،وبخاصةمنذ الستينات ، بدراســة مشكلات الطفولــة والمراهقة ازدياداً كبيرا تمثل فى كثرة الكتابات التيتتناول المشكلات المتعلقة بنمو الطفل ، والتغيرات التى تطرا على تكوينه الجسمى ، وتطور حياتهالعقلية والانفعالية ،وعمليات التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعى ، التى يخضع لها الاطفالفى مختلف المجتمعات والثقافات . وتعتمد هذه الكتابات في الاغلب على الملاحظة المباشرة الطويلة ،التى تعتبر هى الاداة الرئيسية فىالبحوث الحقلية والتجريبية ، وقد أمكن عن طريق هذه الوسيلةالتعرف على كثير من التفاصيل والدقائق عــن حياة الطفل فى سنى حياته المبكرة ، وفى مرحلةالمراهقة الخطيرة التــى كثيرا ما يكون لها آثار عميقة وبعيدة المدى فى حياته وتكوين شخصيتهوقدرته على التلاؤم مــع المجتمــع الذى يعيش فيه ، والتواؤم مع ثقافة ذلك المجتمع وعاداتهوتقاليده وقيمه ، وتقبل الاوضاع السائدة فيه أو التمرد عليه . ولكن على الرغم من كثرة هذهالكتابات التى تتناول جوانب كثيرة مــن المشكلة فلا تزال هناك نواح كثيرة في حاجة الى مزيد منالدراسة والبحث . ومع ذلك فانه يمكن القول بوجه عام ان الطفولة والمراهقة قــد وجدتا منذبداية القرن العشرين ، وبالذات منذ الستينات،

من عنايــة العلماء فى مختلف التخصصات ما لم تجده من قبل ، وان كان هذا لا يعنى انصراف الكتاب والعلماء والفلاسفة والادباء تماما عــن الكتابة فى الموضوع قبل القــرن العشريــن ، اذ الواقع ان حياة الطفل بالذات كثيرا ما كانت تثير خيال الكتاب والادباء الذيــن عالجوها فى بعض قصصهم ورواياتهم ، وقدموا لنا صورا دقيقة لما كان يعانيه الاطفال ، وبخاصة فى القرن التاسع عشر ، نتيجة للتصنيع والثورة الصناعية ، وماأحدثته من تغيرات في حياة المجتمع فى الغرب .

والواقع ان الظروف والاوضاع الاجتماعية والاقتصادية التــى سادت المجتمــع الانسانــى عمومــا ، والمجتمعات الغربيــة بوجــه خاص ، والتغيرات الهائلة التى طــرات علــى بناء هــذه المجتمعات بعد الثورة الصناعية ، كانت من اهم اسباب زيادة الاهتمام بدراسة مشكلات الطفولة دراسة علميــة ، والعمل علــى تشخيص هــذه المشكلات ، ومحاولة ايجاد حلول لها . ذلك ان الانتقال من الحياة التى تعتمد فى المحل الاول على الزراعة وعلى الانشطة المتعلقة بها ، الى الاعتماد على الصناعة وما يرتبط بها من زيادة التخصص والمهارة وتقسيم العمل ، والتحركات السكانية نتيجة لجذب المراكز الصناعية والحضرية للايدى العاملة من المناطق الريفيــة ، وانفصال العامل بالتالى عن عائلته الكبيرة ، وما نجم عن ذلك من تخلخل البناء العائلــى التقليدى ، وظهور الاسر الصغيرة او العائلات النواة ــ كما يسميها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا ــ التي اصبحت تؤلف الشكل الرئيسي للتنظيم العائلى فى المجتمعات الصناعية والمتقدمة عموما ، كــل هذا كانت لــه آثار عميقة على تنشئة الطفل وعلى تغيير النظرة الى الطفولة والمعاملــة التى يلقاها الاطفال ، كما كان وراء ذلك الاهتمام الطبيعى والعميق بدراسة مشكلات الطفولة ووضع الطفــل ثم المراهق فى المجتمع الحديث .

فالمعروف مثلا ان الاوضاع الاقتصادية فى المجتمع الصناعى الحديث تستلزم خروج الرجل والمراة على السواء للعمل . وقد ترتب على ذلك ظهور اوضاع كثيرة كان لها اثرها في حياة الطفل ونوع الرعايــة التى يلقاها ، اذ ان انصراف الام ــ ولو جزئيا ــ عن حياة البيــت ورعاية الاطفال كان يتطلب ضرورة ايجاد من يحل محلها للقيام بهذه الوظيفة ســواء كان ذلك عن طريق الاعتماد على اشخاص آخرين او على مؤسسات متخصصة ، وهي كلها بدائل لم تكن العائلة التقليدية الكبيرة تعرفهــا ، اذ كــان الطفــل ينشأ بــين افرادها العديدين في وسط صحي يوفر له ما يحتاج اليه من حسن الرعاية والعناية والاهتمام . بــل ان هذه الظروف الاقتصادية ذاتها ، واستقلال المراة اقتصاديا وعدم اعتمادها فى حياتها على الرجــل كما كان عليه الحال فى المجتمع التقليدى ، ادت بالضرورة الى انكماش دور الاب فى حيات الاسرة الحديثة ، بحيث لــم يعد يؤدى نفس الوظيفة القديمة ــ او على الاقل لم يعد هو المركز الرئيسى الذى تدور حوله حياة الاســرة ، واصبح عــدم وجود الاب في المجتمع الصناعى الحديث ظاهرة مالوفة ، بحيث تجد من بعض علماء الاجتماع من يتكلم الآن عما يسمى بالمجتمــع الذى لا يعرف نظام الابوة او المجتمع بــدون آبــاء fatherless society ، وهو تعبير يكشف عــن كثير من المخاطر والمشكــلات التــى يعانى منها المجتمــع الحديث ، وهى مشكلات تتراوح بــين انفصال الزوجين الى الطلاق الى ظهور العلاقات الجنسية

خارج الزواج وانجاب اطفال لا يعرفـون لهـم آباء شرعيين . ومحصلة هذا كله قلة الرعاية التى يجدها الاطفال فى الاسرة ، وزيادة الانحرافات السلوكية بينهم وبخاصة بـين المراهقين ، وان كانت هناك بغير شك اسباب وعوامل أخرى لهذا السلـوك الانحرافى ، الى جانب قلـة الاهتمام بالاطفال داخل الاسرة . ولكن الذى يهمناهنا هوان انصراف الاسـرة عن بـذل العناية اللازمـة للاطفال ، وظهـور مؤسسات متخصصة للقيام بهذه المهمة ، ومـا ارتبط بهذا كله مـن مشاكل تعترض حياة الطفل وأساليب تربيته كانت كلهامن أهم الاسباب التي دفعت الى زيادة الاهتمام بدراسة هذه المشكلات ، أو الى اعتبار الطفولة والمراهقة كمشكلة من المشاكل التي يجب علـى المتخصصين فى العلوم الاجتماعية والسلوكيـة ان يعطوها ما تستحقه من جهد وعناية .

وليس المقصود بذلك ان الاهتمام بمشكلات الطفولة والمراهقة لم يظهر الا فى القرن العشرين، اذ الواقع ان حياة الطفل والمراهق كانت تثـير دائما قدرا من الاهتمام ، وكل ما نقصده هو ان القرن العشرين شهد تغيرا كبيرا فى نوع الاهتمام نتيجة لتلك التغيرات الاجتماعية والاقتصادية . ولقد تجلى ذلك في النظريات الكثيرة والآراء الجديدة المتضاربة التي ظهرت بكثرة منذ بداية هذا القرن **وهي نظريات وآراء نجد عرضا لها فى الدراسات التي يقدمها لنا الاساتذة الدكتور سيد خـيرى والدكتور سيد غنيم والدكتـور عبـد الرحمـن عيسوى ، والتي يعالجون فيها نواحى هامة فى التطور الفيزيقي والعقلي والانفعالى لدى الطفـل والمراهق** . ولقد كان لعلـم النفس والتحليـل النفسى اكبر الفضل فى القاء كثير من الاضـواء على هذه الجوانب . ولقد دفعت كتابات فرويد وبياجيه Piajet الدراسـات السيكولوجيـة والسيكوتحليلية فى هذا المجال دفعة قوية . بل ان كثيرا من العلماء عكفـوا ليس علـى دراسـة الطفولة والمراهقة كمرحلة قائمة بذاتها أو كوحدة متمايزة بل على دراسة فترة صغـيرة محدودة من هذه المرحلة بقصد التعمق فى أسرارها . فقد زاد الاهتمام مثلا بدراسة التطور العقلي لـدى الطفل خلال الشهور الستة الأولى من حياته ، واعتمد هؤلاء العلماء فى ذلك على العاب الطفـل باعتبارها تعبيرا رمزيا عـن تجاربـه وتخيلاتـه واحواله الانفعالية . وربما كانت ميلاني كلايـن Melanie Klein وهي مـن تلميـذات فرويد – من اهم من عمل فى هـذا المجال بقصد الكشف عن التطورات التي يمر بها الطفل فى هذه المرحلة المبكرة من حياته ، ثم عمل ونيكوت Winnicott وهو طبيب اطفال ومحلل نفساني – بعد ذلك على تطوير أفكار ميلاني كلاين ، وآرائها واساليبها وطرائقها ، بحيث استطاع ان يتغلغل في عقل الطفل فى شهره السادس ، وذلك علـى أساس ان هذه المرحلة المبكرة لها اهميتها القصوى فى تكوين الطفل ونموه وتطوره العقلي والجسماني على السواء . فسن السـتة شهور تعتبر هـي « المرحلة الحاسمة التي يبدأ فيها المخ باستخدام الخلايا العصبية الاضافية التي يحصل عليها فى اثناء نموه والتي رفعت الانسان فوق مرتبة باقي الرئيسيات ، وتصبح حاسة اللمس والمناولـة الوسيلة المفضلة لادراك العالم الخارجي ... وفى تلك المرحلة فقط يبدأ الطفل في ادراك حقيقة وجود عالم خارجى ، وبالتالي عالم داخلي ايضا وهـو (الأنا) . اما قبل تلك المرحلة فان معظم المليارين

من الخلايا العصبية للمخ لم تكن قد استخدمت بعد في مجالات التجربة والذاكرة والمنطق ... » وهكذا . (انظر موسوعة الهدف ٢٠٠٠ ، صفحة ١٤٧٤ من الترجمة العربية) . وبصرف النظر عن الأهمية العلمية والعملية لمثل هذه المعلومات ، فالمهم هنا هو ان الاهتمام بالطفل وبحياته وتطوره بلغ درجة عالية جدا ، بحيث اصبحت مرحلة الطفولة تقسم الى مراحل فرعية قصيرة وصغيرة يتوفر على دراسة كل منها فريق من العلماء بغية التوصل الى مزيد من المعلومات والتفاصيل الدقيقة ، التي قد يمكن الاستعانة بها فى تحديد نوع التربية والطريقة السليمة لمعاملة الطفل ، وتنشئته اجتماعيا فى المجتمع والثقافة اللتين ينتمي اليهما .

• • •

ولقد اسهم علماء الاجتماع بنصيب وافر فى دراسة مشكلات الطفولة والمراهقة ، وان كانت معظم دراستهم تدور بطبيعة الحال حول موضوع التنشئة الاجتماعية ، وبخاصة دور العائلة فى هذه العملية المعقدة ، والدور الذي يلعبه الوالدان بالذات في تربية الطفل ، أو على الاصح فى تطويعه وتشكيله لنمط الحياة فى المجتمع الحديث ، وللقيم والقواعد التي تحكم سلوك اعضائه . كذلك اهتم البعض منهم بدراسة العلاقة بين نمو شخصية الطفل او المراهق ، واختلاف الادوار التي يضطلع بها ، والاوضاع التي قد تؤدى الى انحرافات السلوك لدى كل منهما . والملاحظ هنا على العموم ان معظم الكتابات السوسيولوجية التي تعالج هذه المسائل متأثرة الى حد كبير بنظريات علم النفس والتحليل النفسى ، وان كان ثمة اتجاه قوى الان الى دراسة التنشئة الاجتماعية على انها عملية تفاعل اجتماعي بكل معاني الكلمة ، اذ يتفاعل فيها الاطفال مع البالغين فى العائلة وفى المجتمع ككل وفي كل مناشط الحياة . فهي ليست مجرد عملية تلقين او توجيه وتدريب من البالغين للاطفال الذين كانوا يعتبرون مجرد صفحة بيضاء يمكن للآباء ان يسطروا عليها تعاليمهم وتوجيهاتهم التي يتقبلها الأطفال ويستوعبونها ويتمثلونها ، وبحيث تصبغ شخصياتهم بصبغة معينة محددة . ومع التسليم بان عملية التنشئة تهدف فى آخر الامر الى تنمية قوى الطفل وملكاته العقلية ، وتعمل على تلاؤمه مع المجتمع وتوجيه طاقته واستغلالها الى ابعد حد ممكن ، وتنمية خلقه وارادته وشخصيته عموما ، وتعريفه كيف يتقبل عادات المجتمع وانماطه السلوكية واوامره وقوانينه ، فان علماء الاجتماع الان يرون أن هذه العملية لا يمكن ان تؤدى الى ان يفقد الفرد شخصيته وفرديته ، على الاقل لان كل طفل يولد مختلفا عن غيره من الناحية الفيزيقية ، كما يمر بتجارب وخبرات تختلف تماما عن تلك التي يتعرض لها غيره من الاطفال . فكأن المسألة ـ فى نظر هؤلاء العلماء ـ ليست مجرد عملية صب الأطفال فى قالب جامد ، وانما للطفل دوره الايجابي الذي يقوم به فى عملية التنشئة ، وهو دور يجب ان يدرس عن طريق مقابلته بدور البالغين والكبار .

وعلى أية حال فانه يمكن القول ان علماءالاجتماع فى مجموعهم يحرصون فى كتابتهم حول هذا الموضوع على ابراز أثر الظروف والأوضاع الاجتماعية على سلوك الطفل والمراهق ، وتأثرهما باعضاء المجتمع الاخرين ، وتأثيرهما فيهم . ومن هنا كنا نجد معظم الكتابات السوسيولوجية تعالج موضوعات مثل أثر العائلة في الطفل ، واثر المدرسة والعوامل المؤثرة فى سلوكهم كالعنف والتسامح فى التربية ، وذلك الى جانب البحوث « التجريبية » التي تعتمد على ملاحظة الاطفال الذين يخضعون لنوع معين من التنشئة كما هو الحال بالنسبة للتنشئة فى مؤسسات معينة أو فى مستعمرات خاصة ، لها نظمها وقواعدها وقوانينها وفلسفاتها المتعلقة بالتربية وهكذا . وقد أدت هذه الدراسات كلها آخر الامر الى ظهور سوسيولوجيا التربية او علم الاجتماع التربوى ، الذى يحتل فى الوقت الراهن مكانة هامة بين فروع علم الاجتماع، وإن لم يحظ بالاهتمام الكافي فى جامعاتنا وبين علمائنا ودارسينا .

• • •

واخيرا فقد افلح علماء الانثروبولوجيا فى ارتياد مجالات جديدة وطريفة فى دراسة مشكلات الطفولة والمراهقة وذلك حين بذلوا كثيرا من الجهد والاهتمام فى التطور الاجتماعي للفرد في المجتمعات التقليدية التي كانت تعرف عموما باسم المجتمعات (البدائية) وهي تسمية آخذة الآن فى الاختفاء نظرا لما تحمله من مدلولات تقويمية . ولقد اتجهت الدراسات والبحوث الانثروبولوجية عدة اتجاهات ربما كان اهمها الاتجاه الذى يعني بدراسة المراحل الاجتماعية التي يمكن التمييز بينها ضمن دورة الحياة بالنسبة للفرد ، وبخاصة فى المجتمعات القبلية التي يعتمد تنظيمها الاجتماعي على عامل السن اعتمادا مباشرا ، بحيث يتوزع جميع اعضاء المجتمع فى فئات متمايزة كل التمايز، وبحيث تضم كل فئة منها الافراد الذين ينتمون الى مجموعة عمومية واحدة ، ويحتلون بفضل عامل السن مرتبة اجتماعية معينة ، ويمارسون معا نوعا محددا من النشاط الاجتماعي او الاقتصادى او السياسي او الحربي او الديني يتفق مع عمر أفرادها ، ومع قدراتهم الفيزيقية وخبراتهم فى شئون الحياة والمجتمع . ويعرف هذا النظام فى الكتابات الانثروبولوجية باسم نظام طبقات العمر ، على اعتبار ان السن هو العامل الرئيسي او حتى العامل الوحيد فى التفاضل او التفاوت الاجتماعي ، وبصرف النظر عن الاختلافات والفوارق الأخرى مثل تفاوت الثروة او غير ذلك . وتعتبر الطفولة والمراهقة فى مثل هذه المجتمعات مرحلة عمرية واجتماعية واحدة ، تتميز بارتباط الطفل والمراهق ارتباطا شديدا بمجتمع النساء ، بحيث لايسمح لأى منهما فى الاغلب بالاختلاط بالرجال البالغين الا بقدر وحساب ، كما ان الطفل او المراهق ينتقل الى مرحلة الشباب والبلوغ التي يمارس اصحابها مهمة الحرب والبطولة والاغارات الا بعد ان يمر بطقوس وشعائر خاصة تختبر فيها قدراته الجسمية على تحمل المشاق والصمود للصعوبات والقدرة على الحرب ، وهي الشعائر المعروفة فى الكتابات الانثروبولوجية باسم

التكريس التي تتميز بما فيها من قسوة وعنف . فبمقتضى هذه الشعائر ينتقل الفرد رسميا من مرحلة الطفولة والمراهقة الى مرحلة الشباب والرجولة المبكرة ، كما يدخل اجتماعيا الى مجتمع الرجال وينفصل عن مجتمع النساء ،ويعتبر لاول مرة عضوا كاملا فى المجتمع ككل . وهذا معناه ان مرحلة الطفولة والمراهقة ليست مجرد حالة فيزيقية او فسيولوجية ، وانما هي فى المحل الأول مرتبة اجتماعية خاصة اذا عرفنا ان هذه (المرحلة) تضم افرادا تتراوح أعمارهم بين سن الولادة ، وسن الخامسة عشرة او اكثر ما دام هؤلاء الافراد لم يتم تكريسهم . ومن هذه الناحية يعتبرون ــ بصرف النظر عن اعمارهم الفيزيقية التي تقدر بعدد السنين ــ أقرانا وزملاء فى الطبقة ، ويعاملون معاملة واحدة متشابهة ،ويحتلون مكانة اجتماعية مجددا مع بعض التمييزات الطفيفة داخل الطبقة لا تؤثر فى خصائص النظام كنظام . (انظر فى ذلك كله مقالنا عن : « نظام طبقات العمر » ــ مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ١٩٦٣) .

والاتجاه الرئيسي الثاني الذى اتجهت اليه بحوث الانثروبولوجيين فى دراسة الطفولة والمراهقة ، وافلحوا فى الاسهام فيه اسهاما وافرا هو الدراسات المقارنة التي تعنى بمقارنة العادات والتقاليد المتبعة فى معاملة الطفل او المراهق فى مختلف الشعوب والثقافات ، وكذلك مقارنة الطقوس المرتبطة بذلك ، واختلاف نظرة المجتمع الى كل منهما ، والمتاعب او المشكلات التي يقابلها كل منهما مع الاهتمام بابراز العلاقة بين المقومات الثقافية وتلك المشكلات .

وربما كانت كتابات العالمة الامريكية مارجريت ميد هى أشهر هذه الاسهامات وان لم تكن اكثرها عمقا او أشدها دلالة . فكتابات ميد ــ كما يقول ايفانز بريتشارد بحق ــ كتابات « انثوية بمعنى الكلمة » فيها « كثير من الجدل والاستطراد اللذين يبلغان حد الثرثرة » ، كما انها تنزع الى « تصوير الاشياء فى صورة زاهية خلابة » . ولعل أفضل مثال لذلك هو كتابها الشهير عن « البلوغ فى مجتمع ساموا Coming of Age in Samoa » الذى ظهر أول مرة عام ١٩٢٩ واعيد نشره عشرات المرات ، وفيه تقارن بين متاعب المراهقة لدى الفتيان فى هذا المجتمع (البدائى) وفى المجتمع الامريكي المتقدم الحديث . ويلخص ايفانز بريتشارد الكتاب بقوله ــ وانا انقل هنا عن ترجمتي العربية لكتابه عن « الانثربولوجيا الاجتماعية » ــ و « الكتاب يهدف فى اساسه الى ان يبين ان مشكلات المراهقة ــ وبخاصة عند الفتيات ــ التى تعتبر ظاهرة عامة أساسية فى الحياة الامريكية لا توجد فى ساموا ، وان ظهورها يلازم نوعا معينا من البيئة الاجتماعية ، بمعنى انها لا تنشأ عن الطبيعة ، وانما تنجم عن القيود التى تفرضها الحضارة الحديثة . وعلى ذلك تشرع الدكتورة ميد فى دراسة الاختلافات القائمة بين الظروف التى تصاحب مراهقة الفتاة فى كلا المجتمعين . وقد اضطرها ذلك الى ذكر كل ما تعرفه عن الوضع الاجتماعى العام للفتاة الساموية . فهى تتكلم مثلا عن طريقة تنشئتها ونوع الطفولة التى تمر بها والمكانة التى تشغلها فى حياة الاسرة والقرية والمجتمع المحلى الكبير ،

كما تتكلم عن علاقاتها الجنسية المتنوعة مع مختلف الشبان . ولكنها تحرص أشد الحرص اثناء ذلك كله على ان تربط هذه المسائل بمشكلة البحث الأساسية لكي تبين مدى تأثير الظروف الاجتماعية فى تشكيل شخصية الفتاة المراهقة ، ونوع رد الفعل الذى يصدر عن هذه الشخصية ازاء التغيرات الفسيولوجية التى يحدثها البلوغ.

والنتيجة التى تنتهى اليها مارجريت ميد من هذه الدراسات هى أنه لا توجد فوارق بين الفتاة الامريكية والفتاة الساموية فى عملية المراهقة ذاتها ، وانما تكمن الفوارق والاختلافات فى الاستجابة لها . فالمراهقة فى ساموا تطور رتيب منظم للميول والاهتمامات ومختلف انواع النشاط ، ولا ينجم عنها اى اجهاد أو كرب أوازمات ، وبذلك تكون عقول الفتيات بمنأى عن الأهواء المختلفة المتضاربة والصراعات المتعارضة المتباينة ، فلا تراودها التأملات الفلسفية او المطالب الجامحة التى يصعب تحقيقها . والواقع ان الفتاة هناك لا تطمح فى أكثر من أن تعيش لاطول مدة ممكنة قبل زواجها مع اكبر عدد ممكن من العشاق والمحبين ، ثم تتزوج من بعد ذلك فى نفس قريتها لتعيش مع اهلها واقاربها وتنجب عددا كبيرا من الاطفال .

وعلى العكس من ذلك تماما تعانى الفتاة الأمريكية المراهقة كثيرا من الارهاصات والتوتر والاجهاد بسبب اختلاف بيئتها الاجتماعية . فماهى اذن الفوارق البارزة الهامة بين الحالتين ؟ تعتقد الدكتورة ميد أن أهم الفوارق يرجع الى انعدام الوجدانات الشخصية والقيم المتصارعة فى ساموا . فالفتاة الساموية لا تهتم لانسان معين أو لشيء معين اهتماما بالغا شديد العمق ، كما انها لا تبنى آمالا عريضة على أية علاقة واحدة بالذات . وقد يكون ذلك راجعا الى أن الفتاة لاتنشأ هناك فى محيط العائلة الضيق المحصوره ، وانما تجد نفسها تتحرك منذ الصغر فى محيط الاقارب الواسع الرحب ، حيث تتوزع السلطة والمحبة بين عدد كبير من الاشخاص ، ولاتنحصران فى أفراد العائلة وحدهم . ولكن الأهم من ذلك هو أن الثقافة السائدة فى ساموا ثقافة متجانسة الى حد بعيد . فهم جميعا يتبعون نفس معايير السلوك ، ويعتنقون نفس المعتقدات الدينية ، ويخضعون لنفس القانون الخلقى . وعلى ذلك فليس هناك أى مجال للمفاضلة او الاختيار مما يقلل فرص النضال والاحتكاك بالآخرين ، ومما يساعد الفتاة المراهقة على تجنب الصراع الداخلي الذى يدور فى النفس عادة أثناء عملية الاختيار بين القيم المختلفة ، وما يترتب على ذلك الصراع من سوء التوافق ومن العصابات . اما الفتاة الامريكية المراهقة فانها على العكس من ذلك تجابه فى بيئتها الاجتماعية انواعا عديدة من القيم الاجتماعية المتنافرة ، مما يضطرها الى المفاضلة والى الاختيار . والاختيار هو مقدمة الصراع والنضال (الطبعة الأولى من الترجمة العربية — منشأة المعارف ١٩٥٨ — صفحات ١٤٣ — ١٤٥) .

والاساس القوى الذى تقوم عليه كل هذه البحوث الحقلية العديدة التى يضطلع بها علماء الانثربولوجيا ويقومون بها فى مجتمعات محددة ومعينة بالذات لدراسة عملية التنشئة الاجتماعية

والثقافية ، والتعرف على اساليب التربية والمشكلات التى يواجهها الطفل والمراهق ، ويعتمدون فى ذلك على الاتصال المباشر والمعيشة لفترة طويلة من الزمن تتجاوز السنة الكاملة فى معظم الاحيان مع استخدام اسلوب الملاحظة المباشرة . فكتابات هؤلاء الباحثين وتقاريرهم هي التى تزود غيرهم من العلماء من أصحاب النظريات بالمعلومات الاساسية التى يقيمون عليها نظرياتهم ويصوغون أفكارهم وآراءهم العامة حول المشكلة . . ولذا كانت هذه البحوث والتقارير الحقلية تحتل مكانة خاصة لدى المهتمين بالموضوع .

• • •

كل هذه الدراسات والبحوث والنظريات والآراء المتضاربة تدل على الاهمية البالغة التى تحظي بها الآن مشكلات الطفولة والمراهقة فى مجال العلوم الاجتماعية من ناحية ، كما تعكس من الناحية الأخرى مدى الاهتمام العام ، وبخاصة بين الآباء ، بالتعرف على خير الوسائل التي يمكن اتباعها فى تنشئة الاطفال والمراهقين ، بحيث يتحقق الهدف من التنشئة ، وهو تنمية مدارك الاطفال والمراهقين وقواهم وملكاتهم ، مع الحرص على تحقيق تلاؤمهم مع قيم المجتمع وتقاليده . ومن هنا كان السؤال الملح الذى يواجه العلماء والآباء على السواء الان هو كيف نعامل الأطفال ؟ وما هو الغرض من التربية ؟ وكيف يمكن تحقيق الشخصية السوية ؟ هذه كلها اسئلة لم تكن تتردد فى الاغلب ــ على الاقل بنفس هذه الدرجة من الالحاح ــ فى الماضي . اذ انه على الرغم من كل ما يقال عن الثورة الصناعية والتغييرات التى أحدثتها فى المجتمع فقد كانت هناك فى القرن التاسع عشر أوضاع محددة ترسم لكل شخص مكانته ومركزه ودوره وطريقة سلوكه ، سواء ضمن الجماعة التى ينتسب اليها عمريا ، أو مع الاجيال السابقة واللاحقة عليه . ولقد كانت العلاقات بين الآباء والإبناء بالذات تتصف بالجدية والصراحة التى قد تخفي وراءها كثيرا من الاهتمام والحب الأبوى ، وان لم يكن الأب يهتم باظهار ذلك الحب او التعبير عن عواطفه نحو أولاده ، ويعتبر ذلك نوعا من التدليل والافساد . ولذا كانت وظيفة التنشئة تنحصر فى تشكيل الطفل وتطويعه بحيث يتلاءم مع تلك الاوضاع القائمة . ورغم كل ما يؤخذ على هذه الطريقة من جمود وصرامة فلقد أفلحت ــ كما يقول درايتزل Hans Peter Dreitzel فى أن تنجب رجالا ونساء لعبوا دورا هاما فى تاريخ القرن التاسع عشر فى أوروبا . كذلك فانها رغم كل ما يؤخذ عليها كانت تخفي وراءها كثيرا من الاهتمام الحقيقي والحب والتماسك العائلي بحيث كان الطفل يشعر بكثير من الاطمئنان والارتياح والاحساس بالأمن ، وهى كلها عناصر يفتقر اليها كثير من الأسر الحديثة فى المجتمعات المتقدمة والصناعية . وهذا لا يعنى بطبيعة الحال انه لم تكن هناك حالات من الانحراف فى السلوك ، اذ لكل عصر ولكل مجتمع أسبابه وأوضاعه التى تدفع الى انحراف بعض أعضائه .

هذه الصرامة فى المعاملة يقابلها الآن التسامح والحرية الزائدة التي يلقاها الأطفال والتي تدفع

الكثيرين الى التساؤل الناجم عن الحيرة عن أى الاسلوبين فى التربية هو الصحيح والمجدى ، أو على الاقل الأكثر جدوى ؟ وأين هو الحد الفاصل بين الصرامة الزائدة والحرية الزائدة والذى يمكن ان يؤدى الى خلق الطفل السوى ؟ ومثل هـذه التساؤلات تبين لنا أن موقف الآباء من أطفالهم قد تغير تغيرا جذريا ، وان الآباء لم يعودوا يأخذون اطفالهم على انهم مجرد مسألة مسلم بها اوتحصيل حاصل ، وانما على أنهم مشكلة تستحق التفكير والاهتمام . ويقول آخر لم تعد الأم او الأب الذى يفشل أحد اطفاله في حياته يكتفي بأن يندب حظه التعس ويشفق على نفسه من سلوك طفله ، بل أصبح بدلا من ذلك يميل الى التعرف على أسباب انحراف الطفل او فشله ، وقد يرد ذلك فى كثير من الاحيان الى نوع المعاملة التى لقيها الطفل . والموقف الصعب الذى يجد البالغون والاطفال على السواء انفسهم فيه الآن هو كيف يمكن التوفيق او الاختيار بين الافكار التقليديـة التى نشأت والبالغون يميلون الى فرضها ويؤمنون بجداوها ، وبين النظريات والاتجاهات الحديثة التى تعطي للطفل مكانة واعتبارا لم يكن يتمتع بهما فى الماضي ؟ والمعروف ان التنشئة الاجتماعية هي بالضرورة ــ ومهما يقل عن الاتجاهات التقدمية فيها ــ عملية فيها جانب كبير (رجعي) أو (محافظ) أن صح هذا التعبير لانها ــ وان كانت تهدف الى خلق الشخصية السوية ــ فانها تهدف فى الوقت ذاته الى المحافظـة علـى البناء الاجتماعى والثقافى التقليدى حتى يمكن ضمان استمرارية الحياة الاجتماعية عن طريـق نقـل التراث الاجتماعى والثقافى الى الاجيال التالية . والمعادلة الصعبة هى فى ايجاد وسيلة للتوفيق بين هذين الاتجاهين لضمان الاستمرار مع التجديد ، بحيث يمكن اعداد الطفل لعصر يختلف فى مفاهيمه واتجاهاته وقيمه ونظرته الى الحياة عن العصر الذى يعيش فيه الآباء . ان الوصول الى حل هذه المعادلة الصعبة هو فى الاغلب الوسيلة الفعالة لضمان عدم تمرد الشباب والاجيال التالية ، وهى المشكلة التى تعانى منها المجتمعات الحديثة . ويعرض لنا الاستاذ الدكتور جواد رضا فى دراسته عددا من اللوحات التى تكشف لنا عن كثير من هذه الأمور .

الا أن المشـاهد على العمـوم ان معظم الدراسات التى تعالج هذه المسائل تؤكد موقف الآباء الاكثر تسامحا ازاء الاطفال ، ويعتبرون ذلك موقفا صحيا يقوم على التقدير الصحيح والفهم الصائب لمشكلات الطفولة والمراهقة . كما يكشف عن استعداد الآباء لمراجعة انفسهم ومواقفهم من اطفالهم . وهذا هو ماكنا نقصد اليه حين قلنا ان الاتجاه يزيد الآن نحو عدم اعتبار الاطفال عنصرا سلبيا فى عملية التنشئة ، او أنهم يستجيبون دائما للمؤثرات الخارجية التى ترد اليهم مـن البالغين والكبار ، وان الكبار أنفسهم ليسوا دائما عوامل ثابتة فى بيئة الطفل الاجتماعية ، ولكنهم خليقون بأن يتغيروا تحت تأثير التحدى الصادر من اطفالهم . ومن الغريب انه حتى عهد قريب جدا لم تكن معظم بحوث التنشئة الاجتماعية تعتبر الاطفال « كائنات سيكولوجية واجتماعية وتاريخية فى ذاتهم » على ما يقول دراتيزل ، ولم تكن تعتبر الطفولة تصورا او مفهوما متميزا فى ذاته ، وانه لم يساعد على ظهور هذا المفهوم الا انشاء المدارس الحديثة بعد التغيرات الواضحة التى طرأت على بناء المجتمع الحديث . كذلك من الغريب أن نجد انه رغم كل الاهتمام الذى يبديه المجتمع الحديث

بالأطفال والمراهقين ولعمليات التنشئة فان هذاالمجتمع الحديث نفسه يخلق جوا غير ملاءم تماما للاطفال بوجه عام ، لدرجة ان الكثيرين مـــن الكتاب يتشككون فيما اذا كانتهذه المرونة او هذا التسامح ازاء الاطفال ناجم حقيقة عن فهم مشاكل الطفولة والرغبة في العمل على حلها ، والايمان بضرورة الاهتمام بمتطلباتها ، أو أنه ناجم عــن الشعور بالعجز واليأس والاستسلام للاوضاع الراهنة التى لا يجد الآباء والعلماء لها حلا بعد أن فقدت المؤسسات والنظم الاجتماعية التقليدية ، وبخاصة الاسرة ، دورها ووظيفتها فى تنشئـــة الاطفال ، وبعد أن اصبحت المدرسة ذاتها تعانى الكثير من المشكلات ، نظرا لأن المدارس فى العادةتوجه التلاميذ نحـو سياســـة تربوية محددة ومرسومة ، بدلا من أن تعمل على الكشف عــن القدرات الخاصة بكل طفل وتوجيهها الوجهة الصحيحة للافادة منهم . ان هذا التشكك ومايتعلق به من تساؤلات كثيرة وما يدور حوله من آراء خليق بأن يجدمن علمائنا ومفكرينا ما يستحقهمن عناية ودراسة واهتمام ، حتى يمكن ان نتجنب فى أساليب ووسائل تنشئة الاطفال والمراهقين فى مجتمعاتنا كثيرا من المشكلات التى يعاني منها الآباء والابناء فى المجتمعات الغربية الأكثر تقدما .

* * *

سيد خيري

النمو الجسمي في مرحلتي الطفولة

من الطريف أن نجد ان الاهتمام بدراسةالاطفال وخبراتهم وسلوكهم يعتبر مركز جذب لأشخاص عديدين غير أولئك الذين يرتبطون ارتباطا طبيعيا وثيقا بتربية الطفل ، واهم هؤلاءجميعا الآباء والأمهات، فهم الذين، بحكم حبهم لأطفالهم،، يميـلون لملاحظتهم فى ولـع واهتمام عاطفى ، ويتتبعون تطور شخصياتهم ، ويلمحون معـالم التغير في كل ظاهرة من ظواهر حياتهم ، يشاركهم في ذلك كل مهتم بعملية التربية والتنشئة لهؤلاءالاطفال كالمدرسين والمدرسات والمربين والمربيات، وغير هؤلاء كثيرون . الا أن هذا الاهتمام الشديدكثيرا ما يجعل ملاحظاتهم ونتائج تتبعهم لما يطرأ على هذه الشخصيات من تغير يشوبها كثير من التحيز والاتجاه الى جانب واحد فى أحكامهم لمـا يلاحظونه ، فغالبية الآباء يلاحظون كل مايؤيدامتياز اطفالهم عقليا ، ويتذكرون في ذلك كل حادثة صغيرة مرت أمام اعينهم تسير في هذاالاتجاه ، بل وينحون في تفسيراتهم هذا المنحى ، ولهذا فان الاعتماد على تقارير الآباء والأمهات وذاكرتهم المتعلقة بمراحل النمو التى مر عليها اطفالهم ينبغى لدارس نمو الطفل أن يأخـذهابحذر شـديد ، وان يجمع ملاحظاته من مصادر

متعـددة حتى يسـتطيع المقـابلة بين مختلف الملاحظـات والذكريات ويخرج بأكبر قـدر من الصحة فيما يتعلق بهذه التغيرات .

اما المتخصصون العلميون ، فانهم يهتمون كذلك بدراسة الاطفال فى فروع كثيرة مختلفة من فروع المعـرفة العلميـة ، فانهم بالرغم من أن موضوع دراستهم غالبا ما تكون مشتركة موحدة تنحصر فى نمو الطفل وتطوره الا أن كلا منهـم ينظر الى هذا النمو من وجهة نظر خاصة ترتبط بناحية تخصصه ، وهـذه النظرات المختلفة فى تجمعها تعطى الصورة المتكاملة عن عملية النمو فى شخصية الطفل جسميا ونفسيا من مرحلة ماقبل الميلاد حتى مرحلة النضج التى يستقر فيهـا النمو ، بل ويذهب الكثيرون الا أن دراسة النمو لا تتوقف عند مرحلة معينة ، فدراسة المسنين مرتع خصيب فى الوقت الحالى للفحوص العلمية الشيقة .

ولعل اهم هؤلاء العلماء اتصالا بموضوع النمو هو التخصص فى علم النفس الارتقائى ، او سيكولوجية التطور Developmental Psychology **أو علم نفس الطفل كما يسمى عادة** Child Psychology **وبالرغم** من ان الدراسة العلميـة لهذا التخصص تنصب على متابعة نمو الطفـل وتطوره ، الا انه يسـتمد خبراته وبياناته التى تخدم اغراضه هذه من فروع مختلفة من فروع المعرفة ، ويبدو ذلك طبيعيا اذا تتبعنا المجموعة الهائلة والمتنوعة من العوامل الداخلية والخارجية التى تحدد وتؤثر في عملية النمو .

فبعض هذه المحددات نستمدها من علم الوراثة العضوية والوظيفية ، وبعضها الآخـر نستمدها من علم الطب عندما تتعرض للخصائص المرضية والعوامل المؤثرة على صحة الطفل ونموه الجسمى والوظيفى ، ويدخل في ذلك علم وظائف الاعضاء Physiology والتشريح Anatomy وعلم الحياة Biology وأكثر اتصالا من ذلك فروع علم النفس المختلفة كعلم النفس التجريبى Experimental Psychology وعلم النفس المرضى Psychopathology والصحة النفسية Mental Hygiene والتوجيه التعليمى Educational Guidance وغير ذلك من العلوم المرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم النفس كعلم الاجتماع Sociology والانثروبولوجى Anthropology وبوجـه خاص التربية .

فدراستنا الحالية لنمو الطفل لايمكن أن تخلو من التعرض لحقائق مختلفة من هـذه العلوم التى ذكرناها وغيرها بالقدر الذى يحتاج اليه توضيح معالم هذه الدراسة .

وهذه الفروع المختلفة المرتبطة بدراسـة النمو تلقى ضوءا هاما على مايحدث للطفل فى مراحل طفولته المختلفة وقد رأينا أن نبدأ بمرحلة ماقبل الولادة . فحتى عهد حديث كانت دراسة النمو تبدأ من ميلاد الطفل ، أما اليوم فانه من المعترف به أن هناك مظاهر كثيرة على جانب كبـير من الأهمية تؤثر في النمو بعد الميلاد تتم قبل الولادة ولهذا فان تحديد دراستنا في السنوات التى تلى الميلاد تكون بمثابة مشاهدة رواية تمثيلية من منتصفها أو بعد مرور عدد من فصولها . فاذا بدأنا دراستنا من يوم الميلاد اصبح ما تم قبل ذلك مجهولا لنا تماما ، بالضبط كما يحدث فى حضور الرواية من منتصفها عندما تغيب عنـا اشياء كثيرة عن خلفيات الشخصيات التى تقوم

بالأدوار المختلفة ، وأنه ليصعب علينا أن نتتبع نموذج النمو والتطور للطفل الا اذا عرفنا الكثير عنه قبل الميلاد . فلهذا أصبحت دراسة نمو الطفل تبدأ منذ الحمل وتمتد حتى نهاية مرحلة النضج . ولهذا فان دراسة نمو الطفل ينبغى أن تبدأ من مرحلة ما قبل الميلاد لما لهذا المرحلة من اهمية فى توضيح مظاهر ومفاهيم كثيرة فى عملية النمو ، علاوة على مساعدة ذلك على ايضاح ما يزود به الطفل عند ولادته من امكانيات جسمية وعقلية يتضمنها مفهوم النمو أو التطور ، وقد رأينا قبل عرض مراحل النمو المختلفة للطفل أن من واجبنا أن نوضح ما نعنيه بمصطلح النمو ، ونعرفه تعريفا اجرائيا واضحا ، ثم نعرض أهم الطرق العلمية لدراسة هذه النمو .

ولما كانت عملية النمو خلاصة لتفاعل النضج الطبيعى Maturation مع عوامل التدريب والتعليم Learning من البيئة وجدنا من اللازم أيضا توضيح هذا التفاعل بشىء من التفصيل قبل عرض المراحل المختلفة لهذا النمو .

وبالرغم من تداخل هذه المراحل المتدرجة تداخلا كبيرا نظرا لطبيعتها ونظرا لأن النمو فى ذاته عملية متكاملة فان الدراسة العلمية للنمو تتطلب تقسيمه الى مراحل متميزة ، ونوضح المعالم الرئيسية لكل مرحلة من هذه المراحل .

ولعل انسب تقسيم لمرحلة الطفولة ينحصر فى التمييز بين أربعة مراحل مختلفة :

ا ـ مرحلة ما قبل الميلاد

ب ـ مرحلة الرضاعة

جـ ـ مرحلة الحضانة

د ـ مرحلة الطفولة : المبكرة والمتأخرة

ويمكننا أن نحدد هذه المراحل الاربع بأعمار تقريبية متدرجة فنقول ان مرحلة ما قبل الميلاد تتم خلال الشهور التسعة التى يتم فيها نمو الجنين فى بطن أمه منذ تلقيح البويضة حتى وقت الميلاد . أما مرحلة الرضاعة فتبدأ من الميلاد حتى نهاية السنة الاولى تقريبا . وأما مرحلة الحضانه فتمتد من السنة الثانية حتى نهاية السنة الثالثة . وأما مرحلة الطفولة فتنتهى بمرحلة المراهقة ويمكن أن نحددها بين الثالثة والثانية عشرة تقريبا ، وهناك اختلافات كثيرة وخاصة حول المراحل التى تسبق الطفولة الاولى (المبكرة) التى تبدأ من الثالثة .

والمرحلة الاولى تستمر حوالى ٩ شهور أو ٢٨٠ يوما ، وبالرغم من صغر مدتها الا أن النمو فيها يتم بغاية السرعة ، وأهم مظهر لهذا النمو هو المظهر الفسيولوجى الذى يتكون خلاله التركيب الجسمى ، أما المرحلة الثانية فهى التى تتضمن انتقال الرضيع الى بيئة مخالفة تماما للبيئة التى نشأ فيها وتعتبر مرحلة ركود فى نمو الطفل الرضيع ، ووظيفتها احداث عملية التوافق مع جسم الأم الخارجى ، وتستمر فيها عملية النمو راكدة حتى تتم عملية التوافق هذه . ووظيفة مرحلة الحضانة تدرج الطفل من الاعتماد على غيره فى قضاء لوازم حياته الى أن يصل

الى القدرة على التحكم فى عضلات جسمه ،فيستطيع أن يأكل بنفسه ويلبس ويتكلم ويلعب، وتعتبر مرحلة الطفولة امتدادا لذلك ، فالطفل الذى تعلم التحكم فى عضلاته يتعلم هنا السيطرة على بيئته كما يتعلم كيف يتوافق توافقا اجتماعيا ، وهذا يبدأ في سن السادسة تقريبا ، ولهذا يفضل الكثيرون تقسيم هذه الفترة الى فترتين الطفولة الأولى وتنتهى عند السادسة والطفولة المتأخرة وتبدأ بدخول المدرسة .وهاتان المرحلتان هما اللتان يتعلق بهما بحثنا هذا(١) .

• • •

المقصود من النمو :

هناك لفظان يستخدمان بمعنى واحد غالبا، وهما النمو Growth والتطور Development ونرى منذ البداية التفريق بينهما بالرغم من أنه يصعب الفصل بينهما ، فهما يحدثان معا ودائما ولا يمكن أن يحدث احدهما في غياب الآخر . والنمو يقصد به التغيرات الكمية فى أجزاء ووظائف الكائن الحى كزيادة في الحجم والتركيب وزيادة الوزن وزيادة حجم الجمجمة والتغير في وزن الاعضاء الداخلة فى بنيان جسمه ووزن وحجم المخ ، وقد ينتج عن ذلك زيادة فى قدرة الطفل على التذكر أو التفكير أو الاستدلال أو التعلم أو الادراك ، فالطفل ينمو بهذه الصورة عقليا وجسيما .

وأما التطور فنقصد به هنا التغير النوعى ، ويمكن أن نعرفه بأنه التتابع المستمر المرتب المتسق من التغيرات والتحولات التى تؤدى فى نهايتها الى هدف النضج ، ويقصد باستمرار هذا التتابع فى هذا المجال ان التغيرات تسير فى اتجاه واحد وهو الاتجاه الى الامام لا الى الخلف، كما أن تعريفا كهذا يفترض ان هناك دائما علاقة بين كل مرحلة والمرحلة أو المراحل التى قبلها ، وبالاضافة الى ذلك فان التتابع لايحدث عن مجرد اضافة بحيث يصبح طول القامة زائدا عن طولها الاصلى ببضعة سنتيمترات ، أو يصبح حجم المخ أكبر من حجمه الاصلى بقدر من السنتيمترات المكعبة ، ولكن المفروض فى التطور مايحدث من تفاعل ، فهو عملية معقدة متكاملة بين مختلف التركيبات والوظائف ، ولهذا فان كل تغير يعتمد على المراحل السابقة وبالتالى يؤثر على المراحل المقبلة . فالنمو اذن عملية ديناميكية تفاعلية متكاملة ، وينتهى النمو بطبيعة الحال بمرحلة النضج الذى يصل فيه التغير التركيبى نهاية مراحله ، وتستطيع الاعضاء المختلفة القيام بوظائفها على الوجه الاكمل بالمستوى الذى تتيحه له خصائص الطفل وقدراته وامكانياته الجسمية والنفسية ، وبالرغم من أن كل مرحلة من مراحل النمو تقرب الشخص من مرحلة النضج الا أنها فى حد ذاتها تعتبر فترة كاملة تعطى دليلا على مدى مطابقة سرعة نمو الفرد بالسرعة الطبيعية واقتراب قدرات الشخص وامكانياته الجسمية والعقلية من المعدل أو المتوسط المفروض الوصول اليه فى هذا السن المعين فى تلك البيئة التى يعيش فيها ، فالسن الأولى التى تظهر للطفل تعتبر دليلا على دخوله مرحلة مميزة من مراحل النمو فهى تدل على الأقل على أنه

---

(١) الارقام بين القوسين تدل على رقم المرجع فى قائمة المراجع فى نهاية البحث .

لم يتأخر فى عملية التسنين وأن هذه العمليةتسير بتقدم طبيعى في حالات وانه متأخر أو متقدم في حالات أخرى .

أن الكائن الحى دائمافيتغير مستمرجسمياوعقليا منذ يوم ولادته (أو قبله) حتى يوم وفاته ، وهذه التغيرات تمر في مراحل مختلفةفقد تكون فى بدايتها في أحد الاعمار ، وقد تبلغ اقصاها فى اعمار أخرى ، وقد تصل الى نهايتهافى اعمار ثالثة .

وهذه التغيرات المختلفة تؤثر على النموبأساليب مختلفة ويمكن تقسيمها الى أربعة انواع رئيسية :

١ ــ **التغير فى الحجم** : ففى كل عام كلمايتمو الطفل فان ارتفاع قامته ووزنه ومحيط جسمه يزداد عادة ، كما أن الاعضاء الداخليةوالتركيبات الحشوية تنمو فى الحجم لتواجه المطالب المتزايدة للجسم . وليس هذا قاصراعلى المظاهر الجسمية بل يلاحظ كذلك فى الوظائف العقلية كالمحصول اللغوى وقدراتهالعقلية المختلفة .

٢ ــ **التغير فى النسب** : لا يمكننا أن نعتبرالطفل رجلا صغيرا كما كان يظن سابقا ، فان ابعاد جسمه تتغير مع زيادة النمو ، فنسبة حجمالجمجمة والبطن والساقين بالنسبة الى حجم الجسم كلها لا تستمر ثابتة أثناء عملية النمو بلتتغير من مرحلة الى اخرى ، وكما ذكرنا فى للتغير فى الحجم فاننانلاحظهذا أيضا فىالوظائفوالعمليات العقلية ، وهذا ما يميز كل مرحلة عن غيرها منمراحل النمو،فنسبة الخيال والعدوانوالانانية مثلا تزداد في مراحل خاصة وتقل في غيرها بالنسبة لسلوك الطفل .

٣ ــ **اختفاء بعض المعالم العضوية** :كشعرالجسم الرفيع الذى يكسو الجلد فى الرضيع ، وشعر الرأس الناعم والاسنان اللبنية وبعضالافعال المنعكسة والمناغاة والصراخ وغير ذلك تعتبر من المظاهر الجسمية التى تختفى لعدمالحاجة اليها كلما ازداد الطفل نموا ، ويتبع ذلك اختفاء بعض المظاهر العقلية والانفعاليةكحب التملك والأثرة والزهو بالانتصار وجمع الاشياء والمنافسة وغير ذلك وكلها مظاهرلاتثبتمع الطفل بعد ظهورها في مرحلة من مراحل النمو .

٤ ــ **ظهور بعض المعالم العضوية الجديدة** :وذلك لان بعض المعالم العضوية أو العقلية قد تظهر نتيجة لعملية التعلم ، كما أن عمليةالنضج Maturatim تدفع ببعض المؤشراتة للظهور كظهور الاسنان الثابتة والمعالم الجنسيةالاوليةوالثانوية ، وفي العمليات العقلية يمكننا أن نذكر حب الاستطلاع والمعرفة والدافع الجنسيوالتأمل والتفكير الدينى وغير ذلك .

وبوجه عام نقول أن عملية النمو تتضمنعمليتين متضادتين ، أولاهما ينتج عنها اضافة أجزاء ومميزات جديدة ، والثانية تتضمناختفاءوزوال بعض المعالم القديمة ، وبطبيعة الحالفان عملية الاضافة تزداد أثرا فى الاعمار الصغيرةوتبدو أكثر وضوحا ، فهى تساعد على التكوين وملاءمة الصغير للمطالب المتزايدة للحياة المقبلةبينما تزداد عمليةالحذف كلما ازداد النمو ودخل الطفل فى مراحل جديدة ، ولكن هذا لا يمنعمن وجود العمليتين دائما فى عملية النمو .

كما أن بعض هذه العمليات تتآزر فى وظيفتها وتسير جنبا لجنب فى تأدية وظيفة واحدة ، كما يظهر ذلك فى تغير الحجم ونسب وأبعاد الجسم وازدياد الوزن فانه يكون نتيجة عادة لنمو فى العضلات والعظام ، وكما يحدث ذلك التآزر فى المظاهر البدنية يبدو أيضا فى المظاهر النفسية والعقلية كما يحدث نمو فى الذاكرة وفي مستوى الذكاء والقدرة على الاستدلال تبعا لازدياد نمو الطفل .

ان النمو سواء كان جسميا أو عقليا لايسير بطريقة منتظمة فهو يبلغ اقصى سرعة خلال الاشهر التسعة الاولى قبل الميلاد (اثناء الحمل) ، حيث ينمو الجنين من خلية ميكروسكوبية الى طفل يزن ٧ أرطال في المتوسط و ٢٠ بوصة فى طول القامة .

وبوجه عام فان النمو تزداد سرعته بدرجة ملحوظة خلال السنوات الاولى من حياة الطفل، ويبدو ذلك واضحا اذا قارنا بين الطفل الوليد والطفل الذى يصل عمره الى ثلاث سنوات ، فمثلا في هذه المدة تجد أن النمو يكون ملحوظا وواضحا حتى للوالدين اللذين يقضيان مع الطفل طول الوقت ، وهذا الاسراع فى النمو الجسمى يصحبه اسراع فى النمو العقلى كذلك ، وأما فى المرحلة التالية التى تبدأ فى سن الثالثة وتنتهى فى سن السادسة فان النمو فيها يسير بسرعة كذلك ، ولكن هذه السرعة لن تصل الى السرعة السابقة ، وزيادة عن ذلك فان سرعة النمو تبطىء اكثر بعد السادسة تدريجيا حتى مرحلة البلوغ ، فالطفل ينمو فى هذه المرحلة الا أن نموه هذا لا يقاس بالنمو الذى يحدث فى السنوات الثلاث الأولى .

وهذا النمو بوجه عام قد لا يلحظه الطفل نفسه ، بل هذا ما يحدث عادة حيث لا ينتبه الطفل لما يحدث بجسمه من تغير الا اذا نبهه اليه غيره أو سمع تعليقا عليه ، أما الاطفال الأكبر سنا فانهم يكونون أكثر وعيا لما يحدث فى أجسامهم من تغيرات وخاصة فى المراحل التى تحدث تغيرات وظيفية كمرحلة المراهقة .

ان معرفتنا للنموذج الذى يتبعه النمو البشرى يمكننا أولا أن نعرف ما تتوقعه من اطفالنا فى السنوات المختلفة ، فدراسة النمو وملاحظته يؤدى الى تفهم طبيعة المرحلة ومايحدث فيها من نمو جسمى وعقلى ، وعن طريق التنبؤ مادام الطفل ينمو باسلوب عادى بوجه عام يستطيع المربى أن يعرف من قبل ما سيحدث له جسميا وعقليا فيعد العدة لاستقبال هذا التغير المنتظر . وبذلك لا نتطلب من طفلنا أكثر مما يستطيع آداءه جسميا أو عقليا ، ولنضرب مثلا على ذلك أن استخدام القلم والقبض عليه بأصابع اليد بطريقة يسهل معها توجيهه الوجهة التى يريدها الطفل تتطلب أن يكون الطفل قد مر بمرحلة معينة يستطيع معها التحكم فى أطراف الأصابع واحداث التآزر بين ثنى وتحريك أصابع اليد المختلفة ، وقد تجبر الطفل على هذه العملية قبل أوانها، ونطالبه بالتحكم فيها ونتهمه بالتأخر اذا لم يستطع اتقانها ، وبالمثل فان ما يحدث من اجبار الطفل أحيانا على التحكم في عمليات النظافة في التبول والتبرز قبل المرحلة العادية

الطبيعية فيه أشعار للطفل بعدم كفاءته للقيام بما كان يجب عليه القيام به مما يسبب له مشكلات انفعالية في المستقبل ، والطفل فى هذه المرحلة ينظر الى أوامر وتوجيهات والديه على انها الأوامر الطبيعية للطفل العادى فى نفس سنه وبذلك يحرم الطفل دائما من الحوافز والمشجعات التى تعينه على تحقيق ثمرات نموه. وقد يؤدى هذا به الى مقاومة دائمة لكل من يقلل من شأن قدراته وامكاناته الطبيعية .

والقيمة التشخصية الأخرى لدراسة مراحل النمو ومعدلاته تنحصر فى وضع معايير المعدلات التى يصل اليها الطفل العادى فى مرحلة من المراحل ، فنحن نعلم مثلا أن التسنين الاول يبدأ عند الطفل العادى فى مرحلة معينة ، وان المشى أو الحبو يبدأ فى المتوسط فى سن متوسط محدد ، فاذا تأخر الطفل فى عملية من عمليات النمو عما يحدث عادة في الطفل العادى كان هذا نذيرا بتاخر جسمى أو عقلى لدى الطفل ، واستوجب هذا عناية خاصة منا بالطفل ، ومن الطبيعى ان هذا المعدل بالرغم من انه عام الا انه يتغير نسبيا بين الجنسين ، كما يتغير فى كل جنس منهما من مكان الى آخر ، فنعلم مثلا ان مرحلة المراهقة تبدأ فى بعض المناطق مبكرة عن غيرها ، ذلك لأن المعروف ان النمو دالة للسن أى أن (ن = (د) س) وليس معنى ذلك انه يتوقف على السن وحده بل يتوقف على عوامل وراثية وبيئية كثيرة يمكن تحديدها الى حد كبير كالمرض والتغذية والعوامل النفسية وغير ذلك ، فاذا حدث لدى الطفل ما قد أدى الى تأخر نموه فى مرحلة معينة كانت مهمتنا بعد ذلك مهمة تشخيصية ، حيث يضع المشخص أمام عينيه جميع العوامل المحتملة ، وبطريق الحذف يستطيع ان يحدد نفسه في عدد من العوامل القليلة ، وبالرغم من ان هذه العملية التشخيصية تبدو سهلة هينة الا انها فى حقيقتها عملية شاقة ، حيث لا تتوفر لدى الاخصائى النفسى عادة المعلومات الكافية التى تساعد على رسم الصورة الكاملة ، ويصبح واجبه أولا تحديد الناقص ثم كيف يملأ هذه الفراغات الناقصة ، ففى بعض الاحيان لا يساعده التقدم العلمى الحالى لاكتشاف هذه الفجوات ، ويكون السبيل الوحيد الى ذلك هو استخدام البحث العلمى ، وقد يتطرق هذا البحث العلمى الى فروع كثيرة غير علم النفس كالطب والتربية والانثروبولوجى والاجتماع مثلا ، فمن علم الانثروبولوجيا عرفنا الكثير عن أثر نموذج التدريب في الطفولة على سرعة النمو وطبيعته ، وقد أمدنا علم الاجتماع بحقائق كثيرة عن العلاقة بين حجم الاسرة والعلاقات العائلية وخاصة بين الأخوة مما يؤثر على النمو نفسه ، ولما كانت التغيرات الجسمية والنفسية التى تحدث خلال فترات النمو ترتبط ارتباطا وثيقا بالتغيرات العضوية والوظيفية كان من اللازم دائما ان نلجأ الى الطب وعلم وظائف الاعضاء فى بحوثنا عن النمو ومسببات سرعته ، أما التربية فهى التى تتيح الفرصة لعامل النضج الوظيفى والعضوى لان يسير فى مجراه الطبيعى ، ويمكننا أن نقتبس هنا المعايير الشائعة الاستخدام وهى توضح الامكانيات التى يستطيع الطفل فى كل مرحلة القيام بها .

أولا ــ مرحلة الحضانة Infancy والطفولة الاولى Early Childhood (من الميلاد حتى ٦ سنوات) .

القدرة على المشى

القدرة على تناول المأكولات الصلبة

القدرة على الكلام

القدرة على التحكم فى التخلص من فضلات الجسم

ادراك الفروق الجنسية

احراز الاستقرار الفسيولوجى

تكوين المفاهيم البسيطة عن الحقائق الاجتماعية

القدرة على ادراك علاقته انفعاليا بوالديه واخوته وباقى أفراد مجتمعه .

القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ وظهور ما يمكن أن نطلق عليه الضمير .

ثانيا ــ الطفولة المتاخرة (٦ــ١٢ سنة) Late Childhood

اكتساب المهارات اللازمة للالعاب العادية

بناء اتجاهات عامة نحو نفسه باعتباره كائنا ناميا

تعلم التصرف مع زملائه من نفس عمره .

ادراك دوره كشخص مذكر أو مؤنث .

تنمية المهارات الاساسية للقراءة والكتابة والحساب .

تنمية المفاهيم اللازمة للحياة اليومية .

تنمية الضمير الاخلاقى وادراك مجموعة القيم الاساسية .

تحقيق الاستقلال الذاتى .

تكوين اتجاهات نحو الجماعات والمؤسسات الاجتماعية(٢) .

وقد ذكرنا أن هذه المعايير بغض النظر عن الفروق البيئية والفردية البسيطة نسبيا فهى واحدة وثابتة لجميع الاطفال فى كل سن ، وبهذا نستطيع أن نكتشف الانحراف فى كل طفل عن هذا المعيار، والبحث بالطرق العلمية عن الجوانب التى ادت الى هذا الانحراف ، ونعمل على علاجه سواء من الناحية الجسمية أو الانفعالية أو الاجتماعية . وينبغى أن ندرك ان هذه المظاهر المختلفة فى كل مرحلة مرتبطة متشابكة بحيث لا يتسنى لنا أن نعزل مظاهر النمو العضوى أو الجسمى عن الانفعالى أو الاجتماعى ، ولنضرب مثلا بسيطا على ذلك : لنفرض أن الطفل كان

حجمه فى سن معين زائدا عن المعدل بحيثيبدو اكبر من سنه فان مجرد كبر حجم جسمه هذا يجعله يعانى من مشكلات كثيرة انفعاليةواجتماعية فهو لا يستطيع أن يتكيف بسهولة مع الاطفال الذين فى سنه لانهم يعتبرونه اكبرمنهم ، ويجد هو نفسه حرجا في اللعب معهم، كما أنه لا يستطيع أن يتكيف بسهولة معالاطفالالذين يناسبونه فى الحجم ، ذلك لانهم سيكونون أكبر سنا ولهم ما يناسب هذا السن الكبير منالقدرات والميول والاهتمامات ، وهذه بطبيعة الحال لابد وأن تختلف عن خصائصه النفسيةوالاجتماعية ، مما قد يدفع به الى الميل للعزلة وتجنب الآخرين ، والسبب هنا مشكلةجسميةغاية فى البساطة كما تبدو .

• • •

الدراسة العلمية للنمو :

أن بداية الاهتمام بدراسة الطفل لم تأتمن اهتمام علماء النفس بالطفل نفسه بل من اهتمامهم بطريقة تربيته ومعاملته المعاملةالمناسبةلسنه وتتبع ما يظهر عليه من تقدم أو تأخر لجعل طرق تربيته تتمشى مع ما يظهر عليه منهذه المظاهر .

ومن أول المصلحين التربويين كان Johnn Amos Comenius الذى عاش في القرن السابع عشر والذى كان ينادى دائمابدراسة الطفل كما هو لا على اعتبار أنه رجل صغير وقد كتب كتابين اولهما المدرسة فى مرحلةالحضانة « الذى نشر في سنة ١٦٢٨ School of Infancyالذى وصف فيه نمو الطفلحتى السادسة من عمره .

وبعد كومنيس ظهر اتجاهان مختلفان فىدراسة الطفل : الاتجاه الاول كان متميزا بالمعالجات الفلسفية للتربية ، بينما كان الثانىمباشرا في دراسة الطفل عن طريق الملاحظة . ويمثل الاتجاه الاول لوك Loke فى انجلتراوروسو Rousseau فى فرنسا ، وبستالوزى Pestalozzi فى سويسرا ،وهربارت وفروبل فى المانيا . وقد كان الاتجاه الثانى اكثر فائدة فى دراسة النمو ، ولعل أولخيط في هذا الاتجاه ظهر فى سنة ١٧٧٤ وتمثل في مذكرات بستالوزى عن طفلة في سن الثالثةوالنصف ، وبعد ذلك فى ملاحظات تأيد مان Tidemann التى دونها عن أطفاله ،كما كانت ملاحظات Millicent Skinn التى ظهرت سنة ١٩٠٠ عن نمو طفلة ابنة أختهاخلال السنة الاولى من عمرها طريفة للغاية .

وببداية الدراسة العلمية للطفل التى قام بها Stanley Hall في جامعة كلارك Clark فى سنة ١٨٩١ اتجهت الدراسات بعد ذلك الاتجاهالعلمى ، واتخذت الاسلوب العلمى المبنى على الملاحظة الدقيقة المضبوطة ضبطا علميا ، واصبحالاهتمام الاساسى هو دراسة الطفل ذاته فى أعماره المختلفة وفى مواقفه المتباينة .

ومن ذلك يتضح أن دراسة وتتبع نموالطفل قد اتخذ أهدافا متعددة ، فبينما كانت الدراسة في أولها تهدف الى النهوض بأساليبتربية الطفل انحرف التركيز الى الاهتمامبالطفل

قبل مرحلة المدرسة بهدف الوصول بتدريبهعلى العمليات الجسمية والعضوية البسيطة الى أقصى ما تتيحه وسائل التدريب ، ثم تركزت الدراسة بعد ذلك فى معرفة الامكانيات الطبيعية (الفطرية) التى يزود بها الطفل فى مراحله الاولى بحكم فطرته وطبيعته ، حتى يمكن معرفة ما يمكننا بعد ذلك اكسابه من مهارات والى اى حد نسير معه فى عملية التدريب . كما ان من بين الاهداف الرئيسية التى اتخذتها دراسة الاطفال الصغار اكتشاف مدى صدق بعض النظريات السيكولوجية التى ظهرت فى هذا الوقت كنظريات Watson المتعلقة بالانفعالات الفطرية الثلاثه ، أو باكتساب الانفعالات عن طريق الاشتراط ، وغير ذلك من الجوانب العقلية من شخصية الطفل ، كثبات معامل الذكاء والعلاقة بين ذكاء الطفل وذكاء والديه ، والعلاقة بين ذكائه ومهنة الوالد وهكذا(٣) .

● ● ●

طرق دراسة نمو الطفل :

مما سبق يتضح أن دراسة نمو الطفل تنحصر فى :

١ ـ **الملاحظة الحالية لسلوك طفل معين** فى مرحلة معينة ، وقد تتبع هذه الطريقة فتتضمن ملاحظة عدة أطفال فى نفس المرحلة من العمر ، والخروج بسلوك متوسط تتميز به هذه المرحلة سواء كان ذلك فى الجوانب الحسية الحركية أم في النواحى الوظيفية العقلية ام فى النواحى الانفعالية .

٢ ـ **استرجاع نتائج ملاحظات سابقة** Retrospective Reports لطفل معين ، والحصول من هذه التقارير على مميزات كل مرحلة مر عليها الطفل .

٣ ـ **الاستجابات التى يحصل عليها الباحث من استبيان يملأه** الوالد أو الوالدة أو الاخوة أو الافراد الذين يحتكون بالطفل غالبا كالمربية او احدى القريبات .

وسواء استخدم الباحث وسيلة أو غيرها من هذه الوسائل فان دراسته لابد أن تكون واحدة من نوعين :

أ ـ **الدراسة المستعرضة** Cross-Sectional حيث يضم الباحث عدة دراسات تخصص كل منها فى جانب معين من جوانب الشخصية ونخرج من هذه الدراسات بمميزات مرحلة من المراحل ، تضم الجوانب الجسمية ـ الحركية والجوانب الوظيفية والنمو الانفعالى ومختلف مظاهر النمو ، ويتكرر ذلك في كل مرحلة ، وبذلك يخرج الباحث بصور متتابعة لشخصية الطفل ، والمهم فى هذه البحوث أن تكون العينات التى تدرس عينات ممثلة تمثيلا احصائيا صادقا لمجتمع الدراسة ، وبجمع نتائج هذه الدراسات التى اجريت على عينات مختلفة يمكننا أن نتخلص من الآثار البيئية بقدر الامكان فى المجتمع الواحد .

وبالرغم من المزايا العديدة لهذا النوع من الدراسات ، واتباعها المنهج العلمى السليم بقدر الامكان الا أن لها مثالب لا يمكن أن نغفلها ، فهى لا تعطينا الا صورة تقريبية للنمو وتتابعه، ولا يمكن أن نصل بها الى صورة دقيقة للنمو في بيئة محددة ، فاذا أردنا أن ندرس النمو الذى يطرأ على سن الرابعة عشرة مثلا فلابد أن تتضمن العينات الأولاد والبنات فى اماكن مختلفة قد يختلف فيها النمو الجنسي والعضوى مع مايتبع ذلك من تغيرات نفسية ، والنتائج التى نحصل عليها فى هذه الحالة لا تنطبق على نتائج دراسة النمو لهذه المرحلة فى مكان معين ولجنس معين فهى لا تأخذ فى اعتبارها الاختلافات البيئية التى تحدث خلال حياة الفرد الواحد من مرحلة لمرحلة أخرى .

كما أنها لا تدلنا على سرعة التغير فى مهارة معينة من مهارات الشخصية ، ولنأخذ مثلا مهارة استخدام اطراف الاصابع وتطور هذه المهارة من الميلاد حتى نهاية السنة السادسة فان الدراسة المستعرضة لا تصل فى تفاصيلها والدقة فى دراستها الى تتبع مظهر دقيق من مظاهر التغير ، كما أن هذه الدراسة لا تدلنا على الوقت الذى يزداد فيه تطور هذه المهارة والفترة التى تبطىء فيها .

ب ـ الدراسة الطولية Longitudenal وتتضمن هذه الدراسة فحص مجموعة من الاطفال عدة فحوص في فترات مختلفة متتابعة هى اقسام فترة الدراسة التى يخططها الباحث لنفسه قبل بحثه ، وهذه الدراسة اذا توخت الدقة كانت حريصة على الحصول على نفس افراد العينة من الاطفال خلال نموهم ، ولكن الباحث كثيرا ماتضطره ظروف بحثه الى التنازل عن هذا الاشتراط فيأخذ عينات مختلفة فى المراحل المختلفة في نفس الوقت الذى يجرى فيه البحث مفترضا فى ذلك افتراضا فيه مغالطة كبيرة وهى أن العينات المختلفة تعادل في خصائصها نفس العينة الاولى عندما تصل الى نفس سنها ونفس مرحلة العمر التى تمر بها الآن ، وبذلك يتغلب الباحث على عامل الوقت الطويل الذى كان يمكن أن تستغرقه الدراسة الطولية لو سارت كما يجب ، وتضمنت الدراسة نفس العينة فى مختلف اعمارها ، وفى هذه الحالة تستغرق الدراسة عشرات السنوات ، وعلاوة على ذلك فان الباحث لا يضمن بقاء أفراد العينة تحت سيطرته وملاحظته المضبوطة دون تغير حتى في حالتهم الدافعية وتقبلهم لوضعهم موضع الدراسة طول هذه الفترة .

ولكن هذه الدراسة بالرغم من الصعوبات الآنفة تساعد الباحث على دراسة التغير فى ظاهرة او وظيفة معينة مهما كانت دقتها خلال فترة النمو ، ولهذا فنحن نفضلها وسنستخدمها فى هذا البحث ، ويعتقد كثير من الباحثين النفسيين أن هذه الطريقة هى المسؤلة عن وجود فجوات فى معرفتنا عن النمو فى الوظائف المختلفة فى مختلف المراحل ، لان الباحث عادة لا يستطيع أن يتتبع النمو خلال كل فترة صغيرة من فترات النمو بل يأخذ دراسته فى قفزات زمنية لابد أن يفصل بينها فترات مهما كانت صغيرة ، هى التى تخرج عن الدراسة ، وتظل هذه الفترة مجهولة مع ما قد يصاحبها من تغيرات قد تكون حاسمة فى دراسات معينة .

وبالرغم من أن هاتين الطريقتين همـاالطريقتان الرئيسيتان في دراسة النمو فان كلا منهما قد تتخذ الاساليب العلمية المناسبةللدراسة ، ومن بين هذه الاساليب العلمية : التجريب عن طريق التحكم فى العوامل المؤثرة ،وتثبيت بعض العوامل وتغير غيرها ، وطريقة التجريب على الحيوان على اساس ما بين نموالطفل الآدمى والطفل الحيوان من عوامل متشابهة ، أو الدراسة المقارنة بين الانسانوالحيوان فى مرحلة معينة من مراحل النمو ، كما يتبع بعض الدارسين طريقة عزل فرد اوافراد من العينة للتخلص من بعض العوامل البيئية والاجتماعية ، وهذه تتبع بدرجةأكثر مع الحيوان لصعوبة تطبيقها على الانسان . ومهما كان أسلوب الدراسةفيجب الا نسقط من اعتبارنا الفروق الواسعة بين تغير الانسان والحيوان خلال انتقالهما منمرحلة الى اخرى ، وما قد يتخلل هذا التغير من اختلاف فىالنضج العضوى والبيولوجى ،وفرصالتدريب خلال الحياة وهذا الموضوع هو الذى سنعالجه في النقطة الآتية :

•••

النضج والتدريب Maturation and Learning (training)

قد نستنتج مما ذكر عن الاهمية الكبرىللنضج،الذىيتضمنظهور نماذجسلوكيةعلىالطفل مهما كان اسلوب التدريب الذى يلقاه من البيئة، ان واجب الوالدين لا يزيد عن انتظار حدوث عملية النضج كى تتم فى مجراها الطبيعى دونأن نتدخل فى استعجالها أو تحويلها ، والواقع يختلف عن ذلك كثيرا فالعوامل البيئية والتدريبالذى يتلقاه الطفل الصغير من بيئته يلعب دورا هاما في عملية النمو فالعمليتان تسيران معا ،ولكن يمكن تمييز احداهما عن الاخرى ، وعلى المربى فعلا أن يميز بين هاتين العمليتين ،فزارع النبات لابد أن يميز ما اذا كان سبب رداءة النبات راجعا الى ضعف فى البذره أوقلة الرعاية وسوء الظروف البيئية حتىيستطيع تحسين الناتج فى المستقبل . ولا يكفى الآن اننسلم بأن العمليتين تتفاعلان فى عملية النموبحيث نستطيع ان نرجع كل مظهر من مظاهر النمواليهما معا ، ولكن الاهم من ذلك ان نحدد طبيعة عملهما والى اى حد يؤثر كل منهما فى نموالطفل .

ويجدر بنا بادىء ذى بدء أن نبين انعملهمالا يكون على صورة الاضافة بل التفاعل التام ، بمعنى أننا لانستطيع ان نقول ان النمو= النضج + التدريب ولكن الأصح ان نقول ان النمو = النضج × التدريب ، وذلك لانه اذاانعدم أحد الاثرين فان الناتج ينعدم تماما ويختفى النمو .

فالطفل الرضيعيكون لديه الطاقة الطبيعيةلان يحبو على الارض فى وقت معين ، ولكن عملية الحبو فى هذا الوقت لن تتم بنجاح الا انوجد الطفل امامه فسحة من ارض وكانت لديه حرية الحركة فى وقت من أوقاتة نموه ، والطفلتكون لديه القابلية في وقت معين لينطق ببعض حروف ويستخدم حنجرته فى اظهار الاصوات ،ولكنه يحتاج في هذا الوقت الى عملية التشجيع

والتدريب من المحيطين به حتى تتم عملية الكلام والتحدث بطريقة سلسة وفى تيارها الطبيعى . ويمكننا أن نلخص هنا القواعد التى يتم عليها التفاعل بين العمليتين فيما يلى :

(١) ان التدريب الذى يلقاه الطفل من البيئة التى تحيط به هى الوسط الذى تعمل فيه الامكانيات الطبيعية التى يزود بها الطفل والتى تنضج لديه في سن معين .

(٢) كلما كانت الظروف المادية التى تحيط بعملية التدريب مناسبة أسرع النمو وكانت نتائجه أكثر ضبطا واتقانا .

(٣) بالرغم من ان عملية النضج تتم طبيعيا فان عوامل التدريب قد تعطل من اثر هذه العملية .

ولكن هذا التعطيل غالبا ما يكون محدود التأثير وكامنا ، بحيث اذا أعطيته الظروف المناسبة عادت سرعة عملية النضج الى طبيعتها ، بل قد تعوض الفترة التى ادت الى تعطيلها من عدم اتاحة الظروف المناسبة .

ولقد لخص جيزيل Gesell هذه القواعد فى جملة واحدة حيث يقول(٤) :

« ان النمو الداخلى هبة من الطبيعة ، فنحن يتسنى لنا ان نوجهه ولكننا لا نستطيع ان نخلقه . كما اننا لا نستطيع ان نمنعه بأية قوة بيئية » . ومعنى هذا ان عملية التدريب وماتحدثه من توافق انما هى محدودة بالخصائص الذاتية والداخلية للكائن الحى الذى ينمو . وينبغى مراعاة هذا فنيا فى عمليات التربية والتدريب والتوجيه التعليمى ، حيث أن قدرا كبيرا من الافساد لطبيعة الطفل تحدث عندما ندفع بالطفل دفعا لعملية لم يستعد لها ولا تناسب خصائص نموه وامكاناته النفسية في هذه المرحلة التى يمر بها ، وهذا ما أوضحه جيزيل فى تجاربه العديدة على الاطفال العاديين والتوائم . والقدرات الجسمية الحركية تخضع لهذا التفاعل بين النضج والتدريب ، فبالرغم من ان الاطفال فى بعض البلاد كانوا يقيدون فى حركاتهم برباط محكم أثناء فترات حياتهم الاولى الا أنهم يلحقون بغيرهم من الاطفال الآخرين عندما تترك لهم فرصة الحركة العادية .

واذا قلنا ان التدريب يتيح للامكانيات الطبيعية الفرصة لأن تعمل فى أعلى حدودها فاننا نفترض عادة وجود حد أعلى لكل وظيفة من وظائف النمو يمكن ان تصل اليه ، ولكن هذا افتراض فقط . ولكننا لابد وأن نعترف بأن التدريب له اثره الفعال فى نتائج عوامل النضج، فالأطفال الذين يربون فى مؤسسات فى سنواتهم الاولى يظهر تأخرهم عندما تحل مرحلة انطلاق القدرة على الكلام حيث يبدو تأخرهم في هذه المهارة عن الأطفال العاديين بدرجة ملحوظة الى أن يسير تفاعلهم الاجتماعى سيرا عاذيا فتتحسن قدرتهم على التعبير والانطلاق اللغوى والى ان يستردوا امكانياتهم الطبيعية فى ذلك .

ولعل النقطة الأساسية في عملية التفاعل بين التدريب والنمو تنحصر فى عملية التوقيت ، فالتدريب لا يجدى اذا بذل في مرحلة سابقة على مراحل النضج . فالامكانيات الفسيولوجية

ينبغى أن تكون معـدة قبل ان تظهر القـدرةالعقلية ، ومعنى هذا أنه بالرغم من ان الوظيفة والتكوين الجبلي يعملان جنبا لجنب وفى تفاعل تام الا ان التكوين الجبلي ينبغى ان يسبـ الوظيفة ، وهذا ينطبق على المهارات الحركية ،والمهارات العقلية والسلوك الجنسى على حـ سواء . فالأطفال الصـغار لا يمكن ان يكتسبوامهارة مبينة على فعـل منعكس شرطى الا اذا كانت مرحلة النضج في الجهاز العصبى مهيأةلذلك مهما اكسـبناهم من تدريب ، وقـدر الرضيع على قبض الاشياء بيديه لا يجدى معهاالتدريب قبل ان يكون هو معدا لذلك .

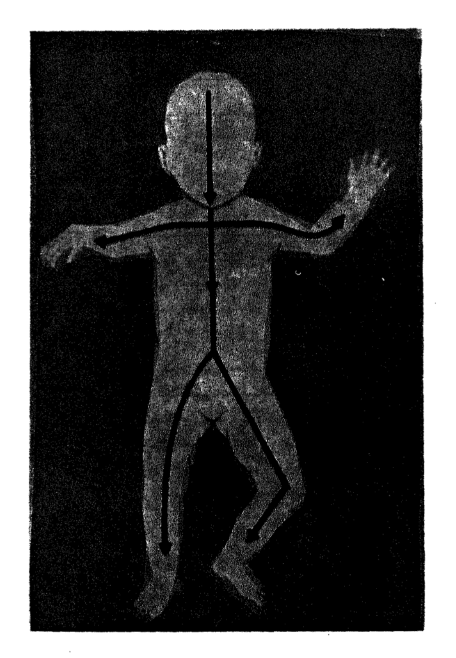
ولعل الصـعوبة تنحصر في تحديد السنالمناسب تماما بوجه عام فى جميع الاطفال في سن معينة لكى يجرى التدريب معهم،وذلك لسببين:السبب الاول هو اننـا لم نسـتطع حتى الآن الوصول الى تحـديد علمى للسن الذى يتم فيهنضج الوظائف الجسمية والعقلية وذلك لوجود الاختلافات الواسعة والفروق الفردية والبيئيةبين الأطفال ، وثانيا بسبب الافكار غير الصحيحة التى سادت تربية الطفل فترة من الزمن والتىلازالت مؤثرة على المربين ، ومؤداها ان كلطفل ينبغى ان يكون قادرا على التعلم اذا دخـلالمدرسة او اتيحت له فرصـة التدريب المثمر. والواقع ان هذا يتوقف على امور ثلاثة :

(١) اهتمام الطفـل بالتعليم واحـرازالتقدم مهما كان صغيرا .

(٢) مدى بقاء هذا الاهتمام ودوامة لدىالطفل .

(٣) مدى التقـدم الذى يحرز نتيجـةللتدريب والتعلم ، وهـذه العـوامل ينبغى ان تكون متوفرة جميعا عندما تحل مرحلة الوصولالى النضج فى المهارة التى يقوم المربى بتدريبها لدى الطفل .

وبالرغم من الأثر الواضح لتفاعل التدريبمع النضج فان النمو عادة يتخذ نموذجا عاما فى تقدمهمعوجود الفروق الفردية التى اوضحناها.والمراحل التى يمر بها النمو فى جميع الاطفـال لا تختلف كثيرا من طفل الى طفل فى بيئة معينة.ويكون اثر هذا التفاعل فى حدود السياق الذى تشترك فيـه جميع الأطفال في معالمه . فالنمومثلا يتنقل من الخصائص العامة الى الخاصة ، فالدراسـات العلمية قد أوضحت ان الطفـلالصـغير يتعلم أولا الكلمات العامة قبل الكلمات الخاصة،والجنين قبل الولادة مثلا يحرك جسمهكله اولا قبل ان يستطيع ان يحدث استجابات محددة ، وحتى فى الجانب الانفعـالى : فانانفعالات الطفل الصغير تبدأ عامة ثم تتميز بعد ذلك الى انفعالات محددة وهكذا . كما أن النمويبدأ بالاجزاء القريبة أولا ثم يتدرج الى الأجزاء البعيدة وهذا ما يطلق عليه Propimodistal Law ويمكن ان نطلق عليه القانون التقـاربى اى يبدأ مثـلا من المحور المركـزى للجسم الىالأطراف البعيدة ، وينطبق هذا على النموقبل الميلاد حيث ينمو الرأس والجذع قبل ان تظهرمبادىء الاطراف وحتى في الناحية الوظيفيـة فان الطفل يستخدم ذراعيه جيدا قبل ان يستخدم يديه ، ويستخدم يديه قبل ان يستخدم أصابعه ويسيطر على حركاتها .



شكل (١) قوانين اتجاه النمو ، مأخوذة من (١٧)

ولعل ظهور الأسنان دليل آخر على ثبوت نمط التتابع والسياق فى النمو لدى الاطفال فبوجه عام تظهر الأسنان السفلى قبل العليا والقواطع قبل الاضراس وبوجه عام نستطيع ان نقول أن الاسنان التى تظهر اولا للطفل هى اولى الاسنان التى تستبدل بأسنان دائمة وهكذا وهذا ما يجعلنا نستطيع ان نرتب التطور السلوكى في مراحل عامة على النحو الآتى :

من ٤ أسابيع الى ١٦ اسبوعا يستطيع الرضيع السيطرة على عضلاته الحركية .

من ١٦ الى ٢٨ اسبوعا يستطيع الرضيع السيطرة على عضلاته التى تحمل راسه وتحرك ذراعه ، وهذا ما يجعله يبدأ فى محاولة الوصول الى الاشياء البعيدة عن جسمه .

من ٢٨ الى ٤٠ اسبوعا يسيطر على جذعه ويديه ، وهذا يمكنه من الجلوس والقبض والانتقال وتداول الأشياء بيديه .

من ٤٠ الى ٥٢ اسبوعا تمتد سيطرته الى ساقيه وقدميه والى أصابعه . كما انه يستطيع أن يقف ، وخلال السنة الرابعة يسال اسئلة كثيرة ، ويبدأ فى التعميمات وتكوين بعض المفاهيم المبسطة ـ اما في الحياة اليومية المنزلية ففى هذه المرحلة يبدأ فى الاعتماد على نفسه ويزيد هذا الاعتماد حتى نهاية السنة السادسة حين يبدأ بالتعامل مع بيئته حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة كما سبق ايضاحه .

ونظرا لأن هذا البحث يتعلق بالنمو الجسمى لمرحلتى الطفولة فان التركيز سيكون على مرحلة الطفولة المبكرة التى تنحصر بين السادسة والثانية عشرة ومع هذا فلا يمكننا أن نتجاهل المراحل السابقة وهى ما قبل الميلاد ومرحلة الرضاعة والحضانة بالقدر الذى نوضح به تأثير هذه المراحل على مرحلتى الطفولة . الا ان دراستنا ستكون طوليه فنتتبع مظاهر معينة منذ الولادة حتى نهاية الطفولة دون تقسيم لهذه المراحل فى هذا التتبع ولكننا سنفرد جزءا خاصا موجزا عن مرحلة ما قبل الميلاد نظرا لتميزها وارتباط مظاهرها ارتباطا يضطرنا الى دراستها كوحدة متكاملة .

• • •

مرحلة ما قبل الميلاد *

منذ القدم تداولت افكار اغلبها خرافية عن تأثير خبرات الأم على تطور الجنين فى بطنها، فنواحى الشذوذ الجسمى والعقلى فى الطفل كانت تعزى لتأثير دم الأم ، ولكن الآن بعد أن أوضح العلماء أن دم الطفل ودم الأم لا يختلطان، واتضح ان دم الجنين انما يتكون من الاوكسجين

* المعايير الخاصة بالنمو المذكورة فى هذا البحث مستمدة من

HURLOCK, E.B. : Child development M.C. Graw-Hill Book Company

والماء والمواد الغذائية التى تمتص الى دمالجنينعن طريق تركيب يشبه المصفاة تعدل الرأى السابق . وقد اتخذت دراسة الجنين أساليبمتعددة يمكن تلخيصها فى :

(١) التقارير التىتقدمها الأم عن تحركاتالجنين .

(٢) صوت ضربات الجنين والحركاتالتى يمكن تتبعها بأدوات تتصل ببطن الأم .

(٣) الملاحظة المباشرة لأجنة اخرجتعن طريق العمليات الجراحية من بطونأمهاتهم .

(٤) دراسات الأجنة فى الحيوان .

ولسنا بصدد توضيح لعملية الوراثة فى هذاالمجال لشرح التكوين الكروموزومى للجنين بما فيه من مورثات ، كما لا تعنينا ايضاالأساليبالموضوعية والعلمية لتحديد جنس الجنين قبل الولادة ، ولكن الذى يعنينا ما يتصل بما يكونعليه الجنين عند ولادته مباشرة . فبمجرد أن تلقح البويضة بالحيوان المنوى الذكرى يبدأالنمو ويتطور من خلية واحدة الى طفل قد يصل تكوينه الى ٢٠٠ بليون خلية من انواع مختلفة ،يتم هذا كله خلال تسعة اشهر في المعتاد ،ويظهر التغير من خلية مفردة ليس لها قدرة فى ذاتهاالى طفل يتكون من عظام وعضلات وجلد وأعضاء داخلية وجهاز عصبى مستعد للعمل حتىقبل الميلاد . وتدل البحوث على ان النمو لايتخذ فقط صورة ظهور اعضاء جديدة بل قيامالجسم بوظائف جديدة كذلك بحيث يبدو النشاط على الجنين متخذا صورا مختلفة .

وقد وجد أن بعض الأجنة تكون نشطةخلال ٧٥٪ من وقتها ، بينما نجد ان بعضهاالآخر لا يملأ نشاطها اكثر من ٥٠٪ من وقتها .وبعضالأجنة تدير راسها ، وقد بينت الدراسات أن الحركة في كل اجزاء الجسم تحدث فى أوقاتمحددة يمكن التنبؤ بها على قدر من الدقة ، وقد تبين انه حتى في حالة الأطفال الذينيولدون عن طريق عملية جراحية فان الحركة تسير تبعا لنفس النمط وهى تشبه حركةالدودة بانقباض الاذرع والساقين . ويمكن تقسيم حركة الوليد الى نوعين .

(١) نشاط عام يتضمن جزءا كبيرا منالجسم .

(٢) افعال منعكسة أكثر تحديدا ،وحركةالوليد تتوقف على عوامل كثيرة فبعد الولادة مباشرة تقل الحركات فى الدقائق الخمسةالأولى ثم تزداد تدريجيا حتى الدقائق الثلاثين الأولى .وقد وجد انالاطفال الذين كانت حركتهمزائدة وهم في بطون أمهاتهم يكتسبون بعض المهارات الحركية فى وقت اسرع بعد ميلادهمعن الأطفال الذين كانت حركاتهم قليلة ، وعلى العكس بالنسبة للتوافق مع البيئة الخارجيةفالأجنة الكثيرو والحركة يجدون صعوبة أكثر من الأجنة قليلى الحركة فى توافقهم مع بيئتهم،وهناك دراسات عديدة تدور حول أثر طريقة الولادة على نمو الطفل الجسمى والعقلى بعدذلك ولكن اغلبها غير مؤكد ، اللهم الا اذا كانت الولادة العسرة قد احدثت فعلا تلفا فى دماغالطفل نتيجة استخدام الادوات الميكانيكية في اخراج الطفل . فقد وجد وايل وديفز Wile, S. and R. Davis أن الأطفال الذين يولدون

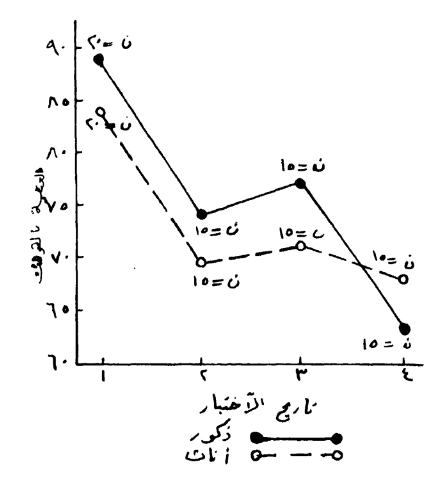
بمساعدات ميكانيكية تظهر عليهم زيادة الحركةعن المعتاد وعدم الاستقرار ، ثم فى كبرهم يجدون صعوبة فى النطق وفى تركيز الانتباهأكثر من غيرهم ممن يولدون بالطرق العادية ، الا انه لا يؤكد ان هذه النتائج المتأخرة تعزىحتما الى اسلوب الولادة ، وبوجه عام فان مشكلة تلف الدماغ أثناء الولادة ليست شائعةلدرجة تستحق معها معالجة نظرية خاصة . فنسبة من يولدون بتلف في ادمغتهم لا تتعدى٥ر٧ ٪ من الأطفال الأحياء .

ومن المهم ان نشير هنا الى ان نوعتغذيةالأم وكمية ما تتناوله من غذاء يؤثر فى حجم المولود ، فهناك علاقة بين حجم المولود وكميةالبروتين الذى تتناوله الأم أثناء الحمل كماظهر لدى كثير من الباحثين ، كما أن ميريديث Meredith يشير الى أن المولود الاول يكون أصغر حجما من المواليد بعد ذلك(٥) .

اما عن نشاطه فان حركاته تكون عشوائيةسواء كانت حركات كلية او جزئية ، فاذا استثير اى جزء من الجسم فى النوع الأول من الحركاتفان الجسم يتحول كله كجزء واحد ، وقد يكون اكثر شدة فى الجزء المستثار . والحركة فىهذه الحالة تكون غير متناسقة ويكون اكثراجزاء الجسم نشاطا هو الجذع والساقان،وهناك فروق فردية بين الأطفال حديثى الولادة فى كمية هذه الحركة . اما النوع الثانى فيتمثل فى حركاتخاصة كالتركيز البصرى علىالضوء ، والحركات التلقائية للعينين ، والحركات المنتظمة للفم ،والتثاؤب ، وتحريك ورفع الرأس ، والحركات العشوائية لليدين والساقين ، ومد الذراعينوالقدمين .

وعند الميلاد تكون أعضاء الحس مستعدةللعمل ، الا ان بعض هذه الاعضاء تكون أكثر اكتمالا ونشاطا من غيرها ، فحاسة الشم والذوقوالاحساسات الجلدية (كاللمس والضغط والألم والحرارة) كما أن الاحساسات العضوية(كالجوع والعطش) كل هذه تكون أكثر استعدادا للعمل قبل غيرها (مثل النظر والسمع) التىتتأخر قليلا ، كما ان الاحساس بالألم يزداد بسرعة بعد الميلاد بسرعات مختلفة فى مواضعمختلفة من الجسم ، فعتبة الالم تكون اقل فى الرأس عنها فى الأطراف ، وهناك فروق فرديةأيضا لدى الاطفال حديثى الولادة للاحساس بالألم كما يتضح من شكل (٢) .

تلك باختصار اهم المظاهر التى تهمنا فىدراسة هذه المرحلة التى تقودنا بعد ذلك الى دراسة الطفولة بمراحلها ، ولن نقسم الدراسةتبعا لهذه المراحل ، متبعين فى ذلك الطريقة العرضية بل نفضل فى هذه المعالجة الطريقةالطولية ، فسنتناول المظاهر والمهارات التى تظهر على الطفل واحدة واحدة متتبعين تطورهامنذ ولادته حتى نهاية طفولته ، مبينين السنة التى يظهر فيها كل تغير حتى تتضح معالمالتطورالذى يحدث فى هذه الامكانات كل على حدة وستدخل فى هذه الدراسة مرحلتا الرضاعةوالحضانة ، دون الحاجة الى فصلها وتمييزها وسنطلق على هذه المراحل معا الطفولة المتقدمةوالمتاخرة مندمجتين ، فتمتد الدراسة فى هذا الجزء لتشمل حياة الطفل من الميلاد حتى نهايةالسنة الثانية عشرة .



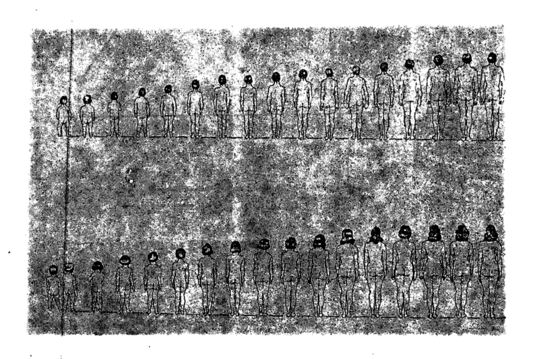
شكل (٢) الفروق الفردية في عتبات الألم عند الرضع الذكور والاناث مأخوذ من (١٩)

(الطفولة المتقدمة والمتاخرة)

دورات النمو : ينمو الطفل عادة فيدورات ولا ينمو بانتظام ، فالطفل مثلا يزداد وزنه عددا ثابتا من الارطال شهريا ، أو يزداد طوله عـددامن البوصات بانتظام في كل فترة . ولقد بينت دراسة النمو أن هناك أربع دورات للنمو اثنتانمنها تتميزان بنمو بطيء والاثنتـان الأخـريان تتميـزان بنمـو أسرع من ولادة الطفـل حتىاسـتقرار نموه في نهاية مرحلة النضج . وتتم منها مرحلتان حتى نهـاية الطفولة المتأخرة .فمن وقت ميلاد الطفل الى نهاية السنة الثانية تزداد سرعة النمو،يلى ذلك فترة من النموالبطيءتتم في نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة حوالى السنة الثانية عشرة .

وينطبق هذا على النمو بوجـه عام كماينطبق على الاعضاء الخاصة واجزاء الجسـم المختلفة ، فالنمو بها يتم على دورات منتظمةوثابتة كذلك .

فلكل عضو أو جزء من الجسم فترة خاصةمن النمو السريع أو البطيء ، وكل منها يصل الى حجمه الناضج في وقت خاص به وهـذهالظاهـرة **يطلـق عليهـا « النمـــو المنفصـل** Asynchronous growth **وبالرغم من ان هناك معامل ارتباط موجب بـين نماذج النمو فى الاعضاء** المختلفة أو فى العظام فان فى كل مجال منمجالاتجسم الطفل تباين كبير فى سرعة وبطء النمو



شكل (٣) مميزات الفروق الجنسية فى النمو الجسمي ماخوذة من (٧) ويتضح فى الشكل دورات النمو فى الجنسـين

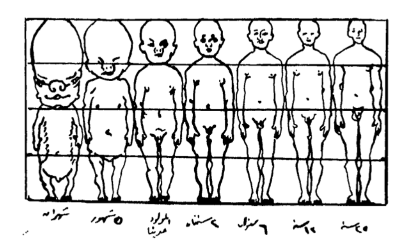
في اية مرحلة من مراحل الطفولة . ويبدو هذا بوضوح أكثر في مرحلة المراهقة كما يتضح من شكل (٤) .

ولقد أوضحت منحنيات النمو المتعلقة بطول القامة والوزن أنه اذا استثنينا السنة الاولى من العمر فان نمو الوزن يسير بسرعة أكبر من نمو الطول كما يتضح من شكل (٥) . وفي المراحل الأخيرة من الطفولة (الطفولة المتأخرة) فان الاطراف تنمو أسرع من الجذع ، لدرجة ان الطفل في هذه المرحلة يبدو وكأنه لا يتكون الا من يدين ورجلين .

وتبدو قاعدة النمو المنفصل ايضا في الوجه، حيث ينمو الجزء الأسفل اسرع مما ينمو الأعلى ، وخاصة بين سن الخامسة والثامنة من عمر الطفل . كما بينت بحوث دجنز Duggins التي نشرها سنة ١٩٥٠ أن شعر الراس يزداد حجمه بانتظام خلال السنوات الثلاث الاولى من عمر الطفل ، ثم يسير النمو بدرجة ابطأ بعد ذلك(٦) .

كما أن هذه القاعدة تنطبق ايضا على العضلات والعظام والرئتين ، حيث تزداد نموا حتى مرحلة النضج بما يقرب عشرين مرة عن حجمها الأصلي ، بينما نجد أن العينين وحجم المخ وبعض الاعضاء الاخرى التي تكون اكثر نضجا في وقت الميلاد لا تزيد كثيرا عن حجمها خلال مراحل النمو .

وبالاضافة الى قاعدة النمو المنفصل نجد قاعدة اخرى تسير في اتجاه عكسي وهي قاعدة « اتجاه النمو » Developmental Direction فهناك اتجاه عام لنمو الوظائف والاعضاء المختلفة ، ففي جميع أجزاء الجسم نجد أن التغيرات في أجزاء الجسم لها قاعدة معينة ايضا ، فالتغيرات في نسب الجسم تكون طفيفة خلال الاشهر الستة الأولى من حياة الطفل ، ومن



شكل (٤) تطور ابعاد الجسم من الميلاد حتى النضج ماخوذة من (١١) ويتضح فيه بطء نمو حجم الراس وسرعة نمو الاطراف

هذا الوقت حتى نهاية النضج نجد ان حجم الراس ينمو ببطء والاطراف تنمو بسرعة والجذع ينمو بسرعة متوسطة كما ان المخ وملامح الوجه تنضج وتصل الى نهاية تغيرها في الحجم قبل ان تصل باقى الاعضاء واجزاء الجذع والاطراف الى هذه المرحلة من نهاية النمو .

ولنتناول الآن نمو أجزاء الجسم ومعالمه بشيء من التفصيل واحدة واحدة من وقت الميلاد حتى نهاية الطفولة المتأخرة دون أن نهتم بالتقسيمات الداخلية فى هذه الفترة حتى تتضح وحدة النمو وتكاملها في هذه الفترة التى تعتبر وحدة اساسية فى حياة الانسان ونفصلها فيما يلى :

أ ـ حجم الجسم وطول القامة والوزن.

ب ـ نسب الراس والوجه .

جـ ـ نسب الجذع .

د ـ نسب الذراعين والساقين .

هـ ـ العظام والعضلات .

و ـ الاسنان .

ز ـ الجهاز العصبى .

(أ) حجم الجسم : طول القامة والوزن

يتحكم فى نمو حجم الجسم الهرمون الخاص بالنمو Growth Hormone الذى يفرز من الفص الداخلى للغدة النخامية . فاذا كان افراز هذا الهرمون بدرجة معتدلة وفي الوقت المناسب فان حجم الجسم ينمو بدرجة معتدلة ويصبح الجسم عاديا مناسبا لمرحلة النمو التى يمر بها الطفل ، أما اذا قل افراز هذه الغدة عن المعتاد فان نمو حجم الجسم يتوقف قبل أن يصل الى نهايته المعتادة ولا يصل الطفل الى الحجم الذى تؤهله له امكانياته الوراثية ، اما اذا زاد افراز هذ الهرمون فان النمو يزداد عن طبيعته. ولا يتوقف حجم الجسم على هذا الافراز وحده بل يتعلق كذلك بافرازات غدد اخرى كالغدة الدرقية وغيرها .

اما فيما يتعلق بطول القامة فانه بالرغم من الاختلافات الواسعة التى توجد بين طول قامة الاطفال فى مرحلة معينة فان هناك نموذجا تتشابه فيه جميع اطفال المرحلة الواحدة . ويمكننا أن نضع هذا النموذج فى صورة معدلات ليعطينا صورة واضحة للنمو العادى للطفل العادى . فالمولود في وقت ولادته يبلغ بين ١٩ ، ٢٠ بوصة (نصف متر تقريبا) في طول القامة ، واثناء السنتين الأوليين تزداد سرعة نمو طول القامة حتى يصل فى الشهر الرابع الى ٢٣ بوصة أو ٢٤ بوصة (٦٠ سم تقريبا) وعندما يصل الطفل الى الشهر الثامن يصل

طول القامة الى ٢٦ أو ٢٨ بوصة (٦٥ ــ ٧٠سم) . وعند تمام السنة الاولى يرتفع الطول الى ٢٨ ــ ٣٠ بوصة (٧٥ سم تقريبا) . وفينهاية السنتين يصل طول القامة الى ٣٢ ــ ٣٤ بوصة (٨٥ سم تقريبا) . حتى يصل الى سنالخامسة يرتفع طول القامة الى ضعف ماكان عليه وقتالميلاد (متر تقريبا) ومن ذلك الوقتحتى مرحلة المراهقة نجد ان طول القامة يزداد ببطء بمعدل ٣ بوصات فى كل سنــة . ومــنالطبيعي ان يختلف طول القامة فى البنين عنه فى البنات ، فبما أن مرحلة المراهقة تبدأ في البنينمتأخرة عنها فى البنات قليلا (قد يكون الفرق ستة اشهر) فان طول قامة الولد غالبا ما تقلبوصة أو نصف بوصة عن البنت العادية ، كما ان هــذه المعايير لابــد وأن تختلف باختــلافالبيئات ، فقد تنخفض قليلا فى البيئات العربية عنها فى البيئة الامريكية التى أجــريت فيهــاهذه البحوث ، فالمنحنيان المرسومان في شــكل (٥) يمثلان تدرج الوزن والطول لاحد الاطفالالامريكيين .

والتنبؤ بطول قامة الطفل يمكن احرازهبقدر لابأس به من الدقة اليــوم باستخــدام الاشعة السينية لطول العظام ، وبالاضافة الىذلك فان قامة الطفل تميل دائما لان تــزداد زيادة مرتبطة بطول قامة الوالدين ،وبذلك نجدأن طول قامة الوالدين تصلح فى التنبؤ بطول قامة الطفل . وقد وجد بايلــى Bayley أنمعامل الارتباط بين طول قامة الطفل وطــول قامة والديه يزدادكلما نما الطفل وازداد عمره،وهذا يزيد من قيمة التنبؤ مع ازدياد مرحلةنمو الطفل (٧) .

اما عن الوزن فــان وزن المولــود عنــدالميلاد يتراوح بين ٦ و ٨ أرطال (مايعادل ٣ أو ٣١/٢ كيلو جرامات تقريبا) ، وقــد يقــلالوزن كثيرا عن ذلك فى حالة بعض الاطفال ، فقد يصل الى نصف ذلك بينما قــد يصــلالبعض الى ضعف ذلك ، ولكن هذا الاختلاف في وزن الاطفال قد يسير بنفس النظام بعــدذلك . ففي نهايــة الشهر الخامس نجــد ان الرضيع العــادى لا ينحصر نمــوه في تعويضالوزن الناقص اثناء الميلاد بل يستطيــع ان يضيف عليه بقدر اضافى من النمو ، ففى نهايةالشهر الرابع تجد أن وزن الرضــيع العــادى يعادل ضعف وزنه عند الميلاد . وفى نهاية العامالاول نجد أن الوزن قد بلغ ثلاثة اضعــاف هذا الوزن عند الولادة . وفى خلال العام الثانىوالثالث نجد انه يكتسب من ٣ الى ٥ ارطال سنويا ، الا ان الوزن بعد السنة الثالثةيتزايدببطء نسبيا الى ان يبلغ الطفل بداية المراهقة ، ففى نهاية السنة الخامسة ينبغى ان يصــلوزن الطفل الى خمسة اضعــاف وزنه عنــد الميلاد ، وفى بداية المراهقة أو عند نهاية مرحلــةالطفولة المتأخــرة يتراوح الوزن بين ٨٠ و ٩٠ رطلا (مايقرب من ٤٠ كيلو جراما) .

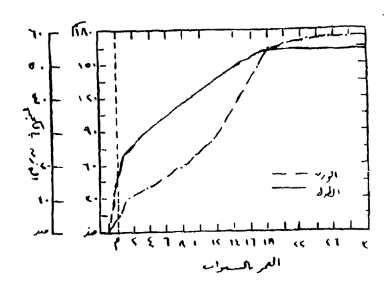
يزداد وزن البنت قليلا عند بداية المراهقةاو نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة ، حيث تزن فى المتوسط ٨٨ر٥ رطلا بينما يقل الولد العادى أقلمن ذلك بثلاثة ارطال تقريبا .

والمعايير التى توضع لكل طفل فى أية مرحلةتتوقف الى حـد كبير على البنيان الجسـمى Body built ويمكن تقسيـم هذا البنيـانالجسمي الى ثلاثة انواع :

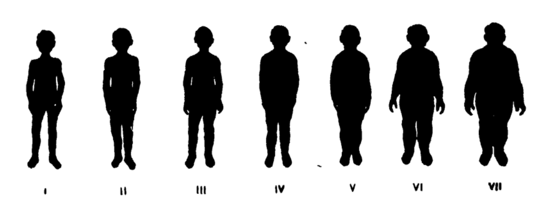
١ ـ النوع المكتز Endomorph ويتميزبجسم زائد السمنة .

٢ ـ النوع المفتول Mesomorph ويتميزبجسم ثقيل ومتين .

٣ ـ النوع الدقيق Ectomorph ويتميزبجسم طويل ملتف ذىعضلات ملتفة رفيعة نسبيا وعظام طويلة ورفيعة .



شكل (٥) منحنى نمو طول القامة والوزن . ماخوذة من (١٨)



شكل (٦) انواع البنيان الجسمي مدرجة (I) النوع الدقيق جدا (II) النوع الدقيق (III) النوع الدقيق نوعا (IV) النوع المفتول (V) النوع المكتنز نوعا (VI) النوع المكتنز (VII) النوع المكتنزجدا الرسم ماخوذ من (١) .

وازدياد الوزن أثناء النمو لا يتوقف على ازدياد نسبة الدهن في الانسجة بل يتوقف أيضا على ازدياد حجم العظام وانسجة العضلات . أما في مرحلة الحضانة فان الازدياد في الوزن يرجع أساسا الى ازدياد الانسجة الدهنية ، نظراً لازدياد كمية الدهن في اللبن الذى يعتبر الوجبة الاساسية في هذا السن ، وكلما نما الطفل وتقدم في مراحل نموه فان وزنه يرجع الى نسبة العظام والعضلات أكثر من الانسجة الدهنية . وفي المراحل المتأخرة من الطفولة تقل أهمية الانسجة الدهنية عن ذلك حتى تصبح مسئولة عما يقرب من ٢١ الى ٢٩٪ من الوزن الكلي للطفل (٨) .

ب ــ نسب الرأس والوجه :

ينمو حجم الراس بسرعة اقل نسبيا من باقي الجسم منذ ولادة المولود . فعند الميلاد نجد ان طول الراس يبلغ ٢٢٪ من طول الجسم كله ، فاذا بقيت النسبة كما هى لاصبح طول الراس في نهاية النضج ما يقرب من ١٦ بوصة بدلا من ٨ أو ٩ بوصات كما هى في الواقع . فمن وقت الولادة الى نهاية النضج نجد أن طول الراس يبلغ ضعف ما كان عليه عند الميلاد بينما يبلغ طول القامة مايقرب من ثلاثة امثال ماكان عليه ، واذا رجعنا الى مساحة الراس وقت الميلاد وجدنا ان المساحة الكلية للرأس تبلغ ٢١٪ من المساحة الكلية للجسم ، بينما تصل نفس النسبة الى ١٣٪ بعد خمس سنوات و ١٠٪ عند نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة ، واذا فحصنا ابعاد الرأس وجدنا أن مؤخرة الراس تكون أكبر حجما من الجزء الوجهي من الرأس وتكون النسبة بين عرض الرأس وطوله أكبر منها في الاطفال عن الكبار ، فعرض الراس يكون قد وصل الى نهاية نموه عندما يصل الى الثالثة من عمره ، ولكنه يستمر في الزيادة في الطول حتى بعد نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة .

والنموذج الذى تتبعه زيادة الراس طولا وعرضا لايختلف في البنات عنه في الاولاد ، ولو أن راس الولد يكون عادة أكبر حجما قليلا من رأس البنت في جميع مراحل النمو تقريبا .

ولنتناول الآن نسبة الوجه بشيء من التوضيح : نلاحظ أن الجزء الاسفل من الرأس اثناء فترة الحضانة ومرحلة الطفولة الاولى يكون صغيرا وناقص النمو ، ويرجع ذلك أساسا الى صغر اسنان الطفل الصغير ، وتزداد نسبة الهيكل الوجهي الى الجزء الخلفي من الرأس من بداية الولادة حتى نهاية السنة الثامنة ، وفي هذه السن يختفي مظهر الطفولة الاولى نتيجة لذلك ، حيث تحل مرحلة نمو سريع بين سن الخامسة والثامنة وخاصة بين الاولاد أكثر من اى وقت آخر . ولولا حدوث هذا التغير في نسبة الوجه لأصبحت العين في منتصف الوجه .

وبانتقال الطفل من مرحلة الرضاعة الى مرحلة الاسنان الدائمة تزداد المواءمة بين الفكين العلوى والسفلى ، وتصبح أسنان الفكين أكثر انطباقا ، وهذا يؤثر بطبيعة الحال على شكل الوجه في الطفل ، وسوء المواءمة بين الفكين قد ينتج من عدم انتظام في نمو الفكين أو الاختلاف بين حجم الاسنان العليا والسفلى ، أو عن طريق مص الاصابع وخاصة قبل سن الخامسة ، أو التنفس عن طريق الفم أو الضغط على الذقن وخاصة في النوم على الوجه أو عض اللسان في مراحل الرضاعة .

وقد يؤثر سوء المواءمة بين الفكين على طريق المضغ عند الصغير وبذلك يؤثر على عملية الهضم، وبالرغم من أن هذا المظهر قد يتحسن مع تقدم النمو الا أن العلاج التصحيحي قد يكون لازما فى مثل هذه الحالات حتى تنمو لدى الطفل معالم صحيحة للوجه مع وجود الاسنان والذقن في نسبها المعتادة، وخطوطها المعتدلة.

وبتقدم النمو تحدث تغيرات فى معالم الوجه وشكله، فمنذ البداية تكون مقدمة الوجه كبيرة مستديرة وبارزة، ثم تصبح مسطحة تدريجيا، وتقل فى الحجم بالنسبة الى باقي الوجه حتى يصل الطفل الى الخامسة من عمره، وتبلغ العينان حجمهما الاقصى كلما اقترب الطفل من نهاية مرحلة طفولته المتأخرة، وتتباعد العينان بعضهما عن بعض، كما أن الشفتين الرفيعتين تزدادان امتلاء حتى تصلان الى شكلهما الثابت عندما ينضج الطفل جنسيا.

ولعل الانف هو العضو الذى يبدو فى الطفولة أقل تناسبا عن باقي اجزاء الوجه، فهو يكون فى البداية صغيرا واكثر انبساطا وتسطحا على الوجه، ومن سن الخامسة الى العاشرة ينمو بسرعة اكبر من أى جزء آخر بالوجه، وينتج عن ذلك أن الانف هو أول اجزاء الوجه التي تصل الى نهاية نموها، وهذا يحدث فى حوالى الرابعة عشرة.

ونلاحظ انه كلما نمت اعضاء الوجه وقربت من نهاية نضجها يزداد الوجه تحددا وتثبت ملامح الوجه مع تقدم النمو (٩ و ١٠). (راجع شكل (٤) فى هذا البحث).

(ج) نسب الجذع

ان زيادة وزن الطفل اثناء نموه تؤدى طبيعيا الى صعوبة اتزان الجسم ويجب العمل على تخفيفها قبل أن يتعلم الجلوس أو الوقوف أو المشى، فكلما كبر الطفل فان التغيرات فى نسب الجسم اللازمة لحصوله على الاتزان المناسب تتحقق عن طريق استطالة الجذع والساقين والرقبة، واذا وصل الطفل الى سن السادسة فان طول جذعه وعرضه يصل الى ما يقرب من ضعف طوله وعرضه عند الميلاد، ومنذ ذلك الحين حتى البلوغ فان طول الجذع يزداد بما يقرب من ٥٠٪ مما كان عليه، ورقبة الطفل في مرحلة الرضاعة تكاد لا توجد، حيث يستند راسه تقريبا على كتفيه، وبالتدريج في مرحلة الطفولة الاولى تظهر له رقبة قصيرة ممتلئة تتصل بكتفيه المنحدرين. وحوالى سن الخامسة تبدأ الرقبة فى الاستطالة وتبدو اكثر استدارة، بينما يأخذ الكتفان في ان يكونا اكثر عرضا واكثر ثباتا، وكلما انخفض الكتفان مع استطالة الرقبة فان وزن الطفل يزدادا تناسقا وتوزعا على انحاء جسمه.

كما أن شكل الجذع ايضا تحدث به تغيرات سريعة، ففى السنة الاولى يكون جسم الطفل اكثر سمكا من أى مرحلة أخرى ويرجع ذلك الى الزيادة الكبيرة فى المحيط العرضى عن الطول. وحتى سن الرابعة أو الخامسة يكون شكل الجذع شبيها بالكيس حيث لا يتميز فيه خط الوسط بشكل ظاهر، كما يكون الكتفان منحدرين ويكون الصدر مستديرا ويكون البطن بارزا مستديرا، ومنذ ذلك الحين حتى نهاية مرحلة الطفولة يحدث نقص تدريجى في كثافة وامتلاء

الجذع ، ويتجه الجسم لأن يأخذ الشكل المخروطي او الاسطواني المنبسط المنسق الذي يتميز فيه الوسط عن باقي الجسم . وفي هذا الشكل المخروطي فان الاكتاف تاخذ الشكل المستطيل المستعرض وخاصة عند الأولاد ، كما أن شكل البطن ينبسط ويقل امتلاؤه واستدارته وبروزه، ويصبح خط الوسط ظاهرا بشكل واضح، كما ان الحوض يصبح أكثر عرضا واقل استقامة .

وبطبيعة الحال فان شكل الجذع عند الكبار البالغين يتأثر كثيرا بالسن الذي تنضج فيه المظاهر الجنسية. فقوام الذكر الذي يتصف بعرض في الكتفين وضيق في المقعدين يظهر في الاولاد العاديين، والبنات اللواتي تبدو لهن أكتاف عريضة هن اللواتي يتأخر نضجهن ، وبوجه عام فانه بدون اعتبار للسن الذي يتم فيه النضج فاننا نلاحظ أن الشكل العام للجذع عند البنت يختلف عن الشكل العام لدى الولد ، فالاجزاء التي يتميز النمو فيها في الولد غالبا ما يقل النمو فيها عند البنت ، وتعتبر هذه المميزات في كل جنس دليلا على أن النمو عند كل منهما لم يتخذ مجراه الطبيعي ، وقد يحتاج الى العلاج الذي يعيد لكل فرد من الجنسين الشكل المميز لجنسه ، وهذه الفروق بين الجنسين تختلف مرحلة ظهورها بشكل مميز باختلاف البيئة ، فهي عند الشرقيين تختلف الى حد ما عنها عند الغربيين وقد تقل او تظهر بشكل أوضح في بيئة عن غيرها(١١) .

(د) نسب الذراعين والساقين

ان التغيرات التي تطرأ على نسب الذراعين والساقين اثناء مراحل العمر المختلفة هي التي تعطي الجسم صورة الجسم البشري وتبعده عن الصورة الحيوانية . فعند الميلاد يكون ساقا الوليد قصيرين بشكل ظاهر بالنسبة لابعاد اجزاء الجسم المختلفة ، كما أن الذرعين يكونان زائدي الطول ، وتكون اليدان والساقان صغيرين نسبيا . فنحن اذا تصورنا انطباق نفس الوليد على الشخص البالغ فان ساقي الشخص البالغ تبلغان من القصر حدا يجعل مقعديه في مستوى يعادل مستوى الركبتين أو أعلى قليلا ، وهذا ما يوضح ضرورة اختلاف السرعة التي تنمو بها الأجزاء المختلفة من الجسم .

فالذراعان والساقان تنموان بمقدار ٦٠٪ الى ٧٥٪ من وقت الميلاد الى أن يصل الطفل الى سنتين من العمر ، وعندما يبلغ الطفل سن الثامنة فان الذراعين يزداد طولهما بمقدار ٥٠٪ على طولهما في سن الثانية . ونظرا الى قلة سمك الذراعين عادة لدى الطفل بالنسبة لجذعه فان النمو في عضلاتهما في الشخص العادي لا يكون ملحوظا ، ويكون للذراعين عادة شكل اسطواني عام في هذه المرحلة . وبعد سن الثامنة ينمو الذراعان نموا بطيئا في معدله بالنسبة لطولهما ، بينما نموهما في السمك يزداد بشكل اوضح نظر الازدياد عضلات الذراع في السمك والامتلاء .

اما الساقان عند المولود حديثا فتكونان قصيرتين متجهتين بطريقة تجعل بطن القدمين يتجهان كل منهما للآخر . وكلما نما الساقان ازدادا انبساطا واستقامة ، فعندما يصل الطفل الى سن السادسة ينبغي أن يكون الساقان والركبتان مستقيمتين لا اعوجاج فيهما ولا تقوس ،

وخلال السنتين الاوليين في حيـاة الطفل تنمو الساقان بمعدل ٤٠٪ من طولهما الاصلي ، وعندما يصـل الى سن الثامنة يزداد طـول السـاقين بمعدل ٥٠٪ من طولهما الاصلى عندما كان فى سن الثانية ، ومعنى هذا أن الساقين ينموان بمعدل أبطـأ من نمو الذراعين في بداية مرحلة الطفولة . واذا طبقنا ما ذكر عن الذراعين فان الساقين تبـدوان رفيعتين وأسطوانيتين حتى نهاية سن الطفولة ، وفى الوقت نفسـه عنـدما تبطىء سرعة نمو طول الساقين نجد أن الزيادة تتم فى النمو العضلى لهما وينتج عن ذلك تغير ملحوظ فى شكليهما . ونلاحظ أن الاطفال الذين يكون نموهما مبكرا عن الاطفال العاديين يميلون لأن يكون لهم سـاقان قصيران مختلفان عنـد تمـام نضجهما ، بينما نلاحظ أن الاطفال الذين يتأخر نموهم عن المعتاد عادة ما يكون لهم ساقان طويلان أسطوانيان .

واذا تعرضنا لليدين والقدمين وجدنا انهما لدى الطفل الرضيع ينموان فى الحجم كما ينموان ايضا في الناحية العضلية قبل أن يتم استخدامهما ، فخلال الطفولة الأولى والطفـولة المتوسـطة (المرحلة المتوسـطة بين سـنوات نهاية مرحلة الطفولة الاولى وبداية مرحلة الطفولة المتأخرة) نجد أن الاصابع تكون قصيرة بسبب النمو البطىء للعظام ثم يزداد نموها بعد ذلك حتى يصلا الى حجمهما العادى بعـد نهاية الطفـولة المتأخرة (حوالى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة) وهذا يحدث أيضا فى القدمين واليدين على حد سواء فى وقت واحد ، ويلاحظ أن الاولاد عادة تكون أقدامهم أكبر من أقدام البنات ، وتصل الى نهاية نموها متأخرة عن البنات ، ومن الطريف ان نعرف بأن البحوث قد دلت على وجود معامل ارتباط موجب بين حجم القـدم وطـول قامة الفرد (١١) .

(هـ) العظام والعضلات

ينحصر نمو العظـام في ازدياد حجمها وفى عددها وفى تكوينها ، وهذه المظاهر كلها تتبـع نفس السياق الذى سبق أن أوضحناه في ازدياد حجم الطفل ، ومعنى هذا ان النمو تزداد سرعته خلال السنة الاولى من العمر ، ثم تبطىء هـذه السرعة نسـبيا بعـد ذلك حتى نهـاية مرحلة الطفولة المتأخرة (راجـع شكل (٤) من هـذا البحث) .

ففى الشهور الاولى بعد الميلاد تكون انسجة العظام هشة واسفنجية التركيب ، كما انه تنشأ للوليد غضاريف أو اغشية سميكة فى الأماكن التى تظهر فيها العظام بعد ذلك ، وتكون عظام الوليد محتوية على مقـدار أكبـر من المـاء والموارد الشبيهة بالبروتين ، كما تحتوى على كميات أقل من المحتويات المعدنية عن عظام الشخص الكبير البالغ . كما نجد أن هناك تدفقا اكبر للدم وكمية من الأوعية الدموية وذلك لتزويد الطفل بالمواد اللازمة للنمو وتكون الاغطية الخارجية للطفل سميكة بالقدر الذى يمنع به حدوث الكسـور المركبة . وفى ذلك الوقت نفسـه تكون العظمة ضعيفة الالتحام ببعضها وعلى عكس ذلك كثيرا ما توجد فجوات بين نهايات العظام .

ويكون نمو العظام كما ذكرنا فى الطول من أطرافهـا حيث تتحول مواضـع الالتحام بين العظام بعضها ببعض الى مناطـق عظمية مـع تقدم النمو . ومع وصول الطفل الى نهاية الطفولة

المتأخرة وبداية المراهقة تتوقف العظام عن النمو. أما نمو العظام فى العرض فينتج عن اضافة انسجة عظيمة الى حافتها الخارجية فيتضخم السمك وتزداد العظام متانة . وازدياد المتانة والصعوبة لا يحدث الا بعد الميلاد ، ويتدرج من الجزء المتقدم من السنة الاولى حتى نهاية الطفولة المتأخرة وبداية المراهقة ، وينتج ذلك من تدخل عنصرى الكالسيوم والفسفور وبعض الأملاح المعدنية فى تركيب العظام كلما تقدم النمو .

أما ما يتعلق بالعضلات فانها تلعب دورا فعالا في تنظيم نمو الاعضاء الاساسية للجسم كالقلب وأعضاء الجهاز الهضمى والغدد ، كما انها المسئولة الاساسية عن قوة الجسم وتآزر النشاط. ففى وقت الميلاد تكون الألياف العضلية فى حالة غير ناضجة ، وهذا ما يجعل الوليد ضعيف القوة وقليل النشاط ، وبالرغم من انه لا تنشأ انسجة عضلية جديدة بعد الميلاد فان الانسجة الموجودة منذ الميلاد تتغير في الحجم والشكل والتركيب ، كما تزداد طولا وعرضا وسمكا وينتج عن ذلك زيادة فى وزنها .

ففى الشخص العادى نجد أن وزن العضلات يزداد من وقت الميلاد الى نهاية النضج ما يقرب من ٤٠ مرة . وحتى سن الخامسة فان نمو العضلات يتم بنفس نسبة وزيادة وزن الجسم عامة ، ومن الخامسة حتى السادسة تزداد سرعة نمو العضلات وفى هذا الوقت تبلغ زيادة وزن الجسم عموما ١٥٪ تقريبا من وزن العضلات فقط . أما بعد هذه المرحلة فان نمو العضلات يصبح بطيئا نسبيا، ولكن يتبعها مرحلة تتميز بسرعة النمو ، كما أنه مما يلاحظ كذلك أن العضلات فى الطفولة المبكرة تكون محتوية على قدر كبير من الماء وقدر قليل من الاجسام الصلبة والبروتينات اكثر مما يتوفر فى عضلات الشخص البالغ نسبيا . وبالاضافة الى ذلك فانها تكون اكثر رقة وأقل متانة فى اتصالها بالعظام ويصل سمكها عند تمام النضج الى ما يقرب من خمسة أمثال سمكها عند الميلاد . كما ان تكوينها يتحول من ٧٢٪ من الماء و ٢٨٪ مواد صلبة الى ٦٦ ٪ من الماء و ٣٤٪ موادصلبة في البالغ وينتج عن ذلك ان العضلات تصبح اكثر صلابة وثباتا ، فنجد أن الطفل تتولد لديه تدريجيا الدوافع القوية للقيام بالنشاط العضلى . وقد يدفعه ، وهذا مايحدث كثيرا ، الى التحفز وعدم الاستقرار فى الحالات التى يجد نفسه فيها عديم النشاط .

وكأى وظائف عضوية اخرى نجد أن هناك فروقا فردية واسعة فى القدرة العضلية لدى الاطفال ، فالافراد الذين يمتلكون العضلات العريضة السميكة يكتسبون قوة عضلية فائقة كما أن ذوى العضلات الصغيرة يبدون قدرا أحسن من التآزر فى أوجه النشاط العضلى وبينما نجد أن بعض الاطفال تتعب عضلاتهم بسرعة نجد ان البعض الآخر لهم عضلات لها قدرة كبيرة على التحمل والمشقة .

وتتوقف حالة عضلات الطفل جزئيا على امكاناته الوراثية وجزئيا على حالته الصحية فى الوقت الراهن وبوجه عام ، ومدى استخدامه لعضلاته ، فحتى فى الطفل الواحد نجد اختلافات فى حالة العضلات ، فهى بعد حالة المرض مثلا غير حالتها قبله ، حيث نجده بعد حالة المرض

سريع الاجهاد والتعب . وبالرغم من أن الفروق بين نمو العضلات في الجنسين لا تكون ظاهرة بالقدرة الكافى فى الطفولة فانها تبدأ فى الظهور بعد ذلك حيث تصبح عضلات الذكر أكبر وأقوى من عضلات الانثى منذ المراهقة (١٢) .

(و) الأسنان :

ينمو للطفل نوعان من الاسنان : اللبنية والدائمة ، وهذان النوعان يختلفان من نواح كثيرة .

(١) هناك عشرون فقط من الاسنان اللبنية ، بينما الاسنان الدائمة عددها اثنان وثلاثون .

(٢) يكون حجم الاسنان اللبنية أصغر من الاسنان الدائمة .

(٣) تكون الاسنان الدائمة أفضل جودة ونوعا من الاسنان اللبنية ، ولذلك تكون أكثر استدامة، وتبدأ عملية ظهور الاسنان منذ الشهر الثالث بعد الميلاد وتستمر هذه العملية فترة طويلة حيث تصل أسنان العقل الى نهاية حجمها من سن الواحدة وعشرين الى الخامسة وعشرين، ويكون ظهور الاسنان اللبنية مصحوبا بآلام قد تسبب للرضيع فقدا للشهية وقد تجعله قليل الاستقرار ظاهر العصبية ، بينما الاسنان الدائمة قد تبرز من اللثة دون أن تصاحبها أية آلام .

وفي المعتاد تظهر أولى الاسنان اللبنية بين الشهر السادس والثامن ولكن سن الظهور هذا يختلف من طفل لآخر ويتوقف على الصحة والاستعدادات الوراثية والتغذية قبل وبعد الميلاد . كما أن للجنسية والجنس وبعض العوامل الاخرى أثرها فى ذلك . وقد اتضح من الملاحظات العلمية أن الطفل العادى عندما يصل الى الشهر التاسع تكون ثلاثة من الاسنان اللبنية قد ظهرت له ، كما اتضح أيضا أن الاناث كقاعدة عامة يظهر السن الاول لديهن قبل الذكور ، ولكن بين الشهر التاسع والسنة الثانية فان الذكور يسبقون الاناث في ذلك .

أما ما يتعلق بالاسنان الدائمة فان الطفل العادى عندما يصل الى سن السادسة يكون لديه سن واحد أو اثنان ، ويزداد عددها الى ١٠ أو ١١ سنا عند الثامنة ، ثم من ١٤ الى ١٦ سنا فى سن العاشرة ، وفى الثانية عشرة قد تصل الى ٢٤ أو ٢٦ سنا ثم الى ٢٨ سنا حوالى سن الثالثة عشرة ، أما الاسنان الأربعة الاخيرة فهي أضراس العقل التى تظهر بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين وقد لا تظهر اطلاقا .

وقد تظهر حالات تسوس الاسنان حتى قبل ان يكتمل نمو الاسنان الدائمة ، وهذه الظاهرة تظهر بنوع خاص أثناء النمو السريع للطفل حيث تكون مطالب التغذية أكثر الحاحا ، وتكون اغذية الطفل من اصناف ينقصها التنوع المتزن ولذا تظهر كثيرا فى مرحلة المراهقة .

والمرحلة التى تفصل بين ازالة الاسنان اللبنية وظهور الاسنان الدائمة تمثل فترة تظهر فيها صعوبات فى نطق بعض الحروف، حيث يوجد عادة فراغ فى مقدمة الفكين يسبب صعوبة فى نطق بعض الحروف ويظهر ذلك من حديث الطفل، ولهذا فان معظم الاطفال يتعجلون ظهور الاسنان

الدائمة علاوة علىما يحدثه ظهور الاسنان الدائمةمن آثار نفسية على الطفـل ، فهى دليل على اتجاه النمو نحو الاكتمال(١٣) .

(ز) الجهاز العصبى

ان نمو الجهاز العصبى يكون سريعا قبلالميلاد خلال السنوات الثلاث أو الاربعة الاولى. وينحصر نمو الجهاز العصبى فى فترة ما قبـلالميلاد فى ازدياد عـدد وحجم الخلايا العصبية بينا ينحصر النمو بعد ذلك فى تطور ونضجالخلاياالتى لم تكن قد نضجت بعد عند الميلاد . وبعد سن الثالثة أو الرابعة يسير نمو الجهاز العصبيبسرعة بطيئة نسبيا .

أما ما يتعلق بنمو المخ فان دراسته دراسةمباشرة تصبح مستحيلة ، ولكن يمكن دراسته بطريقة غير مباشرة ، وتكون الدراسة تقديريةوليست دقيقة ، ويتم ذلك عن طريق فحص مخ الافـراد بعد الممات أو عن طـريق قياس ابعاد الجمجمة في حالة الحياة .

وتدل هذه الدراسات على أن نمو المخ يكونسريعا جدا من الميلاد الى نهاية السنة الرابعة، وتبطىء سرعة نموه بين الرابعـة والثامنـة منالعمر ، ثم يستمر النمو اكثر بطئا حتى حوالى سن السـادسة عشرة أى بعد مرحلة الطفولةالمتاخرة بكثير ، وعند ذلك يكون حجم المخ قـد وصل الى نهايته ، ونظرا لأن عظام الجمجمةتكون مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا غير وثيق عن طريق الاغشية خلال الشهور القليلة الاولى منالحياة فان فراغا كبيرا فى حجم الجمجمة يترك لنمو المخ .

ومن حيث وزن المخ فان وزن المخ يبلغ فيالمتوسط ٣٥٠ جراما ، بينما يتراوح وزن مخ البالغ الكبير من ١٢٦٠ — ١٤٠٠ جراما ، ولعلالنمو السريع فى حجم المخ خلال السنوات الاولى من الحيـاة هو أحد الأسـباب التى تؤدى الىاعطاء الجمجمـة وزنها الثقيل نسبيا وحجمهـا غير المتناسب .

ومهما كانت العلاقة بين نمو الاجزاء المختلفةمن المخ والنمو العقلى للطفل فان ملاحظة سلوك الاطفال تدل على انهم يكونون قادرين على التذكر وترابط المعانى بين الاشـياء والاشخاص ، وعلى القيام ببعض الاشكال البسيطة من الاستدلال . وكلما ارتقى النمو سنة بعد سنة تزداد هذه القدرات العقلية تطورا واكتمالا . وليس المجالفى هذا البحث متعلقا بربط النمو الجسمى بالنمو العقلى فهو موضوع آخر يخرج عن نطاق هذاالبحث (١٤) .

• • •

عرضنا فى الجزء السابق بعضاً من أهممظاهر النمو الجسمى فى الطفل من وقت ميلاده حتى نهاية مرحلة الطفولة المتاخرة وقد رأينـا (كما سبق ايضاحه) أن نورد النمو فى هـذه الفترة التى يمكن تقسيمها الىعدةفترات واحدةواحدة في كل مظهر من مظاهر النمو الجسمى حتى يسهل تتبعه وملاحظة سياق التطور دونقطع الدراسة بطريقة مصطنعة الى أجزاء تحدها هذه المراحل التفصيلية .

ويهمنا الآن بعد ان اوضحنا هذا النموالجسمى في هذه الفترة ان ننتقل من الجانب البنائى Structural **الى الجانب الوظيفى** Functional فنتتبع النمو الحركى عارضين فى هذا النمو ما يحدث من تطور فى اهم المهارات الحركية التى تظهر لدى الطفل خلال هذه الفترة . ويمكن تلخيص اهمية النشاط الحركى فى الجوانب الآتية :

(١) ان الصحة الجيدة التى تعتبر حيوية بالنسبة لنمو الطفل وسعادته تتوقف جزئيا على تدريبه على المهارات الحركية ، فاذا كان تناسقه الحركى ضعيفا كان اداؤه غالبا اقل من زملائه ، ولا يشعر الطفل بارتياح يذكر في قيامه بالنشاط الحركى ، ويقل بذلك دافعه للاشتراك فيه .

(٢) ان النشاط الحركى يخلص الطفل عادة من الطاقة الزائدة التى يزود بها ويجعله مقبلا على النشاط الذى يزيد من قوة عضلاته ويحسن صحته بوجه عام .

(٣) يعتبر النشاط الحركى اسلوبا من اساليب التغيير والترويح على الطفل ، فنشاط الطفل فى اللعب بأدوات اللعب في الصغر يساعده على تركيز انتباهه واستخدام وظائفه العقلية ، ومن ثم يساعد على احداث التغيير والمتعة فى حياته .

(٤) كما أن النشاط الحركى يعطى الطفل فرصة للتفاعل الاجتماعى ، فالنشاط الحركى فى الاطفال عادة لا يتم حينما يكون الطفل منفردا بل يؤدى الى الاتصال بغيره والتعامل معه .

(٥) يساعد النشاط الحركى الطفل على تنمية مفهوم الذات عنده ، فنجاح ادائه ايا كان يزيد من مشاعره بالأمن تجاه البيئة التى يتفاعل معها .

وسنتناول فيما يلى النمو الحركى فى الاجزاء الآتية من الجسم :

(أ) منطقة الراس .

(ب) الجذع .

(جـ) الأطراف .

(أ) منطقة الراس .

تبدأ فى هذه المنطقة بتآزر العين الذى يكون ضعيفا خلال الساعات الاولى من الميلاد ، ولكن ذلك يتحسن بسرعة ، لدرجة ان الوليد العادى فى نهاية الشهر الرابع يكون قادرا على اغلب الحركات اللازمة في عينيه ، فهو في نهاية الشهر الثانى يستطيع ان يركز عينه على شىء ثابت وبعد شهر يستطيع ان يتتبع عادة شيئا متحركا. ولكن التناسق اللازم فى حركة العين لا يكتمل عادة بشكل يمكنه من القراءة دون اجهاد للعين قبل ان يصل الطفل الى سن السادسة .

ومن الملاحظ ان انعكاسات الابتسام استجابة للمثيرات اللمسية والحركية تظهر على الوليد من نهاية الاسبوع الاول من حياته ، اما الابتسامة (الاجتماعية) لشخص أو استجابة لابتسامة

اخرى لا تحدث حتى الشهر الثالث من العمر . ويرى بعض الباحثين أن هذه الظاهرة تعتبر أولى الاستجابات الاجتماعية للطفل .

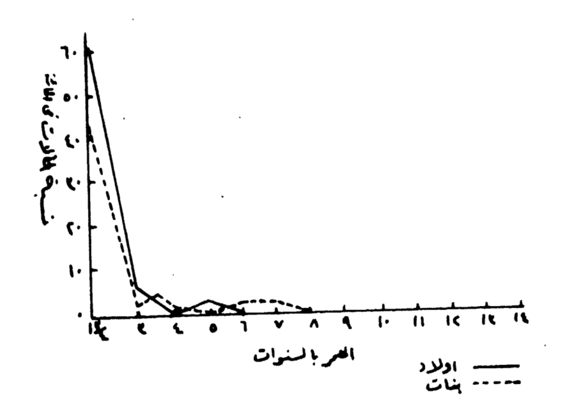
كما نلاحظ أيضا أن أغلب الاطفال الذين ولدوا حديثا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم للحظات قصيرة ، فالوليد فى الشهر الاول قد يحتفظ براسه افقية مستقيمة مع جسمه اذا حمل أفقيا ، وبعد شهرين يستطيع أن يرفع راسه مائلة على الافقى بحوالى ٣٠ درجة وكلما تقدمت الشهور يستطيع أن يرتفع براسه وصدره أثناء نومه . ثم يستطيع بعد ذلك أن يدير راسه بادارة كتفيه واستخدام عضلات الجزء الاعلى من الجذع ، ولكنه لا يستطيع أن يحتفظ براسه راسية عندما يجلس دون مساعدة الا عند نهاية الشهر السادس ، وبتقدمه فى العمر تطول المدة التى يستطيع فيها الاحتفاظ براسه على هذا الوضع(١٥) .

(ب) الجذع

أن دوران الجسم من جانب لآخر أثناء النوم لا يتوفر للطفل المولود ، ولكن عندما ينتهى الشهر الثانى فان الوليد يستطيع أن يتنقل من النوم على جانبه الى ان يصير نائما على ظهره وفى نهاية الشهر السادس يستطيع الرضيع أن يدير جسمه دورة كاملة . وقد لا يتم له ذلك دفعة واحدة ، بل يتم على مراحل ، وفي دورانه عادة يبدأ بمنطقة الراس ثم الاكتاف ثم الجزء الأسفل من الجسم ، وعن طريق الدفع بالساقين يستطيع الرضيع أن يدير كل جسمه .

ويصبح جذعه تحت سيطرته قبل أن يتمكن من الجلوس بنفسه فهو عندما يصل الى الاسبوع العشرين يستطيع أن يجلس بمساعدة محتفظا بجسمه معتدلا . وبين الشهر التاسع والعاشر فان الوليد العادى يستطيع الجلوس دون مساعدة لدقائق معدودة، وفي بداية تعلمه الجلوس يميل بجسمه قليلا الى الامام ليحتفظ بتوازنه ،كما أن ذراعيه يكونان ممتدين على جانبى جسمه وكما يكون ساقاه مقوسين بقدميه متقابلين ليعطيه هذا الوضع حيزا كبيرا للاتزان .

ومن بين عضلات منطقة الجذع تكون أعضاء الاخراج وتأخر قدرة الطفل للسيطرة عليها وذلك لحاجتها الى عضلات دقيقة ، فالتحكم فى الاخراج معناه كف العمليات التى كانت بطبيعتها لا ارادية . وهذا التحكم لن يتم الا اذا أصبحت عضلاته قوية ومتآزرة ، حتى يستطيع أن يمنع بذلك الفضلات التى تعمل على الخروج من الجسم . وبالرغم من أن هناك فروقا فردية بين الاطفال فى القدرة على هذا التحكم الا أن هذا يبدأ عادة عندما يتم الرضيع شهره السادس بينما التحكم فى المثانة قد يتأخر حتى الشهر الخامس عشر أو السادس عشر حتى السنتين أو السنتين والنصف ، مع حدوث هفوات فى حالة مرض الطفل أو اجهاده أو قلقه الانفعالى. أما الامتناع عن التبول ليلا فانه يحتاج الى سنة أخرى من النمو . وبوجه عام فان الطفل عند دخوله المدرسة ينبغي أن يكون قد اكتسب عادة التحكم فى البول حتى فى حالات الاجهاد والقلق الانفعالى والاستثارة(١٦) .



شكل (٧) نمو عادات النظافة فى الطفل (التحكم فى التبول) ماخوذة من (١)

(ج) الأطراف

من أول ما يظهر فى أشكال الحركات المتآزرةفي الذراعين ينحصر فى الحركات الدفاعية . وتبدو هذه من الايام الاولى من الحياة . وتكون فى بداية الامر حركات ضعيفة التآزر والتنسيق ولكنها فى نهاية الاسبوع الثانى بعد الولادة تكتسب قدرا كبيرا من التآزر ـ أما الوصول الى الأشياء والقبض على الاشياء ، ما عدا فى الحالات التي تلمس اليد الشيء صدفة ، فانها تحتاج الى قدر من التآزر بين العين واليد . حيث يجب أن تعمل العينان معا ، ويرتبط عملهما بحركة اليدين . وفي المراحل الاولى من التآزر بين العين واليد ينظر الى الشيء الذى أمامه دون أن يصل بيديه اليه . وخلال الشهر الرابع يبدأ بالقبض على الاشياء ولكن بشكل بطيء وغير منتظم ، ويتحسن ذلك بعد شهرين . وبعد عدة شهور يستطيع الرضيع الوصول الى الشيء بيديه والقبض عليه ثم يحوله مباشرة الى فمه .

وفي انعكاس القبض على الاشياء Grasping Reflex الذى يظهر عند الميلاد أو بعد ذلك بقليل يقوم الابهام والاصابع مقام الخطاف ، ويتم ذلك قبل ان يستخدم الرضيع يده لأغراض أخرى وفى هذه الحالة فان الابهام يعمل فى اتجاه مخالف للاصابع ، ومعنى هذا انه يعمل كوحدة منفصلة .

وانفصال الابهام عن باقى الاصابع يتم عادة بين الشهر الثالث والرابع ، اما اخذ الاشياء فانه يتأخر حتى الشهر الثامن أو التاسع . كما أن القدرة على القبض على أكثر من شيء واحد او اخذها معا يظهر فى شهور متأخرة . فالطفل العادى فى الشهر الخامس ينبغى أن يكون قادرا على أن يقبض على شيء يقدم له ، بينما فى الشهر السابع يستطيع أن يقبض على شيئين ، وفى الشهر العاشر على ثلاثة أشياء (١٧) .

ولنبدأ الآن بالنمو الحركى في الساقين والقدمين : نلاحظ أن الحركات اللازمة للمشى تبدأ عند الميلاد أو حتى قبل ذلك . فالطفل المولود حديثا يقوم بحركات بقدمية تشبه الركلات أو تشبه الخطو ، وكنتيجة لامتداد الساق والركلات فان الوليد يتعلم التآزر بين عضلات ساقيه وجذعه ، ثم يتعلم بعد ذلك احراز الاتزان بين أجزاء جسمه ، وهذا كله أساسى لعملية المشى ولا يمكن تحقيقه فى فترة زمنية بسيطة ، وكثير من الرضع يكون لديهم استعداد للمشى بين الشهر التاسع والخامس عشر ، فعظام وعضلات واعصاب الساق والجذع تكون معدة لذلك ، ولكن الرضيع يلزمه الاستثارة والمعاونة من الكبار قبل أن يستطيع المشى .

ونشاهد أن الرضيع في نهاية الاسبوع الثانى يستطيع عن طريق حركات ساقيه أن يحرك جسمه عن موضعه ، كما أن أول مظهر للانتقال يتم فى الرضيع عن طريق الرفس ثم الحبو الذى يبدأ فى حوالى الشهر الرابع ، ويصل الى قمة اتقانه بين الشهرين السابع والتاسع . وبعض الرضع لا يمرون فى هذه المراحل وينتقلون مباشرة الى المشى ، بينما نجد الآخرين يبقون فى مرحلة من هذه المراحل فترة قد لا تطول ثم ينتقلون الى المشى .

وفي المراحل المتقدمة من الحركة التى تسبق المشى نجد أن الرضيع يقوم بحركات زائدة فى أنحاء جسمه ، وبالتدريب ينتقل التآزر من الرأس حتى منطقة الساقين ، ويظهر التآزر جيدا ومتقنا فى مرحلة الزحف ، وبتقدم هذه المهارات تزداد سرعة الطفل فى الانتقال .

ويسبق المشى عادة القدرة على الوقوف ويحدث غالبا أن الوقوف مع المساعدة يسير جنبا لجنب مع الزحف ، والسن المعتاد للوقوف مع المساعدة لمدة دقيقة واحدة هو اربعون أسبوعا حتى خمسين اسبوعا . ولكى يحافظ الرضيع على توازنه فانه يقف متباعد الساقين وأصابع القدم متجهة للخارج والركبتان متقاربتان ، ويتجه الرأس والجزء العلوى من الجسم الى الامام ، وبالتدرج يقلل الرضيع من الضغط الذى يبذله على من يساعده فى الوقوف الى أن يستطيع الوقوف بمفرده تماما .

ويستطيع بعض الصغار المشى بمجرد وقوفهم بينما يتأخر البعض الآخر قدرا من الوقت حتى يكتسب الثقة فى نفسه ليخطو الخطوة الأولى . ويحدث المشى التدريجى بمساعدة عادة مع الوقوف فى وقت واحد . وفى دراسة لأحد الاطفال وجد أن فترة ٢٥ يوما قد مرت بين الوقوف بمفرده واتخاذ الخطوة الأولى فى المشى .

وفى كل انـواع الانتقال نجد ان الرضـيع يحتفظ براسـه معتدلا حتى يكتشف طريقه ، وفى المشى يكون الجسم معتدلا وتكون الحركة عن طريق تحريك السـاقين وحدهما ، وكمسـاعدة لاحتفاظه بتوازنه فان ذراعى الرضيع تتجهان للخارج ، وتتجه القدمان للخارج ، وتتصلب السـاقان ، وتتجـه العينـان الى الامام دون اهتمام بالنظر الى الارض ، وكثيرا ما يتسـبب عن هذا وقوع الصغير أثناء المشى لغياب ما تحت قدميه عن نظره ولصعوبة اتزانه فى البداية ولقيامه بحركات زائدة لا تفيده فى عملية التحرك .

وبنمو الصغير يحدث تغيران فى عملية المشى :

(أ) يتناقص ارتفاع مركز ثقل الساقين

(ب) وتتم بذلك سهولة فى الخطو . فبعد أن كانت الساقان ترتفعان الى أعلى مما يجب فى بداية المشى ، وبعد أن كان يبذل جهدا وطاقة كبيرين فى نقل قدميه وتتابع الحركة فيها يقل الجهد تدريجيا وتزداد الخطوة اتساعا ويقـل ارتفاع الساقين ويتم ذلك حوالى السنة الثانية او الثالثة من العمر (١٨) .

• • •

اكتساب المهارات فى الطفولة

بعد أن يكتسب الطفل القدرة على التحكم فى حركاته الكبيرة يبدأ فى تنمية مهاراته ، ويقصد بذلك مجموعة التـآزرات الدقيقـة التى تلعب العضلات فيها دورا هاما . ويمكننا ان نصف المهارة بتعبيرات خاصة بها مثل « آلية وسريعة ودقيقة ومرنة » وينبغى الا ننظر الى المهارة على انها عمل مفرد دقيق ، فكل مهارة مهما صـغرت « حتى كتابة حرف من الحروف الهجائية هـو سلسلة من مئات عمليـات التوافق في خـلايا الجهاز العصبى ، وتصبح الحركة المعتمدة على اية مهارة عملية معقدة للغاية تتضمن عمليـات من التكامل والتمايز فى الحركات الدقيقة ومراحل متتابعة من المحاولات وحذف الاخطاء . وتنقسم المهارات الحركية الى نوعين مختلفين :

(١) المهارات العضـلية الكبيرة Gross Mucular Skills وهذه مثل الجرى والقفز والرفع والتسلق .

(٢) المهارات العضلية الدقيقة Fine Muscular Skills مثل الكتابة والعزف على الادوات الموسيقية الصغيرة ، أو القيام بالاعمـال الدقيقة التى تتطلب مهارة فى الآداء .

ومن خصائص المهارات أن تعلمها يؤدى الى « العادات الحركية » فالنشـاط الذى يتكرر حدوثه بسهولة وارتياح يؤدى هذا التكرار الى اكتساب العادات التى تسهل من ادائه وتتابع الحركات فيـه وتقليل الانتباه عند القيام به ، فتكرار الصغير لعملية الخطو والمشى يسـهل من اداء حركاته وتتابعها بعد ذلك ، ويصبح المشى عادة حركية لا تحتاج الى تركيز الانتباه عنـد الطفل الكبير كما كانت تحتاج عند الطفل الصغير .

والمهارات لا يكفى مجرد النضج Maturation في ارتقائها بالرغم من أن الاســاس فى القيام بها فسيولوجى الطبيعة ، اذ يتطلب نضج الاعصاب والعضلات ومناطق المخ المتصلة بعمليــات هذه المهارات ، والتحكم فى أوجه النشاط الارادى المتــآزر .

فبالاضافة الـى النضج فــان المهــارات تتطلب تدريبا ، ولكن الاهم فى التدريب هــو كميته ونوعه ودقته ، فبالرغم أن المهارة تكتسب وتزداد اتقانا مع تكرار المرات المتتابعة ، الا أن نوع التدريب لهذه المهارات له أكبر الاثــر في إتقانها وسهولة اداء حركاتها بعد ذلك ، وكمــا سبق ان أوضحنا في الجزء الخاص بالنضــج والتدريب فان اهمية التدريب وما ينتجه من محصول وقيمة لا يحصل عليها الطفل الا اذا جاء فى الوقت المناســب الذى يرتبــط ارتباطا مباشرا بمرحلة النضج الخاصة بالعمليات التي تتضمنها المهارة المطلوبة . ويمكننا أن نفصل ذلك فنوضح العوامل التى يتوقف عليها اتقان الطفل لمهارة معينة :

١ ــ التدريب فى السن المناسب .

٢ ــ التوجيه والارشاد بدلا من ترك الطفل ليعتمد على المحاولة والخطأ فى أثناء العمليات اللازمة ، وقد يحدث الارشاد حتميا عن طريق تقليد الطفل لحركات أحد والديه ، وحتى فى هذه الحالة يحتاج الطفل الى توجيهه ليحدث التقليد بأسلوب متقن بعيد عن الخطأ .

٣ ــ الدافع لاتقان المهارة وقــد ينتــج الدافع عن طريق تحقيق الطفل للهدف الذى يصرف من اجله الوقت والجهــد . فالطفــل الصغير حين يبذل جهده فى عملية المشى عنــد تعلمها ، ويجد أنه قد حقق بذلك احراز الانتقال من مكانه والوصول الى الاشياء التى لم يكــن يستطيع الوصول اليها في وضعه الثابت فانما يصاحب ذلك من ارتياح نفسي ومشاعــر الانتصار تساعد الصغير على مواصلة بذل الجهد وتكرار العمليات اللازمــة التــي تــؤدى الــى الوصول الى الهدف .

• • •

وبعد ، فتلك عجالة عن تتبع النمو خلال مرحلتي الطفولة ، وقد قدمنا لها بمرحلة مــا قبل الميلاد ، وأدمجنا بهــا الفترات القصيرة التي بها يبدأ نمو الطفل ، وبذلك جعلنا الدراسة تتضمن الطفل مــن وقت ميلاده الــى نهايــة طفولته ، اى خلال ما يقرب من اثنى عشر عاما . وقد تتبعنا خلال هذه الفترة النمو الجسمي والنمو الحركى ، وحاولنا بقدر الامكان بيــان الاعمار التى تظهر فيها مراحل التغير فى كل جزء من الاجزاء الهامة من جسم الطفل ، وفى كــل مظهر من مظاهــر نمــوه وكل مهــارة حــركية يكتسبها .

المراجــع

(1) Hurlockb, E. : **Child development.** Mc Craw-Hill., 1964.

(2) Havighurst, R. T. : Leisure and life-style., **Amer. J. Sociology,** 1959.

(3) Shinn, M. W. : **The biography of a baby.** New York : Macmillan, 1900.

(4) Geseell, A.: Maturation and the patterning of behavior. in C. Murchisorn (Ed). **A handbook of child Psychology.** Worecester : Clark University press., 1933.

(5) Meredith, H. V.: Adiscriptive concept of physical development., In D. R. Harris (Ed.) **The concept of development : an issue in the study of human behavior.** Minneapolis : University of Minnesota press, 1957.

(6) Duggins, O. H., and M. Trotter: Age changes in head hair from birth to maturity. **Amer. J. phys. Anthrop.,** 1950.

(7) BAYLEY, N. : Some Psychological correlates of somatic androgyny. **Child Develpm.,** 1951.

(8) Garn, S. M.: Fat thickness and growth process during infancy **Num. Biol.,** 1948.

(9) Allen, I.: Facial growth in children five to eight years of age. **Hum. Biol.,** 1948.

(10) Meredith, H. V.: A time series Analysis of growth in nose hight during childhood. **Child Developm.,** 1958.

(11) Thompson, H. : Physical growth. In L. carmichael (Ed.) Manual of Child Psychology, New York : Wiley 1954.

(12) Walker, R. N.: Body build and behavior in young children, **child developm.** 1962.

(13) Massler, M., and B. S. Savara : Natal and neonatal teeth. **J. Pediat.,** 1950.

(14) Fiavell. J. H. : **The developmental Psychology of Jean piaget.** Princeton : van Nostrand, 1963.

(15) Breckenridge, M. E., and E. L. Vincent : Child Developsment philadelphia saunders, 1960.

(16) Spits, R. A. : Purposing grasping. Personality, 1951.

(17) E. L. Vincent, and P. C. Nanin : **Human psychological development,** Ronald, 1961.

(18) Carmichael L. : **Manual of child psychology,** 1954.

(19) Lipsitt, L. P. and N. Levy : Electrotactual threshold in the **child Develpm,** 1959.

سيد محمد غنيم

النمو النفسي
من الطفل إلى الراشد

مقدمة

يلقى علم نفس الطفل اهتماما كبيرا مـن جمهرة المشتغلين بعلم النفس . وقد يكون مرجع هذا الاهتمام هو الطفل ذاته ، نظرا لما للطفولة من جاذبية شديدة نحسها نحـن الكبار تجـاه الاطفال . وليس مـن شك أن غالبية الآبـاء في الأزمنة القديمة كانوا يحبون أبناءهم ويهتمون بتربيتهم ، كما نحبهم نحن اليوم ونهتم بتربيتهم ، مع اختلاف وجهات النظر الى الطفل والطفولة . لقد أشار فيليب اريس فى استعراضه « للطفولة عبر القرون » (١٩٦٢) الى أن أطفال القرون الوسطى كانوا ابتداء من سن الثالثة أو الرابعة وما بعدها يشاركون فى كثير من أنشطة الكبار . ولم تكن للاطفال شخصياتهم المستقلة كأطفال . وقد تطلب الامر مرور مئات السنين فى الازمنة الحديثة ، قبل أن تتغير نظرتنا الى الأطفال عامة باعتبـار أن لهـم شخصياتهـم المتميـزة عـن شخصيات الراشدين . وقـد سـار المجتمـع الحديث خطوات واضحة في فصل عالم الاطفال عن عالم الكبار .

والاهتمام الكبير بعلم نفس الطفل امـر تمليه ضرورة فهم الطفل الذى نتعامل معـه . فقد أصبح لزاما على الآباء والمربين ان يفهمـوا الاطفال من اجل ان يتوافقوا معهم ومع مشكلاتهم التى يواجهونها ، وأن يساعدوهم على حل هذه المشكلات بما يهيىء المجال أمام نمو نفسي سليم. فمن خلال الدراسة المنظمة لعملية النمو النفسي والاجتماعي للطفل يمكن ان نقف علـى ما هـو عادي وما هو شاذ فى سن معينة ، وان نعرف الكثير من جوانب شخصيته ، وأن نوجهه التوجيه السليم الذى يتوافق مع مرحلة نموه والظروف التى يعيش فيها . وقد يكون هذا الاتجاه مـن نتاج الأفكار الحديثة ، اذ لم تكن ثمـة حاجـة قديما ، لفهم الطفل ولا حتى معرفـة خصائص المرحلة النمائية التى يمر بها ، كما كانت تسود علاقته بالكبار بعض الافكار التى أثرت فى نظرتهم اليه ، وأسلوب معاملتهم معه ، فهو مثلا يرى ولا يسمع ، ومن ثم لسنا فى حاجة لمعرفة ما يجرى فى عقله من افكار أو ما يتكون لديه مـن ميـول واتجاهات . ولقد حدث تغير ملحوظ في تفكيرنا عندما بدانا ننظر الى التربيـة كشيء ضرورى بالنسبة للطفل ، وكان هذا التغير نتيجة لما طرأ على العالم من تغير اجتماعي ومن ثورة صناعية ، وما نجم عن ذلك من تغير فى اقتصاديات هـذا العالم ، والأدوار الوظيفية المعقدة التى ظهرت والتى لا يمكن اكتسابها عـن طريـق التقليد أو النموذج على نحو ما كانت تسير عليه التربيـة القديمة .

واذا كان النظام التربـوى القديـم يتسم بالشدة والصرامة فى معاملة الطفل ، الا ان عقلاء المفكرين والمربين سرعـان مـا ادركـوا اهميـة الدافعية وان « الحصان الذى يقاد الـى المـاء قسرا لا يشرب بالضرورة حتى لو ضرب » ، كما ادركوا اهمية الفروق الفردية بـين الاطفـال فى النواحـى الجسمية والعقليـة والانفعاليـة وفى الشخصية . ومن هنا ظهرت الحاجة الماسـة الى ضرورة ادخال تعديلات على مناهج الدراسة كى تتلاءم ومستويات نضج الطفل . واذا كان الالتحاق بالمدارس الى عهد قريب قاصرا علـى طبقات معينـة يمكنهـا الانفاق علـى العمليـة التعليمية ، فقد أصبح اليوم عاما واجباريا . واذا كان الوقت الذى يقضيه الطفل فى المدرسة قليلا في البداية ، فقد اصبح في الغالبية العظمى من أنظمة التعليم فى العالم اليوم ، يمثل جانبـا كبيرا من ساعات نهار الطفل ، هذا بالاضافة الى انشغاله بعد عودته من المدرسة ، بالكثير مـن الواجبات المدرسية . وقد تطلب هـذا الامـر وجود قدر كبير من المهارات والقدرات لمواجهة هذه الواجبات ، مما دعا المدرسين الى الاستعانة بعلماء نفس الطفل للاجابة على كثير من المشكلات التي تواجههم فى العملية التعليمية .

غير أن المشكلات التى تواجـه المدرسين ليست شيئا بالقياس لتلك التى تواجه الآبـاء فى تربيتهم للابناء ، فحين يصبح الآباء اكثر تعلما وتثقفا وادراكا ووعيا ، فانهم يبدأون فى اثارة الكثير من الشكوك حول الرغبة فى الالتجاء الى اسلوب التربية او النظام الذى تربوا هم انفسهم عليه . فربما كانت هناك الرغبة الشعوريـة أو اللاشعورية في أن يكون أسلوب تربيتنا لأبنائنا افضل بكثير من أسلوب تربية آبائنا لنا . ومـن ثم اصبح أسلوب « التعقل والفهم » هو الاسلوب السائد اليوم ، اما الالتجاء الى توقيع العقاب والضرب ، فانه ــ اذا حدث ــ يكون لذنب وقع

فيه الطفل ، أو يكون نتيجة احساس شخص بالفشل . والواقع أن معظم الاسر اليوم تتخذ أسلوب الفهم والتعقل فى معالجة مشكلات أبنائها ، كما تغيرت الكثير من المفاهيم والافكار عن الطفل . فهو اليوم يرى ويسمع ، بل ويؤثر الى حد ما فى قرارات الأسرة ،وخاصة اذا ما حفزناه الى القيام بمثل هذه المشاركة .والحقيقة ان هذا التغير هو نتيجة لرغبتنا في ان نصبح اكثر ديموقراطية فى اسلوب معاملتنا مع الآخرين. ففي المجتمعات الاكثر تقليدية ، تقاس قيمة الفرد الى حد كبير بمركزه ووضعه فى البناء الاجتماعي .ولما كانت مثل هذه المجتمعات متجهة نحو الكبار ونحو سيطرة الرجال ، فان مركز الطفل ،والمراة كان فيها وضيعا ومغبونا أو مهملا ، ونادرا ما كانت تسمع آراؤهم كأفراد .

وثمة سبب آخر للاهتمام الموجه نحو دراسة علم نفس الطفل فى السنوات الاخيرة يتلخص فى الرغبة فى فهم انفسنا كراشدين .فاخذ الاساليب الهامة لفهم الذات او اكتشافها يكمن فى دراستنا لسيكولوجية الطفل . فمن خلال دراستنا للطفل ، يمكن ان نعثر على بعض المفاتيح لمعرفة غموض انفسنا ومعرفة من نحن .اننا جميعا ندرك أننا الآن وبالتأكيد اكثر مما كنا عليه في طفولتنا ، وان اكتشافنا للاحداث والخبرات التى مرت بطفولتنا من شأنه ان يملأ الفراغ القائم بين انفسنا فى الطفولة وانفسنا اليوم . فنحن ندرس تقارير هذه الاحداث والخبرات التي مرت بنا فى الطفولة ، بحثا عن انفسنا ، وعن تفسيرات لنجاحنا أو فشلنا ، وعن نواحى الكف والاعاقة التى تعرضنا لها ،واثرها فى سلوكنا وقدراتنا وامكانياتنا . وكما يقول **كونجر وموسن وكيجان** أن دراسة سيكولوجية الطفولة تزودنا بالاساس الذى لا بد منه لكى نفهم سلوك الراشدين فهما اكثر دقة .فالبيانات الاكلينيكية المستمدة من تواريخ الحالات الخاصة بالمجرمين والمرضى في العيادات والمستشفيات العقلية تكشف لنا عن أن سوء التوافق الشخصى والاجتماعى الذى يشيع بين الكبار يعود بصفة دائمة تقريبا الى الخبرات التي يقيمها الفرد فى حياته المبكرة . ولقد كان لسيجموند فرويد ، ابى التحليل النفسى ، الفضل فى أن اظهر بقوة ما لأحداث الطفولة من اهمية ، كما استطاع بتحليلاته النفاذة للمرضى الذين كان يعمل معهم ان يوضح صدق قول الشاعر « الطفل ابو الرجل » **(الترجمة العربية ١٩٧٠) .**

• • •

● المجالات والطرق والنظريات :

ويهمنا الآن أن نلقى نظرة على مجالات دراسة الطفل وتطورها ،والطرق التى استخدمت فى هذا المجال بما يسمح لنا بالقاء المزيد من الضوء على النظريات التى عالجت النمو النفسى للفرد فى طفولته ورشده ..

ولنبدأ الآن بمجال دراسة الطفل :

ارتبطت دراسة الطفل ــ كمجال من مجالات الاهتمام ــ بغيرها من المجالات الكبرى . اذ تمتد أصولها القديمة الى الفلسفة والتربية والتاريخ الطبيعي ، كما ترتبط حديثا بمصادر

كثيرة مثل علم النفس التجريبي وعلم النفس الاكلينيكي والطب النفسي والفسيولوجيا وطب الاطفال وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا واللغويات . ورغم اختلاط أصوله ، فمن الممكن النظر اليه باعتباره مجالا شبه مستقل . ومع ذلك فحدوده لاتزال غير محددة ، كما ان اهدافه واهتماماته متنوعة . ومن الممكن ان نشير الى ثلاثة مجالات ينقسم كل منها الى قسمين ، تعتبر بمثابة اطار لجميع الوان النشاط التي تجرى في هذا الميدان .

فالدراسة قد تتجه اولا : اما الى ناحية البحث أو الى ناحية التطبيق ، أى اما الى الكشف عن كيف يعمل الطفل ، وكيف ينمو ، اوالى القيام بعمل اشياء للطفل ومن اجل الطفل . ومجالات التطبيق المتصلة بالطفل كثيرة ومتعددة تتجلى فى مجالات العيادات النفسية ، وعيادات الطب النفسي ، وفى التوجيه المدرسي ، ومحاكم الاحداث وفى برامج توجيه الآباء والابناء .

وقد تتجه الدراسة ثانيا : اما الى الطفل العادى أو الى الطفل الشاذ . اعنى اما الى النمو الذى يسير سيره الطبيعي أو الى النمو الذى يشذ عن الطريق العادئ او الطبيعي .

وقد يتجه مجال الاهتمام ثالثا : اما الى الطفل نفسه وما يجرى به داخليا من عمليات عقلية ونفسية وما يعتريه من انفعالات ، أو الى البيئة المحيطة به وكيف تؤثر فى سلوكه ونموه من خلال عملية التطبيع الاجتماعى التى تأخذ بها الطفل منذ وقت مبكر في عملية نموه .

ومع ذلك ، وبصرف النظر عن ناحية الاهتمام ، فان الهدف هو معرفة شيء اوالكشف عن شيء يتصل بالطفل . ولقد تعددت النواحي التي يركز الباحثون عليها دراستهم للاطفال . فالبعض يهتم بالأطفال كأطفال ، أى باعتبارهم مجموعة فرعية مستقلة عن الكبار ، وبالطرق المميزة التى يسلك بها الاطفال جميعا أو الاطفال فى سن معينة أو الاطفال من نوع خاص او الاطفال الذين يعيشون تحت ظروف بيئية معينة على نحو ما يتضح فى دراسات **وودكوك (١٩٤١)** ، **وبايير وميرفي (١٩٤٢)** وكذلك فى دراسات **جيزل** المستعرضة التى اجراها على اعمار خاصة.

اما البعض الآخر فقد ركز الاهتمام على كيف يتغير الطفل اكثر مما ركزه على كيف يسلك فى وقت معين . وهذا الاهتمام بالتغيرات النمائية قد يتركز على التغيرات الجسمية ، أو على النمو العقلى أوعلى النمو الانفعالى أو على النمو عامة. والامثلة في هذا الصدد لا حصر لها ويكفى الرجوع الى ما كتبته اليزابيت هرلوك وشارلوت بهلر وارنولد جيزل وجان بياجيه وجوردون البورت وغيرهم كثيرون .

وثمة جماعة ثالثة ركزت اهتمامها على عملية النمو ذاتها مستقلة الى حد كبير او صغير عن الشيء النامى ، طفلا كان أم حيوانا أم حضارة . وهذا الاتجاه يتضح على وجه الخصوص فى كتاب هاينز فرنر حيث تساءل في مقدمة كتابه « علم النفس المقارن للنمو العقلى » عن ما هو علم النفس النمائى وما مشكلاته ؟ ورد على ذلك بقوله : ان مفهوم علم النفس النمائى يتضح تماما اذا فهمنا أنه يعنى العلم الذى يختص بدراسة نمو الحياة العقلية والذى يتخذ منهجا محددا ، ونعنى به منهج ملاحظة الظواهر السيكولوجية من وجهة نظر نمائية .

وهناك جماعة رابعة تهتم بدراسة أطفال مفردين ، وكيف يؤدون وظائفهم ، وكيف ينمون وذلك اما بقصد التشخيص الاكلينيكى ، أوبقصد البحث فى نواحى الشخصية أو نمو الشخصية وديناميتها على نحو ما يتضح فى دراسات ميرفى عن المهارات والمصادر التى يستعملونها مع البيئة .

واخيرا يمكن أن نشير الى الدراسات التى تجرى بطريقة عرضية على الاطفال والتى يستخدم فيها الاطفال كموضوعات للدراسة التجريبية ، لا لان الباحث يهتم بمعرفة شىء عن الاطفال ، ولكن لأن الاطفال هم الاشخاص الذين فى متناول يده ، ويمكنه أن يجرى عليهم أبحاثه وتجاربه باعتبارهم عينات للجنس البشرى عامة. ومن أهم دراسات هذا النوع تلك التى تتصل بأبحاث التعليم ، سواء اجريت في المعمل أو فى الفصل ، والتى تحاول أن تحدد الظروف الخارجية للتعليم ، والتى يمكن فيها أن يستخدم الكبار أو الفيران مكان الاطفال . ومع ذلك يمكن القول انه حتى فى هذا النوع من الدراسات التى لا تخبرنا بشىء عن الاطفال من حيث هم كذلك ، فقد يكون لها اهمية تطبيقية بالنسبة للمدرسين أو للآباء .

وهكذا يتبين لنا أن دراسة الطفل تمثل لنا أشياء كثيرة مختلفة يمكن أن يقوم بها أناس كثيرون مختلفون .

• • •

● طرق البحث فى دراسة النمو

ليس الهدف هنا تقديم عرض تفصيلي لمناهج البحث ، بقدر الاشارة الى بعض الطرق الاساسية والافكار المنهجية التى ظهرت كأدوات خاصة فى دراسة النمو . وقد وصلت الينا هذه الادوات من مجالات متعددة ، ومن وجهات نظر مختلفة في دراسة الطفل . ولذا يحسن النظر اليها فى ضوء المشكلات والفروض التى اوجدتها، أعنى في ضوء نظرة تاريخية نربط فيها بين الادوات والحقب الزمنية أو التاريخية التى ظهرت فيها ، بشكل يلقى لنا الضوء على تطور استخدام هذه الادوات في دراسة الطفل .

ومن الممكن أن نتتبع بالدراسة اربعة أنواع من الادوات الرئيسية هى : طرق الملاحظة ، والطرق المعملية ، والاختبارات والمقاييس ، والطرق الاكلينيكية . وكل طريقة منها تقابل حقبة زمنية ظهرت فيها . وهذه الحقب الزمنية الاربع هى الحقبة الطبيعية Naturalist Era والتى بدات فى القرن الثامن عشر وبلغت ذروتها فى منتصف القرن التاسع عشر ، وحقبة علم النفس التجريبى القديم ، والتى بلغت ذروتها فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، ثم حقبة الفروق الفردية والتى سادت الثلث الاول من القرن العشرين ، ثم حقبة دراسة الشخصية والتى بلغت ذروتها فى السنوات العشرين الاخيرة من هذا القرن . وهذا التقسيم التاريخى يقوم على المفهوم المتغير للفرد على نحو ما سوف يتضح من خلال المناقشة التالية لها.

اولا : **الحقبة الطبيعية** : مـن المعروف لنا ان الاهتمام بدراسـة الطفل ليس وليد العصر الحديث ، بل يمتد الى عهود قديمة . فقد ورد فى الكتب السـماوية ما يشير الى تربية الصغار وتقويمهم ، وكذلك فى النظريات التى نادى بها افلاطون في الجمهورية ، وفى كتابات المحدثين من الفلاسـفة من أمثـال جون لوك ، وجان جاك روسـو ،وغيرهما عن تنشية الطفل . لقد كان جون لوك (١٦٣٢ ــ ١٧٠٤) من أوائل المفكرين الذين مهدوا لهذه الحقبة ، فناقش الكثير من الافكار القديمة التى تتصل بتربية الطفل ونشر سنة ١٦٩٣ مقالتـه « بعض الافكار المتصـلة بالتربية » نصح فيها المربين بترك الحرية للطفل كى يعبر عن مشاعره ، والا نقيد حريته الا قليلا. ولم يكن يتفق والآراء التى تذهـب الى تدريب الطفل على الصبينة ، او تأجيرهم للعمل ، لان من واجب الآباء ان يهتموا بتربية ابنائهم وان يبقوا الى جوارهم ما امكنهم ذلك . وكون الآباء نماذج طيبة أمام الابناء هو احسن نمط يمكن التأثير به فى شخصية الابناء . ولقد كان لوك احد المفكرين الاقوياء من أصحاب التأثير فى تنمية الاسـلوب العلمى . فرفض الاعتقاد بأن المعرفة فطـرية ، واكد ان كثيرا من معرفتنا انما مبعثه الاحتكاك بالبيئة ، وان هذه النتائج يجب أن تدعم من خلال الطرق التجريبية . وتعتبر أعمال لوك في الادراك الحسى والتذكر وتداعي الافكار والانفعالات ونمو اللغة من الاعمال التى ساهمت فيما بعـد فى ارساء قواعد علم النفس التجريبى .

وثمة مفكر آخـر كان له تأثير عظيم على الاتجاهات نحو الاطفال ونعنى به **جان جاك رسو (١٧١٢ ــ ١٧٧٨)** والذى رفض ــ شأنه شأن لوك ــ الكثير من الافكار التى كانت سـائدة في العصور الوسطى عن الاطفال . **أن ما نخرج به من قراءتنا لروسو هـو الاحترام الكبير للاطفال كأفراد** . فمثلا يجب ألا يصر الآباء على اعتذار الطفل لانه لا يهدف بطبعه الى القيام بالخطيئة. انه مخلوق طيب بطبعه ، وان ما يفرضه مجتمع الكبار عليه من قيود وتحريات هو الذى يعرقله ويضطره الى أن يكون شخصا اقل نبالة وفضيلة، وقد كانت نظرته تخالف ما تواضع عليه المجتمع فدعا الى تشجيع الطفل على ان يعبر تعبيرا حرا غـير مقيد عـن نوازعه الاصيلـة التى هـى فى جوهرها وأصلها نوازع نبيلة .

لقـد بدات لحقبة الطبيعية فى اواخر القرن القرن الثامن عشر حين اخـذ نفر من الباحثين فى دراسـة الاطفال باسـتخدام منهج الملاحظة الفعلية . من ذلك ما قام به المربى السويسرى **جوهان هاينريش بستالوتزى** (١٧٤٦ ــ ١٨٢٧) من نشر مذكرات تقوم على الملاحظة الدقيقة التى قام بها لنمو ابنه الذى يبلغ من العمر الثالثـة والنصف . وقد أعلن هو الآخر اهمية فهم الاطفال وسلوكهم . وقد نظر الى الام باعتبارها أول ،واهم مرب للطفل ، وحفزها على أن تصدق مشاعرها نحو الطفل ، وان تفتح امامه آفاق هذا العالم وتعـده لاسـتخدام حواسـه وتقوية ملاحظته .

وفى القرن التاسع عشر بدات تظهر سلسلة متتابعـة من تـراجم حيـاة الاطفـال . فقـد قـدم العالم المشـهور تشارلس دارون (١٨٠٩ ــ ١٨٨٢) من بين أعماله العـديدة ، مقالة اورد فيها ملاحظاته عن طفله الاول . كما قدم العالم الفسـيولوجى **ولهلم تـيرى براير** Preyer ملاحظاته الدقيقـة عن النمو العقلى لطفله خلال السنوات الاربع الاولى من حياته .

لقد لاحظ نمو الانعكاسات منذ الولادة ، كمالاحظ اثر الخبرة والتعلم . ويعد كتابه ((عقل الطفل The Mind of the Child وهو خلاصة ملاحظاته احد امهات الكتب القديمة فى علم نفس الطفل .

فالمنهج الطبيعى فى دراسة الطفل - شأنهشأن المنهج الطبيعى فى علم البيولوجيا - يقوم اساسا على الملاحظة والتسجيل الدقيقين لمايقوم به الطفل فى موقف طبيعى وفي مجالنشاطه اليومى . فلم يكن الاهتمام موجها اذن بوجهعام نحو تحليل او معالجة التغيرات في الموقف بقصد دراسة الانواع الخاصة للاستجابات أوالتأثير على النمو .

وثمة مظهر آخر لمنهج الطبيعين ونعنى بهالدراسة الطولية Longitudinal والتى تقوم على تكرار الملاحظات على نفس الفرد فى فتراتمتعاقبة (وهذه الطريقة الطولية تختلف عن الطريقة المستعرضة Cross-Sectional حيثندرس النمو بمقارنة اطفال مختلفين في اعمار مختلفة) .

والحقيقةان الكثير من ملاحظات الطبيعيينالقدامى تبدو لنا اليوم بسيطة وساذجة . فهى ملاحظات غير منهجية ، وتتم على فتراتة غيرمنتظمة . وطالما انها كانت تفتقر الى المقارنات بين الاطفال وبين المواقف والظروف المختلفةللنمو بين الملاحظين ، فانها كانت اذن دراسات غير مضبوطة تماما . هذا بالاضافة الى انالملاحظين فى الاغلب كانوا لا يحجمون عن اقحام مشاعرهم الذاتية وتفسيراتهم الشخصية علىما يرونه من سلوك الطفل ، والذى هو في الاغلب ابنه أو احد اقاربه . ومع ذلك ، ورغم كل هذهالانتقادات ، فلا تزال مثل هذه التراجم الاولى مصدر ثروة للمادة العارضة في نمو الطفل . كماانها تعد بمثابة دراسة للفردية بالمعنى الحديث فالباحثون القدامى كانوا يوجهون اهتمامهم الىدراسة سلوك الطفل « بعامة » اكثر من اهتمامهم بدراسة النواحى التى يختلف فيها طفل عنالآخر .

وبطبيعة الحال استمر المنهج الطبيعىفى خلال الحقبة الثانية وهى حقبة علم النفس التجريبي القديم ، ولكن بصورة معدله وحتىوقتنا الحاضر . فالباحثون القدامى الذين اهتموا بدراسة الطفل كانوا اساسا طبيعيين فىاتجاهاتهم ولكنهم بداوا فى تكييف مناهجهم القديمة مع الاتجاه التجريبى الجديد . ومن ثمنجد سير ستانلى هول (١٨٤٦ - ١٩٢٤) والذى كان مهتما ببحث « محتوياتة عقول الاطفال »يلجأ الى استخدام منهج جديد للبحث هو منهج الاستخبار questionaire والذى يتالفمن سلسلة من الاسئلة وضعت للحصول على المعلومات عن سلوكالطفل والمراهق ، واتجاهاتهماواهتماماتهما ،كما كان يجمع الاستجابات المكتوبة على هذه الاستخباراتة من كل من الاطفال وآبائهمعلى السواء . ويمكن القول أن عمل «هوك»الذى استمر فى القرن العشرين يحدد بداية الدراسةالمنظمة لعلم نفس الطفل . لقد بدأ يركز الانتباه على جوانب معينة من نشاط الطفل ، كما انهيعد من الناحية المنهجية اكثر موضوعية من المناهج الفلسفية وتراجم الحياة ، هذا بالاضافةالى مكان معالجة نتائج هذه الاستخبارات في صورة كمية .

ثانيا : حقبة علم النفس التجريبي القديم: وعلى خلاف الطبيعيين الذين اهتموا بالتركيز على الوظائف الكلية للطفل ــ والطفل دائما ــ فان التجريبيين الاول قد ركزوا اهتمامهم على دراسة الوظائف الجزئية كعمليات التفكير والتذكر والادراك والتصور وما أشبه . ولكنهم كانوا يشبهون الطبيعيين في ناحية البحث عن القوانين العامة أو الصور الكلية لهذه الوظائف المجردة النقية . ومن أجل البحث وراء العمومية والنقاء ، تركوا المجال الطبيعي ودخلوا المعمل حيث يمكن تجنب الكثير من تعقيدات الحياة اليومية وتعقد الظروف فيها . وفي المعمل يمكن استخدام الطرق السيكوفيزيقية وتغيير الظروف بشكل منتظم واستخدام كل ظرف على حدة . ولجعل الظروف نقية تماما لجأ بعضهم الى تخليص المثيرات ، قدر الامكان ، من جميع المعاني على نحو ما فعل ابنجهوس في تجاربه المشهورة على التذكر ، والتي استخدم فيها مقاطع صماء عديمة المعنى ، كما أنهم في بحثهم عن العمومية نظروا الى الفروق الفردية التي توجد بين الافراد في الاستجابة للمثيرات المختلفة باعتبارها شوائب تجريبية أو اخطاء في القياس ، ولجأوا الى تكرار الاقيسة من اجل الحصول على متوسطاتها . وبالمثل لم يكن يرحب هؤلاء بالتغيرات أو الاختلافات في الفروق النمائية . فالتجريبيون الاول كانوا مهتمين أساسا بالوظائف الجزئية عند الكبار ودراستها في ظروف نقية قدر الامكان ، بقصد الوصول الى القوانين العامة التي تخضع لها . ولذا كان نصيب التجريب المعملي على الاطفال في هذه الحقبة السيكوفيزيقية المبكرة ضئيلا .

ولكن بعد ذلك ، أخذ علماء النفس المعملي يوجهون اهتمامهم نحو التغيرات النهائية، واجريت دراسات على التغير مع السن في مظاهر السلوك المختلفة مثل زمن الرجع ، وفترات التذكر والنسيان وحل المشكلات وغيرها .

يضاف الى ذلك ان المناهج التجريبية في المعمل اصبحت قابلة للتطبيق على عدد كبير من المشكلات خارج جدران المعمل حيث يمكن دراسة الآثار المباشرة والبعيدة المدى لظروف اكثر تعقيدا ، مثل دراسة القيادة التسلطية ضد القيادة الديموقراطية ضد القيادة المطلقة ، أو دراسة منهج تعليم القراءة عن طريق السمع في مقابل البصر . والواقع ان المنهج الاساسي للتجريب والذي استعير من السيكوفيزيقا يتطلب فقط ضبط الظروف والمقارنة بينها .

ثالثا : حقيقة الفروق الفردية ثم ظهر مجال جديد من مجالات الاهتمام في علم النفس العلمي في السنوات الاولى من القرن العشرين . لقد أخذ هذا الاتجاه الجديد مظهرين : الاول النظر الى الناس على أساس وجود سمات متعددة لديهم . والثاني كيفية توزيع هذه السمات على المجموع العام من الناس . فمجال الاهتمام والتركيز في هذه الحقبة لم يكن منصبا على طبيعة الوظائف العقلية او العمليات العقلية المفردة ــ كما كان في الحقبة السابقة ، بل على مقدار وجودها وتوزيعها بين الناس .

والفكرة الاساسية التي يقوم عليها هذا الاتجاه ، هي تلك العبارة التي دوى صداها في تلك الايام والتي تعزى الى ثورنديك حيث يقول « ان كل ما يوجد ، يوجد بمقدار ، وكل

ما يوجـد بمقدار يمكن قياسه » . وفي هـذه الحقبة ، كانت الاختبارات كأداة ، هى موضع اهتمام بالغ لدى علماء النفس . فمع بـداية الحرب العالمية الاولى ظهرت الحاجـة ماسـة الى اجراء الاختبارات السيكولوجية على نطاق واسـع على المجندين الجدد فى الجيش . ومن ثم ظهر العـديد من اختبارات الذكاء . وكان من نتيجة ذلك أيضا ان ظهرت الاختبـارات الجمعية التى يمكن ان تطبق على عدد كبير من الافراد في وقت واحد . وبعد الحرب استخدمت الاختبارات العقلية على نطاق واسـع في مجال المدرسـة وميدان التعليم . ومن قياس الذكاء انتشرت الاسـتخدامات المختلفة للاختبارات ، فاسـتخدمت فى قياس القدرات الخاصة عند الفرد كالقدرة اللغوية او الرياضية أو الميكانيكية أو الموسيقية ، كما استخدمت ايضا فى قيـاس الشـخصية .

ومن أئمة حركة القياس نذكر **جالتـون وجيمس ماكيدكاتل وثورنديك وترستون وترمان وسبيرمان وغيرهم كثيرون ممن أتى بعـدهم** . وكانت حركة القياس والتى تعرف الآن باسـم « السيكومترية » ظاهرة من ظواهـر علم النفس الامريكى ، وان كانت هذه الحركة قد بدات اولا فى فرنسا على يد طبيب فرنسى مشـهور هو « الفردبينه » ويعتبر بينيه أحد الرواد الاول فى قياس الذكاء ، حيث وضع اختباره المشهور هو وزميله سيمون والذى عرف فيما بعد باسم «مقياس استنفورد ــ بينيه ــ للذكاء » ــ والذى خرجنا منه بفكرة هامة في قياس الذكاء هى فكرة العمر العقلى . وكانت هذه الفكرة هى بداية كثير من الافكار التى من هذا النوع والتى استخدمت على نطاق واسـع بعد ذلك فى دراسة الطفل :كالعمر التحصـيلى والعمر التعليمى والعمـر القرائى الخ .. ومن المهم ان نلاحظ ان قيـاس السمات على اساس العمر او اى مقاييس اخرى هو دائما نسبى بالنسـبة للمجموع العـام من الناس . ومع ذلك فقد عولجت في الاغلب كما لو كانت مقاييس مطلقة تعبر عن المقـدار الفعلى للذكاء او اى سـمة اخرى لدى الفرد .

ويجـدر بنا أن نشـير الى أن اهتمـام السيكومتريين الاول بالفـروق الفردية كان فى الحقيقة موجها الى اختلاف الجماعات فى سمة ما فى وقت واحد ، وليس الى الطريقة التى بها يختلف فرد عن آخر . ومع ذلك ، فقد طبقت المقاييس العقلية على الافراد بقصـد التصنيف التربوى أو المهنـى . واستخـدام اختبار بينيه اساسا كوسيلة تساعد على تقدير قدرة الفرد على التعليم ، وفي التمييز بين العاديين وغـير العاديين .

ولقد حاول نفـر من **السيكومتريين** بعد ذلك الوصول الى تقدير شـامل للفرد بتحديد درجته فى مجموعة من الاختبارات توضع لقياس سمات مختلفة . ورغم ان هذه الطريقة مكنت المختبر من وضع عدد من الاحـكام المسـتقلة المنفصلة عن الفرد موضع الدراسة ، الا انها لم تبين لنا كيف ترتبط هـذه السـمات بعضـها ببعض .

وغالبا ما يركز السيكومتريون على وسائل القياس ذاتها ، وعلى الانمـاط العامة لتغـير الجماعة في حدود منحنى التوزيع الاعتدالى ، واغفال الافراد موضوع الدراسـة (أو حتى السمات) . وعلى الرغم من استخدام الاطفال كأفراد عند تطبيق الاختبارات ، الا أن الاهتمام

الرئيسى لحركة القياس لم يكن موجها الى دراسةطبيعة الطفل كطفل . ولكن حديثا ، اصبح المختبرون اكثر مرونة في تفسير نتائج القياس ،واصبحت الاختبارات وسيلة ضرورية وهامة فى دراسة الطفل .

ولكن كى تكون النتائج التى نحصل عليهامن استخدام الوسائل السيكومترية مفيدة ونافعة ، يلزم أن تتوفر فكرتان اساسيتان فىنفس المقياس ونعنى بهما الثبات والصدق .

أما **الثبات** فمعناه أن المقياس يعطى اساسانفس التقدير عند اعادة تطبيقه على الافراد .

أما **الصدق** فمعناه ان الاختبار يقيسما وضع لقياسه . والاختبار الجيد يمكننا من التنبؤ بما سيكون عليه سلوك الطفل أو الفردبوجه عام . فمثلا اختبار الذكاء يمكننا من التنبؤ بمدى تحسن التلميذ أو الطفل فى المدرسة ،ومدى استعداده للدراسة فى مستقبل أيامه . ولكن الاحكام الخاصة بأداء الطفل فى المدرسةليست ثابتة تماما ، حيث تتأثر بعدد كبير من العوامل الاخرى غير الذكاء . وعلى العموم ،فنتائج اختبار الذكاء ترتبط ارتباطا عاليا بالتحصيل ، أعنى أن الذين يحصلون علىتقديرات عالية فى اختبار الذكاء ، يحتمل ان يكون تحصيلهم الدراسى عاليا ، كذلك والعكسلكن تحدث استثناءات فردية يمكن أن ترجع الى خطأ في احكام المدرسين انفسهم أو الىعمل عدة عوامل اخرى تتدخل الى جانب الذكاء أو الى الاختبارات ذاتها .

ويجب الا يظن القارىء أن الاختباراتكانتهىوحدها الادوات الجديدة التىاستخدمت فى هذه الحقبة الخاصة بالاقيسة العقلية . ذلكان مناهج الملاحظة التى اتبعت فى الحقبةالطبيعية قد عدلت واخذت هى الاخرى صورة كمية . فقد ظهرت لدينا طريقتان جديدتان انتشرتا انتشارا واسعا ، ونعنى بهما مقاييس التقدير rating scale ,والعينة الزمنية time sample وهذه الاخيرة بالذات وضعت للاستعمال معالاطفال ، وعلى العموم فقد استخدمت كلا منهما استخداما واسعا فى دراسة الطفل .

وطريقة مقياس التقدير طريقة يحدد فيهاالحكم Judge درجة الفرد بالنسبة لسمة أو مجموعة من السماتكالأمانة والتعاون ,والخضوعاو السيطرة . ويمكن أن يكون هذا التقدير نسبيا أى بالنسبة لاعضاء نفس الجماعة التى ينتمىاليها الطفل في ضوء قوائم وضعية توضع لذلك، أو قد يكون تقديرا تقريبيا كميا يقوم علىاساسالاحساس الذاتى للحكم . وتقوم التقديرات فى هذه الحالة على أساس الملاحظات الخاصة التىيقوم بها الحكم للسلوك الخاص للطفل ، أو المواقف الخاصة أو على أساس المعرفة الطويلةالأمد بالطفل على نحو ما هو الحال في تقدير الآباء والمدرسين للطفل . وبمقارنة تقديرات نفسالطفل على نفس السمة في أوقات مختلفة ، أو بالنسبة لتقديرات حكام مختلفين يمكن ان نصلالى **معرفة لمدى ثبات هذه التقديرات** . وعندما تتوفر للتقديرات درجة ثبات عالية ، فانالتقديرات تسمح لنا فى هذه الحالة باجراء مقارنات بين الافراد ، وبين الجماعات او بينالظروف ــ على نحو ما يحدث بالنسبة لمناهج التدريس ــ التى تؤثر فى الافراد أو الجماعات .ويمكن أنتطبق التقديرات على الاشياء كماتطبق

على الاشخاص ، على نحو ما تستخدم مثلا فى الحكم على رسومات الاطفال تحت ظروف مختلفة . وتعتبر تقديرات الذكاء احدى الوسائل الهامة التى تستخدم فى تقدير صدق اختبارات الذكاء ، رغم أن الاختبارات يقصد منها فى الحقيقة أن تحل محل هذه النتائج الذاتية . والمشكلة الرئيسية فى مقاييس التقدير هى في الواقع تحديد السمات المراد تقديرها بحيث يمكن ان تطبق بطريقة مفهومة على جميع الافراد.

اما النوع الثانى ونقصد به العينة الزمنية فهى طريقة من طرق الملاحظة يتركز فيها انتباه الملاحظ على حدوث او عدم حدوث أنواع من السلوك تحدد سلفا ، وتعتبر ممثلة للسمة المراد دراستها. وتجرى الملاحظات على عدد محدود من الاطفال فى فترات زمنية ، وتحدد من قبل وتعطى عينة من نشاط الطفل بصرف النظر عن التأثيرات العارضة ، كالحالة المزاجية للطفل او الاحداث الخاصة وما شابه . فمثلا استخدمت طريقة العينة الزمنية فى دراسة العلاقة بين كون الطفل لديه عدد قليل أو كثير من اللعب ، وبين تكرار انفجارات أو ثورات الغضب والعدوان لديه ، وظهور أو انتشار سمات معينة كالعصبية والاتجاهات الاجتماعية فى أعمار مختلفة أو تحت ظروف مختلفة .

وهناك اتجاه آخر ظهر فى الحقبة السيكومترية يلقى الضوء على الاهتمام بالفردية في الحقبة التى تلى ذلك ، ونعنى به ظهور عدد من **الدراسات الطولية** . ولكن ابتداء من أعمال ستانلى هول تحولت معظم دراسات نمو الطفل الى دراسات مستعرضة ، أى مقارنة اطفال مختلفين في اعمار مختلفة . وهذه الطريقة المستعرضة أثارت مشكلة منهجية خطيرة وهى هل وصف عمليات النمو التى تقوم على أساس مادة مستمدة من أفراد مختلفين فى أعمار مختلفة، يمكن أن تعتبر حقا دراسة أو وصفا للنمو؟ وكانت الدراسات الطولية التى أجريت للاجابة عن هذا السؤال هى تخطيط النمو بالنسبة لنفس الافراد منذ الولادة وما بعدها ، وقد أوضحت بالطبع أن منحنيات نمو الافراد تختلف اختلافا دالا عن المنحنيات التى تجرى لها تسويات والتى تقوم على أساس متوسطات الجماعات . ونحن ندين للدراسات الطولية بمعرفة فترات الكمون والطفرات فى النمو ، والمسالك النمطية للنمو والتى يسير فيها الافراد المختلفون . ورغم تركيز الباحثين على النمو الفردى ، فان دراسات النمو قد نظر اليها داخل اطار الاقيسة ، كما ركزت على الطرق السيكومترية أو مقاييس السمات الجسمية .

رابعا : **حقبة دراسة الشخصية** : ان علم النفس يهتم اساسا بمعرفة كيف يسلك الناس . والسيكولوجيون العلميون الاول وكذلك السيكومتريون ، كانوا مع ذلك مهتمين أساسا بالمشكلة الفنية ، وهى كيف يمكن فصل العمل الانسانى من أجل الدراسة السهلة . ولكن ابتداء من منتصف الثلاثينات كان هناك احساس متزايد بالشكوى من مصادر متعددة من ان دراسة الانسان انتهت الى أن تصبح دراسة اجزاء متعددة ، وأن الوقت قد حان الى النظر اليه ككل ، وتجمع هذه الاجزاء فى كل متكامل . لانه اذا نظر للكائن الحى جزءا جزءا ، فان الخصائص الانسانية المميزة التى تنتمى الى هذا الكل النامى تميل الى الاختفاء : مشاعره واحساساته واهدافه وأسلوبه الشخصى .

فالفرد ليس حزمة بسيطة من السمات التى يمتلكها بمقادير تتفاوت فى الكبر والصغر . فسماته المتعددة انما تخضع ــ وظيفيا فى نمط منظم ــ الى اهتماماته الانسانية الخاصة ، وانه مهما كانت لديه سمات مشتركة بينه وبين الاشخاص الآخرين ، فان هذه السمات تأخذ معناها الفردى الخاص بالنسبة للمحتوى العام الذى يتميز به سلوك الفرد . والحقيقة انه تحت تأثير مدرسة الجشتلت ومدرسة التحليل النفسى ، أصبح علماء النفس أكثر اهتماما بمفهوم الشخصية ودراستها وطبيعة الفردية، وكيف ينتظم الناس مع هذه الطبيعة . واذا كان السيكوفيزيقيون الاول بحثوا قياس الوظائف النقية « مستقلة عن المعنى » واذا كان السيكومتريون الاول بحثوا قياس الذكاء الخالص مستقلا عن الخبرة السابقة والسمات الاخرى كالانفعالية ، فان هذا الجيل الجديد من الباحثين اراد أن يعطى لكل هذه الامور دورها الكامل ، وأن يرى الانسان ككل يتفاعل مع بيئته الحقيقية . وبهذا المعنى ، فان هذه الحقبة الجديدة تعتبر عودا الى الحقبة الطبيعية ، ولكنها تختلف عنها من حيث اهتمامها بالفرد وبوحدة الشخصية وبالاختلافات والعموميات على حد سواء .

وقد عادت بعض الطرق التى ظهرت في الحقبة الطبيعية الى الظهور ثانية ولكن بصورة معدلة . فالتقارير اليومية استخدمت بشكل اكثر دقة، وأمكن تدريب الملاحظين لسلوك الاطفال من اجل أن تكون التقارير اكثر ثباتا ودقة ، كما درب الملاحظ أيضا كيف يبقى بعيدا فى نفس الوقت الذى يلاحظ فيه سلوك الاطفال ، بمعنى الا تصبح مشاعره مختلفة بما يقوم بملاحظته من سلوك الطفل ، اعنى بعبارة أبسط درب الملاحظ على ان يكون موضوعيا فى ملاحظته . كما عادت الى الظهور الدراسات الميدانية . فأبحاث ليفين عن القيادة حاولت أن تهيىء تجريبيا ، بيئة طبيعية بدرجة كبيرة أو صغيرة لجميع الاشخاص ، كما استخدمت طرق ملاحظة المجال .

غير أن الطرق الحقيقية التى تنتمى الى هذه الحقبة ، فهى تلك التى اطلق عليها « جوردون البورت » اسم المنحى الناموسى nomothetic الذى يهدف الى الكشف عن القوانين العامة والمنحى المتفرد أو الاكلينيكى الفردى idiographic الذى يهدف الى الكشف عن الوحدة المتفردة للكائن الحى . ذلك أن من عادة العلماء ان يتجه اهتمامهم الى الكشف عن القانون العام أو القاعدة السائدة فى السلوك الانسانى ، والى وضع المبادىء العامة والكشف عن العلاقات والتفاعلات بين المتغيرات ، او الى استخراج معايير النمو . وهم يستعينون من اجل تحقيق ذلك بدراسة مجموعات كبيرة من الافراد يقومون بدراستهم أو يطبقون عليهم اختباراتهم وملاحظاتهم بقصد معرفة القانون العام الذى تخضع له هذه الظاهرة موضوع الدراسة . حقيقة، هناك خصائص عامة مشتركة بين افراد الجنس الواحد ، وقوانين عامة تنطبق عليهم ، ولكننا مع ذلك لا نجد اثنين من البشر متطابقين تمام التطابق . فالناس فى تفردهم أشبه ببصمات الاصابع ، ومن المستحيل أن نجد بصمتين متشابهتين لشخصين مختلفين . كما أن عالم النفس والمربى كثيرا ما يضطر الواحد منهما الى أن يركز انتباهه على فرد معين بالذات

ليحاول فهمه فهما دقيقا شاملا ، ومن ثم يجدنفسه مضطرا الا يقتصر على مجرد فهم المبادىء العامة للنمو والتطور والقوانين العامة التى تحكم سلوك الفرد ، بل يركز اهتمامه على الفرد ككل . فالخاصية المميزة للانسان هى فرديته ، اعنى اعتباره مخلوقا فريدا في الطبيعة وانه مستقل مكانيا عن غيره من الافراد ،ولا يشبه تماما اى فرد آخر ، وان يسلك فى مجاله الخاص فى الحياة وعلى طريقته الخاصة .

وفي بداية الثلاثينات شاعت بعض الطرق التى تعنى بالمنحى المتفرد والتى من اهمها تلك المسماة بالطرق الاسقاطية ، وهذه التسميةاطلقها عليها لورانس فرانك سنة ١٩٣٩ .

وهذه الطرق تواجه الفرد بموقف أو مادةغير محدودة ،وغير متشكلة وغامضة الى حد ما ليستجيب اليها كما يشاء وكما يحب . والدلالات الخاصة التى يعزوها للموقف تعتبر ذات اهمية بالنسبة له ولطريقة ادراكه لهذا العالم . ومن اشهر الاختبارات الاسقاطية المعروفة والواسعة الانتشار والتى تستخدم على نطاق واسع في دراسة الشخصية اختبار بقع الحبر لهرمان رور شاخ حيث يفسر المفحوص طفلا كان أم كبيرا ، عددا من بقع الحبر غير المتشكلة . وكذلك اختبار تفهم الموضوع لهنرى مورى حيث يكون الفرد قصة عن كل صورة من الصور التى تعرض عليه ، يكشف فيها عن مشاعره واتجاهاته نحو الموضوعات الرئيسية التى تتضمنها الصورة . وهناك اختبار تداعى الكلمات لـ « كارل يونج »حيث يستجيب المفحوص لقائمة من الكلمات التى تعرض عليه شفاهة كلمة كلمة ، ويسجل زمن الرجع والاستجابة التى يذكرها المفحوص، والذى بواسطته يمكن الكشف عن مجالات الضغوط فى حياة الفرد . واذا كانت هذه الاختبارات قد ،وضعت للصغار والكبار على السواء ، فان هناك عددا آخر قد وضع خصيصا للاطفال كاختبار اللعب (لويزا ديز) واختبار تفهم الموضوع للاطفال . وعلى العموم يمكن القول بأن ليس هناك استجابات صحيحة واخرى خاطئة للاختبارات الاسقاطية ، وان مايراه كل فرد انما يتشكل وفق ادراكاته وحالته الانفعالية واتجاهاته وميوله وقيمة . وهذه الاختبارات الاسقاطية يمكنها ان تكشف عن التنظيم الداخلى للفرددون أن يشعر الفرد بذلك ، أو دون أن توجه اليه الاسئلة بطريقة مباشرة على نحو ما نجده مثلا فى الاستخبارات التى يحاول المفحوص احيانا الا يجيب عنها بصراحة او دقة متناهية.

،وفى خلال هذه الحقبة ايضا كان هناك اهتمام متزايد « بالتجربة الطبيعية » هذا المنهج الذى استخدم فى ميادين مختلفة كالفلك والاجتماع والطب ، او حيث تكون الظروف التي نقوم بدراستها خارج قدرة الباحث ويصعب عليه اخضاعها للتجريب وعوامل الضبط (اما لأسباب خلقية أو لأسباب عملية) . ولذا فليس على الباحث الا ان ينتظر حتى تتفضل الظاهرة بالمثول بطريقة طبيعية لملاحظتها ،ودراستها . والدراسات التي اجريت على أثر اصابات المخ في الانسان تدخل بالضرورة تحت هذا النوع . وبالمثل ايضا الدراسات التي قام بها شبتز Spitz عن اثر الحرمان المبكر على الاطفال ، وكذلك دراسات آنا فرويد والمجلس القومى للبحوث فى أمريكا عن الآثار النفسية للكوارث . وبالمثل فان اى باحث يهتم

بدراسة النمو الشاذ ، نجده مضطرا للتعامل مع مثل هذه الحالات التي يقابلها . وبالطبع يمكن اجراء الدراسة على الحيوان حيث يكون الباحث اكثر قدرة على اجراء التجارب واعداد الظروف التي يستحيل اجراؤها على الانسان. والجدير بالذكر ان جانبا كبيرا من الافكار في سيكولوجية النمو ، يأتي من دراسات اجريت على الحيوانات ويمكن ان نشير الى دراسات ليدل Liddell وغيره على الماعز والخراف ، في علاقة الصغار بالام ، وعلى العصاب التجريبي . ولذلك تعتبر التجربة الطبيعية هي منهج السيكولوجي الاكلينيكي او الطبيب النفسي ، الذي يريد دراسة شخص فرد نتيجة اهتمامه بآثار ظروف خاصة ، او البحث عن فروق في الشخصية او في المناهج العلاجية .

تلك هي المناهج الاربعة الرئيسية في دراسة النمو ـ الملاحظة والتجربة والاختبارات والمقاييس الاكلينيكية . وقد ظهرت بالتتابع نتيجة اهتمامات واتجاهات مختلفة لدى الباحثين ، ولكنها جميعها اثبتت نفعها لعديد من الاغراض في دراستنا للكائن الحي الانساني .

● ● ●

● نظرة الى دراسات النمو النفسي

اعتاد غالبية علماء نفس الطفل عند دراستهم لعملية النمو ، النظر الى التغيرات المختلفة التي تطرأ على الكائن الحي منذ اللحظة الأولى التي تبدأ فيها الحياة جنينا في بطن الام ثم تعقبه بالدراسة حتى الرشد . وقد اخذ هؤلاء بفكرة تقسيم النمو الى مراحل زمنية يمر بها الكائن الحي . **فهناك مرحلة ما قبل الولادة والطفولة المبكرة والمتاخرة والمراهقة . وعادة يتتبع الباحث داخل كل مرحلة دراسة مظاهر النمو المختلفة وتطورها . فهناك النمو الجسمي والعقلي والاجتماعي والانفعالي** . وقد يأخذ الباحث مرحلة بعينها ويعالج فيها جوانب النمو المختلفة ثم ينتقل الى التي تليها وهكذا ، او قد يأخذ مظهرا بعينه من مظاهر النمو ويتتبعه بالدراسة في جميع المراحل ثم ينتقل الى مظهر آخر وهكذا . والنتيجة واحدة في كلتا الحالتين وان اختلف الاسلوب الذي يتبعه الباحث ، ولو اطلعنا على الكثير من كتب علم نفس النمو ، سواء ما كتب منها بالعربية او باللغات الاجنبية ، نجد انها قد سلكت سبيل هذه الدراسة الوضعية او الشكلية . **ومن امهات الكتب في هذا المجال ما قدمته اليزابيت هرلوك في مجموعتها الثلاثية الهامة** .

(١) Developmental Psychology

و (٢) Child Development

و (٣) Adolescent Development, وما قدمه ارنولد جيزل وآخرون في تلك السلسلة الرائعة من كتب النمو والتي تعد دراسة تطورية هامة من الطفولة المبكرة حتى الشباب والتي وردت بكتبهم .

Infant and child in the culture of today (١)

Child from five to ten (٢) و

و (٣) Youth والتي ترجمت كلها الى اللغة العربية ، وكذلك كتاب آرثر جيرسلد وآخرون Child psychology . ولا يمكن حصر الكتب التي سارت على هذا النحو في هذا المجال .

غير أن ثمة اتجاها آخر ركز على الكائن الحي ككل واهتم بالاطار النظرى العام لعملية النمو واقتربت الدراسة فيه من دراسة لنمو الشخصية . والنظرة هنا في شمولها نظرة دينامية اكثر منها وصفية . فقد ركزت معظم النظريات التى اتبعت هذا المنحى الاخير على دراسة العوامل المؤثرة فى نمو الشخصية ابتداء من الطفل حتى الرشد ، وكيف أثرت هذه العوامل او المحددات في بناء الشخصية وفى نوع النمو الناتج عنها . وكان من الطبيعي ان تتعدد أيضا النظريات التى سلكت هذا السبيل . ذلك ان أبنية الشخصية وعملياتها لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر ، وانما يتطلب الامر الاستدلال عليها من النمط للاستجابات التي يقوم بها الفرد داخل اطار موقفى معين . ولذا فليس مما يثير الدهشة اذن ان تختلف نظرة الباحثين لنمو الشخصية او بمعنى اوسع النمو النفسي للفرد . فاذا كان فرويد مثلا يؤكد في تحليله للنمو النفسي على تطور الدوافع والانفعالات وبخاصة خلال السنوات الثلاث الاولى من الحياة ، فان كتابا آخرين من أصحاب الاتجاه النمائى من أمثال هاينز فرنر ، وجان بياجيه لايلقون اهتماما بالكلية الى نمو الدوافع أو الانماط الانفعالية ، بل يوجهون اهتمامهم باكمله الى النمو العرفى ، والتفكير التكيفى ، على حين يتمسك آخرون بالنظرية الفرويدية ولكنهم يدخلون عليها بعض التعديلات والاضافات على نحو ما فعل اريكسون .

واذا كانت النظريات التي كتبت في هذا الاتجاه الثانى كثيرة ومتعددة ، فان ضيق المجال لا يسمح لنا بالتعرض لها جميعها . ولذا سوف يخص الباحث هنا بالذكر نظريات اربعة لها اهميتها وهي نظرية النمو النفسي ــ الجنسي لفرويد ، ثم نظرية النمو النفسي ــ الاجتماعى لأريكسون ، والتي تعد تعديلا للاولى واضافة عليها ، ثم نظرية نمو الذات عند جوردون البورت ، واخيرا نظرية النمو العقلى المعرفى عند جان بياجيه . وسوف نشير الى كل نظرية منها بشيء من الافاضة .

أولا : النظرية النفسية ــ الجنسية لفرويد :

ان مادة التحليل النفسي وكتاباته لاحصر لها . ومن المستحيل فى مثل هذا المجال أن نقدم عرضا وافيا لمثل هذه النظرية الضخمة . ولذا سوف نقصر انفسنا هنا على الجوانب التي من شأنها ان تساعدنا فى التعرف على النمو النفسي عند اصحاب نظرية التحليل النفسي . ويحسن قبل أن نتعرض لمراحل النمو النفسي الجنسي فى نظرية فرويد ان نلقى الضوء على ديناميات الشخصية وبنائها ثم نعرض لمراحل النمو .

ديناميات الشخصية :

● ان نظرية التحليل النفسي ـ ككل النظريات الدينامية ـ تدور حول القوى أو الحوافز ، فهى اساسا نظرية دافعية . والظواهر العقلية ينظر اليها على انها نتيجة قوى متفاعلة يمكن ان تفهم من وجهة نظر تاريخية . وبعبارة ابسط ان فرويد ينظر الى الاحداث الراهنة باعتبارها نتاج نمو سابق تمتد جذوره الى الماضى .

والمصطلح الذى استخدمه فرويد للدلالة على الطاقات او القوى التى تستثير النشاط الانساني هو المصطلح الالمانى Trieb والذى ترجم الى اللغة الانجليزية ، بالمصطلح Instinct والذى يعرف فى اللغة العربية بالغريزة . ولكن هذه الترجمة للمصطلح الالمانى ادت الى الخلط فى فهم هذا المصطلح . ذلك ان Trieb كما استعمله فرويد ، لا يتضمن معنى النمط الثابت غير القابل للتغير ، والذى يعنيه المصطلح Instinct . فتحت الظروف والتأثيرات البيئية ، يمكن للغريزة بمعانيها فى المصطلح الالماني ، ان تغير من اهدافها وموضوعاتها .

ومفهوم الغريزة من المفاهيم الاساسية فى كتاب فرويد وتفكيره . ومعظم كتابات فرويد تمليها فكرته وهى ان الانسان ولد مزودا بغرائز معينة . ولقد صادق فرويد على وجود نوعين من الحوافز الانسانية أو الغرائز وكلاهما بيولوجى فى طبيعته . اما النوع الاول فيتكون من الحاجات الجسمية البسيطة كالجوع والعطش والاخراج والتنفس ، هذه الحوافز او الدوافع تستثيرها التغيرات البدنية التى تحدث داخل الكائن الحى العضوى . وشباع هذه الحوافز أو الحاجات الاساسية أمر حيوى لبقاء الانسان ، كما أن اهدافها لا يمكن تغييرها أو تعديلها . ولذا ، فان الاختلاف بين الافراد بالنسبة لهذه الحاجات قليل للغاية ومن ثم فانها تعد قليلة الاهمية نسبيا لعالم النفس .

أما المجموعة الثانية من الحوافز فهي تلك التى وصل اليها فرويد من دراساته للمرضى النفسيين . وهذه يمكن تقسيمها الى قسمين : غريزة الحياة وغريزة الموت . الاولى تخدم غرض الحفاظ على الحياة وتكاثر الجنس ، ويطلق فرويد على القوة الحيوية الدافعة لها اسم « الليبيدو » وهو هذا الجزء من تركيب «الهو» الذى يبحث عن اشباعه من الحوافز الجنسية . ومعنى الجنس عند فرويد أوسع بكثير من مفهومه الدارج فى حياتنا اليومية وفي لغتنا الدارجة . فهو يتضمن بالاضافة الى معناه المتصل بالحوافز الجنسية عند الكبار ـ كل ما يؤدى الى الشعور باللذة من خلال استثارة المناطق الشبقية للجسم ، وهى المناطق التى لها قدرة على اثارة الاحساس السار أو الشعور باللذة عند الفرد . وهى غالبا المناطق الحساسة في جسم الانسان كالشفاه والتجويف الفمى والمنطقة الشرجية واعضاء التناسل . والغريزة الثانية وهى غريزة الموت فهى تخدم أغراض الهدم والتدمير .

وتتميز الغريزة عند فرويد باربع خصائص وظيفية اساسية هى : المصدر والهدف والموضوع والقوة الدافعة . ولتوضيح هذه الخصائص لنفرض أن انسانا ما يحس بألم فى

اسنانه ، فان نتيجة هذا الاحساس تدفعه من خلال مبدأ التوازن الداخلى الى خفض التوتر على النحو التالى :

المصدر Source : وهو الحالة البدنية للشخص وهو هنا الالم الذى يحسه الفرد في اسنانه .

الهدف Aim : وهو التخلص من الاستثارة أو التهيج البدنى . وهو هنا ازالة الالم الناتج عن تسوس السن والعودة الى حالة الارتياح التى كان يحس بها قبل حدوث الالم .

الموضوع Object : وهو يشير الى ضروب النشاط التى تقع بين ظهور الحاجة وتحقيقها . فهو لا يشير الى شيء بعينه او حالة تشبع الحاجة فحسب ، بل انه يتضمن كذلك كل اشكال السلوك الذى يحدث مستهدفا الحصول على الشيء أو الحالة اللازمة. وهو فى هذا المثال ترتيب موعد مع الطبيب والذهاب اليه والجلوس على الكرسى .

القوة الدافعة Impetus : ويقصد بها قوة او شدة الحاجة المحركة . فالم الاسنان حين تخف حدته أثناء النهار تقل قيمة المثير الى حد ما ، ولكن حين يصبح الالم غير محتمل خلال الساعات الاولى من الليل تزداد قوة المثير بشكل واضح وتصبح القوة الدافعة أكثر شدة فيزداد اصرار الشخص على ضرورة الذهاب الى الطبيب .

ويرى فرويد أن مصدر الغريزة وهدفها يظلان ثابتين طوال الحياة ، مالم يتغير المصدر او يزول نتيجة النضج الفيزيقى . اما الموضوع أو الوسيلة التى يحاول بها الفرد اشباع الحاجة فهى تتباين تباينا ملموسا خلال حياة الفرد ، وذلك نتيجة قابلية الطاقة النفسية للازاحة من موضوع لآخر . واذا كان هذا الابدال أوهذه الازاحة ممكنة بالنسبة للموضوع فهى غير ممكنة بالنسبة لمصدر الغريزة أو هدفها .

• • •

* بناء الشخصية :

وتتكون الشخصية من ثلاثة نظم أساسية: الهو ، والأنا ، والانا الاعلى . ورغم أن لكل جزء منها وظائفه وخصائصه ومكوناته ومبادئه وديناميات وميكانزماته التى يعمل وفقا لها ، الا أنها جميعا تتفاعل معا تفاعلا وثيقا بحيث يستحيل فصل تأثير كل منها عن الآخر وتقدير وزنه النسبى فى سلوك الانسان . فالسلوك ، فى الاغلب ، هو محصلة تفاعل هذه الانظمة الثلاثة. ونادرا ما ينفرد احداها بالعمل دون الآخرين. وسوف نوضح فيما يلى كل واحدة منها على حدة وباختصار .

الهو : لقد كتب الكثير عن هذا المصطلح الذى وضعه فرويد . و « الهو » هو النظام الاصلى للشخصية والذى يعتبر أساسا لكل حياة انسانية . فهو يوجد مع الانسان منذ لحظة ولادته ، ويظل معه طول حياته . هو ذلك الجزء من النفس الذى يحوى كل ما هو موروث أو غريزى ، كما يحوى العمليات العقلية المكبوتة التى فصلتها المقاومة عن الحياة النفسية الشعورية . فالهو مستودع الطاقة النفسية كما انه يزود العمليات التى يقوم بها النظامان الآخران بطاقاتهما .

ويخضع **الهو** لمبدأ اللذة فقط ولا يهتم بأى شىء آخر . انه هذا الجزء الخام ، غير المرتب ، غير المهذب ، الباحث عن اللذة . انه الزاد الاساسى الذى يحرك الانسان خلال حياته، أنه لايعرف القوانين ولا يخضع لقواعد ويبحث فقط عن شهواته . انه القوة المحركة لوجود الانسان . وعلى الرغم من أنه وثيق الصلة بالعمليات الجسمية التى يستمد منها طاقته ، فان « الهو » نظام نفسى حقيقى ، وليس له مكان محسوس فى جسم الانسان ، كالقلب أو المخ مثلا .

ولا يمكننا ابدا أن ندرك الهو فى صورته الخام . وربما كانت أقرب صورة للهو ، ما يبدو لنا في دراسة الطفل الصغير أو فى سلوك الذهانى (المريض عقليا) . فالطفل الصغير يسلك سلوكا انانيا تماما ، يهدف الى اشباع رغباته وتحقيق لذاته دون مراعاة لحاجات الاخرين ، فهو يخضع لمبدأ اللذة فحسب . وكذلك الذهانى الذى يسلك كيفما يحب ويعجبه ، فسلوك الطفل والذهانى اقرب الى ما يعنيه فرويد بمفهوم « الهو » .

الأنا : ومن المفترض أن الهو فى صورته الخام ، اذا ترك لاساليبه الخاصة فقد يحطم نفسه . فهو في حاجة الى ما يضبط طاقته ويوجهها نحو أكبر اشباع وبقدر ما تسمح به مطالب الحياة ودون ان يهدم نفسه اويحطمها . ويذهب فرويد الى أن الانا تحقق هذه الوظائف وتحققها جيدا . فالانا تتبع مبدأ الواقع وتعمل وفق العمليات الثانوية . فاذا كان الهو يعمل وفق مبدأ اللذة ويستخدم العملية الاولية وتفريغ التوتر بتكوين صورة لموضوع من شأنه أن يزيل التوتر ، الا أن الكائن الحى يتطلب معاملات مناسبة واشباعا واقعيا ، ومن ثم يفرق الانا بين الاشياء التى توجد فى العقل والاشياء التى توجد فى العالم الخارجي . ومن هنا تطيع الانا مبدأ الواقع الذى يعمل على الحيلولة دون تفريغ التوتر حتى يتم اكتشاف الموضوع المناسب لاشباع الحاجة . فمبدأ الواقع يرجىء مبدأ اللذة مؤقتا ، لان مبدأ اللذة هو الذى سوف يخدم فى نهاية الامر عندما يوجد الموضوع المرغوب فيه ، ومن ثم يخفض التوتر .

فالأنا اذن امتداد للهو وغير مستقل عنه أبدا . والانا هو الجزء المنظم وهو الذى يبحث فقط عن ايجاد مخارج تخدم اغراض الهو ، دون ان يترتب على ذلك تحطيمه . أن الانا يستمتع بكل الاشباعات التى يسمح للهو أن يستمتع بها أيضا ، ولكنه يستمتع بها بذكاء وبتعقل في ضبط واختيار وتقرير ما يشبع وكيف يشبع . فالانا اذن يخضع لمبدأ الواقع ، يفكر تفكيرا موضوعيا ومعتدلا ومتمشيا مع الاوضاع الاجتماعية المتعارف عليها . اما وظيفته

فهى الدفاع عن الشخصية والعمل على توافقهامع البيئة وحل الصراع بين الكائن الحى والواقع أو بين الحاجات المتعارضة للكائن الحى .

الأنا الاعلى : وهــذا هو المكــون الثالثلشخصية الفرد ، وهو مكون يقع فى الطــرف الآخر من الهو ، والانا الاعلى هو الاخير فى عمليةالنمو النفسى لهذه الابعاد الثلاثة للشخصيــة . انه المثل الداخلى للقيم التقليــدية للمجتمع ،وهو شىء موجود داخل الفرد وليس خارجه . أنه مكون داخــلى وليس مجموعــة من القوانينالحاكمة ، وعندما ينمى الفرد « انا أعلى » داخل نفسه ، يكون حينئذ قد أصبح شخصية ناضجة . فالانا الاعلى هو هذا الجانب الخلقى للشخصية، أنه مثالى وليس واقعيا ، هدفه الكمال وليسالللذة . انه هو الذى يقرر ما اذا كان نشــاط ما حســنا أم ســيئا وفق معايير المجتمع التىيتقبلها ، والقوانين الاجتماعية لا تعنى شــيئا بالنسبة اليه ما لم يتقبلها ويتوحد معها .

ويمكن تلخيص الوظائف الاســاسية للاناالاعلى فيما يلى :

١ ــ كف دفعــات الهو وبخاصــة تلكالدفعات ذات الطابع الجنسى أو العــدوانى ، حيث ان هذه الدفعات هى التى يقابل التعبيرعنها من المجتمع بأشــد صور الادانة والرفض.

٢ ــ اقناع الانا باحلال الاهداف الاخلاقيةمحل الاهــداف الواقعية .

٣ ــ العمل على بلوغ الكمال ، أى أن الاناالأعلى يميل الى معارضة الهو والانا معا ، والى تشكيل العالم على صــورته . الا أنه يشــبه« الهو » فى أنه غير خلقى ، ويشبه الانا فىمحاولته ممارســة التحكم فى الغرائز ، ويختلف « الاناالاعلى » عن « الانا » فى أنه لا يحــاول ارجــاء الاشباع الغــريزى فحسب ، بل انه يحــاولالحيلولة دونه على الدوام .

تلك هى ديناميات الشــخصية وبنــاؤهافى نظرية التحليــل النفسى . وفي ضــوئها قام فرويد بتفسير أساليب السلوك المختلفة والمراحلالنمائية التى تمر بها ابتــداء من الطفولة حتى الرشــد . ويمثل هذا الانتقال من مرحلة الىمرحلة النمو النفسى الجنسى للفرد ، والذى قد يتخذ صورة سوية أو غير ســوية نتيجةالمؤثراتالمختلفة التى يتعرض لها الفرد . وسوف نشير باختصار الى هذه المراحل المختلفة التى يمر بهاالفرد فى نموه النفسى من الطفولة حتى الرشد .

• • •

٭ مراحل النمو :

ولفظ مراحل يشير الى تتبع نمو الانسانوشخصيته ابتــداء من الولادة حتى الكبر . فالطفل قد يمر عبر سلسلة من المراحل المحددةتكوينيا ، ومالم يتعرض هذا النمو في ســيره الى تدخل ظروف شاذة أو معوقة ، فمنالمتوقعله ان يسير على نحو طبيعى،وعلى شاكلة مانجده عند الغالبية العظمى من الناس .

ان فكرة بناء الشخصية ونموها عندفرويد اشبه ما يكون بالطريقة التى يقوم بها البناء حائطا من الطوب حيث توضع طوبة طوبة ،ويسير البناء من اسفل الى أعلى ، وترتبطقمة البناء باساسه أو اصله . فشكل البناء وسمكهوجميع خصائصه ترسي قواعده فى الاساس الذى يقام عليه . وتغيير شكل البناء تغييراملحوظا قد يترتب عليه هدم البناء باكمله . والشخصية بالمثل ـ في نموها ـ ترسى قواعدهافى السنوات الاولى من حياة الكائن الحى . وهذا الاساس غير قابل للتغير وهو يحدد ما يمكنان يقام عليه بعد ذلك . فان كان الاساس ضعيفا مهزوزا وغير مستقر ، نشأت الشخصيةوتطورت بشكل ضعيف مهزوز غير مستقر كذلك . ومن هنا جاء قول فرويد أن « الطفلأبو الرجل » ، وأن الاساس الذى يوضع في الطفولة هو الذى يحدد ما سيكون عليه الفردفى الكبر . ولكن ليس معنى ذلك انه حين ينمو البناء لا يمكن تغييره . ان من الممكن احداثتغييرات طفيفة ، ولكنها لا تتجاوز ابدا حدود ما يتحمله الاساس أو الشكل الذى اتخذه . فانحدث هذا التجاوز انهار البناء (على نحو مانجد فى الشخصيات الذهانية والعصابية) . وفىالعادة يتغير الكثيرون منا مع النمو ، ولكن احساسا منا بخطر الانهيار ، وخوفا على انفسنامن اهتزاز البناء ، فاننا نحذر الابتعاد كثيرا عما يمكن أن يتحمله بناء شخصياتنا .

وعلى هذا النحو ، نجد فرويد يعطى اهميةكبرى لعملية البناء طوبة طوبة من اجل بناء شخصية الفرد فى المستقبل ، كما يعطى اهميةكبرى للسنوات الخمس الاولى من حياتنا ، باعتبارها أهم سنى العمر والاساس الذى يقامعليه كل بناء .

ومن حسن الحظ ان عوامل البناء تتوافرللغالبية العظمى من الناس . فاغلبنا ينشأ فى احضان أبوين يتكاتفان معا على تربيته وتنشئتهبشكل يجعل الرحلة الطويلة للحياة تسير فىخطى وئيدة مطمئنة متعاقبة . فاكبر العوامل ذاتالاثر في نمونا النفسى السوي وصحتنا العقلية فى الرشد ، توضع خلال السنوات الاولى منالحياة .

ان الوليد عندما يرى النور لاول مرةتتركز اهتماماته على اشباع حاجاته الاساسية التى يولد مزودا بها ، واهمها حاجته الى الطعام الذى يحصل عليه عن طريق الفم ، وقرابة نهاية السنة الاولى تبدأ عمليات ضبط الاخراجوالتدريبعلى العادات المتعلقة به ، ومن ثم يتركز اهتمامه حول هذه العمليات وتصبح محورالتركيز من الناحية الجسمية . وفى حوالى سن الثالثة يبدأ الطفل فى استطلاع غوامض تشريحأعضائه التناسلية أو اعضاء المحيطين به . هذا ما يحدث لكل فرد . فكل طفل يمر بثلاث مراحلنمائية رئيسية تقع كلها فى السنوات الاربع الاولى من حياته ، ويهتم كل منها بجزء خاصمن تشريحات جسمه يكون مؤقتا موضع الاهتمام الاول بالنسبة للطفل . فهناك الفم ثم الشرجثم الجهاز التناسلى . وهذه لا تصبح فقط موضوعات الاهتمام الخاص عند الطفل ، بل انالخبرات التى ترتبط بها تصبح الطرق التى تؤدى الى الحصول على الاشباع وتؤدى الىالاحباطات ايضا .

فالطفل الصغير يركز اهتمامه اساساطوال السنة الاولى تقريبا في المنطقة الفمية ، ثم ينتقل هذا التركيز بعد ذلك طوال السنةالثانية والثالثة تقريبا حول منطقة الشرج ، ثم يتركز الاهتمام اخيرا حول المنطقة التناسلية ،وذلك بعد سن الثالثة الى سن السادسة . وطبيعى أن ليست هناك قواعد ثابتة محددةلمجرد الزمن الذى يتحول فيه الطفل من خبرة الى اخرى ، لان ذلك يتوقف الى حد كبير علىاسلوب المعاملة الاسرية ، كما ان ليس هناك بالتأكيد فواصل مميزة دقيقة بين كل مرحلةواخرى .

« لقد لقد سمى فرويد هذه المراحل باسم «مراحل النمو النفسى الجنسى » وهذا هو التعبير الذى لا زالت تعرف به . . أن هذا التعبير يعنىان الطفل على طول تطوره النفسى ، يمر بعلامات مميزة ومحددة لمراحل النمو النفسى الخاصةكلما كانت القوى والدوافع الداخلية فى هذا الشخص الجديدتحاولان تصله بالناس المحيطينبه ، وان تجد الطرائق التى تعطيه الاشباع من هذا الاتصال » .

وسوفنوضحمراحل النمو النفسىالجنسىهذه دون الاضافة في ذلك :

(١) **المرحلة الفمية :** ترتبط أول مرحلةمن مراحل النمو فى تكوين شخصيةالفردبالمنطقة الشبقية الفمية وعلى وجه الخصوص بالشفتين. فالطفل يبدا عقب الولادة بقليل استخدام الشفتين فى الحصول على الطعام ، ويصبحفم الطفل وسيلة الاتصال الهامة بالعالم ، وهو لا يستعمله للحصول على هذا الطعام الشهيالذيذ الذى من شأنه ان يخفف من حدة التوتر الذى يشعر به فى احشائه فحسب ،بل وايضا ليستمتع بحنان الام التى تضمه الى صدرها وقت اشباع هذه الحاجة . ويتكررهذا الحدث الهام فى حياة الطفل كل ثلاث أو أربع ساعات ، كما يكتسب الشخص الذىيحتضنه وهو يطعمه من الثدى أو الزجاجة بمرور الزمن نفس أهمية الطعام .

وليس ثمة شك ان هذا الطعام الذىيحصل عليه الطفل يعتبر مصدر اشباع ولذة . فهو طعام شهى ولذيذ (وهذا هو مبدأ اللذة). وسواء كان يحصل عليه عن طريق الثدى أوعن طريق الزجاجة ، فان الوليد فى شهره الاولسرعان ما يتعلم (عن طريق مبدأ اجبار التكرار) أن التجويف الفمى واللسان والشفتين عندماتمس هذه الاشياء تصبح مصدر لذة وسعادة بالنسبة له (منطقة شبقية) . ومن الطبيعىأن يتعلم الطفل استخدام الشفاه كلما أراد الحصول على هذا الاحساس السار أو اللذة ،فهو عندما يحس ثانية بالجوع ، تقوم المنطقة الفمية بدورها وتؤدى به الى الشعور باللذة. ولما كان الطفل فى هذه المراحل الاولى منحياته يعتمد كثيراً على العادات التى يكونها ، فانه يلجاالى استخدام الشفاه في الحصول على اللذة أيا كانت حالة الجوع التى يكون عليها . وتبعاًلذلك ، وبعد ان يكون قد درب الشفاه على احداث اللذة ، فقد يلجأ الى استخدام الاصابعاو اى مثير آخر (كأصابع القدم مثلا) من اجل الحصول على اللذة سواء كان جائعا أم غير جائع(خفض التوتر) . وهكذا تصبح الشفاه من الآن فصاعدا مصدراً للحصول على اللذة .

ولما كانت الاشياء التى تظهر أولا فى نظامما ، تكون آخر ما يترك هذا النظام ، فانالمرحلة الفمية والمنطقة الشبقية الفميــة تكونان علـىهذا الاساس اطول واقــوى مراحـل حيــاة الانسان . فهو دائما يبحثعن لذة المنطقة الفمية ،وهو يقوم بذلك حتى اذا كان مثل هذا النشاط غير مجد فى حل المشكلة او في خفض التوتر .

(ب) **المرحلة الشرجية :** والمجموعة التاليةمن الخبراتة ذات الاهمية البالغة فى تشــكيل طباعنا وعلاقاتنا بالناس هى التدريب على عمليةالاخراج وعاداته . وكما كان الحال خلال المرحلة السابقة لا يتركز الانتباه فقط على جزء معين منتشريح الجسم ، ولكن على وظيفة هامة ترتبط به . وتختلف الاتجاهات التى تتكون في هــذهالمرحلة اختلافات بينة ، الامر الذى يتوقف على ما يظنه الآباء أحسن مران ونظام للتدريب يمكناستعماله » .

وحين يتجمع قدر كاف من فضلات الطعاملدى الطفل ، فان ذلك يسبب له توترا فىالامعاء يؤدى الى الشعور بعدم الارتياح أو الالم . وطردالفضلات واخراجها يزيل عنه مصــدر القلق ، ويحدث له الشــعور بالراحة . وعند بدايةالتدريب على النظافة ــ وهذا ما يحدث عادة في السنة الثانية منالعمر ــ يلتقى الطفل بأول خبرةحاسمة له مع التنظيم الخارجى لدفعة غريزية. فعليه ان يتعلم ارجــاء اللذة التى يحققهــا لهتخلصه من توتره الشرجى ، اى عليه ان يتعلم الخضــوع لمبــدأ الواقع ، وان يقوم بعمليةالاخراج حين تصل هذه الضغوط الى حد معين، وان يقوم بها فى اماكن معينة وليس فى اى مكانيشاء .وتتوقف نتائج هذا التدريب على الاسلوب الذى تتبعه الام فى تدريبه على ضبط عمليــةالاخراج . فان كان أسلوبا شــديدا صــارما ، فقد يقبض الطفل علىفضلاته ويصاب بالامساك .وحين يعمم هذا الاسلوب فى الاســتجابة الى مجالاتة من السلوك فيما بعد ، فقد ينمو لدىالفرد خلق قابض ويصبح عنيدا شحيحا ... أما اذا كانت الام من النوع الذى يتودد الى الطفلليخرج فضلاته وتسرففىمديحه عندما يستجيب لذلك ، فان الطفل تتكون لديه فكرة قوامهــا انالنشاط الاخراجى باكمله امر بالغ الاهمية .

وقد تكونهذهالفكرة أساسالخلقوالانتاج .وعلى العموم ، يقال أن العديد من الســمات الاخرى ترجع جذورها الى المرحلة الشرجيــة(هول ولندزى ص ٧٦) .

وبالتأكيد يستطيع الطفــل ان يحس بأنعملية التدريب على الاخراج هامة جدا بالنســبة لأمه وابيه ، والا فلماذا كل هذه الضجة التىتثار حولها . انه يتعلم فى وقت مبكر ان ما يقوم به من عمل أو مال يؤديــه يكون له اثره علـىالمحيطين به . وليس من شك في ان الخبرات التى ترتبط بالتدريب على الاخراج ، وما ينتجعن ذلك من اتجاهات الاطفال نحو الآباء ، تضع اللبنات الاولى لكثير من الاتجاهات والاعمال التىيقوم بها الفرد فى مســتقبل حياته . انها اول عهده بالتأديب والنظافة ، وربما قد يتعلم منهاأشياء اخرى كثيرة . فقد يتعلم من هذه العملية « ان يثابر على العمل حتى ينتهى من العمليــةالاخراجية » ، وهذه بلا شك خبرة لها علاقة بالمثابرة والاصرار فيما بعد ذلك من أيام الحياةفي اى عمل نقوم به،كما قد تغذى عندهالاحساس بالقوة اذ يمكنه التحدى والعناد ومنع الاخراج،وليس هناك من يجبره على القيام بذلك اذا اراد الامتناع عن القيام به .

(جـ) **المرحلة الجنسية**. وتتفجر فى حياة كل كائن بشرى في حوالى سن الثالثة اوالرابعة رغبة فى استطلاع أمور الجنس ، ويرتبط بهذه الرغبة قدر معين من الاستثارة الجنسية . والمنطقة الشبقية الثالثة التى تلى المنطقتين السابقتين هى الاعضاء التناسلية . ولا شك ان الطفل يستمد لذة من العبث بهذه الاعضاء. وتكون حياة الطفل الانفعالية اى علاقته الوجدانية بأفراد الوسط المحيط به في هذه الفترة ، أشبه بالحياة العاطفية للكبار . وفى خلال هذه الفترة (من سن ٣ ـ ٥) تكون علاقاته العاطفية والاجتماعية بوالديه قد اخذت تنمو وتتعقد وتهيىء السبيل لظهور عقدة أوديب . وتستمد عقدة أوديب اسمها من اساطير الاغريق حيث كان اوديب طفلا لاحد الملوك ، وتكهن المنجمون أنه سوف يقتل اباه حين يكبر ، فنبذه الملك فى العراء . ولما كبر أوديب التقى بالملك وتنازعا على امر ما ، فقتل أوديب الملك دون أن يعرف انه ابوه ، ثم دخل المدينة وتزوج ملكتها ، وهى أمه ، دون ان يعرف أنها امه . وقد اتخذ فرويد من هذه الاسطورة صورة لما يعانيه الطفل الانسانى أبان طفولته المبكرة فى صلته بوالديه والتى تسمى باسم « الصراع الاوديبى » .

ذلك ان أول موضوع يمر بخبرة الطفل ـ عدا نفسه ـ هى امه . انها أول انسان يطعمه ويلبسه ويحبه ويجيب كل مطالبه وحاجاته . والطفل يعتمد على الام فى هذه المرحلة الاولى من حياته اعتمادا كليا . ومن هذا الاعتماد من أجل الحياة والتوحد معها ، ينمو الاحساس بالحب للام .

ثم أن الطفل بالاضافة الى حبه لأمه واكتشافه لجسمه واعضاءه التناسلية يصبح أيضا على معرفة بالدور الذى يقوم به الاب فى حياته . فالاب انسان اكبر واقوى منه بكثير ، وانه اقل وجودا معه فى البيت ، وانه يشبهه في الجنس ، ثم انه يشاركه فى حب الام ويحظى باهتمامها .

وفى الحقيقة يبدو أن له بعض الاولوية فى وقت الام ومحبتها ، وتكون النتيجة الطبيعية لهذا هو الاحساس بمنافسة خفية وغيرة مصاحبة . وفى المراحل الاولى لهذه المعرفة ، لا يفعل الطفل الذكر شيئا لكبح احساسه بالغيره . ومع ذلك يبدأ الكبت فى الظهور مع استمرار النمو . ثم هو يلاحظ أيضا انه من الناحية الجسمية ، اقرب شبها بأبيه منه بامه ، وهى حقيقة تؤدى به الى التوحيد مع الاب مثلما توحد مع الام . وينشأ التناقض الوجداني (مبدأ الازدواج او الثنائية) عن هذه الشحنة الوجدانية نحو شخصين مختلفين كلاهما يعتبر ضروريا وهاما لسعادته وراحته . فهو من ناحية يحب أن يشارك الاب فى حب الام ، تلك المشاركة التى لا يحبها نظرا لرغبته في الاستئثار بحبها ، ولكنه من ناحية اخرى اكثر شبها بالاب منه بالام ، وهو احساس بالتوحيد يجلب له السرور والرضا. وطالما انه مع استمرار النمو ينمو ايضا مبدأ الواقع ، فانه قد يتوقع نوعا من العقاب يوقعه به الاب ، أعنى عقاب الاب له على مشاركته فى حب الام . ولما كانت معرفته بالعالم لا تزال قاصرة ، ولما كانت تربيته لا تزال تدور حول المناطق الفمية والشرجية والجنسية ، فان اى عقاب يمكن ان يوقعه به الاب ، سوف يتصل بهذه المناطق الشبقية . ولما كانت الصفة الجسمية الوحيدة التي تميزه عن الام هى عضوه

الذكرى ، اذن ، فان هذا العضو هو الذى يمكن ان يوجه اليه الثار والانتقام من جهة الاب ، حتى يجعله اقرب شبها بالانثى ويبعد عنه فى الوقت نفسه صفته الذكرية الوحيدة . ويشبه ذلك من حيث الاهمية ايضا ان عضو التذكير هو عضو التحريم الذى يجب أن يزال من أجل استبعاد أى احتمال لمجرد التفكير فى قيام أية علاقة محرمة مع الام . وهذا الخوف الشديد هو الذى اشار اليه فرويد باسم عقدة « الخصاء » . فالطفل الذكر يخاف من ازالة هذا العضو الذى يجعل منه ذكرا شبيها بالاب مما يترتب عليه فقد التوحد مع الاب ، كما يخاف ايضا من منافسته المستمرة للاب فى حب الام وجذب اهتمامها . ومبدأ الثنائية هذا يترتب عليه ظهور القلق عند الطفل بشكل يعجز معه عن احداث التوافق الى ان يدخل مبدأ الواقع ميكانزم الدفاع عن الانا ونعنى به ميكانزم الكبت . وبذلك يجد الطفل طريقا لحل مشكلته .

وتعتبر الفترة من الثالثة حتى الخامسة اوالسادسة من اقوى فترات النضال العنيف لدى الطفل . ومع ذلك فهى تستمر كعامل حيوى خلال حياة الفرد ، كما يكون لها اثر فى اتجاه المراهق نحو الجنس الآخر ونحو مصادر السلطة وفي علاقته بزوجته واطفاله .

هذا فيما يتصل بالولد الذكر . اما عن البنت ، فان عقدتها تسمى باسم **« عقدة الكترا »** . وتتطور علاقتها بأبيها تطورا اكثر تعقيدا ، يتأثر بما تستشعره البنت من احساس بالغيرة من الام لمشاركتها فى حب الأب . وما تستشعره من وجودها بغير هذا العضو الذكرى واعتبارها امها مسئولة عن ذلك . والى جانب اتهامها لامها بانها المسئولة عن حالة الفقد هذه ، فانها تتوحد بقوة مع الأب ، لانه يمتلك هذا العضو الذى تحسده عليه ، ويظهر حسدها واضحا فى المقارنة مع ابيها الذي يمتلك شيئا تفتقده هى .

ومرة اخرى تظهر الثنائية عند الفتاة . ذلك ان مشاركتها لأمها من حيث افتقارهما الى شيء ما ، يقوى توحدها الأول والأصلى مع الام ، ويحدث التناقض الوجدانى حالة قلق انفعالى عند الفتاة . وقد اطلق فرويد على حالة القلق هذه اسم « حسد القضيب » . ولاتصل البنت بسهولة الى حل هذا التناقض الوجدانى مع وجود فروق سيكولوجية عديدة بين الذكر والانثى . ويستمر هذا الحسد لدى الفتاة فترة اطول ، كما تصبح اكثر تمردا على الام مع المراهقة ، وتعدل اتجاهها تدريجيا حتى توفق هى الاخرى في الحصول على شريك حياتها بالزواج . ومرة اخرى تكشف ـ كأم ـ عن تناقضها الوجدانى نحو الجنس وذلك فى دورها كأم لاولاد وبنات ودورها كزوجة لرجل .

(د) فترة الكمون :

ويدخل الطفل فى مرحلة كمون جنسي تبدأ في حوالى سن السادسة او السابعة او الثامنة . وفى هذا الوقت يصبح الطفل اكثر اهتماما بالعديد من الأمور الاخرى غير الجنس ، اذ يخصص لمثل هذه الامور وقتا أطول مما كان يخصصه لها من قبل . ولكن لا يحتمل ان تفوته فرصة استطلاع امور الجنس فى اى مجال من المجالات التي تتاح له فيها فرصة القيام بذلك . وغالبا ما يحصل الطفل فى هذه المرحلة على المتعة من اللعب

والعمل المدرسي ويمكن القول بوجه عام ان الكثير من صراعات الطفل القديمة عن الجنس تكون قد تقدمت قليلا في ناحية الاتضاح ، وان الموضوع كله قد اصبح مفهوما بصورة افضل .

وبالاضافة الى ذلك ، فان الاطفال في هذه المرحلة يبدأون في استقلال بعض اهتمامهم وميولهم في غيرهم من الناس كأصدقائهم وزملائهم في المدرسة ، بدلا من ان يكونوا منطوين على انفسهم . وفي هذا الوقت تتاح لهم أول فرصة لتنمية مشاعر الحب والمتعة والتعلق بالرفقاء في عالمهم الذي بدأ يتسع بعض الشيء ، ولو انه لازال صغيرا ومعروفا ـ عالم زملاء اللعب والمعلمين والابطال والنجوم من الذكور والاناث .

(**هـ) المرحلة التناسلية** : والمراحل الثلاث السابقة على مرحلة الكمون ـ وهي الفمية والشرجية والقضيبية ـ تعرف **باسم المراحل قبل التناسلية** . وتتميز شحناتها بأنها ذات طابع نرجسي حيث يحصل الفرد على اللذة من تنبيه مناطق معينة من جسمه ، وان شحناته تستهدف الآخرين لانهم يتيحون له اشكال اضافية من اللذة الجسمية فحسب . ومع المراهقة يبدأ بعض هذا الحب يتلمس طرقا تقوده الى اختيارات موضوع حقيقي ، ويشرع المراهق في حب الآخرين ، تحدوه دوافع الايثاروليس مجرد أسباب نرجسية . فالجاذبية الجنسية والتنشئة الاجتماعية والنشاط الجماعي والتخطيط المهني والاستعداد للزواج وتكوين الاسرة تبدأ جميعها في التعبير عن نفسها بصورة واضحة . وفي نهاية المراهقة تصبح الشحنات الانفعالية الاجتماعية الغيرية اكثر ثباتا ، ويتحول الفرد من النرجسية او البحث عن اللذة الذاتية الى راشد تسيره الحقيقة الواقعية والمجتمع (هول ولندزى ص ٨٠) .

واخيرا ، يحسن ان نشير الى انه على الرغم من أن فرويد قد ميز بين مراحل أربع من النمو النفسي الجنسي ، الا ان هذه المراحل ليست منفصلة بعضها عن بعض ، أو أن الانتقال يكون فجائيا من مرحلة الى اخرى . وبذلك يكون التنظيم النهائي للشخصية هو نتيجة اسهامات هذه المراحل الاربع .

• • •

ثانيا : نظرية اريكسون :

لقد ادخل أريك اريكسون تعديلات على نظرية فرويد في النمو النفسي الجنسي في ناحيتين اساسيتين : الاولى : التوكيد على التفاعل المتبادل ـ وربما بصورة اكثر مما عند فرويد ـ بين المحتوى الاجتماعي والمراحل البيولوجية المعينة التي يمر بها الكائن الحي . **والثانية** : التوسع في المراحل . فبعد ان كانت هذه المراحل اربع عند فرويد (الفمية ـ الشرجية ـ القضيبية ـ التناسلية) ، اصبحت ثمانية عند أريكسون .

وسوف نعرض نظرية اريكسون بشيء من الاختصار مستعينين في ذلك بما قدمه في كتابيه **« الطفولة والمجتمع » طبعة ١٩٧٠ (١٧) ، « والهوية : الشباب والازمات » طبعة ١٩٦٨ (١٨)** .

وقد أشار اريكسون فى بداية حديثه عن نمو الشخصية الى أن هناك صورا كثيرة لخصائص الشخصية السوية واخذ بتعريف **مارى جاهودا** Marie Jahooda التى تذهب الى أن الشخصية السوية هى « تلك التي تسيطر على البيئة بنشاط ، وتكشف عن وحدة معينة ، ولديها القدرة على ادراك العالم وادراك نفسها على نحو سليم » . ومن الواضح ان هذه المعايير تعد نسبية اذا نظرنا اليها من ناحية النمو المعرفي والاجتماعي للطفل . فالطفولة تتميز في الحقيقة بالغياب المبدئي لهذه المعايير ، وينموها التدريجي بعد ذلك فى خطوات معقدة من التمايز المطرد . ومن هنا ، يرى أريكسون أن من المفيد ان نبين الطريق الاساسى لنمو الشخصية وخصائصها السوية .

ويذهب أريكسون الى أنه عند محاولة فهم عملية النمو ، يحسن ان نتذكر جيدا مبدأ « **التخلق المتعاقب** » (*) Epigenetic Principle والذى نستمده من نمو الكائن الحى العضوى داخل الرحم . وبتعميم هذا المبدأ نوعا ما ، يمكن القول بأن اى شيء ينمو ، انما يكون له منذ البداية ، خطة اساسية ينمو وفقا لها . ومن هذه الخطة الاساسية تقوم الاجزاء ، ويكون لكل جزء وقت محدد لظهوره ، حتى يكتمل ظهور الاجزاء جميعا ، فتكون كلا وظيفيا . هذا ما يصدق بشكل واضح على نمو الجنين ، حيث يكون لكل جزء من أجزائه وقت محدد لظهوره ، والا تعرض للتلف أو نقص التكوين . وعند الولادة يتخلى الطفل عن التبادل الكيميائي الذى كان يتم داخل الرحم ، كى يفسح المجال امام نظام جديد من التبادل الاجتماعى مع مجتمعه الذى سيحيا فيه ، وحيث تتعرض قدراته وامكانياته المتزايدة بالتدريج لكثير من فرص النمو ومن الاحباطات التى تظهر داخل الاطار الثقافى الذى يعيش فيه . أما كيف يستمر الكائن الحى النامى في نموه ، لا عن طريق نمو اعضاء جديدة ، ولكن عن طريق التتابع المحدد لظهور القدرات الحسية والحركية والاجتماعية ، فهذا ما تمتلىء به كتب النمو . لقد امدنا التحليل النفسي بالكثير من المعلومات التى تتصل بالخبرات المزاجية ، وعلى وجه الخصوص بالصراعات الداخلية التى تكشف عن الطريقة التى بها يصبح الفرد شخصية متميزة ، ولكن من المهم ايضا ان نتحقق من أن الطفل السوى فى تتابع خبراته الشخصية يمكنه ، اذا منح قدرا معقولا من التوجيه السليم ، ان يخضع لقوانين النمو الداخلية ، تلك القوانين التى تسمح بتتابع ظهور الامكانيات فى تفاعلها الهام مع الشخصيات والمؤسسات الاجتماعية التي يتفاعل معها . واذا كان هذا التفاعل يختلف من ثقافة لأخرى ، الا انه يجب ان يظل داخل اطار « المعدل الطبيعى للسرعة والتتابع السرى » الذى يحكم كل تخلق متعاقب . وعلى ذلك ، يمكن القول بان الشخصية تنمو وفقا لخطوات محددة سلفا في استعداد الكائن الحى العضوى ، من اجل ان يعرف ويتفاعل ويتجه نحو مجال أوسع من الاشخاص والمؤسسات ذات الاهمية بالنسبة له .. ولذا يستخدم أريكسون عند عرضه لمراحل نمو الشخصية تصورا لهذا التخلق المتعاقب في النمو النفسي ابتداء من الطفولة الاولى حتى الرشد .

---

* Epigenesis : التخلق المتعاقب : نظرية تقول بان الجنين يتكون بسلسلة من التشكلات المتعاقبة (وهي تناقض التخلق السبقى القائلة بان جميع اعضاء الجنين موجودة وجودا سبقيا فى الجرثومة) .

ومن الطبيعي ان يواجه الطفل فى كل مرحلة من مراحل نموه مشكلة أساسية عليه ان يحلها بصورة مؤقتة على الأقل ، اذا اراد ان يتقدم فى حيوية وثقة الى المرحلة التالية . وهذه المشكلات او هذه الصراعات بين المشاعر وبين الرغبات لا تحل باكملها على الاطلاق ، فكل تغير فى الخبرة والبيئة من شأنه أن يظهر هذه الصراعات فى صورة جديدة . على ان من المعتقد ان كل نوع من هذه الصراعات يبدو فى أنقى صورة واوضحها فى مرحلة معينة من مراحل نمو الطفل ، ومتى حل هذا الصراع او هذه المشكلة حلا طيبا فى ذلك الوقت ، تم وضع اساس التقدم الى المرحلة التالية .

ونقدم فيما يلي وصفا للمراحل النمائية الثمان عند اريكسون .

١ ـ الاحساس بالثقة الاساسية فى مقابل عدم الثقة الاساسية : وعند وصف مجموعة الاتجاهات الاساسية المتعاقبة للنمو ، استخدم اريكسون مصطلح « الاحساس بـ» sense of ومع ذلك ، يجب أن يكون من الواضح بشكل مباشر أن مثل هذه الاحساسات ، كالاحساس بالصحة او الحيوية أو الاحساس بالافتقار الى كليهما ، تنطبق على جميع الاشياء التى تنتشر ظاهرة على السطح أو توجد فى الاعماق . فهى تنطبق على الحالات الشعورية وما قبل الشعورية واللاشعورية . فالثقة ، كخبرة شعورية يمكن أن تخضع للاستيطان ، ولكنها هى أيضا وسيلة للسلوك تقبل الملاحظة من الآخرين ، ثم بأنها اخيرا حالة داخلية يمكن أن تتحقق فقط عن طريق الفحص والتفسير بالتحليل النفسى . وكل هذه الأبعاد الثلاثة يمكن الاستدلال عليها حين نتحدث عن « الاحساس بـ » .

وأول مكون للشخصية السليمة هو « الاحساس بالثقة » . وهذا الاحساس يظهر عادة خلال السنة الاولى من حياة الطفل ، وهو كغيره من مكونات الشخصية لا ينمو مستقلا عن غيره من مظاهر النمو الاخرى . والشعور بالثقة لا يعنى أن الطفل قد أصبح قادرا على استخدام جسمه في حركة هادفة ، وانه قادر على التعرف على من حوله من الناس والاشياء فحسب ، بل وايضا يستعمل كتعبير موجز عن خاصية مميزة لكل خبرات الطفل المشبعة فى هذا السن المبكر .

وأول مظهر من مظاهر الثقة الاجتماعية لدى الطفل فى هذه المرحلة هو ما يتجلى في سهولة الحصول على الغذاء ، وعمق النوم ، والشعور بالارتياح عقب القيام بعملية الاخراج . وتساعد خبرة التنظيم المتبادل بين قدراته المستقبلة . واساليب الام التى تزوده تدريجيا باحتياجاته المختلفة ، على احداث التوازن لمشاعر عدم الارتياح . ومع ازدياد ساعات اليقظة ، يجد الطفل أن الخبرات الحسية المتزايدة من شأنها أن تثير لديه الاحساس بالالفة والتوافق مع مشاعر الارتياح الداخلية ، وتصبح أشكال الارتياح ، وكذلك الناس والاشياء المحيطة به ، أمورا مألوفة لديه .

ويستمد الطفل من الثقافة التى يعيش فيها بعض الاساليب الاساسية . ومن أبسطها وأسرعها ظهورا ، أسلوب « الاخذ » ، لا بمعنى « أن يذهب ويأخذ » ، ولكن بمعنى أن « يستقبل ويتقبل ما يقدم له » وهذه العملية تبدو سهلة وبسيطة ، ومع ذلك فان اى اضطراب

فيها من شانه ان يكشف عن مـدى تعقد هـذه العملية . فهذا الطفل الصغير يتعلم كيف ينظـم استعداده « للاخـذ » مـع أساليب الام التي تسمح بدورها للطفل أن ينسق وسائله ، عندما تنمي هي وسائلها في العطاء . ونتيجة لهذا كله ينمي الطفل ايضا التوحد مع الام ، ويصـبح اخيرا معطيا على نحو ما كانت الام .

وقد يظهر لدى بعض الاطفال الحساسين على وجه الخصوص او الذين لا تعوض احباطاتهم المبكرة ، قدر من الضعف فى احداث مثل هـذا التنظيم المتبادل المبـكر ، الامـر الذى يسبب اضطراب العلاقة مع العالم الخـارجى بعامة ، ومع الاشخاص المهمين بخاصة . غير أن هناك بالطبع طرقا اخرى لتوكيد هذا التبادل من خلال مواقف اخرى غير المواقف الفمية المستقبلـة . فهناك احسـاس الطفل بالسرور عندما تضمه الام الى صـدرها أو عندما تبتسم له أو تتحـدث اليه او تدلله . والى جانب مثل هذا التعويض « الافقى » (الذى يحدث خلال نفس مرحلة النمو) وهناك ايضا التعويضات « الطولية » فى الحياة والتى تظهر خلال المراحل التالية من دورة حياة الفرد .

وخلال المرحلة الفمية الثانية ، تنمو لدى الطفل بعض القدرات للحصول على اللذة باتخاذ أساليب اكثر ايجابية واكثر ادماجا ، وبشكل مباشر . ففي هذه المرحلة تبزغ الاسنان ، ومـع بزوغها يظهـر السرور من القيام بالقضم على الاشـياء أو عضها . ويتصف هذا الاسـلوب الادماجى النشط بعديد من الانشطة الاخرى . فالعين التى كانت من قبل سلبية فى استقبالها للانطباعات التى تحدث ، تتعلم الآن التركيـز على الاشياء وفصـلها وادراكها على ارضـيتها الغامضـة وتتبعها . وبالمثل تتعلم أعضاء السمع أن تميز الاصوات الهامة والتركيز عليها وادارة الرأس وراءها ، وتتعلم الاذرع الوصول الى الاشياء والقبض عليها باليدين بشكل محدد .

ومن الصعب تقـدير ازمة هذه المـرحلة الفمية نظـرا لانها تتالف من الاتفاق الزمنى لنماءات ثلاثة : (أ) حافز قوى الادماج وأفرادوملاحظة التوتر المصحوب بعدم الارتياح نتيجة بزوغ السن وغيرها من التغيرات فى الجهاز الفمى (ب) المعرفة المتزايدة للطفل بنفسـه كشخص متميز . (جـ) التحول التدريجى للام بعيـدا عن الطفل ، وتجاه أمور كانت قد تخلت عنها الى حد ما خلال فترات الحمل الاخيرة ، أو المـدة الاولى للرعاية ، أو ربما لاسـتقبال طفل جديد.

وعندما تسـتمر الام فى تقديم الثدى خلال مرحلة العض ، فان من الضرورى اذن أن يتعلم الطفل كيف يستمر في الرضاعة من غير عض ، وحتى لا يترتب على ذلك أن تسحب الام الثدى فى غضب أو الم . ويشير العمل الاكلينيكى الى أن هذه المرحلة المبكرة فى تاريخ حياة الطفل تزوده ببعض الاحساس بفقدان الثقة ، وتترك انطباعا لديه بأن وحدته مع الام قد تحطمت مرة واحدة والى الابد . وهذا الفقدان المفاجىء لحب الام الذى اعتاده الطفل ــ ودون أن يكون هناك بديـل مناسب في هذا الوقت المبكر يعوضه هذا الحبـ من شانه ان يحدث اكتئابا شـديدا لـدى الطفـل ، او على احسن الظـروف احسـاسا بالانقسام الداخلى وحنينا غامضا للجنة المفقودة. وازاء هذا التجمع القوى للاحساس بالحـرمان والشعور بالانقسام والفقدان يجب أن تؤكد الثقة الاسـاسية ذاتها خلال حياة الفرد .

ويتضح فقدان الثقة الاساسية فى حالات المرض النفسى ولدى حالات الفصام الطفلى ، كما تتضح مظاهر الفقدان الكامن الطويل الامد لهذه الثقة فى شخصيات الراشدين الذين يتسمون بالانسحاب الشديد والبعد عن الناس وبالاكتئاب . وقد وجد بالنسبة لمثل هذه الحالات ، ان اعادة بناء الثقة بالنفس هو المطلب الاساسى للعلاج ، لانه ايا كانت الظروف التى احدثت الاضطراب الذهانى ، فان الشذوذ أو الانسحاب الذى يظهر فى سلوك الكثيرين من المرضى ، انما يخفى وراءه محاولة لاستعادة التبادل الاجتماعى واعادة الثقة مرة أخرى .

وأول عمل للأنا هو اقامة انماط متينة ثابتة لحل الصراع الرئيسى للثقة مقابل فقدان الثقة ، وهذا بلا شك واجب من واجبات الرعاية التى تقوم بها الام . ويجب أن نوضح هنا ، أن مقدار الثقة المستمد من الخبرة الطفيلية المبكرة ، لا يتوقف على الكميات أو المقادير المطلقة للطعام أو على اظهار المحبة للطفل فحسب ، وانما يتوقف ايضا على نوع العلاقة بين الطفل والام . فالامهات يخلقن الاحساس بالثقة فى ابنائهن عن طريق هذا النوع من المعالجة الذى يتضمن الرعاية الحساسة لحاجات الطفل ، وعن طريق هذا الاحساس العميق بانه جدير بالثقة الشخصية داخل اطار الثقة فى أسلوب حياة المجتمع والثقافة التى يحيا فيها . ومن شأن هذا أن يشكل لدى الطفل أساس الاحساس بالهوية ، والذى سوف ينضم فيما بعد الى الاحساس بأن الامور « تسير على ما يرام » وأنه « هوهو » ، وانه « جدير بثقة الاخرين به » . حقيقة قد يواجه الطفل ، سواء فى هذه المرحلة او المراحل التالية عليها ، مجموعة من الاحباطات التى لا يمكن للطفل النامى تحملها أحيانا ، ولذا يجب الا يعتمد الآباء فى أسلوب تربيتهم للطفل على وسائل معينة للتوجيه عن طريق المنع أو المنح فحسب ، بل يجب ان يكون لديهم ايضا القدرة على الاقناع العميق للطفل بأن ثمة معان تكمن وراء ما يقدمونه له من أشياء ومن أوامر ونواه . ان الطفل لا يصبح فى النهاية عصابيا نتيجة ما يتعرض له من احباطات ، وانما لفقدانه المعنى الاجتماعى لهذه الاحباطات .

٢ - الاحساس بالاستقلال مقابل الشعور بالخجل والشك وبعد أن توضع بذور الاحساس بالثقة على أساس متين ، يبدأ الانتقال الى المكون الثانى من مكونات الشخصية السليمة ، وذلك فى الفترة ما بين سن الاثنى عشر والخمسة عشر شهرا . وتنصرف معظم طاقة الطفل فى هذه المرحلة الى توكيد ذاته من خلال الافعال التى يقوم بها من حيث انه انسان له عقل وله ارادة خاصة .

وهناك اساس فسيولوجى للسلوك المتميز فى هذه المرحلة . ذلك أن نضج الجهاز العضلى وما يترتب عليه من تآزر وتوافق بين عدد من الانماط المتصارعة للحركة والفعل ، يهيىء المسرح أمام تجربة مجموعتين من الاساليب الاجتماعية فى وقت واحد : القبض والاسترخاء ، الامساك والاخراج . وكما هو الامر بالنسبة لكثير من الحالات ، يمكن أن تؤدى صراعاتها الاساسية في النهاية اما الى العدوان أو الى توقعات واتجاهات لطيفة معتدلة . فالقبض أو الامساك يمكن أن يصبح احتجازا قاسيا اومدمرا ، كما يمكن أن يصبح نمطا من الرعاية ، بمعنى أنه يمتلك ويحتفظ بما يمتلك . وبالمثل قد يصبح الاخراج أو الاسترخاء وسيلة لاخراج عدوانى لقوى مدمرة ، كما يمكن أن يصبح استرخاء بمعنى « دع الامور تمر وتنتهى » .

وفى هذه المرحلة يجب ان يكون الضبط الخارجى من النوع الذى يعيد الطمأنينة مع قدر من الحزم . فالطفل يجب أن يشعر أن الثقة الاساسية في الوجود ، والتى استمر محتفظا بها رغم ثورات المرحلة السابقة وازماتها سوف لا تتعرض للخطر نتيجة هذا التغير الكامل المفاجىء ، وهذه الرغبة العنيفة المفاجئة للقيام بالاختيار بين ان يحتفظ بعناية أو أن يخرج بعناد . فالحزم فى هذه المرحلة أمر ضرورى لأنه يجب أن يحميه من الفوضى التى يمكن أن يتردى فيها نتيجة لاحساسه غير المدرب على التمييز والتفضيل ، وعدم قدرته على القبض والاخراج دون تحفظ وحذر . فينبغى على الام والبيئة المحيطة به اذن ، أن تعضد الطفل وتشجعه على « الوقوف على قدميه » والاستقلال بنفسه، وأن تحميه ضد الخبرات القاسية والعديمة المعنى والتى يسيطر عليها الخجل والشك .

فالبيئة اذن يجب أن توجهه التوجيه الحكيم ، وان تجنبه مشاعر الخجل والشك فى قيمته كشخص ، وان تسلك ازاءه بحزم وتسامح ، بحيث يستطيع ان يتمتع بكونه شخصا مستقلا ، وان يمنح الاستقلال للآخرين .

ويذهب اريكسون الى أن الخجل انفعال لم يدرس بعد بما فيه الكفاية ، لانه فى مجتمعاتنا الحديثة ، سرعان ما تمتصه الخطيئة بسهولة . ويفترض الخجل ان الفرد قد تعرى تماما ، كما يفترض ايضا الشعور بأن الآخرين قد اطلعوا عليه ونظروا اليه . فهو واع بذاته او خجل من نفسه . لقد رؤي وهو على غير استعداد لأن يراه احد . ولعل هذا هو السبب فى اننا نحلم احيانا بالخجل فى موقف يشعر فيه الفردان الآخرين يتفرسون فيه وهو فى حالة من العرى الكامل او وهو في ملابس الليل « وبدون سروال» . وكان يعبر عن الخجل كدافع يدفع الفرد « أن يدفن وجهه بين يديه » أو « أن يتمنى ان تبتلعه الارض هنا أو هناك » . ويعتبر أريكسون الخجل أساسا بمثابة ثورة موجهة ضد الذات . فهذا الذى يشعر بالخجل يود لو اجبر العالم ألا ينظر اليه وألا يلاحظ ثورته ، يود لو يحطم أعين العالم ، ثم هو بالاضافة الى ذلك يود أن يصبح هو ذاته غير مرئى .

والشك قرين الخجل . واذا كان الخجل يتوقف على الشعور بالتعرى والانكشاف أمام الناس ، فان الشك ـ حسب ما أوصلته الملاحظة الاكلينيكية الى الاعتقاد ـ يتصل بالشعور بأن للفرد « قبل ودبر » (أى أمام وخلف) وخاصة الدبر ، لان هذه المنطقة الخلفية من الجسم مع تركيزها العدوانى والليبيدى على العضلات العاصرة والارداف ، لا يمكن ان يراها الطفل ، ومع ذلك يمكن ان تخضع لارادة الغير . «فالدبر» هى تلك المنطقة من الجسم التى يمكن ان يسيطر عليها او يكتسحها ـ بالخيال أو بالفعل ـ هؤلاء الذين يمكنهم مهاجمة قدرة الفرد على الاستقلال، أو الذين قد يصفون ما تخرجه الامعاء بانه خطأ أو عيب فى الوقت الذى يشعر فيه الطفل بالارتياح وقت اخراجها . وهذا الاحساس الرئيسي بالشك فيما يخلفه الفرد وراءه ، يشكل قوام الصور الاخيرة واللفظية للشك القهرى ، والذى يعبر عنه في الرشد فى خوف المصاب بالهذاء من المضطهدين المختفين ، ومن الاضطهادات الخفية السرية التى تدبر من الخلف .

وتعتبر هــذه المرحــلة من مراحل النموالنفسى الحاسمة فى تكوين الفرد نظرا لمـا يوجد فيها من صراع بينالحب والكراهية ، بين التعاونوالعناد ، بين حــرية التعبير عن الذات وقمع الذات . فمن الاحســاس بضبط النفس دونفقدان التقدير للذات ، ينتج احساس مستمر ودائم بالارادة والاستقلال والزهو ، على حينينتج عن الاحساس بعدم القدرة على ضــبط النفس ، وان التحكم مصدره خارجى ، احساسمستمر ودائم بالشك والخجل .

ويجدر بنا أن نشــير الى ان هذه النتائجالمتصلة بالاحساس بالاستقلال والخجل والشك ليست أمورا مبالغ فيها نتيجة الاهتمام الزائدبالمشكلات الاكلينيكية ، وانما هى أمور نجــدها متمثلة « حتى لدى الراشدين الناضجين وغــيرالعصابيين . فهؤلاء غالبا ما يكشفون عن حساسية تتصل « بالفقدان المخجل لمــاء الوجه » . وعن« خوف من أن يهاجم من الخلف » ومعظم هذه الاحساسات هى بقايا لمراحل النمو المبكرة التىيمر بها الفرد من طفولته ، والتى يتغلب على معظمها وهو في طريقه الى الانتقال الى المراحــلالتالية .

٣ ــ الاحساس بالمبادأة مقــابل الاحساسبالذنب وفى كل مرحلة جــديدة تظهر معجــزة أخــرى تتكشــف للعيان .وتمثل أملا جــديداومسئولية جديدة للجميع .ومعجزة هذه المرحلة هى الاحساس بالمبادأة . ونحن الآن نقترب مننهاية السنة الثالثة حيث تصبح عمليــة المشى ســهلة وميسورة لدى الطفل . حقيقة ان كتبالنمو تشــير الى ان الطفل يمكنه أن يمشى قبل هذا السن بكثير ، ولكن المشى والجرى يصبحانجزءا هاما من اساليب سيطرة الطفل على البيئة المحيطة به . انه يريد ان يكتشــف المجال الحيوىالذى يعيش فيه . فالطفلفيهذه المرحلة شغوف بعقد مقارنات بين الاشياء والاشــخاص ، ولديهالقدرة على الاســتطلاع المســتمر للفــروق فى الحجم والنوع بعامة ،والفروق فى الجنس والسنبخاصة . انه يحاول أن يفهم الادوار المستقبلة والادوار الجــديرة بأن يتخيلهــا ، أنه يريد انيكتشف اى نوع من الاشخاص يمكن أن يكونه . وهو يحس فجأة بانه قد نما وكبر ســواء فىجسمه أو فى نفسه ، وانه قد أصبح أكثر نشاطا وحيوية واكثر لمعانا وذكاء فى أحكامه وانه يمتلكمزيدا من الطاقة والنشاط اللذين يسمحان له بأن ينسى الفشل بسرعة ، .وان يقترب مما هومرغوب (حتى ولو بدأ هذا المرغوب غير مؤكــد أو خطرا) فالمرحلة مرحلة تعلم نشــط عنيف ،تعلم يقود الطفل من نواحى قصوره وضعفه الى امكانات مستقبلة وجديدة ، مرحلة اندفاع فىالمكان عن طريق الحركة العنيفة النشطة ،مرحلة غزو للمجهول يدفعه اليه حب استطلاع شديد. .ثم هو في هذه المرحلة يستطيع أن يرتبط وبشكل مباشر برفاقه من نفس سنه ، ويمكنه بتوجيهالاطفال الاكبر منه ســنا ، أو بتوجيه الكبار من حوله ، ان يتعلم سياسة التعامل مع هؤلاءالرفاق ، .ســواء فى المدرســة أو فى الشارع أو المجتمع الخارجى .

وهكذا تضيف المبــاداة الى الاســتقلالصفة مباشرة العمل ومواجهته وتخطيطه منأجل ان يصبح نشــطا ومتحركا . ويرى أريكســونان مصطلح المباداة ــ رغم ما يحمله من مدلول أمريكى ذى صبغة اقتصادية ــ يعد جزءاضروريابالنســبة لكل عمــل . فالانســان يحتاج الى

الاحساس بالمباداة بالنسبة لكل نشاط يقوم به ، وكل عمل يتعلمه أو يؤديه ابتداء من جمع المحصول في الحقل الى القيام بتنفيذ مشروع هندسى .

ويرى أريكسون أن تعلم الطفل فى هذه المرحلة هو الى حد بعيد من النوع الاقحامى والعنيف . أنه يبعد الطفل عن نواحى قصوره وضعفه ، ويقربه في ذات الوقت من امكاناته المستقبلة .

وأسلوب الاقحام الذى يسيطر على كثير من مظاهر سلوك هذه المرحلة قد يتخذ العديد من الانشطة والتخيلات المتشابهة . وتتضمن هذه :

(١) اقتحام المكان بحركة نشطة وعنيفة .

(٢) اقحام الطفل بنفسه فيما لا يعنيه من أمور عن طريق حب الاستطلاع .

(٣) اقحام نفسه فى آذان الاخرين وعقولهم عن طريق صراخه العدوانى .

(٤) اقحام نفسه على أجسام الاخرين بالهجوم المادى عليهم .

(٥) وأخيرا باقحام عضو التذكير – بالتفكير او التخييل – في جسم انثى . وهذه المرحلة هى نفسها المرحلة القضيبية فى نظرية الجنسية الطفيلية عند فرويد . انها مرحلة حب استطلاع طفلى واستثارة جنسية واهتمام زائد وانشغال بأمور الجنس كافتقار البنت الى عضو التذكير .

ومرحلة التجول – والتى هى مرحلة لعب وجنسية طفلية – تضيف الى الاساليب الاجتماعية الاساسية أسلوبا جديدا لدى الجنسين هو أسلوب « الاحداث أو الصنع making » وهو بالمعنى الطفلي أسلوب « الفوز بشيء » وهذه العبارة توحى بالاستمتاع بالمنافسة والاصرار على بلوغ الهدف واللذة فى الفوز والسيطرة ، وينصب التركيز عند الولد الذكر على الاساليب « القضيبية – الاقحامية » ، على حين تتحول عند الفتاة الى أساليب المسلك المفاجىء والاختطاف العدوانى أو – فى الحالات المعتدلة – اتخاذ أساليب تجعلها جميلة وجذابة . وبذلك ينمى الطفل متطلبات المباداة الذكرية والانثوية وبعض صور الذات الجنسية التى سوف تصبح مقوما أساسيا من مقومات المظاهر الموجبة والسالبة لهويته المستقبلة ، كما تزداد تخيلات الطفل . فالولد ينغمس فى تخيلات قوامها انه اصبح هائلا أو أسدا ، ولكن أحلامه تدور حول مخاوف تتصل بالحياة وبالاطراف . فهى مرحلة « عقدة الخصاء » والخوف العميق من الفقد . اما البنت فلديها اقتناع بأنها قد فقدت العضو الذكرى عقابا لها عن تخيلات وافعال سرية خفية .

وفى هذه السن يكون الضمير قد نما وأصبح أعظم حاكم للمباداة . فالطفل لم يعد موجها بأناس من الخارج فحسب ، بل أصبح أيضا يسمع « الصوت الداخلى » لملاحظة الذات وتوجيهها وعقابها ، هذا الصوت الذى يعلق على أفعاله ويحذره ويهدده ، وتلك هى بداية

نشوء الاخلاق عند الطفل . غير أن تزمت الكباروتحميلهم للطفل اكثر مما يطيق ، سوف يجعل الامر صعبا وخطيرا بالنسبة للروح والاخــلاقمعا . ذلك أن ضـمير الطفل يكون بدائيا وقاسيا وغير متسامح ، وقـد ينتج عن ذلك نوع منالحصر الشـديد . فاذا كان من الممنوع أنيفعل كذا ، فمن الخطورة بمكان ان يفكر حتى مجردالتفكير فيه ، وقد يدفع الى هذا القرار غيرة وحسـد ومـرارة واتجـاه نفسى شرير تجاهالعالم . ومثل هذه المشـاعر تجبر الطفل على تقييد ذاته ، وقد يصبح هذا التقييد لا شعورياويكون جزءا من الشخصية يقوم بوظيفته ويؤثر في سلوكها . ولعل أحد الصراعات العميقة فيالحياة هو ذلك الصراع الذى يتكون نتيجـة كراهية الاب الذى يكون فى بداية الامر نموذجاللضمير ، ولكنه في النهاية يرتكب الخطـايا التى لا يتحمل ضمير الطفل اتيانها . وهنا يصـلالطفل الى الشـعور بأن المسألة ليست مسألة اخلاق عامة ، بل هى قـوة قسرية وتعسـفيةتفرض عليه .

وهذه المرحلة النمائية لها مزايا ومخاطر. فالطفل فى هذه المرحلة يكون اكثر اسـتعدادا للتعلـم بسرعـة وقوة ومشاركـة الالتزامـاتوالاعمال التى يقوم بها الغير ، منه في أية مرحلة أخرى ، فهو شفوف لان يتعلم ، ومشوق وقادرفى نفس الوقت على القيام بالاعمال التى يشـارك ويتعاون فيها مع الاطفـال الاخرين من أجـلالتصميم والبناء ، كما يرحب بالاسـتفادة من المدرسة ، وان يضاهي النماذج الاصلية التـييراها . انه يظل بالطبـع متوحدا مع الاب مـن نفس الجنس ، ولكنه في الوقت نفسه يبحثعن فرص يتيح له فيها التوحد مـع العمـل ، مجالا للمباداة دون حدوث صراع طفلـي ، اوشعور أوديبي بالذنب ، وكذلـك البحث عـن توحد اكثر واقعية يقوم على روح المساواة التيخبرها من العمل مع الآخرين . واذا استطاع الطفل فى هذه المرحلة ان يفهم جزئيـا بعـضالادوار والوظائف التي يستطيع القيـام بهـا كشخص راشد ، فانه سوف يكـون مستعداللانتقال فى نمو سليم الى المرحلة التالية .

٤ ــ **الاحساس بالعمل مقابل الشعـوربالنقص :** واذا كان طفل المرحلـة السابقـة مستعدا لان يتعلم فى شغف وسرعة وأن يصبحكبيرا ، وان يشـارك فى الالتزامـات والنظـام والعمل ، وان يعملويشارك فيالبناء والتصميم فان اطفال هذه المرحلة يصبحـون اكثر ارتباطا بالمدرسين وآباء الأطفال الآخرين ، واكثر ميلاالى ملاحظة وتقليد اعمال بعض الناس الذيـن يمكنهم ادراكها كرجل الشرطة ورجل المطافيءوالبستاني . وهذه المرحلة تبدو كلها وكأنهـا تمهد السبيل للدخول فى الحيـاة . واقصـدبالحياة هنا حياة الدرس ، سـواء تم ذلـك فى الحقل او المعسكـر او الفصـل ، والطفـل فيهذه المرحلة ينسى الكثير من الآمال والرغبات السابقة وينصرف الى الاعمال الحقيقية . ذلكان الفـرد قبـل ان يصبح أبـا مـن الناحيـة البيولوجية ، عليه ان يعمل أولا ليرعى أسرته ،ومع الدخول في مرحلة الكمون ينسى الطفـل المتقدم بشكل طبيعي نحو النضج او يعلي الرغبةفى أن يوجد انسا او ان يصبح ابا او تصبـح أما . انه يتعلم الآن ان يكتسب المعرفـة عـنطريق انتاج الاشياء .

واذا كان جميــع الاطفال محتاجـين فيبعض الأوقات الى ان يتركوا يلعبون وحدهـم او ان يتركوا ـ فيما بعد ـ فى صحبة الكتباو الراديو او السينما او التلفزيون ، واذا كان جميع الاطفال يحتاجون في بعض الاوقات الىالقيام ببعض الالعاب الايهامية ، فانهـم ، ان عاجلا او آجلا . سوف يحسـون بالاستيـاءوالسخط اذا لم يوجدلديهم الاحساس بالقدرة على القيام بعمـل شيء مـا أو عملـه جيـداوباتقان . وهذا الاحساس بالقدرة على العمل هوما اطلق عليهاريكسوناسم «الاحساس بالانجاز»أو « الاحساس بالصناعة » ، فبدونه يشعر الطفل بالضيـاع . فبالعمـل يعرف الفرد ويعـرفـمجتمعه انه قد اصبح مـن الناحية النفسيـة مؤهلا لان يكون ابا ، حيث يلزمه العمل لرعايةالاسرة من الناحية الاجتماعية ، قبل ان يصبح أبا من الناحية البيولوجية .

وتقول ((ايفس هندريك)) انمبدأ العمليعلم الفرد لذة اتمام العمل وانجازه ، وذلـك نتيجة الانتباه المستمر والاجتهاد المتواصل .والاطفال فى جميع الثقافات يتلقون خلال هذه المرحلة بعض نواحى التعليم المنظم والذى يأخذعادة صورة تعليم مدرسي حيث يتجمع الاطفال حول مدرسين مؤهلين جيـدا للقيـام بعمليـةالتعليم . وفي المجتمعات البدائية ، حيث لاتعلم منظم ، يقومالكبار بدور تعليمالصغارالذينيلتقطونالمهن من الكبار . ويغلب الميل لدى الطفل فى مثل هذه الحالات حين يقبل على تعلم صنعـةما . وعلى ذلك ، فان أساسياتالتكنولوجيا تنمو عندما يصبح الطفل قادرا علـى معالجـةالادوات والعـدد والسهام التـي يستخدمهـا الكبار منحوله .وحيثيتطلبالامر انيصبحالمتعلمعلى قدر من التخصص المهنى ، فان واجـب المدرسة فى هذه الحالة هـو أن تزود الطفـلباكبـر قـدر مـن التعليم الاساسـي لاتقـان تخصصه . ومن الملاحظ انه كلمـا اصبح دورالتعليم اكثـر تخصصـا ، واصبحت المـواد الدراسية اكثر عمقا ، قل دور الآباء فى العمليةالتعليميـة واصبح اكثر تحديدا . ومن هنا ، تصبح المدرسـة هى المصدر الاساسي للثقافـةبما لها من قدرة وامكانات على تحقيق اهداف المجتمع التربوية .

والخطر الاساسي فى هذه المرحلـة يكمنفى احسـاس الطفل بعدم الكفاية والنقص .وقد يرجع ذلك الى فشـل الطفل فى تنمية الشعوربالمبادأة في المرحلة السابقة ، او ان وضعه بين اقرانه الذين يشاركونه العمـل او الدراسـةيشعره بالعجز فى التوحد معهم ، او ان مكـان التعليم والعمل لا يوفر له من الخبرات والمثيراتما يتحدى قدراته الكامنة . ومن هنا يصبـح النجاح في المدرسةاحد عوامل الصحة النفسيةللطفل ، وكما يقولون النجاح يولد النجاح . ومن شأن ذلك ان يجعل النمو النفسي للطفلسويا وطبيعيا الى حد بعيد . والمدرس الناجح هو الذى يعرف كيف يساعد التلميذ علـى أنيشق طريقه فى المدرسة ، ويعينه على التغلب على مشكلاته المدرسية وعلـى العوائق التـيتعترض سبيله . انه يعرف جيدا كيف يجعل الطفل يتناول اللعب والعمل . انه يعرف كيفيقدم الجهود الخاصة وكيف يشجع الاطفـال على بذل المزيد من الجهد ، وكيف يعالج هؤلاءالذيـن لا ينظـرون باهتمـام الـى المدرسـة ويعتبرونها سجنا . ولكن مـن واجب الآبـاءايضا أن يجعلـوا ابناءهـم يحبـون مدرسيهم

ويحسون بالثقة فيهم ، لأن الطفل محتاج الىالتوحد مع مدرسه مثلماهو محتاج الى التوحد مع ابيه .

٥ ــ **الاحساس بالهوية مقابل اضطراب الدور** وباقامة صلات مبدئية حسنة مع عالم المهارات والادوات ، ومع الدخول في مرحلةالمراهقة ، تنتهي فترة الطفولة الحقة ، وتبدا مرحلة الشباب . وتعود المشكلات مرة اخرىالى الظهور بسبب التغيرات الجسمية والفسيولوجية السريعة ، والتي تعادل فىسرعتها سرعة النمو في مراحل الطفولة المبكرة ، وكذلك بسبب الاضافات الجديدة للنموالجنسي . ويصبح الشاب النامى الذى يواجه بمثل هذه التغيرات اكثر انشغالا بمظهره امامالآخرين ، اكثر مما هو عليه فى الحقيقة .

والمشكلة الرئيسية فى هذه المرحلةبالنسبة للمراهق هي مشكلة تكوين الاحساس بالهوية ، اى معرفة من هو ، وما دوره فى هذاالمجتمع ، وهل هو طفل ــ على نحو ما كان ينظر اليه من قبل ــ أم راشد ــ على نحو ماهو صائر اليه الآن ، وهل لديه المقدرة التى تجعل منهانسانا لهكيانهوقيمتهفىهذاالمجتمع . ومثلهذه المشكلاتتحتل مكاناهاما من تفكير المراهق واهتماماته ، كما يصبح اكثر انشغالا واهتمامابالتوفيق بين ما تعلمه من مهارات وادوار فى مراحل نموه السابقة ، وبين ما هو مقبولاجتماعيا الآن . وهو فى بحثه عن احساس جديد بالهوية والاستمرار ، عليه ان يخوضالكثير من المعارك التي سبق ان خاضها من قبل .

ويرى اريكسون ان التكامل الذى يحدثالآن في صورة هوية الذات ، اكبر من مجموع توحدات الطفولة . انه نتيجة الخبرة الناميةلقدرة الانا على احداث تكاملبين كل التوحدات السابقة وتقلبات الليبيدو والقدرات المنبثقةمن المواهب ، والفرص التي تقدمها له الادوار الاجتماعية . فكل هذه المتغيراتهي التي تعملعلى احداث التكامل الجديد فى صورة هوية الذات لدى المراهق .

ويتمثل خطر هذه المرحلة النمائية فياضطراب الدور role confusion وارتباكه . ولتوضيح معنى هذا المفهوم اشار اريكسونالى عبارة وردت فى رواية آرثر ميللر Death of a Salesman على لسان احد المراهقين فيسياق حديثه مع امه « انى لا استطيع ان امسك بشيء يا امى ، انى لا استطيع اناستحوذ على اى نوع من انواع الحياة » . فاذا التغيرات الجسمية السريعة التى تحدثللمراهق سواء من حيث الشكل او الحجم ، وازاء نضجه الجنسي ، ونظرة المجتمع اليه ،والتغيرات المختلفة التي تطرأ على ادواره الاجتماعية ، لا يملك المراهقالا الاحساس بهذاالاضطراب فى الهوية .

وسواء سيطر المراهق على اضطرابالهوية ، او اصبح نتيجة لذلك جانحا او عصابيا او ذهانيا ، فان هذا يتوقف علىخبرات الماضي وعلى الشكوك القوية السابقة التي مرت به . فان تم تشخيص هذه الاحداثوعلاجها بشكل سليم ، فسوف يحدث تكامل جديد لدى الفرد ، ويرى طريقه في الحياة .وفى بعض حالات المراهقة ، يكون عدم القدرة

على الاستمرار او الاستقرار فى عمل ما أو فىوظيفة واحدة احد الاسباب التي تؤدى الى اضطراب الهوية عند المراهق .

ويجد المراهقون راحة نفسية فى التواجدمعا ، فهم يميلون الى تكوين الشلل . ومن أجل الابقاء على وحدة الجماعة او الشلة ،يتوحد المراهق ، ولو وقتيا والى الحد الذى يصل فيه احيانا الى الفقد الظاهر لهويته ، معأبطال الشلة . وهذه هى بداية « الوقوع فى الحب » والذى ليس اساسا أو كلية ، حباجنسيا . فحب المراهقة هو الى حد بعيد محاولة للوصول الى التعريف بهوية الفرد عنطريق اسقاط صورة الذات المختلطة على الغير ورؤيتها هكذا معكوسة وواضحة بالتدريج .ولعل هذا هو السبب فى أن معظم حب صغار الشباب هو حب كلام وحديث .

وصغار الشباب يتعصبون احيانا بشكلملحوظ لبني جنسهم ويسلكون بقسوة وعدم تسامح تجاه من يختلف عنهم فى اللون أوالاساس الثقافي او حتى فى بعض المظاهر البسيطة كالزى والشارات وغيرها من الامورالتي ينظر اليها مؤقتا بأنها علامات تشير الى من ينتمى الى جماعته ومن هو خارج عنها .ومن المهم أن نعرف أن مثل هذا التصلب وعدم القدرة على التسامح يمكن ان يكون اسلوبادفاعيا ضد الاحساس باضطراب الهوية وتشوشها . فهم يساعدون بعضهم البعضبقوة وحرارة عند الوقوع فى مشكلات مع السلطة ويختبرون بصورة حمقاء احيانا قدرة بعضهمالبعض ، ومدى انتمائهم الى هذه الجماعات من أجل ضمان الولاء لها . واستعداد الشبابللقيام بمثل هذه الاختبارات القاسية وتحملها احيانا ، يفسر لنا مدى مالبعض المذاهبالسياسية الدكتاتورية او بعض الجماعات المتطرفة من اغراء على عقول امثال هؤلاءالشبان . ففى مثل هذه الاحوال يفقد الفرد هويته نتيجة التشوش والاضطراب فى التفكير،حيث لا يفكر الا بعقلية الجماعة التي تدفعه الى تحقيق اهدافها . وامثال هؤلاء الشبابيتعرضون للانفصال والانعزال عن حياة غالبية المجتمع الذى يعيشون فيه ، كما يفقدون الثقةبانفسهم وبقدرتهم على توجيه دفة حياتهم بسلام .

ومع ان « الاحساس بالهوية صعبالتحقق ، الا انه يحفظ الفرد ويقيه من فوضى الدوافع البيولوجية ، ويمكنه من المحافظة علىالمبادىء والقوانين ، والوقوف أمام ضمير مستبد قاس شكاك . اما فقدان الهوية اوفقدان الشعور بأن هناك قدرا من « التماثل » والاستمرار ، فانه يعرض الفرد لصراعاتهالطفلية ، ويؤدى الى اضطرابات انفعالية » .

٦ ــ **الاحساس بالود والتآلف مقابلالعزلة** والقوة المكتسبة في أية مرحلة يمكن اختبارها بقدرة الفرد على تجاوزها بطريقةتسمح له بالحصول على فرص اكبر فى المرحلة التالية ، لم تكن متاحة له في المرحلة السابقة .فالراشد ــ الذى يخرج من البحث عن الهوية ــ يكون مشوقا ومرحبا أن يدمج هويته بهويةالآخرين . فهو على استعداد للاحساس بالود والتالف مع اشخاص من نفس الجنس او منالجنس الآخر او مع نفسه . فتكون لديه القدرة على ان يسلم نفسه للانتماءاتوالمشاركات المحسوسة مع الغير ، وان ينمى

لديه القوة الاخلاقية التى تمكنه من ان يفي بتعهداته حتى لو اقتضى الامر القيام بتضحيات ووعود هامة .

وفى مقابل الالفة والود نجد الابتعاد ، اعنى الاستعداد للعزلة ، واذا لزم الأمر ، هدم القوى والاشخاص الذين يبدو فى وجودهم خطر يهدد الذات وتمدد على العلاقات الوثيقة التى تربط الفرد بالآخرين .

واذا تحرينا الدقة ، فان هذه المرحلة هي مرحلة النمو الكامل للتناسلية الحقيقية True Genitality . ذلك ان غالبية حياة الجنس السابقة كانت من نوع البحث عن الهوية او خاضعة للشهوات القضيبية أو الفرجية التي تجعل حياة الجنس نوعا من الصراع التناسلي. اما التناسلية الحقيقية ، فهي من الناحية الأخرى حالة دائمة من السعادة الجنسية المتبادلة . لقد سئل فرويد مرة عما يظن أن الشخص السوى قادر أكثر على فعله . فأجاب « ان يحب وان يعمل » to love and to work . وهذه العبارة البسيطة تدعو الى التأمل العميق ، لانه عندما قال فرويد « أن يحب » كان يعني الحب التناسلي . وعندما قال « يحب ويعمل » فانه كان يعنى العمل المنتج عامة ، والذى لا يشغل الفرد الى الحد الذى يفقد الفرد او ينسى حقه أو قدرته على أن يصبح كائنا محبا ومتناسلا .

واذا كان التحليل النفسي قد قطع شوطا بعيدا فى التوكيد على التناسلية كعلاج عام للمجتمع ، وقدم بذلك بضاعة جديدة لكثير ممن يرغبون تفسير تعاليمه على هذا النمو ، الا انه لم يوضح دائما — فى نظر اريكسون — كل الاهداف التي يجب ان تتضمنها التناسلية بالفعل . فمن اجل ان يصبح لهذه التناسلية قيمة اجتماعية مستديمة ، **فان الصورة المثلى للتناسلية يجب ان تتضمن : ١ — تبادلية الشبق الجنسي ٢ — ومع شريك يحبه ٣ — ومن الجنس الآخر ٤ — وان يكون مستعدا ومرحبا ان يشاركه الثقة المتبادلة ٥ — وان يكون مستعدا ومرحبا ان ينظم معه دورات (أ) العمل (ب) والانجاب (ج) والترويح ٦ — وبذلك يضمن للنتاج او الصغار جميع مراحل النمو السوى .**

وخطر هذه المرحلة هو العزلة ، اعنى تجنب العلاقات التى تسلم الى الود والمحبة والتآلف ، وقد يؤدى هذا الاضطراب وهذه العزلة الى حدوث مشكلات خطيرة فى الشخصية .

(٧) الانتاجية مقابل الجمود . لقد كان التركيز فيما سبق منصبا على الطفولة والمراهقة . ولكن مع التقدم فى السن والوصول الى الرشد واكتمال النضج يبدأ الاحساس الابوى . والاحساس الابوى يتضمن النمو التطورى الذى جعل الانسان هو الكائن الحى المعلم والمتعلم على حد سواء . واصرارنا المستمر على تصوير الاطفال والنظر اليهم باعتبارهم معتمدين ومتكلين دائما على الكبار ، يجعلنا ننسى أيضا اعتماد الجيل الاكبر والمتقدم فى السن على الجيل الاصغر منه . أن الشخص الناضج يحتاج دائما الى الشعور بأن هناك من يحتاج اليه ، والنضج يحتاج الى توجيه مثلما يحتاج الى تشجيع ممن يقدم اليه ونرعاه .

والابوة ، اســاسا ، هى الاهتمام بتربيةالجيل الجديد الناتج وتوجيهه ، وان كان هناك آباء ـ اما بسبب ســوء الخط أو عوامل نفسيةخاصة ، لا يقومون بهذا العمل نحو أولادهم . وقد يتسع مفهوم الابوة أيضا فيشمل مترادفاتأكثر الفة كالانتاج والخلق .

أما الاخفاق فى انماء هذا المكون من مكوناتالشخصية السوية ، فكثيرا ما يؤدى الى نوع من الانغماس في الذات والاحساس العام بالجمودوالفقر الشخصى . فيبدأ الفرد غالبا في امتاع ذاته واشباع رغباتها كما لو كان هو الشـخصالوحيد أو الطفل الوحيد ، ويتساهل مع نفسه وينتظر من الآخرين التساهل معه ، اى يسلكبطريقة طفلية غير ناضجة » .

وثمة حقيقة هامة تتلخص فى أن مجـردالطفل أو حتى الرغبة في انجابه ، لا ترتفع الى ضرورة الاحساس بالابوة . فبعض صغار الآباءيعانون فيما يبدو من تأخر فى القدرة على تنمية الرعاية الحقة لابنائهم ، ويمكن أن ترجع اسبابهذا الاخفـاق الى الانطباعات غير الســارة في الطفولة المبكرة وفى التوحدات الخاطئة معالآباء،وفى الحب الزائد عن الحد للذات ، وفى الافتقار الى الثقة فى الاطفــال أو الرغبــة فى الشـعوربالاســتقلال وعدم الارتباط بالغير ، والاحساس بالعزلة . وقد يحدث هذا عند بعض الاشخاصنقصا فى الاحساس بتكامل الانا .

(٨) تكامل الانا مقابل اليأس : Ego Integrity vs Despair وتظهر ثمار المراحل السبع السابقة فى هذا الشخص الذى نما على العنايةبالاشياء والاشخاص ، وعلى ملاءمة نفسه مع النجاح والفشل فى هذا العالم ، والذى اوجدالآخرين وولد الاشـياء والافكار . ولم يجـد اريكســون مصطلحا افضل من مصطلح «تكاملالانا» لوصف هذا الشخص . وهذا المصطلح يشير الى أن الفرد قد أصبح قادرا على توكيدنمو الانا في نزعتها نحو النظام والمعنى ، ونحـو التكامل الانفعالى المخلص لحملة صور الماضى ،والاســتعداد لتحمل الزعامة والقيادة فيالحاضر والى تقبل دورة حياة الفرد ، وتقبل ما يتصلبها من اشخاص باعتبارهم ذوى اهمية ومغزى فى هذه المرحلة منتاريخهمادامو قد ادوارسالتهمفي هذا السبيل .

كما يعنى « تكامل الانا » ايضا حبا جديداومختلفا للابوين، حبا خاليا من الرغبة فى ان يكونوا غير ما هم عليه ، أو ان يتخلصوا منعيوبهموان يتقبل حقيقة ان حياة المرء هى مسئوليته وحده . كما يعنى ايضا احساسا بزمالة الرجالوالنساء الذين ساهموا في خلق انظمة واشـياء واقوال تكشف عن كرامة الانسانية . وعلى الرغممن معرفته بنسـبية جميع الاساليب المختلفة للحياة والتى اعطت معنى للكفاح الانسانى ، فانالشخص الذىلديه تكاملالانا يكون على استعداد للدفاع عن كرامة اسلوبه فى الحياة « أمام كلما يتعـرض له من تهـديدات مـادية كانت أو اقتصادية . فهو يدرك ان حياة الفرد وكرامتهتتوقف على تمسكه بأسلوبه الذى يقوم عليـه شعوره بالتوحد .

والادلة الاكلينيكية والانثروبولوجية توحىان نقص أو فقدان هذا النمو لتكامل الانا يتضح فى ناحيتى الاشمئزاز واليأس . فالقدر أوالمصيرلا يتقبله الفرد كاطار للحياة ، كما انه يخـاف الموت . وهو يعبر عن اليأس فى صورة الشعوربأن الزمن قصير ، وانه اقصر من أن يســمح

للفرد ان يبدأ حياة اخرى من جديد ، أو ان يحاول تجربة طرق اخرى بديلة للتكامل . ومثل هذا اليأس غالبا ما يختفى وراء مظاهر الاشمئزاز وبغض الجنس البشرى والاستياء المزرى المزمن لمؤسسات معينة وأشخاص معينين ، وهذا الاشمئزاز وهذا الاستياء انما يعنيان فقط احتقار الفرد لنفسه وازدرائه لها .

وهكذا يربط اريكسون بين مراحل النمو والتكيف ، ويربط بين اتجاهه التحليلى واتجاهات اخرى انثروبولوجية واجتماعية .

• • •

ثالثا ـ نظرية نمو الذات عند جوردون البورت

جوردون البورت من كبار المشتغلين بدراسة الشخصية ، وكتب فى هذا المجال العديد من الكتب . وقد نظر الى الشخصية من حيث هى أسلوب متميز من أساليب التكيف التى يقوم بها الفرد ، لا توجد عند الولادة ، وان كان من الممكن القول بان بذورها توضع مع الولادة ، أن اساليب التكيف المميزة المبكرة والتى على اساسها يمكن أن نفرق بين طفل وآخر تتضح فى شدة نشاطهم التلقائي وتكراره ، وفى تعبيراتهم الانفعالية والمزاجية ، وانه ليس من المحتمل قبل بداية الشهر الرابع أن يكون الطفل قد نضج نضجا كافيا وتعلم تكوين عادات متميزة للتكيف .

ومع بداية النصف الثانى من السنة الاولى تبدأ استجابات الطفل التوافقية المتميزة مع العالم المادى والاجتماعى تظهر بوضوح ، وان الصفات المتميزة التى يمكن ملاحظتها فى وقت مبكر من حياة الطفل تميل الى الاستمرار وبشكل ملحوظ يسمح للملاحظ ان يتنبأ بما ستكون عليه شخصية الفرد فى المستقبل . فالشخصية اذن نامية متطورة تخضع لمظاهر النمو النفسى السوى وغير السوى ، وفقا للمحددات المختلفة التى تؤثر فيها ، ووفقا للظروف التى يمر بها الفرد .

والذات هى لب الشخصية ، بل هى لب كيان الفرد ووجوده . وفكرة الذات تنمو وتتطور وتمر بمراحل متعددة في نموها وتطورها. واذا كنا عرضنا للنمو النفسى الجنسى عند فرويد ، والنمو النفسى الاجتماعى بصورته المتطورة عند اريكسون ، فجدير بنا أن نشير ايضا الى نظرية اخرى تتصل بصميم النمو النفسى للفرد ، وهى نمو ذاته ابتداء من الطفولة المبكرة حتى المراهقة ، وهذه النظرية هي نظرية البورت .

* مراحل نمو الذات عند البورت :

أ ـ الطفولة المبكرة : من المؤكد أن الطفل ليست لديه اية معرفة عن نفسه « كذات » وهذا ما تكشف عنه الملاحظات العديدة التى قام بها العديد من علماء نفس الطفل من امثال جان بياجيه وغيره . فالطفل لا يمكنه ان يميز بين ذاته والعالم الخارجى . فهو ينظر الى جسمه كما لو

كان شيئا غريبا عنه ويلعب بأصابع قدميه كمالو كانت دميته ، اى انه ليست لديه اية معرفة عن وجود ذات جسمية أو ذات اجتماعية . فالحدود الفاصلة بين ما هو جزء منه ، وماليس جزءا منه لم تتضح بعد ، ويحسن أن نفرق بين الشعور ، والشعور بالذات ، فهما ليسا مترادفين لا عند الطفل ولا حتى عند الراشد . فالطفل على الرغم من انه يحس ويشعر بما يجرى حوله من حالات وتغيرات نفسية ، الا انه يفتقر فى هذه المرحلة الاولى من عمره الى الشعور بالذات . أما البالغ فلديه الناحيتان معا ، وان كانتا غير متماثلتين : فهو يشعر ، كما انه يشعر بذاته .

والطفل يكتسب الشعور بالذات بشكل تدريجى خلال السنوات الاولى من حياته . وهذه المرحلة الاولى من حياة الطفل والتى تشتمل على السنتين الاوليين يسميهما بياجية باسم « المرحلة الحسية الحركية » وفيهما يستقبل الطفل انطباعات من العالم الخارجى ، ويستجيب لهذه الانطباعات دون أن تكون هناك ذات وسيطة بين هذه الانطباعات وهذه الاستجابات . فهو يحس ويشعر ويستجيب للضغوط الواقعة على سطح الجلد ، ويستجيب للاصوات الهادئة الناعمة الصادرة عن الام ، وردود الافعال الحسية الحركية هذه تدخل فى كلٍ غير « متشكل » او كلٍ « غير متمايز » من الذات والعالم الخارجى على حد تعبير بياجية .

ومع استمرار النمو يبدأ الطفل يكتشف جسمه . ففى حوالى الشهر الخامس او السادس يمسك بأصابع اليدين والقدمين ويمسك بالاشياء الصغيرة المحيطة به . ولكن الاشياء والاصابع التى تقبض عليها هى شىء واحد بالنسبة اليه ، شىء واحد لم يتمايز بعد الى مكوناته . وهو عندما يحملق في قدميه ، يحاول أن يمسك بها وان يضع اصبع قدمه فى فمه ، وهو أن اصاب قدمه فهو يتألم دون أن تكون لديه اية فكرة عن انه هو سبب ألمه . وقد تستثيره رؤية صورته في المرآة وهو فى شهره الثامن تقريبا ويحملق فيها ويحاول اللعب معها دون أن يدرك أن هذه الصورة التى يراها هى صورته هو . والجدير بالذكر ان الطفل فى العادة يميز صورة والديه فى المرآة ، قبل أن يستطيع ان يميز صورته هو بوقت طويل .

ثم هو حين يبدأ يتنقل فى ارجاء البيت بالزحف من مكان لآخر ، قد يصطدم بأشياء كثيرة تسبب له ألما فيبدأ يدرك بالتدريج أن هناك اشياء خارجية جامدة ، وان الاصطدام بها يسبب له ألما . اى يبدأ يدرك أن هناك اشياء خارجية عنه . وهو يصل الى فكرة الشيء الخارجى الذى « ليس هو » قبل أن يتمكن من أن يدرك ان له ذاتا متميزة عن هذا العالم الخارجى بوقت طويل . وكما يدرك وجود الاشياء الخارجية قبل ادراكه لذاته ، فكذلك يدرك وجود الآخرين قبل ادراكه لذاته . فهو يتعرف على الوجوه المألوفة فى البيت من الابوين والاخوة ، كما يتعرف على الغرباء عن البيت . وهذا التعرف على « الغير » يسبق ايضا التعرف على الذات .

ويذهب البورت الى ان **أول مظهر** لفكرة الذات فى هذه المرحلة الاولى هو **« الاحساس بان له جسما »** ، وان هذا الجسم ، جسمه هو . فالطفل يستقبل سيلا من الاحساسات العضوية الداخلية ، كما انه يتأثر ايضا بالكثير من المثيرات العديدة الموجودة فى العالم الخارجي .

وبالطبع لا يكون لهذه الاحساسات الجسمية أى أثر فى تكوين الذات مالم تكن متكررة . ومعرفة هذا التكرار للاستجابات البسيطة المتلاحقة يتطلب نضجا مناسبا في اللحاء بشكل يسمح بالاحتفاظ بآثار الخبرات السابقة. وكما ينمو الاحساس بالذات الجسمية من الاحساسات العضوية المتكررة التى تترك آثارها في نفس الطفل فانه ينمو ايضا من الاحباطات المتكررة التى تصدر عن العالم الخارجي . فالاحساس بالذات الجسمية هو فى نظر البورت وثيقة وجودنا ، بمعنى أن احساساتنا وحركاتنا تمدنا بمعرفة ثابتة عن وجودنا .

ولكن رغم ما للذات الجسمية من أهمية، الا انها ليست كل شيء في تكوين فكرة الذات عند الطفل فى هذه المرحلة الاولى من الحياة ، فهناك افكار اخرى لها اهميتها .

هناك ثانيا : هوية الذات واستمرارها : فانت هو نفس الانسان الذى كنت عليه وانت فى سن الثالثة او الرابعة من عمرك ، رغم ان كل شيء يتصل بك ، حتى خلايا جسمك والبيئة المحيطة بك قد مرت بها تغيرات عديدة جدا . ثم ان كل فرد منا يتعرف على ذاته . فانا اتذكر بعض الافكار والاحداث التى مرت بذهنى بالامس، وفي الغد سوف اتذكر بعض ما مر بى من افكار واحداث فى يومى وامسى . وانا على ثقة ايضا من أن هذه الافكار والاحداث تتصل بشخص واحد هو انا . ففكرة هوية الذات تعتبر بالغة الاهمية طالما ان التغير هو مع ذلك القاعدة الاساسية للنمو . فرغم ما يطرأ على افعالنا وافكارنا من تغير ، الا ان الذات تبقى هي هي مستمرة ومتصلة .

وتلعب اللغة دورا هاما فى هذا الصدد . فعندما يبدأ الطفل التحدث والتعبير عن رغباته يستخدم من الالفاظ ما يشير الى حاجاته ورغباته ، وانه ، يعنى « هو » ، يريد أن ياكل أو أن يشرب او ان يحصل على لعبة ما : فلفظ « انا » او ما يشير اليه يعتبر عاملا واضحا فى علاقته بالعالم الخارجى . ثم ان اسم الطفل الذى يتردد على سمعه فى اليوم الواحد مرات عديدة ، قد يساعده ايضا على أن يدرك ذاته كشيء متميز ومستقل . وهذا الاسم يكتسب معنى ودلالة بالنسبة للطفل فى عامه الثانى . ومع الاسم تأتى المعرفة بالوضع المستقل ، وأن له وجودا مستقلا عن وجود الآخرين يتمثل فى هذه الذات الجسمية التى بدأ يحس بوجودها . والى جانب الاسم هناك أشياء اخرى يمكن أن تعد بمثابة نقط ارتكاز هامة للتعرف على الذات كالملابس والاشياء الخاصة . فبعض الاطفال فى سن الثانية أو الثالثة ، قد يكشفون عن احساس بالهوية حين ينظرون الى بعض ممتلكاتهم الخاصة كالحذاء الجديد او شريط الرأس او الفستان الذى ترتديه .

والى جانب الذات الجسمية وهوية الذات واستمرارها ، هناك ناحية ثالثة تلعب دورا هاما في هذه المرحلة من تكوين فكرة الذات هى **رغبة الطفل في اثبات وجوده أو تقديره لذاته** . ففى سن الثانية أو الثالثة يحاول الطفل القيام ببعض الاشياء بنفسه ، كدفع المشاية بنفسه أو تناول بعض الاشياء واللعب بها بنفسه ، وينتقل فى ارجاء البيت يستكشف ما فيه . ويجد لذة كبيرة في القيام بمثل هذه الالوان من السلوك والتى – أن أعيقت من جانب الكبار – يشعر الطفل كأنها ضربة موجهة لتقديره لذاته . بمعنى أن الذات قد احبطت أو اعيقت ، ونتج عن ذلك

شعور بالضعف او احساس بالفضب . ويحس الطفل بذاته ويكون واعيا بها لدرجة كبيرة . ويكون هذا السلوك واضحا لدى طفل هذه المرحلة حتى أن البعض يسميه الحاجة الى « الاستقلال الذاتى » . وهى سمة ملحوظة وبارزة فى فكرة الذاتية عند طفل الثانية أو الثالثة . وهذا ما يتجلى فى ثورة المعارضة التي يتميز بها طفل هذه الفترة بالنسبة للطعام والملبس واطاعة الاوامر وكل ما يريده الآباء عادة . فهو ينظر الى اوامر الكبار كما لو كانت تهديدا يهدد تكامله . ولذلك تتضح عنده ظاهرة الرفض ، كما لو كان الرفض بقوله «لا» وسيلة لحماية الذات من كل ما يؤدى الى تحقيرها . ولمثل هذه الفكرة ذهب اريكسون في دراسته للنمو النفسى عند الطفل فى حديثه عن المرحلة الثانية من مراحل النمو النفسى للطفل والتى سماها باسم الاستقلال الذاتي ، كما سمى الخطر الذى تتعرض له هذه المرحلة باسم الخجل والشك . والفكرتان ــ تلكما اللتان أوردهما البورت واريكسون ــ قريبتان الى حد بعيد .

وعلى ذلك ، فالمظاهر المميزة لنمو فكرة الذات فى السنوات الاولى من حياة الطفل عند البورت هى :

١ ــ المظهر الاول : الاحساس بالذات الجسمية .

٢ ــ المظهر الثانى : هوية الذات واستمرارها .

٣ ــ المظهر الثالث : تقدير الذات .

ب ــ مرحلة ما قبل المدرسة :

لكن مرحلة ما قبل المدرسة ــ وهى الفترة ما بين الرابعة والسادسة ــ سرعان ما يفقد الطفل فيها هويته ويختلط عنده الوهم بالحقيقة ، ويسيطر على العابه النوع المعروف باسم «اللعب الايهامى » الذى يتوهم الطفل نفسه فيه فارسا أو شرطيا مثلا ، ويخلق له من الوهم والخيال أصدقاء : اطفالا كانوا أم حيوانات . وفكرة الذات الجسمية تكون عنده اكثر وضوحا ، فجميع أعضاء جسمه هى ملك خاص به وحده .

كما أن طفل هذه المرحلة يكون « ذاتى المركز » الى حد بعيد . فالاطار الرجعى لتفكره هو ذاته . فالقمر يتبعه فى كل مكان وحيثما سار ، والله موجود ليحفظه ويحميه ، كما أن وجهة نظره تعتبر مطلقة . فالآخرون يفكرون على نحو ما يفكر هو ، ولذا فهو ليس فى حاجة لان يعبر عن وجهة نظره أو يفسر أقواله وعباراته للآخرين . ولكن مركزية الذات هنا ليست قائمة على معرفة بالذات أو انها تدور حول الذات ، وانما هى تصدر عن الطبيعة الشخصية لتفكير الطفل فى هذه المرحلة فحسب .

ومن ثم فان هذه المرحلة تتميز فى نظر البورت بمظهرين جديدين ، بالاضافة الى المظاهر الثلاثة السابقة التى تتميز بها السنوات الثلاث الاولى . وهذان المظهران هما :

٤ ــ المظهر الرابع : امتداد الذات واتساعها .

٥ ــ المظهر الخامس : صورة الذات .

فالذات تتسع لتشمل أشـياء كثيرة ، كمايلعب الاحساس بالملكيـة في نفس الوقت دورا هاما . فهذه الكرة كرتي ، وهذه الدراجةدراجتيوهذه امي وهذا اخي وهذا بيتي .. الخ . وكلها تصبح امتدادا للذات وتشير أيضا الى اتساعهالتشمل العديد من الاشياء . وبطبيعة الحـال لا تتسع ذات الصغير في هذه المرحلة لتشـملكل ما يحيط به فى دائرة عالمه الكبير على نحو ما نجد مثلا بالنسبة للكبار ، وانما أساس هذاالاتساع الكبير الذى سـوف يحدث فيما بعد يتم وضع بذوره في هذه المرحلة حينمـا يحسالطفل بتملك أشياء كثيرة .

وبالاضافة الى امتداد الذات واتساعها ،تأخذ صورة الذات فى الاتضاح اكثر واكثر . فمن طريق التفاعل المتبادل مع الكبار والوالدين يمكنهأن يقارن بين سلوكه الواقعى وما هو متوقع منه . فهو ولد مشاغب ، ووالداه يريدانه ولداهادئا مطيعا لطيفا . ولكن صورة الذات هنـا ليست نامية على نحو ما هى فى المراهقة . وعلىالعموم فبذور فكرة الذات كما هى وكما يريد أن تكون عليه ، تكون موجودة فى هذه المرحلة .

جـ ـ مرحلة الطفولة المتاخرة : ومعدخولالطفل المدرسـة الابتدائية اى فى الفترة ما بين سن السادسـة والثانيـة عشرة ، يزداد احساسالطفل بهويته وبصورة ذاته ،وبقدرته على امتداد الذات . وسرعان ما يتعلم الطفل ان ماهو متوقعمنه خارج المنزل يختلف الى حدكبير عما هومتوقع منه داخل المنزل . فمستويات الرفاق فى اللعبوالمشى والكلام والملبس شيء جديد عليه . ثم هو يحاول ان يدمج نفسه مع جماعات الرفاق،وان يندمج مع الشلة وفى عالم الواقع ، كما يقل لعبه الايهامى ، ويزداد احساسه بذاته الواقعية. ولذلك نجده يرتبط بالمعايير الخلقيـة واحكام اللعب وقواعـدها ويتبعها بكل دقة . ويكونراضيا عن نفسهاذا هو تكيف مع الواقع الخارجى والاحكام الخارجية وامتزج مع الشـلة ونمتصورة ذاته .

وهذه الفترة هى أيضا فترة نمو عقلى .وهى فترة تتميز بالمزيد من الرغبة فى المعـرفة وحب الاستطلاع وكثرة الاسئلة والاستفسارات . وهذه هى بداية الاحساس بمظهر جديد من مظاهر نمو الذات ،وهو المظهر السادس عنـدالبورت .

٦ ـ المظهر السـادس : الذات منطقيـةعاقلة ووظيفة الذاتهنا كوظيفة « الانا » عنـد فرويد التى تحاول ان تجد حـلا ومخـرجاللمشـكلات التى تخلقها النـزاعات الغريزية والنزعات المكبوتة « الهو » ثم الواقع أو البيئةالخارجية ، ثم الاوامر والنواهى التى تصدر عن الوالدين والمجتمع (الانا الاعلى) . فوظيفة الذاتالعاقلة هى محاولة تجنب المشكلات والصعوبات التى تثيرها هذه النواحى الثلاث ، ولكنها بالطبعليست دائما عاقلة تماما ، بل تكون أحيانا مجرد ذات دفاعية تحاول خلق المعاذير والتبريرات كىلا تجرح الذات . فهى تنكر العوائق الموجـودة القائمـة وتتلمس وسـائل الهـروب ووضـعالخطط التى هى مجرد حلول مزيفة لمشـكلات الحياة .

د ـ مرحلة المراهقة :

واخيرا تأتى مرحلة المراهقة وفيها يبحث المراهق من جديد عن ذاته . فهو فى طفولته المبكرة قد أحس بهويته ولكنه فقدها ان شئنا القول فى الاسرة وفى الشلة وفى الولاء لهما . والآن تصبح مشكلة المراهق هى البحث من جديد عن هويته .

وكثيرا ما تواجه المراهق في هذه الناحية صعوبات جمة تزيد من مشكلاته في هذه المرحلة . فأسلوب معاملة الوالدين له مرة كطفل ، ومرة كرجل ، من أسباب مشكلاته وعدم استقراره . فسلوكه وتصرفاته تكون أحيانا كسلوك الاطفال وتصرفاتهم ، ولكنه مع ذلك قد بلغ من الناحية الجسمية والجنسية مبلغ النضج الذى يكفى للنظر اليه كرجل .

وصورة المراهق عن ذاته تتوقف على الآخرين وتقبلهم أو نبذهم له . وثورة المراهق وتمرده على السلطة لهما علاقة هامة ببحثه عن هويته وذاته . انها محاولته الاخيرة للاستقلال الذاتى . وقد يلجأ المراهق الى أساليب تكشف عن قلقه وعن بحثه عن شىء لم يصل اليه بعد . فألوان الزى التى يرتديها . وتصفيف شعره بالصورة التى يقوم بها ، وتقليده للابطال المختلفين ، كل ذلك تعبير عن القلق وعدم الاستقرار . وعادة ما ينظر الآباء الى مثل هذا السلوك وهذه الخبرات نظرة بعيدة عن الاحترام والتقدير للمراهق . ولذلك فهو يقوم به فى الاغلب خارج البيت وفي صحبة الزملاء .

ويكون الصراع حول الحاجات الجنسية واضحا ، وتتناقض وجداناته وعواطفه ويتذبذب احيانا بين الايمان والالحاد . وقد يجد كثير من المراهقين فى الدين حلا لمشكلاتهم ، كما تظهر أهداف المستقبل واضحة جلية ، ويحتل التفكير فى المهنة التى يعد نفسه لها فى المستقبل جزءا كبيرا من تفكيره . كما انه يرسم للمستقبل خطة موضوعة . وهو بهذا يدخل بعدا جديدا على ذاته لم يكن موجودا من قبل في الطفولة . وغالبا ما تكون آمال الشاب بعيدة ومستويات طموحه عالية جدا . ولكن مع تقدم السن سرعان ما يتكشف البعض أن ما لديهم من قدرات واستعدادات اقل مما لديهم من آمال وأحلام ، فيعدل من صورة ذاته ومن مستويات طموحه بما يتفق وقدراته واستعداداته . وهذا دليل على مستوى عال من النضج ، وعلى هذا النمو يضيف البورث البعد السابع فى تكوين الذات ونموها وهو :

٧ ـ المظهر السابع : الجوهر المميز .

وهذا المظهر الاخير يتميز بالاتجاه والقصد المعرفى مما يساعد على تحديد اهداف الفرد . وليس من الضرورى أن تكون الاهداف جامدة وثابتة ، ولكن يوجد هدف رئيسى يهدف الفرد الى تحقيقه فقط . وهذا المظهر الهام فى نمو الذات لم يكن موجودا من قبل . فالطفل الصغير الذى يريد أن يكون طيارا أو طبيبا ليس لديه الاتجاه المتصل والجهد المتكامل لبلوغ ذلك وتحقيقه . أما الشاب فهو يرسم ويخطط ويحس بالهدف وينشط الى تحقيقه . وبالطبع يحتاج هذا كله الى قدر من النضج فى الشخصية قد لا تجده عند جميع المراهقين . فالبعض قد

يصل الى مرحلة المراهقة دون أن يكون لديهاحساس واضح بالهدف . وهؤلاء فى الاغلب لا تكون شخصياتهم ناضجة ، ولذا ، فاحساسهمبالذات لا يزال فجا أوليا .

ولكن هذه المظاهر المختلفة للذات ليستمتباعدة . فهى جميعا حالات تكشف عن الذات على نحو ما نحسها ونشعر بها . وكل واحدةمنها مرحلة من مراحل نمو الذات ويمكن أن نربطها بعضها ببعض تحت اسم واحد . وقداختار البورت لها اسم الذات المتدة المميزة Proprium . وقد اشار البورت الىأنه لم يسمها الذات وكفى ، لان معظم الكتاب يطلقون اسم الذات أو الانا على مظهر واحداو مظهرين من المظاهر السابقة . ولهذا فهو يفضل أن يضع لها تسمية جديدة تضم هذهالمظاهر المتعددة للذات .

٨ ـ المظهر الثامن : الذات العارفة

وبعد أن حدد البورت الوظائف الموحدةالمميزة المتنوعة ، والتى تعتبر موجودة لدينا كلها يتساءل عما اذا كانت لدينا ، بالاضافة الىما سبق ، ذات عارفة يمكن أن تضاف وظيفتها الى كل الوظائف الاخرى للذات الممتدة المميزةوتتعداها وتدركها ؟ لقد ذهب وليم جيمس الى انه لا توجد لدينا مثل هذه الذات العارفة . فهىلا توجد كشىء له كيان يمكن تمييزه عن المجموع الكلى للخبرات ، أو يمكن انتزاعه من مجرىهذه الخبرات . فكل لحظة شعورية ترتبط باللحظة السابقة ، وعلى هذا فالذات العارفةتوجد مضمحلة على نحو ما ، فى قوله « الافكار نفسها هى الذات المفكرة » .

اما معارضو جيمس فيقولون أن مجردسلسلة من الخبرات لا يمكن أن تتحول هى ذاتها الى شعور أو وعى بهذه السلسلة كوحدة ، كماأن الافكار الماضية لا يمكن أن تؤخذ بذاتها على أنها هامة أو مثيرة للاهتمام ، مالم تكن هناكذات تثير اهتمامها او تكون هامة بالنسبة اليها. فالذات العارفة هى المحك النهائى ، وهى التىتنبثق كمُسلّم نهائي لا مفر منه .

وسواء اخذنا براى جيمس او براىمعارضيه ، فمن الملاحظ أن هناك اتفاقا بينهم في ناحية أن الوظيفة المعرفية ضرورية وحيويةبالنسبة لنمو الذات . فنحن لا نعرف أشياء فحسب ، بل أننا نعرف ونتعرف على الملامحالتجريبية لذاتنا الموحدة المميزة ، اننى أنا الذى لدى احساسات جسمية ، وانا الذى الاحظهويتى من يوم الىآخر ، وانا الذى الاحظ وافكر فى توكيد ذاتى وامتدادها ، وفيما أبدية منتبريراتى،كما اراقب اهتماماتى وكفاحى وهكذا. أفكر فى وظائفى الخاصة الموحدة المميزة ، واكادادرك وحدتها الاساسية ، واشعر بارتباطها الوثيق على نحو ما بالوظيفة العارفة ذاتها » .

ومع ذلك يتدارك البورت الامر ويرىخطورة هذا القول اذا التزمنا بوجهة النظر العلمية ، فاذا صرحنا بأن الذات «عاملمستقل»داخل الشخصية هى التى تعرف وتريدوتهدف الخ ، السنا في خطر اذن من خلق شخصيةداخل الشخصية ؟ فاذا تساءلنا مثلا لماذا يعمل هذا الشخص بجد ، فاننا لا نفسر شيئاًاذا قلنا لأن ذاته تريد بذلك . فقولنا أن الذات

تفعل هذا او اذاك ، وتريد هذا او ذاك ، وترغب في هذا او ذاك ، انما يثير مجموعة من المشكلات الصعبة التى هى أقرب الى الفلسفة منها الى العلم . ولذا يذهب البورت الى انه فى بناء الشخصية ـ اذا فهم فهما صحيحا بما فى ذلك البناء الموحد المميز ـ سوف نجد التفسيرات التى نبحث عنها . فليس من الحكمة ان يتخلى عالم النفس عن مسئولياته فى تفسير مظاهر السلوك المختلفة ويعزو مشكلاتنا الى وسائط داخلية او الى عامل خفى يحرك الخيوط على حد تعبيره. واذا كان من الممكن ـ لاغراض فلسفية معينة ـ أن ننظر الى الذات كوحدة متصلة ثابتة او ان نهبها الخلود مثلا ، فاننا فى علم النفس يجب ان نتجنب الفصل القاطع بين الذات « كعامل » ووظائف الانظمة الموحدة المميزة داخل الشخصية .

تلك هى المراحل الثمان التى يمر بها « نموالذات » منذ الطفولة المبكرة حتى المراهقة عند البورت ، وليس من العسير علينا أن نجد الكثير من اوجه التشابه بينها وبين مراحل النمو النفسى عند اريكسون ، وان كانت الاسس النظرية التى يستند اليها كل منهما مختلفة الى حد ما .

• • •

رابعا ـ نظرية النمو عند جان بياجيه :

وكما هو الحال بالنسبة لفرويد ، فان جان بياجيه اهتم أيضا بدراسة المراحل العامة التى يمر خلالها الفرد فى نموه النفسى العقلى . فنظريته نظرية شكلية تهدف الى وصف المراحل المختلفة للنمو . ولكنه ـ على عكس فرويد الذى اكد نمو العمليات الدافعية والانفعالية كالدوافع الجنسية والمشاعر المتصلة بها ، فان بياجيه ركز اهتمامه كله على النمو المعرفى ، اعنى العمليات العقلية المميزة للنمو من الطفولة حتى المراهقة والرشد . وبالاضافة الى ذلك ، فان اسلوب الدراسة والملاحظة الذى استخدمه كل من فرويد وبياجيه كان مختلفا ، مثلما اختلفت مفاهيمها فى البحث . لقد درس فرويد النموالنفسى فى الطفولة اساسا من خلال وصف الراشدين لحياتهم الوجدانية أثناء فترة الطفولة، وذلك خلال جلسة العلاج النفسى ، اما بياجيه فقد قام بالملاحظة الدقيقة لما يقوم به الطفل من سلوك ودون تدخل مباشر من جانبه . كان يعطى الاطفال مشكلات لحلها ويفحص الطرق التى يتبعونها فى حل هذه المشكلات فى اعمار زمنية مختلفة . وجزء كبير من أعمال بياجيه الاولى ، والتى نشرتة سنة ١٩٢٦ في كتابه الاول « اللغة والفكر عند الطفل » كانت بمثابة تقرير للملاحظات الدقيقة التى قام بها على السلوك اللغوى التلقائى للطفل . كما ان كثيرا من مظاهر السلوك التى اوردها في دراساته الاولى والتى امتلات بها ملاحظاته العديدة التى وردت في كتابه « ميلاد الذكاء عند الطفل » لم تكن نتيجة تدخل مباشر من جانبه كمجرب وباحث . ومع ذلك فقد تضمنت معظم دراساته واحدة أو اكثر من صور التدخل التجريبى البسيطة ، والتى تتلخص فى ادخال نوع من المثيرات فى وقت معين خلال النشاط التلقائى للطفل . ومن هنا كانت معظم دراساته تحمل الطابع الشكلى للتجارب الدقيقة ، بمعنى

ان السلوك موضوع الدراسة منذ البداية بمثيراتمعينة يدخلها المجرب . ومن الممكن أن نميز انواعا مختلفة من الاساليب التى اتبعها على ضوء اهميةالمثيرات والاستجابات اللفظية فى الموقف الاختبارى .

ولقد كانت وجهة نظر بياجية ـ كما هوالحال بالنسبة لفرويد ـ متسقة مع اتجاه داروين فى التكيف . فهو ينظر الى السلوك كعملية تكيفمع الحياة ، عن طريقها يؤكد الفرد حالة التوازن بين نفسه والبيئة . فالتغيرات التى تحدث فىالبيئة تؤدى باستمرار الى اضطراب هذا التوازن، ومن الممكن أن يعود الفرد الى حالة التكيف فقطمن خلال تغيير الفرد لنفسه (اى الملاءمة مع البيئة) أو معالجة البيئة (التمثيل) وينمو التفكيرالعقلى من خلال عملية التغير التكيفى المستمر بين الفرد والبيئة .

دراسة تطور النمو المعرفي عند بياجيه :

الهدف من هذه الدراسة هو وصف النموالعقلى عند الطفل من الميلاد حتى النضج . لقد قسم بياجيه النمو العقلى عند الطفل الى اربعمراحل اساسية periods ، مشيرا بذلك الى الحقب النمائية الكبرى ، ثم قسم كل مرحلة منهاالى مراحل فرعية stages ، مشيرا بذلك الى التقسيمات الفرعية الصغرى لكل مرحلة منالمراحل الكبرى . فالمرحلة الحسية مثلا تنقسم الى ست مراحل فرعية لكل منها مميزاتهاالخاصة . وسوف نقدم في دراستنا لهذاالموضوع تلخيصا موجزا للمراحل الاربع . ولمن يريدالتوسع فى هذا المجال ، عليه الاطلاع على الكتب العديدة التى كتبها بياجيه وتلاميذه فى هذاالصدد .

المرحلة الاولى : المرحلة الحسية الحركية ـ من الميلاد حتى الثانية Sensorimotor Period

والمرحلة الحسية الحركية للنمو تقابل منحيث الزمن الفترة المحددة للطفولة المبكرة التى تشمل السنتين الاوليين منحياة الطفل . والسمةالبارزة لهذه الفترة ، كما يراها بياجيه ، هى أن الطفل فيها يكتسب المهارات والتوافقات البسيطةالتى من النوع السلوكى . والصور الاجمالية العامة فى هذه المرحلة المبكرة صور حسية حركية. فهى تنظم المعرفة الحسية وتؤدى الى السلوك التكيفى ، ولكنها لا تكون مصحوبة بأى نوع منالتصورات المعرفية أو الذهنية للسلوك أوالبيئة الخارجية . والطفل فى خلال هذه المرحلة ينتقلمن مجرد وليد يعمل على مستوى الفعل المنعكس والمستوى المركز حول الذات الى مستوى متسقنسبيا من الافعال الحسية الحركية ازاء بيئته المباشرة التى يحيا فيها . ولكن التنظيم في هذهالمرحلة تنظيم « عملى » بمعنى انه يتضمن القيام بالتوافقات الادراكية والحركية مع الاشياء ، اكثرمما يتضمن المعالجات الرمزية لهذه الاشياء .

وفي أثناء هذه المرحلة يكتسب الطفل القدرةعلى احداث التناسق بين المعلومات الصادرة عن الاجهزة الحسية العديدة ، وكأنها مصادر مختلفةللمعلومات عن الشيء الواحد اكثر مما هي مصادر غير مترابطة . فالطفل يصبح قادرا على النظرالى الشيء الذى يستمع اليه ، كما أن قبضه على الاشياء وسيره توجهه الادلة السمعية والبصريةواللمسية .

وثمة مظهر آخر لاكتساب الطفل في هـذهالمرحلة الحسية الحركيـة يتضح فى قدرته على العمل كما لو كان العالم الخارجى مكانا ثابتـا ،وليس شيئا يتوقف وجـوده على ادراكه له . فالطفل يصبح قادرا على البحث عن الاشياء التىاختفت من امامـه ، ويبحث عنها على اسـاس معرفته بالمكان الذى ذهبت اليه او اختفت فيه . كما أن من الممكن ان يتخذ طريقا ـ فى بحثه عن الشىء ـ غير الذى اخذه الشىء وكأن لديه معرفةبالمجال المحيط تسمح له باتخاذ طرق عدة توصله لنفس المكان . كما أن فى استطاعته أيضا ان يعودالى النقطة التى بدأ منها ، وربما أخذ طريقايختلف عن الطريق الذى اتخذه أول الامر .

ثم انه يقـدر على القيام بسلوك موجه نحوهدف ومحكوم منذ البداية بشىء من القصد . فمن الممكن ان ينظم معا عملين أو ثلاثة بقصـدالوصول الى نقطة النهاية فى سلسلة ما . كمايمكنه ـ قرب نهاية المرحلة ـ أن يقوم بأعمال جـديدةلم يحاول القيام بها من قبل للوصـول الى اهداف لم يكن فى اسـتطاعته الوصول اليها . وبعبـارةأبسط يكون فى مقدوره ان يجرب اشـياء جديدة ويختبر صوره الاجماليـة العامة الواحـدة تلوالاخرى،كما لو كان يبحث عن الامكانيات السلوكية للشىء ففى امكانه أن يغير افعاله تلقائيا ومختارا .

وتعد كتبه الثلاثة الآتية المصادر الرئيسيةلهذه المرحلة . **الكتاب الاول « ميلاد الذكاء عنـد الطفل »** حيث قدم فيه ملاحظاته عن نمو السلوكالتكيفى عند الطفل،كما اشار الى النمو التدريجى للصور الاجمالية الحسية الحركية خـلال فترةالطفولة المبكـرة . وقد تركزت ابحاثه في هـذا الكتاب على الملاحظات الدقيقـة والمتعمقة والتىاسـتخدم فيها أساليب التجريب البسيط على اطفاله الثلاثة « جاكلين ولوسين ولوران » خلالفترة طفولتهم المبكرة منذ أكثر من اربعين عاما . **أما الكتاب الثانى فهو « تركيب الواقع عندالطفل»**والذى قام فيه بتحليل معرفة الطفل وكيفيعكس سلوكه الافتراضات العديدة عن طبيعة الاشياءوالزمان والمكان والسببية . **وفى الكتاب الثـالث « اللعب والاحلام والتقليد »** ففيه يصفنمو اللعبوالتقليد خلال فترة النمو الحسى الحركى . وفى صورة موجزة للغاية يمكن ان نقدم الملامحالرئيسيةللمراحل الستة الفرعية التى تشتمل عليها المرحلة الحسية الحركية :

المرحلة الفرعية الاولى (من صفر الى شهر): لا يظهـر فيها شىء كثـير الى جانب الافعال المنعكسة التى يولد الطفل مزودا بها .

المرحلة الفرعية الثانية (منشهرالى٤شهور) : وفيها تبدأ الانشطة المنعكسة العديدة تخضع لتعديلات مستقلة نتيجةالتجربة والخبرة وتناسقبعضها مع بعض بطرق متعددة .

المرحلة الفرعية الثالثة : (من ٤ ـ ٨ شهور) : وفيها يبدأ الطفل القيام باعمال موجهة نحو الاشياء والاحداث خارج حدود جسمه بصورةأكثر تحديدا . فهو فى محاولاته اعادة ظهور الآثار البيئية التى حققها عفوا وعن غير قصـد من قبل، يكشف عن نوع من التبشير بالقصد أو الاتجاه نحو هدف .

المرحلة الفرعية الرابعة :(من٨ ـ ١٢ شهرا) : وفيها يتضح القصد بشكل ملحوظ محدد على نحو ما يتجلى فى الوسائل والغايات الاولى .

المرحلة الفرعية الخامسة : (من ١٢ ـ ١٨شهرا) : واذا كان الطفل في المرحلة الرابعة يقنع بأنماط السلوك العادى والمألوف ويستخدمهاكوسائل في المواقف الجديدة ، فانه في هذه المرحلة يجرب ليكتشف وسائل جديدة .

المرحلة الفرعية السادسة : (من ١٨ شهراالى سنتين) : وفيها يبدأ الطفل القيام بتصورات داخلية رمزية للمشكلات الحسية الحركية ،مخترعا الحلول عن طريق سلوك المحاولة والخطأ الضمنى ، اكثر منه عن طريق السلوك الصريح .وبحدوث هذه التصورات الاولى المبدئية يكون الطفل قد تجاوز اساسا مرحلة النمو الحسىالحركى ليدخل فى مرحلة ما قبل العمليات .

ويكشف الطفل قرب نهاية هذه المرحلةالاولى من المراحل الكبرى ، عن استبصار وفهم ملحوظ بالبيئة التى يعيش فيها . ففى امكانهاستخدام الاداة للوصول الى الاشياء . كما يمكنه التنبؤ بالنتائج المباشرة نسبيا لما يحدث منافعال ، وان يدرك أسباب الاحداث التى تحدث . ويمكنه ايضا انيستخدم الآخرين كعوامل مساعدةلتحقيق النتائج التى يريدها . وهذه القدرات كلها قدرات محدودة . ولكن مجرد كونها موجودةيعتبر فى حد ذاته انجازا فى هذه المرحلة . ولتحقيق هذه الانجازات يجب مواجهة بعضالمتطلبات الهامة التى منها :

أ ـ **اكتساب صور اجمالية عامة** (سكيما)تكون مضبوطة داخليا وقابلة للانتقال . فالطفل يجب أن يكتسب ذخيرة من الصور الاجماليةالعامة التى تعمل بهدوء خلال قدر من الضبط الداخلى ، كما يجب ان تكون قادرة على الانتقالايضا . فكل صورة اجمالية يجب ان تكون مترابطة داخليا باتساق وانتظام . فالسلوك هوتتابع افعال حركية يؤدى كل فعل منها وبهدوء الى الفعل الذى يليه . وهذه السهولة فى أداءالوظيفة تتضمن ما أسميناه بجودة الضبط الداخلى . أما قابلية الصور الاجمالية للانتقالوالحركة فتتضمن قابليتها للتكيف بالنسبةلمجموعة من المواقف ,والاشياء . فطفل الثانية يمكنه انيلتقط الاشياء بشىء من الدقة ، ,ويمسك كل شىء بدقة وسهولة وبلا تردد ، وان كان القبض علىالاشياء يتغير ويتكيف تبعا للظروف المختلفة .

ب ـ **مفهوم الواقع** : وبالاضافة الى مايجبان يكون لدى الطفل من ذخيرة الصور الاجمالية العامة ، فمن الضرورى ان يميز الخصائصالرئيسية لبيئته . ففى طفولته الاولى يفترض أن الاشياء الخارجية لها صفة الدوام والاستمرارالنسبى ، وانها تستمر فى الوجود حتى ولو لم تصبح موضوعا لادراك مباشر . فالمعرفة الحسيةتتغير تغيرا جوهريا حين يغلق الطفل عينيه او يدير رأسه أو عندما تتحرك الاشياء ذاتها فىالبيئةأو تغير شكلها . ويسمى بياجيه هذا الافتراض بهوية الاشياء الدائمة باسم « مفهوم الشىء » .فعندما ينظر الطفل بعيدا عن الشىء ، أو عندما يختفى الشىء عن نظره ، يجب أن يكون الطفلقادرا على الرجوع اليه والبحث عنه وتوقعظهوره ثانية . والمادة الاولية لهذه السمة من سماتالنمو هى استجابة الطفللاختفاء الاشياء من مجال

ادراكه . ومع ذلك ، فليس يكفى مجرد أن يعرف الطفل ان الشيء المختفى لا يزال موجودا ، بل يجب ان يكون قادرا على تنظيم معرفته عنه حتى يكون بحثه وتنقيبه مناسبا . ومعنى ذلك ، انه يجب ان يفهم او يدرك أن الاشياء والافعال مستقرة في مكان وزمان متصلين ، وان هذا المكان الذى يوجد فيه يحوى الاشياء كما يحوى جسمه ايضا . والحقيقة انه يعمل كما لو كان جسمه شيئا فى المكان شبيها ببقية الاشياء الاخرى .

جـ ــ التعرف على السبب والنتيجة : وبالاضافة الى ما لديه من ذخيرة الصور الاجمالية وفكرته عن المكان الخارجى ، فمن الضرورى أن يكون قادرا على معالجة مشكلات تتضمن السبب والنتيجة . ومرة أخرى ، قد يبدو الامر بالغ الصعوبة عندما نحاول تحديده . ذلك ان العلاقة العلّية بين حادثتين يتم ادراكها فقط خلال ادلة معينة مثل التجاور والتقارب المكانى فى تتابع الاحداث الوسيطة . ولكن واحدة من هذه ليست مؤكدة تماما . فالطفل قد يرفس قدمه فى الهواء ، وقد ينجم عن ذلك حركة كرة موجودة الى جوار قدمه . ومع ذلك فليس من الضرورى أن يؤدى نفس الفعل الى نفس النتيجة . الا أنه اذا أمكن للطفل ان يحدث مرات عديدة نفس النتيجة ، فقد يسلك على نحو كما لو كان يعتقد ان رفس القدم يحدث بطريقة آلية حركة الكرة . ومن الملاحظ انه قرب نهاية هذه المرحلة يصبح الطفل أكثر وعيا ومعرفة بالاحداث الوسيطة ، كما يحدث تقدم ملحوظ فى التعرف على العوامل الخارجية المتضمنة في التتابع العليّ .

المرحلة الثانية : مرحلة التفكير التصورى ــ من الثانية حتى السابعة Preoperational Period ويلى المرحلة الحسية الحركية مرحلة اخرى تستغرق عدة سنوات تنمو خلالها بالتدريج الصورة المعرفية الداخلية للطفل عن العالم الخارجي وقوانينه وعلاقاته الكثيرة . وتسير هذه المرحلة بطريقة تدريجية : فالصورة الاجمالية التصورية الاولى هى مجرد نسخة داخلية للصور الاجمالية الحسية الحركية . ومع ذلك وبالتدريج ، تنتظم الصور الاجمالية التصورية في انظمة مترابطة يسميها بياجيه ادائية أو اجرائية operational . وهذا معناه أن الافعال الداخلية التى هى عناصر النظام تخضع لقوانين عقلية معينة كالمجموعات والتجميعات . وحين يحدث ذلك فان الطفل يكون قد وصل الى مرحلة العمليات العيانية Concrete operations .

ومرحلة ما قبل العمليات هى اساسا مرحلة انتقالية لا تتميز بحدوث اى توازن أو اثبات . فنهاية المرحلة الحسية الحركية تمثل نوعا من التوازن على المستوى السلوكى ، كما أن مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية (المرحلة الثالثة) تمثل توازنا جديدا على مستوى اعلى ، بينما هذه المرحلة الثانية هى انتقال بين المرحلتين الاولى والثالثة . واذا توخينا الدقة ، يمكن القول بأن بياجيه قد قصر نفسه على مراحل ثلاث فقط من مراحل النمو الفكرى . وهو بالفعل فعل ذلك فى بعض كتبه ، وهي : المرحلة الحسية الحركية التي تنتهي بالسنة الثانية ، ومرحلة العمليات

المحسوسة أو العيانية والتى تنتهى عادةباكتساب قوانين التجميع والمجموعات المختلفة ، ثم مرحلة العمليات الشكلية والتى تبدأ عادة من الحادية عشرة أو الثانية عشرة . وكل مرحلة من هذه المراحل الثلاث السابق الاشارة اليها تتميز ببلوغ حالة من التوازن والثبات . يميزها عن غيرها من المراحل .

وان كنا من أجل التوضيح سنأخذ بفكرة جعل « مرحلة ما قبل العمليات » مرحلة قائمة بذاتها رغم كونها انتقالية .

وفى هذه المرحلة نلاحظ وقوع الطفل فى اخطاء ظاهرة واضحة فى مجال تفكيره التصورى او العقلى . فهو يقع فى تناقضات ظاهرة احيانا . فقد يذكر فى لحظة ما ان الشيء (أ) أكبر من الشيء (ب) ، ثم يعود بعد ذلك ، فيقول ان الشيء (ب) أكبر من الشيء (أ) دون أن يدرك التناقض الظاهر بين هذين القولين .

وفى هذه المرحلة ايضا يقوم الطفل بمحاولاته الاولى غير المنظمة نسبيا في الاتصال بعالم الرموز، هذا العالم الجديد الغريب بالنسبة اليه . **ويميز بياجيه احيانا مراحل فرعية ثلاثا داخل هذه المرحلة الثانية الكبرى وهى :**

أ ــ بدايات التفكير التصورى (من ٢ ــ ٤ سنوات) .

ب ــ التصورات أو الحدوس البسيطة (من ٤ ــ ٥ ١/٢ سنة) .

جـ ــ التصورات او الحدوس المفصلة (من ٥ ١/٢ ــ ٧ سنوات) .

واذا نظرنا بدقة الى طبيعة التصورات ، نجد ان أساس عملية التصور هى القدرة على التمييز بين الدال Signifiant و « المدلول عليه » Signifie .

ومن ثم القدرة على استدعاء احدهما والاستدلال عليه بمجرد ظهور الآخر أو اثارته. وقد اطلق بياجيه على هذه العملية اسم «الوظيفة الرمزية La fonction symbolique . وعلى الرغم من ادراكه أن الطفل فى المرحلة الحسية الحركية يكشف عن نوع من الاستدلال البسيط ، كاتخاذ الدليل الادراكى علامة على ان شيئا ما على وشك الظهور ــ الا انه لا يمكنه القيام بالتمييز بين الدال والمدلول عليه. ، هذا التمييز الذى يحدد لنا امتلاك الطفل للوظيفة الرمزية والتى تسمح له بالانتقال بين الذكاء الحسى الحركى والذكاء التصورى . فطفل المرحلة الحسية الحركية لا يمكنه ان يستدعى ذهنيا الدال (سواء كان كلمة أو صورة) . وابتداء من سن السنة والنصف وظهور اللغة عند الطفل ، نلاحظ تمايزا تدريجيا بين الدال والمدلول عليه . فالطفل يمكنه ان يستدعى صورة الشيء الغائب بواسطة شيء آخر (أى بالتصور) . وهذا التمايز بين الدال والمدلول عليه هو أساس ظهور الرمز . والرمز هو الذى يسمح لنا بالقيام بعملية التصور . فعن طريق قطعة الخشب يتصور الطفل وجود سيارة يتمثل فيها لعبته .

وليس ثمة شك ان الذكاء التصوري بامتلاكه الوظيفة التصورية يختلف اختلافا واضحا عن الذكاء الحسي الحركي الذي يفتقر اليها . ويمكن ان نوجز هذه الفروق في النقاط التالية :

أولا : أن الذكاء الحسي الحركي يصدر عن الافعال أو الادراكات المتتابعة التي يدركها الطفل الواحدة تلو الاخرى. اما التفكير التصوري فلديه القدرة من خلال وظيفته الرمزية هذه على ادراك مجموعة من الاحداث المنفصلة في صورة واحدة . فهو وسيلة أسرع وأكثر مرونة ، يمكنه استدعاء الماضي وتمثل الحاضر والتنبؤ بالمستقبل في فعل واحد منظم ومختصر زمنيا .

ثانيا : ان الذكاء الحسي الحركي يستند اساسا الى المكان القريب ، أي المكان الذي يمكن للطفل ادراكه في المحيط الذي يوجد فيه . فهو لا يستجيب اذن للمكان البعيد (كالجبال والنجوم باستثناء القمر) وبالمثل يستند الذكاء الحسي الحركي الى الزمان الحاضر . فليس هناك توقع سوى لمستقبل مباشر قريب، كما أن ليس هناك استجابة ، سوى لماض قريب حيث يواصل القيام بعمل ما تركه منذ لحظة وجيزة . اما التفكير التصوري ففيه يمد الطفل مجال المعرفة الى مكان بعيد ، والى زمان يتجاوز الماضي والمستقبل القريبين ، اي انه يتميز بالامتداد في الزمان والمكان .

ثالثا : لما كان الذكاء الحسي الحركي ذكاء فعليا أو ذكاء عمليا ، فانه يقتصر على تتبع الاهداف المحسوسة للفعل اكثر من طلب المعرفة والبحث من حيث هما كذلك . أما التفكير التصوري فهو بطبيعته يهتم بتنظيم أفعاله من حيث هي قائمة على اشياء ، أكثر من اهتمامه بتسجيل « النجاح أو الفشل التجريبيين » . فالتفكير التصوري يهتم اذن بتأمل الفعل أكثر من اهتمامه بالفعل نفسه .

رابعا : وبواسطة قدرته على الخروج من نطاق الحاضر المباشر ، فان التفكير التصوري يمكنه أن يمد مجاله الى خارج نطاق الافعال المحسوسة الواقعية للذات ، وخارج مجال الموضوعات الواقعية المحسوسة في البيئة . وهدف هذا التحرر من الواقع المحسوس هو المعالجة الرمزية لاحداث غير محسوسة (على نحو ما يحدث فيما بعد في التفكير العلمي والرياضي عند الكبار) .

خامسا : لما كان الذكاء الحسي الحركي قاصرا على الافعال الحسية الحركية أكثر من تصور الواقع ، فهو بالضرورة حادث خاص أو مسألة فردية . أما الذكاء التصوري فهو من ناحية اخرى يمكنه أن يصبح ــ بل هو يصبح بالفعل ــ اجتماعيا عن طريق مجموعة الرموز المتعارف عليها والتي يشارك فيها أفراد الجماعة كلها .

وعلى ذلك ، فظهور الوظيفة الرمزية ــ أي القدرة على التمييز بين الدال والمدلول عليه ــ والقيام بعملية الاستدلال بينهما ، يؤدي الى صورة عقلية ذات امكانيات أبعد مدى بكثير من اية صورة من صور الذكاء الحسي الحركي .

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نقدم باختصارأهم الخصائص المميزة لمرحلة التفكير التصورى:

١ ـ **مركزية الذات :** فطفل مرحلة التفكيرالتصورى أو مرحلة ما قبل العمليات ، يكون ـ بالنسبة للتصورات ـ مركزى الذات ، تمـامامثلما كان طفل المرحلة السابقة بالنسبة للافعال الحسية الحركية . ولصفة التمركز الذاتى فىمرحلة ما قبل العمليات ، نتائج كثيرة اهمها : ان الطفل يكشف باسـتمرار عن عجز نسبى فىالاخذ بعين الاعتبار بوجهـة نظر الغير كأحـد الاحتمالات الممكنة ، وان يحاول ان ينسقوجهةنظره مع وجهات نظر الغير .

ويمكن أن نوضح ذلك بمثال بسيط منالخبرات التى تمر بنا فى طفولتنا وتتعـدل مع تقدم السن بالفرد . ان من يركب منا سـيارةمثلا فى ليلة مقمرة ، يبدو له القمر كما لو كان يسير معه ويتبعه . ونحن جميعا نعلم بطريقةاو باخرى ان هذا مجرد خداع ، وان من بين المبررات التى تدفعنا الى عدم الاخذ بمثل هذاالاعتقاد الذى يلازمنـا فى طفولتنا المبكرة ، ان نفترض مثلا أن هناك شخصين يركبان سيارتينتسيران فى اتجاهين متضادين . فاذا أصر كـل منهما على ان القمر يتبعه ويسير في اتجاهه هو،كان معنى ذلك ان القمر يسير في نفس الوقت فى اتجاهين متضادين . وفى هذا بالطبع تناقضواضح . ومثل هذه النظرة تتطلب من الفـرد فصل المظهر عن الحقيقة . فالقمر ثابت ونحنالذين نسير ونتحرك . ومثل هذا الفصل بـين المظهر والحقيقة يتطلبمن الفرد الاخذ بعين الاعتبار لوجهات نظر الغير ، الامر الذي لم يصل اليـه الطفل فى تصوراته بعد ، وشبيه بهذا ايضا مانجده لدى الطفل فى مجالاللغة والاتصال حيث يبدو أنه يقوم بجهد قليل حقا لتكييف لغتـهوحديثه لحاجات المستمع .

ونتيجة لافتقار الطفل الى الاخذ بوجهةنظر الغير ، نجده لا يحس بالحاجة الى تبرير افكاره للاخريـن أو البحث عـن التناقضـاتالممكنة التي تكمن فى أفكاره ومنطقة . فهو حين ينقل فكرة أو أفكارا الى أطفال آخرين ينقلهـاكما لو كان الآخرون يفهمـون أفكاره ووجهـة نظره . ويعتقد بياجيه اعتقادا جازما أن الطفليصبح على معرفة بنفسه ويصبح قادرا علـى تبرير أفكـاره والارتبـاط بالمعايـير المنطقيـةوالاجتماعية من خلال التفاعلات المتكررة مـع الآخرين ، وبخاصة تلك التي يجد فيها الطفلنفسه مضطرا المرة تلو المـرة ان يعـرف دور الآخريـن ، وان يستمع لوجهـة نظرهـم وانيدخلها فى اعتباره . ومن هنا ، فان التفاعـل الاجتماعى هو الذى يحطم مركزية الذات عندالطفل . ومع ذلك ، فهذا التمركز حول الذات طور من اطوار النمو لابد أن يمر به طفل هذهالمرحلة .

٢ ـ **فكرة الثبات** ومن الفروق الهامة بينالادراك الحسى والتفكير التصورى ان التفكير يربط المـاضى بالحاضر ممـا يساعـد تفسيرالمشكلة التي تواجه الفرد ،بينما الادراك يتحدد بالمادة التي تقع تحت حواس الفـرد بشكـلمباشر . وهذه السمة للتفكير تعتبر ذات اهمية

فى نظر بياجيه ، وتكوين المفهوم يعتبر امرآهاما بالنسبة لتفكير الطفل فى هذه المرحلة . واحدى المشكلات الكبرى بالنسبة لطفل هذهالمرحلة قد تكون عدم قدرته على ادماج المادة التي يستمدها من خبراته الماضية من أجلالوصول الى احكام صحيحة يستحيل الوصول اليها بدونها . ولقد عالج بياجيه موضوعالثبات فى مجالات متعددة فدرس فكرة الثبات المكانى وثبات الكم المتصلوثبات الكم المنفصل،ويكفى أن نشير الى مثال واحد وليكن ثبات الكم المتصل من أجل ان نعرف الى أى حد يجدالطفل صعوبة فى الوصول الى هذه الفكرة .

« اعطيت قطعتان من الصلصال من نفسالشكل وبنفس الحجم ونفس الكم . شكلت احداهما على هيئة قرص مستدير والاخرىعلى هيئة اسطوانة مستطيلة . ثم وجه السؤال الى الطفل : هل نفس كمية الصلصالواحدة في الاثنتين (ثباتة المادة) ؟ وهل لدينا نفس الوزن ؟ هل لدينا نفس الحجم ؟ . . .وقدوجد ان الطفل في بعض الاحيان لا يقول بالثبات . فيقول مثلا : ان هذه اكبر لانهاطويلة ورفيعة ، وفي مرحلة ما قبل العمليات ، لا نجد ثباتا . اما فى سن السابعة فان الطفليصل الى فكرة ثبات الكم . وفى سن ٩ — ١١ سنة ، نجده يصل الى فكرة ثبات الوزن . امافكرة ثباتة الحجم فانه يصل اليها فى حوالى سن ١١ ــ ١٢ سنة .

المرحلة الثالثة : مرحلة العمليات المحسوسةأو العيانية : من السابعة حتى الحادية عشرة Concrete Operations .

وفى حوالي سن السابعة يكتسب التنظيمالفكرى للطفل عن البيئة المحيطة به ، صفة الثبات والتماسك بفضل تكوين مجموعة منالتراكيب العرفية . وفى هذه المرحلة يبدا الطفل فى ان يبدو معقولا ومنظما فى توافقاتهمع البيئة ، بمعنى انه يبدو أن لديه اطارا فكريا ثابتا ومنظما يستخدمه فى تعامله مع عالمالاشياء المحيطة به . ففي استطاعته ان يرتب مجموعة من الاشياء حسب حجمها ويدخلاشياء جديدة داخل المجموعة . وفى امكانه ان يفهم ان عدد الاشياء في مجموعة ما ، لايتغيربمجرد اعادة الترتيب المكانى لهذه الاشياء . ومن الممكن ايضا ان يفهم الكثير منالعلاقاتالبسيطة بين أصناف او انواع الاشياء . فمثلا يمكنه أن يدرك ان صنفا ما لا يمكن ان يحتوىعلى أعداد أقل مما يحتوى عليهاى منالاصناف الفرعية الداخلة تحته . وباختصار يكتسبالطفل في هذه المرحلة مفهوما بدائيا عن الزمان والمكان والعدد والمنطق . وهذه المفاهيم التيفي ضوئها تنتظم فكرتنا عن الاحداث والاشياء.

واذا كنا قد أوضحنا ان طفل مرحلةما قبل العمليات العقلية (المرحلة الثانية) يختلف تفكيره عن طفل « المرحلة الحسيةالحركية » من حيث انه يعمل على مستوى التصور الذهني فى مقابل مستوى الفعل المباشرفان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية والتي نحن بصددها يختلف فى تفكيرهعن طفل المرحلتين الاولى والثانية .فهو يختلف

عن طفل المرحلة الحسية الحركية من حيث انه يعمل على مستوى العمليات ، أى الاداء العقلى غير المحدد ، وليس على مستوى الفعل المباشر ، كما انه يختلف عن طفل المرحلة التصورية من حيث انه يعمل وفق نظام أو نسق معرفي متكامل ، به ينظم العالم من حوله . فاذا كان تفكير طفل المرحلة التصورية يفتقر الى الثبات والتنظيم الذى يجعله يسلك احيانا بطريقة منطقية واحيانا يفشل فى مواصلة القيام بنسق منطقي بسيط فى الظاهر ، فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية – والمرحلة الشكلية التي تليها – يكون تفكيره ثابتا ومستقرا ، ينتج عن تنظيم « الافكار الآدائية او الاجرائية فى انظمة مترابطة تمكن الطفل ان يسلك بثبات وبصورة منطقية ، وان يستخرج من افكاره ما تتضمنه من نتائج . ولذا يقول بياجيه « ان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية يسلك فى مجموعة متنوعة من الافعال ، كما لو كان لديه تنظم تمثيلي غني متكامل يعمل فى حالة توازن مع عمليات اللاءمة . وهذا هو جوهر الخلاف بين هذه المرحلة والمرحلة السابقة عليها . والحقيقة أن معظم ما يتجلى فى المرحلة التصورية يمكن ان يفيد فى مرحلة العمليات المحسوسة .

وحين تبلغ الاعمال المعرفية العقلية هذا المستوى الخاص من الثبات والتنظيم ، أى حين تنتظم فى وحدات تامة متماسكة وتركيب محدد قوى ، هنا يطلق عليها بياجيه اسم « العمليات العقلية » . ومن هنا جاءت التسميات العديدة للمرحلة الثانية وهذه المرحلة الثالثة ثم المرحلة الرابعة ، فقد سميت هذه المراحل على التوالى باسم « مرحلة ما قبل العمليات العقلية » ومرحلة « العمليات المحسوسة او العيانية » ومرحلة « عمليات التفكير الشكلى أو المنطقى » . أن طفل مرحلة ما قبل العمليات العقلية لديه بالطبع افعال تصورية . ولكن هذه الافعال التصورية التى تسمى أحيانا باسم « الحدس » انما هى تعبيرات معرفية منفصلة ومتفرقة ولا تتجمع في كليات متماسكة . ومن هنا يمكن القول بأن « العمليات على نحو ما حددها بياجيه هى الملكة الخاصة بمرحلة الطفولة والمتاخرة ومرحلة المراهقة .

اما ما نوع الاداء الذى يسميه بياجيه باسم العمليات operations ، فان أى عمل تصورى ذهنى يكون جزءا متكاملا من شبكة اعمال مترابطة ، يعتبر اساسا « عملية » . ولقد اشار بياجيه الى العديد من هذه العمليات . فهناك عمليات الاضافة المنطقية (الجمع) ، وعمليات الطرح والضرب والقسمة ، سواء فيما يتصل بالانواع او العلاقات . وهناك العمليات العقلية العددية المختلفة الانواع ، والتى اطلق عليها اسم العمليات المنطقية الاخص Infralogical Operations وتتضمن الكم والزمان والمكان وغيرها . وهناك ايضا العمليات التى تتصل بنظام القيم والتفاعل المتبادل بين الافراد . ولعل الاشارة الى العديد من هذه العمليات ، ما يجعل القارىء على الفة بها . من ذلك مثلا : عملية الاستجابة لمجموعة من الاشياء المتشابهة فى ناحية معينة وتكوين نوع من الانواع ، وعملية ضم الانواع معا (الجمع

المنطقى للانواع) وتكوين فرع اشمل واعم يضم هذه الانواع جميعا كضم نوع النباتات ونوع الحيوانات لتكوين نوع الكائنات الحية ،ثم هناك عملية العود ثانية الى الانواع الاصلية عن طريق الطرح المنطقى،اى فصلها واستخراجها ثانية من النوع الذى يضم الانواع الى آخر هذه العمليات المتعددة التى اشار اليها بياجيه فى هذه المرحلة والتى ليس هنا مجال التوسع فى شرحها .

ومن الممكن أن نلخص اهم منجزات مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية بقولنا أن تفكير طفل مرحلة العمليات المحسوسة يكشف عن تقدم ملحوظ اذا قورن بتفكير طفل مرحلة ما قبل العمليات المنطقية اى المرحلة التصورية . ولعل اهم منجزات هذه المرحلة هى أن تراكيبها المعرفية تتالف من انظمة تكون فى حالة توازن ،اعنى تتالف من كليات متماسكة من العمليات القابلة للانعكاس ، والتى تمكنه من ايجاد التنظيم والثبات بين الاشياء والاحداث فى العالم المحيط به ، بشكل كان يستحيل على طفل مرحلة ماقبل العمليات أن يقوم به . فاذا كان طفل مرحلة « ما قبل العمليات » يميل الى العمل فقط فى ضوء الواقع الظاهرى الذى يقع امام ناظرية ، فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يبدأ بمدتفكيره من الواقع الى الممكن . وهذا النمو هو نتيجة طبيعية لتكوين التراكيب المحسوسة . فلو اخذنا متسلسلة مكونة من عناصر ثلاثة محسوسة ولتكن أ ، ب ، ج (الواقع) فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يكون اكثر استعدادا من طفل مرحلة ما قبل العمليات للتنبؤ بامكان تطبيق هذه العلاقة على عناصر جديدة مثل د ، هـ (اى الممكن) . وهذه الخطوة تعتبر من أهم الخطوات تمهيدا للانتقال الى المرحلة الرابعة والاخيرة .

المرحلة الرابعة : مرحلة العمليات الشكلية ــ ابتداء من سن الحادية عشرة Formal operations

وتبدأ هذه المرحلة من حوالى سن ١١ ــ١٢ سنة وتصل الى حالة توازن فى حوالى سن ١٤ ــ ١٥ سنة . وهى مرحلة بداية التفكير المنطقى عند الكبار . فالمراهق فى هذه المرحلة يمكنه أن يتعامل بنجاح ليس فقط مع عالم الواقع المحسوس (على نحو ما كان فى المرحلة السابقة)،بل وأيضا مع عالم المجردات والقضايا المنطقية . فهو يفهم المبادىء الاساسية للتفكير العلمي والتجريب العملى ، ويستطيع القيام بتجارب ، واستخلاص التضمنات الصحيحة على الاقل في بعض الحالات .

وتعتبر مرحلة العمليات المنطقية اوالشكلية تتويجا للنمو العقلى . فهي بمثابة حالة التوازن النهائى التى يسير نحوها التطور العقلى المعرفي منذ بدايته الاولى. لقد عالج بياجيه هذا الموضوع في مؤلفات عديدة اهمها كتابه الذى الفه مع انهلدير عام ١٩٥٥ ،والذى ترجم الى اللغة الانجليزية عام ١٩٥٨ تحت عنوان « نمو التفكير المنطقى من الطفل حتى الرشد » والخاصية

الميزة للتفكير الشكلى ترجع بلا شك للدور الذىيقوم به « الممكن Possible » فى علاقته بالواقع « Réal »فالتفكير الشكلى ــ اذا قورن بالتفكيرفى مرحلة العمليات المحسوسة ــ يكون بذلك صورة جديدة من صور التوازن التى يسيرنحوها هذا التطور العقلى . ولعل مما يلقى الضوء على هذه العمليات الشكلية أن نربطبينها وبين العمليات المحسوسة السابقة عليها والتى صدرت عنها . **فطفل المرحلة المحسوسةاو العيانية تواجهه صعوبات منها :**

١ ــ ان العمليات المحسوسة عيانية ، اىمحسوسة وغير مجردة ، بمعنى أن تركيبها ونشاطها التنظيمى يتجه نحو الاشياء والاحداثالمحسوسة الموجودة فى الواقع المباشر . حقيقة أن تكوين الانظمة المحسوسة يسمح ببعضالانتقال والسير نحو الممكن أو غير الموجود ، الا أن هذا السير او هذه الحركة يكون نطاقهامحدودا ويتألفغالبامن تعميمات بسيطةالتراكيب موجودة على محتوى جديد (على نحو ما سبقأن أشرنا فى معرفة الطفل امكان نقل العلاقة أ ، ب ، ج ، وتطبيقها على د ، هـ) ، كما ان نقطةالبدء بالنسبة للعمليات المحسوسة ــ كما هو الحال ايضا بالنسبة لما قبل العمليات ــ هىدائما ــ « الواقع اكثر منه الممكن » . فطفل المرحلة من ٧ ــ ١١ يعمل كما لو كان واجبهالاساسى هو تنظيم وترتيب ما هو موجود أمامه مباشرة . اما الانتقال البسيط المحدود للتنظيموالترتيب على اشياء ممكنة ، فهو أمر يقوم به عند الضرورة . ولذا فهو ينظر اليه كحالةخاصة من النشاط . اما مالا يستطيع طفل مرحلة العمليات المحسوسة أن يفعله ، ويستطيعالراشد القيام به ، فهو يمثل جميع الاحتمالات الممكنة منذ البداية ومحاولة الكشف عن اىهذه الاحتمالات يوجد فعلا فى المادة الراهنة . وبهذا الاسلوب الاخير يصبح الواقع حالة خاصةمن الممكن وهذه هى أحدى خصائص العمليات الشكلية المنطقية .

٢ ــ وكون طفل مرحلةالعمليات المحسوسةلا يزال مقيدا ــ نسبيا ــ بالظواهر الخارجية، فهذا من شانه ان يخلق صعوبةاخرى . ان عليه ان يتغلب على الخصائص المتعددة للاشياء والاحداث (كالكتلة،والوزن والطول والزمن ....الخ)واحدة واحدة، لأن وسائله المعرفية ليست « شكلية » بدرجةكافية ، ولا منفصلة او مستقلة بدرجة كافية عن الموضوع الذى تحمل عليه من أجل ان تسمحبتمايز الشكل عن المحتوى . فالطفل بعد أن يصل الى فكرة ثبات الكم ، يظل لفترة غيرقصيرة ، عاجزا عن بلوغ فكرة الثبات بالنسبة للوزن والحجم .

٣ ــ اما الصعوبة الثالثة فهى ان انظمةالعمليات المحسوسة المتعددة ، تعتبر بمثابة نقط تنظيم أكثر واقل انفصالا من ٧ ــ ١١ سنة، فهى لا تترابط فيما بينها لتكوين نظام متكامل بسيط ، نظام يمكن للطفل ان ينتقل من تركيبفرعى الى تركيب فرعى آخر بالنسبة لمشكلة واحدة . فبينما يوجد لدى طفل مرحلة من ٧ــ١١سنة نوعا عمليات القابلية للانعكاس (وهما

النفى والتبادل) ، فانه لا يوجـد لديه مع ذلك نظام كلى شامل يسمح له بتنسيق الاثنين معا ، وحل المشكلات ذات المتغيرات المتعددة والتى تتطلب هذا التنسيق . فالتراكيب المعرفية تعجز اذن عن الترابط فيما بينها فى نظام كلى موحد لازم للقيام ببعض العمليات المعقدة .

وفى ضوء هذه الصعوبات التى نجدها فى مرحلة العمليات المحسوسة ، يمكن ان ننتقل الى دراسة اهم خصائص التفكير الشكلى الذى يتميز به تفكير الراشد . وكثير من خصائص تفكير هذه المرحلة ليست مترابطة بسهولة احداها بالاخرى بطريقة ذهنية واضحة ، ولكنها تعتبر مهمة فى نمو قدرة الفرد على حل المشكلة .

خصائص التفكير الشكلى :

الخاصية الاولى : تتصل بالتطور أو بالنمو لقدرة الطفل على فهم العلاقات المنطقية بين الانواع . فاذا كان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يمكنه فهم العلاقات المنطقية بين الانواع التى تعرض أو تقدم اليه ، فان الراشد في مرحلة العمليات الشكلية عليه أن يدرك بوضوح او ان يتحقق من العلاقات الممكنة ، بحيث يمكنه تصميم مواقف تزوده بالمعلومات او المعرفة التى يحتاج اليها .

الخاصية الثانية : هى ان جزءا من قدرة الطفل على ادراك جميع الامكانيات يتمثل في سهولة وقدرة الطفل على التفكير التوافقى أو الترابطى . وبعبارة اخرى يتمثل في قدرته على مراجعة كل الاختيارات بطريقة منتظمة تسمح بالانتقال خلالها تتابعيا اذا لزم الامر ، ويعرف انه استنفدها جميعا . وقد وصفت العلاقات الممكنة المختلفة بين الانواع فى نظرية المنطق الشكلى . ويكون طفل مرحلة العمليات الشكلية قادرا ــ بطريقة حدسية ــ على استعمال النسق الكامل للمنطق الشكلى من اجل الحصول على المعرفة التى يريدها .

الخاصة الثالثة : هى التغير الذى طرأ على العلاقة بين الواقع والممكن . وهى اهم الخصائص جميعا ومنها استمد بياجيه بقية الخصائص الاخرى . فبدلا من ظهور « الممكن » فى صورة امتداد محدود وبسيط للواقع أو للافعال التى تجرى فى هذا الواقع ، فان العكس هو الذى يحدث اذ يصبح الواقع تابعا للمكن . فالراشد على عكس طفل مرحلة من ٧ ــ ١١ سنة ــ يبدأ نظرته الى المشكلة موضوع البحث بمحاولة النظر فى جميع الاحتمالات والعلاقات الممكنة التى تصدق على المادة . ومن ثم يحاول خلال الجمع بين التجريب والتحليل المنطقى ان يصل الى معرفة اى هذه العلاقات الممكنة تصدق فى الحقيقة على هذه المادة . فالواقع اصبح ينظر اليه كمجموعة فرعية داخل وحدة تامة من الاشياء التى تسمح المدة بظهورها كفروض . فهو ينظر الى «الواقع» كجزء موجود داخل وحدة « ممكنة » .

فنحن اذن بازاء خطوة فى غاية الاهمية من خطوات النمو الفكرى ونعنى بها التحرر من عبودية الملاءمة للواقع المباشر على نحو ما وجدنا فى المرحلتين السابقتين . وهذا التحرر يأخذ شكلا جديدا فى المراهقة والرشد يتمثل فى قلب دورالواقع الى ممكن . وليس هذا بالامر اليسير ، اذ هو بمثابة اعادة توجيه اساسى نحو المشكلات المعرفية . فالراشد لم يعد يشغل نفسه بثبات وتنظيم الاشياء المحسوسة وهى التى تتصل اتصالا مباشرا بالحواس ، وانما تظهر لديه خلال الاعادة الجديدة للتوجيه ، القدرة على تصور كل ما يمكن وجوده .

ان التفكير الشكلى هو في أساسه تفكير((افتراضى ــ قياسى Hypothetico déductive والقياس لا يقوم هنا مباشرة على حقائق مدركة في العالم الخارجى ، وانما على منطوقات افتراضية ، اى على قضايا تقوم على فروض ،أن يضع المعطيات من حيث هى معطيات بسيطة مستقلة عن حقائقها الواقعية الخارجية . فالقياس يتألف اذن من ربط هذه المعطيات او الفروض فيما بينها واستخلاص النتائج الضرورية المترتبة على ذلك ، حتى ولو لم تتجاوز حقيقتها التجريبية حدود الممكن . فهذا القلب لدور كل من الممكن والواقع ــ اكثر من اية خاصية اخرى ــ هو الذى يحدد التفكير الشكلى . وقد أوضح بالارد Ballard هذه الحقيقة في قوله : ان الاستدلال لا يقوم على الاعتقادات وانما على فروض . فاذا سلمنا بالافتراضات :كذا ، وكذا ، فانه يتبع اذن أن نصل الى كذا وكذا من النتائج. وطفل المرحلة من ٧ ــ ١١ سنة يقيم استدلالاته لا على أساس معطيات المشكلة وفروضها ، بل على اساس الواقع والحقيقة . أما الراشد ، فانه يستدل على اساس التسليم بصدق أوكذب الافتراضات التى يبدأ منها استدلالاته .

تلك هى المراحل الاربع للنمو المعرفى ابتداء من الطفولة المبكرة حتى الرشد ، اى ابتداء من النمو الحسى الحركى حتى التفكير المنطقى . وليس ثمة شك أن وراء هذا النمو هدف . لقد كشف لنا هذا النمو عن تقدم مستمر ومتصل نحو حالة من التوازن Equilibre يسير نحوها الذكاء . لقد كان هذا الذكاء فى بداية الامر امتدادا للمجال الادراكى الذى يفتقر الى وجود القابلية للانعكاس ، ثم مع بداية ظهور العمليات اصبح المجال اكثر اتساعا واكثر قدرة على القيام بالعمليات العقلية المختلفة ، واكثر تحررا من الاشياء الواقعية والمحسوسات ، كما اصبح أيضا اكثر ثباتا وانتظاما على نحو ما يتضح لنا بشكل ظاهر فى المرحلة الرابعة والاخيرة من مراحل النمو العقلى وهى مرحلة التفكير الشكلى. فنمو الذكاء يتحدد اساسا فى نظرية بياجيه باعتباره تقدما نحو التوازن .

وليس من شك ان ثمة عوامل أساسية هى التى تفسر لنا هذا السير نحو التوازن . والنضج هو احد هذه العوامل ، وهو التفتح الطبيعى الذى يطرأ على الكائن الحى ، ثم الخبرة وهى العامل الثانى . فالتعلم عملية هامة تفسر اكتساب الانسان لكثير من الخبرات التى تمر به

فى الحياة . ولا يمكننا بحال من الاحوال ان ننكرأثر التعليم أو أثر تراكم الخبرات المكتسبة من البيئة التى نعيش فيها . ثم هناك ثالثا الوسطالاجتماعى . فقد لا يكتسب الطفل مثــلا فكرة الشيء (كفكرة الثبات) من البيئة المادية وتفاعلهمعها ، وانما قد يلقن هذه المفاهيم والافكار عن طريق الوالدين والمدرســين أو المحيطين به .غير ان كل واحــد من هذه العــوامل لا يكفى لتفسير التنظيمات المعرفية ، ولذا ينتهى بياجيهالى تقديم نظريته التى تقوم أساسا على فكرة التوازن . فبسبب احتواء الانظمة العقلية المنسقةعلى تناقضات ذاتية ، وبسبب ما تحدثه لدى الطفل من صراعات ، فان الطفل يجــد نفســهمدفوعا بقوة لاحداث التناسق بين افكاره واعادة تنظيمها فى كل منسق متوازن . وهذه هى عمليةاحداث التوازن عند بياجيه .

• • •

وبعد ، فقد استعرضنا أربع نظريات مننظريات النمو النفسى ، يمثل كــل منها اتجاهــا من الاتجاهات الهامة فى نظريات النمو النفسى .فهناك نظرية النمو النفسى الجنسى عندفرويد، ونظرية النمو النفسى الاجتماعى عند اريكسونوالتى أدخلت بعض التعديلات والاضافات على النظرية الاولى ، ثم هناك نظرية نمو الذات عندالبورت ، وأخيرا نظرية النمو العقلى المعرفى عند بياجيه . واذا أمعنا النظــر فى هــذه النظرياتالنمائية الاربع ، نجد تقاربا واضحا بينها حاول الباحث بيانه فى التخطيط التالى :

* * *

تخطيط للعلاقة بين النظريات النمائية لكل من
فرويد ـ اريكسون ـ البورت ـ بياجيه

المرحلة العمرية	المراحل النفسية الجنسية عند فرويد	المراحل النفسية / الاجتماعية عند اريكسون	مراحل نمو الذات عند البورت	مراحل النمو العقلى عند بياجيه
من صفر الى ٢	الفمية	الاحساس بالثقة مقابل عدم الثقة	الاحساس بالذات الجسمية	المرحلة الحسية الحركية
من ٢ الى ٣	الشرجية	الاحساس بالاستقلال مقابل الشك والخجل	هوية الذات تقدير الذات	المرحلة التصورية أو مرحلة ما قبل العمليات العقلية
من ٣ الى ٦ (ما قبل المدرسة)	القضيبية (الاوديبية)	الاحساس بالمبادأة مقابل الشعور بالذنب	امتداد الذات صورة الذات	
من ٦ ـ ١١ (المدرسة الابتدائية)	الكمون	الاحساس بالانجاز والاتمام (الصناعة والعمل مقابل النقص)	الذات منطقية عاقلة	مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية
من ١٢ ـ ١٧ (المدرسة الثانوية ثم الرشد واكتمال النضج	التناسلية	الاحساس بالهوية مقابل اضطراب الهوية . والاحساس بالود والتآلف مقابل العزلة . الانتاجية مقابل الجمود . تكامل الانا مقابل اليأس	الجوهرة المميز الذات العارفة	مرحلة التفكير الشكلى او المنطقى

المراجـع

اولا : المراجع العربية :

١ ــ جابر عبد الحميد جابر ومحمد مصطفى الشعبينى : النمو النفسى والتكيف الاجتماعى ــ القاهرة ــ دار النهضة العربية ــ ١٩٦٢ .

٢ ــ جون كونجر وبول موسن وجيروم كيجان سيكولوجية الطفولة والشخصية .
ترجمة احمد عبد العزيز سلامه وجابر عبد الحميدجابر . القاهرة ــ دار النهضة العربية ــ ١٩٧٠.

٣ ــ سيد محمد غنيم : اللغة والفكر عند الطفل .الكويت . عالم الفكر . المجلد الثانى ــ العدد الاول ــ ابريل / يونيو ١٩٧١

٤ ــ سيد محمد غنيم : النمو العقلى عند الطفل فى نظرية جان بياجيه (الجزء الاول) القاهرة ــ حوليات كلية الاداب بجامعة عين شمس ــ ١٩٧٢ ــ العدد ١٣ .

٥ ــ سيد محمد غنيم : النمو العقلى عند الطفل فى نظرية جان بياجيه (الجزء الثانى) القاهرة ــ المطبعة العالمية ــ ١٩٧٣ .

٦ ــ سيد محمد غنيم : سيكولوجية الشخصية :محدداتها ، قياسها ، نظرياتها ــ القاهرة ــ دار النهضة العربية ــ ١٩٧٥ .

٧ ــ هول . لد لندزي ج : نظريات الشخصية ، ترجمةفرج احمد فرج وآخرين ــ الهيئة المصرية للتاليف والنشر القاهرة ــ ١٩٧١ .

ثانيا : المراجع الافرنجية :

7. Allport G. : Personality. **A Psychological Interpretation.** New York, Holt Richart and Winston, 1937.

8. Allport G. : **Becoming : Basic considerations for a Psychology of Personality.** New Haven. Conn. Yale Univer. Press 1955.

9. Allport G. : **Personality and Social Encounter.** Boston. Becon Press 1960.

10. Allport G. : **Pattern and Growth in Personality.** New York, Holt, Rinchart and Winston 1961.

11. Aires P. : **Centuries of Childhood.** New York, Knopf. 1962.

12. Bandura A. & Walter R. H. : **Social Learning and Personality development.** New York, Holt Rinchart & Winston 1963.

13. Barker R., Kounin J. & Wright H. : **Child Behavior and Development.** New York, McGraw Hill Book Company, 1943.

14. Bishchof L. J. : **Interpreting Personality Theories.** New York. Harper and Row, 1964.

15. Carmichael L. (ed.): **Manual of Child Psychology,** 2nd ed. New York, Wiley, 1954.

16. Cashdan A. & Whitehead J. (eds). **Personality Growth and Learning.** London, Longman Group Ltd. 1971.

17. Erikson E. H. : **Childhood and Society.** Penguin Books 1970.

18. Erickson E. H. Identity : **Youth and Crisis.** New York. W. W. Norton & Comp. 1968.

19. Flavell J. H. : **The Developmental Psychology of Jean Piaget.** Princeton Von Nostrand 1963.

20. Freud S. : **New Introductory Lectures on Psychoanalysis.** New York, Norton 1935.

21. Freud S. : **The Ego and the Id** (1923). Hogarth, 1947.

22. Freud S. : **Beyond the Pleasure Principle,** New York, Liveright 1950.

23. Gesell A. & Ilg. F. L. : **Child Development,** 2nd ed,. New York Harper 1949.

24. Hurlock E. B. : **Developmental Psychology.** New York. McGraw-Hill Book Comp., 1953.

25. Hurlock E. B.: **Adolescent Development,** (2nd ed.) New York, McGraw Hill Book Comp., 1955.

26. Hurlock E. B. : **Child Development,** (5th ed.) New York, McGraw Hill Book Company 1972.

27. Inhelder B. et Piaget J.: **De la logique de l'Enfant a la logique de l'Adolescent.** Paris. Presses. Univer. France, 1955.

28. Jersild A. T., Tefford C. W. & Sawrey J. M. **Child Psychology** (7th ed.) New Jersey, Prentice Hall Inc. 1975.

29. Kegan J. & Moss H. A. : **Birth to Maturity: A Study in Psychological Development.** New York. Wiley 1962.

30. Medinnus, G. R. & Johnson R.: **Child & Adolescent Psychology.** New York. John Wiley & Sons Inc. 1969.

31. Mussen P. H., Conger J. J. & Kegan J. **Child Development and Personality.** New York, Harper and Row 1963.

32. Piaget, J. : **La génese du nombre chez l'Enfant.** Delachaux et Niestle Neuchâtel, 1941.

33. Piaget J. : **La Naissance de l'Intelligence chez l'Enfant.** Delachaux et Niestle Nechatel, 1948.

34. Piaget, J. : Play, **Dreams and Imitation in Childhood,** New York, Norton, 1951.

35. Piaget, J. : **Essai sur les Trnasformations des opérations logiques,** Paris, Presses Univer. France, 1952.

36. Piaget J. : « La formation des connaissances." **Bull. Psychol.** Paris 1955—1956, pp. 148-156, 268-495, 701-727.

37. Piaget J. : "Les relations entre la perception et l'intelligence dans les development de l'enfant." **Bull. Psychol.** Paris, 1956-1957. 10, 376-381, 751-760.

38. Pichon E. : Le Development **Psychique de l'Enfant et de l'Adolescent.** 2 ieme ed. Paris Masson & Cie (Ed). 1947.

39. Rayner E. : **Human Development; an Introduction to the Psychodynamics of growth,** maturity and ageing. London. George Allen & Unwin Ltd. 1971.

40. Reese H. W. & Lipsitt L.P.: **Experimental Child Psychology.** New York Academic Press 1970.

41. , Riegel, K. F. : „ History as a Nomothetic Science. Some Generalizations from Theories and Research in Developmental Psychology," **J. of social issues** 1969 Vol. XXV No. 4.

42. Riegel K. F. **The Changing Individual in the changing society.** New York, Academic Press 1972.

43. Riegel K. F.: «Influence of Economic and Political Ideologies on the development of Developmental Psychology," **Psychol. Bulletin,** 1972, Vol. 7 No. 2 129-141.

44. Ruch F. & Zimbardo P. **Psychology of Life** 8th ed. London Scott, Foresman and Company 1971.

45. Stone F. & Church J. **Childhood and Adolescence. A pscychology of growing Person,** 7th ed. New York. Random house 1957.

46. Watson R. I. & Lindgren H. C. **Psychology of the Child,** New York, John Wiley & Sons Inc. 1973.

★ ★ ★

محمد جواد رضا *

الانفصال عن العالم والرحيل إلى الاعماق

الواح ملونة من ازمات الطفولة والشباب في المجتمع المعاصر

اللوح الاول

العالم الكئيب

« يتهامسون معا ...
هادئون بلا معنى ...
كالريح فى الأعشاب ...
او اقدام الفئران على الحصاد الهشيم ...
فى مخزننا الجاف ...
صور بلا هيولى ... ظلال بلا الوان ...
قوى مشلولة ... ايماءات بلا حراك ...

(*) عميد كلية الآداب والتربية فى جامعة الكويت وأستاذ التربية المقارنة فيها . له العديد من الكتب والبحوث المنشورة منها (فلسفة التربية واثرها فى تفكير معلمى المستقبل)، (التربية والتبدل الاجتماعى فى الكويت والخليج العربى) ، (التربية والصراع الاجتماعى) ، (التعليم الثانوى) و (ظاهرة العنف فى المجتمعات المعاصرة ـ تفسير سايكو سوسيولوجى) .

الرجال الجوف ...
سقط القناع ...
يتسـاندون ...
خوذا مملوءة قشـا ...

تى . اس . ايليوت
« الرجال الجوف »
مجموعة قصائد
١٩٠٩ ـ ١٩٣٥

●●●

« أرى أفقـا بنجيـع الدمـاءِ
تنـوّر واختفـت الأنجـمُ
وحبـلا مـن الارض يُرمـى بـه
كمـا قـذف الصـاعدَ السُـلّمُ
اذا مـدّ كفّـا لـه ناكـثٌ
تصـدّى ليقطعهـا مـبرِمُ
تكـوّر مـن جثـثٍ حولـهُ
ضخـامٍ وامجادُهـا أضخـمُ
وكفـاً تمـدُّ وراءَ الحجـابِ
فترسِـمُ فى الأفـق ما ترسِـمُ
وجيـلا يـروح وجيـلا يجـىء
ونـارا ازاءهمـا تضـرَمُ
ويـا ويح خانقـةٍ مـن غـدٍ
اذا نفّـسَ الغـدُ مايكظـمُ »

محمد مهدى الجواهرى
١٩٤٩

●●●

« سمعت صوت بنادق . شعرت بالذعر . كانوا يطلقون نيران بنادقهم ومسدساتهم فى الليل ولم استطع النوم . كنت مُرَوّعة وفزعة من أنهم قد يشرعون بنادقهم على نوافذ غرفتى ويطلقون النار علي . نمت ليلتئذ مع أمى فى فراش واحد . كان هناك مخزن قريب من بيتنا تلتهمه النيران . كانوا يوقدون النار فى كل شيء . خيل لى يومئذان العالم كله يحترق ... »

من اعترافات طفلة بنت اربع سنوات
ايام العنف الاسود فى واتس ـ لوس انجلوس
١٩٦٥

« ... لقد استمرت الحرب الفيتنامية طويلا حتى لم يعد يوجد الآن فرد واحد فى فيتنام يملك اية فكرة عن كيف كانت الاحوال قبل الحرب . ان اطفالنا يجهلون بمعنى السلام ، واذا تخيلوه فانهم يتصورونه مكانا جميلا واوقاتا مرحة خلوا من المشاكل والأزمات والمسؤولية ، نوعا من انواع الجنة على الارض ... »

« من رسالة لعالم نفسي فيتنامي موجهة الى الاستاذ موريس فريزر وقد نشرها فى صدر كتابه :

Children in Conflict, Penguin Books, 1974.

• • •

اللوح الثاني

السقوط النفسي

منذ أربعين عاما تقريبا كتب رئيس جامعة ييل Yale الدكتور آنجل J. R. Angell يقول : ان مابين ١٠٪ ـ ١٥٪ من طلبتنا الجامعيين يعانون من امراض نفسية معاناة حقيقية تهدد بتدمير فاعليتهم وسعادتهم . وفى الأجتماع السنوى للجمعية الطبية الملكية البريطانية عام ١٩٦٠ اشارت التقارير الى أن ١٤٪ من طلبة الجامعات البريطانية يعانون من أمراض نفسية على درجة غير يسيرة من الشدة . وفى المؤتمر العالمي الأول حول الصحة العقلية لطلبة الجامعات المنعقد فى جامعة برنستون فى نفس الوقت تقريبا اكدت البحوث المقدمة فى المؤتمر ماذهب اليه الرئيس آنجل عام ١٩٣٦ مع التنبيه الى زيادة النسبة وبروز ظاهرة الانتحار بين الطلبة (١) . فى سنة ١٩٦٦ **كتب نيكولاس موليسن** Nicholas Malleson يقول أن مايقارب ٢٠٪ من طلبة الجامعات البريطانية يعانون من اضطرابات نفسية معوقة لتقدمهم العلمي على درجات متباينة من القوة . (٢) وفى سنة ١٩٧٠ **نشر انتوني رايل** Anthony Ryle المأمور الطبى فى جامعة سسكس Sussex فى كتابه **« الضحايا الطلابية »** ان حوالى الثلث من طلبة الجامعات البريطانية معرضون للاصابة باضطرابات نفسية على درجات متباينة من الشدة . (٣) وفى سنة ١٩٧٦ نشر كل من **ميلر وميلر** ان فى جامعة صغيرة مثل جامعة سوانسي هناك مابين ٣٠٠٠ ـ ٤٥٠٠ طالبا وطالبة يعانون من امراض نفسية جدية، وان مستشفيات الجامعة وعياداتها النفسية تواجه وضعا صعبا للغاية فى تلبية الحاجات العلاجية لهؤلاء الطلبة .ومن الدراسات التحليلية التى قام بها هذان

---

(١) Davy, B. W. ; **The Source and Prevention of mental ill health in University Students,** proceedings of the Royal Society of Medicine, England, April 22, 1960.

(٢) Malleson, N.B. ; **A Handbook of British Student Health Services,** London, Pitman, 1966.

(٣) Ryle, A. ; **Student Casualties,** Pelican Books, 1970.

الباحثان تبين أن ١٤ ٪ من الطلبة الجامعيين يشكون من التعاسة فى علاقاتهم الشخصية ، ١٠ ٪ يقاسون من أحاسيس الكآبة و ٧٪ كانت مشاكلهم تنجم عن مصاعب دراسية . (٤)

فى المؤتمر الدولي السابع للمائدة المستديرة لتقدم الارشاد النفسي المنعقد بين الحادى عشر والخامس عشر من شهر ابريل ١٩٧٦ فى جامعة فيرزبورج فى ألمانيا الاتحادية وجه الاستاذ آرنولد W. Arnolp رئيس جامعة فيرزبورج السابق ورئيس قسم علم النفس فيها ، وجه الانتباه الى ما أسماه « الاخلاقيات النفسية الجديدة » New Psychological Ethics فى معرض التحذير منها . قال **الاستاذ ارنولد :**

« يجب التذكير بحالات مأسوية ومرضية فى المجتمع الحديث . فى جلسات الارشاد النفسي غالبا مايسمع الواحد منا عبارات تصدر عن الاطفال الصغار .. ان أمى لم تكن ترغب فى مجيئى الى هذا العالم وهى حتى الآن تعبر عن ضيقها بوجودى معها .. »

ثم يعقب الاستاذ أرنولد على هذا بقوله :

« .. ان هذه الصرخة الانسانية تعلن عن قلق وجودى ، وهى دعوة للبحث عمن يمكن الوثوق به ، انها التماس للشفقة والحب ولامكانية الاعتماد على شخص ما . ان كل الاخلاقيات النفسية القديمة قد تلاشت من الوجود الاجتماعي تقريبا . كثيرون يشعرون بأنهم وحيدون ومهجورون . واذا كان الاطفال والشباب يحسون انهم مرفوضون وغير مرغوب فيهم من قبل اولياء امورهم ومن أمهاتهم على وجه التخصيص فانهم يقفون على أرض بوار ، فى حالة من القنوط الكامل من أى رجاء ... » (٥) .

• • •

اللوح الثالث

الضحايا

بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٧١ كتب احد الاطباء العموميين فى مدينة « لندن برى » يقول معقبا على ضحايا الحرب **الاهلية** فى ايرلندا : ـ

« انى أحب أن أناشد أولئك المشتغلين فى الاقناع السياسي والعاملين فى منطقتى كريكان وبوك سايد شيئا من الحلم والتبصر فى عواقب مايفعلون . خلال الاربع والعشرين ساعة الماضية

---

(٤) Miller, P. — Miller, T. ; **Student Problems, Remedies and Satisfactions,** British Psychiatry, Sep. 1973.

من المهم ان نلاحظ هنا ان الجامعات العربية لاتنشر ولا تملك معلومات مماثلة عن الاوضاع النفسية والعقلية لطلابها ، ولذا تبقى مشاكلهم النفسية ومعاناتهم مقصورة عليهم وغير محسوس بها فى العالم الخارجى .

(٥) Arnold, W. ; **Counselling Activities in Modern Society,** Proceedings of Seventh International Conference for the advancement of counselling, 11-15, April, 1976, Würzburg.

دعيت لمعالجة بعض ضحاياهم . أحد هؤلاءالضحايا حاول الانتحار منذ ذلك الحين اكثر من مرة . واحدهم الآخر تطلب علاجا عاجلا فى حالةالقلق العنيف الذى سيطر عليه . ان عددا كبيرا من الناس الطيبين يسقطون يوميا فريسة الخوفمما يحمله الاقتتال اليهم وهم لهذا يعتمدون اعتمادا متمادياعلى المهدئاتالطبية كي يستطيعوامواصلة حياتهم اليومية . ان عواقب هذا الاتكال المكثف على هذه المهدئات الطبية هى أوخم من‌ان يستطيع احد التنبؤ بها » (٦) .

فى وقت قريب من هذا الوقت كتب باحثآخر فى **آثار الحرب الاهلية فى ايرلندا** علىالاوضاع النفسية والعقلية للاطفال والشباب يقول انالتعرض لتجربة تفجير القنابل والاثارات النفسية والاستفزازات يوما بعد يوم صارت تضاعفحالات الكآبة والمعاناة العصابية ، حتى صار يمر علي كل يوم موكب طويل من المراجعين فى العيادةيروون قصصا مخيفة عن معاناتهم من الخوف والمعاناة المزقة لشخصياتهم ولهذا أجدنى ملزماأن اصف لهم كميات كبيرة من المهدئات الطبية والمسكنات . ولأول مرة فى حياتى المهنية أجدنىمضطرا لاعطاء الحبوب المنومة بمقادير كبيرة نسبيا للأطفال لاساعدهم على النوم ، ولتمكينهم منمواصلة ادائهم لواجباتهم المدرسية . ولأول مرة فى حياتى المهنية ايضا بدأت أخاف على سكانمدينتي ــ ديرى ــ من أنهم لن يستطيعوا اجتياز مرحلة الاضطرابات العنيفة هذه من دون تعرضنظام حياتهم الاجتماعية للانهيار التام . (٧)

لقد ترتب على حياة العنف والقتل والدمارالتى عاشتها بلفاست والمدن الايرلندية الاخرى منذ اندلاع الحرب الاهلية فى سنة ١٩٦٩ ظهورنوعين من الامراض النفسية بين سكان هذه المدن وخاصة الصغار منهم .

أولا : كانت هناك الهزات النفسية الشديدةالتى كان يبتلى بها الافراد الذين كانوا يتعرضون بصورة مباشرة الى المظاهرات والاشتباكاتالدموية فى الشوارع . وغالبا ما كان يمكن معالجة الآثار المترتبة على هذه التجارب ، وذلك بالمهدئاتالطبية أو دخول المريض الى مراكز العلاج النفسي والعصبي لفترات قصيرة .

ثانيا : زادت نسبة الابتلاء بالامراضالنفسية ذات الطبيعة التعجيزية للمصابين بها ، والتى تتطلب علاجا اكثر تعقيدا ، كاحالة المرضىالى المعالجين النفسانيين ، او الزامهم بدخول مستشفيات الامراض العقلية لفترات طويلة . ومن الملفت للنظر ان هذا النوع الثانى من الامراض النفسية ظهر على نطاق اوسع فى المناطق المجاورةلمناطق الصراع الدموى الفعلى . ان هذه الظاهرة تتفق مع الاستنتاجات العامة المستخلصة من أيامالحرب العالمية الثانية ، والتى اثبتت انه فى **زمن الاضطرابات والحروب تزداد ظواهر الانهيارالعصبي والأمراض العقلية فى المناطق التى « يتوقع » فيها الناس اشتعال الاضطرابات اكثرمن تلك الاماكن التى تصبح مسرحا فعليا للصراع،** وهذا ماصار الاطباء النفسانيون يطلقون عليه اسم« عقدة الغزو » The Invasion Complex (٨)

(٦) **Belfast Telegraph**, Sept. 7, 1971.

(٧) Sinclair, F., **Belfast Telegraph**, Sept. 16, 1971.

(٨) Fraser, M., **Children in Conflict**, pp. 81-82, Penguin Books, 1974.

لقد خرج الاستاذ فريزر من دراساته التيأجراها على آثار النزاع الدموي الايرلندى على الاوضاع النفسية للاطفال ، خرج بنتيجة كبيرةوهي انه ليس هناك اى طفل ممن يعيشون فى ظروف الاضطرابات وقد نجا من الوقوع فينوعمن انواع القلق المبهض واضطراب النوم، والخوف من الاضطرار للانفصال عن أبويه وعائلته ، او منرفض المدرسة لقبوله فيها ، أو من فقدان الشهية والاضطرابات المعوية والتفوطية والبولية ومنانواع الصداع .

لقد تجمعت لدى الدكتور فريزر اعدادكبيرة من عينات ضحايا الامراض النفسية الناجمة عن أهوال القتال اليومي فى شوارع بلفاستوغيرها من مسارح القتال فى المدن الايرلندية ، وكلها حالات مأسوية بالقياس الى صفر اعمارالضحايا وما سيترتب عليها بالنسبة لقابل حياتهم . **والحالتان التاليتان يمكن ان تكونا مثلينمنبئين عن آثار هذا الخراب النفسي المبكر .**

● **مارجريت ،** طفلة فى الثالثة عشرةراجعت الاطباء بسببنوبات اغماء متكررةواعراض قلق شديد جراء ماشهدته من مناظر الاقتتالالدموى فى شوارع بلفاست . اضطرت عائلتها الى تغيير سكنها بعد اندلاع الاضطرابات عام ١٩٦٩وعندما احرقت جميع المنازل حول بيتها . وعلى الرغم من أن منزل العائلة لم يدمر تدميرا كاملاالا ان العائلة تعرضت للاستفزاز والابتزاز وتعرضت ممتلكاتها للنهب . وبعد فترة منالاستقرار فى سكن مؤقت اشترت العائلة منزلا جديدا فى مكان آمن سرعان ما أصبح هو الآخرواحدا من اسوأ نقاط الاضطرابات . انفجرت المظاهرات والاشتباكات بعد خمسة أسابيع مننزول العائلة فى منزلها الجديد . ولعدة ليال اصبحت شوارع الحي الجديد ميدان معركةحربية حقيقية بين الفرقاء المتقاتلين من جهة ، وبينهم وبين رجال الجيش والأمن من جهة أخرى،وكثيرا ما وقع الصدام فى حديقة المنزل الجديد الذى نزلته عائلة مارجريت .

عندما وقع هذا للمرة الأولى ، راحتمارجريت تصرخ وتزعق وخرت مغشيا عليها وكان لابد من نقلها الى المستشفى حيث جاءت نتائج كلالفحوص البدنية سلبية . اخرجت مارجريت من المستشفى ولكنها ـ وعلى الرغم من تمتعمنطقتها السكنية ، بعد ذلك بهدوء نسبي ـ ظلت تتعرض لنوبات الاغماء سواء فى المدرسة أم فىالبيت ، واضطرب اكلها وبدأ وزنها فى الهبوط .

كانت مارجريت ثانى طفل فى عائلة مكونةمن سبعة أطفال . كان أبوها عاطلا مزمنا ، وكان هو وأمها يعانيان من توتر عصبي مزمن وسرعةانفجار عاطفي منذ ان بدات الاضطرابات فى بلفاست . لم يكن فى تاريخ طفولة مارجريتمايثير الانتباه . كانت دائما خجولة مترددة ولكن مشاكلها مع أترابها بدات بالازدياد منذ انفجارالاضطرابات السياسية فى أغسطس ١٩٦٩ . منذ ذلك الوقت بدأت مارجريت تعانى من فقدانالقدرة على النوم توهما ان دارها ستحرق وانها ستحترق معها . كذلك صار الخوف الشديديعتريها من ظواهر اخرى ، مثل الضوضاء والضجيج والصراخ الجماهيرى فى الشوارع ،الامر الذى تحول الى خوف من الذهاب الى المدرسة،فأخذت تقصر فى اداء واجباتها المدرسية،وهذا ادى بدوره الى انحطاط مستواها المدرسي.

ظلت ظاهرة الاغماء تتكرر عند مارجريت لأشهر عدة وبخاصة كلما شاهدت تجمعات من الناس حتى حين لم يكونوا فى حالة تظاهر ، وكذلك عند سماع الاشارات العابرة الى حوادث الاشتباكات الدموية او اخبار الصراع السياسي من أبويها او من جيرانها . ولقد حاول الاطباء الذين تولوا علاجها فى مستشفى الامراض العقلية ان يوضحوا لها العلاقة بين ظاهرة الاغماء المتكررة عندها وبين التجارب القاسية التى مرت بها ، وان الثانية هى سبب الأولى وان ليس هناك أى سبب تشريحى او عضوى أو فسيولوجى للاغماء . وقد احرزت بعض التحسن بعد لأي ، الا أن مستواها العلمى استمر فى الهبوط ، الامر الذى اوجب نقلها الى صفوف ضعاف المتعلمين .

●● **مارى** ، كانت فى العاشرة من عمرها حين جيء بها الى العيادة لأول مرة بسبب تعرضها لنوبة صرع ناجمة عن حالة من القلق الشديد . وكانت مارى أصغر اربعة اطفال فى عائلتها ، وكانت العائلة تعيش فى واحدة من أسوأ مناطق بلفاست اضطرابا واكثرها اقتتالا .

اختفى أبو مارى دون أن يعثر له على أثر لمدة ثمانية اشهر قبل جلبها الى المستشفى ، والمعتقد انه كانت هناك اسباب سياسية وراء رحيله . وقد تعرضت والدتها لحالات من الكآبة الشديدة بسبب الحوادث الدموية الاخيرة فى بلفاست . كانت مارى قد تعرضت لحالات صرع ثانوية قبل ١٩٦٩ ، غير انها كانت نوبات عابرة وقليلة صارت تتكرر بعدد أكبر وبدرجات أعلى من الحدة بعد انفجار الصراع السياسي . وقد قصّت مارى بدايات انهيارها النفسي على طبيبها على الوجه التالى :

« فى احد ايام اغسطس ١٩٦٩ جاءت مجموعة من رجال الشرطة الخاصة الى الشارع الذى نقطن فيه وبداوا يطلقون الرصاص على المتظاهرين اثر احراق معمل صغير يقع فى الشارع الذى كنا نقيم فيه . وطلبت مني امي الصعود الى الطابق الاعلى من الدار ووضعتنى فى احدى حجر النوم وتركتنى وحدى ولكنها نسيت ان تسحب ستائر الحجرة التى وضعتنى فيها . وجلست عند حافة الشباك انظر الى مايجرى فى الشارع كما لو كنت فى حالة شلل كلي . لم أكن خائفة فى تلك اللحظات وانما المنظر كان يبدو كما لو كان فيلما سينمائيا . بعد يومين من ذلك الحادث كنت ورفيقاتى فى طريقنا الى المدرسة ، وكنا نركض لأننا كنا متاخرات وفجأة عاودتنى صورة الناس يتراكضون فى الشارع ومن ورائهم رجال الشرطة الخاصة ببنادقهم ورشاشاتهم . بغتة احسست أن ساقى يعتريها ضعف شديد ثم سقطت الى الارض ولم افق الا فى المستشفى حيث اخبرنى الشرطي اني تعرضت لحالة اغماء .

ذات مرة قالت لي امى أوقدى طباخ الغاز . وفجأة تذكرت قنابل الغاز التى كان رجال الشرطة يطلقونها على المتظاهرين فبدات اشهق شهيقا سريعا ، واخذت يداى ترتعشان ثم تهاويت الى الارض ولم أفق الا فى المستشفى . فى اليوم التالى . . فى المدرسة . . كنا فى درس اللغة وكان الموضوع الاصوات التى تخرجها الاشياء المختلفة . سألتنا المعلمة ماهي الآلة التي تخرج الصوت . . تنكاليك . . تنكاليك . . فتذكرت من دون اى شيء آخر صوت سيارة الاطفاء وأحسست بيدى ترتجفان ، ولم افق الا وانا ساقطة على الارض فى حالة اغماء اخرى . . . »

استمرت ماری معوقة بهذه النوبات التیکان یسبقها ارتفــاع مفاجیء فی حدة التنفس . وكانت أشياء كثيرة تسبب تعرضها للاغماء ، مثل انين جرس المدرسة او رؤية الشرارات الكهربائية حتى رؤية الاطفال يركضون وهم يخرجون مــن المدارس .

اعيــد ادخالها الــى مستشفى الامــراض النفسية ثم أحيلت الى عيادة نفســية للاطفــال وهنــاك وجــد مــن الضرورى حجب الاخبــار التلفزيونية عنها ، وحيــل بينها وبين ســماع الاحاديث عن القتال او المظاهرات نظرا لاتضــاح العلاقــة بين القلق وسرعة التنفس الذى اصبح النمط الذى يقود الى ظاهرة الاغماء لديها . لقد اوشكت ذات مرة ان تتعرض للاغماء بسبب رؤيتها لعبة عند احد أصدقائها على شكل دبابة نفاثــة للهب فما كان من المسؤولين عــن علاجها الا ان أبعدوا اللعبة عنها لانقاذها . (٩)

• • •

على ان ضحايا الطفولة والشباب لايقتنصهم رصاص الحروب العقائدية المشتجرة وحدها . فقد يكون فى الحرب الصامتة المعلنة عليهم مــن الآباء والامهات أحيانا ماهو أشد نكالا بهم وأكثر تخريبا لأوضــاعهم النفسية والعقليــة ، وذلك بسبب مايسقطه هؤلاء الآباء والامهات أحيانا من آثامهم الماضــية على أولادهم وبنــاتهم ، وبمــا يقتضونه من اولادهم وبناتهم من تعويضات نفسية عن فشل قديم عانوه ، أو مرارة نفسية قاسوها فى طفولتهم وظل جرحها يكبر معهم حتى اذا كبر اولادهم وبناتهم ورشدوا ظنوهم المثابة التي توفى لهم فيها ديونهم القديمة على آبائهم وامهاتهم . ولنجتزىء هنا بمثلين اثنين .

● **المستر ميلر** مواطن من مدينة نيويورك وهو يعيل من الاطفال سبعة يضاف اليهم زوجه وامه وهكذا يستوى عدد افراد الاسرة عشرة . والمستر ميلر ليس من ذوى الدخول الواسعة ، وكبرى بناته هى دوروثي فى المرحلة النهائية من الدراسة الثانوية . ودوروثي ترغب ان تظهر من المظاهر باجملها ، وهى كأية شــابة فى عمرهــا تستهويها مفاتن الشباب من عطر وحلي وملابس وحفلات وغير ذلك . وهي تدرك ان موارد العائلة المالية لا تكفي لنوالها ما تريد . وهي فى ذات الوقت حريصة على كرامتها واسم عائلتها . والمدارس فى الولايات المتحدة تدرك حاجات الشباب ، وتعي ان كثيرا من الاسر قد تعجز عن الوفاء لابنائها وبناتها بما يريدون . ولذلك فهي ــ اى المدارس ــ تضم الى أجهزتها الادارية أجهزة متخصصة بتشغيل الطلاب فى العطل الصيفية الطويلة فى المصانع أو منتجعات الاصطياف والاستجمام وتضرب بذلك عصفورين بحجر واحد ، فهى اذ تريح الاسرة المعسرة أو المضيق عليها فى الرزق من قدر من تكاليف المدرسة فانها في الوقت ذاته تنيل الاولاد والبنــات فرصة الخبرة العملية ، وتعلم الاعتماد على النفس واحتــرام الكــد مــن أجــل العيش بكرامة ، ثم تعيد الاولاد والبنات فى آخر الصيف الى منازلهم بجيــوب مملوءة بمقادير محترمــة

(٩) Fraser . . . op.cit., p . 84-88.

من المال تضمن لهم ما يشتهون من متع الشباب. وكانت مدرسة دوروثي تقدم هذه الخدمات لطلابها شأنها شان المدارس الاخرى . وتقدمت دوروثي الى مكتب تشغيل الطلاب تلتمس عملا خلال الصيف ، ووفرت لها المدرسة عملا مربحا فى احد المصايف الجميلة . فلما اشعرت دوروثي اهلها بالترتيب الصيفي انفجر الاب مغضبا من اقدام ابنته على ذلك ثم راجع المدرسة ناقما ومعترضا ومحتجا . ويعجب اولو الامر فى المدرسة من نقمة الرجل واعتراضة على حين كانوا يظنون انهم قد احسنوا اليه والى ابنته ، فيناقشونه فى الامر ، ويتذرع الرجل في البداية بأن الامر يتنافى وحبه لابنته ، فهو لا يريد لها أن تتحمل متاعب العمل فى هذه السن المبكرة . فاذا نوقش فى ان البنت هي الراغبة فى العمل وهي الساعية اليه قال ان كرامته تأبي عليه ان يرسل ابنته للعمل فى الفنادق . فاذا انبىء بان اسرا اكبر من اسرته دخلا وانبه في المجتمع ذكرا ترسل بناتها للعمل دون أن تجد فى الامر حرجا قال انه يخشى على ابنته من ذئاب الرجال فى تلك الاماكن ، الامر الذى يثير دهشة المسؤولين لان أيا من البنات اللواتي سبق لهن العمل فى الماضى لم تتعرض لمكروه فما الذى خوف المستر ميلر من مثل هذه المحاذير ؟ هنا اجاب ميلر انه متأكد من ذلك .

— وكيف تأكدت من ذلك ؟

— ان هذا شأني الخاص ...

— ولكنه شأن المدرسة ايضا ؟ فالمدرسة ليست اقل حرصا على شرف بناتها من اولياء امورهن ؟

— اني اعلم مالا تعلمون .

— واني لك هذا العلم الذى لانعلم يا مستر ميلر ؟

— ان القضية بسيطة ... يأتى الرجل المصطاف الموسر الى هذه الاماكن هربا من زوجته او من عمله .. فتتصل به الفتاة عن طريق خدمته على المائدة ، فتستهويه فيشتهيها فيترك لها فى اليوم نصف دولار على المائدة ، ثم يصير نصف الدولار دولارا فى اليوم الثانى .. ثم يتجاوز الامر الدولار الى دعوة لرقصة على ساحل البحيرة تحت ضوء القمر .. ثم الى هدية صغيرة ثم هدية اكبر .. وهكذا تبدأ الفتاة تنجر الى الشرك المنصوب لها حتى تكتشف فى نهاية الطريق انها دفعت الكثير لقاء ثمن بخس .

كان المستر ميلر يقول هذا بكل اخلاص للمسؤول عن تشغيل الطلبة ، ويتذرع به للحيلولة دون ارسال ابنته للعمل والمسؤول فاغر فاه عجبا ودهشة مما يقول هذا الاب الغيور . فلما اتم المستر ميلر حديثه قال له المسؤول : —

— انك ياسيدى تثير عجبنا الى حد الخوف .. فهل لك ان تعطينا واقعة واحدة مصداقا لما تقول وعلى ما تلقيه من التهم ؟

فما كان من المستر الا ان يبلغ به الغضب مداه فينفجر صارخا فى وجه المسؤول ...

ـ اية بينة تريد ... ؟ كل الرجال يفعلون هذا ... لقد كنت انا نفسي افعله ردحا طويلا من الزمن .

بعد ذلك تهاوى ميلر على مقعده كمن القى عن كاهله ثقلا كبيرا واستراح . ورفع الحجاب امام مسؤولى المدرسة . اذن كان المستر ميلر يصارع آثامه هو واخطاءه هو وضحاياه هو من خلال اعتراض على عمل ابنته . كانت الآثام والاخطاء والضحايا تئز فى صدره أن الرجال كلهم على شاكلته ، وان ابنته لن تكون شيئا مختلفا عن اللواتى سقطن فى شباك ابيها . واذن لم يكن هناك حب ابوى ولا كرامة شخصية يأبيان على الرجل ارسال ابنته للعمل وانما كان هناك الخوف ... الخوف من ان تدفع ابنته ثمن حرمات بنات الآخرين التى استباحها في شبابه ... لان الآباء الذين ياكلون اعنابا لم تنضج تضرس اسنان ابنائهم ، كما يقول الانجيل .

●● **الان تيودور** شاب فى التاسعة عشرة من عمره ، وهو مخفق فى عمله الجامعى نتيجة احساس عميق بالعجز فى المساهمة فى رسم مستقبله وتخطيط حياته القابلة وهو يعانى من القلق وضآلة الشعور بالرضا عن نفسه وعن الحياة . لقد كان طفلا وحيدا لابويه اللذين كانا يتمتعان بمركز اجتماعى محترم وقد حرصا منذ البداية على حمايته من حقائق الحياة المؤذية . وكان كلما سأل ابويه بعض الاسئلة اجيب من قبلهما « انتظر حتى تكبر » . وكلما حاول أن يقوم ببعض الاعمال على مسؤوليته الخاصة ساله ابواه « او تظنك قادرا على القيام بذلك ؟ » . وكلما حاول ان يناقش مستقبله المهنى معهما قالا له « ان امامك الكثير من الوقت لتفكر فى ذلك ، اما فى الوقت الحاضر فان واجبك الوحيد هو الالتحاق بالجامعة » . وكانت الهواية الوحيدة التي سمح له بممارستها هي لعبة « الجولف » وكانت تلك هى الهواية الوحيدة لأبيه ايضا . وعندما الحق بالجامعة سأل ابويه « ما الغرض من ذهابي الى الجامعة ؟ » وكان الجواب « اننا سنقرر ذلك فيما بعد بطبيعة الحال » . كان الأبوان يفكران فى مستقبله المهنى الا انهما جعلا ذلك سرا مكتوما ليتأكدا من طاعته المطلقة لتوجيهاتهما . اخيرا بدأ الشاب يحس بالرهق من هذه الحياة التائهة التي كان يحياها . ثم جاء اليوم الذى كان لا بد ان يجيء فى هذه الحالة وكل حالة اخرى مشابهة لها عند الاطفال المبكوتين وصرح الشاب قائلا « اننى اشعر باننى مثبط . انني لا ادرى الى اين اسير ولا الى اين اذهب . اننى لا احس باننى اساهم فى تقرير مصيرى . عندما اسأل سؤالا فانى لا احصل على جواب . حتى حينما ادخل على ابوىّ وهما منشغلان بحديث من الاحاديث فانهما يسكتان فجأة . اننى لم اشعر باية لذة من حياتى فى السنتين او السنوات الثلاث الاخيرة . انى شديد القلق . انى اعتقد أن الأمور تعاكسنى بشكل سيء تماما (١٠) » .

● ● ●

(١٠) English & Pearson, **Emotional Problems of Living**, pp. 273-307, Norton Company, New York, 1950.

اللوح الرابع

الرفض

الاستاذ ـ اريد أن أعرف الفلسفة وراءاطالة الشعر وارساله بهذه الصورة المبعثرة .

الطالب ـ هل يزعجك ذلك ؟

الاستاذ ـ كلا ... ولكنى من جيل متقدمعلى جيلك ولم يكن من الذوق العام فى زماننا ارسال شعور الرجال بالشكل الذى تفعلون انتمالآن .

الطالب ـ اعتقد انها قضية ذوق شخصي .

الاستاذ ـ ولكنها ظاهرة عامة والظواهرالعامة لا يمكن ان تترجم عن اذواق شخصية . ولو كانت قضيةذوق شخصي لاختلف الشباب فيها . واذا كانت ظاهرة اجتماعية عامة ثابتة ـ وهى كذلك فعلا ـ فلا بد لها من فلسفة . انالظواهر الجماعية فى السلوك الانسانى هى قوانين غير مدونة ولكنها فاعلة فى السلوك .

الطالب ـ لم اخبرك الحقيقة ... ولكن ماهو غرضك على وجه التحقيق ؟

الاستاذ ـ حب الاستطلاع ومحاولة فهمالدوافع الانسانية .. انا معنى بمشاكل الانسان ... وانا ادرك ان الظواهر السلوكية لا بد أنتكون رموزا لأشياء أعمق جذورا فى النفس البشرية ...

الطالب ـ صدقت ... ان الشعر الطويل المرسلالمشوش والقذر احيانا هو رمز لشىء أعمق منه بكثير .

الاستاذ ـ هو رمز على ماذا ؟

الطالب ـ الرفض .

الاستاذ ـ ولكن رفض ماذا ؟

الطالب ـ قيم المجتمع ؟

الاستاذ ـ اى من قيم المجتمع ؟

الطالب ـ قيمه الاستهلاكية . قيمهالاستحواذية . ان روح الاقتناء والاستزادة والانفراد بالاشياء والتكثر منها والتنافس عليهابدات تدمر الاسس الانسانية للمجتمع . الناس يتنافسون على اقتناء البيوت الفخمة والاثاثالفخم وامتلاك اكثر من سيارة واحدة واكثر من جهازتلفزيون.حتى الكلاب والقطط اصبحت مماينتافس فيها الناس . بهذا صرف النظر عن الانسان نفسه الذى يفترض ان يكون الغاية العليامن الحياة كلها ، من الوجود . لقد وضع الانسان فى خدمة الاشياء بدلا من أن تكون الاشياء فىخدمته . اليس ذلك شيئا مأسويا ؟ .

الاستاذ ـ نعم .. هو مأسوى بالفعل ..ولكن ما علاقة ذلك كله بالشعر الطويل المنثور . الانسان صاحب العقيدة يكافح من أجل افكاره بشعر ومن دون شعر . وهل يعنى كون بعض الرؤوس صلعاء ان أصحابها ليسوا من أصحاب الافكار الانسانية العالية ؟

الطالب ـ انت الآن تمزح ...

الاستاذ ـ بل انا جاد .

الطالب ـ حسنا اذن . لنبدأ من هذه النقطة . لوعدنا الى الوراء قرنين أو ثلاثة قرون سنجد ان الشعر الطويل للرجال كان ظاهرة عامة . حتى الانبياء .. عيسى وموسى عليهما السلام مثلا ... تجدهما مصورين او منحوتين بجدائل طويلة مرسلة على اكتافهما وذوائب اطول مدلاة على جباههما . طف كنائس الدنيا كلها فلن تجد المسيح مصورا فى تمثال واحد من دون جدائله وذوائبه . هذا هو الاصل الثقافى للشعر الطويل المرسل عند الرجل . رجال الصحراء العرب الى اليوم يتزينون بشعور طويلة تحت كوفياتهم المهفهفة فى الهواء . ان لهذا التعلق بالشعر الطويل سببا بطبيعة الحال . ان الشعر اكثر من اى شيء آخر يعطى الرجل شخصيته المتفردة المتميزة وعندما تجزُّ فروة راسه يتغير شكله كليا وربما اضطربت أوضاعه النفسية .

الاستاذ ـ ولكن هل تحتمل هذه القضية كل هذه المضامين ؟ الا ترى انك تحمل الاشياء فوق طاقتها ؟

الطالب ـ عموما ... ليست هذه « هى » القضية ...

الاستاذ ـ ما « هى » القضية اذن ؟

الطالب ـ الانسان « هو » القضية .. ان حضارتكم الراهنة تمجد الابداع الانسانى ولكنها تدمر الكائن المبدع نفسه . هذا من صنع البورجوازيين .

• • •

اللوح الخامس

القنوط

الاستاذ ـ ولكن من أين جئت بفكرة تدمير « المبدع » ؟

الطالب ـ ان الاعتداء على الانسان يبدأ مبكرا . منذ الطفولة المبكرة . انهم يحاولون صبك فى قوالبهم الموروثة ، يجب ان تكون صورة أخرى مكررة عن ملايين صور الرجال الجوف . الم تسمع بكتاب « اندريه جيد » ، أيتها العائلات.. انى اكرهك » ؟

الاستاذ ـ بلى سمعت به .

الطالب ــ لقد كان جئيرا ضد معاملة الاطفال على أنهم راشدون صغار . لقد كرر سارتر الشكوى ذاتها والاحتجاج ذاته فى كتابه « الكلمات »(١٩٦٣) وقد حاول سارتر فى هذا الكتاب التنبيه الى ان خير طريقة لتفادى جعل الناس نوربين هي توفير تربية ديموقراطية اصيلة لهم .

الاستاذ ــ ولكن البورجوازيين الذين هاجمتهم قبل قليل لم يبنوا مجدهم ونفوذهم على هذه التربية الديموقراطية الاصيلة ؟

الطالب ــ ان البورجوازى يفسر وجوده على هذه الارض بانه نوع من انواع الحق الآلهى . اما البروليتارى فلا يملك مثل هذا اليقين ، لانه لايتمتع بنفس الضمانات التى يتمتع بها الطرف الآخر .

الاستاذ ــ ما الذى يمنعه من ذلك ؟

الطالب ــ لان الصناعة كما يقول « اندريه مالرو » دمرت صورة الله فى الضمير الانسانى وبهذا محت من امام الانسان كل مايعترض طريقه ، وعندما وصل نهاية اتعابه لم يجد الا الموت كما وجده **رانسى** امام جسد حبيبته . (١١)

الاستاذ ــ ولكن الا ترى أنك تتخذ موقفا مفرقا فى التشاؤم من العالم ؟

الطالب ــ ابدا .. انه عالم عبثى قائم على الخديعة .

الاستاذ ــ الخديعة ؟

الطالب ــ نعم الخديعة .. انها فى المركز من المأساة الانسانية المعاصرة .. أو لم تسمع بمحنة « هنرى مارتان » التى هى رمز لأزمات كل الشباب المخدوع فى هذا العالم ؟

الاستاذ ــ بلى سمعت به اليس هو صاحب « سارتر » الذى ...

الطالب ــ بلى انه هو . لقد انضم مارتان الى المقاومة الشعبية الفرنسية سنة ١٩٤٥ وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وأبلى بلاءا حسنا ، ثم نقل الى البحرية الفرنسية بعد الحرب ، وارسل الى الهند الصينية حيث اوحى اليه انه ارسل للمشاركة فى تحرير شعوب المنطقة من الاحتلال اليابانى . غير انه سرعان ما اكتشف انه كان متوقعا منه ان يسهم فى ابقاء تلك الشعوب تحت السيطرة الفرنسية الاستعمارية ، فأحس بالخيانة وحاول ثلاث مرات شراء حريته من الجندية واخفق فيها كلها فما كان منه عام ١٩٤٩ الا أن قام بتوزيع منشورات مناهضة للحرب فى قاعدة طولون العسكرية انتهت به الى السجن خمس سنوات .

الاستاذ ــ هل كان فى مقدوره ان يغير العالم وحده ؟

الطالب ــ كلا .. وتلك كانت خطيئته المهلكة .. انه أراد ان يعلن حربا على النظام العالمى الفاسد ، وان يقودها ويخوضها وحده ، على حين ان المخدوعين فى العالم كثير كثير ، افرادا كانوا ام جماعات .

---

(١١) رانسى مصلح دينى فرنسى عاش بين ١٦٢٦ ــ ١٧٠٠ ــ وانتهى عاشقا مات بين يدى عشيقته . لقد طرح مالرو افكاره هذه فى رواية « الفاتحون ١٩٢٨ » و « الامل ١٩٣٧ » .

الاستاذ ـ وكيف تخدع الجماعات ؟

الطالب ـ ان خديعة الجماعات لا تختلف عن خديعة الافراد الا بالدرجة فقط . الم تقرأ ما كتبه « توينبي » عن خديعة الرجل الاسود في الولايات المتحدة .

الاستاذ ـ وماذا قال توينبي ؟

الطالب ـ قال توينبي ان « الزنجي الامريكي » وعد أولا بأن تحريره من الرق ، ومن ثم توحده مع الرجل الابيض سيضعان حدا لضعة مركزه الاجتماعي ومستواه المعاشي . ولكن في كل مرة كانت آمال الزنوج تخيب . وكان من نتيجة ذلك وتبعا له ان اصبح الزنجي حائرا ضائعا شاكا تأكل المرارة قلبه ، وقد دفع ذلك فيما دفع اليه الى ان تتجه قطاعات من المجتمع الزنجي الامريكي الى الايمان بحياة جديدة قائمة على الانفصال الكلي عن الرجل الابيض ، انفصال قائم هذه المرة على اختيار السود ومن صنعهم يجري تحقيقه بوسائل العنف (١٢) .

الاستاذ ـ اذا كان العالم يبدو لكم مزاجا عجيبا من العبثية والخديعة والافتراءات ، فانتم لا تبقون على باب من ابواب الرجاء مفتوحا امام مسؤوليات المستقبل .

الطالب ـ نعم هو ذلك . القنوط من الامل هو العقلانية الوحيدة التي تجعل العالم محتملا ، وهي التي تحيل هذه التجربة المبهضة ـ الحياة ـ الى حالة من حالات الوعي . لقد تنبأ صاموئيل بيكيت Samuel Beckett (١٣) لذلك منذ ١٩٣٨ في شخصية مورفي .

الاستاذ ـ وما هي رؤيا بيكيت عن العالم من خلال مورفي ؟

الطالب ـ محض عبث لا مبرر له ولا طائل تحته . فانت تعرف ان مورفي مواطن من مواطني دبلن يعيش في لندن على الصدقات ، وهو وحداني ذاتي سيء العشرة يؤمن بأن عقله عبارة عن « مجال ضحل كبير مغلق انغلاقا تاما بالنسبة للعالم الخارجي . وهو يريد ان يوصد بوابات عقله من دون العالم الذي تبهضه عبثيته وبطلانه وفوضاه ، وهي أمور لا تترك له فرصة للتوافق مع هذا العالم ، ولذا فهو يرى ان المعتكف الوحيد في العالم هو « عقله » الذي هو المكان الاوحد حيث يستطيع ان يجد السلام الداخلي فيه ، وحيث لا يكون الا « هبوة » في ظلام الحرية المطلقة . الطريق التي يسلكها مورفي الى الرحيل الى أعماقه الداخلية هي ان يربط نفسه عاريا الى كرسي هزاز ثم يهتز ويهتز حتى « يحيي عقله » .

ان رحيله بعيدا عن زعزعات العالم الخارجي « عالم الامتداد » وتقدمه الى « كهف النفس » ذلك الكهف الباطني المظلم يتعقد بحبه لعاهرة اسمها سيليا وهي « مخلوق شهواني » تبحث

---

(١٢) Toynbee, A., Experiences, p. 248, Oxford University Press, 1969, London.

(١٣) صاموئيل بيكيت كاتب مسرحي ايرلندي ولد عام ١٩٠٦ واختار باريس منذ صدر شبابه مستقرا له حيث نشر اكثر مسرحياته باللغة الفرنسية وبنى مجده الادبي هناك وهو يعد الآن بالاضافة الى برخت ويونسكو اقطاب الحركة المسرحية العالمية في الاربعين سنة الاخيرة . ومن اهم اعماله « مورفي ١٩٣٨ » و « في انتظار جودو ١٩٥٢ » و « نهاية اللعبة ١٩٥٧ » و « كيف الحال ١٩٦١ » .

عن مركز اجتماعي محترم باقترانها بمورفي وحملها اياه على البحث عن عمل . غير ان العمل الذى يحصل عليه مورفى يكون فى مصحة للامراض العقلية . فى هذا المكان يجد مورفى « ملاذه من الدنيا » ويحس بنوع غريب من السعادة بين المتاثين عقليا ، لانهم ولجوا المنطقة التي يحاول هو الوصول اليها عن طريق كرسيه الهزاز . على أن سعادة مورفى لا تدوم طويلا لانه يحترق ذات يوم هو وكرسيه الهزاز .

يترك مورفى وراءه وصيته يوصي فيها ان تحرق رفاته وان توضع بقاياها فى كيس من الورق وان تحمل الى مسرح « آبى » الذى « انقضت فيه أسعد ساعات هذه البقايا » ، وان تنثر فى مجارى مياه ذلك المسرح دون احتفال او اظهار للحزن . ولكن حتى هذه الأمنية الاخيرة كانت غير ممكنة التحقيق ، ذلك ان الصديق الذى حمل رماد رفات مورفى ــ وقبل ان ينفذ الوصية ــ يدخل فى شجار مع عامل البار فى المسرح فيقذفه بكيس الرماد فى لحظة غضب ويتناثر الرماد على الجدران وارضية البار ويصبح فى التو موضع الدهس والنخس بنعال السكارى ، وهكذا يغدو جسم مورفى وعقله ونفسه مبعثرة على أرض البار . وقبل أن يبزغ فجر اليوم التالى تكون الارض قد كنست من « الرمل والبيرة واعقاب السكاير والزجاج والكبريت والبصاق والقيء » المختلطة ببقايا رفات مورفى .

الاستاذ ــ لا أمل اذن امام الانسان فى شيء من الخير او الرجاء فيه ؟

الطالب ــ لا بل هنالك أمل .. هو أقرب الى البطلان منه الى الحقيقة .. هو الامل فى الأمل ..

الاستاذ ــ لا افهم ؟

الطالب ــ انه وجود المرتقب الذى يرينا بيكيت كيف ان كل الناس تتوقعه ، ولكنه لا يجيء .. ومع هذا فهم يحلمون بمجيئه وهم لا يريدون أن يخسروا هذا الحلم لانه هو الشيء الوحيد المتبقى لهم . (١٤)

• • •

(١٤) فى مفتتح مسرحية « فى انتظار جودو » نسمع هذا الحوار بين صعلوكين ينتظران جودو على قارعة طريق وقد عضهما الجوع :

استراجون ــ هل انت متاكد ان هذا هو المكان الذى علينا ان ننتظره فيه ؟
فيلاديمير ــ لقد قال بجوار الشجرة . ماذا تريد ان تقول ؟ اننا فى المكان الخطا ؟
استراجون ــ كان يجب ان يكون هنا .
فيلاديمير ــ انه لم يؤكد انه سياتي
استراجون ــ واذا لم يات ؟
فيلاديمير ــ سوف نأتى غدا
استراجون ــ ثم بعد غد
فيلاديمير ــ يحتمل
استراجون ــ المسألة هي ....
فيلاديمير ــ الى ان يأتى .....

اللوح السادس

الضيـــاع

الأستاذ ـ الا ترى ان بيكيت وامثاله ليسوا ممثلين للعالم ، وان الوضع الانساني ليس بالسوء الذى يصورونه به ؟

الطالب ـ ولكن الكتاب من طبقته هم ضمير العالم .

الاستاذ ـ أليست هناك معايير هادية فى هذه الدنيا غير رؤى هؤلاء الكتاب ، وغير الصراع السياسي والكفاح الدموى ؟

الطالب ـ مثل ماذا ؟

الاستاذ ـ خذ القيم مثلا .. ألم تكن حتى الآن دليلا هاديا للبشرية ؟ الم تكن مصدرا مــن مصادر الاستقرار النفسي للانسان العادى ؟

الطالب ـ الانسان العادى الذى لا يفكــر بطبيعة الحال ... ذلك هو الذى تريد .. أليس كذلــك ؟

الاستاذ ـ أبدا .. الانسان المفكر هو الذى يعرف القيم ويميزها ويسترشد بها .

الطالب ـ قد يكون الامر كذلك ولكن المشكلة هي انه ليست هناك قيم متفق عليها أصلا ، ولذا فاننا لسنا فى وضع أفضل من وضع مورفى فى انفصاله عن العالم .

الاستاذ ـ وكيف ذاك ؟

الطالب ـ القيمة شيء نسبي ، والنسبي قابل للتعليل والتأويل .. وما كان كذلك لايمكن الاعتداد بــه .

الاستاذ ـ ومن أين جاءت نسبية القيم ؟

الطالب ـ جاءت من غياب الاجماع عليها . فهناك من يرى ان القيمة شيء ذاتي ، وانهــا لا توجد الا كعواطف أو احاســيس بالرغبــة أوالنفور ، بالحب أو الكره ، بالاحترام أو الازدراء نحو شيء معين أو نحو شخص معين . فالأكل والشرب والاستمتاع بالموسيقى او تأمل غروب الشمس كلها قيم لانها تثير فينا احساسا لذيذا ، وتقديرا ، وتوهجا فى المشاعر . انها تعطينا تجارب شخصية فى طبيعة الاحساسات التي نلذها . وهذا لا تكون القيمة الا اهتماما أو متعــة يعطي الاشياء معنى فى نظرنا عندما نرغب فيها او نحس بالحاجة اليها . حتى عندما تكون القيمة فى الشيء فعلا فان الشيء نفسه لا يكتسب من الأهميــة الا بمقدار رغبة الانسان فيه أو حاجته اليه ، وكما يقول بيرى R. B. Perry فان « أى شيءـ مهما كان ـ يكتسب قيمة » عندمــا يحظي

باهتمام الانسان به أيا كانت درجة الاهتمام ،بالضبط كهدف الرامى الذى لا يصبح هدفا الا عندما يقع التصويب عليه من قبل رام معين » . (١٥)

ويوضح **باركر** هذه الحقيقة بشكل ادق فى قوله « ان القيم تنتسب الى العالم الداخلي ، عالم العقل . ان اشباع الرغبة هو القيمة الحقيقية ، أما ما يساعد على تحقيق الرغبة أو اشباعها فهو مجرد اداة . القيمة هى دائما خبرة ، وليست شيئا . الأشياء يمكن ان تكون قيمة ولكنها لا يمكن ان تكون قيما على الاطلاق . اننا نعكس القيمة الداخلية على العالم الخارجي ونسبغها على الاشياء التي تحقق الرغبة أو تساعد على تحقيقها . . » (١٦)

الاستاذ ــ اراك تغلو غلوا شديدا فى نفي واقعية القيم الانسانية ، وتنفي عنها صفة الموضوعية والحقيقة ، على حين اني أعلم أن قيم الاشياء فيها وليست فى الانسان . وفى تخميني انه لو لم تكن الاشياء قيمة بذاتها لما قيمها الانسان . الانسان يكتشف قيمة الاشياء فقط . ولا ريب ان هناك ميزة او خاصية أو نظاما للخصائص والمزايا فى « الشىء » تجعل الحكم عليه ضروريا ومعقولا فى وقت معا لانها تثير فينا استجابة تقييمية Appreciative Response . بعبارة اخرى . . ان فيها شيئا مستقلا يلذ العين أو الاذن او الحاسة الخلقية أو الملكة الجمالية فى الانسان . وعلى هذا فان الانسان لا يهتم الا بتلك الاشياء التى تبدو له ذات قيمة أصلا .

الطالب ــ قد يكون هذا حقا . . . ولكن اكتشاف قيمة الشيء لا يتحقق الا من خلال التجربة الفردية ، اى الانفعال بالاشياء ، وهذه قضية ذاتية صرف .

الاستاذ ــ هذا حق ولذا فاننا يجب ان نميز بين أمرين مهمين ، بين التجربة النفسية المصاحبة للحكم على الشيء من جهة ، وبين « الشيء Object » أو « الوضع Situation » الذى نحكم عليه .

الطالب ــ كيف تفصل الانفعال عن موضوعه ؟ الا يبدو ذلك صعبا ان لم يكن مستحيلا ؟

الاستاذ ــ لا استحالة فى الامر . خذ مثلا احكام الناس على الجو من حيث هو حار أو بارد . اننا هنا لا نقول ان احكامهم نفسها حارة او باردة لانها احكام موضوعية من جهة ، ولان ما هو حار او بارد انما هو موجود خارج الانسان . وفى هذه الحالة نستطيع ان نختبر دقة احكامهم بمقاييس الحرارة وسيكون صوابها اوخطاها ــ اى الاحكام ــ مرهونا بمدى توافقها مع ما يشير اليه ميزان الحرارة حتى فى الحديث عن الجمال . . . اننا لا نقول عن شيء انه جميل ما لم يكن فيه ما يبرر هذا الحكم كألوانه مثلا او تناسق ابعاده أو هيئته . قيم الاشياء هي فى الاشياء ذاتها غير ان

(١٥) Perry, R. B. ; **General Theory of Value**, pp. 115-116, Longman's Green and Company, New York, 1926.

(١٦) Parker, D.H., **Human Values**, pp. 20-21, Harper & Brothers, New York, 1931.

اكتشافها ليس ميسرا للجميع لأنه رهين بالخبرة والملكة ، فالانسان الذواقة هو الذى يميز الطيب من الخبيث وعندما يعجز الناس عن اكتشاف قيم الاشياء فانهم يبرهنون على عجزهم ليس غير .

الطالب ــ انك لم تزد الامر وضوحا .. كلما فعلت انك خلطت « الشيء » ب « التجربة » او « الموضوع » ب « الانفعال » وجعلتهما شيئا واحدا .

الاستاذ ــ تلك هى بالضبط طبيعة الاشياء .لأن القيمة ــ فى التحليل الاخير للاشياء ــ هي ذات طبيعة علائقية ، بمعنى أن كلا من العوامل الذاتية والموضوعية ضرورية لخلق القيمة ، ذلك ان عملية خلق القيمة او ايجادها أو احداثها هي علاقة خاصة او معرفة بعلاقة خاصة تتكشف لاشخاص حساسين أو قادرين على التفهم .ان القيمة هى حصيلة تفاعل متغيرين او اكثر في حالة معينة . وهناك خصائص أو حالات بيئية تثير فى الأجهزة الحسية تلك الاستجابات الفريدة التى نسميها احكاما اخلاقية . فى مثل هذه الحالات لا يمكن الجواب على السؤال .. » هل الجمال موضوعي أم ذاتي بكملة نعم أولا .الجواب الصحيح هو ان الجمال صفة او خاصية فى شيء معين تتكون من قدرة ذلك الشيء على احداث اللذة فى ذات متأملة . ان السؤال .. هل الجمال موضوعي ام ذاتي ؟ مشابه منطقا للسؤال.. هل حالة التسمم موضوعية أم ذاتية ؟ ان تجربة اللذة مثل الموت .. أنها ليست طاقة ولا قدرة ... انما هى حدث بعض الاشياء قادر على التسبب به فى بعض الناس على حين ان الجمال ــ من الناحية الاخرى ــ هو مثل التسمم ليس حدثا ولا خاصية وانما هو طاقة او قدرة تملكها بعض الاشياء ... لاحداث اللذة فى بعض متأمليها ... » (١٧)

الطالب ــ لقد أعطيت للقضية عمقا عقلانيا جدليا وعزلتها عن ملابساتها الحياتية . ان جيلنا ينظر الى القضايا الاخلاقية على انها مشاكل عملية محمولة فى الرحم الاجتماعي ولا يمكن التماسها فى الجدليات الميتافيزيقية . الفقر والعوز والبطالة واستغلال الانسان للانسان والعبودية الفكرية .. هذه كلها ليست امورا جدلية محضة .. انها من افرازات التركيبة الاجتماعية التي تحتوى الانسان ولا سبيل الى تبديلها الا بتبديل التركيبة الاجتماعية ذاتها . عندما طرحنا قضية القيمة طرحناها على أنها اداة استهداء فى الحياة العملية ، اداة للبحث عن الخلاص الانساني .

الاستاذ ــ ومن قال ان مسألة القيمة معزولة او قابلة للعزل عن مشاكل الحياة الانسانية وعن معاناة الانسان ؟ الاخلاق عموما ليست نظاما فى بناء القيم الضابطة للسلوك الانساني فرديا كان أم جماعيا . وهكذا فان الحديث فى القيم انهو الا المدخل الطبيعي الى مناقشة النظام الاخلاقى الموجه للفعاليات الانسانية والجماعية منها على وجه التخصيص .

الطالب ــ هذا حق .. لولا انك أضفيت على المعالجة درجة عالية من الضبابية اللغوية التي اضاعت المعالم الاساسية للمعضلة الانسانية.. معضلة الاهداف وعبثية الوجود وسقوط

(١٧) Ducasse, C. J., Art, The Critics And You, pp. 90-91, Oscar Priest, New York, 1944.

الانسان فى محاولة ابتداع النظم الاجتماعية التيتعطي الوجود الانساني على الارض معنى ، وتعينه على ملء فراغ الزمن الضائع في انتظار جودوالذى يعرف الجميع انه لن يجىء .

الاستاذ ــ القضية هنا تصبح قضيةاختيار ،اختيار التفسير الاتي بالنبوءة والمالىء لفراغ الزمن ، وهذه مسألة اخلاقية صرف .

الطالب ــ ولكن المسألة الاخلاقية ليستاقل ضبابية ولاغبشيةمنمسألةالقيمة،والسقوط فى غياهب الاختيار الاخلاقى ليس اصعب مــنضياع الطريق امام الباحثين فى معنى القيمة .

الاستاذ ــ ومع هذا فلابد من الاختيار .تريد الحق.. ان المسلكية الاخلاقيةللانسانتبدا بالاختيار اصلا . لقد كان المتدينون الاوائـــلوالميتافيزيقيون أخلاقيين من الطبقة الاولى رغم ان اخلاقياتهم قد لا تقدم حلا لمعضلات عصرنا .

الطالب ــ هل كان فى غيبياتهم حل حتىلازمات عصرهم وعبودياتهم هم انفسهم ؟

الاستاذ ــ ربما لم يكن .. ولكن الرؤيةكانت واضحة عندهم وهذا ما منحهم السلام العقلي على الاقل .

الطالب ــ ولكنه كان سلاما مكذوبا .. كانتسليما ولم يكن سلاما .

الاستاذ ــ كانت الطريق امامهم منورة .كانت عقيدتهم هي مجموعة الحدود التي قضت بها القوة العليا ، ارادة الله . ومع تطور المفهومالديني اصبح وجود الانسان كله رهينا بطاعةهذه التعاليم ، كما صارت هذه الطاعة المبرر الوحيدلوجود الانسان على الارض والسبيل الى مثوبته فى الحياة الاخرى ، وقد اكسبه ذلك درجةعاليةمن النبل .

الطالب ــ الطريقة هذه لم تكن عقلانية ،ولهذا حاول الانسان عقلنتها .

الاستاذ ــ قاده هذا الى المثالية الاخلاقية .ابتدات هذه المثالية بأفلاطون وانتهت بـ « كانط Kant » الذى كان واحدا من أبرع الفلاسفةالميتافيزيقيين ومبلور الاخلاقية الميتافيزيقية فى كتابيه (**ميتافيزيقية الاخلاق** Methaphisics of Morals) **ونقد العقل العملى** Critique of Practical Reason . لقد اطلق كانط علىفلسفته الاخلاقية اسم « الاخلاقية الصورية Ethical Formalism » هل قرات كانط ؟

الطالب ــ اجل قراته واعرف قوانينـــهالاخلاقية العامة ، واعرف شروطه لاخلاقية الفعل الانساني وهي ثلاثة (اولها) مبدا الكونية بمعنىأن الفعل الاخلاقى ينبغى ان ينبثق ليس مـــن الرغبة او الميل ولكن من مبادىء يمكن تعميمهاعلىكل الظروف والاحوال وأن تصدق فى كل تلــك الظروف والاحوال ايضا . و (**ثانيهــا**) **مبدا**الانسانية كغاية فى ذاتها ، بمعنى ان الانسان هو غاية الحياة العليا على هذه الارض ، ولا يجـــوزاستعماله اداة لأية غاية اخرى كما فى الرق او البغاء او الاستغلال الاقتصادى . **والمبدا الثالث**هو مبدا الاستقلال ، بمعني ان المبادىء الأخلاقية

التي يطيعها الانسان لا ينبغي ان تفرض عليه من الخارج ، بل ينبغي ان يفرضها هو على نفسه ، اى أن يختارها بارادته الحرة ، وهو يملك الوسيلة لذلك متمثلة في العقل والاحساس الفطرى بالواجب المنبعثين من الداخل ، داخل الانسان ، واللذين هما برهان ذاته العليا .

الاستاذ ــ الست ترى فى هذه المجموعة من القوانين نظاما متكاملا للسلوك السوى وطريقا الى الرفعة الانسانية ؟

الطالب ــ بلى ، لولا أن مثالية كانط اغفلت حرب المصالح الاقتصادية بين الطبقات ورمت نفسها بالعقم . حتى قبل ظهور ماركس والماركسية ظهر الأخلاقيون النفعيون مثل **جيرمي بنثام** J. Bentham (١٧٤٨ ــ ١٨٣٢) **وجون ستيوارت ميل** J. S. Mill اللذين بنيا نظريتهما فى الاخلاق على القول بأن اخلاقية الفعل الانساني مرهونة بنتيجته ، فان كانت النتيجة جيدة أو ممتعة كان الفعل اخلاقيا ، والا فانه غير اخلاقى ، وان يكن ميل قد حاول التقليل من خطر هذه النزعة الفردية بربطه مبدأ « النفع » لا بالفرد وانما بالجماعة او « بمدى صلاحيته فى تحقيق السعادة العظمى » ، اى سعادة المجتمع . لقد قال **ميل فى هذا الصدد** « ... ان سعادة الغالبية من الناس هى المعيار الاخلاقى الوحيد لالتماس الخطأ والصواب فى السلوك الانساني ، وما دمنا نعيش فى مجتمع غير عادل فان البعض منا يجب ان يضحى بنفسه أو مصالحه فى سبيل الآخرين ، وهذا هو جوهر الاخلاق ... » .

الاستاذ ــ هل لك من ماخذ على التفسير النفسى للاخلاق ؟

الطالب ــ اكثر من ماخذ واحد . **اولا** ان **ميل** اعترف اننا نعيش فى مجتمع غير عادل ولكنه ربط صلاح هذا المجتمع او اصلاحه بالنزعة الغيرية ، التضحية بالذات فى سبيل سعادة الآخرين ، وهو يعلم جيدا ان هذه دعوة غير مستجابة فى المجتمع التجارى الذى كان يعيش فيه والذى كان يقوم على الربح وعلى الازدياد منه . **ثانيا** ان المجتمعات لا تصلح بالصدقات . لا بد لك من نظام ثابت فى تقرير الحقوق والضمانات للانسان ، ولا بد من وضوح العلاقة وثباتها بين الجهد والمكافاة . ان شر ما يهدد المجتمعات ان تظهر فيها طبقات طفيلية غير منتجة تعيش على جهود الناس المنتجين .

الاستاذ ــ لقد حاول **ديوى** وغيره من « الاخلاقيين التحليليين » ان يطرحوا بديلا عقلانيا عن كل المذاهب المتقدمة . وكان ديوى John Dewey (١٨٥٩ ــ ١٩٥٢) فى كل حياته مثلا للمفكر العلمي الذى يسترشد بالتجربه ويعتمد نتائجها معيارا لتحليل الاوضاع الانسانيه والنظم الاخلاقية . وقد ربط فى كتابه « **الطبيعة الانسانية والسلوك الانساني** » **Human Nature and Conduct** (١٩٢١) ، ربط الاخلاق الى علم النفس الاجتماعى رافضا بذلك التسليم القديم بوجود « قيم خالدة » تقرر مسبقا ما هو خطأ وما هو صواب ، ومؤمنا بان القيم الاخلاقية الحقيقية يجب أن تمر باستمرار بعمليات تحوير واعادة بناء من خلال التفكير الناقد وعلى ضوء التبدلات فى الوضع الاجتماعى الانساني وتعاظم المعرفة الانسانية . لقد رفض ديوى التسليم بصواب تلك

الاشياء التي يمكن البرهنة نظريا على أنها نافعةومرضية في جميع الاحتمالات المتوقعة ولجميع الاطراف المعنية . ورغم تقدير ديوى للتأكيدالذىوضعه النفعيون علىنتائج الفعل كمعيارلاخلاقيته الا انه لم يوافقهم على ربط المعايير الاخلاقيةباللـذة المستخلصة من فعل من الافعال وذلك لانه اعتبر الدوافع والشخصية والـذاتجزءا لا يتجزا من السلوك ولا يمكن اهماله . وعلى هذا الاساس رفض التسليمبوجود فضائل محددةومتفق عليها لأن هذه الفضائل غالبا ما ترتبط بالعادة والعرف السائدين في وضع أجتماعيمعين ،وهما عرضة للتبدل بتبدل ذلك الوضع . (١٨)

الطالب ــ لقد كان ديوى محللا مختبريـــاللمشاكل الاجتماعية فاضطر الى اغفال دور نظام توزيع القوة الاقتصادية فى صياغـة الاهـدافالاخلاقية للمجتمع ، وكان عليه ان يولى قوانين الحركية الاجتماعية الواقعية مكانا اكبر من اطارهالنظرى للاخلاق .

• • •

اللوحالسابع

التعليل

خارج اطار العبثية الوجودية وسقوط النظمالاجتماعية فى بلوغ الوضع الانساني الامثل ..
كيف نفسر ازمات الشباب فى المجتمع المعاصر ؟لا انتمائيته العقلانية او الدينية ؟

حاول هربرت ماركوزه فى كتابه « الانسانذو البعد الواحد » (١٩٦٤) تفسير ذلك بخواء الحياة الانسانية الداخليه الحديثة من تلــكالتجارب المنورة باطنيا للوجـــود الانساني ، تلك التجارب التي كانت تعطي انسان ما قبلالثورة الصناعية ازدهارا باطنيا من خلال الاتحاد مع الله ، او التوحد مع النظام الطبيعي للكون . فرضية ماركوزة (١٩) الاساسية فى هذا الكتاب هي « ان التقدم التقنى حين ينسحب على نظامكامل للسيطرة والتنسيق يخلق انماطا منالحياة

---

(١٨) للتوسع فى هذا التجدل الاخلاقي ، راجع كتـاب

A History of Modern Philosophy by: Wm. K. Wright, pp. 546-549, Macmillan Book Company, N.Y. 1965..

كذلك راجع كتاب « فلسفة التربية واثرها فى تفكير معلمىالمستقبل » للدكتور محمد جواد رضا ص ١٢٣ ــ ص ١٣٢، نشر جامعة الكويت ١٩٧٢ .

(١٩) ولد هربرت ماركوزه فى برلين سنة ١٨٩٨ وتلقىدراسته الجامعية فى جامعتي برلين وفرايبورغ حيث نال فى الاخيرة دكتوراه الفلسفة وكان موضوع رسالته « نظرية هيجل Hegel فى طبيعة الوجـود وعلاقتها بفلسفة التاريخ » . عندما استولى النازيون على السلطة هـرب الى سويسرا ،ومنها الى الولايات المتحدة وابستقر فى جامعة كولومبيا حيث نقل اليها بالاشتراك مع ماكس هورخايمر « معهد الابحـاثالاجتماعية » من مدينة فرانكفورت . بين ١٩٥٤ ــ ١٩٦٧ عمل فى التدريس فى جامعة برانديس ، ومنذ ١٩٦٧ وهـويدرس فى جامعة كاليفورنيا.من اهم كتبه «ايروس والحضارة» « الانسان ذو البعد الواحد » « العقل والثورة » (الماركسيةالسوفييتية) .

والسلطة التى تمتص قوى المعارضة للنظام القائم ، او تفند اى احتجاج ضده باسم التطلعات التاريخية للتحرر من الكدح والسيطرة . حتى الفكر يتم اخضاعه بحيث لا يعود مصدرا لنقد الحياة الاجتماعية » .

ان ظروف العمل فى المجتمع الصناعى الرعوى تميل الى جعل العامل سلبيا . ذلك ان انسياب الانتاج فى مصنع شبه اوتوماتيكى ودرجة المهارة العالية لدى العامل وزيادة نسبة المستخدمين كل ذلك من شأنه ان يقضى على اى شعور بمعارضة نظام العمل ، وهكذا تهيمن مؤسسات دولة الخدمات Welfare State على حياة الذين ينعمون بنعمها ومزاياها وذلك من خلال سيطرتها على مستوى معيشتهم ، لان زيادة الاستهلاك كفيلة كما يقول ماركوزه باضعاف حوافز تقرير المصير حرصا على التمسك بما هو متوفر لها من نعم الحياة الباطلة ولكن الخلابة .

الى تفسير قريب من هذا التفسير ذهب ارنولد توينبي فى تفسير ثورة الشباب وازماته بأن التقدم الصناعى تسبب فى « انعدام الذاتية الفردية وانسحاق الفرد فى آلية الحياة الميكانيكية من جهة ، وفى آلية الحياة الاجتماعية من جهة اخرى . ذلك ان الفردية التنافسية المميزة للمجتمع الراسمالى .. وتعاونية النمل او النحل الشيوعية والقومية ذات الطبقية القبلية ... كل واحدة منها تمثل الاخرى وكلها تمثل التكنولوجيا فى .. لا شخصيتها impersonality وان تنظيما اجتماعيا ذا طبيعة لا شخصية يناقض جوهر الطبيعة الانسانية ، ولهذا فهو تنظيم مقدر على الطبيعة الانسانية ان تثور ضده . وعندما يستجاب احتجاج الطبيعة الانسانية المبرر تماما سواء بشكل صورى موروث او بالصمت الخالص فان الكائن البشرى سيجد نفسه مسوقا الى استنتاج انه لا يحمل غير العنف المادى سيكون قادرا على جلب الانتباه له كانسان وسط العلاقات اللاشخصية التي يجد نفسه فيها » . (٢٠)

على أن ماركوزه H. Marcuse يضع تأكيدا خاصا على اثر النزعة الاستهلاكية الجديدة فى مطامنة السلوك العقلاني للانسان الحديث . والفرضية الاساسيه هنا هى ان تكنولوجيا المجتمعات الصناعية الراقية قد جعلت فى مستطاع هذه المجتمعات ازالة التناقضات الخارجية وذلك من خلال امتصاص جميع أولئك الذين كانوا فى ظل النظم الاجتماعية السابقة يشكلون اصواتا أو قوى رافضة ومنشقة . والتكنولوجيا تفعل ذلك جزئيا من خلال خلق الكفاية والوفرة المادية وهكذا يتحول التحرر من الحاجة المادية التي اعتبرها ماركس شرطا مسبقا للحريات الاخرى مدخلا لتوليد عبوديات جديدة ، فمن خلال تلبية احتياجات الافراد المادية تزول أسباب الانشقاق والاحتجاج وينقلبون الى ادوات سلبيه بيد النظام الاقتصادى القائم .

ولكن الا يبدو هذا تناقضا ؟ ينفي ماركوزه التناقض باشاراته الى انه عندما يتم اشباع حاجات الفرد الى السلع المادية على حساب احتياجه واحتياج الآخرين الى الحرية وغيرها

(٢٠) Toynbee . . . . op. cit., pp. 325-26.

من القيم يفقد الانسان حرية اختيار مصيره . ويطلق ماركوزه على النوع الاول اسم الاحتياجات الباطلة ، وهو يضمن حكمههذا ان الناس العاديين ليسوا هم الذين يقررون — فى المدى البعيد — حاجاتهم الحقيقية . بمعنى ان الانماط الحياتيةترسم لهم من قبل الآخرين لانهم ليسوا احرارا فى التفريق بين الباطل والحقيقي من الحاجات . وهكذا يكون للانماط الاستهلاكية فى مجتمع الوفرة تأثير مزودج طبقا لتفسير ماركوزه . فهىإذ تلبي احتياجات الانسان المادية التي قد يقوده الحرمان منها الى الاحتجاج والثورة فانها تحملهمن الناحية الاخرى على التكيف لفرائض الوضع القائم والتسليم بها . ذلك انه « اذا كان العامل ورئيسه يتمتعان بنفس البرامج التلفزيونية ويزوران نفس دور اللهو . واذا كانت الموظفةالضاربة على الآلة الطابعة تستطيع ان تتزين بنفس المستوى الذى تتزين به ابنة صاحب العمل الذىتعمل عنده . واذا كان الزنجي يستطيع امتلاك سيارة كاديلاك ، واذا كان هؤلاء جميعا يقراونفس الصحف ، اذا كان ذلك كله كذلك فانه لا يعنى بالضرورة زوال الطبقات ، بل هو يدلعلىبعد المدى الذى يذهب اليه المجردونمن اسباب الهيمنة الاجتماعية جراء ركضهم وراءالحاجاتالباطلةالتىتخدمهدفا واحداهوالحفاظعلىالوضع الاجتماعي والاقتصادى القائم . ان تكيفالمجردين من اسباب القوة الاجتماعية لقوالب الاستهلاك هذه يعزز وسائل الانتاج واسع النطاق mass production ولكنه لا يخلقه » .

لقد بنى ماركوزه نظريته فى عبودية الانسانالجديد للحاجة المادية على فرضية أبعد عمقا فى الحضارة المعاصرة ، أذ هو يرى أن هذه الحضارةقد فصلت فصلا يكاد يكون مأسويا بين العالمين الداخلى والخارجى للانسان . فى هذه الحضارةظاهرتان مركزيتان ، الأولى هى انتقالها من فترة اليقين والتوثق بصواب اخلاقياتها ابان ازدهارالعهد البورجوازى الى فترة لاحقة اساسها الارتياب والرفض . ففي فترة اليقين نشأ تمييزجلى بين العالم العقلى والروحى من جهة ، والعالم المادى من جهة اخرى . العالم العقلي والروحي يفرض على الفرد متطلبات تتجاوز تلك التى يفرضها العالم المادى . ويفترض فى الفرد فىالاطار الاول ان يطور نفسه داخليا وفق تلك المتطلبات،ومثل هذا التطوير ممكن من دون حاجةالى اجراء تغيير فى العالم المادى المحيط بالفرد .

هذا التصدع المتعالى يعتبر جزءا من طابعالثقافة البورجوازيه . وكلما ازداد التصدع تعاظمت الحاجة للتعبير عن الذات بمفاهيم العالمالداخلى . وهنا يصبح مفهوم السعادة فى صورتها الرومانتيكية مفهوم ذلك الجزء من الشخصيةالذى يكافح لتحقيق رغباته التى خلقتها الضرورة من دون تعبير ولا انجاز . اما القطاعات غيرالروحية فهى قطاعات الحياة المادية . ان الروح تنشد جمالا مثاليا وسعادة مثالية غير ممكنةالتحقيق . وعندما لايتمكن البورجوازى من شيء غير الحفاظ على نظامه الاجتماعى والاقتصادى منخلال « تسييس » هذا النظام شيئا فشيئا واخضاع الفرد لمطالب هذا النظام ، عندئذ يكونحتما مهاجمة « العالم الداخلى » للفرد ؛ ذلك العالم الذى يستطيع فيه الفرد ان يحتفظ بقدرضئيل من الحرية الخاصة المتحررة من المطالب

الخارجية للعالم البورجوازى . ولكن اذا كانت متطلبات العالم المادى الخارجى تقود بالضرورة الى الاعتــداء على العالم الداخلى ، فان القيــد الموضوع على الحرية يعنى نقضا للسعادة ، وهذه هى الظاهرة الثانية التى يفترضها ماركوزه سبباً فى ازمات الانسان المعاصر . **ان الحرية والسعادة ــ عند ماركوزه ــ ترتبطــان ببعضــهما ارتباطا شديدا ، والسعادة بوصــفها « تحقيقــا لجميع الطاقات الكامنــة فى الفــرد تفترض الحرية فى وجودها ، بل انها هى الحرية ذاتها »** . ولما كان الفلاسفة الاخلاقيون سواء منهم من عاش فى العالم القديم او فى العصر البورجوازى قد وعوا عجز الانسان امام محيطه الخارجى ، فقد رفضوا اى احتمال لقبول اية سعادة معتمــدة على ظروف المحيط الخارجى ان تكون هدف الانسان . (٢١)

لقد قادت فكرة الحرية المحدودة فى العصر البورجوازى وفى الأطر الثقافية البورجوازية الى فكرة أشد تزمتا ومحدودية عن السعادة ، ومــن هنا غــدت فكرة المتعــة فى المجتمع البورجوازى مرتبطة بحرية الفــرد المقيــدة بضرورات العمــل ومقتضيات السوق الاستهلاكية . المتعــة هنا تتقيد بفكرة الفراغ وهــذا ســبب تدنى قيمتها نسبيا ، وهذا التدنى يصدق على حرية الجنس بصورة خاصــة . فقد كتب « **سبينوزا** » يقول عن المتع الحسية « اننا نستطيع ان ننغمس فى الملذات على ان يكون ذلك الى الحد الضرورى للحفاظ على صحتنا » . وكتب « **فيشته** » فى اتجاه مماثل يقول « انه لأمر مغاير للترف والانسانية الاصيلة ان تتحول طاقة الانسان عن انجاب النسل الى وسيلة للمتعة الجسية » (٢٢) . لقد كان الجنس من جهة نظر سبينوزا وفيشته موضوعا فى خدمة حاجات المجتمع البورجوازى النامى يومئــذ . وعلى الرغم من ان الفصل بين المتعــة وانجــاب الاطفال امر واضح فان الانجاب المتزايد يقــدم للدولة البورجوازية ماتحتاج اليه من العمــال والجنود فى وقت معا . او على الاقل هذا مايذهب اليه علماء الاجتماع الاشتراكيون مثل **الاستاذ الكساندر سيزالاى** الــذى ينظــر الــى هــذه الازدواجية او الانشطارية على انها نتيجة طبيعية للازدواج فى الاســس الاقتصــادية للمجتمــع البورجوازى ، اى فى ملكية وسائل الانتاج بــين اولئك الذين يعملون ولايملكون .. واولئك الذين يملكون ولا يعملون . يقول **سيزالاى** مدللا على رأيه « ... خذ مثلا على ذلك الازدواج الخلقى للمجتمع البورجوازى الذى يسهم كثيرا فى زيادة التوترات الخطيرة ذات الثمن الباهظ وفى زيادة الحساسية الفردية والخوف وحالات المــرض العقلى . فمن السهل جدا تحت هذه الظروف ان يكون الشخص رب عائلة طيبا ، او ان يكون عدوا من اعداء تعذيب الحيوان ، ولكنه فى الوقت نفسه يستسيغ استغلال عماله بلا خجل او ان يهدم

---

(٢١) للتوسع فى نظرية ماركوزة عن انمــاط السيطرة الجديدة راجع كتابه
One dimensional Man, Sphere Books, London, 1972.
خصوصا ص ١٦ ــ ص ٢٨ .

(٢٢) Russell, B., **History of Western Philosophy**, p. 557, Unwin University Book 1969.

حياة عوائل الآخرين من منافسيه او ان يقوم بترويج الدعاية للحرب . الازدواج الخلقى هو التفسير. ان عبارات مثل .. « التجارة تجارة» . . او .. « حسنا تلك قضية سياسية » .. هذه العبارات وامثالها تكشف عن وجهة نظر مخيبة وداعية للقنوط . ان التهديم القاسي لحياة الناس ، السلوك الذى لا يرتضيه الانسان الشهم ممكن الوقوع جدا فى الدوائر التجارية وفى الحياة السياسية . الازدواج الخلقى مرة أخرى . هل هذه حقا قضية اخلاقية محض ؟ على العكس تماما ففى المجتمع الذى تنقسم فيه العملية الانتاجية بين العاملين والمالكين ، ويميز فيه بين العمل والعامل لا يستغرب ابدا ان يكون الازدواج الخلقى انعكاسا للازدواج فى الاوضاع المادية » (٢٣)

• • •

اللوح الثامن

المخرج

القول بانفصال الشباب عن العالم لا ينبغي ان يؤخذ على اطلاقه . لأن العالم الذى انفصل عنه الشباب ليس عالم الانسان نفسه وانما هو عالم القيم الباطلة التي تحدرت الى هذا الجيل تركة « ثقيلة » وميراثا قبيحا من رواسب الماضى البشرى المثقل بالظلم والاستغلال والازدواجيات الاخلاقية التي افرزتها عصور التخلف والاعتبارات الطبقية الاستغلالية التي زينها فى عيون المتقدمين على هذا الجيل الجهل والحرمان والاسر الاجتماعى . فهو اذن لم يكن انفصالا بقدر ما كان رفضا. وقد وعى هذه الحقيقة اكثر الباحثين فى ازمات هذه الاجيال الرافضة واعتبروا مسؤوليتهم الاخلاقية نحوها هى فى التعمق فى تحليل هذه الازمات وتشخيص مسببات الرفض، وعدوا ذلك وفاء منهم ببعض ما لهذه الاجيال عليهم .. ، هذه الاجيال التي استطاعت لأول مرة ــ ربما ــ فى تاريخ الانسان أن تمتلك الوعى والذكاء والشجاعة لكى تختار حياتها الخاصة وقد كان **جان بول سارتر** أول من حاول تنبيه المجتمع الانسانى المعاصر الى ما فى حركة الرفض الشابة من اخلاقيات صميمية تستحق لا الدراسة والفهم وحسب وانما هى تستحق الاحترام كذلك . ففى مقابلة صحفية اجرتها معه مجلة ال « نوفيل او بزرفاتور » فى ١٩٦٨/١١/٤ واذاعتها اذاعة اللوكسمبورج **قال سارتر معقبا على ثورة الطلبة الفرنسيين : ــ**

« .. ان العنف هو الوسيلة الوحيدة الباقية امام الطلاب الذين لم يتحولوا بعد الى شريحة من النظام الاجتماعي الذى اقامه آباؤهم للاحتجاج على هذا النظام . ففي مجتمعاتنا الغربية المترهلة صار الطلاب قوة النضال اليسارية الوحيدة . وما العنف اليسارى نفسه الا ردا على العنف الدائم الذى يمارسه المجتمع الراسمالي ضد كل أفراده . واذا ما حكمنا ــ بناء على أكثر التقارير الصحفية حيادا ــ نجد ان شرطة القمع الفرنسية تصرفت بشكل غريب من الوحشية عند محاولة احتواء ثورة الطلبة فى مايو ١٩٦٨ . ولم يكن ذلك العنف الا نموذجا لما يمكن ان تكون عليه الحرب الطبقية فى فرنسا من عنف وفظاعة ... » .

---

(٢٣) Cantril, H., Editor, **Tensions that cause wars**, p. 35, University of Illinois press, Chicago 1950.

وفي نفس الوقت تقريبا نشر **ماركوزه** دراسته عما اسماه بـ « التسامح القمعي » في المجتمعات الغربية ، وفي تلك الدراسة كشف عن اعجابه بالطابع الجمالي للحركات الطلابية التي اسماها « لغة الروح » ووجد فيها « موقفا جديدا معقولا مفترقا عن مفهوم وثقافة السوق » .

والى نتيجة مشابهة توصل الاستاذ **لويس فيور** Lewis Feuer في كتابه الموسوم « **صراع الاجيال** Conflict of Generations » عـــام ١٩٦٩ . فقد تبين للاستاذ فيور من خلال سلسلة الدراسات التي نظمها حول تمرد الطلبة « ان هناك ميلا ثابتا في سلوك الشباب الى الرغبة في تحطيم هيمنة الآباء على الابناء والتحرر منها ، وذلك من خلال الثورة على القيم الثقافية القائمة على التسليم بهذه الهيمنة اخلاقيا وفعلياً . وهم حينما يقومون بالثورة على الوضع الاجتماعي القائم ، وعندما يحاولون تحطيم قيمه ومؤسساته فكأنهم يقولون لانفسهم ... حسنا . هذه كلها من صنع آبائنا واجدادنا وهي قيودهم التي يمسكوننا بها ويفرضون ارادتهم من خلالها علينا .. ونحن لا نستطيع ان نتحداهم او نثور عليهم مباشرة ، ولا ان نفلت من قبضتهم عنوة فلا اقل من ان نحطم ما بنوه من قيم ومؤسسات ، وننسفه ما التزموا به من مثل وانماط في العيش وبهذا لن نبقى لهم شيئا يسيطرون به علينا . »(٢٤)

حتى الجامعات العريقة في تقاليد التحرر العقلي لم تجد في حركات الرفض الطلابية « نذيرا بمرحلة انهيار جامعي في العالم . وانما وجدت فيها شيئا يستحق الدرس والفهم . بمعنى آخر هي وجدت في هذه الحركات بابا من أبواب الحقيقة . الجامعة التي لا تبخل بالاموال وطاقات العلماء توفرها لدراسة الاميبا او الدودة الصغيرة ليست اكثر مسؤولية نحو دراسة الانسان وفهم مشاكله . لقد جاءت ثورة الطلاب مقترفة بفراغ الجامعة من الظفر بالاعتراف لها بحقها المطلق في طلب الحقيقة المادية مع بقاء الحقيقة الاجتماعية معلقة غير محسوسة . واذا كان للبشرية اجوبة حاسمة حول اسباب مرض السل وعلاجه مثلا فهي لا تملك مثل هذا الجواب عن قضايا الظلم والعدل ، والحرب والسلام ، الفقر والغنى ، الانتاج والتوزيع ، التمييز والمساواة . ان هذا كله جزء من الحقيقة التي التزمت الجامعة بالبحث عنها وفيها ، ولن يقلل من قيمته ان الطلاب هم الذين يثيرونه . ولن يقلل من قيمته ان الطلاب قد يخطئون الوسيلة الى اثارته . ان اخطاءهم لا تهون ولا تستطيع أن تهون من حقيقة ان الحرب على الحرب في فيتنام بدات في حرم الجامعات الامريكية ، وان الزكاة لها كان الدم المطلوب في كلية ولاية كنت Kent State College . لقد كان أول من اخترق الجدار المضروب بين الشعبين الصيني والامريكي فرق من طلبة الجامعات الامريكية من لاعبي كرة المنضدة . كما ان اقوى الاصوات المرتفعة ضد التمييز العنصري في الغرب هو صوت الطلاب سودا كانوا أم بيضا . وعلى الرغم مما اتهمت به الحركة الطلابية العالمية من طغيان النزعة اللاعقلية Anti Intellectualism عليها فان سلوك الطلاب عموما يتميز باهتمامات اخلاقية من نوع معين ، اهتمامات اخلاقية تقوم على رفض التاريخ الذي لم تجد فيه دليلا امينا

(٢٤) Feuer, L., **Conflict of Generations**, pp. 82-83, Basic Books N.Y. 1971.

الى حل المشاكل التي ترتطم بها ، بل ولعلها تعتبره مسؤولا عنها . ان الاهتمامات الاخلاقية عند الشباب الجامعي المعاصر هي من دون ادنى ريب خير مطلق . وعلى الرغم مما يراه منتقصو هذه الحركات الطلابية فان هذا الانشغال الاخلاقي بقضايا الحرب والسلام ، التمييز والمساواة ، الفقر والغنى ، الحرمان والبذخ ، الجهل والتعليم هو خير من اللا مبالاة بها التي ربما كانت البديل المحتمل لهذا الاشتغال الاخلاقي . كما ان انشغال الشباب الجامعيين بخفايا الاوضاع السياسية يفضل — يقينا — استغراقهم بالازياء والالعاب الرياضية واللذائذ الاخرى . وعلى الرغم مما تتهم به الحركة الطلابية المعاصرة من تميز بشعور عظيم بالمباشر immediacy ، المباشرة الزمانية على وجه التحديد وان اهتمامهم لا يتجاوز الحاضر المباشر ، ولذا فان التاريخ لا يحمل لهم حكمة معينة تمكنهم من رؤية الحاضر في اطار واسع من العلاقات ذات المعنى بالنسبة لهذا الحاضر ، على الرغم من هذا فان الحركة الطلابية لم تغفل العوامل التاريخية التي قادت الى قيام الحاضر المرفوض . حتى لو كانت هذه التهمة صحيحة — وهي قد تصح — فان المؤسسات التعليمية التي تولت تربية هؤلاء تحمل مسؤولية هذا التقصير ، فلو كانت قد عمقت من رؤيتهم في حركة التاريخ لما ابتلوا بهذه المباشرة في الرؤية الاجتماعية (٢٥) .

ان الاشارة الى تقصير المؤسسات التربوية في تعميق الرؤية الاجتماعية عند الشباب تقود بالضرورة الى الدور السلبي الذي لعبته هذه المؤسسات في تربية الناشئة اجتماعيا . ذلك ان المدرسة كانت في الغالب اداة بيد المهيمنين اجتماعيا يستعملونها لتثبيت الاوضاع التي تعوز مصالحهم وامتيازاتهم ، ولذا فان ثورة الطلبة تعني في بعض ما تعنيه الثورة على المؤسسة التربوية نفسها التي احسوا — حين صدمهم الواقع — وكأنها قد خدعتهم عن انفسهم وعن هذا الواقع في وقت معا . لقد اكتشف الفرنسيون مثلا ان سببا رئيسيا من اسباب هزيمتهم في الحرب العالمية كان وضع التربية الفرنسية في اهداف الطبقية الاجتماعية الفرنسية ،و« ان الهزيمة والظلم ماكانا ليحلا بالامة الفرنسية لولا ضعف الايمان واخطاء وخيانة الفئات المسيطرة في البحر والجيش .. في السياسة والاقتصاد .. وفي الصناعة والتجارة .. اولئك الذين كانت دعواهم انهم خريجو احسن معاهدنا العلمية وقمة نظامنا التربوي . اولئك الذين كان جبنهم فاضحا جدا .. » (٢٦)

واذا كان « **تقرير الجزائر** » اشار اشارة عابرة « الى دور التربية الفرنسية في الهزيمة القومية فان « تقرير لجنة لانجفان Langevin » (١٩٤٧) كان أكثر صراحة في تحميل التربية الفرنسية كفلا كبيرا من مسؤولية الهزيمة القومية لانها وضعت نفسها في خدمات الاحتياجات الثقافية للطبقة البورجوازية واهدافها وقيمها الفكرية على حساب احتياجات الاكثرية المطلقة من الشعب الفرنسي ، فانطبعت بالاحتكارية من جهة ، وبالتخلف الفكري والتقني من جهة اخرى ، حتى اذا جاءت الحرب لم تكن جماهير الشعب معبأة تعبئة كافية لمواجهة الغزو النازي . وليست التربية الفرنسية في ظروف ما قبل الحرب الكونية الثانية وما اخفاقها الا مثلا نموذجيا للتربية

---

(٢٥) من محاضرة الدكتور محمد جواد رضا بعنوان « الجامعة في مركز الاعصار » القيت في جامعة الكويت مساء ١٩٧١/١٢/٥ .

(٢٦) تقرير الجزائر ، الصادر عن « اللجنة التربوية لاصلاح التعليم » ١٩٤٤ .

عندما لا تكون فى خدمة الاكثرية الصامتة من ابناءالشعوب . من هنا جاء انفصال الشباب عن العالم ، الذى صنعته لهم وفرضته عليهم النظم الاجتماعية المحتضرة وأدواتها التربوية . ومن هنا ايضا جاء رحيلهم الى الاعماق .. اعماقهم هم .. ضمائرهم وعوالمهم الداخلية التي تنبهوا الى وجوب حمايتها من العدوان الخارجي عليهاكما صوره ماركوزه . واذا كان الانفصال عن العالم يعنى رفض نظام قيمى عقيم ، فان الرحيل الى الاعماق لم يكن هو الآخر محض هرب من قيم مرفوضة وحسب ، وانما كان جهداايجابيا موظفا فى البحث عن نظام قيمى بديل ملائم لوعى الانسان الجديد ، لنفسه وقيمته المكتشفة ، على انه رأس المال الحقيقى فى هذا الكون ، او انه هو القيمة الواقعية العليا على هذه الارض .

• • •

اللوح التاسع

التربية العربية المعاصرة وتطلعات الشباب العربى

لا تختلف تطلعات الشباب العربى فى هذه المرحلة من تاريخ الامة العربية عن تطلعات اترابهم وازماتهم فى انحاء العالم الأخرى ، اللهم الا فى اهمال ابلاء هذه التطلعات والازمات ما هي اهل له من عناية السلوكيين العرب ، وهم – اى الشباب – ما يزالون قارة عذراء لم ينزل على شواطئها مستكشف حتى الآن ، واقيانوس لم يحاول احد سبر اغواره ولا دراسة عواصفه واعاصيره الا نادرا ، (٢٧) ولذا فان احتمالات اتهامه بالمروق من العرف أو الدين او التقاليد هي اسهل ما تجابه تطلعاته به وهى اغلب ما تقابل معاناته به ايضا .من يدرى ؟ فربما كان الاحساس الطبقى لدى بعض الاكاديميين العرب ازاء الشبيبة العربية مسؤولا عن هذه الغربة الضاربة بينهم وبين من يفترض انهم يتحملون مسؤولية تربيتهم وقيادتهم الروحية والاخلاقية .

يضاعف من تعقيد هذا الموقف المعقد ان المؤسسات التربوية العربية – مدرسة كانت أم جامعة – ما تزال اداة مطواعا فى يد القوى المهيمنة فى المجتمعات العربية ، وهي فى الغالب قوى محافظة على قدر ما تكون المحافظة درعا ودريئة لامتيازاتها الاجتماعية ، وهى مهياة لقبول التقدم والتطور اذا ما اطمانت الى ان التقدم والتطور لن يضيرا تلك الامتيازات بشيء ، وهى تستعمل المؤسسة التربوية لخدمة هذا الوضع استعمالا واقعيا وذكيا ولكن من دون ان تحسب حسابا لافرازاته المستقبلية غير القابلة للتنبؤ .

لقد فرض هذا الوضع على المؤسسة التربوية العربية المعاصرة واجبا ازدواجيا على درجة عالية من التناقض والتعقيد . ففي الوقت الذى يطالب فيه المجتمع مؤسساته التربوية ان تحفظ له موارثه الثقافية وقيمه المنحدرة اليه من ماضيه والتي يعتبرها هويته الخاصة ، والاجوبة الجيدة والصحيحة على كل المشاكل التي تواجهه ، فى هذا الوقت بالذات هو يطالب

---

(٢٧) راجع كتاب (فلسفة التربية وأثرها فى تفكير معلمى المستقبل – دراسة تجريبية) جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .

هذه المؤسسات التربوية أن تيسر له سبل التقدم من مواقعه التاريخية الموروثه ، وان تعينه على قبول العصر الذى يعيش فيه ومن تقبل روحه العلمانية على وجه التخصيص . **بعبارة أخرى انه يريد من مؤسساته التربويه ان تكون ادوات محافظة وتبديل فى وقت واحد ، وهذا مالا تستطيع مؤسسه اجتماعية الوفاء به ما لم تكن مؤسسة منافقة استرضائية .**

لقد كتب هذا الدور الازدواجي على التربية العربية المعاصرة ان تسقط فى حلقة مفرغة ينظر فيها الى الطلاب على أنهم ــ مادة ــ تربوية مــن حق النظم التعليمية ان تصوغهم علــى هواهاــ وحسب اجتهادها ، ومن واجبهم ان يتكيفوا ــ للقوالب المعدة لصبهم فيها . فيما وراء المنهــج والكتاب كان الطلاب كما مهملا . لقد ضرب هذا الموقف العقلى بين الطلاب وبين نظمهم التعليمية اكثر من سد ، ودفعهم الى التماس التعبير عن أنفسهم فى الحركات الاجتماعية خارج معاهد العلم ، ولم تعد المدارس ولا الجامعات عندهم الا اماكن تلتمس فيها الشهادة . ولقد كان لهذا معنى واحد هو ان مؤسساتنا التربوية فقدت القدرة علــى القيادة الاخلاقية لروادها ... (٢٨) .

لقد حمل هذا التنازل معه المبرر الاخلاقى للشباب العربي لأخذ مهمة صناعة مستقبلية فى يديه ، والبحث عن أو الكفاح من أجل دور متميز له فى هذه المرحلة الحرجة من تاريخ امته مع كل ما يصاحب ذلك او يستتبعه من تهم المروق اوالزندقة الاجتماعية .

لقد كان من واجب الاكاديميين العرب ، والسلوكيين منهم بوجه خاص ، ان يوجهوا فكرهم وبحثهم العلمى الى دراسة هذا القدر الجديد الذى كتب على الشباب العربي ، غير ان شيئا جوهريا لم يحدث فى هذا الصدد ، وظلت ادبيات الحركة الطلابية العربية مهملة اهمالا تاما رغــم مافيها من صدق العفوية وسطوع البراءة ووضوح الالتزام الوطني والقومي . اننا نشك كثيرا ان تكون هذه الادبيات قد حظيت بشيء من القراءة الناقدة اصلا .

احب ان اقف هنا عند نماذج مختارة مــن أدبيات الحركة الطلابية العربية ، وان احــاول النفاذ من خلالها الى بعض تطلعات شبابنا ، وان أوجه عنايــة السلوكيين والاجتماعيــين وعلماء السياسة والاقتصاد العرب الى ما فيها من محتوى انساني وقومي غني من جهــة ، والى ضرورة تكريس اهتمام حقيقي بهذه الظاهرة الاجتماعية العربية الجديدة التى لن ينفعنا فى شيء ان ندير لها ظهورنا ونكتفي بالنظر اليها من عل على أنها لون من المحاولات الطلابية القاصرة ، فقد نكتشف فى وقت متاخر جدا ان القصور كان حيث كنا نظن الكمال ونفترضه .

١ ــ جاء فى نشرة معنونة ((دراســات)) صادرة عن المكتب الطلابي القومي فى بغداد ما يلي :

((ان الفكر البورجوازى الذى تسيره الدوائر الامبريالية لتحقيق مصالحها يؤكد على مفهوم العلم للعلم ويدفــع بالكثير مــن العلماء لان يعتبروا الوصول الى انجاز اختراعاتهم هدفا بحد ذاته . ان مهمة الانجاز العلمي هى هدف العالم ، اما استعمال هذا الانجاز فى أى مجال فهــو مــن

(٢٨) المرجع السابق ــ ص ١ .

اختصاصات السلطة البوجوازية وحدها . وهكذاتصبح غاية الفني والمهندس والعالم وسيلة للنظام، وبالطريقة نفسها يخدر الفكر البورجوازىضمير العالم بالتفسيرات الذاتية والشروح الفردية . فعندما تصبح الحرية الفردية لا حدودلها على شرط ان لا تصطدم بالمصالحالبورجوازية ، وعندمايسمح المجتمع البورجوازى للافراد انيتحركوا ضمن اختصاصاتهم الفردية على شرط ان يتركوا أمر استعمال انجازاتهم فى يد السلطةيحدث دائما ان يستعمل العلم وانجازاته فىكثير من الاحيان كسلاح لتهديد الانسانية ... » .

٢ ـ جاء فى كلمة « الاتحاد الوطنى العاملطلبة اليمن » التي القيت فى « الندوة الطلابية العالمية المنعقدة فى جمهورية اليمن الديموقراطيةالشعبية من ٢٣ ـ ٢٧ مارس ١٩٧٤ ما يلي :

اننا كاتحاد وطني عام لطلبة اليمن ، كحركةطلابية يمنية ديموقراطية وتقدمية نؤمن بان نضالات الطلبة من أجل ديموقراطية التعليميجبان ترتبط بنضالات اوسع الجماهير الشعبية والكادحة فى بلادهم من اجل التحولات الاجتماعيةوالاقتصادية التقدمية ، من اجل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعى لتحقيق غد الاشتراكيةالخالىمن استغلال الانسان لاخيه الانسان . وما لم ترتبط نضالات الطلاب من اجل تعليم ديموقراطيبنضالات اوسع الجماهير الشعبية الكادحة من اجل صنع غدها الانساني المتطور والمزدهر فانالفشل الذريع سيكون حليفها دوما وابدا ، وستصطدم فى النهاية بصخرة الواقع التي لا ترحم.. ولن تستطيع الاحلام والاماني ان تتجاوز تعقيدات الواقع وتكييفها ... » .

٣ ـ جاء في التقرير العام الذى قدمه« الاتحاد الوطني العام لطلبه اليمن » عن الاوضاع التربوية فى اليمن فى الندوة المذكورة ما يلي :

« تحتل المناهج اهمية خاصة فائقة فىالعملية التعليمية . فمن خلالها يتحدد محتوى التعليم العام . ان التطور التعليمي فى اى بلدكان لا يقاس بتوسعة الكمى فحسب ، ذلك ان الهدف ليس عدد من يتخرجون من مؤسساتالتغليم وانما المسألة المركزية هي نوعية هؤلاء . لقد عانت بلادنا من المناهج الدراسية الاستعماريةالتي كانت تهدف الى خلق جيل يمنى مغترب عن وطنه . لذا فقد احتلت مسالة تغيير المناهجالدراسية اهتمام الثورة فى بلادنا منذ الايامالاولى لاستلام السلطة . وكانت أولى المحاولات لتغييرهاهى استبدال المناهج القديمة الاستعمارية بالمناهج المصرية والعراقية وبعض مناهج الدولالعربية الوطنية الاخرى . كما بذلت محاولات فى ١٩٦٩ من وزارة التربية والتعليم لايجاد منهجوطني . الا ان تلك المحاولة لم تكن لتخرج عن اطار الباس اثواب يمنية على مناهج الدولالعربيةالشقيقة » .

بعد ذلك يحاول الاتحاد ان يطرح تصورهمن المساقالذى يجب ان تسير فيه التربية اليمنية الديموقراطيةالشعبيةفيرسم لها الاهدافالتالية :

١ ـ ان تحقق المناهج ربطا بين العلومالانسانية والطبيعية وافكار الطبقة العاملة ، اى استخدام المنهج الجدلى فىتفسير الظواهرالطبيعيةوالاجتماعية .

٢ ــ ان تحقق المناهج بناء جيل يمنى متزودبمعارف عن تطور وطنه وشمولية تاريخه ، فعلى المناهج الجديدة ان تركز على ما يتعلق بالوطناليمني سواء فى تاريخه أو جفرافيته او ثرواته الطبيعية ، وكذا علاقة تلك بالدول المختلفــة فىالعالم .

٣ ــ على ان يرتكز محتوى المناهج عندمعالجتها للدراسات اليمنيـــة على الجـوانب التقدمية . ففي التاريخ مثلا ينبغي التأكيد علىدور الشعب فى صنع التاريـخ مفايرة لمناهجنا القديمة المرتكزة على اساس دور الافراد فىصنعالتاريخ . وفى دراسة الجفرافيا ينبغى التركيز على قدرة الشعب بفضل نظامــه التقدمي علىاستفلال الثروات الوطنيــة . وفى جانب الأدب اليمنى ينبغي التركيز على الجانب التقدمي فىتطور الادب اليمني .

٤ ــ تحقيقا لمبدأ ربط المدرسة بالمجتمعوالنظرية بالتطبيق فان المناهج الجديدة ستحوى منهاجا للبوليتيكنيك .. » .

هذه نماذج قليلة من أدبيات الحركةالطلابيةالعربية الشابة . وهى ولا ريب تنضج بالمثالية والقطعية والنهائية فى الاحكام مما قد لا يتفق حتىمع المنطق الجدلى فى تفسير حركة التاريخ . وهى قد تكون بصورة من الصور ممثلة لمجمل هذهالحركة . وليس هناك من يدعو الى تقبل مقولاتها تقبلا عفويا ولا الى شرائها من باعتها المتحمسين .فى تقديرنا ان هذا ربما اضر بالحركة اصلا . ولكن الشيء الخطير هو ان تترك هذه الحركة من دونحفول بها ، ومن دون دراستها دراسة منهجية ، ومن دون تحليل متواصل لتطلعاتها ومقولاتها .وهناك خطر أكبر فى أشعارها بانها لا تعنى شيئا للحلقات الاكاديمية العربية ، وأيسر ما سينجمعن هذا الاغفال او التغافل هو جهل الحركــة والاغتراب عن مفاهيمها الاســاسية . **ومن هناتاتى القيمــة التى لا تحتمل المبالغـة لتكريس اهتمام فعلى بافرازات هذه الحركة فكريا وسلوكياوجرها الى دائرة الجذب الأكاديميةالملتزمة بمنطق البحث العلمى وتقويمها تقــويما موضــوعيا** .فلقد يتاح لنا آنئذ ان ندعى أننا قد وفينا لورثتنا فى الغد القريب او البعيد بعض ما كان لهم فىذممنا من دين ، واننا استطعنا ان نزيد منوضوح الرؤية امامهم ، وان نقلل من احتمالات سقوطهمفى الاجتهادات البتراء .

* * *

مراجع البحث

اولا ـ فى اللغة العربية

١ ـ محمد جواد رضا ـ فلسفة التربية واثرها فى تفكير معلمي المستقبل ، جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .

٢ ـ محمد جواد رضا ـ الجامعة فى مركز الاعصار ،محاضرة القيت في جامعة الكويت بتاريخ ١٩٧١/١٢/٥ .

٣ ـ اللجنة التربوية الفرنسية لاصلاح التعليم ـتقرير الجزائر ـ ١٩٤٤ .

ثانيا ـ فى اللغة الانجليزية

1. Arnold, W., **Counselling Activities in Modern Society**, Proceedings, IRT Conferenec, Würsburg, 1976.

2. Beckett, S., **Murphy**, 1938.

3. Cantril, H., **Tensions that Cause Wars**, University of Illinois Press, Chicago, 1950.

4. Davy, B. W., **The Source and Prevention of Mental Ill Health in University Students.** Proceedings of the Royal Society of Medicine, England, April 22, 1960.

5. Ducasse, C. J., Art, **The Critics and you,** Oscar Priest, New York, 1944.

6. English Pearson, **Emotional Problems of Living,** Norton Company, 1960.

7. Feuer, L., **Conflict of Generations**, Basic Books, New York, 1971.

8. Fraser, M., **Children in Conflict**, Penguin Books, London, 1974.

9. Malleson, N. B., A **Handbook of British Student Health Services**, London, Pitman, 1966.

10. Marcuse, H., **One Dimensional Man,** Sphere Books, London, 1972.

11. Miller & Miller, **Student Problems, Remedies and Satisfactions**, British Psychiatry, September 1973.

12. Parker, D. H., **Human Values,** Harper & Brothers, New York, 1944.

13. Perry, R. B., **General Theory of Value**, Longman's Green and Company, New York, 1926.

14. Ryle, A., **Student Casualties**, Pelican Books, 1970, London.

15. Rusell, B., **History of Western Philosophy,** Unwin University Press, 1969.

16. Sinclair, F., **Belfast Telegraph.** Sept. 16, 1971.

17. Toynbee A., **Experiences**, Oxford University Press, 1969.

18. Wright, Wm. K., **History of Modern Philosophy**, Macmillan Book Company, New York, 1965.

عبد الرحمن عيسوي *

النمو الروحي والخلقي والتنشئة الاجتماعية في مرحلتي الطفولة والمراهقة

فى بحثنا فى النمو الروحى وعملية التنشئةالاجتماعية فى مرحلة الطفولة ينبغى ان نؤكد ان الدين لا تقتصر آثاره ووظائفه على مرحلة واحدةمن مراحل العمر ، وانما يشمل اثره كافة مراحل النمو الانسانى ، وان كان هذا التاثير يختلف منمرحلة الى اخرى .

وعلى الرغم من ان القيم الدينية والسلوكالدينى يؤثران بصورة أو بأخرى فى كل جـوانب حياة الفرد الا ان تاثيرهما اكبر فى حياة الفـردالانفعالية The Individual's Emotional Life وللدين اهمية كبرى فى مرحلتى الطفولة والمراهقةحيث يمر الطفل بمرحلة تكوين الشخصيةوصقلها وحيث تلعب العوامل الانفعـالية دورا هـاما فىحياته .

(*) استاذ علم النفس المساعد بجامعة الاسكنـدريةوجامعة بيروت العربية .

والمعروف ان مرحلة المراهقة ، كما يزعم بعض علماء النفس ، مرحلة شك ونبذ rejection للقيم والمعايير الدينية التى سبق ان تلقاها الطفل عن الكبار ، وقبلها عن طيب خاطر .

وعندما يصل الطفل الى درجة من النضج العقلى تسمح له باعادة النظر فى هذه القيم والمعايير فانه يتناولها بالنقد والفحص والتمحيص ، وتنتهى عملية النقد هذه اما بقبول هذه القيم او رفضها أو تعديلها .

ومن الاهمية بمكان ان تجرى الدراسات والبحوث التى تكشف عن الآثار التى يتركها قبول الدين او نبذه على صحة الطفل النفسية وثباته الانفعالى ، بعبارة أخرى هل يضيف الدين الى التكيف او الى سوء التكيف النفسى ، هل يسهم الدين فى تحقيق الصحة النفسية والثبات الانفعالى ام يؤدى الى مزيد من الشعور بالذنب والى تنمية ضمير حاد وخاز يؤنب صاحبه ويلومه على كل كبيرة وصغيرة ؟

تفسير ظاهرة التدين فى الطفولة والمراهقة

وفى تفسيرنا لظاهرة التدين نستعرض آراء كل من **ف . مرى و ر . مرى** F. Merry and R. Merry حيث يفترضان ان ظاهرة التدين ظاهرة غريزية بمعنى وجود غريزة دينية لدى الفرد (*) a religious instinct . **فتبعا لهذه النظرية يعتبر الطفل طبيعيا متدينا ، واذا اعطى الفرص المناسبة فانه يكون المفاهيم الدينية الملائمة ذات المعنى والدلالة** . ويعتقدان أن الطفل منذ سن مبكرة يعي بطريقة غريزية وجود قوة عليا يلجأ اليها للحماية ، ولديه تجاهها اتجاه غريزى فطرى نحو الاحترام والعبادة (١) .

ويتعارض هذا الراى مع راى آخر يزعم ان الطفل شرير بطبعه او بالفطرة ، لانه ورث الخطيئة الاصلية التى ارتكبها آدم فى جنة عدن . ولذا كان لابد من ان نستخدم اكثر الاساليب صرامة فى تأديب الطفل وقمع هذه الطبيعة الشريرة وجذبه الى حظيرة الدين والصواب . ولكن كثيرا من علماء الدين المحدثين يرفضون الزعم بأن طبيعة الطفل طبيعة شريرة بالوراثة ويعتقدون ان الاطفال يولدون وهم لا طيبون ولا اشرار ، ولكن يولدون باستعدادات أو امكانيات عامة هي التى يوجهها المجتمع فيما بعد اما الى القنوات الصالحة أو الشريرة .

ويؤيد **سكنر** C. Skinner هذا الرأى بالقول بأن الكائن البشرى يولد بحالة حيادية حيال الدين . فالرضيع مثلا ليس متدينا ولا هو ضد الدين بل انه يمتلك الاستعدادات Potentialities للتكيف ، والتى تجعل النمو ممكنا نحو التدين أو نحو معارضة الدين .

(*) لم يعد يستخدم اصطلاح الغريزة فى علم النفس واصبحت هناك اصطلاحات اخرى كالدافع والباعث والحافز وكلها تجريدات لفظية عقلية للدلالة على بعض انماط السلوك علما بان السلوك وحده هو الذى نلاحظه .

(١) Merry, F. and Merry, R., The First two decades of life, Harpers and Brothers, N.Y. 1950. P. 482.

متى يبدأ الشعور الديني لدى الطفل ؟

واذا ما تساءلنا عن السن التى يبدأ فيهاالطفل فى الشعور بالخبرة الدينية فاننا لا نجد(٢) اتفاقا كاملا بين الباحثين حول هذه السن، فمنهممن يرى بعض المظاهر الدينية فى سلوك الأطفال الصغار ، ومنهم من يرى ان الطفل لا يقوى علىادراك المفاهيم الدينية الا بعد الوصول الى مرحلة متقدمة من النضج العقلى .

فطبقا لرأى **الج** F. Ilg يستطيع الطفلالتمييز بين الصواب والخطأ ، وبين الردىء والحسن فى سن السابعة ، أما فيما قبل سنالرابعة فهو غير قادر على فهم الآراء الدينية ، وعندما يبلغ الطفل سن الأربع سنوات يبدأ فىتوجيه مثل هذه الاسئلة ذات الطابع الدينى والفلسفى :

١ ــ من الذى صنعك ؟

٢ ــ من الذى صنع هذه الاشجار ؟

٣ ــ من هو الله ؟

٤ ــ ما الذى يشبهه ؟

٥ ــ هل الله رجل طيب ظريف ؟

٦ ــ هل هو يحب الحلوى ؟

٧ ــ هل يشبه الله ابى ؟

٨ ــ اين يقيم الله ؟

٩ ــ وهل يرانا الآن ؟

١٠ ــ هل يرتدى جلبابا فضفاضا ؟

ولذلك فلا عجب ان نجد طفلة صغيرة (سناربع سنوات) كانت تسير فى يوم مطير وكانت تمشى مع أمها فنظرت الى أعلى السماء وقالت :(شكرا لك يا الهى لجعل الطريق جافا فى بعض الاماكن انك ترى اننى ارتدى حذائى الجديد)(٣)

وخلافالهذاالراىيذهب **فالنتين** Valentine الى القول أن الطفل لايستطيع أن يدرك معانى المصطلحات The abstract terms كمعنى الشفقة والله والعدالة والاحسان ... الخ ،قبل سن الثالثة او الرابعة عشرة . (٤)

---

(٢) Skinner, C., Child Psychology, the Macmillan Co. N.Y. 1949, P. 276.

(٣) Ilg, F., **Child Behaviour**, Hamish Hamilton, London, 1955, P. 292-303.

(٤) Valentine, C., **The Normal child and some of his abnormalities**, A Pelican Book, 1962 P. 271—275.

ومهما يكن فان الاطفال ولاشك لديهم بعض الافكار الدينية التى توصف بأنها أفكار مشخصة ومجسدة وشخصية وحسية .

ومنذ وقت مبكر (١٨٨٠) طلب ستانلى هول G. Stanelly Hall من مجموعة من الاطفال الصغار أن يصفوا تصوراتهم عن الله ،وفيما يلى بعضا من استجابتهم ؟

(الله رجل كبير ربما لونه أزرق يرى غالباجدا فى السماء أو فى السحب أو فى الكنيسة بل حتى فى الشارع . انه يصبع اللمبات والاطفال والكلاب والاشجار والنقود .. الخ ، ويعمل الملائكة لحسابه ... الخ .

وعندما يموت الناس انهم فقط يذهبون أو يوضعون فى جحر او فى صندوق أو فى عربة نقل سوداء ، ويذهبون الى الجنة أو يصعدون الى السماء او يغرقون أو يعلقون فى السماء حيث يمسك الله بهم ... وعندما يذهب الاطفال الى الجنة تقدم لهم الحلوى والبنادق واللعب وكل ما يوجد فى محلات لعب الاطفال ، والكتب المصورة واوراق اللعب ، وتقدم لهم الملابس الأنيقة والساعات الذهبية والمثلجات ، ولا توجد هناك مدارس ويلعبون البلى والورق) .

وفى دراسة اخرى على مجموعة من اطفال المدرسة الابتدائية اظهروا خلطا بين مفهوم الله ومفهوم « السيد المسيح » وعبروا عن مفاهيم وصفات مشخصة عن الذات الالهية ، وغيرها من المفاهيم الدينية ، فهم يصفون الجنة بأنها تشبه الدخان او الماء أو الهواء، ويعتبرون السيد المسيح كحامى حمى الناس، فهو يأخذك الى الجنة اذا كنت طيبا ، ويشفيك اذا كنت مريضا . ويدرك طفل فى سن ٦ سنوات وظيفة الله بالقول بأن « الله شخص ما فى السماء او فى الجنة يعتنى بكل شىء ويرعاه ويعالج كل شىء حتى لا يعترى الناس اى مشاعر رديئة أو تسود بينهم » ، ولكن اطفال هذا السن يعانون من خلط ازاء فكرة (ان الله خلق كل شىء من لا شىء) ويرجع سوء الفهم هذا الى نزعة الاطفال لارجاع كل الافكار المعنوية الى معان مشخصة مجسمة تقع فى اطار خبراتهم .

ولقد عبر عدد كبير من الاطفال الصغار (٤٦٤٠ طفلا) من أطفال الصف الرابع الابتدائى فى المجتمع الامريكى عن فكرة يوم الحساب The Judgment Day حيث وافقت نسبة ٣١٪ من مجموعهم على القضية الآتية :

يحتفظ الله بسجل كبير يسجل فيه افعالنا السيئة .

بينما أقر ٤٣ ٪ منهم انه تعالى لا يفعل ذلك و ٢١ ٪ كانوا فى حالة شك وتردد ، بينما وافق نحو ٥٠ ٪ منهم « بأننا اذا صلينا بجدية كافية من أجل سطوع الشمس أو هطول الامطار فان الله سوف يغير الطقس من أجلنا » (٥)

• • •

(٥) Sully, J. Studies of childhood, Longmans — Green and Co. 1896, p. 279.

خصائص الفكر والشعور الدينى فى الطفولةوالمراهقة

يعبر الاطفال فى الغالب عن خيال حر وغير تقليدىفى افكارهم عن الدين. ولقد حلل هارمس Harms سنة ١٩٤٤ بضعةآلاف من رسوم الاطفالالصغار من (٣ ــ ٦ سنوات) التى تمثل افكارهم عن الله ، ووجد أن معظم الصور المرسومة تعبرعن الله كنوع من شخصية الاساطير ، يرتدى الملابس الفضفاضة (٦) ولقد افترض هارمسثلاثةمراحل للنمو الدينى فى الطفولة هى :

١ ــ مرحلة الصورة الاسطورية The Fairy Tail tage حيثتسود الافكار والمعتقدات الخيالية او الوهمية .

٢ ــ المرحلة الواقعية realistic stage وفيها يرفض الاطفال خيالاتهم السابقة ، ويعتنقون التأويلات القائمة على اساس الظواهرالطبيعية .

٣ ــ المرحلة الفردية The individualistic stage وفيها يبدأ الطفل فى اختيار العناصر التى ترضى حاجاته وبواعثه من الدين ،أى ينتقى العناصر الدينية التى تشبع حاجاته الفردية . (٧)

وعلى الرغم من اختلاف تصورات او مفاهيمالأطفال عن الله وعن النار وعن الجنة ، وما اشبه ذلك عن المفاهيم الثيولوجية التقليدية ، الا انذلكلا يعنى ان الاطفال لايشعرون بالرهبة والتقديس والاحترام نحو الذات الالهية ، وان كان كثير منهذه الآثار يتوقف على الطريقة التى يتعلم بها الأطفال المبادىء الدينية .

يقول مرى ومرى « وهناك ادلة كثيرة علىان التعاليم الدينية المبكرة من قبل المنزلوالكنيسة هي العامل الاساسى فى تحديد الاتجاهات الدينيةاللاحقة . ان المنهج المستخدم فى تقديم المفاهيم الدينية للاطفال له اهمية عظيمة » . (٨)

ولا شك أن مفاهيم الطفل عن الدين تختلفاختلافا كبيرا عن افكار الكبار وعن خبراتهم ومشاعرهم ، ولذلك فالجوانب الدينية فى حياةالطفل اقل خضوعا لفهمنا عن جوانب شخصيته الاخرى ، فالنضج العقلى Mental maturity يساعد الطفل على ان يستبدل مفاهيم الطفولة الساذجة والمشخصة بمفاهيم اكثر عمومية واكثرتجريدا ، فكلما تقدم الطفل فى السن اصبحت علاقته بالله اكثر شمولا واقل تشخيصا ،وتصبحاتجاهات الطفل الدينية اقل تمركزا حول ذاته self-centered واقل انانية ، ويصبح اقلاهتماما بالحياة الاخرى . ومعنى هذا أن الدين لا يصبح له دور فعال فى حياة الطفل الا اذا تناولتصورات ومفاهيم تدورحول حياة الطفلالدنيوية

---

(٦) Argyle, N., (cited in) the religious behaviour, Routledge and Kegan Paul, London, 1958.

(٧) Cole, L. and Hall, I., **Psychology of Adolescene,** Holt, Rinchart and Winston, N.Y. 1960

(٨) Merry F. and Merry, R., op. cit. P. 490.

المباشرة ولم يقتصر على الحياة الأخرى ، واذا ماتساءلنا عما يحدث فى فكر الطفل الدينى عندما يصل الى مرحلة المراهقة لوجدنا أن هناك عملية انتقال أو تحول من تلك الاستجابات التى تثيرها الضرورة الخارجية الى تلك الاستجابات التى تثيرها الضرورة الداخلية، اى من الدوافع الأنانية الى الدوافع غير الأنانية ، ولكن هذا لا يعنى ان نستنتج ان الشعور الشخصى بالواجب وبالمسئولية والاحساس بالمثل العليا والسلوك الغيرى ليست معروفة قبل هذه السن ، وانها تظهر فجأة عند البلوغ Puberty ، وهناك كثير من الأدلة التجريبية التى تؤكد حدوث النمو التدريجى وليس النمو أو الانتقال الفجائى من مرحلة الى أخرى .

وتبدو القدرة على التجريد بتقدم الطفل فى السن ، **ولقد وجدت نسبة مئوية كبيرة من** الاطفال الصغار الذين وافقوا على القضية الآتية « ان الله عبارة عن شخص ما يراقبك ليرى انك تتصرف تصرفا حسنا وهو الذى يعاقبك اذا لم تكن طيبا » . **بينما كانت هناك نسبة اكبر من** الاطفال المتقدمين فى السن (١٨ سنة) الذين ابدوا موافقاتهم للقضية الآتية : « ان الله قوة غريبة تعمل من أجل الخير اكثر من كونه شخصا » .

وبالتقدم فى السن تبدو نزعة التسامح نحو أرباب الديانات الاخرى لدى المراهقين . (٩)

ولقد وجد أن الاطفال الكبار فى السن أكثر استعدادا للموافقة على القضايا مثل : « ان الكاثوليك واليهود والبروتستانت متساوون فى الطيبة ، أو ليس من الضرورى ان تذهب الى الكنيسة لتكون مسيحيا ، والمراهقون المتقدمون فى السن (١٨ سنة) كانوا أقل اصرارا على أن « الناس الطيبون يؤدون الصلاة بانتظام » .

وفى احدى الدراسات التى تناولت عينة من الشباب من (١٦ الى ٢٤ سنة) تبين أن ارتياد الكنيسة تنخفض بالتقدم فى السن .

اما فكرة الطفل عن الدين فانها فكرة محسوسة ملموسة وينطبق هذا على صورة الملائكة والشياطين ، اما العبادات كالصلاة فانها وسيلة الطفل الصغير فى الحصول على مطالبه . ولكن بتقدم الطفل فى العمر يدرك أن دعواته لا تجاب كلها ، فلابد أن يؤمن بقيمة العمل حتى تجاب مطالبه .

أما المفاهيم الدينية فان الطفل الصغير لا يفهم معناها لأن قدرته العقلية لا تقوى على ادراك المعنويات المجردة كالخير والشر والصلاح والتقوى ، ولكنه يدرك فقط الأمور الحسية الملموسة التى يستطيع أن يشاهدها ، وأن يحس بوجودها . وعندما يصل الطفل الى مرحلة الطفولة المتأخرة يستطيع أن يناقش الأمور الدينية . ويأخذ الطفل فى الاتيان ببعض الأسئلة التى تدور حول الخلق والموت والحياة والبعث وأصل العالم .. وهكذا . وفى أول الأمر يقبل ما يلقى عليه من اجابات ثم بتقدمه فى العمر يعيد النظر فيه .

---

(٩) Kahlen, R., **The Psychology of Adoles cence**, Harpers and Brothers, N.T. 1952, P. 439

وفي بداية مرحلة المراهقة يميل المراهق الى الشك فى القيم الدينية التى تعلمها فى مرحلة الطفولة، ويعجز عن فهم المعانى الدينية والفلسفية العميقة ، ويظل يشك فى هذه القيم حتى أواخر مرحلة المراهقة . وعندما يبلغ المراهق حوالى سن السادسة عشرة فانه يتحول نحو الدين مرة أخرى ، ولذلك تعرف هذه الفترة بفترة اليقظة الدينية .

تدل مناقشات المراهق وجدله العنيف على وجود اليقظة الدينية ، حيث يميل الى مناقشة امور مثل الثواب والعقاب ، أو الجنة والنار والبعث والخلود والقضاء والقدر والجبر والاختيار . وقد تزداد وطأة الشك الدينى عندما يموت احد آباء أو أصدقاء المراهق المقربين . وعندما يقترب الفرد من مرحلة الرشد يتحول من الشك الى اليقين ، فيفكر تفكيرا هادئا فى الأمور الدينية ؛ ويظهر عندئذ الشعور بالتسامح نحو أصحاب الديانات الأخرى (١٠)

وبالرغم من أن كثيرا من علماء النفس يزعمون ان فترة المراهقة تمر بحالة ارتباك خلقى وتظرف سياسى ، وتغير فى القيم ، وقبول القيم الدينية أو رفضها ، ولكن هذا لا يحدث الا بالنسبة لقلة بسيطة من المراهقين ، أما الأغلبية الساحقة فانها تظل محتفظة بالاتجاهات الدينية التى يعتنقها الوالدان ، ويعتنقون مبادىء تشبه مبادىء الوالدين فى الفلسفات السياسية والأخلاق والجنس وما أشبه ذلك .

ففى احدى الدراسات وجد أن : ٨٤ ٪ من المراهقين أعضاء فى الكنيسة ، وأن ٥٠٪ يرتادون الكنيسة بانتظام . وأن ١٠ ٪ لم يذهبوا للكنيسة . وأن ٧٥ ٪ يعتقدون اعتقادا راسخا فى وجود الله . (١١)

وبتقدم الطفل فى العمر ينمو عنده الشعور بالتسامح الدينى ، وبالحرية الدينية religious liberalization ويحدث التحرر الدينى فيما بين سن ١٢ و ١٥ سنة وعلى ذلك تزداد نسبة عدد المراهقين فى هذه السن الذين يوافقون على عبارات مثل :

(١) ليس من الضرورى أن تذهب للكنيسة لكي تبقى مسيحيا .

(٢) الكاثوليك والبروتستانت واليهود كلهم متساوون فى الطيبة . بينما تقل نسبة الموافقة على عبارات مثل :

١ – كل لفظة فى الانجيل صادقة .

٢ – الله يراقبنا ويعاقب فاعل الشر .

• • •

---

(١٠) د. فؤاد البهي السيد ، الاسس النفسية للنمو من الطفولة الى الشيخوخة دار الفكر العربى سنة ١٩٦٨ .

(١١) Mussen, P.H., The psychological development of the child, Prentice-Hall, U.S.A. 1963.

أثر الخبرة الدينية فى عمليـة التطبع الاجتماعى او التنشئة الاجتماعية :

هناك عوامل متعـددة تلعب دورا هاما فىعملية التطبع الاجتماعى او التنشئة الاجتماعية Socialization * من ذلك جـماعة الانداداو الزملاء والاسرة والمدرسة والراديو والتلفزيون والصـحف والمجـلات والاندية والمعســكرات والمؤسسات الدينية وثقافة المجتمع ككل .

منذ اهتمام **استانلى هول وتلميذه دانيليز** Daniels (١٨٩٣) **واستاربوك** Starbuck (١٨٩٩) الذين كانوا يعتقدون أن التحول الدينى جزء هام من خبرة المراهق منذ ذلك التـاريخ ، اهتم علماء النفس بأثر الدين على النمو . حقيقة لا نعرف الا القليل عن التأثير المباشر للدين عـلى السلوك لأن وضع محكات تعتبر مسألة صعبة . فكيف يمكن فصل الشخص المتدين عن غير المتدين لتحديد أنهما يختلفان فى السلوك والقيم ؟

من بين المعايير المستخدمة عبارات الفـردنفسه ، هل يزعم هو انتمائه الدينى أو عـدم انتمائه ؟

ولقد أسفرت الدراسات التى تناولت مئات الجانحين انهم يقررون فى المقابلات وعلى الاختبارات النفسية أن لديهم بعض الارتباطات الدينية ، ولكن استخدام مزيد من الأسئلة يوضح ان معظم هؤلاء الجانحين لايدخلون الكنيسة ولو مرة واحدة فى السنة . وهكذا فان انتمائهم الدينى Their religious affiliation هو « انتماء لفظى وليس سلوكيا » ، وعلى ذلك فيلزم محك آخر غير محك الانتماء . بل أن ارتياد الكنيسة Church attendence كما استعمل فى كثير من الدراسات لا يصلح كمؤشر حقيقى لتدين الفرد الاصيل ، **فهناك بعض الأشخاص الذين يرتادون الكنيسة** لأسباب غير دينية كالذهاب نتيجة لضغوط الآباء او لمجرد العادة ، او حبا فى الظهور او الطموح الاجتماعى ، أو للشعور بالسمو او للتمتع بالصحبة الاجتماعية ، أو لمجرد قضاء وقت الفـراغ أو التخلص من الشعور بالوحدة والعزلة . وهنـاك دراسات استخدمت اختبارات لقياس المعـرفة الدينية كما فعل **ماالديول** ، ولكن حتى هذا المنهج لا يكشف عن الاعتقاد الدينى الحقيقى ، وعـلى ذلك فان النتائج التى نحصل عليها من هـــذه الابحاث يجب ان تؤخذ بكثير من التحفظ ، فمعظم المعطيات تعطى معـلومات عن بعـض الجـوانب « الصورية » من الدين أو الرسمية ومن السلوك كالعلاقة بين ارتياد الكنيسة والسلوك ، ولا تعطى صورة عن الرابطة بين الانغماس العميق فى الدين وفى السلوك . اننا نتوقع أن الخبرة الدينية تؤدى الى تغيير كل الاتجاهات الاجتـماعية العريضـة كالاعتقاد فى الاخاء بين بنى الانسان ، وتغير السلوك النوعى المحدد كما يقاس على الاختبـار للغش مثلا . (١٢)

(*) تشير هـذه العملية الى امتصاص الطفل لقيم المجتمع ومعاييره واكتساب انماط السلوك المقبولة .

(١٢) Ibid, P. 488.

اليقظة الدينية فى مرحلة المراهقة :

ومن الظواهر الدينية البارزة فى مرحلة المراهقة ظاهرة التحول الدينى The religious conversion **ولقد افترض استاربوك** Starbuck **منذ وقت مبكر (١٨٩٩) أن هناك** علاقة وثيقة بين بداية المراهقة وبين التحول الدينى (١٣) ولكن الدراسات الحديثة لا تؤيد وجود يقظة دينية فجائية فى المراهقة، وتؤكد مثل هذه الدراسات ان نمو الافكار الدينية عملية تدريجية مستمرة تحدث بدون طفرة تصاحب سن البلوغ ، أو تدفق او انفجار فجائى يصاحب **مرحلة البلوغ . ويتأثر الاتجاه الدينى فى المراهقة** بما تلقاه الطفل فى المراحل السابقة من تعاليم **دينية ، فكلما كانت هذه التعاليم أكثر ضيقا أو** اكثر رسمية او صورية كان المراهق اكثر ميلا للابتعاد عن حظيرة الدين .

وليس هناك أدلة لتأييد الفرض القائل بأن التغييرات البيولوجية فى البلوغ تؤدى الى حدوث ازمة انفعالية تؤدى بدورها الى اليقظة الدينية religious awakening .

وتكشف الدراسات المبكرة التى اجريت فى حوالى سنة ١٩٠٠م كدراسة استاربوك أن التحول الدينى يحدث فى السن ما بين خمسة عشر وعشرين عاما ، الا ان الدراسات المتأخرة نسبيا (١٤) كدراسة **كلارك** E.T. Clark سنة ١٩٢٨م حول سيكولوجية اليقظة الدينية أوضحت ان متوسط سن حدوث هذه اليقظة هو ١٢ سنة، وهي سن مبكرة قليلا عن بداية البلوغ ، والاكثر احتمالا ان حدوث اى تكثيف intensification فى الميول الدينية أو الخبرة الدينية يرجع الى النضج العقلى intellectual maturation أكثر من البلوغ فى حد ذاته . فلقد وجد **هولنجوورث** L.S. Hollingworth سنة ١٩٣٣ ان تكثيف الميول الدينية يحدث فى الاطفال الموهوبين عقليا فى سن الثمانى سنوات لأولئك الذين يصل عمرهم العقلى الى اثنى عشر عاما .

ان استعراض التراث السيكولوجى يعكس وجهات نظر متباينة حيال مسألة زيادة او نقص الشعور الدينى فى مرحلة المراهقة ، فتبعا لوجهة نظر **جارسون** K. Garrison يؤدى نمو دائرة معرفة المراهق ، ونمو عادات افضل فى التفكير الى تساؤل المراهق وتشككه فى كثير من الاشياء أو الافكار التى قبلها سابقا دون نقد أو تمحيص.

ان شك المراهق يثار عن طريق بعض المبادىء والمعلومات العلمية ، وعن طريق رغبته (١٥) فى اكتشاف نفسه بنفسه ومحاولته ربط العالم مع خطة الحياة العامة وذلك بتفكيره الخاص . ويؤيد **جيرسيلد هذه الفكرة بالقول بأن الاطفال** يصبحون قادرين على التفكير فى الافكار المجردة عندما يصلون الى المراهقة . انهم يكتسبون فهما اكثر عمقا عن معنى دينهم ، وسوف تزداد قدرة المراهق

---

(١٣) Carmichael, L., Manual of child psychology, J. Wiley, N.Y. 1954, P. 699.

(١٤) Ausubel, D. Theory and Problems of adolescent development Grune and Stratton, N.Y., 1954, P. 270.

(١٥) Garrison, K., Psychology of adolescene, Prentice-Hall, 1955 P. 162.

على اختيار وفحص معانى الافكار والعقائدوالمبادىء والقيم التى سبق له أن قبلها عن طيب خاطر بلا نقد أو تمحيص ، قبلها من الآباء اوالكبار او المعلمين .

وخلافا لهذا الرأى يقول **كول** Cole (سنة١٩٦٤) ان الطفل يبدأ فى التشكك فى كل مظاهر السلطة ورموزها authority figures عند بلوغه مرحلة المراهقة وربما يبتعد عن دور العبادة ، ويثور على سلطات الأسرة والمدرسة ،وان كان هناك عدد كبير من المراهقين مايزال يعتبر الدين مصدرا ممكنا للرضا والاثارة النفسية**والانفعالية والعقلية** ❋ ، **ففى نظره يأخذ كثير من الاطفال بعد** سن الخامسة عشرة فى التفكير النقدى فى المسائل الدينية ، وعند وصول مرحلة الرشد يستقر بهم الحال الى وضع غير مبال نسبيا ،وان كان اتجاههم (١٦) هو اتجاه تسامح نحو الديانات الأخرى وأربابها (١٧). أما **أوزابل** B. Ausubel فيرى ان التناقض الدينى تثيره الاكتشافات العلمية فى ذهن المراهق ، وهو تناقض سطحى ، ولايؤثر فى جوهر الايمان الدينى religious faith ولقد درس **فورستر** J. F. Forrester الاتجاهات الدينية لدى مجموعة من المراهقين تتراوح أعمارهم من ١٣ الى ١٧ سنة . ووجد أنهم يرغبون فى أن يصبح الدين عمليا ، وانه من الأفضل ان نسلك سلوكا صحيحا عن امتلاك **العقائد الدينية الصحيحة ، وان الخدمات الاجتماعية أكثر اهمية من العبادة** ، ووجد **ان العناصر الصوفية فى الدين** mystical elements ليس لها الا جاذبية قليلة بالنسبة للمراهقين .

ويمر النمو الدينى فى الفرد بمراحل مختلفة تختلف باختلاف عمر الفرد ، لأن فكرة الطفل عن الدين تختلف عن فكرة الراشد الكبير . ففكرة الطفل الصغير عن الله فكرة مادية مجسمة مشخصة . وعندما سئل عدد من الاطفال الصغار عن فكرتهم عن الله قالوا : « انه رجل عجوز له لحية بيضاء ، ويلبس ملابس بيضاء فضفاضة ». أما التفكير الدينى فى مرحلة المراهقة فيمتاز بأنه تفكير نقدى ، حيث يلجأ المراهق الى نقد الافكار التى تلقاها من الآباء والمدرسين والكبار فى مرحلة الطفولة ، وكان قد قبلها عن طيب خاطر . وللدين اهمية خاصة فى مرحلة المراهقة ، حيث يلجأ المراهق للدين لكي يجد فيه مخرجا من مشكلاته، ولكى يجد فيه السند الذى يحقق له الشعور بالأمن الذى فقده بسبب الصراعات التى تدور فى نفسه .

ويفترض بعض علماء النفس أن مرحلة المراهقة مرحلة كفر والحاد، ولكن يبدو ان التفكير النقدى هو الذى يدفع المراهق لاعادة النظر فى العقائد التى سبق له أن تلقاها ، ويساعده على ذلك زيادة نضجه العقلى وتحرره الفكرى . ولقد اجرى جليلاند Gilliland بحثا على الشباب فى سن المراهقة ، وتناول بالأسئلة موضوعات مثل **وجود الله والخلود والمعجزات التى قام بها الانبياء** والحياة الاخرى ، والاعتقاد فى وجود الجنة والنار وفى **وجود الشياطين، وتبين له ان غالبية الشباب**

---

(١٦) Cole, L. and Holl, IK, Op. Cit. P. 477.

(١٧) Ausubel D., OP. Cit. P. 270.

(❋) يعتبر الدين بالنسبة لكثير من الكتاب والعلماء والفنانين مثيرا عظيما لعبقرياتهم وابداعهم ونبوغهم الفنى .

يعتقدون (١٨) فى صحة هذه المبادىء الدينية ،ولكن هناك نسبة قليلة لا تعتقد ، ونسبة أكثر منها فى حالة تردد وعدم يقين .

وهناك من المفكرين من يعتقد ان فترة المراهقة ليست فترة اضطراب خلقى أو دينى . « وعلى النقيض من الفكرة التى كانت تشيع سابقا نجد المراهقين لا يمرون بفترة من ثورة الاضطراب الاخلاقى والدينى ، ولكن المراهقين بالطبع على درجة كافية من الفهم والحكمة بحيث انهم يرون ذلك التناقض الذى يقوم بين المعتقدات المتزمتة من ناحية ، والجانب العقلى من ناحية أخرى ، وهم يتلمسون للحياة معنى وقيمة . وقد تمتلىء نفوسهم فى بعض الأحيان تحمسا وشوقا زائدين الى اعادة تنظيم الكون . ولكن هذه المثل العليا لا تتعارض أو تتصارع مع الواقع تصارعا يؤدى الى الارتداد عن الدين او الاضطراب الخلقى . ان النزعات الخلقية والدينية اذا أرسيت قواعدها فى الطفولة تستمر الى المراهقة ثم فى مرحلة الرشد عند غالبية الشبان (١٩)

• • •

النمو الخلقى فى مرحلتى الطفولة والمراهقة

مفهوم الأخلاق :

ينبغى تحديد المقصود باصطلاح «الاخلاق» Morality فهل الاخلاق هي ما يقرره المجتمع حتى ولو كان خطأ ؟ أم ان الاخلاق هى ما يعتبره الفرد عدلا Justice وشفقة Kindness وايثارا Alturism وما الى ذلك من القيم الخلقية المطلقة ؟

لا شك ان مفهوم الأخلاق كمفهوم نابع عن المجتمع هو مفهوم دينامى فى طبيعته ، بمعنى أنه يتغير من جيل الى جيل ، ومن مجتمع الى آخر ،وينمو ويتطور أو يتعدل .

ويعرف **هادفيلد** J. Hadfield الاخلاق بالقول :

« هناك معنيان عريضان لمصطلح «الاخلاق» أحدهما بمعنى الامتثال Conformity لمعايير **المجتمع وعاداته norms or mores ، والمعنى الآخر هو اتباع الغايات والأهداف الصحيحة » (٢٠)**

النوع الاول : يجعلنا آليا نتبع العادات ونمتثل السلوك الجماعى ، ونرعى التقاليد

(١٨) Gilliland, A.R., „ Changes in religious beliefs of college students " in J. Soci. psycli,P. 37.

(١٩) جلن مايرزبلير ، ستيوارت جونز ترجمة د. احمد عبد العزيز سلامه ، د. ضياء الدين أبو الحب ، سيكلوجية المراهقة للمربين ، دار النهضة العربية ـ القاهرة .

(٢٠) Hadfield, J., Child hood and adolescene, Penguin Books, 1964 P. 141.

الاجتماعية . وطبقا للمعنى الثانى فان الغـايات الصحيحة كالكرم والولاء والامانة تعد خيرة فى ذاتها وينبغى اتباعها بصرف النظر عن عادات المجتمع ومعاييره . (٢١)

والأخلاق بمعنى الامتثال لقيـم المجتـمع وانماط سلوكه تختلف من مجتمع الى آخر .

ويستخدم أحيانا اصطلاح الخلق character ليعنى السلوك الخلقى moral behaviour ولكن اصطلاح الخلق يشير الى درجة التنظيـم الخلقى الفعال لكل قوى الفـرد . ويشـير الى الاستعداد « النفسيفيزيقى » الدائم الذى يقمع البواعث تبعا لمبدأ تنظيمى معين . ومعنى هـذا الاشارة الى الأخلاق morality كخلق داخـلى يكمن فى داخل الفرد نفسـه . وهـكذا نرى أن اصطلاح الخلق يشير الى سمات الشخصية أكثر من اشارته الى الأخلاق التى تتضمن قوة ارادية كافية لتوجيه السلوك نحو نوع ما من القيـم . وتهتم الاخلاق بنوع خاص بقوى الفرد الارادية واهداف كفاحه واتجاهاته . (٢٢)

ويقصد بكلمة الأخلاق Morality مـن الناحية السلوكية العادات والتقاليد والآداب والمثل المرعية فى مجتمع ما ، وعلى ذلك فالقيم الخلقية تختلف من مجتمع الى آخر ، كما تختلف فى نفس المجتمع من عصر الى آخر ، وتختلف فى نفس المجتمع وفى نفس العصر باختـلاف الطبـقات الاجتماعية . فالمبادىء التى تصـلح للمجتـمع الاشتراكى لا تصلح للمجتمع الراسمالى ، كذلك اخلاقيات المجتمع الديموقراطى تختلف عن اخلاقيات المجتمع الديكتاتورى ، فالفرد الذى يعيش متكيفا فى مجتمع رأسمالى يصبح غير متكيف اذا ما نقل الى مجتمع شيوعى مثلا . وطبقا لوجهة النظـر « الامتثالية » ما على الفرد الا أن يقبـل قيـم الجماعة التى ينتمى اليها حتى يعيش فى سـلام ووئام معها ، ولكن رغم وجود هذه الفروق الثقافية فى مفهوم الأخلاق الا أن هناك بعض المبـادىء الخلقية « المطلقة » العامة التى تصدق فى كل مكان وزمان ، ومنها الصدق والامانة والولاء . . . الخ .

ويعرف الخلق بأنه تكامل العادات والاتجاهات والعواطف والمثل العليا بصورة تميل الى الاستقرار والثبات ، وتصلح للتنبؤ بالسلوك المقبل . (٢٣) فالنمو الخلقى لدى الطفل يسير من مجرد الرغبة فى تحقيق اللذة والسعادة الى التقيد بالمبـادىء الخلقية والاجتماعية السائدة فى المجتـمع الذى يعيش فيه الطفل .

ويتقدم الطفل فى العمر تتحول القوى الرادعة من كونها قوى خارجية اى صادرة من الخارج ، من الآباء والأمهات والمدرسين ، الى أن تصبـح قوى ذاتية داخلية هي ضمير الطفل ، ويتكون هذا الضمير عن طريق امتصاص قيم الآباء واكتسابها ، وبذلك تصبح معايير الطفل نفسه .

---

(٢١) راجع كتاب « علم النفس ومشـكلات الفـرد » للكاتب ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، لمعرفة الاتجاهات المختلفة فى تحديد السواء والانحراف .

(٢٢) يختلف معنى الاخلاق بالمعنى السلوكى كعادات فردية وجماعية عن الاخلاق بالمعنى الفلسفى ethrics او كعلم الاخلاق .

(٢٣) دكتور فؤاد البهي السيد ، الاسس النفسية للنمو من الطفولة الى الشيخوخة ، دار الفكر العربى بالقاهرة / ١٩٦٨ .

ويقودنا هذا الموضوع الى التساؤل أيهمـاتصبح له القيمة العليا والمطلقة : الفرد أم المجتمع؟

فى ضوء الخبرات المستمدة من المجتمعاتالديموقراطية والدكتاتورية يتضـح ان الأمـل الوحيد فى الاصلاح والتقدم يكمن فى النشاط الحرلأعضاء المجتمع . وليس هناك ضرورة لاتخـاذ موقف دون آخر فى ايهما تكون له السيادة :الفرد أم المجتمع،اذ الواقع انهما يعتمدان على بعضهما البعض ، وهناك علاقة تفاعل قوية بين الفـردوالمجتمع . فصلاح المجتمع من صلاح افـراده وصلاح الافراد يؤدى الى صلاح المجتمع برمته .

ومن الناحية السيكولوجيـة فان مفتـاحالأخلاق هو شعور الفرد بالواجبات والالزام فى كل من الفكر والعمل .

وعلى ذلك فان السـلوك الذى يقـوم بهالفرد خوفا من عقاب المجتمع ليس خلقيا بالمعنى السيكولوجى ، ويصبح خلقيا عندما يصدر عنشعور الفرد بالواجب أو بالولاء او العـطف او الشفقة او الرحمة أو الحب أو الشرف وغـيرهامن الانفعالات المشابهة . ولكن هذه الانفعـالات ليس من الضرورى أن تكون صحيحة اجتماعيا ،ذلك لأنها قد تنشأ أصلا من الاخطاء التى يرتكبها المجتمع ضد افراده .

ولا يمكن قبول الافتراض ان الانسان خيرمحض أو شر محض ، انما تسود آراء الكثـرة من العلماء بأن فى الانسان الشر والخير معا ،وتفتحهذه الفكرة الآفاق واسعة أمام المجتمع ومنظماته التربوية لتنمية الجوانب الخيرية فى الانسـانوسيطرتها علىجوانب الشر فيه. وتلعبالاساليب التربوية دورا هاما فى توضيح مفاهيـم الخطـأوالصواب ، وخاصة لدى أولئك الذين يعتريهم الخلط وعدم القدرة على التمييز بينهما . فكثـيرمن الناس ، وخاصة الشباب ، يقفـون موقف الحيرة ازاء الوعظ والارشاد من قبل الكبار منناحية وسلوكهم الفعلى العملى من ناحية أخرى. على أن مجرد المعرفة النظـرية بالخـير أو الشرلا تتضمن بالضرورة عمل الخير . المهم هو الارادة التى تفعل الخير وتتجنب الشر الى جانبضرورةتوافر الامكانيات البيئية والانفعالية والجسمية لممارسة الخير . فلقد وجد أن قوة الارادة تتأثربتعاطى الفرد بعض العقاقير . (٢٤)

الانماط الخلقية :

يصنف الناس أحيانا الى انماط خلقيـةمختلفة تبعا لنوع الأخلاق الذى يتبعونه :

١ ــ النمط النفعى The expedient type وفيه يسلك الفرد فقط سـلوكا خلقيا للحصول على اغراضه الذاتية .

٢ ــ النمط الامتثالى conforming type وهو النمط الذى يفعل صاحبه مايفعله الآخرون، وما يقولون أنه ينبغى عليه أن يعمله .

(٢٤) Johnes, V., Character development in children : an objective approach, in Manual of child psychology, ed. by, Carmichael, L., P. 821.

٣ ــ النمط العقلى أو النمط ذو الضميرالحى The rational or conscientious type
وله معاييره الخاصة الداخلية فى الصواب والخطأ

وتبعا لهذه المعايير يحكم على تصرفاته . وهونمط ايثارى altriustic ويمثل علىمستويات الأخلاق . وله مجموعة من المبادىء الخلقيـــةالثابتة المستقرة والتى توجهه. انه عقلانىوواقعى Realistic فى تقويمه لما هو خير له ولغيره منالناس (٢٥) ·وهو غير مضـطر لعمل كثـير من التفسيرات اوالتأويلات الخلقيةلانهيتبع «حرفية»القانون الخلقى ، اما الشخص النسبى فى مذهبه الخلقى relativist فانه يأخذ فى الحسـبانالنوايا والدوافع والاصرار او التعمد والنتـائج العملية لعمله ، وكما يقــول **فروم** E. Fromm فى ضوء **الأخلاق السلطوية تضع السلطة ❋ ما هو** خير للانسان ، وتضع القوانين والمعايير للسلوك،اما فى الاخلاق الانسانية فالانســان نفســه هو موضوع المعايير وهو الذى يضع هذه المعـايير ،انه مصدر المعايير والمسئول والمنظم ، وهو ايضا الموضوع الذى تنطبق عليه هذه المعايير . (٢٦)

خصائص الفكر والســلوك الخلقى فى الطفــولةوالمراهقة :

يضاف الى المشاكلالسابقة مشكلة عموميةالمبادىء الخلقية أو خصوصيتها ، بمعنى هليكون الطفل الأمين فى البيت أمينا فى المدرسة وفىالنادىوفى العمل وفى الامتحان وفى اللعب وفى جميـع المواقف والاماكن ام أن الامانة تتوقف علىالموقفالذى يوجد فيهالفرد ومقدار حاجاتهالى «الغش» مثلا ؟ وعلى دوافع الفرد وحاجاته ؟ لقـد دلتدراسة هارتشون وماى (١٩٢٨) Hartshorne and May على عدم وجود ارتباط ذى دلالة بينالغش فى المدرسة والغش فى المنزل Cheating at home and at school ، ولكننا اذا اخـذناالاخلاق بمعنى الشعور بالذنب لتجنبنا الصعاب الناتجة من الاتجاه الامتثالى السلوكى ، اذ مـنالممكن أن يخضع الفرد للاغراء Temptation ومع ذلك يشعر بالذنب نتيجة لامتلاكه معيارا داخليا .

يسير الطفل فى بدء حياته بمنطق « اللذة »أى انه يميل الى تكرار السلوك الذى يجلب له اللذة المباشرةويجنبه الألم . ويتكون ضمير الطفلعن طريق مجموعة الأوامر والنواهى التى يتلقاها من الوالدين اللذين يقومان بوظيفة الضمير فى بدءحياة الطفل . فالطفل الصغير لا يسرق لأن «ماما» تقول لا تسرق ، ولان السرقة تغضب « ماما » .

(٢٥) Jersild, A., The Psychology of adolescene, P. 368.

(٢٦) Fromm, E., Man for himself : an inquiry for the psychology of ethries, Rinehart, N.Y 1947.

(❋) راجع أنواع القيادة واثر كل منها على السلوكوالشخصية فى كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعى » دار النهضة العربية ــ بيروت .

وهنا ينبغى أن نتساءل عن العوامل التى تؤثر فى مجرى النمو الخلقى فى حياة الطفل ؟

العوامل المؤثرة فى النمو الخلقى :

لقد تساءل كثير من الكتاب : هل يرجع السلوك الخلقى الى الوراثة أم الى البيئة والاكتساب؟ يحتوى التراث السيكولوجى على كلا الاتجاهين أى الاتجاه الوراثى والاتجاه الاكتسابى . ومن بين الدراسات العديدة التى تؤيد العوامل الفطرية فى الاخلاق The innate factors دراسة الأسر التى انتشر الجنوح والاجرام بين اعضائها بكثرة كبيرة عبر الأجيال المتعاقبة (٢٧) . ولقد افترض قديما بعض العلماء وجود حس خلقى داخل الانسان، ولكن اذا كان للاخلاق حس مستقل فأين يقع هذا الحس من الجسم ؟ وفى غضون القرن الثامن عشر سادت حركة طبية تفترض انه نتيجة لاصابة الفرد بمرض ما فانه يفقد حسه الخلقى ، بينما تبقى قواه العقلية سليمة ، واطلق على هذه الحالة المرضية اصطلاح الجنون الخلقى moral insanity (٢٨) ويفترض **هنرى مودسلاى** Henry Maydsley أن معظم المجرمين الصغار ضعاف اخلاقيا فى القوة الخاصة بتكوين الحدس الخلقى ، وكان يعتقد ان الطفل قد يكون ماهرا عقليا ولكنه أعمى خلقيا ، وان هذا الضعف الخلقى الموروث يبدو انه ينتشر فى أسر معينة عبر الأجيال المتعاقبة . ومن ناحية بناء الشخصية وجد ان كثيرا من الاعراض السيكوباتية والعصابية ترتبط بالجنوح (٢٩) وكان **لمبوروزو** Cesare Lombroso يعتقد بوراثية الاجرام . ويعتقد بعض الناس بأن الطفل يولد مزودا بضمير معين يساعده على التمييز بين الصواب والخطأ ، بل يزعم البعض ان الطفل يرث بعض السمات الخلقية المحددة كالأمانة والصدق ، ولكن هذه الفكرة تخلص الآباء والمعلمين من مسئولياتهم ازاء تربية الطفل تربية خلقية سليمة حيث لا يعزون السلوك غير المرغوب الى فشلهم وانما الى نقص وراثى أو فطرى لا يمكنهم التغلب عليه .

ولكن الضمير فى واقع الامر يتكون خلال الشعور بالالتزام أو بالواجبات الاجتماعية ، تلك العمليات التى تحول الضبط الخارجى الى ضبط داخلى (٣٠) . **يقول وليم مكدوجل** McDougall مؤيدا الاتجاه الوراثى للعقل البشرى : ان هناك نزعات فطرية او موروثة هي المنابع الاساسية او القوى الدافعة لكل من الفكر والسلوك ، وهي الاساس الذى تنمو عليه خلق وارادة الافراد والأمم بالتدريج تحت توجيه الملكات العقلية (٣١) .

(٢٧) Kanner, L., Child Psychology, Charles C., Thoms, U.S.A. 1957, P. 679.

(٢٨) Burt, C., The Young delinquent, univ. of London, Press, 1957 P. 34—40.

(٢٩) Ibid.

(٣٠) Hawkes, G.R., Behaviour and development from 5-12 Harpers and Brothers, N.Y. 1962, PP. 122.

(٣١) لم تعد فكرة الملكات مقبولة فى الفكر السيكولوجى الحديث واصبح ينظر للعقل البشرى على انه وحدة .

اما **فرويد** Freud فيرى أن غريزتي الجنس والمحافظة على الذات هما العنصران الاساسيان في الدافعية الانسانية human motivation وتتضمن غريزة المحافظة على الذات ، من بين ما تتضمن حماية معايير الفرد الخلقية والاجتماعية ويفترض آدلر Adler وجود نزعتين مسئولتين عن ارتباط الانسان بأخيه الانسان ، وهما :

١ ــ الرغبة في القوة الشخصية والسمو .

٢ ــ الشعور الاجتماعي .

ولكن مثل هذه الاتجاهات التي تختزل الدافعية الانسانية في شكل عامل او عاملين تبالغ في تبسيط التنظيم الدافعي في الانسان .

وتدلنا الدراسات الانثروبولوجية التي تناولت بعض المجتمعات البدائية على أن القيم الخلقية ليست عالمية ، ومن ثم ليست موروثة ، وعلى سبيل المثال فان مجتمع الأرابيش Arapash ليس في حاجة الى كثير من الوسائل التربوية التي تروضه على ممارسة السلوك الخلقي ، وانما يظهر هذا المجتمع كثيرا من مظاهر الايثار والتضحية (٣٢) تلقائيا .

وفي مجال تأييد وجهة النظر الوراثية في نمو القيم الخلقية ربما نشير الى الفروق الملاحظة بين الذكور والأناث في الأخلاق . فلقد وجد أن الاناث أكثر تأثيرا بالنداء الانفعالي في الحياة الدينية ، بينما الذكور أكثر جذبا بالشرف والعقاب الخلقي والنشاط الاجتماعي . وبالنسبة للعدوان فلقد اعطى **بايز وماريكارد** Bize and Maricard (١٩٣٧) حقنا من الهورمون المنشط للذكور لعدد من الصبيان الصغار ووجد زيادة واضحة في العدوانية في كل العلاقات الاجتماعية . كذلك أعطى كلارك وبرش Clark & Birch هرمونات ذكورة وانوثة لقرد ذكر ، ووجد ان الهرمون الذكري يؤدي الى زيادة السيطرة الاجتماعية عند الحيوان ، وان الهرمون الانثوي يؤدي الى خضوع الحيوان ، ويؤكد هذا فكرة زيادة النزعات العدوانية في الذكور عنها في الاناث . وفي مجال الفروق الجنسية في الاخلاق أيضا هناك ما كشفت عنه دراسة تيودور ــ هات Tudor-Hart حيث وجد أن الاناث يلقين أكثر من الذكور كثيرا من الأكاذيب التقليدية مثل : امي ليست في المنزل (٣٣)

أنا سعيدة لرؤيتك .

لقد قضيت وقتا ممتعا في حفلتكم ؟

مثل هذه الأكاذيب اعتبرتها نسبة اكبر من البنات عن البنين «ضرورية» كذلك اعتبرت نسبة أكبر من البنات الأكاذيب الاجتماعية « ضرورية» (نسبة ٣٢ ٪ في مقابل ١٨ ٪ من الذكور) ومن

---

(٣٢) Mead, M., Sex and temparament in three primitive societies, Routledge and Kegan Paul, 1948, P. 137.

(٣٣) Jones, V., OP. cit.

امثلة الاكاذيب الاجتماعية « الكذب للاحتفاظ بالاسرار » و « الكذب حماية من الغرامة » وما الى ذلك . وفى دراسة شيلى Sheelly (١٩٣٨) التى تناولت ٨٠٠ طفل تتراوح اعمارهم من ٩ الى ١٦ سنة وجد الذكور اكثر عدوانا وسيطرة واقل خوفا واكثر تفاخرا عن الاناث اللائى كن اكثر شكا وخيالا ، واكثر خضوعا وطاعة للضوابط الاجتماعية ، ولقد وجدت نسبة الذكور الى الاناث فى الاحداث الجانحين الامريكيين تساوى ٦ ــ ١ .

ولكننا يجب أن نلاحظ ان هناك فروقا كبيرةفى نوع الجرائم التى يرتكبها افراد كل جنس ، كذلك هناك فرق فى المستويات الخلقية التى يضعها المجتمع على افراد كل جنس . فالمعروف ان الاسرة اكثر تسامحا فى قبول المخالفات التى يرتكبها الولد الذكر . كذلك فانه يفترض أن الاب ــ اكثر من الأم ــ هو الذى يمثل السلطة الخلقية الرئيسية فى الأسرة ، وانه أيضا الموضوع الخلقى الذى يتقمصه الولد والبنت على حد سواء . ان الأب اكثر تمثيلا للمعايير الاجتماعية ، وهو أكثر قدرة على القيام بعملية الضبط والربط فى الاسرة .

وفى هذا الصدد افترض فرويد أن الذات العليا أو الضمير فى النساء اضعف منها فى الرجال . ويرجع السبب فى ذلك الى بقاء البنات مدة اطول من البنين فى مرحلة جمود عقدة الكترا Electra * .

وخلافا لوجهة نظر فرويد هذه يعتبر تيرمان وتيلور أن البنات يمتثلن اكثر من البنين لقواعد الآباء والسلطة . كذلك تعانى البنات من مشاكل مدرسية ومنزلية اقل من البنين ، وان نسبة جنوح الأحداث بينهن اقل من مثيلتها عند البنين . وفى دراسة ثرستون وكيف Thurstone and Chave عن الاتجاه نحو الكنيسة وجد أن النساء اكثر استعدادا للذهاب للكنيسة عن الرجال . (٣٤)

ويرى فرويد Freud ان الاحساس بالعدل وغيره من القيم الخلقية اقل فى النساء منه فى الرجال ، ويرجع ذلك فى نظره الى طرق تكوين الذات العليا عندهن ويقول فرويد : « ان السمات الخلقية التى اثارها النقاد فى كل الأزمنة ضد النساء ــ اى أن احساسهن بالعدل اقل من احساس الرجال ، وأنهن اقل استعدادا للخضوع لضرورات الحياة الهامة ، وأنهن اكثر تأثيرا فى احكامهن بمشاعر الحب والعداوة ــ كل هذا يفسر بالرجوع الى التعديلات التى تحدث فى تكوين ذواتهن العليا » .

ويبدو أن تعاطف الاناث ينتج من جوانب شخصية اكثر من المبادىء والقيم المجردة . وفى هذا الصدد يقال ان النساء يتاثرن فى الاحكام الخلقية والجمالية بالاسلوب وبالشعور اكثر من التاثر بالعقل .

---

(٣٤) Thrustone, L. and Chave. E., The measurement of attidutes. The University of Chicago Press, 1951.

(*) تشير هذه الحالة الى ارتباط الفتاة بابيها مع كراهية الام والشعور بالغيرة نحوها ، وتقابل عقدة اوديب فى الطفل الذكر التى تشير الى ارتباط الطفل جنسيا بامه والغيرة من الاب وما يصحب ذلك من شعور بالذنب والصراع الانفعالى لدى الطفل .

ولقد وجهت انتقادات عديدة لفكرة وراثية الأخلاق ، فعلى سبيل المثال ، وجد هارتشون وماى أن الامانة تختلف باختلاف المواقف . فالطفل قد يكون أمينا فى المدرسة خائنا فى المنزل . ويؤكد الاتجاه البيئى فى نمو الاخلاق دور الاسرة والمدرسة والمسجد والكنيسة او الجماعات البشرية ، كجماعة الاصدقاء والزملاء والحركة الاجتماعية ووسائل الاعلام والاتصال الجماهيرى كالراديو والتلفزيون والسينما والمسرح والصحف والمجلات مما يؤكد اثر المنزل على الاخلاق ، ما وجد فى احدى الدراسات من أن ٨٧٪ من الاناث الجانحات أتين من بيوت محطمة ، حيث يقل تأثير المنزل ، وتقل فرص تدريب الطفل على السلوك الخلقى .

وفى دراسة اخرى وجد ان ضعف التدريب والتأديب كان سببا فى ٩٠ ٪ من الانحرافات السلوكية . ولا شك ان الطفل يبنى مفهومه عن الصواب والخطأ من الأمثلة التى يتلقاها من الكبار الراشدين . ولقد وجدت معاملات * ارتباط كبيرة نسبيا بين فكرة الأطفال عن الصواب والخطأ وبين أفكار الكبار المحيطين بهم وكانت معاملات الارتباط كما يلى :

	معامل الارتباط
الأطفال والآباء	٥٥ر٠
الأطفال والاصدقاء	٣٥ر٠
الأطفال ومعلمو الأندية	١٤ر٠
الأطفال والمدرسون	٠٦ر٠
الأطفال ومعلمو مدارس الآحاد	٠٠٢ر٠

ويبدو أن الآباء لهم اكبر قدر من التأثير فى تكوين مفهوم الطفل عن الخطأ والصواب . ولقد تبين انه كلما زاد اتصال الطفل التصاقا بالكبار زاد تأثيرهم عليه وعلى سلوكه ، وتلعب علاقات الحب والعطف والحنان والدفء دوراهاما فى تنمية الضمير القوى فى الأطفال .

فأسلوب التربية القائم على أساس الحب هو الذى يؤدى الى تنمية الضمير . اما الحماية الزائدة أو الخضوع لرغبات الطفل المبالغ فيها فانهما يؤديان الى زيادة نزعات الطفل نحو العصيان والطغيان والمبالغة فى المطالب . اما الاطفال الذين خضعوا لسيطرة الأمهات والتحكم الزائد والتأنيب المبالغ فيه والذين كانوا يمنحون المكافأة لخضوعهم التام ، أصبحوا منسحبين وخجولين . (٣٥)

ويعتبر المنزل من اقوى المؤسسات الاجتماعية فى نقل ثقافة المجتمع للطفل ، انه يكمل وظائف المؤسسات الاجتماعية الاخرى كالحكومة والمدرسة والمسجد . بل انه يبدأ فى « عمله هذا » قبل أن يبدأ الطفل فى الاحساس بدور هذه المؤسسات . كذلك تلعب المدرسة دورا هاما فى

---

(٣٥) Mussen, P.H., Op. Cit ; P. 356.

(*) يعرف معامل الارتباط بانه تحديد احصائى لكم وكيف العلاقة بين متغيرين او اكثر .

نمو السلوك والقيم الخلقية فى الطفل ، فلقدلوحظ أن السلوك الخلقى للاطفال يتدهور عندما تضعف الادارة المدرسية .

ولكي يمارس الطفل السلوك الصواب لابدمن معرفة الصواب والخطأ والتمييز بينهما ، وليس هذا التمييز أمرا سهلا، اذ يختلف الافرادفى تقدير الصواب والخطأ. ففى احدى الدراسات قررت ٩٠ ٪ من مجموعة من الاطفال الصغار أن ٩ مواقف من مجموع ٦٤ موقفا مدرسيا هي مواقف صحيحة أوصواب ،وعندما حكم المدرسون على هذه المواقف قرروا ان ١٢ موقفا صحيحا فقط ، وقرر هذه النتيجة ٩٠ ٪ من المدرسين ،وعلى الرغم من ان المعرفة النظرية بالصواب والخطأ لا تضمن بحد ذاتها ممارسة الصواب وتجنب الخطأ الا أن المعرفة مهمة ، لأن الفرد لا يختار الصواب فى موقف لايعرفه ، اللهم بمحض الصدفة البحتة . (٣٦)

ومن العوامل المؤثرة فى السلوك الخلقى ارتياد أماكن العبادة ، فلقد وجد ان للخبرة الدينية أثرا كبيرا على النمط القيمى للاطفال وللشباب . ولقد وجد « هارتشون وماى » ان مقدار الغش يقل بارتياد الكنيسة . كذلك وجد أن الاطفال الذين يرتادون الكنيسة يحصلون على درجات أعلى فى اختيار « مساعدة الغير » اوالنزعة نحو مساعدة الآخرين .

وبالنسبة لأثر المجتمع أو الحياة الاجتماعية ككل يقول عالم الاجتماع الفرنسى دوركايم Durkheim « ان الحركة الاجتماعية العظيمة هي التى تخلق الجريمة . ففى الماضى كان الناس يرتبطون بروابط وثيقة بأسرهم التى كانت توحدوتضبط سلوكهم . » (٣٧)

ولقد ادى النمو الاجتماعى الى النزوح للمدن الكبرى وتحطيم الروابط الأسرية القديمة ، واصبحت الوظيفة أو المهنة تمارس بعيدا عن دائرة الأسرة ، ولقد تحللت القيم القديمة دون أن يبتكر غيرها ، فأصبح هناك فراغ قيمي يحتوى الفرد المعاصر . لقد اصبح ابناء المجتمع الحديث اكثر عزلة وانسحابا ومن ثم ضعف التأثير الاجتماعى عليهم .

كذلك تؤثر الطبقة الاجتماعية على نوعية الأخلاق التى تنمو فى الطفل ، فلقد وجد أن أطفال الطبقات الاجتماعية والاقتصادية الدنيا اكثر تسلطا فى اتجاهاتهم ، فقد طالبوا بانزال العقاب ، كعلاج لعمل الخطأ اكثر من أطفال الطبقات العليا . ولقد وجد أن اطفال الطبقات الدنيا ينظرون للسلوك في ضوء الصح والخطأ ،بينما يحكم أطفال الطبقات العليا على السلوك طبقا لنتائجه العملية . كذلك وجد ان اطفال الطبقات الاجتماعية الدنيا كانوا اكثر قبولا وتسامحا ازاء الافعال الخاطئة ، وذلك بالمقارنة باطفال الطبقات العليا ، وعلى سبيل المثال عندما سئلوا عما اذا كان « السكر » خطأ ، كانت هناك النسب المئوية الآتية التى أقرت أن السكر خطأ :

أطفال الاحياء الشعبية القذرة	٥ ٪

---

(٣٦) Ibid

(٣٧) Ibid

اطفال مناطق نصف قذرة	١١٪
اطفال الطبقة الاجتماعية المتوسطة	٢٠٪
اطفال الطبقة الاجتماعية العليا	٣٤٪

ولقد فسر هذا بأن ابناء المناطق الشعبيةالمتدنية المستوى اكثر الفة مع السكر عن زملائهم من أبناء الطبقات العليا .

ويقترح **بريكنردج** Breckenridge العوامل الآتية كأساس للنمو الأخلاقى الجيد :

١ ــ صحة جسمية جيدة لمقاومة الاغراء ،وللتحرر من الشعور بالمرارة أو النقص ، ومن وجود دوافع الانتقام .

٢ ــ الأمان الانفعالى لامكان الشعور بالحبتجاه الآخرين .

٣ ــ توفر وظيفة مناسبة ومنافذ للتعبيرأو التصريف .

٤ ــ تدريب مستمر فى التحكم والضبطالذاتى للمساعدة فى التخلص من البواعثالطفلية .

٥ ــ وجود أفق اجتماعى مستمر الاتساعلتنمية القدرة على اكتساب المعارف ، وعلى التسامح وعلى التعاطف ، وعلى الفهم، وتنميةالرغبة الاصيلة لتقدير حقوق وواجبات الناس الآخرين .

٦ ــ الطموح نحو الرغبة القوية فى عملالصواب ، بحيث يجد الفرد الشعور بالرضا والسعادة نتيجة لعمل الصواب . وفى الغالبما ينمو هذا الطموح نتيجة للتعاليم الدينية.(٣٨)

ولايمكن تخيل حدوث النمو الخلقى بمحضالصدفة ، بل انه يحتاج الى جهود وأساليب مدروسة ، ويتطلب تخطيطا دقيقا للمواقف التىتضمن التعاون والضبط الذاتى ، ونمو روح الجماعة . كذلك ينبغى تشجيع الطفل على تعميمالمبادىء الخلقية ، وممكن اشراك التلاميذ فى مشروعات خدمة البيئة لتنمية الشعور بتحملالمسئولية وتقدير الصالح العام وحمايته . والى جانب المؤثرات الخارجية ففى مرحلة المراهقةتوجد دوافع داخلية نحو التعاون ونحو تقدير العدالة ونمو الشعور بالولاء للجماعة ولقواعدهموغير ذلك من المبادىء السلوكية المثالية . ففى المراهقة تنمو النزعات المثالية والنزعة نحو اصلاحالعالم ونحو البذل والتضحية الذاتية ، وينبغى توجيه هذه المثالية نحو السلوك الخارجىالحقيقىكما ينبغىاشعار المراهقينبانهم مرغوبونومطلوبون كما ينبغى أن يجدوا المنافذ الايجابية البناءةلتصريف طاقاتهم الزائدة . وأخيرا فاننا فىمعرض الجدال بين تأثير البيئة والوراثة ، ينبغى انتؤكدبأن **الانسان يتأثر بكل من البيئة والوراثة معا** ،

---

(٣٨) Breckenridge, M. and Vincent, E. Child development, W.B. Senders Co., 1949, PP. 488

وان العلاقة بين البيئة والوراثة هي علاقة تفاعل،أى تأثير متبادل قوى ، ولكننا ينبغى ان نضع مزيدا من الاهمية للعوامل البيئية، لان ذلك سوف يوسع من مقدرتنا على مساعدة الاطفال نحو النمو الجيد ، والايمان بامكان اصلاح الاعوجاج . ان ارجاع السلوك الانساني الى العوامل الوراثية وحدها يضيق من امكانية تعديل السلوك المنحرف وتوجيهه نحو الصواب . ولاشك أن ما يولد به الطفل من استعدادات وامكانيات يمكن صقلها وتشكيلها وتوجيهها وحسن استغلالها عن طريق الخبرات التى يمر بها الطفل ، والفرص التى تتاح له ، والاشراف الذى يلقاه .

المثال والقدوة :

كيف يختار الطفل الصغير مثاله الأعلى الذى يقتدى به ؟

نتيجة لالتصاق الاطفال الصغار بآبائهم فانهم يختارون منهم مثالهم الاعلى . وفى احدى الدراسات وجهت للأطفال الاسئلة الآتية :

١ — من هو الشخص الذى تعجب به أشد الاعجاب ؟

٢ — من هو الشخص الذى ترغب أن تشبهه من هؤلاء الناس الذين تعرفهم أو سمعت أو قرات عنهم ؟

ولقد اختار الاطفال الصغار (سن ٦ — ٧ سنوات) مثالهم الاعلى من بين افراد الدائرة الضيقة لمعارفهم كالآباء والامهات . وعلى حد قول ڤالنتين : « بازدياد السن تتسع خبرات الطفل، وبذلك يصبح الاشخاص الذين يختارهم الطفل مثالا اعلى من بين الاشخاص الذين قرا عنهم فى التاريخ أو فى الادب او فى الانجيل ، أو من بين الشخصيات العامة الشهيرة . (٣٩)

على كل حال وجد أنه بعد سن الثالثة عشرة يعود الطفل للاختيار من دائرة المعارف المقربين . ومن المعروف أنه بالتقدم فى السن ينمو اتجاه التسامح نحو المذاهب الدينية المختلفة وأربابها ، كما تنمو نزعات الشك والنقد تجاه العقائد الدينية التى تعلمها الطفل من قبل .

ولقد وجد معامل ارتباط سالب بين عامل العمر الزمنى وبين قبول المعتقدات الدينية .

كذلك كلما تقدم المراهق فى السن زاد قدرة على التفكير فى الأمور المجردة ، وكلما قلت نزعته نحو « الاخلاق الموضوعية » أو الواقعية او المطلقة حلت محلها الأخلاق النسبية ونمت نزعات التحرر والمرونة فى وجهات النظر .

• • •

(٣٩) Valentine, C., The Normal child and some of his abnormalities, Penguin Books, P. 201

مراحل النمو الخلقى :

على الرغم من اننا نستطيع ان نحدد مراحل معينة للنمو الخلقى ، الا ان النمو الخلقى ، كغيره من مظاهر النمو الاخرى ، يحدث تدريجيا لا فجائيا ، وليس هناك انتقال فجائى أو طفرى من مرحلة الى اخرى ، فالطفل لا يتحول من الطفولة الى المراهقة بين عشية وضحاها ، بل انه من الممكن ان يحدث نوع من النكوص regression **أو الارتداد من مراحل متقدمة الى مراحل سابقة** عندما يتعرض الفرد لصعوبات نفسية حادة ، فالنمو لا يسير باستمرار فى خطوط مضطردة . كذلك هناك فروق فردية واسعة individual differences فى الوصول الى أى من هذه المراحل ، ولاتوجد فواصل حاسمة فاصلة وقاطعة بين هذه المراحل، ولكنها تتداخل فيما بينهما(٤٠) ففى المراهقة تظل هناك رواسب من الماضى الطفولى وفى الشباب تبقى بعض سمات المراهقة . ويصف **جيرسيلد** Jersild حركة الانتقال من مراحل اقل نضوجا الى المراحل الاكثر نضوجا فى النمو الخلقى بما يلى :

١ ـ المفهوم العام لما هو صواب ولما هو خطأ يحل محل القواعد النوعية المحددة .

٢ ـ المعايير الداخلية تحل تدريجيا محل الطاعة للأوامر والنواهي الخارجية .

٣ ـ زيادة فهم (قواعد المباراة) نتيجة الاحترام المتبادل والموافقة اكثر من كونه نتيجة لطاعة الاوامر التعسفية .

٤ ـ نمو قدرة متزايدة واستعداد أكبر لأخذ الظروف المحيطة بالسلوك الخاطىء فى الاعتبار بدلا من الحكم الآلى على العمل الخلقى .

وبالنسبة للسلوك الانسانى ككل يمكن النظر اليه على أنه يسير تبعا لمستويات أربع يمكن أن تتخذ دليلا على النمو الخلقى للطفل ، هذه المستويات هي :

١ ـ السلوك غير المتعلم أو السلوك الفريزى يتعدل بالنتائج الطبيعية للسلوك ، ومن أمثلة ذلك تعلم الطفل تلقائيا الا يصدم رأسه ضد الاشياء الحادة أو الساخنة .

٢ ـ الثواب والعقاب كما يمارسهما الآباء والمعلمون وغيرهم من الكبار ، **اى الضوابط** الخارجية .

٣ ـ القبول وعدم القبول الاجتماعى وخاصة من قبل الجماعة التى ينتمى اليها الطفل .

٤ ـ الايثار حيث تحرك الفرد وتسيره الرغبة فى عمل الخير العام ، ويمثل هذا أعلى المستويات الخلقية .

---

(٤٠) د. عبد الرحمن عيسوى ، معالم علم النفس ، دار المطبوعات الجامعية ـ الاسكندرية .

وفى الطفولة المبكرة يكون سلوك الطفل ليس خلقيا أو لا اخلاقيا . ان حاجات الطفل الرضيع تشبه حاجات الحيوان ، بمعنى انها فيزيقية حسية ومباشرة، فيحاول ان يحصل على الاشباع المباشر لحاجاته وأن يتجنب الألم . وفى محاولاته لاشباع حاجاته يكون الطفل الصغير أنانيا متسلطا ومن خلال شعوره بالدفء والبرد والامتلاء والفراغ يحصل الطفل الصغير على الشعور بالخبرات الجيدة والخبرات (٤١) الرديئة .

ولقد ميز **پياجيه** Piaget بين نوعين من الأخلاق :

١ ـ النوع الأول الذى يظهر مبكرا ، أو هوما اطلق عليه اصطلاح (الأخلاق الموضوعية) objective morality وهنا تكمن الصحة والخطأ فى بعض مظاهر السلوك ، ويمكن ادراكهما موضوعيا ، **وهما بينان أو واضحان بذاتهما ، فالطفل الصغير يعتقد أن اى شخص يستطيع أن** يدرك خطأ اخذ اى شىء يخص الغير أو يخص شخصا آخرا ، وتبعا لراى پياجيه فان الاطفال فى سن الثمانى سنوات يحكمون على أى سلوك تبعا لنتائجه بصرف النظر عن الدوافع أو النوايا التى تكمن وراء السلوك . وعلى ذلك فالطفل الذى كسر ، عرضا أو مصادفة أو قضاء وقدرا ، عشرة أطباق هو أكثر « شقاوة » أو خطأ أو مشاغبة من ذلك الطفل الذى كسر عامدا متعمدا كوبا واحدا . وبمرور الزمن يصبح الطفل قادرا على استيعاب الافكار المجردة حول الخير والشر بوجه عام .

ويعتقد پياجيه أن هناك انتقالا من الضبط الخارجى ومن الواقعية الخلقية الى النسبية الخلقية .

حيث يصبح حكم الطفل الخلقى نسبيا وليس حرفيا . يبدأ الطفل فى تكوين فكرته عن الصواب والخطأ عن طريق اكتشافه أن اشباع حاجته فى **الحب والدفء لا يتأتى الا عن طريق** ارضاء أمه ، وعن طريق الحصول على موافقتها ، وهذا يضع الأسس الاولى نحو التعامل مع الناس، فموافقة أو رفض الآباء تمثل الجذور الأولى للمعايير الخلقية . وفى دراسة هارتشون وماى وجد أن الاطفال من سن تسع سنوات يعملون طبقا للخير العام ويتعاونون **فيما بينهم وتثيرهم دوافع الاحسان .**

ويقرر **الج** Ilg ان الطفل عند سن ثمانى سنوات يستطيع أن يميز بين الخطأ والصواب والخير والشر ، وفى الفترة ما بين ٥ ، ٧ سنوات تحدث زيادة فى السلوك التعاونى وفى ادراك حقوق الآخرين .

وعلى الرغم من أن الجنوح يزداد انتشاره فى مرحلة المراهقة ، الا ان جذوره الأولى ترجع الى الطفولة المبكرة ، ولاشك ان النمو الداخلى الخلقى عامل اساسى محدد فى ازالة السلوك

(٤١) Ingleby, A., Towards maturity, Robert Hale, Ltd., London, P. 37, 1966.

الجانح . فى الطفولةالمبكرة لايدرك الطفل الصراع*بين الامانة والولاء للاصدقاء . وكلما تقدم الطفل فى السن كان اكثر وعيا وادراكا لهذا الصراع ،وكلما تقدم الطفل فى السن أيضا كان أكثر قدرة على ادراك المطالب الثقافيه والتوقعات الاجتماعية .

اما عن تطور الحكم الخلقى عند الطفل ،ففى مرحلة الطفولة المبكرة يسير الطفل حسب ما أسماه بياجيه « الخلقية الموضوعية » ومعنىذلك ان العالم عبارة عما نشاهده فقط ، وليس هناك وجهات نظر متعددة ، وليس هناك نسبية، فالاشياء اما بيضاء أو سوداء ، صواب أو خطأ ، فعلى قدر فهم الطفل فان الآباء فى نظره يعرفون كل شيء ، فاذا قالوا أن هذا خطأ فانه خطأ ، فكل ما يقوله الآباء أو يفكرون فيه فهو صواب .

فالاطفال يحكمون على الاشياء حكماموضوعيا ، أى دون أخذ الدوافع فى الاعتبار ، تلك الدوافع التى دفعت الطفل نحو هذا السلوك ودون اعتبار للظروف المحيطة والملابسات ، بل يتبعون « حرفية النص الخلقى » او حرفيةالقاعدة فى العابهم . فالعقاب يتناسب مع حجم الخسارة المادية التى أحدثها الطفل ، وليس وفقالدوافع الطفل أو نواياه أو « سبق الاصرار والترصد » .

وعلى كل حال طبقا لمنطق بياجيه فانالطفل بالتدريج يتعلم ان القواعد الاخلاقية التى يضعها الكبار ليست مطلقة ، وبذلك يمكن تعديلها لكى تناسب الظروف المحيطة بموقف معين .

فى المراحل المتقدمة تظهر المرونة فى الاحكام الخلقية ، وعندئذ يدرك الطفل أن القاعدة الخلقية يجب أن تتعدل طبقا للظروف ، بحيث تحقق الصالح العام والخير الاكثر ، فالطفل الذى تأمره الاسرة بالعودة فورا بعد الخروج من المدرسة والذى ينفذ ذلك فى حالة تعطل المواصلات العامة « بالشعبطة » فى احدى سيارات النقل ، وبذلك يعرض حياته لخطر الموت فى سبيل تنفيذ تعليمات الاسرة يلقى عقابا غير مفهوم بالنسبة له ، ففى هذه المراحل المتأخرة يدرك الطفل أن الحكمة فى طاعة القوانين والقواعد الخلقية تكمن فى تنفيذ روح القانون أكثر من حرفية القانون . (٤٢)

علاقة الذكاء بالأخلاق :

فى بعض الدراسات وجد أن نسبة ذكاء مجموعة من الاطفال الاحداث الجانحين هى ٥ر٩٢ بينما كانت نسبة ذكاء مجموعة مماثلة من غير الاحداث الجانحين ٨ر١٠١ ، الا أن انخفاض الذكاء ليس عاملا أساسيا فى حدوث معظم حالات الأحداث (٤٣) الجانحين .

(*) يشير الصراع لحالة نفسية فيها تجاذب الفرد بين هدفين او مثيرين قد يكون احدهما مثيراجيدا والآخر ضارا ، او كلاهما ضار او كلاهما خير كصراع الفرد بين الرغبة فى الثراء والخوف من العقاب او تأنيب الضمير . وهناك صراع الاقبال ـ الاحجام ، وصراع الاقبال ـ الاقبال ،وصراع الاحجام ـ الاحجام .

(٤٢) Breckenridge, M.E. and Vincent, E.E. Child development physical and Psychological growth through the school years, W.B. Sounders Co., London, 1949.

(٤٣) Brooks, A., Child psychology, Methuen and Co., London, 1951, P. 409.

لقد اجرى عدد كبير من الدراسات لتحديدكم وكيف العلاقة بين الذكاء والاخلاق . وفى مثل هذه الدراسات يقارن الاطفال أصحاب الذكاءالمرتفع بالاطفال متوسطى او ضعيفى الذكاء ، يقارنون فى مستوياتهم الخلقية . ففى احدىالدراسات التى أجراها **تيرمان** Terman على٥٣٢ طفلا ذكيا تزيد نسبة ذكائهم عن ١٣٠ وجد أنهم يتفوقون فى السلوك الخلقى على المجموعةالضابطة من الاطفال من أرباب الذكاء المتوسط . ولقداستنتج تيرمان انالاطفال المتفوقين عقليا يتفوقون عن الاطفال متوسطى الذكاء على اختباراتالامانةوالصدق والسمات الخلقية المشابهة . وهنا يجب أن نتحفظ فى تفسير هذه الفروق وارجاعهاالى الذكاء وحده ، ذلك لأن احدا لايستطيع أن ينكر تأثير البيئة المنزلية وغيرها من العواملالاجتماعية على الانحراف وعلى النمو الخلقى . لقد درس تأثير الذكاء على المستوى الخلقى عنطريق مقارنة نسبة الاطفال ضعاف العقول بين جماعات الاحداث الجانحين . وعلى سبيل المثالوجد بيرت Burt ٨ ٪ فقط من الاطفال ضعاف العقول بين الاحداث الجانحين (نسبة ذكاء أقلمن ٧٠ *) ولقد وجد كل من هيلى وبرونر فى دراساتهما عن الاحداث فى شيكاغو وبستون ١٣ ٪ من ضعاف العقول ، اما هذه النسبة فى المجتمع العام فلا تتجاوز ١١/٢ ٪ . (٤٤)

وفي نفس الوقت وجدت نسبة الجنوح الى الصحبة السيئة عند ٦٢٪ من الحالات . كذلك وجد هارتشون وماى معامل ارتباط قدره (٠.٥٠٠) بين الذكاءوالغش،بمعنى انه كلما زاد الذكاء قل الغش ، وكلما قل الذكاء زاد الغش . ويبدو ان تأثير الذكاء على الاخلاق نوعيا أكثر من كونه تأثيرا عاما ، فالاطفال الاكثر ذكاء كانوا أكثر تعاونامن الاطفال الاغبياء والمتوسطين ، ولكن العلاقة بين الكرم والذكاء كانت ضعيفة ، أما العلاقة بينالامانة والذكاء فكانت عالية (٤٥) .

وفي احدى الدراسات وجد أن طفلالتسع سنوات الموهوب عقليا يصل الى مستوى نمو خلقى يعادل طفل الرابعة عشرة من الاطفالغير المنتقين .ولكن الذكاء يساعد فى سرعة حدوث النمو مهما كان الاتجاه الذى يتخذه هذا النمو ،فاما : اخلاق حسنة أو « جرائم خطرة » . كذلك فلقد وجد أن الاطفال الاكثر ذكاء أقل غشافى امتحاناتهم ، ولكن ليس ذلك بالضرورة لانهم أكثر خلقا ؛ بل ربما لأنهم أكثر قدرة على حلأسئلة الامتحان بدون اللجوء الى الغش . ويبدو منطقيا ان نقول أن الطفل الذكى والطفل الغبىيختلفان فى قدراتهما على التنبؤ بنتائج أعمالهما ، كما يختلفان فى قدراتهما على الرؤية البعيدةللمزايا البعيدة فى الاهداف المرتقبة ، وتفضيل ذلك على الاشباع المباشر لحاجاتهم الراهنة .

---

* من المعروف ان نسب الذكاء ١٠٠ تشير الىالطفل متوسط الذكاء وهو الطفل الذى يساوى عمره العقلي عمره الزمني .

(٤٤) Jones, V., Op. Cit. P. 793.

(٤٥) راجع كتاب المؤلف « القياس والتجريب فيعلم النفس والتربية » دار النهضة العربية ـ بيروت لتحديد معنى الارتباط والعلية والفرق بينهما .

وكلما زاد ذكاء الفرد كان اقدر على اختيار العناصر الصالحة من بيئته وعلى تشكيلها وتسخيرها بما يخدم أغراضه . كذلك لا يتعلم الذكى والغبى بالتساوى حتى من نفس الموقف، أو من نفس البيئة ، والمفروض ان يساعد الذكاء الفرد على الاستفادة من بيئته الى أقصى حد ، وعلى تعديلها اذا كانت غير مواتية ، وعلى تكييف نفسه للمواقف الجديدة . ولقد دلت دراسة تيرمان ان الاطفال الموهوبين يتفوقون على الاطفال المتوسطين في السمات والقيم الموجهة نحو النجاح الذاتى اكثر من السمات والقيم الموجهة نحو المسئوليات والخدمات الاجتماعية، فالملاحظ أيضا أن الاذكياء يرتفع عندهم مستوى الطموح، وتفوقت المجموعة الموهوبة على المجموعة المتوسطة تفوقا أكثر دلالة فى الارادة والمثابرة ، وتفوقت اقل فى المشاركة الوجدانية والرقة ، كذلك وجد هارتشون وماى معامل ارتباط قدره ١٦و. بين الذكاء ومساعدة الآخرين ، ومعامل ارتباط قدره ٠٩ر. بين الذكاء وروح التعاون .

ولكن لا ينبغى الاعتقاد بأن الضعف العقلى أو البغاء يؤديان بحد ذاتهما الى الجنوح ، هناك دائما عوامل متوسطة كثيرة ، فانخفاض الذكاء مثلا قد يقود الى الفشل والاحباط ، كما يقود الى كثير من الصعوبات في التحصيل المدرسي .كذلك فان مستوى طموح الفرد ينخفض في حالة الضعف العقلى .

كيف ينمو ضمير الطفل :

يظهر الضمير أو الذات العليا فى اصطلاحات التحليل النفسى ، في سلوك الطفل تدريجيا . ففى بداية حياة الطفل يرغب فى الاشباع المباشر لدوافعه أو لحاجاته بصرف النظر عن الاعتبارات الخلقية أو العملية ، فهو يطلب الطعام ويطلبه الآن وفى هذا المكان .

وبالتقدم في العمر يتعدى السلوك الاندفاعى خلال الخبرة ، فيتعلم الطفل ان بعض استجاباته سوف يثاب عليها ، وان بعضها الآخر سوف يجلب له العقاب ، وان بعض مطالبه لا يمكن تلبيتها فى الحال ، وان بعضها الاخر لا يمكن تحقيقه مطلقا . وبمرور الوقت يصبح تجنب بعض مظاهر السلوك الذى كان يحدث نتيجة لقوة خارجية يحدث الآن نتيجة « للسلطة الداخلية » فيكف الطفل عن الاتيان بالسلوك الخاطىء حتى فى غياب الكبار ممثلى السلطة الخارجية فى الطفل . وهنا يشعر الفرد بالذنب عندما يفشل فى مقاومة الاغراء .

وتبعا لنظرية فرويد هناك فى كل شخص منطقة من الدوافع غير المستأنسة تشبه الحيوان فى طبيعتها ، وعند الميلاد تحتوى هذه المنطقة على مجموعة من البواعث العامة « الغريزية » ، وهى ما اطلق عليه اسم **الذات الدنيا** Id فى هذا الدافع توجد قوتان مختلفتان هما :

١ ـ الدافع نحو الحياة ونحو الخلق والحب ، وهو الذى يسميه فرويد رغبة الحياة أو غريزة الحياة .

٢ ـ والدافع العدواني الهدام وهو ما أطلق عليه رغبة الموت أو غريزة الموت . وتبعا لوجهة نظر فرويد فان الطفل تحكم « الانا الدنيا » حياته . فهو بلا قيود او شعور بالاسف يسعى لتحقيق لذاته ، ويعبر عن دوافعه « الهدامة » نحو موضوعات العالم الخارجي .

وتشير الانا الدنيا في اصطلاحات فرويد الى الطبيعة البدائية وغير المفكرة واللامعقولة ، والتي تستهدف اشباع الغرائز مباشرة اشباعا كليا وعلنيا . ولكن بمرور الوقت ينمو تحكم الطفل ، ففي البداية يكون الطفل غير خلقي وغير اجتماعي ولا يتوقف عن السلوك غير المقبول الا في حضور الكبار اصحاب السلطة في العقاب .

اما **العنصر الثاني** في الشخصية الانسانية في الفكر الفرويدي فهي الذات الوسطى Ego وهي عبارة عن القدرة على التعامل عقليا بمعقولية مع الواقع ، وتنمو الذات الوسطى من الذات الدنيا ، وتتمشى مع مبدأ الواقع ، وتمثل العالم الخارجي وقيوده وتكاليفه وفروضه ومستلزماته . وهي القوة التي تدرك الحدود او الفواصل الواقعية التي تمنع من حدوث الاشباع المباشر لدوافع « الذات الدنيا » فتبعا لمنطق الذات الوسطى هذه فان تأجيل الاشباع يضمن لنا اشباعا اكثر كمالا في المستقبل . وتحتوى الذات الوسطى على اجزاء شعورية واخرى لا شعورية . وهي التي تتصل دائما بالعالم الخارجي ، وتهتم بما يجري في بيئة الفرد ، وعليها ان تفي بمطالب الواقع ، ومن ثم فانها تنادي الطفل الصغير قائلة : انك ينبغي ان تطيع امك ، لانها سوف تصفعك ان لم تفعل ذلك .

وعليها ان تشبع المطالب الداخلية للذات العليا وتقاوم ضغوط الذات الدنيا التي تدعو للانطلاق . وعلى ذلك فللذات الوسطى ثلاثة اسياد هي :ـ

١ ـ البيئة او الحياة الخارجية او المجتمع .

٢ ـ الضمير

٣ ـ الذات الدنيا

وعلى ذلك فكلما نجحت الذات الوسطى في التعامل مع هذا المثلث تعاملا حسنا تحسن توازن الشخصية او اتزانها النفسي .

اما **العنصر الثالث** في تكوين الشخصية فهو تبعا لنظرية فرويد الضمير او الذات العليا ، وهنا نتساءل كيف يتكون او ينمو ضمير الطفل الصغير ؟

كلما نما الطفل نمت المعايير الداخلية ، تلك المعايير التي نسميها صوت الضمير الذي يرشد الفرد في سلوكه وفي احكامه الخلقية .

ويمثل الضمير معايير الفرد وقيمه ومبادئه ومثله العليا . انه السلطة الضابطة العليا في الانسان ، فاذا لم يستجب الفرد لندائه فانه سوف يعاقب عن طريق قوة داخليه من خلال الشعور بالذنب وكراهية الذات ونبذها . ويعطي فرويد اهمية كبرى لنمو الضمير في نضج الفرد ،

فالفرد يظل غير ناضج حتى يعطى الاحترام الملائم لقوانين المجتمع الذى يعيش فيه ، وحتى يصبح لديه ذوق جيد ، ويطيع القانون ، يحترم حقوق الآخرين ، ويشعر بالواجب .

ويلعب الضمير دور الاب ، او الآمر اوالمراقب او الملاحظ او الشرطي على كل حال من الذات الدنيا والذات الوسطى . انه يعمل كقاض للاخلاق يحكم تبعا للمبادىء « المثالية » اكثر من المبادىء الواقعية ، انه يعمل من اجل الوصول بتصرفاتنا نحو الكمال المثالى . ويقال انه يحدد السلوك ، يقمعه او يمنعه ، ويتحكم فى ضبطه ،وعلى الرغم من طبيعة الضمير الخلقية الا انه اذا اصبح حادا أو قاسيا اكثر من اللازم فانه يظل يخز ويؤنب صاحبه على كل كبيرة وصغيرة ، بل حتى على مجرد الافكار السيئة ، حتى تلك الافكار التى ينجح الفرد في اخفائها عن الناس لا تنجو من عقاب الضمير عليها . وتؤدى حدة الضمير الى تكوين شخصية هيابة مترددة . فاذا زادت سيطرة الضمير فى الشخصية يصبح الفرد عبدا لمجموعة من العادات والتقاليد ، وعبدا لمشاعر الذنب والتأنيب القاسية . يقول فرويد ان الحياة الشخصية تشبه جبل الثلج العائم iceberg يغوص معظمه تحت سطح الماء . وعلى ذلك فالصراعات التى تحدث بين الذات الوسطى والذات العليا هى على المستوى اللاشعورى غير المرئى . وللمحافظة على توازن الفرد ينبغي ان تكون العلاقة بين الذات الدنيا والوسطى والعليا علاقة وئام وانسجام وتوازن . ولا ينبغى أن يكون الضمير قاسيا او حادا جدا ، لان ضعفه اكثر من اللازم يؤدى الى نشأة الانحراف السيكوباتي .

واخيرا فاننا ينبغى ان نشير الى انه رغم تقسيم فرويد العقل الانسانى الى هذه العناصر الثلاثة الا ان العقل الانسانى فى الواقع وحدة دينامية متكاملة متفاعلة ، بل ان الانسان نفسه وحدة جسمية نفسية واجتماعية متكاملة متفاعلة ، وان هذه العناصر ليست الا تجريدات عقلية لوصف انماط معينة من السلوك ، وليس العقل البشرى مقسما الى موجودات مستقل بعضها عن البعض (٤٦) فلا ينبغى ان نتصور ان الذات الدنيا والوسطى والعليا كائنات صغيرة تكمن داخل الانسان ، وانما هى مجرد تجريدات يضعها الباحث الملاحظ لوصف انماط معينة من السلوك .

ولا شك ان فهم الضمير عملية اساسية في فهم سلوك الانسان كله ، وهنا نتساءل عن العوامل المؤثرة فى نمو الضمير ، وعلى الفور تبرز امامنا ثلاثة عناصر اساسية هى :

١ ـ **قيم الثقافة** او معاييرها التى تكون جزءا اساسيا من الشرعية التى تنتقل للطفل عبر الآباء والامهات ، وتختلف تلك القيم من ثقافة الى اخرى ، فعلى حين نجد ان العدوان سلوك غير مرغوب فيه في اطار بعض الثقافات نجد ان توكيد الذات تؤكده وتشجعه ثقافة اخرى ، بينما تشجع ثقافة ثالثة الاعتراف الشخصى .

---

(٤٦) Burt, C., An Outline of Human relationships, William Heinemann, Ltd., London, 1959, P. 94.

٢ ــ **نمو الطفل العقلى** ، فالطفل الاكبر سنا والاكثر نضوجا من الناحية العقلية اكثر قدرة على ادراك وفهم ما نتوقعه منه ، انه يستطيع ان يفهم اسباب بعض القيود والمعايير ، كما انه يستطيع ان يعمم بعض المبادىء ، وان يطبقها على العديد من المواقف . كذلك فانه يستطيع اكثر من زميله الصغير ، ان يدرك المفاهيم المجردة التى تكمن وراء المسائل الاجتماعية مثل الايثار او المساواة او العدل او الحق او الخير او الصدق او الشفقة .

٣ ــ **علاقة الطفل بأبويه** . هنالك بحوث كثيرة استهدفت معرفة التأثير الوالدى على نمو ضمير الطفل . فى دراسات « التنميط » التى اجراها كل من سيرز وماكوبى وليفين Sears, Maccoby and Livin, 1957. طلب من امهات الاطفال ان يحددن علامات نمو الضمير فى سلوك اطفالهن . واتخذ لذلك معيارين هما :

أ ــ نزعة الطفل لكى يمثل الدور الابوى ، اى بمحاولاته تعليم اخواته واخوته واصدقائه معايير الآباء .

ب ــ سلوك الطفل الذى يعقب عمل الخطأ ، اى محاولاته الاعتراف بهذا الخطأ او الاعتذار عنه او باصلاح ما افسده . وحدد مقدار نمو ضمير الطفل على هذا المقياس المكون من خمس نقاط هى :

١ ــ لا دليل على النمو اطلاقا : حيث ينكر الطفل ، ولا يبدو عليه عدم السعادة عندما يكون « شقيا » .

٢ ــ ادلة بسيطة على وجود الضمير .

٣ ــ نمو متوسط للضمير : بما لا يعترف بالخطأ مباشرة ، ولكنه يبدو خجولا او جبانا ونادرا ما ينكر اخطاءه .

٤ ــ ضمير لا يستهان به ونام بدرجة كبيرة .

٥ ــ ضمير قوى : حيث يشعر الطفل بالتعاسة عندما يكون « شقيا » ودائما يعترف ولا ينكر ابدا ، ولديه حاجة قوية للعفو اوالحصول على تسامح الآخرين .

وتتم عملية امتصاص الطفل لمعايير الكبار عن طريق عملية التقمص او التوحد . فالتقمص القوى لشخصية الآباء يساعد على نمو ضمير الطفل . فلقد وجد (تبعا لدراسات ميسون ودستلر ١٩٦٠) Mussen and Distler أن صبيان سن الحضانة الذين كانوا اكثر ذكورة ، وبما يسبب تقمصهم لشخصية آبائهم كانو ايضا متقدمين فى نمو الضمير . كذلك وجد (فى دراسة ستين) بعض الادلة التجريبية ان الاطفال فى مواقف الاغراء يقلدون النموذج الذى يخضع للاغراء ، ويوحى هذا ان الآباء يعملون كنموذج لابنائهم فيما يختص بالسلوك الخلقى ، فقد اهتم البحث العلمى بعاملين اساسيين فيما يتعلق بنمو الضمير .

أ ــ نوع التأديب الابوى .

ب ــ دفء علاقة الاب ــ الطفل ، فيمايتعلق بالنشاط التأديبى فى المنزل . كشفت دراسة التنميط ان الاسلوب السيكولوجى اىالاتجاه الموجه بالحب ، ذلك الذى يتمثل بالمدح والغزل ، وسحب الحب ، ساعد فى نمو الضميراكثر من الاسلوب المادى الفيزيقى المتمثل فى المكافأةالمحسوسة والحرمان والعقاب الفيزيقى.

وفي دراسة ماك كونون Mackinonon على طلاب الجامعة وجد ان الذين تجاوزوا الممنوعات كانوا اولئك الاطفال الذين كان آباؤهم يتبعون نظاما فيزيقيا فى التأديب اكثر منهنظاما سيكلوجيا .

ولكن هناك دراسة حديثة نسبيا (١٩٦١)اجراها كل من بارتون وماكوبى والينسميث Burton, Maccoby and Alinsmith على اطفال سن الاربع سنواتة عن مقاومة الاغراء فى الغش لم تؤيده هذه النتائج ، ففى هذهالدراسة الاخيرة كان العقاب البدنى مرتبطا بمقاومة الاغراء اكثر من العقاب السيكولوجىاو استخدام العقل. ويبدوان الاسلوبالفيزيقى والمباشر يؤثر فى الطفل الصغير ، ولكن تحل محلهالاساليب السيكولوجية التى تشجع التقمص مع الآباء يتقدم الطفل فى السن وبحصول مزيدمن النمو المعرفى cognitive development ويشبه التميز بين مناهج التأديب الفيزيقيةوالنفسية التميز بينأسلوب الاستقراء وأسلوب الاحساس induction and sensitizaion

وقد قام بهذه المحاولة ارنو فريد سنة ١٩٦١ Arnofreed . من بين الاساليب الاستقرائية استخدام الاستدلال مع الطفل او اهماله أو نبذهاو استخدام الشرح والتفسير ، وتثير مثل هذه الاساليب في الطفل ردود فعله لتجاوزاته ، وربماتصبح ردود الفعل هذه مستقلة عن المصادر الاصلية للعقاب . وعلى سبيل المثال فانالاستدلال مع الطفل الصغير يشرح النتائج والمترتبات لفعل ما ، سوف تشجعه على فحصواختيار تصرفات ، وعلى قبول المسئولية عن هذه الافعال .

وعلاوة على ذلك فان هذا المنهج ينمىقدرة الطفل على التعاطف او وضع نفسه فىمكان الغير والاندماج ذهنيا فى موقف الشخص الآخرعن طريق تحديد الآثار الضارة لسلوكه بالنسبة لوالديه وللآخرين .

أما اسلوب الاحساس او الحساسيةفيتقمص العقاب البدنى والزجر والتعنيف والتوبيخ . هذا الاسلوب يجعل الطفل شديدالتأثير للخوف من العقاب الخارجى الذى يعقب تجاوزاته او اخطائه ، كما يعطى اهمية كبرىلمطالب الآخرين وتوقعاتهم . وعن طريق استخدام منهج « استكمال القصص » معاطفال الصف السادس فى احدى المدارس الامريكية وجدت علاقة بيننوع الاستجابةالخلقيةللطفل وأسلوب أمه في التأديب ، فالاطفالالذين استخدمت اماتهم الاساليب الاستقرائية كانوااكثر ميلا لاستخدامافكارعن الاصلاح اوالترضية

وفكـرة القبول فى قصصهـم ، بينمـا الاطفال الذين استخدمت أمهاتهم الاسلوب الحسى عبروا عن نتائج خارجية لتجاوزاتهم فى قصصهم .

وبصدد اسلوب الآباء التاديبى ايضا ميـز « هوفمان » Hoffman (١٩٦٣) بين التأديب التوكيدى القوى والتاديب غير التوكيدى وغير القوى ، النوع التوكيدى ، يتضمن العقاب البدنى والحرمان المادى ويؤدى هذا الاسلوب الى توجيه خلقى خـارجى قائم على اسـاس الخوف من العقاب من الاكتشـاف .

اما النوع الثانى فيتضمن سحب الحب ، وانماطا من التاديب الاستقرائـى ، ويؤدى الى تكوين اتجاه خلقى داخلى يتميز بشعور قـوى بالذنب . ولقـد وجد « هوفمان » تأييدا لفكرته بأن المنهج الاستقرائى يـؤدى الى ضمير اكثـر قوة من منهج سحب الحب نظرا لفشل هـذا الاسلوب الاخير فى توجيه تفكير الطفل الى الآلام التى يشعر بهـا الآخرون نتيجة لاخطائه . ان الادراك او الوعى بمشاعر الآخرين والتحقق من ان الطفل هو المتسبب فى عدم راحـة الاخـرين ينبغى ان يعمل على تنميـة ضـوابط داخليـة قوية(٤٧) .

ولقد وجد أن الاساليب الموجهة بالحب تنتشر بين أمهات الطبقة الاجتماعية الوسـطى ، اما الانماط الفيزيقية من التأديب فمنتشرة بين أمهات الطبقات الاجتماعية الدنيا . وفى دراسة « آرنو فريد » اختارت امهات الطبقة الوسطى « الاستقراء » ، بينمـا اختارت « الاحسـاس » أمهات الطبقة الدنيـا . ان الاسـلوب الفيزيقى المنتشر فى بيوت الطبقة الدنيا لا يشجع التقنص ولا يؤدى الى تقوية الضوابط الداخلية The inner controls ولم تسفر الجهود التى بذلت لربط الضمير بممارسات محددة نوعية لتربيـة الطفل عن نتائج واضحة ، ربما لان الجو السيكلوجى العام فى المنزل هو الاكثر اهمية عن اى اسـلوب نوعى محدد فى تربية الطفل .

فلقد وجد ان التهديد بانسحاب الحب ، وهو منهج سيكولوجى ، ليس له تاثير كبير اذا كانت الام « باردة نفسيا » او كانت نابذة لطفلها اصلا .

وعلى العكس من ذلك فان هذا المنهج اثبت فاعلية كبيرة عندما كانت علاقة الطفل بأمه علاقة قبول ودفء . أن الطفل غير المقبول ليس لديه ما يخسره بممارسة العمل غير المقبول .

لقد وجد ١٨٪ فقط من الاطفال المنبوذين هم الذين حـكم عليهم بأن لديهـم ضمير قوى بالمقارنة مع ٣١٪ من المجموعة المقبولة .

كذلك وجد ان الاطفال الذين يقبلهم آباؤهم كان لديهم ضمير أقوى عن الاطفال الذين ينبذهم الآبـاء .

---

(٤٧) I — Ibid.

ولقد وجد ان هناك سمتين فى الاسرةترتبطان بنمو الضمير او الذات العليا فى الاطفال، أى بوجود ضمير فعال يوجه السلوك ويرشده ،وهاتان الصفتان هما :

١ ـ الثبات أو الديمومة consistency

٢ ـ اتحاد بين الثقة المتبادلة والقبول .

فالنمط الثابت للضبط الابوى وللتوقعاتيعطى مواقف واضحة جلية لنمو السلوك الايجابى ، وعلاوة على ذلك فان جو الثقة المتبادلةيساعد الطفل لامتصاص قيم الآباء ومعاييرهم فيقبلها الطفل على أنها معاييره هو .

أن نمو الضمير ينبغى أن يفهم لكى يفهمنمو الشخصية برمتها ، ذلك لان الطريقة التى يحل بها الفرد صراعاته الخلقية هى جانب ثابتمن جوانب شخصيته .

وليس هناك أقوى من توفير جو من الحبوالدفء والحنان فى العلاقة بين الآباء والاطفال في نمو الضمير وامتلاك الضوابط الداخلية وتبنىقيم الآباء ومبادئهم ، تلك التى تعكس بدورها قيم المجتمع ومعاييره .

وفى بداية المراهقة تلعب الثقة المتبادلةوالقبول والثبات المتحد مع الدفء ، تلعب دورا هاما في نمو الضمير القوى(٤٨) .

والآن لنتناول عملية التنشئة الاجتماعيةبالعرض والتحليل لبيان الصلة الوثيقة بين النمو الخلقى والروحى فى هذه العملية .

• • •

تعريف عملية التطبع الاجتماعى وأهميتها :

أن تحديد النمو الاجتماعى مسالة صعبة ،وذلك نظرا لتعدد الدراسات التى تناولت موضوعات يمكن أن تندرج تحت هذا العنوان ،فدراسة الانفعالات والطموح والقيم والعادات السلوكيةوالعلاقات الاجتماعية واللغة ، ودراسةموضوعات مثل الغضب والعدوان والغيرةوالامان والسعادة والضحك والتعاطف والسلوك الجنسىكلها تتصل بالنمو الاجتماعى ، كذلك هناك دراساتمتعددةتتناول موضوعاتالنمو الاجتماعىدون أن تحمل هذا العنوان ، ومن امثلة ذلك دراسة جنوح الاحداث ونمو الاخلاق .

اما السلوك الاجتماعى فيقصد به السلوكالذى يتاثر بوجود الآخرين وبسلوكهم ، أو ذلك السلوك الذى ينظمه المجتمع ، أو السلوك الذىيقصد به التاثير فى الآخرين كالقيادة * مثلا فهو

(٤٨) Ibid P. 592.

* للمزيد عن موضوع القيادة راجع كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعي » دار النهضة العربية ـ بيروت.

سلوك يقصد به التأثير فى اتجاهات الآخرين وفى سلوكهم . اما النمو الاجتماعى Social growth فيقصد به نمو الفرد في السمات التى تسهل التفاعل الاجتماعى Social interaction اى الاخذ والعطاء والتأثير والتأثر بالجماعة .

اما التطبع الاجتماعى او التنشئة الاجتماعية socialization فيقصد بها العملية التى يكتسب الطفل بموجبها الحساسية للمثيرات الاجتماعية ، كالضغوط الناتجة من حياة الجماعة والتزاماتها، وتعلم الطفل كيفية التعامل والتفاهم مع الآخرين ، وان يسلك مثلهم ، فهى العملية التى يصبح الطفل بموجبها كائنا اجتماعيا ، وتتضمن هذه العملية تعليم العادات الاجتماعية والاستجابة للمثيرات الرمزية ، كما تعرف بأنها العملية التى تساعد الفرد على التكيف والتلاؤم مع بيئته الاجتماعية ، ويتم اعتراف الجماعة به ويصبح متعاونا معها وعضوا كفؤا فيها .

اما التوافق الاجتماعى فيقصد به تلاؤم الفرد وسلوكه لظروف المجتمع ومتطلباته ، وبذلك يصبح التكيف الاجتماعى social adjustment حالة تلاؤم للمجتمع الذى يعيش فيه او البيئة الاجتماعية والوفاء بظروفه وشروطه ومتطلباته .

التأثير الاجتماعى social influence ويتضمن نوعية الاشخاص الذين يعرفهم آباء الطفل والذين يتبادلون واياهم الزيارة — ويقدر الطفل آباءه ، وخاصة طفل الطبقة الاجتماعية الوسطى ، لمن يعرفونهم من أشخاص ، ولما يبدونه من حكمة ومعرفة . يقول الطفل : بابا ليس ضخما او قوى الجسم ، ولكنه يعرف الكثير والناس المهمون يدعونه لبيوتهم ، ويحضر اسبوعيا مبلغا ضخما من المال (٤٩) .

وربما يرجع لهذا السبب خضوع أطفال الطبقات الوسطى للضبط الابوى ، ويبدو ان التعليم الاجتماعى عموما يتقدم اسرع عندما تفوق نسبة التعزيزات الايجابية ، اى المكافآت ، نسبة العقاب .

كذلك وجد ان الثبات والديمومة فى المعاملة تساعد فى تعلم الطفل ، حيث يتعرف على تعديل سلوكه بحيث يحصل على ما يريد ويتحاشى مايرغب في تحاشيه .

اهمية عملية التطبع الاجتماعى :

لاشك ان عملية التطبع الاجتماعى هى أكبر انجازات الفرد ، حيث يؤدى الفشل فيها الى ان يعيش الناس حياة بائسة تعسة ، ويعانون من سوء التكيف Maladjustment كما يخلقون البؤس لغيرهم من الناس . بل ان الحروب ليست الا نتيجة للفشل الذريع لعملية التنشئة الاجتماعية فى الجماعات ، وتحدث الصعوبات والامراض الآتية نتيجة للفشل فى عملية التنشئة الاجتماعية :

١ — الذهان العقلى اى المرض العقلى أو الجنون Psychosis

---

(٤٩) McCandless, B.R., Children behaviour and Development, send. Ed. Holt, Rinehart and Winston, N.Y. 1967.

٢ ــ الجنوح أو الانحراف السلوكى Deilnquency
٣ ــ ادمان الكحول Alcohol addiction
٤ ــ السيكوباتيه والجريمة . Psychopathy
٥ ــ الجنسية المثلية Homosexuality
٦ ــ بعض أنواع الضعف العقلى Mental deficiency
٧ ــ العصاب النفسى أو المرض النفسى . Neurosis

ولسوء الحظ فان أكثر المجتمعات تقدمامن ناحية العلوم الطبيعية والانتاج التكنولوجى مازال يفتقر الى علم صحيح للتنشئة الاجتماعية ، كما يحدث فى المجتمع الامريكى الذى تنتشر فيه مثل هذه الاضطرابات والجرائم اكثر من غيره على الرغم مما حققه من تقدم علمى وتقنى . اننا فى حاجة الى علم يحدد معالم عملية التنشئة الاجتماعية ، ولذلك نجد من يقول ان كل علم النفس « هو عبارة عن علم نفس اجتماعى » . ومن اكبر الفروض التى ينبغي اعتناقها ان عملية التطبع الاجتماعى عملية تعلم في المحل الاول ، فليس الخير أو الشر فطريا فى الانسان ، ويحدث هذا التعلم نتيجة لتوجيهات الآباء ، ونتيجة للخبرة الشخصية للطفل ونتيجة للنضج الجسمى والعقلى والنفسى والاجتماعى . ويحدث التعلم على المستويين الشعوى واللاشعورى .

ومن المبادىء الهامة فى عملية التطبع انهناك فروقا فردية واسعة فى مدى تطبع الافراد أو خضوعهم لعملية التطبع . ولقد سقطت فكرة « البذرة السيئة » التى كانت توحى بالانتقال الوراثى لسمات الشخصية الاجرامية والسيكوباتية . بل اننا لم نحصل على صلات واضحة بين الحالة الوراثية ومعظم الامراض العقلية والنفسية بل حتى الضعف العقلى . ولكن هناك تفاعل قوى وفعال بين الجبلة اوالاستعدادية وبين البيئة الاجتماعية والمادية . هذا التفاعل قد يجعل من السهل او الصعب على طفل ما أن ينمو راشدا سويا منضبطا عاقلا .

ولقد لاحظ بعض الباحثين تأثير حالة الحمل والولادة على شخصية الطفل . فقد لاحظ سونتاج (٥٠) (١٩٤١) ان الاطفال الذين مروا بحمل صعب كانوا أكثر نشاطا أو اندفاعا وتهيجا، كذلك كشفت الدراسات الطولية للنمو longitudinal studies أن التفاعل بين البيئة المادية والاجتماعية من ناحية والتكوين الجسمى physique وكذلك وقت الوصول الى النضج الجسمى ومستوى النشاط يؤدى الى تأثيرات مختلفة على الشخصية .

وتلعب العوامل الآتية دورا هاما في عملية التطبع الاجتماعى :

١ ــ مركز الطفل او ترتيبه فى وسط اخوته ، فالطفل الوحيد غير الطفل الاخير غير الوسيط ،

(٥٠) راجع « بحث حقلى للمؤلف عن « سيكولوجية المرأة العربية الحامل » ، الهيئة العامة للكتاب . مصر (تحت الطبع)

والطفل المرغوب فيه غير المنبوذ ، والوحيد على عدد من البنات غير الموجود مع عدد كاف من البنات غير الموجود مع عدد كاف من الذكور... الخ .

٢ ـ سن الآباء ، فطفل الآباء المتقدمين في السن غير طفل الآباء الشباب .

٣ ـ البيئة المادية والاجتماعية المحيطة بالطفل .

٤ ـ الذكاء ، فالطفل ضعيف الذكاء أقل حساسية للمؤثرات التي تؤثر في التنشئة الاجتماعية .

٥ ـ التكوين الجسمي للطفل ، فالطفل القوي البنية غير الطفل الضعيف .

٦ ـ العلاقة بين الآباء والاطفال ونمط معاملة الطفل .

٧ ـ المستوى الاجتماعي والاقتصادي للاسرة .

٨ ـ انتماء الاسرة الى جماعات الاكثرية او الاقلية في المجتمع .

تنبع الدوافع الاجتماعية من المواقف التي يمتص منها الفرد المؤثرات الاجتماعية . هذه المؤثرات تكون في أول الامر خارجية بالنسبة للفرد . ان عملية نمو وتعلم التفاعل الاجتماعي والتي ينتج عنها ان يمتص الفرد Intrnalization المؤثرات الاجتماعية وبذلك تصبح مثيراته هو شخصيا ، وذوقه ورغباته ، هو ،هذه العملية هي عملية التطبع الاجتماعي (٥١).

ان النتيجة النهائية لتنشئة الفرد الاجتماعية تظهر في اتجاهاته الاجتماعية social attitudes وأفعاله واقواله في التعبير عن هذه الاتجاهات .كما تظهر في تعامله اليومي مع غيره من الناس وتفاعله مع الجماعات الاخرى ، ومع نواتج ثقافته ، ويؤدي مثل هذا الاحتكاك الى نشأة اتجاهات محددة نحو هذه الاشياء . فالانسان لا يولد رأسماليا او شيوعيا او جمهوريا او ديموقراطيا ... الخ وانما هو يتعلم أن يكون أيا من هؤلاء بالخبرة والتجربة . (٥٢)

مراحل النمو الاجتماعي :

يذهب **ايركسون** Erikson (١٩٥٦) الى القول بأن عملية التطبع الاجتماعي تمر بثماني مراحل او اطوار ، وهو في ذلك متأثر بعمق باتجاهات فرويد في هذه المراحل ، ولقد افترض هذه المراحل ، ليس بناء على اعمال تجريبية ،ولكن من خلال عمله الطويل بالعلاج النفسي ،وخاصة مع الاطفال والمراهقين ، من أبناء الطبقات الاجتماعية الدنيا والوسطى والعليا . وهذه المراحل مرتبطة أقل بالنظام العضوي عنها عند فرويد ، ولكنها اكثر ارتباطا بالتعلم الذي يحدث في المراحل المختلفة . ويعتبر ايركسون ان كل مرحلة عبارة عن **ازمة نفسية** تتطلب الحل قبل الوصول الى

---

(٥١) Sherif, M. and Sherif, G. An outline of social psychology Harper and Row, N.Y. 1956.

(٥٢) راجع باب الاتجاهات في كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعي » دار النهضة العربية ـ بيروت

المرحلة اللاحقة . ويعتبر هذه المراحل كالطوابق المعمارية: فالتعليم المرضي وحل كل مشكلة ضروري اذا كان للطفل أن يمر بالمراحل اللاحقة بنجاح ، بالمثل فان اساس المنزل يعد ضروريا بالنسبة للطابق الاول منه ، الذي ينبغي أن يكون قويا بدوره لتعضيد الطابق الثانى ... وهكذا .

وهذه المراحل الثمانى هى : ــ

١ ــ تعلم الثقة فى مقابل عدم الثقة mistrust-trust

وتقابل هذه المراحل مرحلة الرضاعة ، وتشمل العام الاول أو الثانى اذا تناولنا الطفل تناولا حسنا وتمت تغذيته وحبه ، فانه ينمى في نفسه الشعور بالثقة وبالامان ، والشعور الاساسى بالتفاؤل . واذا عومل معاملة سيئة فانه يفقد الثقة والامان . وجدير بالذكر ان فرويد أطلق على هذه المرحلة **اسم المرحلة الفمية :**

٢ ــ تعلم الذاتية أو الاستقلالية في مقابل الشعور بالعار . ويعتقد اريكسون ان الازمة النفسية الثانية تحدث فى الطفولة المبكرة **(من ٢ ــ ٤** سنوات) وتقابل المرحلة الشرجية عند فرويد ، وهى المرحلة التى يحدث فيها أكثر مظاهر التعليم وضوحا وضبطا ، **ونعنى التدريب على عادات** الاخراج ، ويخرج الطفل الذى يلقى معاملة والديه حسنة من هذه المرحلة متأكدا من ذاته ، سعيدا مبتسما بتمكنه من الضبط الجديد القوى ، ويشعر بالفخر أكثر من شعوره بالعار .

٣ ــ تعلم المبادأة learning intitiative **فى مقابل الشعور بالذنب .**

ويعتقد ايركسون ان هذه الازمة تحدث فى سن اللعب أو سنوات ما قبل المدرسة ، وتبدا تقريبا من سن ٣ ١/٢ سنة ، وفى اثنائها يتعلم الطفل ، الذى ينمو نموا صحيا ، أن يتخيل وان يوسع مهاراته من خلال اللعب النشط من كل الانواع بما في ذلك اللعب الخيالى ، كما يتعلم التعاون مع الغير وأن يقود غيره بالمثل كما يتبع أو ينقاد للغير . اما اذا اعاقه الشعور بالذنب فانه يصبح خائفا يقف دائما على هامش الجماعات ، ويستمر فى الاعتماد على الكبار بدون حاجة فعلية الى ذلك ويعاق نموه في مهارات اللعب play skills **وفى الخيال . وتقابل هذه المرحلة تقريبا** المرحلة القضيبية وعقدة أوديب فى الفكر الفرويدى A Phellic and Oedipal Stages *

٤ ــ تعلم الاجتهاد industry **فى مقابل الشعور بالنقص** inferiority .

وتحدث فى سنوات المدرسة الابتدائية وقد **تمتد لتشمل بعض سنوات المدرسة الاعدادية ،** وهنا يتعلم الطفل اتقان المهارات الاكثر رسمية اللازمة للحياة ، كالتعامل مع الجماعة تبعا للقواعد **والتقدم من الالعاب الحرة الى اللعب** المنظم عمدا أو المشكل طبقا للقواعد ، وقد يتطلب فريق للعب ، وكذلك اتقان الدراسات الاجتماعية والقراءة والحساب . وهنا يشعر الطفل أن عمل

---

* لمعرفة المزيد عن مراحل فرويد فى النمو راجع كتاب المؤلف « معالم علم النفس »

الواجبات المنزلية أصبح ضروريا ، وان التادبالذاتي يزداد تدريجيا . وهنا يصبح الطفل ، الذي فقد الثقة ،شكاكا فيالمستقبل ،والطفل الذي يشعر بالذنب من المراحل السابقة يشعر الآن بالهزيمة والنقص .

وتقابل هذه المرحلة مرحلة الكمون عندفرويد .

٥ – تعلم الهوية identity في مقابلاضطرابات الهوية ، وتحدث هذه الازمة النفسية في نظره في سن المراهقة ، من حوالي ١٣ – ٢٠ سنة . فقد اصبح الطفل الآن مراهقا ، يستطيع ان يجيب اجابة مرضية سعيدة للتساؤل : منأكون انا ؟

ولكن احسن المراهقين تكيفا يعانون من بعضالاضطراب في الهوية identity diffusion وخاصة الذكور ، حيث يعانون من جنوح بسيطيظهر في شكل عصيان أو تمرد rebellion والخجل والشك الذاتي ، وهنا تنمو نظرة المراهقللمزمن – ويكتسب اليقين الذاتي في مقابل الشك الذاتي والحساسية الذاتية . فيقوم بأدوارايجابية في الغالب بدلا من اعتناق الهوية السلبية (كالجنوح) فيحاول المراهق الناجح ان يحصلعلى بعض الانجازات بدلا من الشلل من جراء مشاعر النقص . وفي المراهقة المتأخرة يكتسبالمراهق الرجولة وتكتسب المراهقة الانثى صفة النسائية ، واحيانا يسعى للقيادة وبالتدريجينمى نمطا من المثل المرغوبة ، وفي الغالب ما يلعب المراهق عدة ادوار حتى يجد اكثرها ملاءمة له .

٦ – تعلم الصداقة الحميمة intimacy فيمقابل العزلة . لأول مرة يشعر المراهق الناجح بالصداقة الحميمة والحقة .. التي يمكن أن يقومعلى اساسها الزواج الناجح او الصداقة المستديمة .

٧ – تعلم الانتاجية generativity فيمقابل الاستغراق في الذات self-absorption في مرحلة الشباب المبكرة يتطلب النمو النفسي تعلم الانتاجسواء في الزواج أو الابوة وفي العمل وفي الابداع أو الابتكار .

٨ – تعلم التكامل integrity في مقابلاليأس despair اذا مرت الأزمات السبع الماضية بنجاح فان الشباب الناضج يصل الى قمةالتكييف اي التكامل .

فهو الآن يثق في نفسه ويشعر بالاستقلال ،ويعملبجدية ، ويجد لنفسه دورا محددا في الحياة وينمى في نفسه مفهوما عن الذات self-concept ويكون سعيدا بهذا المفهوم . يصبح ودودا دون توتر أو ذنب أو اسف أو بعد عن الواقعية ،ويصبح فخورا بما يبتكر او ينتج من أولاد وبعمله أو هواياته . اما اذا فشل في حل اي من الازماتالسابقة فانه يشعر باليأس والاشمئزاز .

هذه المراحل ليست الا وصفا لفظيا لكيفية نموالشخصية . ذلك لان المهم هو تحديد الظروف البيئية التي تساعد الطفل على نمو هذهالصفاتالايجابية وغيرها .

ان التطبيع الاجتماعي هو عملية تعلم تحيل الكائن البشرى من حالة الطفولة او الرضاعة ومن حالة الضعف والانانية الى حالة الراشد المثالي الذى يدين بالامتثال المعقول sensible conformity مع وجود سمات الاستقلال والابتكار (٥٣) والخلق والابداع .

• • •

التنشئة الاجتماعية فى الطفولة المبكرة :

تستخدم المجتمعات طرقا مختلفة في العناية بالطفل ، بل انه فى داخل المجتمع الواحد تختلف هذه الطرق من طبقة اجتماعية الى اخرى . ان المؤثرات الثقافية تبدأ فى التأثير فى شخصية الطفل فى اليوم الاول من ميلاده ...وتؤثر الام فى الطفل عن طريق اسلوب معاملتها اياه في التغذية وطرق اطعامه . والمعروف ان الام تسعى لتحقيق هدفين من وراء تغذيته هما :

أ ــ تغذيته

ب ــ تدريبه على تناول الطعام بطريقة صحيحة .

التغذية مسالة فسيولوجية وان كان هناك بعض الثقافات التى تفضل الاطفال السمان ، بينما هناك ثقافات اخرى تفضل الاطفال الناحلين . وتستهدف « ام » الطبقة المتوسطة ان يتدرب طفلها على تناول طعامه بدون ضوضاء او احداث اصوات ، وبدون ان يسكبه على نفسه ، وان يأكل كل الطعام من طبقه ، وان يستخدم ملعقة وشوكة وسكينا بطريقة سليمة. بل ان نظام تغذية الاطفال يتغير داخل المجتمع الواحد بمرور الوقت ، فقد تغيرت هذه العادات فى المجتمع الامريكي منذ عام ١٩٢٠ حتى يومنا هذا عدة مرات على القليل فيما يختص بعدد الوجبات وموعد كل وجبة . ففي العشرينات كان اطباء الاطفال يوصون باتباع نظام منتظم فى تغذية الاطفال مكون من ٣ وجبات يوميا . اما المستشفيات فكانت تتبع نظام تقديم اربع وجبات يوميا هي كالآتي :

١ ــ الساعة ٦ صباحا
٢ ــ الساعة ١٠ صباحا
٣ ــ الساعة ٢ بعد الظهر
٤ ــ الساعة ٦ مساء
٥ ــ الساعة ١٠ مساء
٦ ــ الساعة ٢ صباحا .

---

(٥٣) Erikson, E H. ; The problem of ego identity, J Amer Psychoanal Assm 1956, 4, 56-121

اما الآباء فكانوا يرغبـون فى اتباع نظـام يشبه نظام الكبار في الطعام ، ولذلك حذفـوا وجبة الساعة الثانية صباحا ، ولكن الثقافــة لا ينبغي ان تجمد نمو الطفل عن طريق وضــع انظمة صارمة فى تغذيته ، وبالطبع لم يكن نظام الاربع وجبات هذا ملائما لكل الاطفال وكان على الآباء ان يتحملوا بعضا من صراخ الطفل قبـل الوجبات .

وفى الاربعينات بدأ يتحول الاتجاه نحـو نظام الطلب الذاتي Self-demand schedule وبموجب هذا النظام يقدم الطعام للطفل كلما بكى طلبا له . والتقيد الوحيد الذى وضــع فى احدى الدراسات كان ضـرورة انقضاء ساعــة كاملة بين اى وجبة والاستجابـة لطلب الطفــل للطعام . ولقــد تبين ان معظم الاطفال كانـوا يطلبون الطعام بعد ثلاث ساعات، ونادرا ما كانت تصل هذه المدة الى اربع ساعات وخاصــة فى الاسبوع الاول من الميلاد . وكانت هذه المدة اطول اثناء الليل عنها اثناء النهار (٣ر٦ فى مقابل ٩ر٢ ساعة) وبالطبع يتغير النظام المرغوب بتقدم الرضيع في الســن . واستمر هذا الاتجــاه فى التزايد حتى اصبح هناك حاجة الى الاستفادة من نظام الانتظام فى الوجبات . ومزايا الطلـب الذاتي اى الايمان بنظام معين دون أن تكـون عبيدا لهذا النظام ، مع مراعاة فردية كل طفل . والمقصود من خضوع الطفــل لنظام الوجبـات الثلاث او الاربع، هو خضوعه للمعايير الحضارية فيما بعد ، ويؤثـر الغذاء تأثيرا أكثر عمقــا فى شخصية الطفل اذا لاقى صعوبات فيما يختص بالغذاء حيث يشعر بعدم الامان ولا يحتــاج الطفل فقط لتفريــغ زجاجات الطعام فى جوفــه بطريقة آلية بل انه فى حاجة الى المص . ولقــد وجــد الطفــل فى حاجــة الى الامتصاص لمــدة ساعتين يوميــا والا اضطـر الى مص اصابعــه او ملابســه او لعبه أو أشياء أخرى . كذلـك لعملية الفطام اثر نفسي قوى اذا تمت بطريقة فجائية أو قاسية تؤدى الى صعوبات انفعالية يعانى منها الطفل . (٥٤)

● ● ●

المؤسسات التي تسهم فى عملية التطبع الاجتماعي:

نتساءل عــن المؤسسات التي تسهــم فى عملية التطبع الاجتماعى هذه ، ومن اول هــذه المؤسسات التى تؤثر فى نمو الطفل الاسرة ؟

دور الآبـاء :

ان عملية التطبع الاجتماعي لا تعتمد على الطفل وحسب بل على الآباء ايضا ، لانها علــى القليل بمفهوم الضبط الاجتماعي ، لا تحدث الا اذا كان الآباء يعززون سلوك الطفل او يكافئونه عليه ، فاذا لم يقم الآباء بدور تقديم التعزيزات والمكافآت للطفل فان عملية التطبع الاجتماعي سوف تتأخر او تعاق . ويتحقق تعزيز سلوك الطفل عن طريق عناية الآباء بجسمه ودفئــه ومأكله ومشربه ، على شرط أن يتم ذلك كلــه بطريقــة رقيقــة فى اثنــاء تغذيتــه وتنظيفــه

(٥٤) Hilgard, E R. introduction to psychology Rubert Hart-Davis London, 1962

واستحمامه وتغيير ملابسه ووضعه فى الفراش على شرط الا يتم ذلك ببرود او بطريقة آلية ميكانيكية ، وانما يصاحبه تقبيل الطفل « الدندنه » او التودد اليه والتربيت عليه ولمس جسمه وتدليكه والغناء له حتى ينام .

ولقد وجد رينجولد (١٩٥٦) Rheingold أن حاجات الطفل المصحوب بالمثيرات الاجتماعية بما فى ذلك الاتصال الجسمي به ، يؤدى الى خلق طفل اكثر استجابة من الناحية الاجتماعية عن قضاء مثل هذه الحاجات بطريقة فاترة باردة وبكفاءة ولكن دون علاقات شخصية ولكن مثل هؤلاء الاطفال يسرعون فى النمو الاجتماعي عندما يتغير نمط معاملة الآباء معهم ، ويشعرونهم بالرعاية والرقة والحب ، كذلك وجد أن الرضيع يصبح قادرا على الاستجابة الاجتماعية وتزداد عنده عندما يستجيب الكبار بطريقة اجتماعية لاستجابات الطفل الصوتية المعبرة Vocal responses وينبغي تدريب الطفل على الاستجابة الاجتماعية او توجيهها الى القنوات الصحيحة عندما يبدأ فى اظهار مثل هذه الاستجابات ، وذلك حتى تصبح مقبولة لدى الآباء والاخوان والاخوات ، ثم المجتمع ككل ، بحيث يظهر الطفل الاستجابات الملائمة فى السن الملائم ، فاستجابات الفناء واشارات « باى باى » مناسبة لسن عام واحد ، ولكنها غير ملائمة لسن مدرسة الحضانة ، كذلك تبليل الفراش مقبول فى سن عام واحد ، ولكنه غير مقبول فى سن الاربع سنوات . وبالمثل البكاء من اجل الطعام مناسب فى سن ٩ شهور ، ولكنه غير ملائم فى سن ٩ سنوات مثلا . فهناك حاجة الى مزيد من الضبط والتوجيه لسلوك الطفل منذ الوقت الذى يبدأ فيه فى عمل الاستجابات الاجتماعية حتى يصبح مدنيا او متحضرا خاضعا للقانون ، ونسبيا راشدا كبيرا ، وغيريا او غير اناني .

وتبدأ عملية الضبط الاجتماعى والتكيف او التلاؤم مع تفاعل الطفل مع الآباء ثم مع اسرته ، ثم تستمر مع زملاء اللعب والاقارب والمدرسين ، وينبغي على اى مؤسسة تعمل لتحقيق التطبع الاجتماعي أن تقدم نمطا من الآتي :

١ ــ المكافآت

٢ ــ القبول

٣ ــ السماح

٤ ــ العقاب

بحيث يكسب الطفل الاتجاه نحو طاعة القانون واللياقة الاجتماعية فى سن الرشد ، وبحيث يصبح سعيدا وهادئا قادرا على القيام بدور الذكر او الانثى المطلوب ممن هم فى مثل سنه ، وقادرا مهنيا على كسب عيشه .

نمط الآباء في التعزيز :

لا شك انه ، للمرور فى مراحل النمو المبكرة ، هناك حاجة ماسة الى توجيه الطفل ومن البديهى أن يكون المنزل هو المصدر الاول لتقديم مثل هذا التوجيه ، ويمكن تمييز منهجين فى مثل هذا التوجيه هما : ــ

١ ــ اتجاه سيكولوجى قائم على الحب والمكافآت غير المادية . هنا يسحب الحب أو يهدد بسحبه ، كما لاتعطى للطفل زجاجة الطعام في نفس اللحظة التى يطلبها فيها . واذا أصبح « شقيا » ينعزل عن الآباء وهو يشتاق الى النشاط واللعب، ولكن ينبغى أن يبقى لبعض الوقت داخل عربته أو حجرته . يرى الطفل مثل هذه النماذج من الحرمان كتهديد بانسحاب الحب ، ولذلك فانه يعمل ، فيما بعد ، على تعديل سلوكه لكى لايفقد هذا الحب . وهناك أشكال أكثر تعقيدا من التهديد بسحب الحب كالحرمان من الملاطفة أو العناق أو التربيت أو الابتسامة أو كلمة المديح التى يتوق اليها الطفل .

٢ ــ يعتمد المنهج الثانى على الاشياء المادية، ويتراوح ما بين انزال العقاب البدنى الى حرمان الطفل من الطعام لتحويله الى السلوك الطيب . فى حالة منهج الحب تعمل على توضيح أن المعنويات تلفت أنظار الآخرين وانتباههم، لها أهمية خاصة . ويعلمه الآباء الضبط الذاتى خوفا من فقدان الحب .

أما المنهج السىء فانه يعلم الطفل الخوف من الأشياء المحسوسة المادية ، وهنا يقول الطفل لنفسه لابد أن تكون حسن السلوك حتى لاينكشف أمرك وتنال العقاب ، فالضبط هنا من خلال الشعور بالعار . أما فى منهج الحب فالضبط من خلال الشعور بالذنب ، ولكن اذا كان الشعور بالذنب قاسيا جدا فانه يشل حركة الطفل ونشاطه . اما الشعور بالعار فيعتمد على توقع رجل الشرطة فى كل مكان يترصد الطفل للامساك به .

ولقد اتضح ان منهج الحب اكثر فاعلية من الناحية الاجتماعية بحيث يتجنب الطفل الخطأ فى غيبة الكبار أو ممثلى السلطة ، ويمكن تمييز نوعين من التعزيز فى معاملة الآباء للطفل :

١ ــ تعزيز ايجابى reinforcement ويتمثل فى عبارة الام « ماما تحبك لأنك عملت كذا وكذا .. أو ماما سوف تعطيك كذا وكذا اذا عملت كذا ... »

٢ ــ تعزيز سلبى ، ويتمثل في قول الام لطفلها « ماما لن تحبك اذا عملت كذا وكذا .. أو ماما سوف تصفعك اذا عملت كذا وكذا .... »

وواضح ان التعزيز الايجابى يمنح المكافآت، أما السلبى فيعطى العقاب ، وهنا تساؤل ، أيهما أكثر فاعلية فى تعليم الطفل الثواب أم العقاب ؟ هناك أدلة تجريبية مؤداها ان الطفل يتعلم أسرع اذا تلقى كلا من الثواب والعقاب فى التعزيز ، فالتعزيز الايجابى لتعليمه ما ينبغى أن يعمله ، والتعزيز السلبى يعلمه مالا ينبغى عمله . وعلى ذلك فاذا تلقى الطفل تعزيزات من النوعين فانه يحاط علما بصورة أكثر شمولا عما لو تلقى تعزيزات من نوع واحد .

وتتضح هذه الفكرة من ابحاث كل من هارتوب ومور وسيجار Martup, Moore and Sager الذين وجدوا (١٩٦٣) ان الاطفال الذكور الصغار يتعلمون الادوار الجنسية الملائمة اذا منحت لهم المكافآت على السلوك بطريقة فيها ذكورة ، ويبحثون عن اللعب الذكرية ، ويعاقبون عندما يعملون أعمالا بناتية او أنثوية أو يبحثون عن لعب ودمى البنات ، وبالنسبة للاناث ، على

العكس من ذلك ، فكانت تعطى لهن المكافآت عندمايبحثن عن الاشياء « البنائية » بما فى ذلك اللعب، وكن يهملن عندما يتصرفن بطريقة « صبيانية » أو يسعين للحصول على لعب الصبيان ، بل ان فاعلية التعزيزات تتوقف على الطريقة او الاسلوب الذى يمنح به التعزيز . فلقد وجد أن التعزيز ، سواء كان ايجابيا أم سلبيا ،عندما يمنح مباشرة وبثبات او ديمومة واستمرارية وبسخاء أو بكرم فان التعلم يتم بسرعة اكثر منه عندما يكون مؤجلا ،أو بدون ثبات او ضعيف أو هزيل أو قليل ،ولكن هذا الفرض يحتاج الى كثير من الدراسات ، لان كمية التعزيزات تبعا لهذا الفرض ، تغير كمية التغيير فى السلوك ، ومعنى هذا اننا اذا أردنــا ان نضاعف من السلوك الحسن فى سلوك طفل ما فاننا نضــاعف من مقــدار ما تعطيه له من مكافآت . كــذلك فان التعزيز الجزئى يجعــل الطفل تواقا الى المزيد من التعزيز ، فيواصل العمل الجيد ، اما اذا حصل على كــل التعزيز فانه يفقد الاهتمام بمزيد من تحسين السلوك .

أثر وجود الأب فى الاسرة :

ما هو التأثير الذى يتركه وجود الاب فى الاسرة على شخصية الطفل؟ لقد اجريت دراسات كثيرة منها دراسة سيرز Sears (١٩٥١) ووجدان الصبيان الذين نشأوا فى بيوت مع الآباء كانوا أكثر عدوانا على القليل في خيالاتهم عن زملائهم الذين غاب الاب عن منزلهم .

كما كانوا اكثر ثقة ، وكانوا اكثر استعدادا لتأجيل الحصول على مكافأة صغيرة فى ســبيل الحصول على مكافأة أكبر، ولكنها مؤجلة . كذلك وجد ان الاطفال الاكبر سنا والأكثر ذكاء كانوا اكثر استعدادا لتأجيل الاشباع المباشر . كذلك وجد مولتون Moulton (١٩٦٦) ان الاباء الاكثر قوة وحبا هم أكثر قدرة على انتاج اطفــال يضبطون انفسهم بواسطــة ضمائرهــم ، وان الاطفــال الذكور الذين يمتاز آباؤهم بالقوة والحب كانوا اكثر ذكورة عنهم عندما تكون الام هى الشخصية القوية والمحبة . كذلك وجد جروسيك Grusec (١٩٦٦) ان الكبار الذين يكافئون كثيرا يجعلون الطفل أكثر استعدادا لنقد نفسه (أكثر عما يلوم الآخرين مثلا) وذلك بالمقارنة بالآباء الذين لايكافئون أطفالهم سواء كانت المكافأة بالعطاء أو العقاب .

● ● ●

مصادر القوة فى عملية التنشئة الاجتماعية :

يحدد ولوتز Wolowtz (١٩٦٥) مصادر القوة التى يتم خلالها تقديم التعزيزات بأنها : ــ

١ ــ القوة الفيزيقية ، ويدركها الطفل مبكرا ، ويعتقــد ان والده يمتلكهــا أكثر من والدته .

٢ ــ القوة الجنسية ، ولا يدركها الطفل الا متأخرا نسبيا حيث يدرك ان والديه يمثلان قوة جنسية ، واذا كانت العلاقات الجنســية مجرد علاقات شهوانية أو بهيمية بحتة فان فكرة الطفل عن الجنس تنمو سيئة .

٣ ــ الحكمة ، وللاســف فان الحكمــة فى المجتمع الحاضر لاتبدو محترمة كما ينبغى .

٤ ـ التأثير الاجتماعى ، ويتضمن نوعية الاشخاص الذين يعرفهم آباء الطفل والذين يتبادلون واياهم الزيارة ، ويقدر الطفل آباءه وخاصة طفل الطبقة الاجتماعية الوسطى ، لمن يعرفهم من اشخاص ، ولما يبدونه من حكمة ومعرفة ، يقول الطفل .. « بابا ليس ضخما او قوى الجسم ، ولكنه يعرف الكثير ، والناس المهمون يعزمونه لبيوتهم ، ويحضر للبيت اسبوعيا مبلغا ضخما من المال (٥٥) » .

وربما يرجع لهذا السبب خضوع اطفال الطبقات الوسطى للضبط ، ويبدو أن التعليم الاجتماعى عموما يتقدم اسرع عندما تفوق نسبة التعزيزات الايجابية اى المكافآت نسبة العقاب.

كذلك وجد ان الثبات أو الديمومة فى المعاملة تساعد في تعلم الطفل ، حيث يتعرف على تعديل سلوكه بحيث يحصل على ما يريد ويتحاشى ما يرغب فى تحاشيه .

تفسير عملية التطبع الاجتماعى :

هناك نظريات كثيرة لتفسير عملية التطبع الاجتماعى . أن نمو الفرد يتوقف على مدى رؤيته وردة فعله لقوى التطبع الاجتماعى التى يستخدمها المجتمع معه . يضع المجتمع الصورة التى يرغب أن يكون عليها نساؤه ورجاله. ويضع عدة قواعد لارشاد الآباء والمعلمين فى ذلك ، ولكن كيف يرى الطفل هذه العملية ؟ وما هى المفاهيم والقوى التي تكمن فى داخل الطفل والتى تحدد نوع استجابته لهذه المؤثرات الاجتماعية ؟

هناك اتجاهان نظريان فى عملية التطبع الاجتماعى هما :

أولا : نظرية التحليل النفسى ونظرية التعلم الاجتماعى ، فكلاهما يرى ان الراشد الكبير هو المحصلة النهائية لعملية تعلم الاسرة والبيئة كما يراها الطفل ، وكما تؤثر فيه ، اى تعاليم الاسرة والبيئة . فاذا كانت هذه القوى معتدلة كان الطفل سعيدا ، واذا كانت مؤذية او ضارة كان الطفل تعسا . فالكائن الحى تصقله وتشكله خبراته ، فيصبح جيدا أو سيئا تبعا لجودة او سوء مثل هذه الخبرات .

تصنع النظرية التحليلية توكيدا اكثر من نظرية التعلم الاجتماعى ، على بعض مراحل النمو التى تؤثر فيها الخبرات اكثر من غيرها من المراحل . وهذه السن تبدأ من الميلاد حتى سن السابعة . اما نظرية التعلم الاجتماعى فترى ان الطفل كائن قابل للتعديل والتغيير فى اى سن كانت .

ثانيا : الاتجاه الثانى يذهب الى الزعم بأن قوى النمو فى داخل الكائن البشرى هى فى الاساس خلاقة ، فاذا كان الطفل مقبولا ، واذالم توصد الابواب امام اشباع حاجاته ، فانه ينمو شخصا سعيدا خلقيا واجتماعيا . مثل هذه النظرية لا تقلل من أثر التعلم . وانما هى فقط تدعى انه اذا أعطى الطفل ظروفا بناءة فانه سوف يوجه نفسه نحو القنوات البناءة . وينحو

---

(٥٥) McCandless, B.R. op. cit.

التعلم النشط دورا اقل فى هذه النظرية عنه عند فرويد وفى نظرية التعلم الاجتماعى. والعنصر الاساسى فى بيئة الطفل هو القبول ، وكان جان‌جاك روسو هو اول من قال بمثل هذه النظرية فى كتابه « اميل » وما زال يعتنقها كثير من علماء‌النفس من أمثال كارك روجرز وماسلو Maslow وجيزل Gesell Rogers وان كانوا يختلفون‌عنه في بعض التفاصيل .

ويمكن تشبيه هاتين النظريتين بحالات من‌مجال البستنة فالنظرية الاولى ينطبق عليهـا المبدأ القائل : كما يثنى الجذع تنمو الشـجرة‌على غراره .

وعلى ذلك يوصى بتوفير البيئة الجيدة ذات‌التربة الصالحـة والضوء والمـاء والتخصـيب الضرورى ، ولكن التعليم أو التشـذيب الفعال‌والتشكيل والتطعيم‌والتسميد‌لابد‌من ممارستها . والنظرية الثانيـة أيضا تطالب ببيئة ذات تربة‌ملائمة وضوء وماء وربما أيضا سماد ،ولكنهـا تميل الى الاعتقاد بأن الطبيعة لديها افضل معرفة‌عن كيف تنمو الشجرة .

فالتقليم والتطعيم والتشـكيل والتسميد‌والتلقيح التهجينى تترك كلها للمجرى الطبيعى للاحداث وللطبيعة الفطرية للكائن. النظرية الاولى‌تنادى بمزيد من التعلم النشط كعمل مرغوب ، والثانية تنادى بقليل من هـذا التعلم . وطبقا‌للنظرية الاولى فان الطفل سوف يصبح اجتماعيا وغيريا وايثاريا وواثقا من نفسه للحد الـذى‌يلزمه لكى يكيف نفسه مع الآخرين ولكن يشبع حاجاته . وتتوقف سهولة هذه العملية على مدى‌كفاءة المعلم ومهاراته ، وعلى مدى ملائمة وكفاءة وفاعلية عملية التدريس . وطبقا للنظرية الثانية‌فان بذور عملية التنشـئة الاجتماعية تكمن فى الناس ، وسوف تصل الى أقصى درجات النضج‌فى بيئة تمتـاز بالقبول واللطف ، ولكنها بيئـة سالبة . وربما يضـع جيزل كثيرا من الاهمية‌للاسـتعدادية الموروثة للـوراثة أكثر من كارل روجرز ، فجيزل لا يقبل القول بأن اعطاء الفرد‌البيئة المناسـبة سـوف يؤدى الى نموه النمو الملائم .

والواقع أننا لا نعرف الصحيح من هاتين‌النظـريتين ، بل ربما لا نعـرف اذا كان كلاهما صحيح أم خطأ ، فكلاهما يضع وزنا كبيرا على‌جوانب البيئة فى التنشئة الاجتماعية . فالنظرية الاولى يمكن وصفها بأنها نظرية تعليمية ، بينمـا‌النظرية الثانية ارتقائية . ويمكن اعتبار فرويد ممثلا للنظرية الاولى وجيزل ممثـلا للثانية . النظرية الفرويدية تؤكد دائما النزعة الاجتماعية الفطرية فى الانسان ، بمعنى أن الطفل الصـغير‌الانانى يجب أن يتحول الى شخص راشد كبير ايثارى قادر على تأجيل لذاته .

ونظرية التعلم الاجتماعى لا تضع افتراضات ازاء هذه المسالة ، ولكنها تفترض ان الايثار وتاجيل اشباع اللذات يتم تعلمهما اكثر من كونهما فطريتين ، ويضع جيزل كما يضع فرويد تاكيدا كبيرا على توابع ونواتج النمو ، ولكن فرويد لا يضـع كل الاهمية – كما يفعل جيـزل – للوراثة كعامل محدد للفروق الفردية بين الناس .(٥)

الشـيخوخـة في المجتمع الانساني المتغير *

أحمد أبو زيد

حين أصدر عالم الاجتماع البريطاني المعاصر بيتر تاونسند Peter Tounsend كتابه الممتع عن « الحيـاة العائليـة لدى كبـار السـن The Family Life of Old People (١) اعتبر ذلك ايذانا ببدء الاهتمام بميدان جديد من ميادين البحث الاجتماعي ، كان مهملا الى حد كبير حتى ذلك الوقت ، واخـذ اهتمـام السوسيولوجيـين والانثربولوجيـين يـزداد

(*) سبق ان اصدرت المجلة عددا خاصابالشيخوخة ، ونظرا لاهمية الموضوع توالى المجلة نشر بعض الدراسات الاخـرى من حين لاخر ـ التحرير .

(١) اعتمد تاونسند في تاليف كتابه على دراسة عميقةاجراها في المدة بين ١٩٥٤ ، ١٩٥٧ في حي Bethnal Green في لندن ودرس اثناءها مائتى حالة لشـيوخ متقاعدين عن العمل . وكان السبب الرئيسي وراء هذه الدراسـة هو ازدياد الشعور بالقلق في بريطانيا على المسـنين الذين كانوايتزايدون في العدد بسرعة عاليـة والذين كانـوا يعانون من الوحدة والعزلة والانقباض نتيجة لشـعورهم بالاهمال من اولادهم واقاربهم ومن الدولة على السواء . وليس ادل على ذلك من أن ١٤٪ من سكان المنطقة كانوا محالين على المعاش ومتقاعدين عام ١٩٥١ ، وهى نسـبة عالية ، وكان هنـاك احساس بان هذه النسبة في ارتفاع مستمر . وقد ضمت عينة الدراسة حالات من الجنسين وكانت كل مقابلة تستغرق حوالى سـاعتين كانت تسـتخدم فيها الاستمارة والمقابلة المفتوحة ، وكثيرا ما كانت زيارة المؤلف تتكرر لنفس الاشخاص مرتين وثلاث مرات واحيانا اربع مرات لاستكمال المعلومات ، ولكن الباحث كان يعتمد بالاضافة الى ذلك على بعض المصادر الاخرى التي تلقى مزيدا من الضـوء على وضع الشـيوخ والمسنين بصفة عامة .

بدراسة الشيخوخة كظاهرة اجتماعية ، وبحياة كبار السن والشيوخ فى المجتمع العربى المتقدم ، والعلاقات الاجتماعية التى تقوم بين مختلف الاجيال ، والدور الذى يلعبه الشيوخ فى حياة المجتمع المعاصر والمشكلات التى يعانون منها ، ونظرة المجتمع والدولة اليهم والخدمات التى تقدم لهم ، ويقارنون هذا كله بما يحدث فى المجتمعات التقليدية والمتخلفة او النامية والجماعات « البدائية » التى لم تصل بعد الى مرحلة التصنيع ، والتى لايزال نظامها الاقتصادى يعتمد على اشكال اكثر بساطة ، مثل الجمع والالتقاط او صيد السمك او قنص الحيوان او الرعي او الزراعة البسيطة .

وليس معنى هذا أن دراسة تاونسند كانت اول دراسة على الاطلاق يطبق فيها المنهج العلمى وتتم بطريقة علمية منظمة ودقيقة . بل الواقع انه هو نفسه كان قد تأثر بعدد من الدراسات التى ظهرت من قبل،والتى عالجت مشكلة الشيخوخة فى بعض المجتمعات المحلية فى بريطانيا ، كما انه يبدو أن عددا من الدراسات حول الموضوع ذاته كانت قد اجريت فى بعض الدول الأوروبية ، وبخاصة فى فرنسا ، حيث نجد بالذات سلسلة طويلة من مشروعات البحوث الكبرى عن سيكولوجية الشيخوخة تتم تحت اشراف سوزان بيكو Suzanne Becaud التى كانت تهتم فى المحل الأول بتغيرات السن وأثرها فى الذاكرة ، وفى الوظائف العقلية والسيكوحركية ، وكذلك تأثير التعليم على تراجع هذه الوظائف عند المسنين . كذلك كانت هناك دراسات كثيرة تعالج الشيخوخة من الناحيتين البيولوجية والطبية ، خاصة وان علماء البيولوجيا فى دراساتهم للكائنات العضوية الدنيا ذات دورة الحياة القصيرة كانوا يعتبرون الشيخوخة خاصة اساسية فى دورة الحياة باكملها ، وكانوا بالتالى يميلون الى فهمها على انها جزء له مغزاه فى عملية الحياة ، بينما كان الاطباء يهتمون بالشيوخ نظرا لما يلعبه الطب فى علاج أمراض الشيخوخة ومحاولة اطالة الحياة عن طريق التغلب على المرض والعجز (٢) . وكان قد سبق ذلك كله مرحلة كان الاهتمام فيها بدراسة الشيخوخة يعتمد على التأمل النظرى البحث فى الأغلب ، وان كانت هناك الى جانب ذلك بعض المحاولات الجادة للقيام بالبحوث الأمبيريقية أو حتى التجريبية التى لاداعى للخوض فيها هنا . ولكن على الرغم من هذا كله فان دراسة تاونسند تعتبر احد المعالم الرئيسية فى البحوث الاجتماعية العلمية الدقيقة، بحيث يمكن القول انها أرست قواعد الدراسة السوسيولوجية فى هذا المجال الهام ، وبحيث نجد عددا من تلاميذ تاونسند يكرسون جهودهم لدراسة الشيخوخة من زواياها المختلفة ، ويصدرون فى ذلك عددا من الكتابات والدراسات التى شجعت على القيام بدراسات مماثلة خارج بريطانيا ، مما أدى فى آخر الأمر الى أن اصبح علم الشيخوخة علما اجتماعيا بقدر ماهو علم بيولوجى ، بل لقد اخذ علماء الاجتماع والانثربولوجيا فى السنوات الأخيرة يسيطرون سيطرة كبيرة على دراسات الشيخوخة ، ويسلطون كثيرا من الاضواء على النواحى والمظاهر الاجتماعية لمشكلة الشيخوخة ، وهى المظاهر التى لا يعطيها الأطباء وعلماء البيولوجيا ما تستحقه من عناية وذلك بحكم تخصصهم الدقيق . ولكن المهم هنا هو أن الاهتمام بدراسة الشيخوخة من الناحية الاجتماعية اهتمام حديث نسبيا رغم ما احرزه من نجاح وتقدم . وان معظم المحاولات التى بأيدينا تدرس المشكلة فى جماعات وفئات معينة بالذات ، أو فى مجتمعات محلية محددة

---

(٢) انظر فى ذلك John E. Anderson, " Research on Ageing " in Burgess, E. W. (ed.) ; Ageing in Western Societies, A comparative Survey, Chicago University Press, 1960, 1969.

لتحقيق أكبر قدر ممكن من الدقة العلمية ، ولامكان التعمق فى التحليل . وعلى الرغم من تزايد الدراسات والبحوث الاجتماعية والانثربولوجية والسيكولوجية فى هذا المجال، فان هذه الدراسات والبحوث لاتزال قليلة اذا هى قورنت بما حققه الاطباء وعلماء البيولوجيا الذين كان لهم بغير شك فضل السبق فى دراسة ظاهرة الشيخوخة عند الانسان .

وعلى أية حال فان علماء الاجتماع والانثربولوجيا فى دراساتهم للشيخوخة يأخذونها على انها أكثر من مجرد تغييرات بيولوجية وفسيولوجية وفيزيقية تطرأ على الجسم البشرى نتيجة للتقدم فى السن ، ويعتبرونها ظاهرة اجتماعية تتمثل فى موقف معين يقفه المجتمع من الفرد ويفرض عليه بمقتضاه قيودا وحدودا وقواعد سلوكية يلتزم بها ، كما تتمثل من الناحية الاخرى فى موقف معين أيضا يقفه الفرد نفسه من نفسه ومن الآخرين ، ويتمثل فى التزامه بتلك القواعد والقيود والمبادىء التى يضعها له المجتمع ، كما يمتنع عن كثير من الأمور التي كان يبيحها لنفسه قبل ان يصل الى تلك السن . ويقول آخر ان علماء الاجتماع والانثربولوجيا يعتبرون الشيخوخة احدى المراحل التى يمر بها الفرد خلال دورة الحياة وتلابسها مظاهر سلوكية وقيم اجتماعية معينة ، كما انها فى الوقتذاته منزلة اجتماعية يحتلها الفرد بحكم السن التى وصل اليها ، ودور اجتماعى يلتزم بالقيام به وادائه ... وربما كان هذا أوضح فى المجتمع البدائي والتقليدى منه فى المجتمع الصناعى الحديث .

(١)

لقد اهتم علماء الانثربولوجيا بالذات بدراسةهذا الموضوع وتتبع ظاهرة الشيخوخة فى الاساطير والتراث القديم وفى المجتمعات القبلية « البدائية » ولدينا ذخيرة هائلة من المعلومات المتعلقة بالشيوخ والشيخوخة فى هذه المجتمعات الأخيرة بوجه خاص . والواقع أن كثيرا من النظم الاجتماعية لدى القبائل الافريقية والاسترالية وقبائل الهنود الحمر وغيرها يصعب فهمها ان لم يؤخذ فى الاعتبار موقف تلك المجتمعات من الشيوخ والمكانة الاجتماعية التي يتمتعون بها هناك ، والادوار التي يقومون بها ، والوظائف التي يؤدونها فى تماسك الجماعة .

فالمجتمعات القبلية التي توصف عادة فى الكتابات الانثربولوجية بانها مجتمعات بدائية أو « متخلفة » تختلف فى نظرتها الى الشيوخ والشيخوخة اختلافا كبيرا عن المجتمعات الحديثة المتقدمة ، وبخاصة المجتمعات الصناعية . وربما كان السبب الرئيسي فى تلك الاختلافات هو ان الظروف والاحوال العامة فى المجتمع « البدائي » أو البسيط او المتخلف لا تسمح الا لنسبة ضئيلة جدا من السكان بأن تعيش حتى مرحلة الشيخوخة المتقدمة ، وذلك نظرا لانخفاض مستوى العناية الطبية والتربية الصحية أو التثقيف الصحي هناك ، وتفشي الامراض والأوبئة والمجاعات التي تقضى على نسبة كبيرة من السكان فى مرحلة الطفولة أو الشباب . ولذا فان الشيخوخة كعملية بيولوجية تكاد لا تكون مفهومة تماما عند هؤلاء « البدائيين » حيث يموت الناس فى العادة فى سن صغيرة نسبيا وهم لا يزالون قادرين على العمل وعلى المشاركة فى الحياة . ومن هنا فان عدد الاشخاص الذين يحتاجون فعلا الى الاعالة فى الجماعات القبلية قليل نسبيا ويكاد لا يعتبر عبئا على الجماعة الا فى الحالات التي يتعرض فيها المجتمع ككل الى المجاعات الشديدة .
وعلى ذلك فان الشيخوخة من حيث هي مشكلة تحتاج الى حل ليست قائمة هناك بنفس المعنى الذى نجده فى المجتمع الصناعى الحديث الذى تؤلف فيه الشيخوخة مشكلة ضخمة تحتاج الى تكوين مؤسسات تتولى أمر

الشيوخ والعناية بهم ، ووضع القوانين والقواعد والتنظيمات التى تنظم حياة هؤلاء الشيوخ وتهتم بتوفير مستوى اقتصادى واجتماعى معين لهم بعد أن استغنى المجتمع عن خدماتهم . وليس ثمة شك فى ان التكافل الاجتماعى القائم على أساس الروابط القرابية فى المجتمعات البسيطة والتقليدية ، والذى يقضى على اعضاء الجماعة القرابية الاهتمام والعناية بأمر أفراد الجماعة من الشيوخ والمتقدمين فى السن ، يساعد مساعدة فعالة على حل مشكلات الشيخوخة فى تلك المجتمعات . ومما يخفف من وطأة الشيخوخة على الشيوخ انفسهم وعلى بقية أفراد الجماعة فى وقت واحد ان تلك المجتمعات البسيطة وبخاصة « البدائية » منها تحاول بقدر الامكان الافادة من هؤلاء الشيوخ ومن خبراتهم العميقة فى شئون الحياة ، ومن هنا فانها تحدد لهم مركزا معينا ودورا يتعين عليهم اداؤه ، وانواعا محددة من النشاط الاجتماعى — أو حتى الاقتصادى — تتناسب مع ضعفهم الفيزيقى النسبي بحيث لا يشعر المجتمع بأنه يتحمل نحوهم مسئوليات ثقيلة أو انهم يشكلون عبئا يصعب حمله ماداموا يؤدون لهذا المجتمع وظيفة لها اهميتها بالنسبة اليه على ما ذكرنا من قبل .

والواقع أن الشيخوخة فى المجتمع «البدائي» والتقليدي تعتبر فى حد ذاتها انجازا له اهميته ومكانة متميزة ، وتجلب لصاحبها الاحترام الذى يتناسب مع المركز الاجتماعى السامى الذى يحتله فى الحياة الاجتماعية . فأهمية الفرد فى المجتمع البدائي لا ترتبط بالضرورة بقدرته على الانتاج الاقتصادى ، أو على الاصح بالمجهود الفيزيقى الذى يبذل فى عملية الانتاج. اذ ليس من شك فى ان العمل الشاق الذى يتطلب لياقة بدنية عالية وقدرة فيزيقية كبيرة انما يضطلع به الشبان . ولكن هذا لا يعنى اطلاقا عدم مشاركة الشيوخ فى النشاط الاقتصادى ، اذ أنهم يضطلعون بدور حيوى له أهميته فى عملية الانتاج ، ونعنى به الشعائر والطقوس السحرية والدينية التى تعتبر عنصرا أساسيا لضمان نجاح اية عملية انتاجية، ويستوى فى ذلك صيد السمك أو قنص الحيوان أو تفليح الارض أو بذر أو حصد المحصول أو غير ذلك . فهذه كلها أنواع من النشاط الاقتصادى لا يمكن البدء فيها ان لم تسبقها شعائر وطقوس معينة يقوم بها الشيوخ، وتعتبر ممهدة لذلك النشاط ومتممة له . ومن هنا فان علماء الانثربولوجيا الذين أتيحت لهم فرصة دراسة الدور الذى تلعبه هذه الممارسات السحرية والدينية فى الحياة الاقتصادية يعتبرونها بالعقل جزءا من عملية الانتاج ، مما يعنى بالتالي أن الشيوخ يسهمون بالعقل أيضا فى الانتاج ، وان كان المجهود الفيزيقي الذى يبذلونه فى ذلك عديم الاثر ، أو على الاقل غير واضح تماما .

والامثلة كثيرة على ذلك :

فبعض علماء الانثربولوجيا من امثال مالينوفسكى Malinowski وايفانز بريتشارد Evans-Pritchard وفيرث Firth يميزون بين « أنواع » السحر المختلفة حسب وظائفها، ويذكرون ضمن هذه الانواع السحر الانتاجى Productive الذى يهدف الى تحسين الانتاج ووسائله وتنظيم العمل ، والتحكم فى عوامل الطبيعة التي تساعد على ذلك مثل المطر . ومالينوفسكى بالذات يعطى لهذا السحر جانبا كبيرا من اهتمامه ، وهو يدرس عناصر الانتاج فى المجتمع البدائي وبخاصة مجتمع التروبرياند Trobriand الذى درسه ، ويشير بوجه خاص الى ما يسميه **بسحر الحدائق** Garden Magic ، وهو السحر الذى يمارسه الناس هناك بقصد تحقيق محصول وافر من نبات اليام Yam الذى يعتبر الغذاء الرئيسي عندهم ، وبدون ممارسة هذا السحر لن تفلح

الزراعة ولن تحقق محصولا وفيرا . ويقوم الشيوخ باداء تلك الممارسات والطقوس ، ويعتبر ذلك هو الاسهام الذى يسهمون به فى النشاط الاقتصادى ، على الأقل فى ميدان الزراعة (٣) كذلك نجد عند كثير من القبائل الافريقية تدخل العناصر الغيبية المتعلقة بالآلهة والارواح والطواطم فى النشاط الاقتصادى ، وهى عناصر يشرف عليها الشيوخ وكبار السن فى تلك الجماعات . فالشعوب النيلية مثلا تعرف ما يسمى بنظام ((**شيخ الارض**)) ،وهو من الرؤساء الدينيين الذين يتمتعون بقوة روحية خارقة ، وبمكانة دينية عالية، ويشرف على توزيع الارض فى كل موسم زراعى بين العائلات المختلفة التى يحق لها زراعة تلك الارض ، كما انه يقوم بالصلوات والأدعية والطقوس قبل الشروع فى زراعة الارض حتى يضمن نجاح المحصول وابعاد الآفات عن الزراعة . وتعتقد هذه الشعوب أن زراعة الارض بدون الرجوع الى هذا « الشيخ » وبدون القيام بهذه المراسم والطقوس ، سوف يودى بالزرع والمحصول . وهذا نفسه يصدق على بعض الزعماء الروحيين والدينيين فى تلك المجتمعات القبلية ذاتها ، وفى بعض المجتمعات النيلية الحامية فى شرق افريقيا والذين يعرفون على العموم باسم « صانعى المطر » . ومهمة « صانع المطر rain-maker » هي القيام بالصلوا توالادعية الخاصة بالاستسقاء واستنزال المطر فى سنوات الجدب ، ولذا كانت وظيفته من أهم الوظائف المكملة للحياة الاقتصادية فى تلك الشعوب . (٤)

ومن التسليم بأن افرادا قلائلا فقط هم الذين يمارسون هذه المراسيم والطقوس فى تلك المجتمعات نتيجة لخبرتهم ودرايتهم بفنون السحر ، فان القيام بهذه الممارسات يعتبر وقفا على الشيوخ والمتقدمين فى السن ممن يحذقون هذه الفنون ، بل انه ليس من المفروض ان يقوم باداء دور « شيخ الارض » أو « صانع المطر » أو ان يمارس سحر الحدائق وغيره من أنواع السحر الانتاجي الأخرى الا من يكون قد بلغ مرحلة معينة من العمر هي مرحلة الشيخوخة ، اى أن هذه الادوار تعتبر بالضرورة من ادوار الشيخوخة ومن أوجه النشاط التى ترتبط بالضرورة بتلك الرحلة . وربما كان هذا أوضح في المجتمعات القبلية التىيقوم تنظيمها الاجتماعى علىمايعرف باسم نظام او نسق طبقات العمر age-set system.

●●●

---

(٣) انظر بوجه خاص كتاب مالينوفسكى عن حدائق المرجان وسحر الحدائق وهو بعنوان :
Malinowski, B., Coral Gardens and Their Magic.

كذلك راجع ما ذكرناه فى ذلك الصدد فى الجزء الثاني من كتابنا : البناء الاجتماعى (الانساق) ، صفحة ١٢٨ حاشية ٢ حيث تقول ان الاستاذ مالينوفسكى يذكر فى كتابه Argonauts of the Western Pacific كثيرا من الطقوس التي يمارسها سكان جزر التروبرياند قبل الخروج الى رحلات التبادل المعروفة باسم الكولا ، وانهم يمارسون سحر الحدائق او « سحر الزراعة » حتى يضمنوا ليس فقط نجاح المحصول ، بل ولكى يحصلوا ايضا على ثمرات كبيرة من نبات اليام الذى يهتمون بزراعته . « فسكان هذه الجزر يتنافسون فيما بينهم على الحصول على درنات كبيرة الحجم يتخذون منها مصدرا للتفاخر فيما بينهم .ولكنهم يصلون الى ذلك ليس فقط بفضل الجهود الكبيرة التي يبذلونها فعلا فى الزراعة والعناية بالحقول ، بل وايضا عن طريق ممارسة نوعين من السحر ، احدهما يهدف الى نجاح زراعة الشخص وكبر حجم الدرنات التي تنبت فى ارضه ، والاخر يهدف الى افساد زراعة غيره من الزراع الذين يتنافسون معه . وكان من نتيجة ذلك ظهور نوع ثالث من السحر يحاول كل منهم أن يبطل به مفعول السحر الذى يوجهه خصومه الى زراعته وهكذا » . وليس من شك فى ان الشيوخ وكبار السن هم الذين يقومون بهذه الممارسات السحرية التي تؤثر تأثيرا مباشرا فى الحياة الاقتصادية .

(٤) Seligman, C. G. and Brenda Z., Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, Routledge 1932, pp. 195-200 ; 326-34 and 398-404.

ويظهر نظام « طبقات العمر » في عدد من المجتمعات « البدائية » التي يقوم التفاضل الاجتماعى فيها على أساس السن أو العمر وليس على اساس الثروة مثلا كما هو الحال بالنسبة للغالبية العظمى من المجتمعات . وليس المقصود من (العمر) هنا السن الفسيولوجية او المراحل العمرية التي يمر بها الفرد فى حياته من الطفولة الى المراهقة والشباب الى الرجولة الكاملة ، انما المقصود هو تقسيم أعضاء المجتمع ــ وبخاصة الذكور منهم ــ الى جماعات وفئات طبقية بحيث تشمل كل جماعة منها جميع الافراد الذين ينتمون الى سن معينة ، مما يؤدى فى آخر الامر الى ترتيب السكان جميعا فى طبقات تعلو احداها الأخرى ، ويقف كل منها موقفا معينا من بقية الطبقات التي تعلوها أو تأتي دونها فى السلم الاجتماعى ، كما تعمل الطبقة الواحدة وتتصرف فى كل شئون الحياة الاجتماعية ككل او كوحدة متماسكة . (٥) **فكان طبقة العمر هي جماعة محددة منظمة تضم جميع الاشخاص الذين ينتمون الى سن واحدة ، وغالبا ما تتالف من الذكور وحدهم.** وتتكون طبقة العمر فى العادة من الاشخاص الذين يكرسون معا فى وقت واحد . وبمجرد التحاق الشخص بطبقة عمر معينة نتيجة تكريسه فيها فانه يظل معتبرا عضوا في تلك الطبقة طيلة حياته . ويطلق على كل طبقة عمر فى كثير من الاحيان اسم واحد يعرف به افراد الطبقة جميعا ويشتركون فى حمله ، كما أنهم يشغلون جميعا نفس المركز الاجتماعى ويتبعون نفس أنماط سلوكه فى معاملتهم بعضهم بعضا ، ويتخذون موقفا واحدا ازاء غيرهم من الناس ممن ينتسبون الى طبقة العمر التي تعلو طبقتهم أو التي تكون أدنى منها فى المنزلة . وعلى هذا الاساس فان (طبقة العمر) تختلف تماما عن (مرحلة العمر) التي تطلق عادة على تلك الاقسام المعروفة التي تنقسم اليها **حياة الفرد من حيث هو فرد** من الطفولة الى الشيخوخة ، وذلك بعكس الحال بالنسبة لطبقة العمر التي لها معنى اجتماعى وجماعى، ولا ينظر للفرد فيها الا باعتباره عضوا فى تلك الجماعة او (الطبقة العمرية) .

فكانه يمكن حصر الفوارق الاساسية بين هذين النوعين من التقسيم ، اى طبقات العمر ومراحله ، فى نقطتين : الأولى هى ان الرجل الفرد لا يستطيع بحال ان يغير طبقة العمر التي ينتمى اليها . فولادة الفرد او تكريسه فى طبقة عمر معينة يعنى انتماءه الى تلك الطبقة طيلة حياته . بينما هو ينتقل بالطبع وبحسب نموه من مرحلة عمر معينة الى المراحل التالية بمرور الزمن وبفعل تقدمه فى السن . والنقطة الثانية هي ان فكرة التماسك والتمايز التي تعتبر ركنا جوهريا فى (طبقة العمر) لا تظهر على الاطلاق فى (مرحلة العمر) . فطبقة العمر هى جماعة من الناس تتميز باتحادها وتضامنها فى اداء واجبات وأعمال معينة مرسومة ، كما تتمتع كوحدة بحقوق وامتيازات محددة ، وتؤدى ــ كوحدة أيضا ــ وظائف معينة فى الحياة الاجتماعية بشكل لا يتوفر فى مرحلة العمر . وهذا هو ماسبق أن ألمحنا اليه حين ذكرنا ان طبقة العمر لها معنى اجتماعى بينما يصطبغ مفهوم مرحلة العمر بصبغة فسيولوجية غالبة . **ومع ذلك ، فهناك علاقة وثيقة بين الاثنين** ، اذ لايمكن فهم نظام طبقات العمر الا بدراسة هذه الطبقات فى ضوء علاقتها بالمراحل العمرية التى يمر بها الانسان فى حياته ، وذلك على أساس أن احتلال الطبقة

---

(٥) يوجد هذا النمط من التمايز الاجتماعي فيمجتمعات معينة بالذات فى افريقيا وامريكا وبعض جزر المحيط الهندى وبعض قبائل استراليا ، ولكنه لا يتمثل بوضوحوقوة فى اى منها كما يتمثل فى شرق افريقيا عند مجموعة الشعوب المعروفة باسم الشعوب نصف الحامية Half-Hamistes وبخاصة عند القبائل النيلية الحامية او النيلو حامية Nilo-Hamites وهى كلها مجتمعاتتنفرد بنسق سياسى معين .

مركزا اجتماعيا معينا ، وانتقالها من مستوى اجتماعي الى مستوى آخر اعلى منه يرتبط بالانتقال التدريجي بين مراحل العمر المختلفة، كما ان الطبقات التي ينقسم اليها سكان المجتمع تتوزع في العادة بين مختلف المراحل العمرية (انظر في ذلك مقالنا عن : « نظام طبقات العمر — دراسة في الانثربولوجيا المقارنة » — مجلة الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٣) .

وليس هنا مجال تفصيل القول في الشعائر التي تمارس لتكوين طبقة جديدة أو لالحاق الشبان المراهقين بهذه الطبقة الجديدة ، وهي الشعائر التي تعرف عادة باسم شعائر التكريس initiation ceremonies ويكفي ان نقول ان هذه الشعائر هي التي تحدد تكوين الطبقة والاشخاص الذين ينتمون الى الطبقة الواحدة ، وانها قد تستغرق عدة سنوات حتى يسمح لعدد كبير من الشبان بالدخول فيها لتكوين طبقة واحدة قوية ومتماسكة ومتعاونة، وذلك قبل أن يغلق موسم التكريس وتمر سنوات اخرى طويلة تتراوح بين سبع سنوات وخمس عشرة سنة قبل ان يبدأ موسم جديد للتكريس لتكوين طبقة جديدة وهكذا .

وتعرف الطبقة الجديدة دائما باسم طبقة الابطال المحاربين لانهم يتولون الوظيفة الحربية، اي الدفاع عن أرض القبيلة او الهجوم على القبائل الاخرى المعادية . وتظل هذه الطبقات تمارس هذه الوظيفة حتى يتم تكوين طبقة عمرية اخرى تزيح طبقة المحاربين من وظيفتها وتحتل مكانها ، بينما ينتقل المحاربون القدامى الى مرتبة اجتماعية أعلى هي مرتبة شيوخ العشيرة ، وهذا يؤدي بالضرورة الى زحزحة جميع الطبقات الاخرى الموجودة بالفعل ونقلها الى مراكز أعلى من تلك التي كانت تشغلها قبل تكوين الطبقة الجديدة ، اي أن الطبقة الناشئة لاتمارس حقها في القيام بوظيفة المحاربين الا بعد تقاعد الطبقة التي تقوم بالفعل بهذه الوظيفة وتنازلها عن السلطات المخولة لها لتلك الطبقة الجديدة الناشئة . ويتم هذا في معظم المجتمعات التي تعرف هذا النظام كل خمس عشرة سنة ، وبمقتضي ذلك تحدث نقلة الى اعلى في كل مكونات البناء الاجتماعي مع احتفاظ البناء ذاته بشكله وبالنسب القائمة بين تلك المكونات . اي ان الطبقات كلها تنتقل من مرتبة الى أخرى أعلى منها في ترتيب تصاعدي كلما تكونت طبقة جديدة ، ولكن العلاقات النسبية بين الطبقات التي تشغل مختلف المراتب تظل كما هي بدون تغيير . واختلاف الطبقات يستتبع بالضرورة اختلاف المرتبة والمركز . والطبقة تعتبر في ادنى مستويات التمايز الطبقي بعد تكوينها مباشرة وتصل الى اعلى تلك المستويات حين تقترب نهايتها ، اي حين يموت معظم افرادها بفعل السن وتكاد تختفي من الوجود .

ويختلف عدد المراتب الاجتماعية التي تمر بها طبقة العمر الواحدة من مجتمع لآخر وان كان ثمة ميل عام الى التمييز بين ثلاث مراتب اساسية هي البطولة والرجولة الكاملة والشيخوخة . وقليل من هذه المجتمعات يعتبر الطفولة مرتبة تشغلها الطبقة لفترة معلومة من الزمن . ولكل مرتبة من هذه المراتب وظيفة خاصة بها . **فالبطولة وظيفتها الحرب** كما سبق أن ذكرنا ولكن هذه الوظيفة تتضمن بالضرورة وظيفة أخرى هامة هي الوظيفة الاقتصادية ، لأن الحرب في كثير من الأحيان يكون الغرض منها شن الاغارات على معسكرات الاعداء لسرقة الماشية (الابقار) التي تلعب دورا هاما جدا في الحياة الاجتماعية كلها علاوة على قيمتها الاقتصادية ، وذلك على اعتبار ان الماشية هي أداة دفع المهر ودفع الدية وتقديم القرابين والاضحيات الى الآلهة في تلك المجتمعات الوثنية وهكذا . **وترتبط مرتبة الرجولة الكاملة بالاشتغال بامور الحياة المدنية**

والاقتصادية والسياسية ، وافراد الطبقة التى تشغل هذه المرتبة يدخلون فى تأليف مجالس الوحدات الاقليمية والقبلية التى تنظر فى المنازعات الداخلية بين أفراد القبيلة وتحاول انهاء الصراع ، اى ان وظيفتهم فى الاغلب وظيفة سياسية . **واما مرتبة الشيخوخة فانها ترتبط بوجه خاص بالوظيفة الدينية . فطبقات الشيوخ هى التى تشرف على امور الدين وعلى الطقوس والشعائر باعتبارهم اكبر الاحياء سنا فى المجتمع واقربهم بذلك الى الموت والى العالم الآخر وادناهم بالتالى الى الآلهة ، ولذا يلجأ الناس اليهم فى الملمات والازمات ، كما يطلبون اليهم التحكيم فيما قد ينشب بينهم من خلافات ويقبلون آراءهم ويخضعون لمشورتهم ونصحهم نظرا لمكانتهم الدينية الممتازة .**

ولسنا هنا بصدد الحديث عن نظام طبقات العمر فى ذاته وانما الذى يهمنا هو تبيين دور الشيوخ فى بعض المجتمعات (البدائية) والوظيفة التى يقومون بها فى تلك المجتمعات وهى وظيفة اساسية وهامة ، ثم تحديدها لهم حسب نظام محكم دقيق فى جملته ، ويأخذ فى الاعتبار القدرات الجسمية والكفاءة الذهنية وما يكتسبونه من خبرة وتجربة نتيجة لتقدمهم فى السن . ومما له دلالته هنا ان تكوين الطبقة الجديدة التى سوف تحتل مرتبة البطولة لايتم الا بموافقة الشيوخ أو اعلى طبقة من طبقات الشيوخ فى حالة تعدد هذه الطبقات فى المجتمع ، وأن الفتيان انفسهم هم الذين يلجأون الى شيوخ العشيرة طالبين اليهم الاذن بالتكريس . ويخضع الفتيان اثناء شعائر التكريس ذاتها وفى خلال المدة التى تستغرقها تلك الشعائر والتى قد تمتد الى عدد من السنين لنوع من الاشراف من طبقة الشيوخ ، كما انهم يتلقون كثيرا من التعاليم والتوجيهات والدروس التى تتعلق بنوع السلوك المنتظر منهم بعد التكريس ، وتتعاون طبقات الشيوخ كلها فى هذه المهمة التربوية الحيوية بالنسبة للمجتمع وللمحافظة على كيانه واستمرار تقاليده وقيمه الاجتماعية والثقافية . بل ان الحرب الهجومية ذاتها أو الاغارات التى هي وظيفة طبقة الأبطال المحاربين لايمكن ان تبدأ الا بعد استئذان شيوخ العشيرة وتلقى بركاتهم ودعواتهم التى تعتبر عنصرا اساسيا هاما لنجاح الاغارة او الحملة . والواقع أن الانتصار فى الحرب ونجاح الحملة او فشلها هو مسئولية الرؤساء الشعائريين او السحرة ورجال الدين قبل كل شيء ، لأنهم هم الذين يعينون الوقت الملائم للحرب الناجحة ، وهم الذين يضمنون بذلك نجاح الحملة وانتصارها .

فواضح اذن من هذا كله ان الشيوخ فى هذه المجتمعات يتعدون فى وظائفهم المجال الاقتصادى البحت ، ويلعبون دورا أكبر واوسع واشمل بحيث يتغلغلون فى كثير من نواحى الحياة الاجتماعية بطريق مباشر أو غير مباشر ، ويؤثرون فى كل مجالات الحياة . وهذا معناه فى آخر الأمر ان لهم فى تلك المجتمعات التى يطلق عليها اسم المجتمعات البدائية دورا ايجابيا واضحا يساعد على تشكيل الحياة الاجتماعية واستمرارها. وقد تختلف تفاصيل هذا الدور من مجتمع لآخر وانما المهم هو ان الشيوخ فى كل هذه المجتمعات يشاركون مشاركة فعلية وفعالة فى حياة المجتمع ، وانهم يشعرون بذلك ، كما ان المجتمع ذاته يشعرهم طيلة الوقت بحاجته اليهم . وهذه كلها مواقف تكاد لانجد لها مثيلا فى المجتمعات الصناعية المتقدمة والمجتمع الحديث على العموم .

(٢)

هذا الوضع يعتبر فى حقيقة الامر هو الوضع المنطقى فى كل المجتمعات الانسانية التى تلعب الروابط العائلية والقرابية فيها دورا هاما فى الحياة اليومية، وبالذات فى الحياة الاقتصادية، بحيث نجد ان اعضاء الجماعة القرابية يعتبرون

الشيوخ والمسنين عاملا من عوامل قوة الجماعة واستمرار وجودها وبقائها . ويصل الامر فى بعض الاحيان وفى بعض المجتمعات الى حد أن نجد الشخص يبيع المرتبة الاجتماعية التى يحتلها بحكم السن ، الى من هم أصغر منه سنا لكى يشترى مرتبة اجتماعية أعلى ترتبط بدرجة أعلى من الشيخوخة . وهذا هو ماكنا نقصده حين ذكرنا ان الشيخوخة تعتبر فى ذاتها نوعا من الانجاز فى مثل تلك المجتمعات . وليس ادل على ذلك من أن المجتمعات البسيطة تترجم تنظيماتها الاجتماعية المختلفة فى حدود والفاظ وعلاقات قرابية وعائلية على اعتبار ان هذه العلاقات هى الاساس القوى الذى يمكن ان تقوم عليه حياة المجتمع وتماسكه وتضامنه واستمراره . ونظام طبقات العمر ذاته الذى أشرنا اليه فى الفقرة السابقة لايخرج عن ذلك فى آخر الأمر . ذلك ان الانتماء الى اى طبقة عمرية انما يتم بعد ممارسة شعائر التكريس التى بمقتضاها يصبح جميع أفراد الطبقة أخوة واخوات على ماذكرنا . (٦) وهذه اخوة اجتماعية او أخوة متخيلة او متوهمة ficticious كما يحب بعض علماء الانثربولوجيا أن يصفوها ، وليست أخوة بيولوجية أو حقيقية ، ولكنها تخضع مع ذلك لجميع القواعد والالتزامات والحقوق والواجبات والمسئوليات التى تخضع لها الأخوة الحقيقية . ويتمثل ذلك فى التعاون والتماسك بين أفراد الطبقة وفى الامتناع عن التزاوج فيما بينهم أو من بين أولاد بعضهم بعضا على اعتبار أن العلاقات الجنسية بين الاخوة والاخوات وذريتهم علاقة محرمة . بل ان طبقة العمر الواحدة تنظر الى الطبقات التى تعلوها على أنها طبقات آباء وأجداد اجتماعيين تقع عليهم كل المسئوليات التى يجب أن يضطلع بها الآباء والاجداد الحقيقيون ، كما أنها تنتظر من الطبقات التى تصغرها ان تلتزم ازاءها بنفس الالتزامات التي يلتزم بها الأبناء الحقيقيون . فكأن نظام طبقات العمر ـ بشكل ما ومن زاوية معينة ـ نوع من التنظيم القرابى الاجتماعى او المتخيل الذى يلجأ اليه المجتمع القبلى لكى يحافظ به على كيانه واستمراره وعلى تماسكه ، على اعتبار ان أقوى أشكال التماسك فى المجتمع البسيط هو ذلك الذى يقوم على أساس القرابة .

وللمجتمعات البسيطة أساليبها الخاصة فى تشكيل نظمها الاجتماعية بحيث تتخذ فى آخر الأمر شكل التنظيم القرابى أو على الاقل تقوم على أساس العلاقات القرابية والعائلية الحقيقية او الاجتماعية (المتخيلة) وبذلك يرتكز التكافل الاجتماعى فى هذه المجتمعات على قاعدة قرابية وليس على مجرد المصالح الاقتصادية أو السياسية . وليس ادل على ذلك من النظام المعروف باسم النظام الطوطمي Totemism الذى يشيع فى كثير من

---

(٦) تكتسب طبقة العمر وجودها المتمايز وكيانها المتماسك بعد ان يتم بالفعل تكريس كل الافراد الذين تتألف منهم ، اى انها لا تظهر كوحدة وظيفية الا بعد التكريس .وتقام معظم حفلات التكريس على المستوى الجماعى ، ويعتبر الختان اهم عنصر فيها ، كما يتعرض الفتيان اثناءها لكثيرمن التعذيب والمتاعب التى تختلف فى الشدة والقسوة من مجمع لآخر ، مثل خلع بعض الاسنان ، او تشليخ الجبهةوالراس ، او الوخز بالاشواك والشجيرات ، او الجلد بالسياط ، وهذه كلها عمليات تهدف الى اختبار قوة احتمالالشبان على ملاقاة الصعاب كما انها تعدهم للقيام بدور الابطال المحاربين على ما ذكرنا . وليس من شك فى أن الانتماء الىطبقة واحدة والمرور بفترة التكريس والخضوع لتلك الشعائر القاسية العنيفة التى قد تتضمن احيانا عزلة افراد الطبقةلفترة معينة عن بقية المجتمع تخلق بينهم نوعا من (الاخوة) الاجتماعية التي لا تعتمد على روابط الدم ، وذلك علىاساس ان افراد الطبقة ينتسبون فى العادة الى عشائر مختلفة داخل القبيلة الواحدة ، ويساعد على خلق علاقة (الاخوة)الاجتماعية نفس عملية الختان او التشليخ الجماعية حيث يمارسها على جميع افراد الطبقة شخص واحد فى وقتواحد ، مستخدما فى ذلك سلاحا واحدا لا يهتم بتنظيفه بعد كل عملية فتختلط الدماء تبعا لذلك مما يوجد نوعا من الرابطةبينهم ـ انظر فى ذلك كتابنا : « البناء الاجتماعى » ، الجزء الثاني ـ الانساق . صفحة ٣٠٠ .

المجتمعات الافريقية القبلية وفى استراليا وغيرها ، والذى يؤدى فى آخر الامر الى ايجاد روابط قرابية اجتماعية بين اشخاص لا يرتبطون فى حقيقية الامر بأية روابط قرابية فيزيقية أو دموية . فأعضاء الجماعة الطوطمية يعتبرون أنفسهم متحدرين من سلالة ذلك الطوطم (وهو حيوان او نبات أو قوة طبيعية تلعب دورا هاما فى حياة الجماعة) ويحملون اسمه ، وبذلك يعتبرون أنفسهم اخوة واخوات ، ويحرم عليهم بالتالى الزواج فيما بينهم . ومع أن أفراد الجماعة الطوطمية قد يكونون مبعثرين كل التبعثر وتكاد لا توجد بينهم روابط قرابية حقيقية فان هذا لا يقلل بحال من قوة الروابط القرابية الاجتماعية . والذى يهمنا هنا بصفة خاصة هو المسئوليات التي تلقى على أعضاء الجماعة الطوطمية ، بصرف النظر عن وجود أو عدم وجود علاقات قرابية حقيقية ، وهذه المسئوليات والالتزامات لها الى جانب مغزاها القرابى دلالات اجتماعية واقتصادية تتمثل فى التعاون المتبادل الذى يمتد الى رعاية الشيوخ والمسنين من أعضاء الجماعة .

وهكذا نرى أن المجتمعات البسيطة أو « البدائية » تستطيع بأساليبها واجراءاتها الخاصة فى خلق روابط قرابية اجتماعية او متخيلة حتى بين الأغراب انما لتهيىء لنفسها نوعا من (الضمان الاجتماعى) ضد الأزمات التى تمر بها من ناحية ، بحيث يصلح هذا الضمان الاجتماعى لتأمين حياة اعضاء الجماعة تحت الظروف القاسية التي تسود فى تلك المجتمعات . ويمتد هذا الضمان الاجتماعى بحيث يشمل بطبيعة الحال الشيوخ وكبار السن باعتبارهم اعضاء فى الجماعة (القرابية) او باعتبارهم أقارب وعلى أساس ان الوحدة القرابية هى بالضرورة وحدة متعاونة ومتماسكة . وبهذه الطريقة يتمكن المجتمع البسيط او البدائي ان يقضى على المشاكل التي تعانى منها المجتمعات الاخرى نتيجة لشيخوخة بعض اعضائها وتقدمهم فى السن .

●●●

ويمكن ان نجد مثيلا لذلك فى المجتمعات التقليدية التي لا يزال يغلب عليها طابع الحياة الريفية ، بل وايضا فى المناطق الريفية فى الدول المتقدمة . وليس من شك فى ان الثورة الصناعية وما ترتب عليها من آثار فى بناء العائلة هي المسئول الأول عن ظهور مشكلة الشيخوخة بالحجم الذى نراها عليه فى المجتمع الحديث ، وهذه مسألة سوف نعرض لها بالتفصيل فيما بعد ، ولكن الذى يهمنا الآن هو انه قبل هذه الثورة الصناعية فى أوروباكان الشيوخ وكبار السن يجدون اشباعاتهم فى انتمائهم العائلي ، حيث كان النمط السائد للعائلةهو العائلة الممتدة extended family التي يجد فيها الفرد ــ بصرف النظر عن سنه ــ الأمان والاطمئنان والاستجابة والاعتراف بالكيان ، وحيث كان الشيوخ يؤدون وظيفة وظيفة اجتماعية حيوية تتمثل ــ فى ابسط صورها ــ فى تقديم خبرتهم ونصحهم وارشادهم لأولادهم الكبار البالغين على ما يقول بيرجس Burgess (٧) .

والمعروف ان العائلة الممتدة ترتكز أساسا على مبدأ استمرار الأجيال المنحدرة من صلب رجل واحد فى المعيشة معا بحيث يؤلفون وحدة اجتماعية واقتصادية متعاونة ، بمعنى ان الرجل لا ينفصل حين يكبر ويتزوج عن (بيت) العائلة بل يظل محتفظا بعضويته وانتمائه اليه ، وبذلك فقد تضم العائلة الممتدة افرادا ينتمون الى ثلاثة اجيال او اربعة ،

---

(٧) Burgess, E. W. ; " Family Structure and Relationships " in Burgess (ed) op. cit., p. 271.

يتعاونون معا فى الحياة اليومية ، ويقوم بينهم نوع من التكافل الاجتماعى الذى ينبـع مـن شعور كل فرد بالمسئوليـة نحو الآخـريـن اجتماعيا واقتصاديا . ونظرا لان هذه العائلة تستمد قوتها الى حد كبير من الأجيال السابقة ومن كبار السن والشيوخ الذين يوجهون كل شئونها ويتحكمون الى حد كبير فى تصرفات الأعضاء الاصغر منهم سنا فانهم يحظون لذلك بكثير من المهابة والاحترام . ولقد كان هـذا النمط من التنظيم العائلي يسود كثيرا مـن المناطق الريفية حتى فى أوروبا ذاتها ، كما انه كان يوجد لطبيعة الحال فى المجتمعات الاكثر بساطة والمجتمعات التاريخية ذات الحضارات القديمة ، ولا يـزال هو النظـام السائـد فى المجتمعات الشرقية على ما ذكرنا . واستمرار هذا النمط من التنظيم العائلي يدل على تماسك الاجيال والتمسك بالتقاليد كنتيجة حتميـة لاستمرار بقاء الأبناء وزوجاتهم وأولادهم داخل نطاق العائلة ، وذلك فضلا عن ارتباط العائلات المختلفة ببعض عن طريق الزواج والمصاهـرة فالعائلـة الممتدة هى التي تحدد فى الأغلب لاعضائها العائلات التى يمكن لهم الزواج منها آخذةفى الاعتبار المركز الاجتماعى لتلك العائلات بصرف النظر عن الميول الشخصية . ولا تزال بقايا هذا النظام موجودة الآن فى بعض مناطق الريف الأوروبى . وكل هذا من شأنه توفير قدرمن الطمأنينة والاستقرار والاحترام للاجيال السابقة وكبار السن الذين يتدخلون فى معظم الامور التى تعتبرها امورا خاصة وشخصية مثل مسألة اختيار الزوجة .

وهذه كلها أمور مألوفة لدينا ، ونحن نعرفها من خبراتنا ومن حياتنا اليوميـة حيث انها تسود فى المجتمعات الريفية الشرقية ، ولكن هناك كثيرا من الشواهد التي تشير الى ان هذا هو الوضع فى بعض المجتمعات الريفية فى اوروبا اومريكا ، حيث لا تزال الروابط العائلية تتميز بدرجة عالية من القوة والتماسك،وحيث لا تزال أنماط العلاقات القرابية تكشف عن مدى الاحترام الذى يتمتع به الشيوخ الذين يلعبون دورا فعالا فى حياة العائلة . (٨) وقد يحسن بنا ان نشير هنا الى بعض ما يسجله علماء الانثربولوجيا والاجتماع بهذا الصدد فى المجتمع الريفى فى الغرب ونكتفى بمثال واحد

---

(٨) الواقع ان بعض علماء الاجتماع البريطانيين الذين درسوا التجمعات العمالية فى بعض المناطق المتخلفة فى المدن الصناعية بانجلترا وبالذات فى لندن قد سجلوا وجود بعض بقايا العائلة الممتدة فى الاحياء الصناعية التى يسكنها العمال والتي يعملون فيها فى الوقت ذاته ، أى الاحياء التي تعتبرمناطق عمل وسكنى واقامة معا وبذلك تكون مناطق مغلقة الى حد كبير اذ تتم كل انواع النشاط الاجتماعي التى يقوم بها السكان داخل حدود تلك المناطـق ، كما ان الرجل حين يتزوج فانه يميل الى الاقامة بجوار اسرته وبخاصة اسرة امه ان كانت تعيش فى المنطقة ذاتها . ومن هنا فان شكل العائلة الممتدة هو الشكل الاومى ، وان نواة هذه العائلة الاومية الممتدة تتالف من الجدة (ام الام) وبناتها وحفيداتها وهذه مسالة قد تبدو غريبة لمن لم يدرس هذا الموضوع ، كما انها تختلف اختلافا كبيرا عن الاعتقاد السائد من ان نواة الحياة العائلية فى المجتمعات الغربية الصناعية هي الروابط العائلية الابوية التي تعتمد على الذكور لا الاناث . وقد اشار الى هذه الظاهرة كل من تاونسند ، الذى سبقت الاشارة اليه ،ويونج ويلموت Young and Willmott اللذين اشتركا معا فى دراسة بعض الاحياء المتخلفة فى لندن ، واللذين تعتبر دراستهما تمهيدا للدراسات التي قام بها تاونسند فيما بعد . ومن الطريف ان نجد أن هؤلاء العلماء الثلاثة يجمعون على ان النساء فى تلك المناطق الصناعية المتخلفة اكثر ارتباطا بأمهاتهن واخواتهن ، وغير هؤلاء الاقارب النسـاء من ارتباط الرجل باقاربه من كلا الجنسين حيث يفضل الرجل فى العادة ان يقيم علاقاته الاجتماعية مع اصدقاء وليس مع اقارب . وقداشارت اليزابت بـوت Elizabeth Bott الى ذلك فى دراستها القيمة عن Family and Social Network حين ذكرت ان احد الرجال الذين كانت تعتمد عليهم فى بحثها قال لها ان « الرجال لهم اصدقاء ، اما النسـاء فان لهن قريبات وانه ليس للنساء صديقات وانما لهن امهات فقط » . ويبدو ذلك واضحا بشـكل قـوى من التعاون المتبادل بين القريبات وقت الحاجة والشدة . وهذه كلها مظاهر سائدة فى المجتمعات البسيطة والتقليدية المتخلفة .

لذلك ، مستمد من الدراسة القيمة التى قام بها اثنان من العلماء هما آرنسبرج وكيمبول على المجتمع الريفى في ايرلندا ، وعن المنزلة الاجتماعية العالية التي يتمتع بها الشيوخ هناك ، والدور الاجتماعي الذى يقومون به فى حياة المجتمع كنتيجة طبيعية لقوة الروابط العائلية وتماسك الوحدات القرابية هناك .

ولقد لاحظ الباحثان ان الفلاح الايرلندى يعيش فى العادة الى سن متقدمة ، ومع انه من الصعب رد طول العمر في المجتمع الريفى الايرلندى الى اسباب معينة بالذات مثل الطعام والمناخ او العوامل السلالية او العناية الطبية التى يحظى بها الرجل الاوروبى عموما ، الا انه ليس ثمة شك فى أن الفلاحين الايرلنديين ـ كما يقول الباحثان ـ يعيشون طويلا ويتغلبون على الأمراض ، لان لديهم ما يعيشون من اجله ، وهو كثير . ذلك انهم فى مجال حياتهم الخاصة يحظون بكثير من الاحترام ويتمتعون بكثير من القوة والسلطة والنفوذ . وسلوك الفلاح العادى هناك وعواطفه ومواقفه واتجاهاته وحديثه فى الحياة اليومية تشير كلها الى ذلك الاحترام الذى يتمتع به الشيوخ والمسنون فى المجتمع ، وان هذا الاحترام وتلك المراعاة للسن والشيخوخة يعتبران جزءا من اخلاق المجتمع الريفي وقيمه ، وان الطفل يتعلم منذ صغره كيف ينبغي عليه ان يسلك ويتصرف مع الذين يكبرونه فى السن ، وبخاصة الشيوخ ، ليس فقط داخل عائلته وانما فى نطاق المجتمع ككل ، وهذا فى حد ذاته يساعد مساعدة فعالة واكيدة على تحديد المراكز الاجتماعية والمراتب التي يحتلها افراد المجتمع بحسب تقدمهم في السن ، كما يحدد انماط السلوك التي يجب اتباعها ، لدرجة ان المجتمع يفرض الجزاءات والعقوبات على كل من يخرج على قواعد السلوك التى يجب مراعاتها نحو الشيوخ ، وهى جزاءات تتراوح بين اللوم والتوبيخ والمقاطعة والنبذ وغير ذلك . ولا يعنى هذا اطلاقا ان الشباب لا يختلفون مع الشيوخ ، او انهم يقبلون دائما وجهة نظرهم وآراءهم ومواقفهم ، اذ كثيرا ما يعبرون عن معارضتهم للشيوخ وانتقادهم لآرائهم وافكارهم التقليدية القديمة ، ولكن هذا يتم فى حدود معينة مرسومة ، وان كان الشبان فيما بينهم كثيرا ما يسخرون منهم دون ان ينسوا مع ذلك نسق القيم الذى يمثل الشيوخ فيه الحلقة الرئيسية التي تربط افراد العائلة بعضهم ببعض ، والذى يتمتعون فيه بأكبر قدر من الاحترام والمهابة والتبجيل . ومع ان الشباب يريدون دائما بطبيعة الحال ان يكون لهم كيانهم المستقل المتمايز عن الشيوخ فانهم لا يجراون فى كثير من الاحيان على الافصاح عما يدور فى أذهانهم . وينعكس احترام المجتمع لكبار السن والشيوخ فى كثير جدا من التصرفات العادية فى الحياة اليومية ، وهى تصرفات قد تبدو عديمة الأهمية لأول وهلة ولكن لها دلالتها العميقة . فالشيوخ يجلسون دائما فى صدر المكان على المقاعد المجاورة للنار للتدفئة ، بينما يجلس صغار السن فى مؤخرة الحجرة . والشيوخ هم الذين يتكلمون بينما ينصت صغار السن والشبان ، وحتى حين يكون الكلام موجها الى أحد هؤلاء الشبان فكثيرا ما يجيب كبار السن عنه ، بل وقد يصل الحال بالشاب بان يتحرز من الكلام الا حين يؤذن له بذلك . ومن الطريف ما يلاحظه المؤلفان من أن « افضل فنجان شاى ، واكبر قطعة خبز ، والبيضتان بدلا من البيضة الواحدة ، وما الى ذلك تقدم كلها للشيوخ » دليلا على الاحترام والاعزاز والرعاية ، وهما يريان انه بدون هذه اللفتات الصغيرة تفقد حياة الجماعة الريفية طعمها ومعناها ، كما يصعب على الباحث ان يفهم العلاقات الاجتماعية بل وبناء المجتمع كله ان لم يأخذ هذه الامور فى الاعتبار . (٩)

(٩) Arensberg, C. M. and Kimball, S.T., Family and Community in Ireland, Cambridge, Mass., Harvard University Press, 1948, pp. 173-78.

وهذه كلها كما ذكرنا من قبل امور مألوفة وشائعة فى مجتمعاتنا العربيــة التي يقــوم تنظيمها الاجتماعى على اساس روابط القرابة والدم والمصاهرة ، وحيــث لا تــزال العائلــة الممتدة هي النمط الغالب ليس فقط فى المناطق الريفية بل وايضا فى المراكز الحضرية والمدن . **والمهم هنا هو ان هذه الروابط القرابية القوية هي التي تساعد الشيوخ على الاستمرار فى اداء الدور الذى يتلاءم مع سنهم ، كما تساعد المجتمع على الاعتراف بهذا الدور وتقبله ، وبالتالي على تقبل الشيوخ واحاطتهم بالرعاية والاحساس طيلة الوقت بالحاجة الى وجودهم الذى يعتبر (بركة) فى اغلب الاحيان . ومن هنا تعتبر الشيخوخة ليس مجرد انجاز كما قلنا ، بل انها تعتبر قيمة يحافظ المجتمــع عليها ويسترشد بتعاليمها .**

(٣)

هذا الالتزام بمساعدة المتقدمــين فى الســن والشيوخ والــذى يرتبط بالعائــلة الممتــدة وبالروابط القرابية القوية لم يلبث ان طرأ عليه كثير من الضعف والوهن بتقدم المجتمع الانسانى ، وتحول الكثير من المجتمعات من الحياة الزراعية البسيطة الى التنظيم الصناعى الاكثر تعقدا ، والذى ادى الى ظهور انمــاط جديدة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والقيم الاخلاقية التي لم تكن معروفة من قبل. ذلك انه قبل الثور الصناعيــة التي بــدات بوادرها الأولى فى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم وضحت معالمها فى القرن التاسع عشر ، كان النمط العام للحياة الاجتماعية فى المجتمعات القريبة هو نفس النمط الريفي الذى لا يزال يســود فى المجتمعات التقليديــة البسيطة ، والذى كانت الروابط العائلية والقرابية تلعب فيه دورا أساسيا فعالا فى كل مجالات الحياة، والتي كان الشيوخ يؤدون دورهم الواضح الحيوى فيها طالما كانوا قادرين على الحركة وعلى ابداء الرأى فى شئون الجماعــة التــي ينتمون اليها . ولقد تغير هذا كله تغيرا جذريا بدخول التصنيع الى المجتمع وظهور مراكز صناعية متقدمة كانت تعتبر ــ ولا تزال ــ مراكز جذب للسكان وللايدى العاملة ، نظرا لما تتيحه من فرص جديدة للكســب والعمــل لا تتوفر فى المجتمع الريفي الذى يعتمد علــى الزراعة وغيرها من أشكال النشاط الاقتصادى الاكثر بساطة . ولقد ترتب على ذلك الحراك السكانى من أجل الالتحاق بالمصانع كثير من التغيرات الهامة التي تتمثل فى انفصال الافراد عن عائلاتهم الكبيرة الممتدة ، وتكوينهم عائلات صغيرة أو عائلات نووية ــ حســب التعبــير الشــــائع فى الكتابــات السوسيولوجيــــة والانثربولوجية ــ تتألف مــن جيلــين اثنين (جيل الوالديــن وجيــل الاولاد) بدلا مــن الاجيال الثلاثة او الاربعة التى تتكــون منهــا العائلة الممتــدة ، وضعف الروابط العائليــة والعلاقات القرابية نتيجة لذلك ، والفصل بين مناطق السكنى والاقامة ومناطق العمل ، بعد ان اصبح الشخص يعمل فى المصانع الكبيرة التي تقام فى أماكن معينة بعيدة عن الساكن ، بعد ان كان يعمل مع اعضاء عائلته فى نفس موطن اقامته الاصلى ، وازدياد الاتجاه الــى الفردية نتيجة لاستقلال الفرد اقتصاديا عــن عائلته الممتدة ، وتبعثر اعضاء العائلة الواحدة بين مختلف مناطق العمل والصناعة ، والتحاقهم باعمال مختلفة بحيث ان الزوجين كثيرا مــا يعملان فى مهن واماكن مختلفة ومتباعدة بعد ان كانت وحدة العمل والنشاط الاقتصادى تجمع بينهما ، بل وبين كل اعضــاء الوحــدة القرابية ، وظهور التخصص الدقيق وبخاصة فى مجال الصناعة مما ادى الى تباعد اعضاء العائلة الواحدة فى عمليات الانتاج الاقتصادى بعد ان كانت وحدة الانتــاج قبــل الثــورة

الصناعية هي الوحدة القرابية الممتدة على ما سبق أن ذكرنا (١٠) . ولقد كانت النتيجة الحتمية لهذا كله هي ان اصبح الشيوخ يمثلون عبئا على العائلة . **فالعائلة الصغيرة او النواة لم تعد ــ بحكم تكوينها وبحكم الظروف التي تعيش فيها ــ تحتمل او تستطيع اعالة الشيوخ او استيعابهم او العناية بامرهم . بل ان الشيوخ لم يعودوا يؤلفون جزءا في تكوين هذا النمط من العائلة نظرا لان الرجل ينفصل عن عائلته بمجرد ان يكبر ويتزوج ان لم ينفصل عنها قبل ذلك ويرحل للعمل في مكان بعيد . (١١)**

ومن ناحية اخرى فان التغيرات التي طرات على طبيعة العمل وطبيعة العملية الانتاجية أدت الى ان تصبح الوحدة الانتاجية تقوم على أساس المصالح الاقتصادية بعد ان كانت تقوم على اساس روابط الدم والقرابة . فالعمال الذين يعملون في اي صناعة من الصناعات وفي اي مصنع من المصانع لا تربطهم ببعض ولا بصاحب العمل سوى روابط المصلحة المشتركة . فصاحب العمل يحتفظ بالعمال طالما كانوا على درجة معينة من الكفاءة والمهارة واللياقة البدنية التي تؤهلهم للقيام بالعمل الذي يوكل اليهم على الوجه الاكمل ، والا استغنى عنهم بحجة عدم حاجة العمل اليهم او عدم امكانهم تحقيق المستويات المطلوبة في الانتاج . ويتضح ذلك بأجلى صورة في استغناء العمل عن العاملين حين يصلون الى سن معينة تقل عندها قدراتهم وكفاءتهم ومهارتهم . وهي امور غير مألوفة في المجتمعات التقليدية البسيطة او اساليب الانتاج الاقتصادي التقليدي . ومن هنا كان الرأي الذي يذهب اليه الكثيرون من علماء الاجتماع والانثربولوجيا من أن مشكلة الشيخوخة والاحساس بها كمشكلة اجتماعية تحتاج الى حل ، انما هي وليدة الثورة الصناعية وما ادخلته من تغيرات على اساليب العمل والانتاج، وما ترتب على ذلك من تغيرات

---

(١٠) ترتبط فكرة التخصص وتقسيم العمل بالمعنى الدقيق للكلمة بالمجتمعات الاكثر تطورا ، وبخاصة المجتمعات الصناعية ، لدرجة أن اصبح نظاما لازما للصناعة الحديثة ويرتبط بها ارتباطا قويا في الاذهان ، وبحيث نجد ان الكثيرين من الكتاب ينكرون على الشعوب (البدائية) والبسيطة اية معرفة بالتخصص . والمقصود بالتخصص وما يرتبط به من تقسيم للعمل هو توزيع الادوار المختلفة على اشخاص مختلفين بطريقة تكفل في آخر الامر تحقيق هدف واحد متكامل ومحدد بحيث يقوم الافراد باداء ادوار معينة وانجازها . والنسق الصناعي بالذات يعتمد اكثر من غيره من الانساق الاجتماعية والاقتصادية على الدقة المتناهية في التخصص وفي تقسيم العمل والتمييز بين الادوار المختلفة التي تؤلف كلها في الوقت ذاته وحدة متماسكة متكاملة . وذهب الكثير من الكتاب أيضا الى ان التدقيق في التخصص يؤدي في آخر الامر الى كفاءة المصنع وكفاءة العملية الانتاجية وتبسيط العمل ، وذلك نظرا لان العمال يصبحون اكثر كفاءة ومهارة في انجاز اعمالهم . والاتجاه العام على اي حال في الانتاج الصناعي يميل الى المبالغة في التخصص وتقسيم العمل بحيث اصبحت الناحية الفنية التي يتضمنها الدور الذي يقوم به اي عامل من العمال مجهولة تماما للعمال الاخرين الذين يشتغلون في نفس الصناعة الواحدة ، ولكنهم يؤدون فيها ادوارا مختلفة ، وان بعض هذه الادوار يكاد لا يعرف معناها او اهميتها الا الذين يمارسونها بالفعل . والاكثر من ذلك انه في بعض الاحيان قد يجهل العامل نفسه اهمية العمل الجزئي الذي يقوم به بالنسبة للعملية الانتاجية ككل . ويذكر عالم الاجتماع الامريكي ماكيفر Mac Iver في هذا الصدد ان اكبر مساوىء التخصص وتقسيم العمل هي انهما يجعلان الناس بمثابة اجزاء في آلة واحدة كبيرة . فبعضهم يصبح بمثابة (الكباس) وهكذا ، وبذلك يصبح العامل وعمله مجرد اجزاء صغيرة لا قيمة لها في ذاتها وبذاتها ، انظر في ذلك :

Mac Iver, R. M. ; Community : A Sociological Study, Macmillan, London 1936, Pp. 359-62.

(١١) Clark Tibbitts, « Retirement Problems in American Society », in Eisenstadt (ed.)

Comparative Social Problems, Free Press, N. Y. 1964, p. 195.

فى العلاقات داخل الوحدة الانتاجية وبين المشتركين فى العمل الواحد . (١٢) واحد المظاهر الهامة لهذه الشيخوخة وما يترتب عليها من تغير العلاقات داخل العمل هو ظاهرة التقاعد عن العمل او الاحالة الى المعاش حين يبلغ العامل سنا معينة يفترض عندها انه لم يعد قادرا على العمل والانتاج حسب المستويات المطلوبة على ما أشرنا اليه .

ويعتبر التقاعد عن العمل — من حيث هو نظام اجتماعى له قواعده المحددة — ظاهرة حديثة نسبيا حتى فى المجتمع الأوروبي والامريكى ، كما انه يشكل نوعا من التحدى لنمط جديد من الحياة يختلف كل الاختلاف عن النمط المألوف الذى اعتاده المرء أثناء حياته العاملة النشيطة . ففى المجتمعات الريفية وقبل الصناعية ، او المجتمعات التقليدية والبسيطة عموما وكذلك فى العصور السابقة على الثورة الصناعية نجد ان نسبة ضئيلة جدا من السكان هى التى كانت تعيش حتى سن متقدمة وتصل الى مرحلة الشيخوخة الفيزيقية ، اى ان عدد الشيوخ فى هذه المجتمعات قليل نسبيا بحيث لا يؤلفون مشكلة اجتماعية خاصة ، وان العائلة الممتدة كانت تتحمل مسئولية العناية بهم وبذل الرعاية الضرورية لهم ، فضلا عن ان الشيوخ انفسهم كانوا يسهمون فى مختلف اوجه النشاط الاجتماعى والاقتصادى بما يتناسب مع حالتهم الفيزيقية والذهنية . الا ان تقدم الخدمات والرعاية الصحية وتقدم الطب وما ترتب عليه من اطالة فترة الحياة وبالتالى ازدياد عدد الشيوخ فى المجتمعات الاكثر تقدما ، وكذلك الانجازات العلمية والتكنولوجية التى امكن تحقيقها وما ترتب عليها من ظهور اختراعات كثيرة ، واستخدام القوى الميكانيكية والآلية فى الانتاج بدلا من القوى العضلية ، مما ادى الى زيادة انتاج العامل وتضاعفه من ناحية ، وعدم حاجة الصناعة فى كثير من الاحيان الى كل الايدى العاملة المتاحة ، واحلال الآلة محل الانسان وبخاصة حين تتقدم السن بهؤلاء العمال ، كل ذلك ساعد على تضخم مشكلة الشيخوخة بحيث أصبحت تحتاج الى تضافر كثير من القوى لدراستها وايجاد الحلول المناسبة لها وذلك بعد أن فقدت العائلة الممتدة وظيفتها ومبررات وجودها .

ولقد شغلت الاذهان مشكلة السن التى يمكن عندها أن يتقاعد المرء عن أداء عمله المألوف المعتاد ، أو التى ينبغي على المجتمع أن يجبره عندها على التخلى عن عمله والكف عن ممارسته ، وان كان يبدو ان معظم الدول فى الوقت الحالى ترى أن السن المناسبة لذلك هى الفترة بين سن الستين والسبعين ، وأن كان هذا التحديد لايخلو من التعسف . ذلك ان مثل هذا التحديد ، وان كان يرتكز بغير شك على كثير من الاعتبارات الاجتماعية والعملية يغفل الفوارق والاختلافات الفردية ، مثل القدرة الفيزيقية الفعلية على العمل والأداء ، والحالة الصحية عند مختلف الافراد ، والوضع المالى للفرد وحاجته الى العمل والى المحافظة على مركزه الاجتماعى ومكانته فى العائلة والمجتمع ، وقدرته على الاحتفاظ بعمله وممارسته على مستوى معقول ومقبول . وثمة شواهد وادلة كثيرة تشير الى أن معظم الذين يحالون الى المعاش لبلوغهم سن التقاعد التى ترتبط بمرحلة الشيخوخة من وجهة نظر المجتمع انما يميلون الى الاستمرار فى أداء عملهم ، او على الاقل القيام بعمل مايستطيعون ان يكسبوا منه بعض الدخل من ناحية ، وان يرتبطوا عن طريقه من ناحية اخرى بالحياة الاجتماعية وبالمجتمع مما يشعرهم بأنهم لايزالون قادرين على ان يؤدوا أعمالا يحتاج

(١٢) Bromley, D. B., The Psychology of Human Ageing, Pelican, London 1966, pp. 270-72.

اليها غيرهم من الناس ، وان لهم بالتالى وظيفة يقومون بها فى المجتمع الذى ينتمون اليـه . ولكن الوضع يختلف بطبيعة الحال بالنسبة لصاحب العمل الذى يرى ان العنصر الاساسى الحاسم فى ذلك هـو مدى كفـاءة العامل أو الموظف وقدرته على الانتاج ، فضلا عن الرغبة المشروعة فى استخدام فئات أصغر سنا لقدرتهم ليس فقط على العمل بل وايضا على التكيف مع الاوضاع الجديدة المتغيرة وعلى استيعاب التجديدات ، بل والقدرة على الابتكار وعلى الخلق والتجديد . (١٣)

واذا كان التقاعد يعنى بداية مرحلة جديدة بالنسبة للشيوخ فانها مرحلة لاتخلو من متاعب ومشكلات وصعوبات ، وربما كان أصعب هذه المشكلات التى تواجه الانسان بعد تقاعده هى مشكلة التكيف مع الأوضاع الجديدة التى يجد نفسه فيها . وقد أجريت بعض الدراسات فى الخارج حول هذا الموضوع لمعرفة مدى قدرة الاشخاص الذين ينتمون الى مهـن وأعمـال وطبقات اجتماعية ومستويات ثقافية مختلفة على التكيف مع هذه الاوضاع الجديدة التى تحيط بهم ، ويبدو من تلـك الدراسـات أن المشكلات الرئيسية التى يحس هؤلاء الشيوخ المتقاعدون بضرورة ايجاد حل لها هى مشكلة ضمان توفير دخـل يكفى لاشـباع حاجاتهم ومتطلباتهم ، بحيث يتوفر لهم مستوى معين من الحياة الكريمة الصحية التى لا تخلو مـن ممارسـة بعض النشـاط والمشاركة فى حياة المجتمع ، ثم ايجـاد فرص كافية للاتصال بالآخرين وخلق علاقات اجتماعية وصداقات جديدة ، ثم الرغبة الشديدة فى الاحسـاس بالمحبة والعطف ، أعنى حب الآخرين وعطفهم وحنوهم ورعايتهم لهم . ومع أن معظم هذه الدراسات تبين ان غالبية الشيوخ المتقاعدين يتكيفون بشكل او بآخر مع ظروفهم الجديدة، فثمة أعداد كبيرة منهم تشعر بالضياع والحيرة وانعدام الهدف وخلو الحياة من معنى ، وان كان ذلك لايمنعهم من أن يبذلوا الجهد للتشبث بأدوارهم القديمة التى كانوا يقومون بأدائها ، او بالبحث عن دور جديد مفيد وفعال ، وتوفير درجة معقولة من الأمن والطمأنينة . ومع ذلك فان ثمة اتفاقات فى كل هذه الدراسات والبحوث على ان الشـيوخ المتقاعـدين فى المجتمعـات الصناعية الحديثة يعانون من انخفاض واضح فى مستويات الحياة سواء فى السكن أو فى نوع الطعام أو فى الحالة الصحية ، وذلك فضلا عن الانسـحاب الجزئى او الكامل مـن الحيـاة الاجتماعيـة ، أو على الاقـل القـدرة على المشاركة بطريقة فعالة فى المناشط الاجتماعية المنظمة . ولكن لعل اشد مايثير فى نفوسهم الألم هـو الشـعور بأنهم يمثلـون عبئا على أولادهم . ويزيد مـن حدة هـذا الشـعور انصراف الاجيال الشابة عـن اعطـاء هؤلاء الشيوخ ما يحتاجون اليه مـن رعاية وعطف وعناية نتيجة لانشغالهم هم انفسهم باعبـاء الحياة المتزايدة فى القسوة (١٤) .

وكان لابد لهؤلاء الشيوخ من أن يعثروا على بديل يعوضهم عـن المصـادر السـابقة التى يستمـدون منها العطف والمحبـة والاعزاز ، والتى تزودهم بشبكة العلاقات الاجتماعيـة التى كانوا يدخلون طرفـا فيها . فاسـتقلال الابناء اقتصاديا وانتقالهم من موطن الاقامـة

---

(١٣) Tibbitts, op. cit., p. 196.

(١٤) من الدراسـات الهامة التي عرضـت لهذه المشكلات :

Susan H. Kubie and Gertrude Landau, Group Work with the aged, International Universities Press, N.Y. 1953 ; Retirement Policies and the Railroad Retirement System, Washington D.C. : Government Printing Office, 1953 ; Heron, A., Preparation for Retirement ; Solving New Problems, National Council of Social Service, London 1963.

الاصلى وتبعثرهم للبحث عن عمل يعتبر بغير شك خسارة عاطفية هائلة للاباء الشيوخ يصعب عليهم تعويضها ، كما انه يفرض على هؤلاء الشيوخ حياة الوحدة والحرمان من العلاقات القرابية والعائلية التى كانت تؤلف جزءا كبيرا من نشاطهم واهتماماتهم اليومية . ويزيد ذلك الشعور بالوحدة والعزلة عن حياة المجتمع حين يفقد المرء زوجه أو أصدقاءه مما يضع كثيرا من القيود والتحديدات على عالمه الاجتماعى وعلى نطاق علاقاته الشخصية بأفراد المجتمع الذى يعيش فيه . وهذا الانسحاب من المجتمع والحياة الاجتماعية يتم تدريجيا بحيث لايكاد المجتمع أو حتى الفرد نفسه يشعر به فى أول الأمر الى ان يسلم الفرد فى النهاية الى نوع من العزلة تكاد تكون تامة ، وبحيث يقع الفرد نفسه فى ظل النسيان ممن يعيشون حوله كما بينت دراسة تاونسند ، وان كان الكثيرون من الشيوخ ، وبخاصة الذين قاموا بأدوار هامة اثناء حياتهم العاملة والنشيطة ، كثيرا ما يقاومون هذا الميل الى التراجع والانسحاب من الحياة العامة ، ويحاولون الاستمرار بقدر الامكان فى ممارسة نشاطهم بشكل أو بآخر ، لانهم يجدون من الصعب عليهم النزول عن المكانة التى كانوا يتمتعون بها أو التفريط فى حقوقهم وسلطتهم . ولكن النتيجة النهائية على أى حال والطابع العام السائد الذى يطبع حياة الشيوخ هو ازدياد الشعور بالوحدة والانعزال والانحصار داخل دائرة من العلاقات الاجتماعية التي تضيق بالتدريج (١٥) .

وهذا كله من شأنه أن يلقى مسئولية رعاية هؤلاء الشيوخ والمسنين على عاتق المجتمع ككل ، أو على عاتق الدولة التى يتعين عليها ازاء هذه التغيرات العميقة فى العلاقات القرابية والعائلية التقليدية ان تحل محل العائلة الممتدة وتقوم بوظائفها فيما يتعلق بالعناية بهؤلاء الشيوخ ، وذلك رغم الفجوة الواسعة الهائلة التى تفصل بين الحكومة والفرد . والملاحظ انه على الرغم من تزايد عدد الشيوخ والمسنين فى كل المجتمعات الانسانية بدون استثناء ، نتيجة لتقدم الرعاية الصحية والخدمات الطبية بالذات ، أن الشيوخ لايؤلفون قوة ضاغطة على الحكومات فى أى من تلك المجتمعات ، حتى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، بحيث يضطرونها الى الاستجابة لمطالبهم . اى أن الشيوخ — من حيث هم فئة متميزة عن بقية فئات المجتمع — يفتقرون الى التنظيم القوى الفعال المؤثر ، وان كانت النقابات والاتحادات العمالية والمهنية المختلفة قد استطاعت ان تحقق الكثير من المزايا لاعضائها الذين يصلون الى سن التقاعد ، بحيث توفر لهم فى شيخوختهم درجة معينة من الحياة الكريمة المريحة . ولكن الشيوخ — كشيوخ ، او كفئة بصرف النظر عن أعمالهم أو مهنهم أو تخصصاتهم الاصلية وغير ذلك من عوامل التفاوت والتفاضل — ينقصهم ذلك التنظيم الذى يمكن ان يضمهم جميعا ويتكلم باسمهم كفئة ، ويطالب بحقوقهم كما هو الحال مثلا فى تنظيمات الشباب . وليس من شك فى ان الحكومات تعطى فى الوقت الحالي اهتماما متزايدا لمشكلات الشيوخ والشيخوخة وتضع القوانين والتشريعات التي تكفل ضمان حقوقهم . ولكن مهما يكن من أمر هذه الجهود فان الحكومات بكل تنظيماتها ومؤسساتها واجهزتها التي تسخرها للسهر على رعاية الشيوخ لا يمكن أن تكون بديلا حقيقيا يحل محل العائلة الممتدة القديمة رغم قصور الامكانيات المادية للعائلة . فكل هذه المؤسسات والاجهزة لا تستطيع ان تعطي الشيوخ ما يحتاجون اليه حقا من دفء الصداقة والرفقة الحقيقية التي يشعر بها المرء بين افراد عائلته وبخاصة حين

(١٥) Bromley, op.cit ; p. 85.

تتقدم به السن . ولذا فانه رغم كل الجهود التي قد تبذلها بعض الحكومات والهيئات لتهيئةواعداد بيوت للشيوخ والعجائز وتزويدها بمختلف وسائل التسلية والتثقيف ، ومحاولة شغل أوقات هؤلاء الشيوخ فان الشعور والانعزال والتمركز حول الذات يظل مسيطرا عليهم . ويكشف هذا الشعور عن نفسه فى كثرة الشكوى والتذمر التى تميز حياة الشيوخ، وهى شكوى تمتد فى كثير من الاحيان الى كل الاوضاع العامة السائدة فى المجتمع ، وتتخذ شكل المقارنة بما كان يحدث فى العهود السابقة ، وان كانت هذه الشكوى تصل الى ذروتها فيما يتعلق بانصراف الأبناء والاقارب عن الاهتمام بهم واعطائهم ما يستحقونه من رعاية ، وما هم بحاجة اليه من عطف .

وعلى أية حال فالملاحظ هو ان الحكومات فى محاولتها رسم سياساتها الخاصة برعاية الشيخوخة تتخذ بوجه عام أحد اتجاهين متعارضين تماما .

فاما الاتجاه الاول فانه يقوم اساسا على الايمان باستقلال الفرد فى اتخاذ قراراته ورسم حياته بنفسه دون تدخل من السلطات ، وأن ذلك يجب أن يكون الحال فيما يتعلق بالشيوخ. ولذا يرسم أصحاب هذا الاتجاه سياستهم على أساس ضمان تحقيق استقلال هؤلاء الشيوخ والمسنين والعجزة وتوفير حرية الحركة والعمل لهم بحيث يستطيع كل منهم أن يأخذ زمام المبادرة بنفسه مثلما كان يفعل خلال مراحل حياته السابقة قبل ان يصل الى مرحلة الشيخوخة . وهذا معناه ان رعاية الدولة للشيوخ يجب ان تأخذ فى الاعتبار امكان توفير الظروف التي تساعد الفرد على أن يختار بنفسه اسلوب حياته اثناء الشيخوخة ، وهذا الاتجاه يسخر من الاعتقاد السائد عن كثير من الناس من أن المرء يفقد استقلاله وقدرته على اتخاذ القرارات حين تتقدم به السن ويصل الى الشيخوخة الفيزيقية . ولذا فان المهم عند اصحاب هذا الاتجاه هو الكشف عن مصادر القوة الكامنة فى الفرد ، وعن المقومات الاساسية فى شخصيته وتكوينه التى تساعده على الاحتفاظ باستقلاله وكيانه المتميز ، وأنه لا بد للمرء من ان يتنبه فى مرحلة مبكرة من حياته الى مرحلة الشيخوخة التى سوف يصل اليها فى وقت من الاوقات ، ان طالت به الحياة وطال به العمر ، وان يستعد لهذه المرحلة ليس فقط بتوفير ما قد يحتاج اليه حينئذ من مال او ممتلكات ، بل وايضا عن طريق تنمية اهتمامات جديدة يمكن أن تملأ عليه حياة الوحدة والوحشة والفراغ . وهذا كله كفيل فى آخر الامر بان يجذب الشخص المسن الى حياة المجتمع من جديد ، بحيث يشارك فى حياته وحياة الجماعة ويقوم بدور ايجابى فعال فى حياة ذلك المجتمع .

وأما الاتجاه الثاني فانه على العكس من ذلك تماما يأخذ فى الاعتبار **سلبية الفرد وبخاصة** حين يصل الى مرحلة الشيخوخة . فالشيوخ بحكم واقعهم وضعفهم وتدهور قواهم الفيزيقية والذهنية لا يستطيعون ان يهتموا بانفسهم او أن يعطوها ما تستحقه من عناية ورعاية . كما أن الفرد بطبيعته قلما ينتبه أثناء شبابه الى ما سوف يؤول اليه أمره بمضى السنين . وبذلك فانه قلما يأخذ عدته للمستقبل ، وأن يعمل مقدما على توفير ماسوف يحتاج اليه حين يصل الى الشيخوخة . ولقد وصلت الحياة الحديثة الى درجة من التعقيد يعجز معها الشيوخ عن ان يواجهوها وحدهم وبدون عون من الدولة ذاتها ، ومن هنا كان أصحاب ذلك الاتجاه يرون أن من أهم مايجب على الدولة ان تضطلع به هو أن توفر للشيوخ والمسنين والعجائز من اعضاء المجتمع الضمانات المادية والاجتماعية التى تسمح لهم بأن يمضوا الفترة الباقية من حياتهم دون أن يشغلوا انفسهم بأمور العيش

أو الخوف مـن المرض . ويقول آخـر فان ما يحتاج اليـه الفرد حين تتقـدم به السن ويصل الى مرحلـة الشيخوخة هـو مختلف الخـدمات الاجتماعيـة والصحية والترفيهية دون ان يحمل هو نفسه ما لا يطيق من أجـل البحث عنها ، أو من أجل أن يثبت لنفسـه وللآخرين انه لايزال قادرا على المشـاركة فى حياة المجتمع والقيام بدور ايجابي يعود بالخير على الآخرين . (١٦)

● ● ●

وايا مايكون موقف الحكومات والمؤسسات من الشيخوخة والشـيوخ فالشيء الواضـح الآن هو ان الشيخوخة تعتبر من اهم المشكلات الرئيسـية التى تواجه المجتمعات الحديثـة والتى تشـغل بال الكثيرين مـن العلماء مـن مختلف التخصصات . ولقد كان معظم اهتمام العلماء فى الماضى موجها الى النواحى الطبيـة والبيولوجية كما ذكرنا ، وفى هذين المجالين بالـذات تتمثـل اهم الاسهامات فى بحـوث الشيخوخة ، ولا تزال هذه النواحى تحظى حتى الآن بكثير من العناية ، بينما قليل جدا مـن البحـوث تعرضت للجوانب الانسـانية والاجتماعية للمشكلة رغم انها تتصل فى المحل الاول بالفرد من حيث هو انسان وعضـو فى مجتمع . ولقد جاءت هذه الاسهامات متأخرة نسبيا ولكنها حققت كثيرا من النجاح وكشفت عن ميادين كثيرة غنية وعميقة ، وان تكن هناك ميادين اخرى أوسع وارحب واعمق لاتزال مجهولـة وتحتاج الـى كثير مـن البحـوث والدراسـات الميدانيـة الجـادة فى مختلـف المجتمعات والثقافات . ومما يؤسف له اننا هنا لم نكد ننتبه الى هذا الموضوع الحيوى ، ولم تقم حتى الآن اية دراسات جدية حول المشكلات الاجتماعية الواقعية التى يواجههـا الشيوخ والعجائز فى المجتمع العربى المعاصر ، كما أن الجامعات العربية لم تول هذا الموضوع ما يستحقه من عناية واهتمام ، على الرغم من أن العالم العربى مقبل الآن على تغيرات سريعة وعميقة نتيجةللاتجاه نحو التصنيعوالتحديث، وما سوف يترتب عليهما من تغييرات فى البناء الاجتماعى والنظم الاجتماعية وانسـاق القيم والثقافـة التقليديـة والعلاقـات بين الناس وبخاصة داخل نطاق العائلـة . واذا كـان الشيوخ فى مجتمعاتنا لايزالون يجدون الكثير من الرعاية والاحترام والمراعاة ، ولا يزالون يلعبون دورا فى الحياة الاجتماعية ، وان كان يختلف من مجتمع لآخر ، فان ذلك يرجـع فى المحل الاول الى روح التكافل الاجتماعى الذى يرتكز كما رأينا من قبل على الروابط القرابية والعائلية التي تستمد قوتها من القيم التقليدية المتوارثة ، وهذا كله سوف يتعرض للتغير بغير شك نتيجة للاتجاه نحو الحياة الحديثة ، وبذلك فان مكانة الشيوخ والنظرة اليهم والى الشيخوخة سوف تتغير بدورها . وقبل ان تظهر المشكلة بنفس الحجم الـذى نجـده فى المجتمعات الاوروبية الحديثة قد يكـون مـن الخير أن نعد لها العدة من الآن عـن طريـق الدراسة والبحث ، ليس لكى نمنع وقـوع المشكلات والصعوبـات المتعلقة بالشيخوخـة ولكن لكى نخفف من وقعها ومن آثارها بقدر الامكان . وسوف يتطلب ذلك بالضرورة اتخاذ خطوات ايجابية مدروسة لتحديـد موقـف المجتمعمن الشيوخواعدادهم لمواجهة الظروف الجديدة التي سوف يجدون أنفسهم حيالها .

والذى يبدو للمرء من دراسة الاوضاع فى المجتمعات الصـناعية الحديثة هـو انه مع التسليم بكل ما فعلته المدنية الغربية الحديثة فى مجال اطالة فترة الحياة بالنسـبة للغالبية

(١٦) Havighurst, R. J. ; " Life Beyond Family and Work ", in Burgess, op.cit., pp. 303-4.

العظمى من السكان فى تلك المجتمعات نتيجة لتقدم الطب بالذات فان هذه المدنية الحديثة ذاتها أساءت اساءة بالغة لكثير من الاساليب القديمة التي كان الشيوخ يعتمدون عليها فى تكيفهم مع واقع الحياة ومع الظروف الجديدة التى يواجهونها بحكم شيخوختهم . بل انه يمكن القول ان أساليب المدنية الحديثة فى حل مشكلات الشيخوخة تكشف عن كثير من نواحى النقص والقصور اذا هى قورنت بالاساليب والاوضاع التقليدية القديمة التى كانت تسهم اسهاما كبيرا فى أن يمضى الشيوخ الفترة الاخيرة من حياتهم وهم ينعمون بغير قليل من الطمأنينة والسعادة وراحة البال ، وهى العناصر التى تؤلف ما يحب بعض الكتاب ان يسموه « الشيخوخة الناجحة » ، أيا كان المقصود من هذه التسمية . وربما كان الدرس الذى يمكن استخلاصه من كل البحوث والدراسات التى أجريت حتى الآن عن الشيخوخة فى مختلف الشعوب والمجتمعات هو – كما يقول سيمونز Simmons (١٧) – ان المقومات الاساسية للشيخوخة الناجحة – بالاضافة الى الراحة النفسية التى أشرنا اليها – ترتكز بعد كل شيء على قدرة الافراد أنفسهم على التلاؤم بنجاح مع الاطار الاجتماعى السائد فى العصر الذى يعيش فيه هؤلاء الافراد ، وقدرتهم على توكيد حقوقهم فى اطالة فترة اسهامهم فى الحياة الاجتماعية ، واجبار المجتمع على الاعتراف بهم لاطول فترة ممكنة ، ثم قدرتهم على ان يدركوا متى ينبغي عليهم ان يتوقفوا عن ذلك كله .

ولعل مما يلفت النظر حقا فى موضوع الشيخوخة اننا نجد انه فى الوقت الذى اهتم فيه العلماء والباحثون من مختلف التخصصات بدراسة المراهقة كمرحلة فريدة فى تجربة الحياة ، وتميزه تماما عن مرحلة النضج والرجولة الكاملة فان الباحثين عموما يميلون الى أن يعتبروا الشيخوخة مجرد امتداد بائس وتعيس لمرحلة النضج والرجولة ، وانها بذلك تمثل نوعا من التراجع والتدهور والاضمحلال والهبوط عن المستويات والمعايير التي يحققها الانسان الناضج المكتمل الرجولة حين يبلغ أواسط العمر ، وذلك بدلا من أن ينظروا الى الشيخوخة على انها تمثل نوعا من التحدى لنمط من الحياة له آفاق مختلفة وجديدة تماما فى تجربة الحياة . والواقع أن هناك من الاسباب والمبررات ما يدعو لأن ننظر الى الانتقال لمرحلة الشيخوخة وما يصاحبه من تغيرات هامة وحيوية فى شخصية ونفسية وعلاقات الشخص بالمجتمع بنفس النظرة التى ننظر بها الى الانتقال من المراهقة الى النضوج ، والى ان نعطى لمرحلة الشيخوخة نفس العناية التى حظيت بها مرحلة المراهقة . بل ان مجالات البحث فى مرحلة الشيخوخة باعتبارها تجربة فريدة ومتميزة فى حياة الانسان ، وما قد يمر به المرء من تجارب ويتعرض له من اساليب وانماط سلوكية جديدة قد تجعل البحث فى الشيخوخة أكثر اثارة من البحوث التي أجريت على مرحلة الشباب مثلا .

ثم هناك نقطة اخيرة يوجه النظر اليها كثير من العلماء وهي أن الباحثين حين يتكلمون عن الشيخوخة يركزون كلامهم فى الأغلب على « المشكلات » ويكادون لا يتكلمون عن انجازات الشيخوخة او امكاناتها أو عن الفرص المتاحة للشيوخ فى حياتهم الجديدة أو التي يجب العمل على استغلالها والافادة منها . فهم يصورون الشيخوخة كما لو كانت « لعنة » – كما يقول سيمونز – بدلا من ان يعتبرونها مرحلة عادية وطبيعية من مراحل العمر التى

(١٧) Simmons, Leow. ; « Social Participation of the Aged in Different cultures '', The Annals of the American Academy of Political Science, Vol. 279, p. 50.

سوف نصل اليها جميعا ، ان لم يكن هناك من الاسباب ما يمنع دون ذلك ، وان لم تحدث الوفاة فى سن أصغر لسبب من الاسباب ، والتى يجب لذلك أن نهيىء أنفسنا لها باعتبارها تجربة تستحق أن يخوضها الانسان بكل قوة وعمق . ومن الملاحظ أيضا ان معظم الدراسات التي أجريت على الشيخوخة تميل الى توكيد وابراز ما يقدمه ــ أو ما يجب ان يقدمه المجتمع للشيوخ والمسنين والعجائز بدلا من أن تحاول البحث عما يمكن لهؤلاء الشيوخ والمسنين والعجائز ان يكتشفوه فى أنفسهم من قدرات وكفاءات ومهارات وخبرات يستطيعون ان يقدموها للمجتمع وأن يفيدوا بها غيرهم . ان علينا أن نكشف عن القدرات والامكانات الكامنة عند الشيوخ ، وان نعمل على تنمية هذه القدرات والامكانات وتطويعها الظروف الاجتماعية القائمة . وهذا كله سوف يتطلب فى آخر الامر أن نراجع موقفنا ونظرتنا الى الشيخوخة ، وان نعيد تقييمنا لأساليب البحث والدراسة وللموضوعات والجوانب التي يمكن ان نهتم بها فى دراستنا للشيخوخة وحياة الشيوخ .

* * *

اهم المراجع

— Birren, J. E. ; (ed.) Handbook of aging and the Individual, Chicago 1959.

— Bromley, D. B. ; The Psychology of Human Ageing, Penguin, London, 1966.

— Burgess, E. W. ; (ed.) Ageing in Western Societies, Chicago 1969.

— Clark, F. Le Gros ; Growing Old in a Mechanized World, Nuffield Foundation, London 1960.

— Comfort, A., ; The Process of Ageing, Signet, N.Y. 1964.

— Eisenstdt, S. N. ; Comparative Social Problems, Free Press, N.Y., 1964.

— Felstein, I. ; Later Life : Geriatrics Today and Tomorrow, Penguin, London 1969.

— Gilbert, Jenne G. ; Understanding Old Age, Ronald Press, N.Y. 1952.

— Havighurst, R. J. and Albrecht Ruth ; Older People, Longmans, N.Y. 1953.

— Lehman, H. C. ; Age and Achievement, Princeton U.P. 1953.

— Munn, N.L.; Evolution and Growth of Human Behaviour ; Houghton Muffin, Boston 1955.

— Rosset, E. ; Ageing Process of Population, Pergamon Press, Oxford 1964.

— Sheldon, J. H. ; The Social Medicine of Old Age, O.U.P. 1948.

— Towns end, P., The Family Life of Old People, Penguin, London 1963.

— and Wedderburn, Dorothy ; The Aged in the Welfare State, Bell London 1965.

— Zubek, J. P. and Solberg, P. A.; Human Development, McGraw-Hill, London, 1954.

★ ★ ★

ميكلانجلو

(بمناسبة ذكرى مرور خمسمائة عام على مولده)

د . ثروت عكاشة

منذ خمسمائة عام على وجه التحديد وشمس النهضة الايطالية تتوهج ، ولد طفل انفصل من أيامه الأولى عن أبيه القاضى المتقاعد وعن امه ليعيش فى كنف زوجة عامل فى محاجر الرخام ، فاذا الطفل يرضع مع لبن حاضنته حب الرخام ونحته وتشكيله ، واذا بأمه تموت بعد ستة اعوام وهو بعيد عنها فحرم من حنانها الى الأبد .

وما يكاد يبلغ الثالثة عشرة من عمره حتى ينضم الى مرسم الاخوة ((**جيرلا نداليو**)) ليتدرب على انجاز رسوم الفريسك الجدارية ، لكن هواية النحت تجتذبه الى ترك المرسم بعد عام واحد للالتحاق بمدرسة النحت فى حدائق **آل مديتشى** حيث عاش بين تماثيل العصر الكلاسيكى التى تضمها مجموعة **لورنزو** العظيم . وهناك ينحت راس تمثال لجنى صفير (فون) يراها الأمير لورنزو حاكم دوقية فلورنسا فتبهره مواهب الصبى **ميكلانجلو** ، ويدعوه للاقامة فى قصره وسط مجموعة الفلاسفة والادباء والشعراء الذين صاغوا فلسفة المذهب الانسانى خلال مناقشات طويلة ، كان ميكلانجلو يتشربها وتتسلل الى اعماق نفسه ، فاذا بها تشكل خلفيته الفكرية التى تظل متوثبة فى وجدانه طوال عمره .

كان دعاة المذهب الانسانى قد اكتشفوا فى الحضارة اليونانية القديمة انماطا فكرية وفنية أكثر ثراء وخصوبة ، فتاقوا الى التوفيق بين الافكار والاشكال الوثنية وبين الاعراف المسيحية ، ورأوا فى الأفلاطونية مثلهم الأعلى، فهاموا بتطبيقها في سلوكهم ومنجزاتهم.

على أن تأثر ميكلانجلو بأفلاطون كان مرتكزا على عدة نقاط في فكره ستكون نبراسا نستهدى به فى اعمال ميكلانجلو الفنية . كانت محاورة أفلاطون ((**تيماوس**)) **عن الخلق والتكوين ، وكذلك محاورة ((المادبة)) (سمبوزيوم) عن الحب والجمال** اكثر ما شد ميكلانجلو الى أفلاطون ، ولم يلبثا ان صارا السلف الفلسفى لجميع أعمال ميكلانجلو الفنية .

شده الى افلاطون نظرته الفلسفية الى المثلث والدائرة والمربع بوصفها الاشكال الخالدة التى تهيء مفتاحا لطبيعة الكون الحقة حتى قال فى **محاورة فيليبوس :((ليس ما أعنيه بجمال الاشكال ما يراه الناس عادة جميلا أو يحسبونه كذلك وراء ما يرونه من كائنات أو صور لهذه الكائنات ، وانما الجميل عندى قد يكون حزمة من الخطوط المستقيمة وما ينتج عنها من مسطحات وكتل شكلها الفرجار والمنقلة والمثلث ، لكنها فريدة في ذاتها ، ينطلق جمالها من نبع روحها ، يعيش لاصقا بها الى الأبد)) .**

واغراه التثليث الافلاطونى الذى قسم الوجود الى مستويات ثلاثة هى عالم الوهم والخيالات ، وعالم الصيرورة المادى المتغير ، والعالم العقلى ، والتى على اساسها قسم المجتمع البشرى الى طبقات ثلاث ايضا : المنتجون من العمال والزراع ، والمحاربون ، والفلاسفة والحكام ، ورمز لهم على التوالى بالنحاس والفضة والذهب ، وحدد لكل طبقة هدفا : الكسب للعمال ، والطموح للمحاربين، والهيام بالحقيقة المطلقة للفلاسفة ، كما قسم التعليم الى مراحل ثلاث : الجهل والرأى والمعرفة . وجعل للنفس الانسانية ثلاث ملكات : الشهوانية والوجدانية والعقلانية ، وزعها على ثلاثة مواضع : المعدة والصدر والراس . وجعل للملكة العقلية اسمى المهام وهى نشدان الخلود ، فالانسان بحكم ذكائه ((كالشجرة لا تضرب بجذورها فى الارض بل تشب بفصونها الى السماء)) . ومن ثم كان العنصر العقلانى فى النفس هو الذى يرتفع بنا من الارض ((الى اشباهنا القابعة فى السماء)) . وهو ما سوف نرى تطبيقه العملى المذهل فى تصوير ميكلانجلو بسقف مصلى سيستينا .

كما تصور أفلاطون صعود الانسان من أدنى مراتبه حتى بلوغ أصله الالهى . وفى هذه العودة الى العالم الالهى ، تدرك النفس الاله ، وهى مازالت فى اسار سجنها الدنى تصارع من أجل ذلك ، وتبذل الجهد والمعاناة فتنتقل من المحدود المتناهى الى اللامحدود اللانهائى ، حتى تنفلت من الاسر المادى الى الحرية الروحية والخلود .

ولذلك كان افلاطون يكن للحياة الدنيوية احتقارا عميقا ، فهو يعدها عبئا ثقيلا وعقوبة للانسان على نسيانه لأصله الالهى وانجذابه الى عالم الحس ، مخلفا وراءه عالم التأمل العقلى الذى سقط منه فى الاصل ، على ما سوف نرى في تماثيله للأسرى .

ويسمعنا افلاطون في ((**المادبة**)) صوت **أريستوفانس** شاعر الملهاة يتحدث عن الحب قائلا : ((سمعت على لسان الكاهنة ديوتيما أن الكائنات كانت مركبة : اما من جنس مذكر خالص أو جنس مؤنث خالص، أو من الجنسين معا . وعندما تعالت هذه الكائنات على الآلهة

عاقبتها بأن شطرتها الى أنصاف . ومن هنا جاء نزوع الانسان اما الى مثيله أو الى الجنس الآخر وفق الكائن الذى انحدر عنه .

كذلك كانت تلح على ميكلانجلو نظرة أفلاطون بأن الانسان قد عب مرة من مياه نهر النسيان فأنسي أصله الالهى ، حتى اذا رأى امرأة جميلة ذكرته بأصله الالهى . ولكن لا يلبث الاغراء الجسدى والجمال الزاوى ان يشداه الى جمال الحقيقة الأبدى ... ثم فى النهاية الى تأمل حقيقة الحق والخير الخالدة .

واخيرا رأى ميكلانجلو فى المثل الأفلاطونية روحانية مطلقة ، وعشق الجمال بوصفه مثالا مطلقا ازليا أبديا ، تحتفظ الروح الانسانية بذكرى مبهمة لمعايشته في ماض بعيد سابق على الحياة فوق الأرض ، فلا تنفك — الروح — تعشق ذلك الجمال وتصبو اليه وتبحث عنه .

لقد آمن ميكلانجلو أن على العاشق أن يسمو من الحب الجسدى الى الحب الروحى، الى حب الجمال المثالى الذى هو جزء من القداسة والخير . وذلك هو المجال الذى يشتاقه العباقرة والفلاسفة ويطمحون اليه .

كان ميكلانجلو فنانا شكلته الفلسفة ، شأنه شأن الفنان فيدياس الذى عاش خلال العصر الذهبى الكلاسيكى ، غير أن صوت **سافونا رولا** الراهب المسيحى الثائر كان يطارد ميكلانجلو ، بينما كان ذهنه مؤهلا لتمثل التجريدات الأفلاطونية . فكان قدره أن يظل عقله العاصف نهبا لهاتين الفلسفتين المتصارعتين خلال اعماقه حتى آخر حياته، مترجما رؤاه فى اشكال درامية مرئية ، فأبدع لنا روائع خالدة فى عالم النحت والتصوير والعمارة والشعر . واذا كانت عظمة الانسان تكمن فى استهانته بالعقبات المادية وشحذه لقدراته العقلية والروحية، فلا بد من أن نعد ظهور ميكلانجلو أحد الأحداث العظمى فى تاريخ الانسانية .

ولما كان العمل الفنى بالنسبة لميكلانجلو هو أن يشارك على الدوام في عالم الأفكار ، جاءت كل انجازاته الفنية فلسفية كما هى جمالية ، وثنية كما هى متدينة ، وأفلاطونية كما هى مسيحية .

ففى عالم النحت حمل تمثال **((باكخوس))** اله الخمر المبكر **(لوحة ١)** بصمات وثنيته الدفينة بحيث لا تكاد تفرق بينه وبين تماثيل العصر الكلاسيكى ، ومالبث تمثاله التالى ((العذراء الآسية (بيتيا))) أن كشف عن ايمانه الدينى الصادق **(لوحة ٢)** .

وفى عالم التصوير جمعت رسوم سقف مصلى سيستينا العرافات الوثنيات **(لوحة٣)** جنبا الى جنب مع الانبياء العبريين **(لوحة٤)** كما افسحت المكان للنظرية الافلاطونية عن العودة الى العالم الالهى ، الى جانب نظرية الخلاص المسيحية .

وتجيء **لوحة يوم الحساب** فى عنفها وضراوتها الشبيهة بسفر الرؤيا في الروعة والترهيب لتتجاوز الشخصيات الأسطورية مثل شخصية خارون حارس العالم السفلى لدى الاغريق مع شخصيات العهدين القديم والجديد .

وتمثل سنوات حياته الأخيرة مرحلة من التبتل والورع المسيحى لم تنطفىء معها شعلة الافلاطونية في أعماقه . ففى الوقت الذى كان يمنح جهده كله لخدمة العقيدة المسيحية كان

ينظم شعرا يفيض بالوهج الأفلاطونى الذى تجلى من قبل :

ــ فى تماثيل العذراء حين عبر عن اتحاد الجمال الجسدى بالجمال الأبدى .

ــ وفى تمثال موسى حين ربط بين قوى الانسان المادية والمعنوية وبين الخير الأبدى .

ــ وفي وقوعه تحت سيطرة الاشكال الافلاطونية الخالدة التى تهيىء مفتاحا لطبيعة الكون والتى تلمسها فى سقف مصلى سيستينا (لوحة ٥) .

ــ وحتى فى اشكاله المعمارية المجردة نجده يقيم الأعمدة وكأنها الأسرى ، تشدها القيود فلا تستطيع فكاكا من ثقل الحمل المادى الذى لا مفر من حمله (لوحة ٦ ثم ٩ ب) ، على حين تحوم القبة الشامخة عاليا فى الكمال الهندسى للشكل الدائرى ، الرامز للسموات التى هبط منها الانسان والتى يجب أن يتلمس طريقه نحوها من جديد .

اننا نقف اليوم فى خشوع وذهول ونحن نتأمل هذه العبقرية الفذة التى بزغت فى مجالات فنون أربعة هى النحت والتصوير والعمارة والشعر .

● ● ●

وقد ظن فنانو عصر النهضة أنهم توصلوا الى القواعد الجمالية النهائية المحددة للشكل ، وما ينبغى ان ينطوى عليه من توافق ، خلال فترة التطور التى اعقبت **جوتو ومازاتشيو** وبلغت ذروتها **برافائيل** ، واذا **بميكلانجلو** يضرب عرض الحائط بهذه القواعد فى مستهل القرن السادس عشر . وكان واعيا بما يموج فى وجدانه من قلق وما يعتمل فى داخله من صراع . كان ايمانه التقليدى بالشكل قد وثق روابطه بالنحت أكثر من التصوير مع أنه كان عبقريا في كليهما ، كما شده هذا الايمان التقليدى بالشكل الى الجسد الانسانى فى الوقت الذى استهان فيه بمشاهد الطبيعة . غير أنه لم يكن راضيا عن التقديس الممنوح للشكل فى عصره ، فأطلق في مقابل الشكل نقيضه ، وهو الطاقة الكامنة فيه ، التى تطمح الى التحرر من سجن الشكل ، لكنها لا تملك الا التمرد وتمزيق بعض القيود ، التى لا تتيح لها الا ان تطل برأسها فحسب ، بينما يبقى الجسد كله سجينا .

وقد تجلى كفاحه ضد قواعد الشكل المألوفة فى عصره فى افتتانه بموضوع الارقاء والأسرى المغلوبين ، الذى يعد صياغة جديدة لموضوع هيلنستى قديم ، هو صراع لاوكوون كاهن أبو للو الطروادى ضد الأفاعى الضارية التى أرسلتها الآلهة المناصرة للاغريق ففتكت به هو وبنيه . فنشهد فى تماثيله التوكيد على العضلات المتوترة ، بصفتها باعثة الحركة المهددة بتفجير أغلال الشكل ، والمعبرة عن تبرم الارقاء الساخطين بأغلالهم التى تقيد أطرافهم ، بينما يتجلى الانفعال محتدما فى أجسادهم وهى تصارع لتحرر نفسها من قالب الصخر الذى يحاصرها ويطوق حركتها والذى توقف أزميل المثال قبل انفلات الأرقاء من ربقتهم .

لقد تجسدت أزمة الشكل فى أوج عصر النهضة في منحوتات ميكلانجلو حيث يبدو الشكل وكأنه يصارع ضد ضغط خانق فى التماثيل التى تتجلى قوتها المعبرة فى كونها لم تكتمل .

ومن بين تماثيل الأرقاء اثنان بمتحف اللوفر ، يعد تمثال العبد المغلول أقربها الى الاكتمال (لوحة ٧) .

ويبدو كأنه يمثل فتى نائما يقض مضجعه حلم مرعب ، اكثر مما يمثل أسيرا يحتضر كما يحلو لبعض مؤرخى الفن تسميته . فبينما نجد القيود مجرد شرائط رقيقة تعجز عن أن تكون وثاقا ، تتجلى الروح الحبيسة التى تعذبها ذكرى أصولها الالهية ، وكأنما وجدت راحتها فى النوم بعد عذاب نفسى ممزق .

ويصور التمثال الآخر المعروف باسم **العبد المتمرد (لوحة ٨)** عنف صراع كائن مفتول العضلات كتب عليه أن يضيع كفاحه هباء .

وفى كلا التمثالين نشهد نفس الصراع اليائس مع القدر . انها مأساة الانسان الذى يحد الزمن من امكاناته ، ويعييه ادراك سر الوجود ، ويتطلع رغم فنائه الى الخلود ، ولا تعوقه قيود الجسد عن أن يحلم بحرية بلا حدود .

ولا شك في ان أشكال أرقاء ميكلانجلو ذات وشائج قربى مع نقوش أقواس النصر والاضرحة والتوابيت الرومانية ، فان نماذج الارقاء المغلولين يمكن اقتفاء أثرها فى المنحوتات الهيلنستية التى تصور مارسياس التعس وأبوللو يسلخه حيا لتجاسره وتحديه له فى مباراة موسيقية . كما أن الشبه بين هذا العبد المغلول وذاك المتمرد ، وبين الابن الاصغر فى مجموعة تمثال الكاهن لاوكوون فى غير حاجة الى تعليق جديد .

ونلمس نفس الأثر فى تمثالى الأسيرين المعروفين باسم أسيرى بوبولى (لوحة ٩ ، ١٠) . والمعروف انهما قد صمما كتمثالى كارباتيد بطرفى قاعدة ضريح البابا يوليوس الثانى عام ١٥٣٢ ، غير انهما استبعدا ، فأهداهما ميكلانجلو الى الدوق كوزيمو دى ميدتشى الذى احتفظ بهما في كهف بحدائق بوبولى بفلورنسا . ويكاد الصخر أن يمثل سجنا قاسيا فى هذين التمثالين ، اذ يبدو الأسيران محتجزين بين ثنايا كتلة الصخر دون سبيل الى الخلاص منها ، رغم كل ما يبذلانه من جهود . ويشى شكلهما الذى لم يكتمل بأن أسلوب ميكلانجلو فيهما كان قريب الشبه بلوحات فن النقش الشديد البروز .

وما أجمل ما تحدث به ميكلانجلو الى صديقته وهاديته **فيتوريا كولونا** عن النحت حين قال في احدى قصائده :

« ليس فن النحت ياسيدتى هو تشكيل قطعة صخر صلبة ، ولكنه تحرير للشكل من سجن الصخر ، بازالة الزوائد عن الصورة المتخيلة فى الذهن للشكل الكامن فى الصخرة » .

هكذا كان التمثال لميكلانجلو شكلا كامنا فى كتلة رخام ، ينتظر يد أستاذ النحت البارع كى يولد على يديه ، وكأنه يعبر من خلال تماثيله عن فكرة أفلاطون بأن نفس الانسان ما تزال سجينة فى جسده حتى ترقى الى الكمال بواسطة قوة خلاقة تفوقها سموا ورفعة .

وفى تمثال العذراء الآسية « بييتا » لوحة ١١ ، ١٢) يكتشف جمال التنفيذ ودقة التفاصيل واثارة المشاعر عن أن ميكلانجلو كان ما يزال واقعا تحت تأثير طراز النهضة الفلورنسية . غير انا نلمح أن ميكلانجلو قد بدأ بالفعل يدخل بعض التعديلات على النمط الهرمى الشائع وقتذاك ، اذ جعل ثنايا ثوب العذراء العديدة قاعدة للهرم وراس العذراء قمة له ، وشكل جسد المسيح على غرار آلهة الاغريق ، بينما احتفظت العذراء رغم شجنها بالوضعة الكلاسيكية ، فبدت بحق ، الأم راعية الاحزان

الجليلة التى لا تهون من شأنها دموع أو أنات . فضلا عن أن ميكلانجلو قد استباح لنفسه تناول مقاييس اشكال بحرية تؤجج تأثيرها التعبيرى ، وتؤكد التوافق والانسجام فى تصميمه، كما أكثر من الاردية ليضمن فيضا من الأطواء والخطوط ، وصاغ جسد المسيح اصغر حجما من العذراء ليحقق التوازن فى تكوينه ، واقام تمثاله المثلث بلا كوة داخلها أو خلفية معمارية تدعمه ، فكان تمثال العذراء الآسية بمثابة اعلان لاستقلال النحت ، كما ينفرد بأنه العمل الوحيد الذى وقعه ميكلانجلو .

وعندما طرد اهل فلورنسا أسرة مديتشى واسسوا الجمهورية عام ١٤٩٤ بزعامة الراهب سافونارولا مضوا يجسدون انتصارهم فى أعمال فنية ذات صبغة وطنية بطولية كان أحدها تمثال عملاق لدواد (**لوحة ١٢ أ ، ب**) قاتل الطاغية جالوت . وهو تمثال هرقلى الطابع ، هائل الضخامة يبلغ ارتفاعه حوالى ستة امتار ، يقف عاريا ممسكا بمقلاعه منتظرا وصول جالوت عدو شعبه .

ولو اننا وقفنا عند حد تأمل **جسد داود** وحده ، لخيل الينا بتوتره وحيويته أنه ينتمى الى العهد الكلاسيكى، والى الطابع الهلينستى على وجه التحديد أكثر مما يحمل طابع القرن السادس عشر . ولكننا ما نكاد نتطلع الى راسه حتى ندرك القوى الروحية التى لم يعرفها الاقدمون ، وهى تنطق بازدراء المتع الحسية .

وقد أنجز ميكلانجلو تمثال موسى ليقام فى ضريح البابا يوليوس الثانى المعروف باسم البابا الرهيب ، وكان قوى الفكر عامر النفس بخشية الله . واذا كان ميكلانجلو قد **تخيل موسى** على أنه تجسيد للارادة القوية فقد اراد له فى نفس الوقت أن يكون صورة شخصية مثالية **للبابا يوليوس** الذى كان مشرعا للقوانين شأن موسى العبرى (**لوحة ١٣ أ ، ب**) . ويبدو موسى وكأنه تجسيد لقوى الطبيعة ، أو بركان بشرى موشك على ثورة غاضبة على عصيان البشر . ففى سكونه نذير عاصفة ساخطة ، وتكاد قسماته تنطق بالوصايا العشر ، وتحكى لنا قصة صعوده جبل سيناء وحديثه مع ربه . ونكاد نحس أنه قد اتخذ جلسته هذه ليحاسب البشرية من فوق منصة القضاء . ومنذ عهد قريب ابدى المثال الفرنسى أوجست رودان ملاحظة وجيهة بأنه يمكن دحرجة التمثال من فوق جبل دون أن يتهشم منه اى جزء أساسى » . **ويكشف هذا التماسك عن قدرة ميكلانجلو على تطويع الرخام الى الحد الذى يحتشد فيه بالقوى التعبيرية والجيشان المستكن فى ثنايا الاطواء والمكاسر وعضلات الذراعين المفتولة ، والعقلانية المسيطرة على ملامح الوجه ، والمزاج النارى الملتهب .**

● ● ●

وفى تماثيل ضريح مديتشى تتجلى من جديد روعة النحت التى تجلت فى تمثال موسى وتتكون كل مجموعة من مجموعتى النحت الشهيرتين من شخصية جالسة فى ثياب الحرب المدرعة داخل كوة ، مع شخصية رمزية راقدة على كل جانب من جانبى التابوت . فيعتمر لورنزودى مديتشى (لوحة ١٤) بخوذة مجسدا الرجل المفكر ، على حين يحمل جوليا نودى مديتشى عصا القيادة مجسدا رجل المآثر البطولية (لوحة ١٥) . وهكذا يمثل احدهما حياة التأمل والآخر حياة الحركة المفعمة بالنشاط . ولم يضف ميكلانجلو على شخصيات آل مديتشى الجالسة أية ملامح ذاتية ، وهو ما اصاب اهل فلورنسا بالذهول أمام هذا المفهوم المثالى . وقد طمأنهم

فى سخرية وثقة بالنفس ثبت صدقها قائلا بأن احدا لن يذكر بعد الف عام ما كان عليه شكل الدوقين .

وعند قدمى جوليانو يرقد تمثالا الليل والنهار . وتمثل الليل (لوحة ١٦) انثى تغفو فى نعاس ثقيل . ونحن اذا اطلنا النظر فى تكوين هذه الأنثى التى تتفجر اثارة ، والتى قد تغرينا فيها الاثداء الشبقه الريانة الممتلئة، والتى قد تخدعنا سيقانها البضة الفارهة ، فان قدرا اكبر من التامل سيكشف لنا عن اختباء ملامح غلمانية وراء كل هذا .

فان افسحنا لصورة هذه الانثى مكانا فى ذاكرتنا دقائق قليلة ، ريثما نلتقى بصور غلمان ميكلانجلو المصورين على سقف سيستينا حيث اخفى وراء فتوة غلمانيتهم سحرا انثويا دفينا ، سوف نصل فى النهاية الى اكتشاف عالم غريب من غلمان ميكلانجلو وفتيانه لم يعرفه بعد عالمنا الواقعى .

ويمثل **النهار** (لوحة ١٧) عملاق هرقلى الطابع مفتول العضلات يلتفت برأسه من فوق كتفه ، غير ان وجهه غائم القسمات .

فاذا انتقلنا الى تابوت لورنزو نرى الجلال مشرقا على جسدى الراقدين بين النوم واليقظة . ويمثل الرجل الغروب (لوحة ١٨) على حين تمثل المراة الفجر (لوحة ١٩) وهى صنو الانثى الغافية التى تجسد الليل فى ضريح جوليانو .

●●●

دلف ميكلانجلو من عالم النحت الى عالم التصوير مزودا بملكة اعطاء صوره القدرة على اثارة احساس المشاهد ، فيوهمه بانه يلمس بأعصاب كفه وأصابعه الجسد المصور حتى لتدور انامله مع انثناءاته واستداراته المختلفة ، وهو ما ينفرد برنارد بيرنسون بتسميته « القيمة اللمسية » . كما أنه اختار موضوعا لرسومه الجسد البشرى الذى كان موضوع تماثيله ،مؤمنا بانه ليس مثل الجسد البشرى العارى شيء قادر على التعبير عن نفسه ، وعن تنبيه وعينا بكل ما يطرا من تغيرات ، وليس مثله شيء يمكن أن ندركه نحن، بمجرد تمثله لنا في الصورة التى يتبدى فيها فى الحياة اليومية الواقعية ، وليس مثله شيء يمكن أن يثير احساسنا بأننا جميعا نشاركه فى تجربة الحياة ، وهو ما جعل ميكلانجلو لا يرى فى عالمنا كله شيئا يستحق النحت والتصوير غير الجسد الانسانى ، ليس الانسان العادى الذى يدب فوق الارض كما تدب الآلاف ، بل جنس انسانى خاص يتميز بالجلال ، والطاقة ، والقدرة على التعبير والاثارة ، وقد كان ميكلانجلو نفسه انسانا متميزا ، يحيا وحيدا ، زاهدا في متع الحياة المادية . بل أن المراة الانثى الناعمة الجمال والدافقة الفتنة لم تجتذبه فى حياته الخاصة ، ولم تشده فى حياته الفنية الا فى عمل فنى واحد لم يلبث ان اهمله وراء ظهره ، ليقدم لنا جنسا من عالم خياله ومثله .

كان حرص ميكلانجو على العرى فى الاجساد البشرية التى يصورها قائما على ايمانه بان الأردية تمثل عائقا فى ترجمة حركة الجسد البشرى، وفى اثارة احساس المشاهد بالضغوط التى يقاومها الجسد ، والمقاومة التى يبذلها، والنبض الخفى السجين باعماقه . وما دامت الأردية تحول بيننا وبين التأثر المباشر بالطاقة التى يعيشها الجسد المصور ، كان من الضرورى تصوير الجسد عاريا ، حتى يمتلك ناصية القدرة على اثاة حسنا بالحركة المتمثلة في توتر عضلاته ، وارتعاش بشرته واسترخاء وضعته ، وتميز اعضائه من ربعة الكتف الى النتوءات التى تطفو فوق جسده كله وكأنها

انبثاقات طاقة دفينة من جسد عملاق ... فهذه العلامات كلها توقظ في الذهن على الفور اسم ميكلانجلو .

وقد أصبحنا الآن قادرين على أن نفهم لماذا ينبغي أن يهتم بالعري كل فن يدور حول الجسم البشري ، ولماذا استحوذ العري على الفن الكلاسيكي في مختلف أطواره ، ليس فقط بوصفه أفضل وسيلة تبعث الحياة في الفن ، بل لكونه كذلك أكثر الموضوعات أهمية في العالم الانساني . وكان ميكلانجلو أول فنان بعد عصر النحت الاغريقي يدرك تماما هوية العري في فن تصوير الشخوص ، فمن قبله كان العري يدرس كوسيلة علمية تعين على تصوير الانسان المكسو بالثياب ، ولكنه اكتشف أهمية العري كفاية في نفسه ،وكهدف نهائي لفنه ، فالفن والعري بالنسبة اليه مترادفان .

ولن نجد في غير أعمال ميكلانجلو ـ اذا ما طرحنا جانبا روائع الفن الاغريقي ـ اشكالا تعزز احساسنابقوة أثر الصورة علينا ،وتصل حركاتها الى وجداننا مباشرة ، فتلهمه بنفس القدر من العمق .

واننا لنرى عمق ايمان ميكلانجلو بالجسد البشري العاري كموضوع اساسي للفن التشكيلي ، في أنه حين كلف في غمرة الحماس الذي صاحب قيام الجمهورية بفلورنسا برسم لوحة بطولية تزين القاعة الكبرى المتخذة لانعقاد مجلس المدينة الجديد ، لم يختر ميكلانجلو من معركة كاسكينا التي نشبت خلال الحرب بين بيزا وفلورنسا عام ١٣٦٤ الا لحظة غريبة هي تلك التي كان الجنود الفلورنسيون يستحمون أثناءها في نهر الأرنو ، بينما كان التحذير ينطلق معلنا هجوم العدو .

لقد جاء اختياره لهذه الزاوية من الموضوع نتيجة ايمانه بقدرة الجسد البشري العاري على حمل جميع الافكار والعواطف والتعبير عن مختلف الانفعالات . ولا شك أنه كان أقدر على أن يجسد أفكاره وانفعالاته في عراة النهر اكثر مما يجسدها في حركة الجنود المتطين صهوات الجياد . ومن المؤسف أن المخطط المبدئي الكامل لهذه اللوحة بحجمها الاصلي، وهو التصميم الذي نسميه « بالكرتون » لم يترفق به الزمن اذ فقد بعد أن تحدث عنه بينڤينوتو شلليني بأنه كان اعظم عمل قدمه ميكلانجلو ، وأنه يمثل بحق « أكاديمية الرسم العالمية » بل انه يفوق في عظمته سقف سيستينا الذي سنعرض له الآن . (لوحة ٢٠) .

●●●

ولقد أضاف ميكلانجلو مثلا أعلى للجمال مقرونا بالقوة ، ورؤيا لانسانية عظيمة كان يتوق الى رؤيتها تدب على أرضنا يوما من الأيام . فنحن لن نلتقي كثيرا بمثل هذه الفحولة والعنف وقوة التأثير،وتجسيد حلمنا بروح عظيمة تسكن جسدا جميلا ، مثلما نلتقي بالاشكال المرسومة على سقف مصلى سيستينا. لقد أتم ميكلانجلو ما بدأهمازاتشيو وهو ابداع نمط انساني مؤهل أي تأهيل ، ى يخضع الارض ويسوسها نحو التألق والحق والخير والجمال .

كان ميكلانجلو منكبا على تشييد الضريح الذي أراد **يوليوس الثاني** تشييده لنفسه ، غير أن البابا مالبث أن نحاه عن هذا العمل الذي كان قد منحه فكره وقلبه ، وكان على وشك ان يمنحه بقية عمره ، فقد كان يتضمن نحت اربعين تمثالا يفوق كل منها الحجم الطبيعي للانسان ، أكمل منها تمثال موسى الذي عرضناه منذ لحظات ، ولو انه ظل

يتابع هذا العمل الخارق رغم كل ما نعلمه عن قدرته المذهلة فى نحت الرخام الذى كان سريع الاستجابة لضربات أزميله الحاسمة ، لأمضى عشرين عاما في اتمامها .

وقد حنق الكثيرون على البابا الذى أزاح مثالا عبقريا عن النحت ، ليغرقه فى تصوير سقف مصلى سيستينا بمبنى الفاتيكان ، الا ان أحدا لا يملك الا أن يعترف الآن أن هـذا القرار الذى اتخذه البابا كان أقرب ما يكون الى الالهام الاسطورى . ذلك أن هذا العمل قد فجر طاقات ميكلانجلو الخبيئة ، وأتاح له التعبير عن رؤيته الباطنية للعلاقات الانسانية والمصير البشرى . وقد ترك البابا لميكلانجلو الحرية فى اختيار الموضوع الذى يصوره ،وهو استثناء لم يتمتع به أحد فى هذا العصر الذى كان الفنانون يلتزمون فيه بنصـوص القصص الدينى وتعليمات القساوسة . وقد استطاع ميكلانجلو أن يعمل خياله في القصص الدينى وأن يصور عملا يبهر مشـاهديه . والذين شـاهدوا تصاوير هذا السقف من نقاد الفن على مر التاريخ وقفوا مـذهولين أمام هـذا الموضـوع الذى لعب فيـه خيال ميكلانجلو دورا كبيرا بعـد أن استمده من نصوص سفر التكوين ، فلم يتفقوا على تفسير واحد . غير أنهم أحسوا جميعا هذه الوحـدة المتوهجة المشـبوبة التى ربط بهـا ميكلانجلو جسـد الانسان بعقله وروحه . فأعجبوا بكل ماينبض به الجسد من القوة العضلية التى كانت طابع تماثيل الكوروس الاغريقية ، كما انبهروا بما يشع حوله من القوة المعنوية الدفاقة فى صور العرافات والانبياء ، وأن كان من الواضح أن ميكلانجلو قد منح الروح اهتماما يفوق مامنحه للجسد .

وليس من شك فى أن متابعة رسوم السقف تسبب عذابا كبيرا للمشاهد حين يضطر الى ثنى عنقه الى الخلف طويلا ليستكمل جوانب هذه الملحمة الهائلة ، غير أنه سرعان ما ينسى هذا العذاب ليجد وجدانه وقد غاب فى هذا العالم السحرى . فما بالنـا حين نذكر أن ميكلانجلو قد اضطر ، لانجاز هذه الرسـوم ، أن يضطجع على ظهره طوال اربعة أعوام . وقد عبر عن هذا العقاب الذى ينوء بحمله البشر في كلمات بالفة البساطة والرقة باحدى قصائده جاء فيها ما ترجمته :

« الى السماء تشمخ لحيتى .

والى الوراء ينثنى قفاى .

مثبتا فوق عمودى الفقرى .

وترقوتى تنتصب عالية كأنها قيثارة .

وعلى وجهى ترتسم لوحة ثرية ملونة .

من قطرات الفرشاة الثخينة والدقيقة » .

●●●

هجر ميكلانجلو من ناحية المبـدأ فكـرة زخرفة الاسطح المستوية بتصميمات زخرفية مقتبسة من عالم الاشـكال النباتية ، فحيث يتوقع المرء أن يشـهد نبتة متحوية يجـد مكانها اجسادا بشرية ، ولا شيء غير الاجساد البشرية . ثم ما يلبث أن يدرك الايقاع المتناغم الذى يربط بين هذه الكتل ويفصـل بينها .

لقد اختار ميكلانجلو أن يروى قصصه عن طريق الاجساد العارية ــ كما مر بنا ــ ونحن ندرك من القاء أول نظرة على هذه الرسوم الفسـيحة غياب الابنية ومشـاهد الطبيعة الا رموزا موجزة كالشجرة الوحيدة التى تمثل الجنة ، وعشـبة هنا وأخرى هناك تشير الى خصوبة الارض ، وهكذا استخدم ميكلانجلو وسـائل التعبـير فى ايجـاز بليغ فى هـذه التصاوير . وكان المزج بين ايقاع الخطوط

والايحاء بالعمق وسيلة اعانته على رواية القصص بهذا الايجاز الفريد .

ولو انا تأملنا تصميم ميكلانجلو لسقف سيستينا لوجدناه تكوينا عضويا متماسكا تسيطر عليه فكرة فلسفة وفنية موحدة ، يمزج فى ايقونوغرافيته بين اللاهوت التقليدى العبرى المسيحى والفلسفة الافلاطونية التى تشر بها ـ كما مر بنا ـ في صباه أثناء اقامته بقصر لورنزودى مديتشى ، وهى التى شكلت وجدانه فبقى الى آخر حياته مسيحيا مؤمنا بالأفلاطونية ، أى مؤمنا بوجود قوة خارقة تعلو قوة الانسان وتوجه حركته ، هى قوة الالهام .

قسم ميكلانجلو فراغ السقف الى الاشكال الهندسية الافلاطونية التى ذكرناها من قبل وهى المثلث والدائرة والمربع . (لوحة ٥) .

ثم عاد ميكلانجلو فقسم التكوين ثانية الى ثلاث مناطق تلعب فيه كثافة الضوء دورها . تغطى ادناها واشدها قتامة البنيقات الثمانى المثلثة وبنيقات الاركان الاربعة على شكل المقرنصات . وتشمل الثانية الفراغ المحصور بين البنيقات المثلثة والمنطقة الثالثة العليا المخصصة للوحات التسع الرئيسية .

وتواكب هذه التقسيمات من الناحية الرمزية مستويات الوجود الافلاطونية الثلاثة التى سبق ذكرها .

ـ **عالم الوهم والخيالات** : وقد عبر عنه ميكلانجلو بالانسان غير الملهم الذى لم يتلق الوحى بعد ، وصوره فى أدنى المستويات على البنيقات المثلثة الثمانى .

ـ **وعالم الصيرورة المادى المتغير**، وعبر عنه ميكلانجلو بأنبياء العهد القديم والعرافات الوثنيات الذين يتوسطون بين الانسان والله بحكم ملكاتهم العقلية السامية . وصوره فى المنطقة المتوسطة بين المثلثات واللوحات التسع .

ـ على حين صور فى المساحة العليا **قصة الخلق والانسان وعلاقته المباشرة بالله**، والتى تبدو لنا من خلال التقسيم المعمارى مشرفة علينا من أعلى مستوى كونى .

وبلغت مساحة السقف التى صورها ميكلانجلو حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة متر مربع ، ويضم التكوين ثلاثمائة شخصية . وقد رسم ميكلانجلو المخطط المبدئى (الكرتون) على الورق أولا ثم قسمه الى اجزاء يتسع اليوم لتنفيذ أحدها وراء الآخر .

ويدل خروج ميكلانجلو عن رسوم المخطط المبدئى على أن عنصر الارتجال قد صاحبه أثناء العمل . وكانت ألوانه محددة بألوان سطح الفريسك ، وكلما تقدم العمل كان يؤثر تدرجات اللون الرمادى الذى كان يسبغ على أشكاله المصورة طابع التماثيل المنحوتة . وقد كان الشائع ايامها ان يتولى القيام بهذه الاعمال الكبرى الاستاذ بمساعدة تلامذته ، ولكن الثابت أن ميكلانجلو قد قام بتصوير السقف كله وحده ، واقتصر عمل المساعدين على التجهيزات الاولية فحسب .

واذا كان ميكلانجلو قد وقع اختياره من سفر التكوين على قصة الخلق من بدايتها حتى انتشاء نوح بالخمر . فقد شاء لنا أن نطالع هذه القصص مصورة على سقف المصلى بادئين من النهاية ، لأنه رسمها بطريقة عكسية ، فبدأ بنوح وانتهى بلوحة فصل النور عن الظلمة .

فما نكاد ندلف الى القاعة حتى يعلونا نوح بجسده المستلقى ثملا (لوحة ٢١ أ ، ب) .

وكما يصور ميكلانجلو نوحا الانسان فريسة لشهواته الجسمانية يصوره كادحا من اجل لقمة العيش ،فجعله على يسارااللوحة يحرث التربة القاحلة قوى البدن واهن الروح . كما أوقف أبناءه حوله ، دون ان يبدو عليهم الأسى اشهود عورة أبيهم ، ودون أن يتعجلوا باخفائها بالرداء كما جاء في سفر التكوين ، بل جعلهم شهود المصير المأساوى للانسان نفسه الذىينبغى له ان يلهب ويكد ويخطو الى الشيخوخة ، وينتهى الى الموت . وتذكرنا وضعة نوع المستلقية بآلهة الانهار الرومان ، وقد مالت رأسه فى هذه اللوحة على صدره فى ارهاصة بلبفة بالنهاية المرتقبة وهى الموت .

ثم تأتى لوحة الطوفان (لوحة ٢٢) ، التى تذكرنا اشكالها بالجنود العراة المستحمين فى نهر الارنو خلال معركة كاسكينا . وتكشف لنا عن فكرة ميكلانجلو في تمثل الفراغللايحاء بأن الشخوص وافدة صوب المشاهد من وراء الجيل متعاقبة عصية على الاحصاء ، فلايسع المرء الا التسليم بضخامة الحشد المتدفق . وترمز هذه اللوحة للمأزق الذى يسقط فيه الانسان عندما تحاصرهعوامل الطبيعة القاسية التى لا يملك معها الا الاستسلام .

وتصور اللوحة الثالثة (لوحة ٢٣) نوحا وأبناءه حول المذبح وهم يقدمون القرابين ويجمعون الوقود ويشعلون النار ليتنسم الله رائحة الرضا من ذبائحهم التى يضحون بها شكرا لله على نجاتهم من الطوفان .

وما تكاد المساحة المتاحة لميكلانجلو تتسع حتى تتضاعف قدراته فنراه فى لوحة خطيئة آدم وحواء وطردهما منالجنة يبسط جناحيه محلقا الى ذرى لم يبلغها احد من قبل او من بعد (لوحة ٢٤ .) كان من قبله يصورون خطيئة الانسان بواسطة شخصين واقفين متواجهين يربط بينهما مشهد تناولالتفاحة من شجرة معرفة الخير والشر التى تنتصب بينهما . لكن ميكلانجلو لا يقتنع بتقليد الاسلاف بل يبتكر تكوينا جديدا ، كما انه لا يصور الغواية كما كانت تصور قبله عملية سلبية بل يحيلها الى فعل ايجابى يختاره الانسان بارادته . فيصور حواء فى وضعة الاسترخاء المعهودة فى التصوير الرومانى مولية ظهرها للشجرة ملتفتة لفتة عابرة نحو الحية التى لها جذع امرأة ، وتتناول التفاحة متثاقلة ، وصور آدم في الشطر الايسر من الصورة ضخم الجسم أدنى مرتبة منالانسان، وهو يمد يده الى غصن الشجرة الممتد فوق حواء ، التى يبدو جسدها ناعما شهوانيا ، ويواكب حركة ذراعها الممدودة غصن مواز ينبثق من جذع شجرة فى الخلفية .

وكما خلق ميكلانجلو تكوينا جديدا لقصة الغواية ، فقد أعرب من خلال جسد حواء عن فكرة جديدة ايضا هى أن الكسل الانثوى المترف يوقظ الرذيلة فى أعماق الانسان .

ولا تضم جنة عدن سوى أوراق شجر قليلة ، فلم يشأ ميكلانجلو ان يجسد المكان بأسلوب مادى . ومع ذلك فهو يحتال كى يوحى بالترف والحركة بواسطةخطوط الارض والايحاء بعمق الفراغ . وكلاهما يتباين مع الارض المستوية الجرداء فى النصف الايمن من الصورة ، مجسدا شقاء آدم وحواء بعد طردهما من الجنة حين ازاحهما الى طرف الصورة الايمن ، محتفرا فجوة عميقة بينهما وبين الشجرة .

ويفسر بعض المؤرخين الثنائية التى تجمع بين الحية والملاك المنتقم في مشهد الطرد من الجنة باللوحة بأنها تنطوى على فكرة أن الجريمة والعقاب مثل العلة والاثر ، هما مظهران توأمان للشر .

ونلاحظ اختلاف تعبير آدم فى مشهد الطرد عنه فى مشهد الغواية ، اذ يبدو مدركا خطيئته وان مضى فى طمأنينة وكبرياء ، محاولا أن يدفع بحركة ذراعيه حد السيف الذى يهدده به الملاك المنتقم . على حين بدت حواء منكمشة محاولة أن تحتمى بظله وهى تسرع الخطى وقد انحنى ظهرها والتفتت بوجهها نحو الجنة آسية وكأنها تسترق نظرة أخيرة .

وهكذا نرى في الشطر الايسر من الصورة مشهد الغواية والخطيئة حيث تتجلى الرغبة العمياء ، بينما نرى فى الشطر الايمن مشهد الطرد حيث تتجلى المعرفة والندم .

وتشمل اللوحات الخمس التالية مراحل خلق الله للكون والطبيعة .

ففى لوحة خلق حواء (لوحة ٢٥) يبدو الاله يهوه لأول مرة وهو يخلق الانثى باشارة آمرة من يده التى لا تلمس جسد حواء أو ضلع آدم كما اعتاد المصورون من قبل ، وانما يتجلى داخل أطواء عباءته وقد أمال التفكير العميق رأسه ، وحواء تنهض بطريقة تعرب بوضوح عن انها طوع أمر الله ، وتتسم ايماءة الدهشة والعجب المرتسمة عليها ـ وكأنها فى صلاة ورعة ضارعة ـ بجمال لانهائى أودع ميكلانجلو فيه مفهومه عن الجمال الجسدى ،بينما يرقد آدم مستندا الى صخرة ، متكوما كأنه جثة هامدة ، وقد اندفع كتفه الايسر الى الامام، وقبضت يده برخاوة على جذع خشبى . ويساير الخط المحيط للتل شكل جسم آدم ويحتويه ، على حين يتوازى مع شكل حواء واتجاهها جذع شجرة مشذب الاغصان. لقد احتشد كل شىء فى المساحة المتاحة وشارف الحواف حتى لم يعد مكان للاله الخالق لكى ينتصب فيه . ونكتشف هنا مفهوم ميكلانجلو الافلاطونى عن الخلق ، بأنه عملية عقلانية خالصة . ثم نشهد بعد ذلك الموضوع الرئيسى في عملية الخلق وهو خلق آدم (لوحة ٢٦) ,وهو أحد الاعمال النادرة التى تجمع بين العظمة الفائقة والبساطة المعجزة ،حتى بالنسبة لأولئك الذين لاينفعلون فى يسر بالاعمال الفنية . فمعناها واضح ومؤثر من الوهلة الأولى ، ويزيد شغف المرء بها كلما طال تأمله لها ، اذ نرى الجسد الانسانى فى روعة ليس لها مثيل سابق ، مستلقيا على الارض فى الوضعة التى اعتدنا ان نرى عليها التماثيل اليونانية لآلهة الانهار والخمر،الذين ينتمون الى الارض ولايتطلعون الى الفكاك منها .

ويتجه الاله الخالق في سحابة سماوية تضم زمرة من الملائكة صوب جسد آدم الخامد الملتصق بمضجعه الصخرى . ونتأمل الانسان يمد يده حتى تكاد تلمس يد الله ، وكأن شحنة كهربائية تسرى بين أصابعهما . وعبر هذه الشحنة الدافقة فى هذا النموذج الطبيعى الفذ ، خلق الله النفس الانسانية . فما يكاد الاله يلمس طرف أصبع آدم الممتدة حتى تدب فيه الحياة ، فتنطلق القوى الكامنة فى جسده ، التى تتجلى ـ رغم عجزه عن الحركة ـ فى انثناءة ساقة اليسرى ، وبروز جذعه المصور بالمواجهة وتوتر عضلات ساقه اليمنى المصورة بالمجانبة . ولكن آدم يتقبل الحياة على مضض وهو ما يعبر عن ذلك التشاؤم الذى يشيعه احتقار أفلاطون للحياة الدنيوية واعتباره لها عبئا ثقيلا وعقوبة للانسان على نسيانه لأصله الالهى ، وانجذابه الى عالم الحس ، مخلفا وراءه عالم التأمل العقلى . ومن خلف الله وفي ظل عباءته تتراءى حواء غامضة مستخفية وكأنها ما تزال كامنة فى أعماقه ترهص بما سوف يكابده آدم على يديها من شقاء .

• • •

وتتوالى مشاهد مراحل الخلق المبكرة فى تصاعد دافق بالحركة والحيوية .

ففى لوحة فصل اليابسة عن الماء (لوحة ٢٧) تتفجر قدرة الاله مانح البركة ، وهو يندفع من خلفية الصورة باسطا يديه فوق سطح الماء ، فنظن الى أن ميكلانجلو قد نقل الشعور بالسلام الذى ينطلق عن هذا المشهد بايماءة من الله وكأنه يبارك الكون . كما تعمد التعبير عن التضاؤل النسبى للذراع اليمنى ، وغمر التكوين المساحة التى حددها اطار الصورة تماما .

• • •

ثم نشهد الله بعد ذلك يخلق الشمس والقمر والنجوم (لوحة ٢٨) باشارات آمرة للايحاء بضرورة اخضاع هذه العناصر النارية الملتهبة بالحزم والقوة لا باللين والمباركة .

وهنا يغدو الله تجسيدا « لفكرة الخلق » نفسها شأنه شأن الأجرام السماوية ، فينطلق فى فلكه ينثر النجوم والكواكب التى تنطلق بدورها فى المدار الذى يرسمه لها .

ونلمس فى هذه اللوحة بوضوح ازدياد الدينامية فى اندفاعة الاله الى الامام باسطا ذراعيه الى ان يوقف مسيره بحيث ينحنى جذعه الى الوراء ، كى يتسنى له أن يخلق الشمس والقمر اثناء هذه الوقفة العابرة . ومع أن كلا الذراعين يومئان بحركة الخلق الا أن الذراع اليمنى تبدو أقوى تأثيرا ، ليس فقط لان الله ينظر فى اتجاهها بل لأنه قد لحقها نصيب كبير من التضاؤل النسبى .

كذلك فان المساحة التى تمثلها صورة الله اكبر من سابقتها ، حتى لا تترك موضع قدم لفراغ زائد لا ضرورة له .

والغريب في هذه اللوحة تكرار صورة الله، حيث يستدير فنراه من الخلف مندفعا وكأنه أعصار صوب عمق الصورة ، غير أن هذا التكرار تقليد فنى قديم ، فلو انا غطينا نصف الصورة لتجلى لنا كيف أن تكرار الشكل منفلتا ، هو جزء جوهرى من الاثر الشامل للحركة المدومة .

ويبين الايجاز المتتابع فى تصوير المخلوقات، أن فكرة ميكلانجلو هى تصوير طبيعة الله الخلاقة اكثر مماهى تصوير الاشياءوالكائنات التى يخلقها .

وفى النهاية نصل الى الذروة مع لوحة فصل النور عن الظلمة (لوحة ٢٩) حيث ينبثق الوضوح من العلماء ، وتتعانق الحكمة المسيحية الداعية الى معرفة الحقيقة كطريق لتحرر النفس ، مع النصيحة الهاتفة الالهية لسقراط . « اعرف نفسك » . أن مفهوم الله قد تطور : من اتخاذ شكل الانسان فى لوحة خلق حواء ، الى التجلى في الروح الكونية فى اللوحات التالية ، ثم يستحيل فى هذه اللوحة تجريدا شائعا نابضا فى ملكوت الوجود الخالص ، بعد أن أصبح الجسد رمزا للروح واتشحت قسمات الوجه بالضبابية .

لقد تحقق الهدف الافلاطونى الجديد لاتحاد الروح من الله عن طريق التدرج من قيد البنيقات ، الى البصيرة التنبؤية للعرافات ، واخيرا صعود سلم القصص الدينى نحو ضوء المعرفة النقى ، للوصول الى نقطة الذوبان والتلاشى في حرية اللانهائية .

ومن بين كافة المحاولات التى قام بها الانسان الفانى المحدود كى يقدم صورة للطاقة المطلقة بلا حدود ، نجد هذه اللوحة اكثرها اقناعا ، وان لم تكن أشدها واقعية . ولا غرو فان الصور الفوتوغرافية الحديثة لتكوين رؤوس المذنبات النجمية تعرض نفس هذه الحركة الشبيهة بالدوامة .

لقد استطاعت تصاوير سقف مصلى سيستنيا هى والتصاوير الجدرانية لرفائيل فى غرفة التوقيع بمبنى الفاتيكان أن تنقل من فكر ايطاليا فى عصر النهضة أكثر مما نقلته آدابها المكتوبة . كما أنها كشفت عن عمق بصيرة ميكلانجلو وقدرته على التنبؤ بما يوحى للمشاهدين بأنه فنان كل العصور ، وربما بصفة خاصة عصر الرومانسيين ، وهذه هى الصفة التى تميزه عن منافسه العبقرى رافائيل .

ونستطيع قبل مغادرة سقف المصلى أن نتمهل لحظة أمام **تصاوير الغلمان العراة** (لوحة ٣٠) لنقارنها بتمثال **الانثى الغافية** التى ترمز لليل (لوحة ١٦) ,وتلك التى ترمز للفجر (لوحة ١٩)والتى رجوت استضافتهما فى الذاكرة عدة دقائق ، ولنتأمل جيدا هؤلاء الغلمان الذين يمتلكون من السحر والفتنة والاثارة ما يستطيعون به منافسة جميلات الفتيات ، ليس في بشرتهم المصقولة ، ولا فى رقة الملامح ، ولا استدارات المناكب ورشاقة السيقان ، ولا فى انبثاق الاثداء ,وانسدال الشعور ، بل كذلك فى التثنى والتأود في الوضعة المثيرة واللفتة الداعية ، المترددة الحائرة بين الجسارة والحياء .

فى أى عالم رأى ميكلانجلو ذلك الجنس البشرى الغريب ؟ لا شك أنه جنس ابتدعه هو بخياله . ولعل لوحة يوم الحساب (لوحة ٣١)هى أشهر تصاوير روماالجدارية، وهى بلا شك أكبرها حجما ، اذ تغطى مساحة قدرها ستة عشر مترا فى اثنى عشر مترا . وقد توزعت رسومها على ثلاثة أقسام رفق التثليث الافلاطونى : تسود فى أعلاها مملكة السماء يتوسطها المسيح فى جلاله على عرش السحب بوصفه قاضيا والعذراء الى جواره. ومن حوله حلقة من الرسل وآباء الجنس البشرى المذكورين فى التوراة تحيط بهم حلقة اخرى من الانبياء والشهداء والنساء العبريات والقديسات العذارى ,والعرافات الوثنيات .

ويشرف من احدى الكوتين العاليتين جماعة من الملائكة يحملون صليب المسيح ، ومن الكوة الثانية جماعة اخرى يحملون العمود الذى عذب عليه . وتبدو الملائكة بلا أجنحة ، والقديسون بلا هالات فى أجساد عملاقة ، تتحرك محتدمة كأوراق الشجر الصخابة فى أتون العاصفة .

ويعج القسم الاوسط بحشود البشر ، بعد الفراغ من الحساب ،حيث يرقى الطائعون الى الجنة ، بينما يتهاوى العصاة فى الجحيم (لوحة ٣٢) ، ورسل الرب تنفخ في الصور ، بينما يحمل ملاك صغير كتاب الحسنات الدقيق ، وينوء ملاكان قويان بحمل كتاب السيئات البالغ الثقل والضخامة .

ويحتجز ميكلانجلو القسم الاسفل لصورة الجحيم اليونانى (لوحة ٣٣) كاشفا بذلك المنبع الثانى لفكر ميكلانجلو الذى شكلته المسيحية الافلاطونية ، حيث يبسط خارون مملكته فى العالم السفلى حول نهر ستيكس الى اليمين ، وحيث تحتشد زبانيته وزبائنه. على حين يتدافع الى اليسار الموتى مبعوثين من قبورهم يوم القيامة والذين يتطلع اليهم المسيح في جلاله لحظة وصولهم الى الجحيم ، شاهرا يده اليمنى فى حركة تلقى الرعب وهو يصدر حكمة عليهم بالهلاك ، مشيرا بيمناه الى الطائعين ليشهدوا جرح جنبه الدامى (لوحة ٣٤) .

لقد بعثت هذه اللوحة انتفاضة هائلة في فن التصوير ، وخلفت أسلوبا جديدا مثله الاعلى :

ـ كونية الفضاء اللانهائى .

ــ والانفلات عن اسار الزمان والمكان .

ــ وتحريك الوجدان البشرى باثارة الشفقة والرثاء .

على أن هذه اللوحة التى أحدثت هذا التأثير الهائل على المصورين المعاصرين قد أثارت عداء محموما من جانب رجال الدين والفكر الذين كانوا يقاومون حركة الاصلاح الدينى . وهكذا امتدت أيدى التزمت لتغطى معظم الاشكال العارية فى لوحة يوم الحساب.

●●●

فاذا تركنا عالم النحت والتصوير والعمارة ودلفنا الى عالم الشعر وجدنا الباب مفتوحا الى اعماق ميكلانجلو ، فليس غير الشعر ساحرا يزيح بعصاه الستر .

وكان ميكلانجلو واحدا من أعظم أربعة أو خمسة شعراء ايطاليين فى عصره ، واذا كان أشدهم صدقا فقد كان أقلهم شأنا من ناحية الصنعة الشعرية ، فكان تعبيره الشعرى من أكثر الاشعار الغنائية الايطالية تركيزا وغموضا ، حتى كان بعض ناشرى شعره يتبعون كل قصيدة بشرح هو في حقيقته ترجمة نثرية بالايطالية الحديثة .

وليس يعنى هذا ان لغته نفسها كانت عسيرة بالنسبة للقارىء العصرى ، ولكنه الفكر وراءها الذى يبدو ساطعا وخفيا فى آن معا . والواقع ان شعر ميكلانجلو هو شعر ذاتى بحت . وأغلب الظن انه لم ينظم قط قصيدة دون أن يكون واقعا تحت تأثير انفعال ما ، فلم يكن ينظم الا مدفوعا بحاجة قوية ، او ممزقا بعذاب،او محاصرا بعاطفة ،وتكشف مخطوطاته التى خلفها عن تلقائية الهاماته . فقد كانت كثرتها مسجلة على طرف رسم أو عجالة تخطيطية ، أو على خطاب أو ظهر فاتورة حساب ، مما يجعلنا نرى بوضوح أنه كان يسجل خواطره ــ أو على الاقل مسودتها ــ على أول ورقة تقع بين يديه .

وتحمل أشعار ميكلانجلو التى تبلغ حوالى المائتين وخمسين قصيدة طابع التكشيف لانفعالاته ، بلا تكلف أو اسهاب مصطنع او بلاغية لفظية ، فالشعر هو مملكة ميكلانجلو الخاصة . ولم يكن يكتب أشعاره للعامة بل لنفسه هو ، أو لانسان بذاته . ومن ثم كان ديوانه الشعرى أشبه بيوميات لعواطفه، ومرآة لقلبه ، وسيرة ذاتية عاطفية وروحية.

وفى عصر كان كل عمل فنى خاضعا للتقاليد أكثر مما هو الحال الآن ، كان على ميكلانجلو رغم تفوقه على غيره فى التعبير عن نفسه الحقيقة ، ورغم أن ممارسته للشعر قد بقيت فى اطار الهواية بعيدا عن الاحتراف ، أن يلتزم بالتقاليد الفنية التى لا يستقيم الشكل الشعرى من غيرها ، ودون أن يكون مع ذلك مؤمنا بها ، وذلك ماهوى بصنعته الشعرية عن مستوى رفاق فنه .

كان عالم الشعر ملاذ ميكلانجلو ، يفزع الى خلوته كلما أججت انفعالاته عذاب القلق فى أعماقه . وما أكثر ماكان يهرب الى الشعر. فما كانت حياته الا قطعة متصلة من العذاب الداخلى العاصف الذى يتضاءل أمامه كل حزن عابر . وكان احتدام مشاعره يشده الى عزلة موحشة ، يرفض داخل أسوارها رؤية الاصدقاء ، ويعسر عليه أن يعيش فى سلام حتى مع نفسه ؛ لكنها كانت تتيح له اشباع حاجته الى التأمل والتركيز الهائل لانجاز اعماله الابداعية . ومع ذلك فكم كان رقيق المشاعر مع بسطاء الناس ، عطوفا حانيا على الفنانين الناشئين ، كلما عرف الانفلات لحظات خارج أسوار العزلة .

حتى الانثى لم تعرف طريقها الى خلوته ، فعاش دون ان يتخذ زوجة أو خليلة مع ان صداقته بمساعديه ونماذجه كانت تفوق في عنفها وصدقها أعمق العلاقات البشرية .

وليست نظرته للحب بعيـدة عن النظـرة الافلاطونية : فالجمال البشرى يوقظ فىالنفس أصالتها الالهية ، ويرتقى بها الى عالم الآلهة أن هى انسـلخت من الانجـذاب الجسـدى وهامت بالـروح . وهكـذا احب ميكلانجلو صديق عمره تومازو كافاليرى النموذج الذى التقى فيه جمال الروح بجمال الجسد ، فخلد صداقتهما فى قصائد من شعر أخاذ ، ترجمته هو وغيره عن الفرنسية لا الايطالية :

« بلا روية انطلقت اليك .

ظننتنى على شاطىء جدول نحيل .

أعبره دون أن يبلل ماؤه ما فوق قدمى .

لكن .. ها أنذا مذ خلفت الشاطىء .

محاصرا وسط خضم محيط هائل .

تشمخ أمواجه من كل جانب .

آه لو كنت مستطيعا العودة للشط .

لهرولت سريعا .

لكنى مادمت بلغت مكانى .

فلأ صنع من قلبي صخرة .

وأخوض بها اليم .

واسمك فى روحى وكيانى .

يملؤنى ريا وعذوبة .

تجعلنى لا أعبأ بالضجر .

ولا أخشى الموت .

حتى اذا ما أطلت المراة على أفق حيـاته اقبلت فى ثياب سـيدة مترهبة تعيش في دير القديس سلفستر بروما تحمل أربعين عاما من الثقافة الرفيعة والورع والفضيلة ، وتمنحه اهم ما كان فى حاجة اليه : حنان الامومة الذى لم ينعم به لوفاة والدته فى طفولته ، وطمأنينة النفس التى كان يطـاردها شـعوره بالاثم وخوفه من عذاب النار . بينما كانت **فيتوريا كولونا** تبشر بعقيدة جديدة تجعل من الايمان وحده مخلصا من كل الآثام .

وهكذا وجد ميكلانجلو أخيرا المراة الصديق والمراة العزاء ، والمراة الطمانينة ، والمـراة الخلاص .

وايقظت فيتوريا المسـيحية ، فى أعمـاق ميكلانجلو ، فاشتعل بحماس خلاق ، وعكف على انجاز أعمـال فنيـة دينية تمثل فكرة الخلاص بواسطة السيد المسيح ، كانت قمتها لوحة يوم الحساب التى واكب تنفيذها هذه العلاقة المتسامية .

وحين ماتت فيتوريا بعد أن أضاءت حياة ميكلانجلو عشرة أعوام بكى العملاق كطفـل رضيع فقد الى الابد أمه ، والتفت التشاؤم ثانية حول وجدانه ، وصـبغ شعره بالأسى وتوقع الموت وراح يقول : ــ

« أثق أن الفناء مقبل

لكنى لا أعلم موعد اقدامه

العمر قصير

لم يبق لى منه سوى القليل

الحياة الدنيا تستهوى حواسى
بينما تستحثنى روحى للقاء الموت .
العالم ضرير شرير
يعصف بالاشياء بضربات علوية
النور انطفأ
فولى معه كل أمان .
ينتصر الزيف
ويستخفى الحق
وا أسفاه .. رباه ، متى يتحقق أمل المؤمن بك ؟
وطول الانتظار يفتك بالآمال
ويترك الروح فريسة للموت .
ما قيمة النور الغامر .. الذى تعد به
مادام الموت سيقبل بغتة .
ويقبع المرء أمامه بلا حول ولا قوة
ثم يخلفنا دون حراك
فى نفس الوضع الذى يلقانا فيه » .

● ● ●

ومع احساس ميكلانجلو باقتراب الموت دب فيه التخاذل فلم يعد يكمل رسومه أو تماثيله،واخذ يشوه نسب الجسم التشريحية عامدا ، ففتح الابواب على سعتها أمام المدرسة المتكلفة « مانريزم » ثم لطراز الباروك .

كتب الى فاسارى مؤرخ فنانى عصر النهضة عام ١٥٥٩ قبل وفاته بخمسةأعوام: **« ليس ثمة فكرة في أعماقى لم يتسرب اليها الموت »** ، واصر على قضاء بقية ايامه فىخدمة بلاط البابا بروما لعله يظفر بالخلاص .

وانتقل العبقرى العملاق الى عالم الخلود، وبقيت تماثيلباكخوسوداود وموسىوالعذارء الآسية ، وتصاوير سقف مصلى سيستينا ولوحة يوم الحساب لتذكر الاحياء بأن رجلا فذا قد شارك بازميله وفرشاته في صنع عصر كامل هو عصر النهضة الايطالية ، وفى دفع البشرية خطوة حاسمة على طريقالتقدم. **كان اسمه وسيبقى ميكلانجلو ... أو الملاك ميكائيل .**

★ ★ ★

المراجـع

— Bottari, Steffano — Michelangel. La Cappella Sistina. Eratelli Fabri — Albert Skire 1968.

— Berenson, Bernard — Italian Painters of the Renaissance vol. 2. Florentino and Central Italian Schools. Phaidon, London. New York, 1968.

— Clar , Keneth — Civilisation, a personal view. British Broadcasting Corporation and John Murray 1969.

— Forlani, Anna — Michelangelo. Fratelli Fabri Editori 1963.

— Fleming, William — Arts and Ideas, Holt, Rinehart and Winston New York 1961.

— Goldscheider, Ludwig — Michelangelo. Complete edition. Phaidon 1959.

— Huygho, René — l'Art et l'Ame. Flammarion 1960.

— Pope Hennesy, J. — Italian High Renaissance and Baroque Sculpture, 1963.

— Revel, Jean - Francois — Michel-Ange: Le Secret d'un coeur révélé par les Sonnets. Collection Génies et Realités. Paris Hachette 1961.

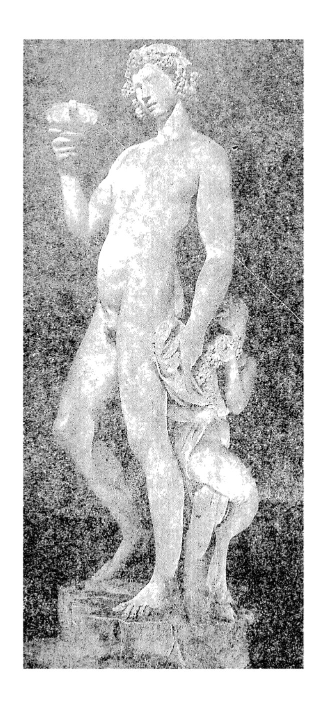
— Redig de Campos D. — Michelangelo . . . Cappela Paoline in Vatican. Collezione Silvana Milano 1956.

— Vasari, Giorgio — Life of Michelangelo Buonarroti, The Folio Society. London 1970.

— Wolfflin, Heinrich — Classic Art. An Introduction to the Italian Renaissance, Phaidon. London, New York 1968.

ـ العهد القديم من الكتاب المقدس .

★ ★ ★



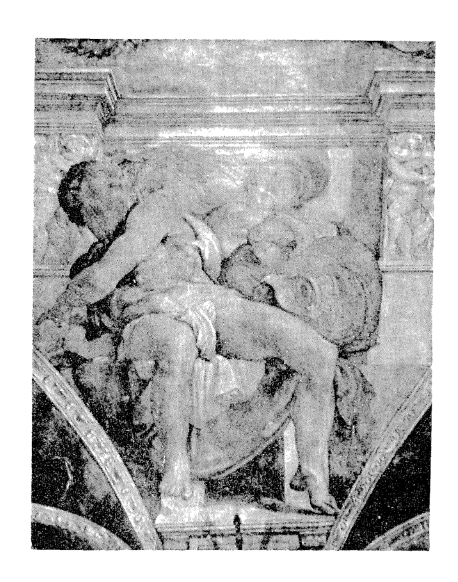
(لوحة ١) باكخوس



(لوحة ٢) العذراء الآسية (بييتا) الفاتيكان



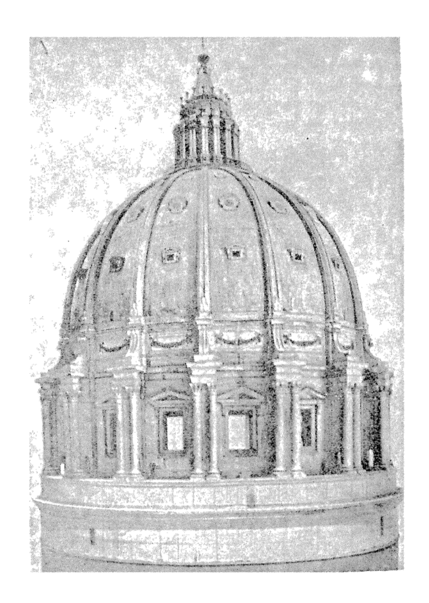
(لوحة ٣) سقف مصلى سيستينا عرافة كوماى



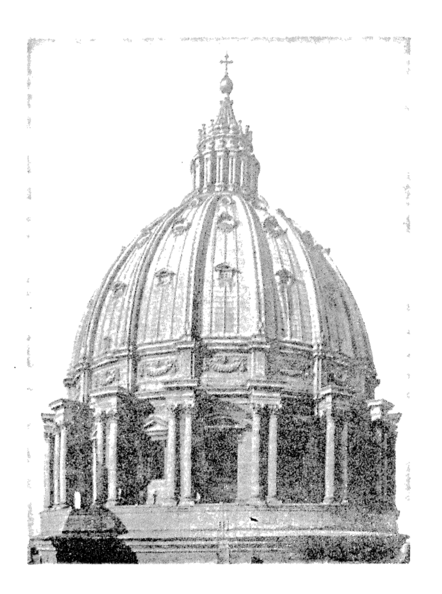
(لوحة ٤) سقف مصلى سيستينا النبي يونس والحوت



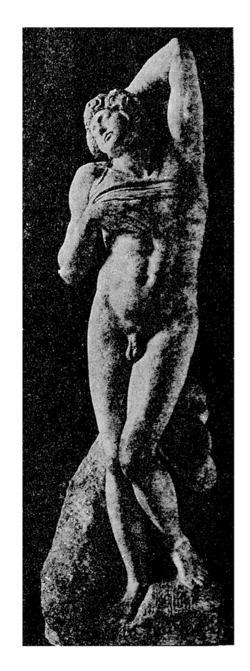
(لوحة ٥) سقف مصلى سيستينا



(لوحة ١٦أ) نموذج خشبي لقبة كنيسة القديس بطرس بروما



(لوحة ٦ب) قبة كنيسة القديس بطرس بعد الانتهاء منهـا



(لوحة ٧) العبد المغلول ـ متحف اللوفر



(لوحة ٨) العبد المتمرد ـ متحف اللوفر



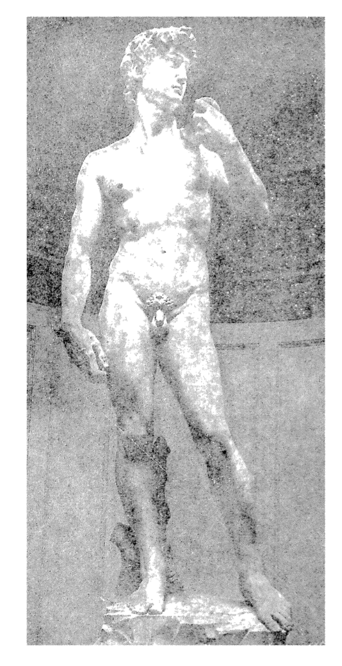
(لوحة ٩) اسير بوبولى



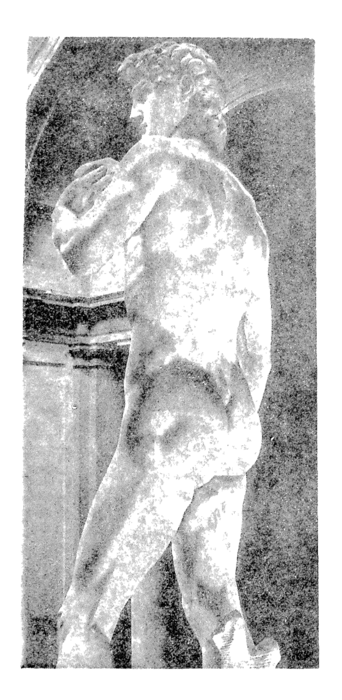
(لوحة ١٠) اسير بوبولى الملتحي



(لوحة ١١) العذراء الآسية «تفصيل» وجه المسيح



لوحة (١٢ أ) داود



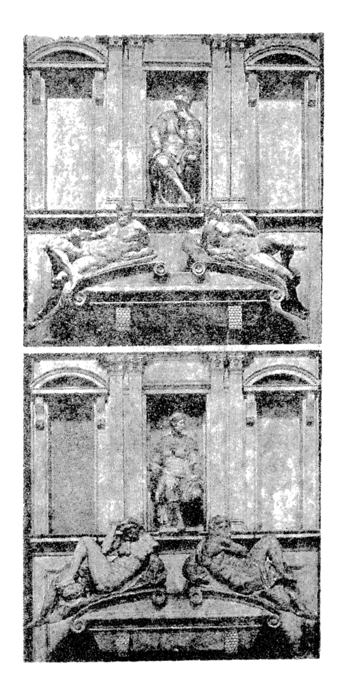
(لوحة ١٢ ب) داود



(لوحة ١٢ أ) موسى

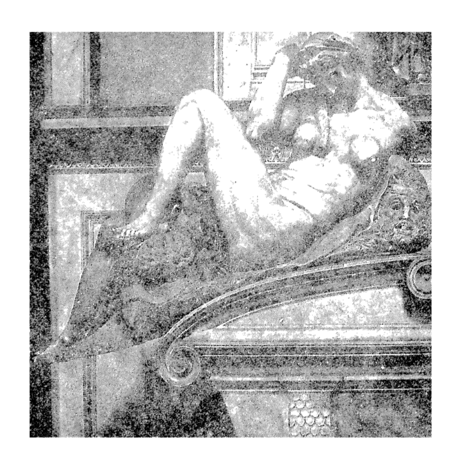


(لوحة ١٣ ب) موسى ــ تفصيل اليد اليمنى واللحية

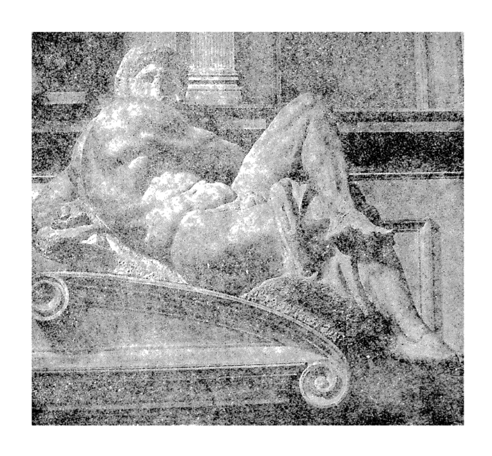


(لوحة ١٤) ضريح لورنزو

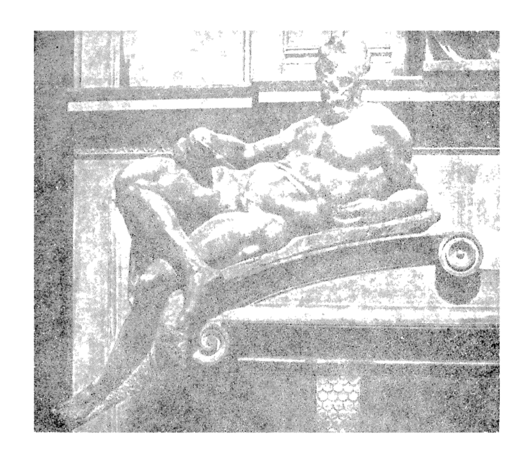
(لوحة ١٥) ضريح چوليانو



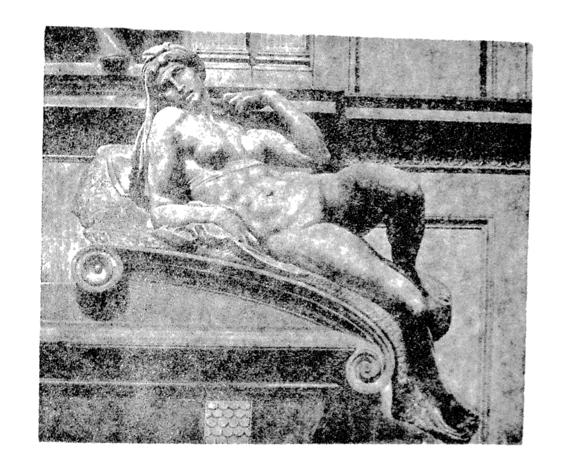
(لوحة ١٦) جوليانو ــ الليل



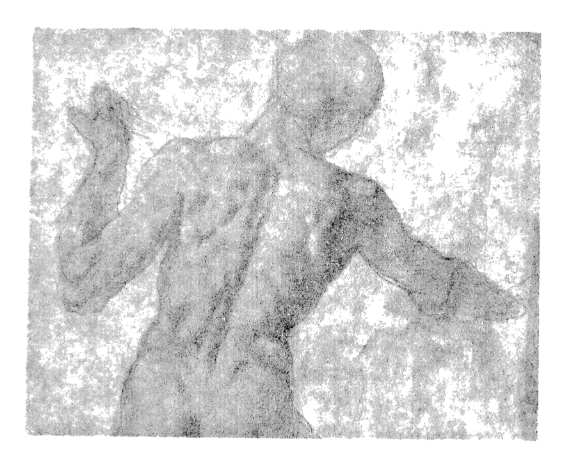
(لوحة ١٧) ضريح جوليانو ـ النهار



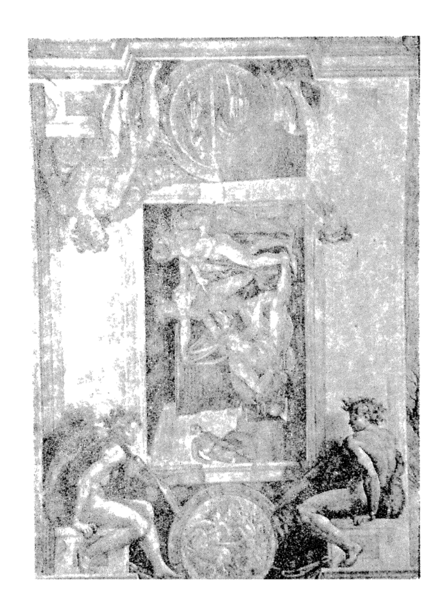
(لوحة ١٨) ضريح لورنزو ــ الغروب



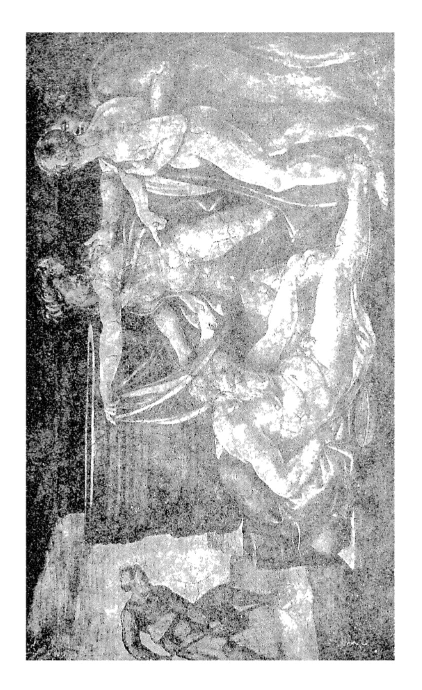
(لوحة ١٩) ضريح لورنزو - الفجر



(لوحة ٢٠) دراسة لمعركة كاسكينا

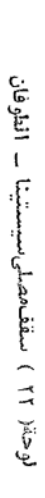


(لوحة ٢١ أ) سقف مصلى سيستينا ـ نوح ثملا



(لوحة ٢١ ب) سقف سيستينا – نوح ثملا





لوحة (٢٢) سقف صالة سستينا – الطوفان



(لوحة ٢٣) سقف مصلى سيستينا - نوح وأبناؤه يقدمون القرابين



(لوحة ٢٤) سقف مصلى سيستينا – خطيئة آدم وحواء وطردهما من الجنة



لوحة ٢٥) سقف مصلى سيستينا – خلق حوة



(لوحة ٢٦) سقف مصلى سيستينا ـ خلق آدم



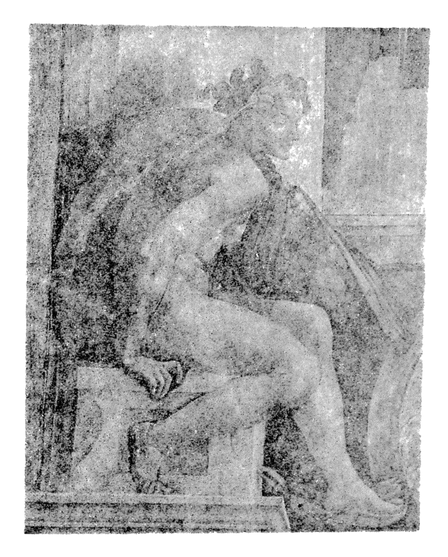
(لوحة ٢٧) سقف مصلى سيستينا فصل اليابسة عن الماء



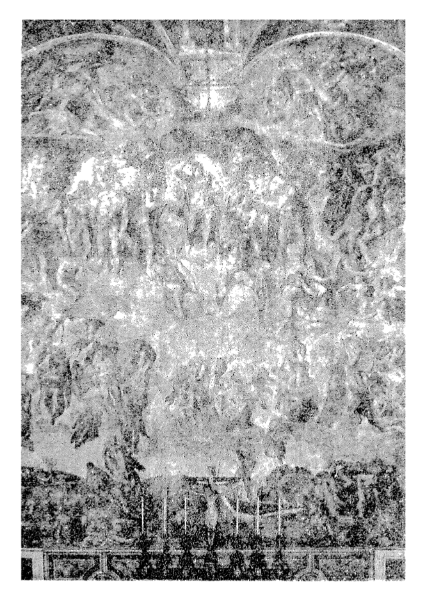
(لوحة ٢٨) سقف مصلى سيستينا – خلق الشمس والقمر والنجوم



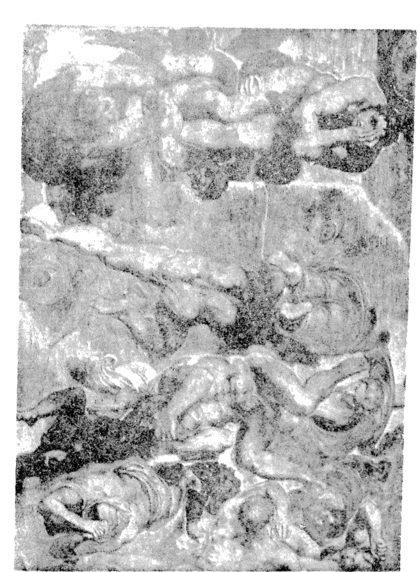
(لوحة ٣٩) سقف مصلى سيستينا ـ مشهد فصل النور عن الظلمة

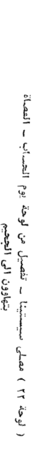


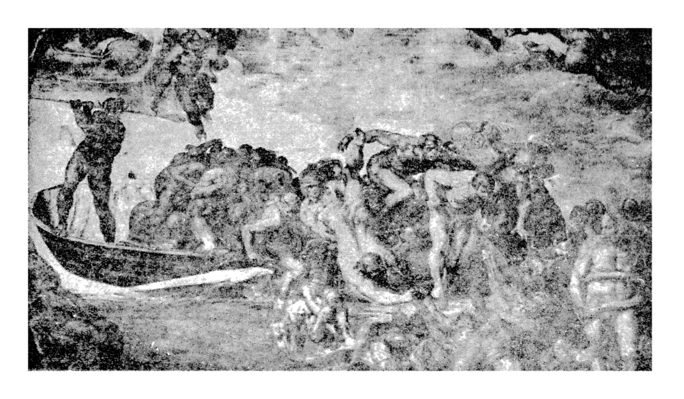
(لوحة ٢) سقف مصلى سيستينا غلام عار (انيودى)



(لوحة ٣١) مصلى سيستينا ـ لوحة يوم الحساب




(لوحة ٢٢) مصلى سيستينا ـ تفصيل من لوحة يوم الحساب ـ العصاة يتهاوون الى الجحيم



(لوحة ٣٢) مصلى سيستينا ـ تفصيل من لوحة يوم الحساب
« الجحيم »



(لوحة ٣٤) مصلى سيستينا ـ تفصيل من يوم الحساب ـ المسيح في جلاله بوصفه قاضياً

عرض الكتب



المخدرات وطلبة المدارس

تأليف : ر . س . ب . واينر

عرض وتحليل الدكتور : عدنان الدوري

ان موضوع العقاقير المخدرة يشكل موضوع الساعة فى اولويته بين البحوث والدراسات الاجتماعية والنفسية والطبية، والطبية العقلية والقانونية المعاصرة . لقد ظهرت كتب عديدة ودراسات علمية لا حصر لها تناولت هذا الموضوع ، الا أن الجديد فى هذا الكتاب انه يعالج جانبا حيويا من هذه المشكلة ، وهى ظاهرة تفشى هذه السموم المخدرة بين فئة طلبة المدارس من المراهقين الذين لا تتجاوز اعمارهم التاسعة عشرة .

مؤلف هذا الكتاب الدكتور براينر من الباحثين العلميين المتخصصين فى معالجة المشكلات الاجتماعية الذين يعملون فى مدرسة لندن للدراسات الاقتصادية ، كما قد درس علم النفس فى جامعة سدنى باستراليا ، وعمل فترة ما فى المعهد القومى لعلم النفس الصناعى فى الجامعة المذكورة .اماكتابه هذا فهو حصيلة البحث العلمى الذى تقدم به لنيل درجة الدكتوراه فى جامعة لندن .

ينقسم الكتاب الى اقسام ثلاثة خصص القسم الاول كمدخل نظرى لعرض أبعاد مشكلة المخدرات بوجه عام وبيان أهداف الدراسة وايجاز بعض الدراسات العلمية التي تناولت هذه المشكلة . وقد خصص القسم الثانى لعرض ماهية الدراسة الميدانية حيث تناول طريقة البحث وكيفية اختيار عينات البحث وعمليات الاستبيان وجمع المعلومات المطلوبة . اما القسم الثالث فقد تضمن خلاصة النتائج وبعض التوصيات المتصلة بموضوع المشكلة . كما ذيل الكتاب بملاحق خاصة باستمارات البحث والاستبيان وبعض الرسائل المتداولة لغرض جمع المعلومات المطلوبة .

وعلى الرغم من أن الباحث فى كتابه هذا لم يهدف الى معالجة مشكلة المخدرات بوجه عام ، الا انه افرد ما يزيد على السبعين صفحة من كتابه لعرض ارضية أكاديمية نظرية لموضوع المخدرات ، وهذا لا شك يعكس اهتمامالباحث بالاطار النظرى العام الذى يشكل المدخل الاكاديمى للدراسة موضوع الكتاب .

واذا كان الانسان قد استخدم العقار المخدر منذ آلاف السنين الا أن هذه العقاقير المخدرة لم تصبح مشكلة ذات أبعاد اجتماعية ونفسية وطبية وقانونية الا خلال القرنين الماضيين . اما اليوم فقد بلغت مشكلة العقاقير المخدرة ابعادا خطيرة لدى الكثير من المجتمعات المعاصرة ، وليس أدل على ذلك من بعض الاحصائيات العالمية التي تشير الى ان عدد الاشخاص الذين يتناولون نبات الماروانا يزيد على المائتي مليون شخص فى جميع انحاء العالم . وهناك احصائيات عالمية لعام ١٩٦٢ تشير الى أن عدد الذين يتناولون بعض العقاقير المهدئة والمنشطة بصورة غير مشروعة يزيد على العشرة ملايين شخص فى العالم . اما فى الولايات المتحدة الاميركية فان مشكلة المخدرات تجاوزت أبعادها التقليدية المألوفة، حيث يشير المكتب الفدرالى للمخدراتفى احصائية صدرت فى عام ١٩٦٥ أن عدد المدمنين على عقار الهيروين وحده بلغ (٥٥٫٨٩٩) شخصا ، هذا على الرغم من تلك العقوبات الشديدة التي تضعها القوانين الجزائية الاميركية لمنع تداول هذا العقار منذ عام ١٩١٤ .

ما هو المقصود بالعقاقير المخدرة ؟

هناك تعريف عام ورد بقاموس اكسفورد الانجليزى يعرّف العقار بانه كل مادة طبية جوهريةعضوية أو غير عضويةتستخدم بصورة نقية او فى تركيب كيماوى خاص . وهذا التعريف لا شك لا ينصرف الى العقار المخدر الذى يتناوله الشخص بصورة غير مشروعة ، فالعقار لا يصبح مشكلة اذا استخدمه صاحبه لأغراض طبية علاجية مشروعة أو تحت اشراف طبى . اما العقار المخدر الذى يمنع القانون تداوله فهو كل مادة كيماوية تؤدى الى تغير محسوس فى مزاج الشخص الذى يتناوله ، والى تبدل واضح فى شعوره وفى ادراكه، وذلك حين يستخدم هذا العقار بصورة غير مشروعة وبأسلوب يخالف معايير المجتمع ونظمه . ولكن ما هى تلك المواد المخدرة التي يمنع القانون تداولها خلافا للأغراض الطبية المشروعة ؟

ان العقاقير المخدرة التى يشيع استعمالها اليوم بين غالبية الشباب والمراهقين هى الانواع التالية :

(١) مركبات الأفيون opiates وبوجه خاص مركب الهيروين heroin .

(٢) مركبات نبات القنب cannabis

(٣) عقاقير الهلوسة وبوجه خاص المركب المعروف LSD .

(٤) مركبات الامفتامين amphetamines

(٥) مركبات حامض البربتيوريك barbiturates .

(٦) المركبات التى تشتمل على الامفتامين وحامض البربتيوريك معا .

ولعل من الضرورى أن نتناول هذه العقاقير بتعريف موجز لبيان بعض صفاتها المميزة وتأثيراتها المختلفة .

أولا ــ مركبات الافيون : وقد عرف الانسان الافيون opium منذ اربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، اما عقار الهيروين heroin وهو من مركبات الافيون فقد ظهر فى المانيا منذ عام ١٨٩٨ وهو عقار يجرى تصنيعه من

عقار المورفين ويطلق عليه علميا مصطلح diacetylmorpline . ولا شك ان مركبات الافيون ومنها عقار الهيروين تعتبر من اخطر العقاقير المخدرة ، حيث تقول منظمة الصحة العالمية ان هذا العقار يؤدى الى حالة الادمان addiction حيث تتبلور الرغبة الشديدة لاستمرار تناول العقار بأية وسيلة كانت والرغبة المستمرة لزيادة كميته ، وبالتالى الاعتماد المباشر على العقار يوما بعد يوم . ويرى الكثير من العلماء ان هذا العقار يؤثر على الجهاز العصبى المركزى ، والى هبوط الفعاليات الجثمانية والعقلية واحتقان حدقة العين والامساك المعوى وانقطاع طمث النساء وفتور فى الرغبة الجنسية وغير ذلك من الاعراض الأخرى . ولاشك أن ادمان عقار الهيروين يفقد المدمن قدرته على مواصلة حياة اجتماعية سوية وتكوين علاقات سليمة بالآخرين ، كما وان المدمن لايسعى فى الواقع الى عقد صداقات جديدة خارج اطار علاقته بالمدمنين من امثاله ، ولذلك فهو غالبا ما يفضل العزلة على تكوين صداقات جديدة .

ثانيا ــ مركبات نبات القنب cannabis

وهذه عقاقير عرفها الانسان منذ عام ٢٧٣٧ قبل الميلاد ، وهى تستخرج من أوراق أو بذور أو قشور نبات يعرف بالقنب cannabis saliva ومن اشهر أنواعه الماريوانا marijuana وتستخرج من الازهار المجففة لأنثى هذا النبات ، والنوع الثاني هو الحشيش hashish وهو يستخرج من مسحوق النبات المجفف بعد مزجه بالمادة الصمغية التى تكسو قشرة هذا النبات . وهناك اكثر من ثلاثة وتسعين اسما يطلق على مستحضرات نبات القنب ، الا ان الشائع منها الماريوانا والحشيش والكيف والداجا والجانجا .

اما التأثيرات الشائعة لهذه المركبات فهى طلاقه اللسان واحلام اليقظة وزوال القلق والمعوقات الباطنية لحرية النشاط والشعور بالمرح والتفير والارتخاء . كما وهناك خطأ شائع يدعو الكثير للاعتقاد بأن لهذه المركبات تأثير معين فى زيادة الطاقة الجنسية ، ولكن الثابت علميا انه لاتوجد علاقة بين مثل هذه المركبات وبين زيادة الحيوية الجنسية ، ولكن ربما لبعضها تأثير فى اطالة العملية الجنسية . اما بعض التأثيرات الضارة لمثل هذه المركبات فهى لازالت موضوع خلاف كبير . فقد يجد البعض ان الاعتياد على هذه المركبات لمدة طويلة يؤدى الى تدهور القدرات الذهنية ويضعف القدرة على مواصلة العمل المنتظم ، كما يؤدى الى اضطراب العلاقات الاجتماعية بالآخرين ، وهو فى الغالب يقود الى حالة الادمان على المخدرات . الا ان منظمة الصحة العالمية لاتؤيد ظهور حالة الاعتماد البيولوجى نتيجة تناول هذه المركبات ، ولكن مثل هذه المركبات تؤدى الى حالة الاعتماد النفسي . كما يرى البعض الآخر أن هذه المركبات هى اقرب فى تأثيرها الى تأثير الكحول ، وهذا يجعلها بعيدة عن مركبات الأفيون ، اذ أن استعمال مركبات نبات القنب بصورة معتدلة، كما يراها البعض ، لاتزيد فى خطورتها عما يتعرض له الانسان نتيجة اسرافه فى تناول الكحول . الا ان هناك من يعتقد بان تناول هذه المركبات يشكل جواز سفر للعبور الى ادمان عقاقير مخدرة اخرى اشد خطورة كالهيروين حيث تؤيد غالبية الاحصائيات وجود مثل هذه العلاقة .

ثالثا ــ عقاقير الهلوسه hallucinogenics

ومن أبرز أنواعها العقار الشائع باسم LSD والعقار DET والعقار DMT والعقار DPT. وربما يكون عقار LSD اكثرها شيوعا لسهولة الحصول عليه . وهذه عقاقير فى الغالب تؤدى الى تغيرات محسوسة فى التفكير وفى الادراك

وفى المزاج ، ولكنها لاتؤدى الى اضطرابات دائمية فى الشخصية . وقد اكتشف عقار LSD علميا منذ عام ١٩٣٨ ، الا ان الاهتمام بدراسة آثاره تبلور خلال عام ١٩٤٣ . ويمكن ايجاز أبرز الآثار الجثمانية التى تنشأ عن تناول هذا العقار بأنها تشتمل على اتساع حدقة العين وثبات نسبة ضغط الدم ورعشة سريعة وحادة فى الركبة وزيادة فى النبض وضعف واضح فى النطق . اما الآثار النفسية فيمكن تلخيصها بظهور حالة امتزاج بين الذات والعالم الخارجى وظهور الشعور بالاتحاد مع كل الاشياء او حالة انفصام عن الذات ، أو حالة انفصام عن العالم الخارجى . ويقول أحد العلماء بأن هناك حالة انتحار واحدة تحدث بين كل (٢٥٠٠) حالة ممن يتناولون هذا العقار . كما ويتفق غالبية العلماء على ان غالبية الذين يتناولون هذا العقار يعانون من بعض الاضطرابات العاطفية أو انهم يعانون من اضطراب واضح فى شخصياتهم .

رابعا ـ مركبات الامفتامين وهذه تشتمل على مجموعة كبيرة من العقاقير يزيد عددها على العشرين ، ويشيع تسميتها بالحبوب المنشطة للحيوية او تلك التى تعرف ب PEP-PILLS وهى اما أن تكون من مستحضرات الامفتامين بصورة نقية أو مختلطة بمركبات حامض البربتيوريك . اما المراهقون فهم يطلقون على هذه المركبات تسمياتهم الخاصة مثل مصطلح METH او DEXIES أو BENNIES او PURPLE HEARTS . والاصل فى هذه المركبات انها تستعمل لاغراض طبية خاصة عرفها الطب الاميركى منذ عام ١٩٢٧ تحت اسم البنزيرين BENZEDRINE لمعالجة حالات الصرع والتسمم والحالات الكحولية وبعض الاضطرابات النفسية والعصبية الاخرى . الا ان استخدامها لاغراض غير مشروعة جاوز أهدافها المشروعة ، حيث تشير بعض الاحصائيات الاميركية الصادرة فى عام ١٩٦٥ الى ان عدد الوصفات الطبية التى صرفت من قبل الجهات الصحية بصورة مخالفة للقانون تجاوزت ٣٫٨٠٠٫٠٠٠ وصفة طبية . اما تأثير هذه المركبات فيقول الاطباء المتخصصون انها تزيد من ارتفاع ضغط الدم وارتخاء العضلات واتساع حدقة العين ، وهى فى الغالب تساعد على زوال الارهاق الجسدى والعقلي وتضاعف الحيوية وتزيد الثقة بالنفس . ويؤكد بعض الاطباء ان تناول هذه المركبات بصورة معتدلة وبكميات صغيرة وفى أوقات متفاوتة لا يثير مشكلة ادمان بالمعنى الطبى ، الا أن تناولها بكميات كبيرة وبأوقات متكررة يؤدى الى حدوث تأثيرات سلبية كحدوث زيادة مفرطة فى الحيوية ربما تقود الى بعض النتائج غير المرغوب فيها اجتماعيا ، كما قد تؤدى الى حالة الانهيار او الى ادمان عقاقير مخدرة اخرى .

خامسا ـ مركبات حامض البربتيوريك Barbiturates وهذه تدخل فى الغالب تحت مركبات الامفتامين الا انها تختلف فى تأثيراتها الكيماوية والنفسية ، فالامفتامين عقار منشط يضاعف حيوية الجهاز العصبي ، بينما تعتبر مركبات حامض البربتيوريك عقاقير مسكنة مهدئة خافضة للحيوية . ولعل مركبات حامض البربتيوريك اقل خطورة من مركبات الامفتامين ، وذلك لعدم شيوعها بين الشباب والمراهقين على نطاق واسع .

والدراسة الميدانية او البحث العلمي موضوع هذا الكتاب جاء عرضه فى القسمين الثاني والثالث من الكتاب . ففي القسم الثاني طرح الباحث خطته فى البحث والطرق التى استخدمها فى جمع البيانات المطلوبة ، وكيفية اختيار عينات البحث وتنفيذ خطوات البحث . اما القسم الثالث فقد خصصه الباحث لنتائج البحث وتحليل المعلومات المتحصلة وطرح بعض التوصيات .

ويقوم البحث على خطة اختيار مجموعتين من الاطفال احدهما مجموعة بحث ضمت (١٠٣٩) طالبا من طلبة المدارس ممن تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والتاسعة عشرة ، وقد اختارهم الباحث كعينة للطلاب الاطفال الذين يعتقد أنهم تناولوا بعض العقاقير المخدرة فى فترة من فترات حياتهم ، وهم يمثلون اربع مناطق جغرافية مختلفة من منطقة مدينة لندن . أما المجموعة الثانية فهي مجموعة ضابطة تمثل عددا مماثلا من الاطفال الذين انكروا استعمالهم للعقاقير المخدرة بشكل من الاشكال طيلة حياتهم .

وعلى الرغم من أن الباحث شعر بصعوبة التأكد من صحة استعمال الاطفال للعقاقير المخدرة ، وذلك بمجرد الاعتماد على ادعائهم المجرد ، فقد قام بتجربة تحضيرية أولية تناولت مجموعة صغيرة من الاطفال لمعرفة مدى امكانية الاعتماد على مجرد الادعاء باستخدام العقار المخدر ، وقد دلت نتائج هذه التجربة الاولية على امكانية الحصول على مثل هذه الاعترافات الى حد ما .

ويظهر ان البحث كان يقوم على فرضية اولية وهى امكانية تشخيص بعض الاختلافات بين طائفة الذين يستعملون العقاقير المخدرة وبين أولئك الذين لم يستعملوها ، وقد أمكن اختبار هذه القرضية بطرح استبيان مفصل على الطائفتين لتحقيق هذا الفرض . ويمكن تلخيص أبرز النتائج التى توصل اليها الباحث بما يلي :

١ ــ ظهر ان نصف افراد مجموعة البحث قد اعتادوا على استعمال عقاقير مخدرة بصورة فعلية وان ٧٥٪ منهم قد تناولوها بصورة غير منتظمة ، كما تأيد أن بعضهم تناولها عن جهل لتأثيرها بينما تناول البعض نوعا واحدا أو نوعين أو ثلاثة انواع من هذه المخدرات .

٢ ــ لم يجد الباحث اختلافات تتصل بالجنس ، اى بين الذكور والاناث ، ولكن ظهر ان غالبية افراد الجنسين يمثلون سنا متقدمة نسبيا ،وان غالبيتهم قد اعتادوا على الانقطاع عن الدراسة بصورة متكررة ، كما ان غالبيتهم ايضا لا يلجأون الى آبائهم لحل ما يعترضهم من مشكلات ، وان هؤلاء الآباء فى الغالب يتميزون بلين واضح وعدم اكتراث بضبط سلوك ابنائهم او الاشراف على تربيتهم .

٣ ــ لقد ظهر أن نوعية النشاطات التي يمارسها افراد الجماعة التي تستخدم العقاقير المخدرة فى اوقات فراغهم هي أقرب الى تلك التي يزاولها البالغون بوجه عام ، كالتردد على المقاصف ودور الرقص ودور التسلية ، وان هذه الطائفة تنفق الكثير من المال على التدخين وعلى المشروبات الكحولية وعلى العناية بالملبس وتيسير العقاقير المخدرة ، ويميل أفراد هذه الطائفة الى الاختلاط بمن يكبرهم سنا ولا يجدون حرجا فى تقليد الانماط السلوكية الخاصة بالبالغين ، ولذلك فان افراد هذه المجموعة يسلكون سلوكا يفوق سلوك الاطفال الذين هم فى سنهم .

٤ ــ ويتميز افراد عينة البحث بأنهم اقل احتراما وأكثر اندفاعا فى سلوكهم ، وهم يعلمون الكثير عن المخدرات واستعمالها ومزاياها .

٥ ــ وقد ظهر ان افراد عينة البحث يعتقدون بأن تناول العقاقير المخدرة يزيد من جاذبيتهم الجنسية لدى الجنس الآخر .

اما القسم الثالث فقد تضمن توصيات الباحث بهدف تقرير سياسة تربوية تعليمية تتعلق بموضوع مشكلة المخدرات بين طلبة المدارس . ويعتقد الباحث باديء ذى بدء بأن مشكلة تعاطي المخدرات بين طلبة المدارس

لم تبلغ بعد مرحلة خطيرة من حيث انتشارها او شيوعها . ففي تقدير الباحث ان اقل من ١٠٪ من طلبة المدارس ربما تناولوا بعض العقاقير المخدرة فى فترة من فترات حياتهم تحت دوافع التقليد او لغرض الظهور على الاقران .

ويرى الباحث ان القيام بحملة اعلامية اصلاحية بهدف تبصير الاطفال بخطر المخدرات وآثارها السيئة قد تكون فى جدواها اقرب الى تلك الحملات الاعلامية العقيمة التي تقوم بها بعض الجهات الصحية من وقت لآخر لتبصير أطفال المدارس بأضرار التدخين ومساوئه . ويفسر الباحث عدم جدوى هذه الحملات الاعلامية الواسعة بأنها قد تزيد من وعى الاطفال بوجود مثل هذه المخدرات التي يجهلون موضوعها جهلا تاما ، ولذلك فان مثل هذه الحملات تعرف الاطفال بوجود مشكلة المخدرات ، الامر الذى يدفعهم الى تجربتها بدافع الفضول وبوصفها عادة شائعة غير ضارة بدليل انها شائعة بين عدد كبير من الاطفال فى كل مكان .

وربما يكون لبعض الافلام الخاصة بموضوع المخدرات فائدة ارشادية فى هذا الباب ، الا ان الدراسات العلمية المتيسرة فى هذا المجال لم تؤيد بالرأى القاطع ايجابية مثل هذه الافلام التعليمية ، ولذلك فان الباحث يعتقد بامكانية القيام بحملات اعلامية بين الاطفال ، ولكن على اسس محددة واهداف مدروسة ، وبناء على دراسات ميدانية لتحديد نطاق هذه الحملات ونوعية المعلومات التي تقدم للاطفال وكيفية تقديمها والاشخاص الذين يقومون بعمليات التوعية المطلوبة ، الى غير ذلك من المتطلبات الاخرى .

وعلى العموم فان مثل هذه الدراسة الرائدة أن لم تأت بالشيء الكثير الجديد فى ميدان واسع كبير فهى بلا شك قد القت الضوء على زاوية حيوية من هذا الموضوع حيث اظهرت نوعية الاطفال الذين يستخدمون العقاقير المخدرة ، ولكن ينبغى أن لا يقف البحث عند تشخيص الافراد الذين يستعملون هذه العقاقير المخدرة ، بل بمتابعة وملاحقة حياتهم لمعرفة من يعتاد منهم على هذه العقاقير فى مستقبل حياته ومن ينقطع عن استخدامها لاكثر من سبب ، وبالتالى معالجة أولئك الذين تصبح العقاقير المخدرة مشكلة كبيرة فى حياتهم ومشكلة اكبر بالنسبة لمجتمعاتهم .

* * *

ستانلي المستكشف المغامر

عرض وتحليل . الدكتور عبد الرحمن الشرنوبي

صدر هذا الكتاب فى عام ١٩٧٤ ، اى بعد مائة عام تماما على بدء ستانلى رحلته الشهيرة الى افريقيا ، حيث كشف مصب نهر الكنغو الحقيقي. الف هذا الكتاب الصحفى «ريتشارد هول » وأصدرته دار جوليتز للنشر فى لندن ويبدو ان موضوع هذا الكتاب لم يكن ليشغل بال مؤلفه لولا ان اتيحت له الفرصة ـ كصحفي ـ لكي يعيش فى قلب القارة الافريقية لعدة سنوات ، استطاع فيها ان يغطي بقلمه احداث الثورة الكونغولية فى بداية الستينات ، بنفس القدر الذى استطاع فيه ان يغطي بقدمه كل المناطق التي بلغها ستانلى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ان لم يكن قد زاد عليها .

من هنا نستطيع القول بأن بريق تلك القارة وسحرها ، الذى طالما سلب الاوروبيين عقولهم ، لاتزال جذوته متقدة حتى الان. فرحلات ستانلي التاريخية ظلت وستظل من اعظم ماسجلته قصص الرحلات اثارة فى تاريخ كشف افريقيا .

لقد قام ستانلي بأربع رحلات ناجحة الى اواسط هذه القارة . كانت رحلته الاولى خلال عامي ١٨٧١ و ١٨٧٢ ، وكانت الغاية منها البحث عن الدكتور لفنجستون الذى سافر الى القارة فى مهمة كشف بتكليف من الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية ، ولكن بعد ان اعتلت صحته وانقطعت اخبارة ، كان لابد من البحث عنه ، وتقصي اخباره ، فكان ان سافر ستانلي موفدا من قبل الجريدة الامريكية التي كان يعمل بها انذاك وهي جريدة النيويورك هيرالد .

اما الرحلة الثانية ، فكانت في الفترة من ١٨٧٤ الى ١٨٧٧ . وكانت غايتها كشف المنطقة من زنزبار شرقا حتى مصب نهر الكونغو على المحيط الاطلسي غربا ، وكان بعد نجاحه فيها اول رجل ابيض يكتشف مجرى هذا النهر العظيم .

ولم تخرج **رحلته الثالثة** (١٨٧٩ ـ ١٨٨٤) عن كونها رحلة تقليدية كما يحلو للبعض ان يطلق عليها ، الا انها كانت الرحلة التي مهدت لحكم الملك ليوبولد وسيطرته على الكونغو بواسطة ستانلي وأعوان آخرين .

امارحلته **الرابعةوالاخيرة** (١٨٨٦ ـ ١٨٨٩) فقد جاءت تلبية لدعوة من بريطانيا لانقاذ **امين باشا** الذى تحرج موقفه وانقطعت اخباره بعد الثورة المهدية ، وحقق فيهاعبورا شبيها بعبوره فى رحلته الثانية .

هذه كانت رحلات « هنرى مورتون ستانلي » التي سجلها فى مؤلفية الخاصين :

The Dark Continent و How I found Livingstone

وفيها كل الاثارة ، وكل الغموض ، وكل المبالغة . الامر الذى جعل العالم ينظر الى هذا الرجل ـ ستانلي ـ كمعجزة عصره وبطل زمانه .

وحينما يغوص المرء فى قراءته لهذا الكتاب ، سوف تعود به الذكرة الى رائحة التاريخ الذى ميز القرن التاسع عشر وتاريخ الكشوف الجغرافية فيه كشف منابع النيل ، كشف بحيرات وسط افريقيا ، وكشف مصب ومجرى نهر الكونغو .. لاشك ان هذا الاطار التاريخي فى حد ذاته ينبغي الا يجعل من ريتشارد هول بطلا حينما يغطي نفس الاجزاء التي جابهها ستانلي واكثر ، فالمؤلف حينمايعلن عن ذلك صراحة ، انما يعترف ضمنا بمقدار الجهد الذى بذله ستانلي بين مستنقعات افريقياوغاباتها ورطوبتها وامراضهاومواطنيها وسوف يدرك القارىء مباشرة ان الجهدالذى بذله المؤلف في رحلاته لكي يستفيد منها فى كتابة مؤلفه الذى بين ايدينا عن ستانلي ، لم تحقق شيئا ولم تأت بجديد . الامر الذى يدفعنا للتصور بأن المؤلف ثمت لدية فكرة الكتابة عن ستانلي ، بعد عودته كمراسل صحفي من القارة الافريقية .

لقد اصطحب « هول » معه الى افريقيا كتاب ستانلي : « كيف وجدت دكتور لفنجستون » ، ومن ثم اصطبغ فى رحلة « هول » خيال ستانلي مع مواقع اقدامه ووقعها ، فبدت رحلة ستانلي كما لو كانت قد تراءت تماما امام اعين ريتشارد هول ، الذى تحركت مشاعره نحو ستانلي ، فتحول من ناقم عليه ـ كشأن الكثيرين ممن يعرفون حقيقته ـ الى متعاطف معه .

ها هو ذا كتاب « ستانلي » يقسمه المؤلف الى ثلاثة اقسام لتضم سبعة وعشرين فصلا قصيرا . القسم الاول يتناول فيه رحلة ستانلى الرئيسية (١٨٧٤ ـ ١٨٧٧) ، والقسم الثانى ينقلنا الى شخصية ستانلي وطفولته ونشأته وحبه ، بالاضافة الى عودته من جديد الى الاستطراد فى سرد ظروف كشوفه ورحلاته وعلاقاته فى افريقيا . ثم ينتهي بالقسم الاخير ليحكي قصة المعاناة التي تميزت بها حياة ستانلي ، حتى بعد ان نجح فى تحقيق الكثير من آماله وتطلعاته ، حتى مات فى العاشر من مايو عام ١٩٠٤ .

زودنا ريتشارد هول فى كتابه باثنين واربعين رسما وصورة ولاشك كان خلفها جهد كبير بذله المؤلف لكى يحصل عليها من مصادرها المتباعدة ، وربما ساعده على ذلك

مهنتـه كصحفـى ، وعلاقتـه بالـــوكالات والشخصيات الصحفية .

لقد ضمن ريتشارد هول كتابه بالاضافة الى المقدمة التقليدية فى بدايته ملحقاتضمـن كلمة شكرلمن قدمله يد المساعدة فىانجازه هذا وفهرسا للاماكن ، وآخر للاشخاص بالكتاب وقائمـة جيدة ومطولـة بالمراجـع والمصادر قسمها وفقا لترتيب فصول الكتاب ، وعلـق على كل منها .

هكذا .. وعلى امتداد اربعمائـة صفحـة تضمنت كافة محتويات الكتاب ، استطـاع المؤلف الصحفى أن يمـزج بـين روح البحث والرواية ، ليخرج حقيقة ملامـح وقسمات ستانلي . لقد اجهد المؤلف نفسه كثيرا لكي يميط اللثام عن الشخصية الحقيقية لهـذا الرجل الذى طالما اخفاها عن الناس . ولقد حقق المؤلف غايته ، اذ يدرك القارى ، عقب سرد المؤلف لطفولة ستانلى وظروف نشأته ، التفسير الحقيقي للغموض المتعمد الذى ميز ستانلى وتصرفاته ، فكان حزينا ابدا مفتقـرا الى الثقة بالنفس .

ان المؤلف يعرض حقائق هـذه النشأة ، ويترك القارىء يتساءل : ترى بعدان قرأت هذا الجزء عن ستانلي .. هل كان لاصل نشأتـه تأثير على شخصيته اذ انـه حقـا « ابن زنا » لسيدة تدعى (Elizebith Parry) من ويلز أم لدخوله اصلاحية الاحداث فترة من الزمن ؟ فقد دخلها وهو في السادسة مـن عمره وهرب منها بعد تسع سنوات ليعيش بعدها حياة التشرد والسعى المضني للرزق ، معتمدا على نفسه ، خلال سنوات العـذاب والمهانة فى انجلترا والولايات المتحدة . ام كان لحبه من تلك الفتاة ذات السبعة عشر ربيعـا « اليك بيك » وفشله فى ذلك الحب اثر ؟ ترى .. هل كان لبحثه عن رجل يتبناه فى نيو اورلينز مهما كانت شخصيته ، وبأى اسلوب ممكن (حتى تحقق له ما أراد على كبر) أثـر في غموضـه وحزنه ؟ أم لانه كان يتصف بالشذوذ الجنسي كما قال بعض علماء النفس عنه وبعض اصدقاءه المقربين ؟ يالها من تساؤلات مزعجة تحيـط به حقا ويكفي أن تثار .. مجرد اثاره ، لكي ندرك خلفيات هذه الشخصية والغموض الذى يكتنفها .

لقد كان « ريتشارد هول » مستعدا لتبنى وجهـة النظر التقليديـة عن ستانلـى البارد المعقد ، الذى ترتبط باسمه مظاهـر الرعب والقسوة . ولقد كتب يقول : ان الخوض فى دراسة شخصيـة ستانلى ، كتسلـق جدار عمودى صلد من الجرانيت . الامر الذى يفسر احجام الكثيرين من الكتاب والمحللين عن الكتابة عن الجوانب الخاصة جدا من حياة ستانلى ، رغم انه كان من اجرأ مغامرى القرن التاسع عشر ، وأكثرهم اصرارا ونجاحا على الاطلاق.

لكن .. لماذا كان انطباع العالم عن ستانلى الى هذا الحد من السوء طالما لم يفص الكتاب والمحللـون بين جوانـب شخصيته وحياتـه الشخصية ؟ لقد نقلت رواية جوزيف كونراد : « قلب الظـلام » ، صـورة ملطخة بالرعـب والفزع والدماء واهدار الحقوق الانسانية على ارض هـذا الجزء مـن افريقيا الذى طرقـه ستانلـى . وكان دور هـذا الاخـير فى تلك الروايـة ، دور الخادم الانتهازى الذى بنـى للملك ليوبولد امبراطوريته فى افريقيا . فكان لا بد ان يكـون قاسيا دمويا ، لمـا ارتبط به تاريخ السيطرة والاستعمار من امور لاانسانية في تلك البقعة من العالم .

الا ان افكار المؤلف قد تغيرت تماما عن ستانلي ــ على حد قوله ــ عندما سلك نفس الطريق الذى سلكه صاحبنا من قبل فى رحلة بحثه عن الدكتور لفنجستون .

يقول ريتشارد هول : لقد احسست بمقدار الجهد الجهيد الذى بذله ستانلي وهو يخترق تلك المسافات منذ قرن مضى . لقد ادرك المؤلف ان ستانلي حجب شخصيته الحقيقية خلف مظاهر كاذبة ، او على الاقل ، لا يعرفها العالم عنه . لقد وقف « هول » امام النصب التذكارى الحقيقى لستانلي وقال : ينبغى ان يكون الكونغو بأسره صاحب هذه الحدود المترامية فى افريقيا (١) ، هو النصب التذكارى الحقيقى لهذا الرجل .

لقد كان ستانلي عدوا حقيقيا لذاته . ولقد كان تعاميه عن اظهار بعض الحقائق ، سببا كافيا للانتقاص من روعة انجازاته . ان المؤلف يحاول السمو والتحليق بستانلي كواحد من اكبر اصحاب الانتصارات فى العالم ، ليمحو السمعة السيئة التى التصقت بهذا الرجل . الا ان الانسانية لن تغفر له ما ارتكب فى حق ابنائها من جرائم فى سبيل تحقيق غاياته .

نجح ستانلي فى رحلته الاولى وعاد بأخبار مطمئنة عن الدكتور لفنجستون (٢) الذى رفض العودة معه ، مفضلا استمرار عمله ليتم كشوفة ، فتركه ستانلي على أمل ان يرسل اليه معونة عاجلة . وبر ستانلي بوعده فعلا ووصله ما يريد فى اغسطس عام ١٧٨٢ .

لقد ذهل ستانلي ــ الذى طافت مقالته عن هذه المهمة الناجحة كل ارجاء العالم ــ عندما سمع اسمه يتردد كبطل من الابطال ، واصبح العالم المفتون ينظراليه كبطل الساعة ، لقد استطاع ان ينقذ الدكتور لفنجستون ، ويعيد للعالم صلته به ، بل ويحقق مع كل هذا جانبا من الكشوف الجغرافية التى ذهب من اجلها لفنجستون (٣) ويعود بالاخبار والحقائق والغرائب معا .

لكن ستانلي الذى استطاع ان ينقذ لفنجستون وفريقه لم يكن ليقنع بهذه المهمة التى انجزها فى افريقيا . انه مجرد صحفى يتابع الاخبار ويحقق الحوادث ويراسل صحيفته . لا .. هذه المرة لا بد من سبر أغوار افريقيا . نعم ، سأكون مكتشفا .. هكذا اراد وصمم وخطط لمهمته القادمة .. لقد جربت بنفسى الامر ، ونجحت فيما عجز عنه آخرون ، بل واشتركت مع لفنجستون نفسه في جزء من المحاولة .. لماذا اذن لا اكون فى سجل الخالدين من امثال بورتون وسبيك ولفنجستون نفسه ؟ . اننى ستانلي المنقذ .

لقد تردد وارتاب فى امكانيات نجاحه فى بادىء الامر ، بل داخله شعور بأن الصدفة وحدها كانت وراء خروجه سالما من رحلته الاولى . وان الحظ لاشك سوف يخذله هذه

---

(١) يشترك الكونغو بحدوده مع عشر دول مجاورةتحيط به من جميع الاتجاهات تقريبا .

(٢) أوفد لفنجستون من قبل الجمعية الجغرافيةالملكية البريطانية عام ١٨٦٦ لحل لغز شبكة التصريف النهرى فى وسط افريقيا ، وبحيرات هذه المنطقة ، وبذل الجهدلتحقيق منع تجارة الرقيق فى أكبر اسواقه .

(٣) انتهز الفرصة ليصحب دكتور لفنجستون فسارمعه وحققا معا كشف الاجزاء الشمالية من بحيرة تنجانيقا ، وتأكدا انها ليست ضمن منابع النيل ، كما اعتقد « بورتون »من قبل .

المرة . لقد كان ستانلى قليل الثقة بنفسه دائما لقد كان يتصور ان الرحالة والمستكشفين يكونون من علية القوم وكبراءه ، ابناء الاسر العريقة من الضباط والرياضيين .... الاانه ـ ولاول مرة ـ يصمم على كسر هذا الحاجز النفسي الذى افتعله بنفسه . لقد قرر ان يفرض اسمه فرضا على العالم بأسره .... لابد ان يحدث هذا .. نعم لابد .

ان المؤلف ريتشارد هول يتحدث باسهاب فى القسم الاول من الكتاب عن ادق التفاصيل المتعلقة بفتاة حبه (اليك بيك) ، شكلهـا ، عمرها ، ودارها ، ثم عـن تفاصيل اتفاقـه معها على الزواج قبيل رحلته .. ذلك الزواج الذى لم يتم قط . ثم يقدم سردا لتحركاتـه بين نيويورك ولندن ، ومناطق اخرى من العالم وكيف سبق له ان وطد علاقته بالعديد مـن الشخصيات الانجليزية حينما كان ضمن فريق المراسلين لجريدة النيويورك هيرالد ، وكيف كان « وقحا » فى شجاره بالجمعية الجغرافية الانجليزية ، حينما ساورتها الشكوك حـول رحلته لانقاذ لفنجستون ، ولماذا وصفته الملكة فكتوريا بعد ان دعى لمقابلتها بقصرها بانه رجل عنيد وقبيح .

ان ستانلى مرة اخـرى فى لندن يحـاول ان يعد لرحلته انسـب الظروف ، كما سعى للاتصال بمصادر جديـدة لتمويـل رحلتـه الثانية ، ونجـح في اجتذاب جريـدة الديلى تلجراف التي وافقت علـى الاشتراك مـع النيويورك هيرالد لتمويل المشروع . هكـذا اصبحت رحلته بعثة انجلو امريكية ، وفر لها قسيسا من لندن ، والاخوين Pocock ادوارد وفردريك ، والافريقى المخلص الذى رافقه من زنزبار Kalulu ، مع بعض كلابه .

ان التفاصيل الدقيقة التى يذكرها المؤلف ليست جديدة على الجغرافيين ، الا ان المتتبع للسرد السلس الجذاب الذى تميز به اسلوب ريتشارد هول يكتشف مقدار مغامرة ستانلى بحياته وسمعتـه ورجاله ومستقبلـه . كان انتهازيا يحارب مـع الاقوى مـن الجماعات الافريقية المتصارعة ، وحدث هذا عندما انضم الى رجال مملكة متيسا Mtesa ضد القوما Vomaعند الطرف الشمالى لبحيرة فكتوريا ، وبنفس القدر كان قاسيا لا يعرف الرحمة .. فقد قتل امامه العشرات ، وهو واقف يتسلى بمنظرهم ، حـدث هذا وسجلـه بالصـورة ريتشارد هول مع وصف دقيق لطريقة الاعدام المحلية هناك ، وقـد وقف ستانلـى يشاهد ويتمعن .

اخيرا وصلت جماعة الى بوما عند مصب الكنغو . يالها من مغامرة حقيقية رأى فيهـا ستانلى لم يره انسان ن نقائض الطبيعة .. كم مرة اجتمعـت فيها المشاكل مـع المظهر الطبيعى الرائع لقلب افريقيا . كم مرة سقط امامه المرضى علـى بسط خضراء بـين افناء يعجز امهر الفنانين عـن رسمها ، او حتـى تخيلها . وكم كان مضحكا فعلا منظره بلباسه الافرنجى بين جماعات ضحكت عليه قبل ان يحاول حتى ان يقترب ليكتشف ما يريدون . كل هذا غير ذى موضوع امام ستانلى الآن . لقد حقق انجازا هائلا قفـل بعده عائدا مرة اخرى الى زنزبار عـن طريق راس الرجـاء الصالح .

الا ان ريتشارد هول يعود مرة اخرى الى شخصية ستانلى فى قسمه الثانى ولا يستطرد فى نتائج رحلـة ستانلى . فمن هـو ستانلى هذا ؟ وما هو الاسم الحقيقى له ؟ ماهى ظروف نشأته المشينـة البائسة ؟ .. انها ولا شـك

استفسارات بعيدة تماما عن خواطر المهتمين بدراسة تاريخ الكشوف الجغرافيـة التـي ارتبطت في جزء منها ـ بشخصية ستانلي . ولكنـه كصحفي ، تحركـه كوامـن المهنـة و « غريزتها » ، فيسعى بصبر لتحقيق سبق لا جدال ، حول هذه الشخصية ، والجوانب النفسية التي تتحكم في تصرفاتها .

ولد جـون رولاندز (John Rolands) وهو الاسم الحقيقي لستانلي ، من ابنة جزار كانت تعمل في مخبز عند اطـراف مدينـة (Denbigh) الصغيرة ، الواقعة في شـمال شرق ويلز في ٢٨ من يناير عام ١٨٤١ (٤) . ويقال ان المخبز الذي كانت تعمل فيه هـذه السـيدة واسـمها اليـزابيث باري (Elizebeth Parry) كان يقـع خلف مكتـب للشئون القانونية والمحاماة ، يعمل به شخص يدعى فوغـان هـورن (Vaughan Horne) الذي ولع بها حبـا ، وتورطت معه في علاقة غرامية حملت خلالها منه سفاحا هو جـون رولاندز (ستانلي فيما بعد) . الا ان ابوة هذا الرجـل لجون ، او حتى ابوة غيره لهذا الطفل ، لا تزال لغزا غامضا ، خصوصا وان امه قد انجبت بعده ، وخلال الخمس عشرة سنة التي أعقبت ميلاده ، انجبت ثلاثةابناء آخرين غير شرعيين . يالها من امراة سيئـة السمعة اذن ، ويالها من نشأة قاتمة لجون !

لقد وجد نفسه وهو في سن السادسـة ـ اي جون رولاندز ـ بين اسوار اصلاحية للاحداث (منذ فبراير عـام ١٨٤٧) . ولا يزال اسمه مدونا في سجلات الاصلاحية وقد كتب امامه اصـطلاح (لقيط) . وفي هـذه الاصلاحية حيث بقي تسع سـنوات ، تلقى كل تعليمـه . وكان مجيدا للرياضـيات والجغرافيا والرسـم ؛ الا انه كان سـيء السلوك ، مشـاغبا . فقد حاول الهرب من الاصلاحية مرتين وفشـل ، ولكنه حينما تسلق سـور هذه الاصـلاحية للمرة الثالثة واستطاع ان يتخطاه ، اطلق سـاقيه للريح هاربا والى الابد من هذا المكان البغيض .

اتجه بعد هربه الى مسقط راسه ، ولكنه لم يجد ارضا صلبة يقف عليها ليحصل حتى على قوت يومه .. انه ابن تلك السيدة سيئة السمعة . ولكنه نجح بعد اسـابيع قليلة في الحصول على وظيفة مساعد مدرس بمدرسة (St. Asaph) .

ويتحدث « ريتشـارد هـول » عن كيفية التوصل الى حقيقة اسم ستانلي الحقيقي وذلك عن طريق خطاب ارسله الى خالة في ليفربول ، عقب هربه من الاصلاحية ، لكي يساعده في الحصول على عمل . ثم يتتبع تنقلاته وظروف عملـه وكيف كان ضـعيف السـيطرة على الطلاب ، وكيف كان فاشلا في الحصول على وظيفة بمحطة سكة حديد (مولد) . وحينما وفر له خاله وظيفة كاتب في مكتب للتامينات في ليفربول تركها ليعمل ساعيا خصوصيا .

وفي خضـم يأسـه واصراره على عمـل ، تسـاءل : الا يمكن ان تكون ليفربول بداية النهاية لشقاء السـنين الماضـية ؟ الهجرة في

(٤) لم يحدد ستانلي مطلقا تاريخ ميلاده ربما عن عمد . وكان يفضل ان يقول انه من مواليد عـام ١٨٤٣ . كتب على قبره انه ولـد في العاشر من يونيو عام ١٨٢٠ . ويذكر سجل وفيات التايمز انه ولد « حوالي » عام ١٨٤٠ . اما دائرة المعارف البريطانية فتذكر في طبعتها الحادية عشرة انه ولد عام ١٨٤٢ ، كما يذكر قاموس ناشيونال بيوجرافي ، ان ستانلي من مواليد عام ١٨٤١ .

ذروتها ، والميناء يستقبل الف اسرة مهاجرة الى العالم الجديد اسبوعيا . والميناء غاص بالسفن ، والبحارة بالعشرات والمئات .

نجح ستانلي في العمل على ظهر السفينة وندرمير (Windermere) المتجهة الى نيو اورليانز كمنظف للكبائن ، لقد رأى الاهوال في أول رحلة له استغرقت سبعة اسابيع . لقد وجد نفسه مرة اخرى فريسة للوحدة والانعزال والمهانة ، كما قاسى كثيرا من نومه تحت المقاعد ، ومن اضطراب صحته بتأثير دوار البحر ... وغير ذلك كثير .

وحينما دخلت السفينة الى المسيسيبي ، وقعت عينه على عظمة هذا النهر ، وشاهد ما عوضه عن شقاء الاسابيع الست ، وفي وصف ادبي رائع يتحدث المؤلف عن هذا المشهد مستطردا : انه الجنوب ، أرض القطن والزنوج وملاك الاقطاعيات الزراعية الهائلة من المهاجرين الاوروبيين .

وحينما كان العجوز « ستانلي » الذى يعمل سمسارا للقطن بين الزراع على امتداد المسيسبي ، وتجار نيو اورليانز ، وقعت عيناه على جون رولاندز الذى بادره بالسؤال في رنة حزينة شيقة : سيدى ... هل تريد غلاما يكون في خدمتك ؟

بعد ان رحب العجوز ستانلي الذى لم في ينجب ولم يتخذ من قبل ولدا ، وكذلك زوجته ، بمقدم هذا الغلام ، لم يلبث ان طرده لقلة حيائه ولسوء ادبه ، ولكنه بعد ان استقام ومارس العمل الشريف ، وحقق ارباحا سال لها لعابه ، استقل في أعماله وكان محبا مخلصا لعمله لدرجة كبيرة . وكان قد عرف آنذاك باسم هنرى ، انه الآن هنرى ستانلي .

لم يدم عمله خلال الحرب الاهلية ، فقد كان جنديا فيدراليا ، ولكنه مرة أخرى كان مشبوه التصرف كالمرتزقة ، يحارب مع الجانبين . وأصبح يحس في قرارة نفسه بأنه فعلا كالمتشرد الذى يحيا حياة مشبوهة يعوزها الاستقرار .

وفي اجازة له كان يقضيها في اوروبا زار مدينته (Benbigh) وكتب في سجلها اسمه الحقيقي : انا جون رولاندز اللازم في البحرية الامريكية ، ملتحق بالفرقاطة Teconderoga ، واعمل حاليا في تركيا . وكتب تاريخ الزيارة : ١٤ ديسمبر ١٨٦٦ .

وحينما قام برحلة الى لندن ، استطاع ان يقابل مندوب جريدة النيويورك هيرالد ، وهو الكولونيل اندرسون (Finaly Anderson)عام ١٨٦٧ ، ووطد علاقته به ، الامر الذى مهد لستانلي ليصبح مراسلا لنفس الجريدة فيما بعد ، بل بعد قليل جدا من تركه عمله بالبحرية الامريكية في نفس السنة (١٨٦٧).

بدأ عمله مراسلا بمخالفة اوامر المسئولين في هذه الجريدة الذين طلبوا اليه ان يتجه غربا من لندن ، ولكنه رفض واتجه شرقا .. هكذا . كما اخفى اسمه الحقيقي – والى الابد هذه المرة – ولم يكن قد استقر على اسمه الاوسط حتى اصبح بورتون . هنرى بورتون ستانلي ، ذلك المراسل الصحفي لجريدة نيويورك هيرالد الامريكية ، الذى تنقلّ بين الحبشة والهند والاسكندرية والقاهرة وغيرها من مدن شرق افريقيا والشرق الادنى .

ومن خلال العودة الى الحديث عن مغامراته في افريقيا بعد هذا السرد المطول والدقيق عن

حياتــه الشخصيــة ، يعــود « ريتشــارد هــول » مــرة اخــرى ليحكــي ادق علاقاته مع جماعات الكشف التي صاحبته من الاهالي او المرافقين البيض ، ومقدار حرصه على الحصول على اية مكاسب ترفعه الى حد الشهرة او الفنى ، وفى سبيل ذلك استخدم اسلوب المرتزقة تارة والمهادنة تارة اخــرى والقمع والمكر والخداع تارة ثالثة ، حتى انه عــالج تمرد جماعــة الوطنيين التــي كانت تصاحبه في احــدى رحــلاته ، بالقتل رميا بالرصاص . ولقد سجل ريتشارد هول هذه الحادثة بين حــوادث اخــرى تنم عن نفس شرسة بعيدة عن الرحمة ، كما صور لنا كيف كان ينتقل من ورطة الى اخرى خلال تجواله فى وسط افريقيا بين وحــوش مفترســة ، وغابات هائلــة كثيفة ، وامــراض قاتلــة ، وشلالات رهيبة ، بالاضــافة الى ما ذكره من مشاكل « ستانلي » مع بعض الشــخصيات والجمعيات العلمية ، ووصف مفصــل للقاءه بالدكتور « لفنجستون » .

حينما توجه ستانلي الى زنزبار عام ١٨٧٤ ـ كما يقول « ريتشارد هول » حقــق بعــد انطلاقه منهــا أهم هدف له ، حينما اطمأن الى انه اتى بجديد حينما اكــد ان بحــيرة فيكتوريا بحيرة واحدة ، واكتشف لاول مــرة وادى نهر كاجيرا كمخرجوحيد لهذه البحيرة . ثم اتجه الى تنجانيقا ، ووصل الى اوجيجي ، ودار محاذيا سواحلها بقاربه واثبت انها بحيرة مغلقة لا علاقــة لها بنهر النيــل كما قــال « بوتون » من قبل ، والتقى ـ بعد أن عبرها الى الجانب الغربي ـ بالشيخ حميد بن محمد الزعيم العربي (Tippu Tib) الذى ســاعده فى الهبوط الى نهر الكونغو .

ويكتب المؤلف عن رحلته فى مجرى هــذا النهر الكبير باسهاب ، ويكتب عن تفاصــيل توزيع قواته او افراد حملته فى النهر والبر ، وكيف تعرضت جماعة النهر الى متاعب جمة ارتبطت في معظمها بالاندفاع الشــديد للمياه والشلالات ، بنفس القدر الذى تعرضت فيه جماعات البــر لمتاعب المســتنقعات والغابات والامراض والحيوانات المفترسة . ولكنه بعد كل هذا ،استطاع انيبلغ مدينة بوما Boma على مصــب هذا النهر ، ولقد اكد المؤلف ـ وهو موفق فى هذا كل التوفيق ـ على وقفة الركب عند الشلالات التي سميت فيما بعد بشلالات ستانلي (يناير ١٨٧٧) ، والمدينة الصــغيرة التي عرفت كذلك فيما بعد بمدينة ستانلي (ستانلي فيل) . واخــيرا ... عاد « ستانلي » الى زنزبار بطريق البحر عن طريق راس الرجاء الصالح . وهكذا وفق المؤلف فى عرض هذا الجانب ، ولكنه عرض اساســـه المعلومات التاريخية التىاتى بها غيره من قبل. ولقد سجل خط ســير الرحلة على الخريطة الوحيدة بالكتاب ، التي وضــعها « ديكورا » للغلاف الداخلي للكتاب .

حكى « ستانلي » وكتب ونشر العديد من المقالات عن رحلته الرئيسية هذه . وكان من بين ما ذكره طواف العالم وفتن رجال اعمال اوروبا واقتصادييها ، حديثــا مســـهبا عن الاقتصاد الفابي الممكن قيامــه فى افريقيــا ، نخيل الزيت، الاخشاب بأنواعها،والمطاط ... وغيرها كثير كثــير . فســـال لعاب القــوم ،

(٥) International Association of Congo

وتشكلت الرابطة الدولية للكونغو (٥) برأس مال بلجيكي الماني ايطالي ، لكن حماس مساهمة ملك بلجيكا « ليوبولد » كان ينبىء بأن امرا ما ينتظر تلك المنطقة .

وبالتدريج ، تحول ستانلي الى خادم مخلص للملك « ليوبولد » حينما سافر للمرة الثالثة عام (١٨٧٩) وظل حتى عام (١٨٨٤) جعل الكونغو خلالها مزرعة هائلة لهذا الملك . فكانت الشرارة الاولى التي أحرقت هذه القارة فيما بعد .

وفى عام ١٨٨٦ — علمت اوروبا بحصار وعزل الحاكم المصرى للمنطقة الاستوائية — الذى لم يكن مصريا ابدا — بعد قيام الثورة المهدية ، ولا بد من العمل على أنقاذه . وعندما تشكلت لجنة الانقاذ هذه ، كان على راسها « ستانلي » ، وكيف لا .. الم ينقذ دكتور « لفنجستون » من قبل ؟ ..

وصل « ستانلي » فعلا الى حيث التقى بأمين باشا على شاطىء بحيرة البرت ، وبدلا من انقاذه ، عرض عليه العمل كمدير في خدمة الملك « ليوبولد » بشروط مالية لم يوافق عليها « أمين باشا » . وفى طريقه الى الساحل الافريقي ، استطاع ستانلي عقد عدة اتفاقيات مع الزعماء الوطنيين من النوع الذى احكم قبضة الاستعمار على مناطقهم فيما بعد ، حتى كانت معاهدة (ماكينون) المعروفة التي ابرمت بين الشركة البريطانية لشرق افريقيا وحكومة الكونغو .

وهكذا تدخل افريقيا دورا لا يستغرق « ريتشارد هول » كثيرا فى الحديث حوله ، ولكن التاريخ الافريقي يعرفه ويسجله بدقة بين صفحاته ، قصة الصراع العالمي الدموى على ارض افريقيا ، قصة الصراع على الارض والرجال والثروات ، اجرت فيها اراض افريقية ، وبيعت اخرى ، ودار قتال على انتزاع ثالثة من ابنائها .. وهكذا سار الشوط بافريقيا الصابرة .

ان المؤلف يختم كتابه بعرض لشخصيات مجهولة وقفت وراء ستانلي تدفعه وتؤازره ، مالاً وعطفا وحبا . ولكنه ابدا لم يتغير حتى آخر ايام حياته حينما وافته المنية صباح العاشر من مايو عام ١٩٠٤ . فرغم أنه منح الجوائز والتقديرات من الملوك والعظماء ودور الصحف الكبرى فى اوروبا وامريكا ، الا انه لم يدفن بجوار العظماء فى كنيسة « وستمنستر » بجوار لفنجستون كما أراد لنفسه في بداية الشوط . لقد رفض رئيس الكنيسة دفنه بها بدون ابداء الاسباب . ويبدو ان شعورا خفيا لدى ستانلي كان يحركه نحو عدم الثقة بما يود أن يبلغه ، فكتب فى مذكراته بالحرف الواحد : « انني لم آت الى الدنيا من اجل الحصول على السعادة ، او السعي اليها ، فقط اتيت من اجل عمل خاص أؤديه ... » .

ان الكتاب يزخر بالتحقيقات الدقيقة التي تتبع حياة الرجل ، ساقها « ريتشارد هول » بأسلوب ذكي ، ولكنه بسيط وسلس وجذاب ، شأن الكتابة الصحفية المتمرسة التي تخاطب العامة والمثقفين على حد سواء . والكتاب بهذا الاسلوب حين يجمع بين البحث الدقيق لبعض القضايا التاريخية والجغرافية مما لا يتسع المجال لعرضه فى هذا السياق ، وبين الرواية الجذابة المثيرة المصورة ، هذا بالاضافة الى قرب المؤلف الشديد من دقائق اسرة

« ستانلي » وارشيفها ، سـواء في انجلترا او الولايات المتحـدة ، مع التجربة الخاصـــة والمباشرة للمؤلف في افريقيا ، يجعل كل هذا من كتاب « ستانلي » المستكشف المغامـر ، كتابا مفيدا بحق لما يضيفه من جديد ، ويعدل مسار بعض الافكـار عن هذه الشـخصية ، ولكنـه لم يات بجديد في مجال الكشـف او التحقيق التاريخي الذى كان بعيدا عنه كل البعد .

لم يخل الكتاب من بعض الاخطاء المطبعية ـ شان بعض الكتب التي تخرجها دور النشر الانجليزية في الآونة الاخيرة للاسـف على غير ما عودتنا . والكتاب يفتقر الى ترتيب افكاره ترتيبا علميا،بالاضافة الى ان المؤلف استخدم عناوين فصوله باسلوب مثير فيه تورية . ومع كل هـذا ، فان الكتاب بحجمـه واسـلوبه وصوره ومسـتنداته ، يرقى الى مصـاف الكتب التي يسعي المرء لاقتنائها .

* * *

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ،وسوف نعرض لها بالتحليل فى الاعداد القادمة

1. Clark, W., Ronald, **The Life of Bertrand Russel,** Jonathan Cape and Weidenfeld & Nicolson, London 1975.

2. Frye, Richard N. , **The Golden Age of Persia, The Arabs in the East,** Weidenfeld Nicolson, London, 1975.

3. Haswell, Margaret, **The Nature of Poverty, A Case-History of the First Quarter Century After World War II,** Macmillan Press Ltd., 1975.

4. Howe, Michael, **Learning in Infants and Young Children,** Macmillan Press **Ltd.,** 1975.

5. Swingewood, Alan, **The Novel and Revolution,** Macmillan Press, 1975.



عالم الفكر

المجلد السابع - العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٧٧

أزمة البيئة

الانسان بين العلم والبيئة

البيئة والجريمة

بيئة العصر بين البقاء والفناء



رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يناير ـ فبراير ـ مارس ١٩٧٧
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية ـ وزارة الاعلام ـ الكويت : ص.ب ١٩٣

المحتويات

الانسان والبيئة



شهدت السنوات العشر الاخيرة زيادة كبيرة في اهتمام العلماء والمخططين والسياسيين ورجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع بمشكلات البيئة ،والتغيرات التي تطرأ عليها واساليب التعامل معها والاضرار التى تلحق بها نتيجة لمبالغة الانسان فىاستغلال مواردها الطبيعية ، والى اى حد ينعكس هذا كله على حياة الانسان والمجتمع . وواضح انهذا الاهتمام لم يكن قاصرا على البحث عن مدى مايمكن أن تقدمه الطبيعية للانسان من ثروات ،او الطريقة المثلى التي يمكن للانسان ان يكشف بها عن هذه الثروات والموارد ، وافضل الاساليبلاستغلالها ، وانما كان ، بالاضافة الى هذا كله ، يحاول الكشف عما لحق بالبيئةالطبيعية مناضراروادى قد يصعب علاجها او تلافيها نتيجة لسوء الاستغلال وسوء الفهم . وقد انعكس هذا الاهتمامفي ثلاثة امور : ـ

الأمر الاول : هو كثرة الكتابات التي تهدفالى تنبيه الاذهان الى الاخطار المحدقة بالبيئة الطبيعيةوطريقةالمحافظةعليها،والابقاء علىمايعرفباسم التوازن الايكولوجي (اى التوازن بين كل

عناصر البيئة من ناحية وبين الانسان والبيئة من الناحية الأخرى) وكذلك الاخطار التي سوف تحيق بالانسان والمجتمع ، والتى قد تودى بهما كليهما ان لم يغير الانسان من سياسته وموقفه من الطبيعة . وتحمل هذا الكتابات غير قليل من التشاؤم والشك عن مستقبل البيئة والحياة الاجتماعية السليمة . ورغم ما قد يكون فى هذه الكتابات من مبالغة وتهويل فانها تكشف بغير شك عن جانب هام من العلاقات المعقدة المتشابكة بين الانسان والطبيعة ، وهو جانب يستحق ان يلقى الكثير من العناية والاهتمام ، نظرا لارتباطه الوثيق المباشر بمستقبل الجنس البشرى .

الأمر الثانى : هو اهتمام المحافل الدولية والمنظمات العلمية بعقد المؤتمرات والندوات التي تعالج فيها مشكلات البيئة بوجه عام ، واثر هذه المشكلات على الحياة الاجتماعية وعلى الحضارة. وكان من اهم هذه المؤتمرات الدولية مؤتمر اخطار البيئة الذى عقد فى استكهولم عام ١٩٧٢ ، وحضره مئات من المهتمين بشئون البيئة من مختلف التخصصات ، ثم ما ارتبط بهذا المؤتمر من اهتمام الامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة باجراء عدد كبير جدا من الدراسات والبحوث الميدانية في مختلف انحاء العالم ، للتعرف على التغيرات التي يحدثها الانسان عن طريق مشروعات التنمية الاقتصادية في البيئة الطبيعية ، وانعكاس هذه التغيرات آخر الامر على حياة الانسان نفسه . ويكشف هذا الجانب بصورة واضحة عن العلاقة الوثيقة بين الانسان والبيئة ، وهي علاقة عضوية ، قلما كانت تلقى ما تستحقه من عناية واهتمام . **وسوف يجد القارىء فى هذا العدد كثيرا من الاشارات الى هذا المؤتمر والنتائج المترتبة عليه .**

الأمر الثالث : هو الاهتمام الذى تبديه الآن بعض الدول المتقدمة والصناعية بانشاء وزارات واقسام وادارات واجهزة حكومية لشئون البيئة ، يكون من اهدافها وضع الخطط لاحكام السيطرة على البيئة ، وتنظيم عمليات الاستغلال بطريقة محسوبة بدقة ، حتى يمكن المحافظة على تلك العلاقة الدقيقة القوية بين الانسان والطبيعة . وربما كان من آخر هذه الوزارات ما لجأت اليه بريطانيا فى اكتوبر عام ١٩٧٠ من تعيين وزير دولة للبيئة تخضع لاشرافه ثلاث من أهم الوزارات التى كان يشغلها دائما وزراء لهم مكانتهم وأهميتهم فى الحياة السياسية الحزبية وهى وزارة النقل ، ووزارة الاشغال العامة ، ووزارة الحكومة المحلية والاسكان . ومن اهم ما يضطلع به وزير الدولة لشئون البيئة التنسيق بين اعمال هذه الوزارات بما يكفل ضمان المحافظة على البيئة المحلية والعمل على تحسينها لتوفير حياة أفضل للاهالى . والواقع ان بعض الدول الأخرى سبقت بريطانيا في هذا المضمار ، اذ كانت كل من السويد وفرنسا قد انشأت وزارات لشئون البيئة تعنى فى المحل الأول بامور المحافظة على جمال البيئة الطبيعية ، كما كانت الولايات المتحدة الامريكية تهتم اهتماما خاصا بتكوين هيئات من العلماء والمستشارين والأخصائيين فى شئون البيئة ، يضعون خبراتهم تحت تصرف رئيس الدولة حيث يقدمون له النصح والمشورة في كل ما يتعلق بأمور البيئة ، وبخاصة المحافظة عليها وتحسينها وحفظ ذلك التوازن الايكولوجى الدقيق .

وواضح من هذه الاتجاهات الثلاثة ان معظم الاهتمام الذى تبديه الهيئات والاجهزة المتخصصة بل وحتى العلماء الافراد انفسهم في معالجة شئون البيئة تتصل بأمور محددة يمكن اجمالها فى التالى:

١ ــ الاعتراف بموقف الانسان المعادى للطبيعة ، واستخفافه عموما بمكوناتها ، وعدم ادراكه لمدى الاضرار التي يلحقها بها ، وكذلك عدم ادراكه أن مصادر الثروة الطبيعية محدودة نسبيا ، وانها تستهلك نتيجة للزيادة الهائلة المطردة فى عدد السكان، مع عدم ترشيد الاستهلاك وازدياد حاجيات الانسان والرغبة فى اشباع هذه الاحتياجات .

٢ ــ على الرغم من اهتمام هؤلاء العلماء وتلك الاجهزة والهيئات بتحديد مدى الضرر الذى يلحق بالبيئة فان هذا الموقف ينطوى الى حد كبير على كثير من السلبية نظرا لعدم الاهتمام ، او ربما عدم القدرة على ابداء اقتراحات محددة تتعلق بامكانية انقاذ البيئة من سوء استعمال الانسان والوسائل التى تحقق ذلك ، وربما كان هذا العجز ناشئا عن عدم وضوح الرؤية أمام الكثيرين عن مكونات البيئة والعلاقة بينها وبين حياة الانسان ، وبخاصة الحياة الاجتماعية ، بكل ما تشتمل عليه من نظم وقيم وعادات وتقاليد ، وان كان هذا الوضع قد تغير في السنوات الاخيرة كما يظهر فى النقطة التالية .

٣ ــ النظر الي المشكلة نظرة تكاملية شاملة، بمعنى ازدياد الادراك بين العلماء بأن مشكلة تلوث البيئة والاضرار التى تلحق بها هي مشكلة انسانية تتعلق فى المحل الاول بسلوك الانسان وموقفه من الطبيعة، وان اى محاولة لحل مشكلات البيئة يجب ان تنبع أساسا من معرفة وادراك طبيعة العلاقة بين الانسان والبيئة ، ومواطن الخلل في هذه العلاقة حتى يمكن معالجتها على أسس سليمة . بل ان الكثير من العلماء يعتبرون ما نسميه الآن بمشكلة البيئة انما هي مشكلة سلوكية في المحل الاول ؛ ولذا فان الحملة المعروفة باسم « الصراع من أجل البيئة » تؤكد على هذه الناحية السلوكية ، وترى ان علاج الموقف يجب ان يبدأ بالانسان نفسه باعتباره هو العامل الاساسي فى الاستفادة من البيئة ، كما انه هو السبب المباشر فى تلويثها ، وانه هو الذى يعانى من هذا التلوث فى آخر الامر .

والواقع ان العلاقة بين الانسان والبيئة علاقة قديمة بقدر ماهى وثيقة ، وان كان شكل هذه العلاقة يختلف من عصر لآخر ، بل ومن مجتمع لآخر ، تبعا لمدى تقدم المجتمع أو تأخره وانماط الحياة السائدة فى هذه المجتمعات . ومع ذلك فان هذه العلاقة كانت تتصف دائما باغارة الانسان على الطبيعة ومحاولته تغييرها بدرجات متفاوته وهو في هذا كله كان يؤثر فيها تأثيرا سيئا ، ويعمل على استهلاك مواردها الطبيعية بشكل أو بآخر ، وان كانت هذه التغييرات وتلك التأثيرات السيئة الضارة اكثر وضوحا فى الوقت الحالى وفي المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا بالذات نتيجة للعوامل التي سوف نعرض لها .

ولقد كانت هذه العلاقة تتخذ فى المراحل الاولى المبكرة من تاريخ الجنس البشرى بوجه عام شكلا يتميز بتغلب سطوة الطبيعة وسيطرتها وقسوتها على الانسان المبكر ، الذى كان يبدو

عاجزا الى حد كبير عن امكان اخضاع البيئة لـه ولمتطلباته ، وانما كان يشكل ظروفه ومواقفه وحياته لشروط البيئة التي يعيش فيها ويعمل على ان يكيف نفسه مع الأوضاع الايكولوجية العامة . وبقول آخر كان الانسان فى هذه المراحل الاولى المبكرة يقف من البيئة موقفا يتصف بالسلبية الى حد كبير ، اذ كان يقنع باستهلاك ماتقدمه له الطبيعة من موارد ، وبخاصة تلك التي يعتمد عليها فى طعامه . كما انه كان عرضة لكثير من الكوارث الطبيعية وللامراض المختلفة ، التي لم يكن يدرك لها معنى أو يعرف لها سببا او تفسيرا ، وبذلك كان عاجزا تماما عن التحكم فيها وتجنبها ، أو على الاقل تخفيف نتائجها السيئة . ومن هنا كان يرد هذه الكوارث والامراض الى قوى خفية غامضة اقوى منه واكثر قدرة وعنفا ، وبذلك لم يكن امامه سوى الاستسلام لها . ولم يكن الانسان المبكر قادرا من ناحية اخرى على التنبؤ بما سوف يحدث له فى المستقبل القريب نظرا لعجزه عن فهم المنطق الذى تسير عليه الطبيعة والقوى التى تحركها ، ولذا كان يسلم قياده لهذه القوى تماما ويتقبل بالتسليم كل مايصدر عنها ، بل انه كان يعمل على ان يتقرب اليها ، ويتضرع ويتذلل لها مادام عاجزا عن التحكم فيها . ويذهب كثير من العلماء ، وبخاصة علماء الانثربولوجيا ، فى القرن التاسع عشر الى ان هذا الموقف المستسلم العاجز امام الطبيعة والقوى الكونية هو الذى ادى فى آخر الامر الى ظهور الدين ، وتحديد العلاقة بين الانسان والكون بكل مافيه من خوارق وغيبيات . فالدين فى نظر هؤلاء العلماء يقوم أساسا على فكرة التسليم بوجود قوى ـ أيا ما تكون طبيعتها ـ يعترف الانسان بضعفه أمامها ، ويسلم بقوتها وقدرتها على التحكم فى مصيره وتسيير حياته ورسم قدره .

ورغم كل ما يبدو فى هذه النظريات من طرافة فمن الصعب تصور الانسان فى اى مرحلة من مراحل تطوره وحياته سلبيا تماما ازاء الطبيعة ، وانما الاغلب ان الانسان بحكم طبيعة تكوينه وملكاته وقواه الطبيعية كان يقف موقفا اشد ايجابية من البيئة مما تحاول هذه النظريات تصويره وابرازه ، وان كان هذا الموقف الايجابى اقل وضوحا مما هو عليه الآن بطبيعة الحال ، وذلك بحكم المرحلة التي كان يمر بها ، وبحكم تخلفه التكنولوجي وقلة امكانياته المادية فى الماضى . بل انه يمكن القول ان الانسان حتى فى ابسط اشكال حياته كان يقوم بنفس الدور الذى لا يخلو من تدمير الطبيعة او بعض مظاهرها ومقوماتها ومكوناتها ، والحاق الاذى بهذه الطبيعة وذلك فى اثناء معركة الحياة التى كان يخوضها حتى يضمن بقاءه ووجوده واستمراره ....

ظهر هذا مثلا فى مرحلة قنص الحيوان التى تعتبر من المراحل المبكرة فى تطور المجتمع الانسانى .. فقد كان الانسان المبكر ـ على مايبدو يبالغ ويغالى مغالاة شديدة فى مطاردته الحيوانية الطبيعية ، وهذا فى حد ذاته يعتبر فيها ويعمل على قنصها والعيش على لحمها ، وانتهى الامر به الى القضاء تماما على كثير من فصائل الحيوانات واختفاء شكل من اشكال الثروة الحيوانية ، الطبيعية ، وهذا فى حد ذاته يعتبر تغييرا هاما فى البيئة الطبيعية لا يمكن التهوين من شأنه . كذلك ظهر هذا الموقف الايجابي من ناحية ثانية فى اكتشاف الانسان للنار ،

واستخدامها على نطاق واسع فى حرق الخشب والحطب بل واحيانا فى اشعال غابات باكملها ومناطق واسعة من الحشائش ، وما كان ينتج عن ذلك من تلويث للبيئة ، وان كان هذا التلوث ضئيلا فى تلك الازمنة نظرا لضآلة عدد السكان وتأخر حياتهم التكنولوجية . ولكن ينبغي الا نغفل هنا عما كانت تسببه الحرائق من تغيير فى الطبيعة ، سواء كانت هذه الحرائق تنشب بطريقة تلقائية وطبيعية نتيجة لبعض التغيرات الكونية ، او تشتعل بطريقة متعمدة ومن صنع الانسان نفسه فى الغابات ومناطق المراعى والاحراش. وكل هذا معناه ان تأثير الانسان فى البيئة كان قديما ويرجع الى اقدم العصور ، كما يرتبط بكل اشكال الحياة الاجتماعية والاقتصادية مع اختلافات فى الكم وليس فى النوع . وهذا لا ينفى بطبيعة الحال ان مشكلة اختلال العلاقة بين الانسان والبيئة مشكلة حديثة لم تظهر الا بعد ان احرز المجتمع الانسانى تقدما ملحوظا فى التقدم الصناعى والتكنولوجى وبخاصة منذ القرن التاسع عشر .

وليس ثمة شك فى ان ارتقاء المجتمع الانسانى وتقدمه يرتبطان ــ فى احد جوانبهما على الاقل ــ بالقدرة على السيطرة على الطبيعة ، وتسخير البيئة واستغلال مكوناتها لصالح الانسان، وكذلك القدرة على التحكم فى هذه البيئة وتطويع مواردها لخير الانسان واشباع احتياجاته ومتطلباته . وبقول آخر فان تقدم الانسان والمجتمع يمكن ان يقاس ليس فقط بمدى تحرر الانسان من سلطة البيئة وسيطرتها ، بل وايضا فى قدرته على اخضاعها لرغباته والتحكم فى مكوناتها . والواقع ان التقدم التكنولوجى الرائع الذى احرزه الناس خلال جميع مراحل تاريخ التطور البشرى ، والذى وصل الى ذروته فى القرن الحالى ، قد ساعد على تصور الطبيعة على انها شيء يمكن غزوه والتحكم فيه وتطويعه واستخدامه لاشباع احتياجات الجنس البشرى التي كانت ولا تزال تتزايد باستمرار واطراد . ولقد ترتب على ذلك كله أن بدات النظرة الى الطبيعة والى البيئة تختلف ، كما بدات اتجاهات الانسان ومواقفه وقيمه المتصلة بالبيئة والطبيعة يطرأ عليها كثير من التغيير نتيجة لهذا الادراك ، اعنى ادراك الانسان لقدرته على توجيه الطبيعة ، بل وضرورة التحكم فيها . فلقد اصبح الانسان يشعر انه فوق الطبيعة، او على الاقل انه يسير مع الطبيعة على قدم المساواة ، بعد أن كان عبدا لها ولثوراتها ونزواتها وعنفوانها وجبروتها .

كل هذا معناه فى آخر الامر انه من الخطأ ان ننظر الى مشكلة البيئة على انها مشكلة فيزيقية بحتة ، بحيث نغفل ابعادها الاجتماعية والانسانية، وذلك لأن الانسان هو بالضرورة احد العوامل او العناصر الاساسية فى البيئة ، باعتباره على الاقل عامل التغيير فيها وموضوع التأثر بها والتأثير فيها ، سواء كان ذلك التأثير يتخذ شكل المحافظة ، او الابادة واحداث الضرر ، كما أن حياته هو هي التي سوف تتأثر بشكل مباشر فى آخر الامر بما يطرأ على البيئة من تغيرات نتيجة

لسلوكه وتصرفاته وموقفه منها . ولو أننا سلمنابذلك واعتبرنا الانسان هو احد مكونات البيئة الاساسية فان اية دراسة للبيئة لابد أن تكونبالضرورة دراسة تكاملية شاملة ، ولا بد من ان تتعرض لكثير من الامور المتشابكة المعقدة التييمكن ان نشير الى بعضها هنا ، مثل : ــ

١ ــ الاسس الفيزيقية والكيميائيةوالبيولوجية لمشكلات البيئة او المشكلات الايكولوجية ، وهي اسس معقدة الى ابعد حدودالتعقيد .

٢ ــ الظروف الايكولوجية من حيث انهاتنعكس ، ليس فقط على نوع الحياة التي يحياها الافراد والمجتمعات ؛ بل وايضا على نفس مشكلةالوجود الانساني وامكاناستمرار الجنس البشرى فى الوجود ، وامكانيات الانسان على التكيف .

٣ ــ النتائج السيئة المترتبة على التغيراتالايكولوجية سواء على المستوى المحلى او الاقليمى او العالمي .

٤ ــ الامراض والمشكلات الاجتماعية التيتنجم عن التغيرات الايكولوجية ، وهى مشكلات يمكن حلها اجتماعيا عن طريق اعادة النظر فىالنظم الاجتماعية السائدة فى المجتمعات المختلفة ، واعادة تشكيل هذه النظم ، وكذلك اعادة النظرفى سلوك الانسان ازاء البيئة ، وموقفه منها ونظرته الى الطبيعة . وسوف يقتضى ذلك ، فىآخر الامر ، ضرورة ان يراجع الانسان نفسه ويعيد النظر فى القيم الاجتماعية السائدة فىالمجتمع المعاصر ، من حيث انعكاسها على معاملة الطبيعة (وسوف يجد القارىء فى مقال الدكتورحسن المرصفاوى مثالا للعلاقة بين البيئة وبعض الامراض الاجتماعية ، والجريمة بالذات) .

٥ ــ التفاعل القوى بين كل الظواهر البيئيةوالاجتماعية وتساندهاالوظيفى ، وهىامور تتصل اتصالا وثيقا بالمشكلات الانسانية . (وثمة أمثلةكثيرة لذلك يجدها القارىء فى مقالات الدكتور محمود أحمد الشربينى ، والدكتور محمد عبدالرحمن الشرنوبي ، والدكتور احمد ابو زيد) .

وكل هذا خليق بأن يبين لنا فى آخر الامران الاضرار التى يلحقها الانسان بالبيئة التى يعيش فيها انما تنجم عن افتقار الناس او معظمهمعلى الاقل الى وجود نسق متماسك من القيم المتعلقة بطريقة معاملة الانسان للبيئة والاهتمامبها ، والحد من المغالاة فى الاقبال على التكنولوجيا الحديثة التي قد تسهل حياة الانسان وتقدم لهكثيرا من الخدمات وتوفر عليه كثيرا من الجهود والوقت ، ولكنها تلحق فى الوقت ذاته اشد الضرروالأذى بالبيئة كما هو الحال مثلا فى تلوث الهواء والماء نتيجة لانتشار الصناعة وما يتخلف عنهامن نفايات وبقايا وابخرة ودخان ورماد وغير ذلك .

ولقد دفع ذلك الكثير من المفكرين الى المناداةبضرورة الوصول الى ما يطلقون عليه أحيانا اسم « أخلاقية الارض » ــ كما ترد فى مقال الدكتورابو زيد ــ اى وجود نظرة جديدة أو اتجاه جديد وموقف جديد لعلاقة الانسان بالبيئة . وفى ذلكيقول الاستاذ ليوبولد Leopold وهو من أكبر المهتمين بالمشكلات الايكولوجية وممن بذلواجهودا كبيرة فى تدعيم فكرة المحافظة على الارض : « اننا نحقق فكرة اخلاقية المحافظة على الارضحين ننظر اليها على انها مجتمع ننتمى اليه وبذلك يمكننا أن نستخدم الارضبطريقة تنم عنالحبوالاحترام . وليس هناك سوىهذه الوسيلةلكىتساعد الارض على الصمود أمام وطأة الحياة الآلية التىتسم الانسان الحديث ، كما ان هذا هو الطريق الوحيد امامنا نحن لكى نحصد من الارضالمحصول الجمالى الذى هى قادرة على أن تنبته ــ بفضل العلم ــ وتسهم به فى الحضارة الانسانية . ان النظرة الى الارض على انها مجتمع هى الفكرة الاساسية فى الايكولوجيا ، كما ان حب الارضواحترامها هو امتداد طبيعى للاخلاق الانسانية. ولقد ادرك الانسان منذ زمن بعيد ان الارضقادرة على أن تنبت محصولا ثقافيا وحضاريا خليقا بالاحترام ، ولكن هذه الحقيقة غابت عنالاذهان فى العصور الحديثة ›› . (انظر كتابه : Game Management)

والواقع اننا نستطيع ان نميز فى هذا الصددبين موقفين مختلفين اشد الاختلاف يقفهما الانسان من البيئة الطبيعية التي يعيش فيها . فأما الموقف الاول فيتمثل فى اهتمام فئة قليلة ــ ولكنها تتزايد فى العدد باستمرار ــ من الناسممن يهتمون بالمحافظة علىالبيئة وما بها من جمال طبيعى مع عدم الرغبة فى ادخال اية تعديلات علىمقوماتها الطبيعية او التعديل فيها ، على أساس أن اي تعديل يدخله الانسان عنوة واقتدارا فىالطبيعة سوف يؤدى الى اختلال التوازن الايكولوجى ، وبالتالي الى ظهور كثير منالمضاعفات والتأثيرات الجانبية الضارة السيئة. الا ان هذه الدعوى تجد كثيرا من المعارضةوالمقاومة من فئات كثيرة جدا من الناس فى مختلف المجتمعات ، وهي فئات تتهم اصحاب حركة« الصراع من أجل البيئة » بأنهم ينتمون الى قطاعات متميزة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ،وتعيش فى عزلة تامة بحيث لا تكاد تشعر باحتياجات الطبقات الاخرى الفقيرة التى تريد ان ترفع من مستواها الاقتصادى والمعيشى والاجتماعى عن طريق التنمية الاقتصادية التىتحتاج بالضرورة الى ادخال تعديلات فى البيئة ، تتمثل فى ابسط صورها في استغلال الموارد الطبيعية . فكان اختلاف الموقفين من البيئة يعكس ــ الى حد ماعلى الاقل ــ اختلاف المستوىالاجتماعى والثقافى والاقتصادى فى المجتمع ، بحيث تصدر الدعوة للمحافظة على البيئة والابقاءعلى مقوماتها الطبيعية من الجماعات والفئات القادرة اجتماعيا واقتصاديا ، والتي تريد أنتتمتع بما تقدمه البيئة من جمال طبيعى ، ولذا

فهي تعارض اى تدخل من جانب الانسان ،وتعتبره تشويها واساءة الى هذا الجمال ، بينما يقف المهتمون بتنمية المجتمع والمشتغلون بالتخطيط في الناحية الاخرى ، ويرون انه لا بد من استغلال الموارد الطبيعية حتى ولو كان في ذلك القضاء على كثير من جمال الطبيعة ، وذلك على زعم ان التقدم العلمي والتكنولوجي الذي يحقق رخاء الانسان والمجتمع لن يقصر عن ايجاد وسيلة للتغلب على اخطار البيئة وحل مشكلاتها ، وانه مهما يؤخذ على التصنيع مثلا من اضرار يجلبها على البيئة وتؤدي الى تلوث الهواء والماء وما الى ذلك فانه في آخر الامر وسيلة فعالة لرفع مستويات كثير من الناس ، وتوفير مستوى كريم وحياة كريمة لكثير من الطبقات الكادحة . وقد تكون هذه المشكلة بعيدة في الوقت الحالي عن اذهان الناس في المجتمعات المتخلفة والنامية ولكنها قائمة بالفعل ، ويدور حولها كثير جدا من الجدل في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وهي تعكس في آخر الامر الصراع الدائر بين الذين يملكون والذين لا يملكون . وليس من شك في ان الطبقات الفقيرة في اى مجتمع تهتم اولا وقبل كل شيء بتوفير العيش لها ، ولا تكاد تعتبر جمال الطبيعة جزءا من عملية الحياة .

ومع ادراك هذه الحقائق كلها ، والتسليم بمدى ما تتعرض له البيئة من اخطار ، فالظاهر انه من الصعب التغلب على هذه الاخطار وايقافها تماما ، وانه يتعين على العالم ان يقبل هذه الحقيقة الواقعة ، وان يتعين عليه في الوقت ذاته ان يعثر على حلول تقلل من هذه الاخطار التي يبدو انها تهدد نفس وجود الانسان والحياة ، وهذه هي الفلسفة التي تختفي وراء الدعوة الى « المعركة أو الصراع من أجل البيئة » التي اشرنا اليها ، وهي معركة علمية وتكنولوجية واجتماعية وسياسية معا ، تهدف الى تنبيه الاذهان وتجنيد كل القوى للوقوف في صف البيئة ومعها ضد عوامل التخريب ، كما تحرص أشد الحرص على تحديد مصادر هذا الخطر حتى وان كان يصعب التغلب عليها .

والواقع ان المشتغلين بهذه المسألة يرون أن الخطر الاكبر الذي يهدد البيئة ناجم عن مشكلة اخرى هامة تهدد العالم الآن وهي مشكلة تزايد السكان تزايدا رهيبا في كل انحاء العالم وبالذات في العالم المتخلف ، وهذه مسألة سبق ان عالجناها في العدد الرابع من المجلد الخامس من هذه المجلة (المشكلة السكانية). ولكن الجديد هنا هو ان الازدياد المطرد في مطالب السكان الذين يتزايدون باطراد نتيجة للتقدم التكنولوجي والصناعي من ناحية، والحاجة الماسة الى توفير أعداد متزايدة من المساكن لهم وما يرتبط بهذا كله من اعادة تخطيط للمدن والمناطق السكنية والمستوطنات البشرية أيا كان نوعها من ناحية اخرى ، كل هذا يستلزم بالضرورة الاغارة على المناطق الخلوية ؛ بل واحيانا على الاراضي الزراعية

لتوفير المسكن ، وهذا فى حد ذاته يشكل خطورة بالغة على البيئة الطبيعية يحس بها سكان المدن المزدحمة بالسكان . ويزيد الامر سوءا ضرورة العمل على توفير وسائل المواصلات والنقل لهذه الاعداد المتزايدة ، وهذا يتطلب ليس فقط شق كثير من الطرق فى هذه المناطق وتخصيص مساحات متزايدة من الارض لكى تجرى فوقها وسائل المواصلات ، بل ان انتشار هذه الوسائل ذاتها يجلب معه كثيرا من الضجة والضوضاء ، التى يعتبرها الكثيرون صورة اخرى أو شكلا آخر من اشكال تلوث البيئة ، وذلك فضلا عن ازدياد مخلفات السكان من نفايات وفضلات .

وهذه كلها امور معروفة تناولتها كل الكتب التي تدور حول تلوث البيئة ، وسوف يجد القارىء لها صدى فى اكثر من مقال فى هذا العدد ، بل وفى اعداد سابقة من المجلة .

ولكن الطريف فى الامر حقا هو ما يضيفه كثير من العلماء المحدثين الى هذا كله من أن التحركات السكانية من مكان لآخر ، وبخاصة أثناء العطلات ، له دخل كبير جدا فى تغيير البيئة وغزو الطبيعة والاغارة عليها والحاق الكثير من الاضرار بها . والقد ساعد على ذلك كله انتشار استخدام السيارة كوسيلة عادية ومألوفة من وسائل الانتقال ، ويذهب بعض المشتغلين بمشكلات البيئة الطبيعية والعمل على المحافظة عليها الى اعتبار السيارة اعدى اعداء الطبيعة ، وبالتالى اعدى أعداء حركة المعركة من اجل البيئة. ذلك انه قبل انتشار استخدام السيارة على هذا النطاق الواسع ، وحين كان الانسان يستخدم وسائل النقل العامة ، كانت تحركاته اثناء العطلات قاصرة على الاماكن المحدودة التى تصل اليها هذه الوسائل ، فلما أصبح للانسان وسيلة انتقاله الخاصة به ، والتي تتمثل فى السيارة بالذات لم يعد هناك ضابط او قيد على تحركاته ، واصبح الانسان حرا فى ان يذهب الى حيث يشاء والى حيث تستطيع وسيلته الخاصة أن تنقله ، وبذلك امكنه ارتياد مناطق كثيرة وعديدة وبعيدة لكى يمضى فيها عطلاته ، وازداد بالتالى تهجمه على جمال الطبيعة وانتشار التخريب والدمار. فليس اقدر من الانسان على تشويه جمال الطبيعة البكر فى الاماكن التي يمضى فيها عطلاته واوقات راحته بما يحدثه من تغيير وما يتركه وراءه من مخلفات. ويزداد هذا الدمار بطبيعة الحال بطول فترة العطلة . وهذه حقيقة يأخذها فى الاعتبار الكثيرون ممن يعارضون الآن فكرة جعل الاسبوع اربعة ايام عمل فقط بدلا من خمسة او ستة أيام لاتاحة وقت اطول للفراغ والراحة والترفيه للناس مادام الانتاج لن يتأثر بتقصير مدة ايام العمل نظرا لازدياد الاعتماد على الآلات فى الانتاج . وليس ثمة غبار على توفير الراحة ذاتها للناس ، انما المشكلة الحقيقية هنا هى ما يلحقه الناس اثناء هذه العطلات أيام الراحة الطويلة من اضرار وأذى بالبيئة الطبيعية . وربما كان هذا ايضا هو احد العناصر التي تتضمنها حركة ايجاد اخلاقية

للارض . ومن يدرى فقد يكون فى نجاح الدعوةالى ضبط النسل وبرامج تنظيم الاسرة علاج ، ولو جزئي ، لبعض مشكلات البيئة والمحافظـةعليها ، ما دامت هذه البرامج ستؤدى فى حالـة نجاحها الى خفض عدد السكان ، وبالتالى الحدمن انتشار المستوطنات البشرية والمساكن والطرق ووسائل المواصلات فى النقل وحرية الانتقال .

ومع التسليم بهذا كله فان المشكلة العويصة التي يبدو انها تواجه العلماء الآن هى : كيف يمكن التوفيق بين الرغبة فى المحافظة على البيئة الطبيعية من ناحية وتحقيق برامج التنمية الاقتصـاديـة وتوفير حد ادنى لرفاهية الانسان من ناحية اخرى؟ او بقول آخر كيف يمكن التوفيق بـين رغبـات الاغنياء والقادرين والموسرين الذيـن يحاولـون الاحتفاظ بجمال الطبيعة ، ورغبـات ومطالـب الفقراء الذين لا يهمهم فى المحل الاول شيء قدر توفير العيش ؟ وكل هذا خليق بأن يكشف لنا عن مدى صدق ما سبق ان ذكرناه من ان مشـكلة العلاقة بين البيئة والانسان هى مشكلة اجتماعية فى المحل الاول ، تتعلق بتحقيق مستوى معين وشكل افضل للحياة ، سواء فى المجال الجمالى الفنى أو الاقتصادى . ولا تزال الحلـول تعـوز الانسان ، ولا يزال المفكرون يحاولون الوصول الى التوفيق بين هاتين الناحيتـين تحـت ظـروف اجتماعية بالغة القسوة .

* * *

أحمد أبو زيد

أزمة البيئة

لا يحدث سوى مرة واحدة فى كل قرن ان تستطيع احدى القضايا الهامة أن تفرض نفسها على الناس جميعا من مختلف الاجناس والطبقات والاديان . ولقد أصبحت مشكلة البيئة الفيزيقية التي نعيش فيها احدى هذه القضايا .

(وليام روكلهاوس)

افلحت « قضية البيئة » فى ان تفرض نفسها بشكل قوى منذ اوائل السبعينات ، وذلك حين ظهر ما يعرف باسم « حركة البيئة Environment movement » ، ولو أن الآراء لاتزال مختلفة اختلافا شديدا حول مدى عمق هذه القضية أو المشكلة ، والى اى حد يمكن أن تؤثر فى مصير الانسان بوجه عام وحياة شعوب ومجتمعات معينة بالذات . وعلى ذلك فان الآراء تكاد تجمع على ان العالم كله مقبل على « ازمة بيئية » أو « ازمة ايكولوجية » قد تقلب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة الآن فى المستقبل القريب او البعيد . بل ان الذين يظهرون شيئا من التشكك فى ضخامة المشكلة واهميتها ألما يبنون أحكامهم على الاوضاع القائمة فى المجتمعات التي يعيشون هم فيها دون ان يقللوا من خطورة المشكلة بالنسبة للعالم ككل ، بمعنى أنهم لايعطون

لمشكلة البيئة اولوية مطلقة ، وذلك على اساس ان مجتمعاتهم وشعوبهم تتعرض لأخطار ومتاعب اخرى يجب حلها اولا قبل الاهتمام بمشكلة البيئة التي يمكن تأجيل حلها الى أن تحل هذه المشكلات العاجلة .

ولقد بدات « **حركة البيئة** » بما يطلق عليه الآن اسم « **يوم الارض** » **Earth Day** وذلك حين تقدم فى عام ١٩٧٠ عدد كبير من المتحمسين فى بعض دول العالم المتقدم ، وبخاصة فى أمريكا ، ببعض النداءات التى تدعو الى بذل الجهد لانقاذ البيئة من التلوث . ولم تلبث هذه الدعوة أن وجدت صدى كبيرا لدى الكثير من الناس ومن العلماء من مختلف التخصصات ، بحيث تبلورت بعد عامين اثنين فى شكل مؤتمر عقدته هيئة الامم فى استكهولهم ، واشترك فيه عدة آلاف من العلماء والسياسيين والمخططين الاجتماعيين ورجال الصحافة ، وكان بذلك من أكبر المظاهرات العلمية ـ بل والفوغائية ايضا ـ التى شهدها العالم فى اى وقت من تاريخه . (١) وبعد هذا المؤتمر انتشرت الدعوة الى تطهير البيئة مما يلوثها انتشارا واسعا بحيث خصصت لها الدول الكبرى ميزانيات ضخمة . ويكفي للتدليل على ذلك ان نذكر انه فى عام ١٩٧١ اى قبل انعقاد المؤتمر نفسه بعام كامل ولكن بعد أن كانت الأذهان قد تنبهت فعلا الى خطورة المشكلة ـ أنفق رجال الصناعة فى أمريكا مايزيد على ثلاثة بلايين من الدولارات لمعالجة مشكلة تلوث الماء والهواء **فقط**، بينما وضعت حكومة الولايات المتحدة الامريكية خطة لانفاق ثلاثمائة بليون دولار على برامج البيئة المختلفة خلال الأعوام العشرة ابتداء من عام ١٩٧٢ ، اى بواقع ثلاثين بليون دولار كل عام . وفى الوقت ذاته خصصت بريطانيا اكثر من ثلاثة بلايين من الدولارات لتطهير أنهارها ، كما خصص الاتحاد السوفييتي بليون دولار لتطهير مياه نهرى الفولجا والأورال وحدهما من كل عناصر التلوث . وهذه المبالغ الضخمة الهائلة خليقة بان تكشف لنا عن حجم المشكلة ، ومدى احساس الدول الصناعية المتقدمة بها .

ولكن ربما كان أفضل مقياس لنجاح هذه الحركة هو رد الفعل المضاد لها . فلقد تعرض « انصار البيئة » او اصدقاؤها لكثير من الهجوم والنقد والتشكيك ، كما وصفت الحركة ذاتها بالمبالغة والتهويل والمغالاة التي لاتقوم على اساس سليم . وقد تزعم هذه الدعوة عدد من رجال الصناعة انفسهم ، نظراً لأن انتشار الحركة واستعداد الناس لتصديقها وتقبلها قد كلفهم الكثير من الأموال التي انفقت على (تنظيف) البيئة وتطهيرها من التلوث . كذلك ذهب بعض المعارضين الى أن هذه الحركة تسببت بشكل مباشر فى خلق « ازمة الطاقة » التي عانت منها امريكا معاناة شديدة ، وهى أزمة يمكن أن تهدد مستقبل الصناعة ، وبالتالى مستقبل امريكا والقوى العاملة فى الصناعة ، تهديدا مباشرا لو انها استمرت وصدق الناس كل النتائج الوخيمة التى

---

(١) الواقع ان فكرة عقد هذا المؤتمر كانت اسبق على ذلك اذ بدا التفكير فيه عام ١٩٦٨ وان كانت هذه النداءات والحركات وجهت الانظار الى اهميته . وقد اطلق على المؤتمر اسم « مؤتمر هيئة الامم المتحدة عن البيئة الانسانية » .

يزعم انصار البيئة انها سوف تلحق بالانسان والعالم لو ظلت درجة التلوث على ماهى عليه ، ولم تتخذ الاجراءات السريعة الحاسمة لوقفها . كذلك تعرضت الحركة لهجوم من زاوية اخرى مختلفة تماما ، وهو هجوم يرمى أنصار البيئة بانهم فئة من المثاليين الذين عزلوا انفسهم عن الاتصال بالعالم الخارجي ومشكلاته الحقيقية نتيجة لنوع الحياة التي يحيونها ، والتي تمتاز فى الاغلب بارتفاع المستوى الاقتصادى والثقافي ، وهم بذلك لايحسون بآلام ولا متطلبات الطبقات والشعوب الفقيرة التي تعطى الأولوية المطلقة لمشكلة الفقر وكسر حلقته والخروج من دائرته ، وان التوقف عن الصناعة أو تحديد الانتاج كوسيلة للاقلال من درجة التلوث لن يحقق هذه الغاية التي يحلم بها الفقراء ، وهم بعد كل شيء يمثلون القطاع الأكبر من الجنس البشرى .

والطريف هنا أن هذه الانتقادات التى وجهها رجال الصناعة الى انصار البيئة وجدت ترحيبا شديدا من بعض الشعوب الفقيرة والمتخلفة والنامية التي نظرت الى الدعوة الى المحافظة على (نظافة) البيئة ، ولو كان ذلك على حساب الانتاج الصناعى ، على أنها حركة استعمارية جديدة تقوم على أساس تثبيط همم الدول النامية عن الاخذ بسياسة التصنيع ، وتحاول صرفها عن تنفيذ برامجها فى التنمية الاقتصادية التي ترتكز الى حد كبير على التحول التدريجى الى الصناعة كوسيلة لرفع مستوى الحياة فيها اقتصاديا واجتماعيا ، أو على الاقل كوسيلة تتخلص بها من كثير من مظاهر التخلف والفقر المضروبة عليها . وبقول آخر فان هذه الدول النامية اعتبرت حركة البيئة حركة معادية للتحرر الاقتصادى من ربقة الدول الصناعية المتقدمة . وقد انعكس ذلك بوضوح خلال جلسات مؤتمر استكهولم ، اذ كانت النغمة السائدة بين عدد من ممثلى العالم الثالث هى أن « البيئة النظيفة » ليست ضرورة عالمية ، وانما هى مجرد نوع من الترف يجب أن يسترعى بالعملة الصعبة ، وان ثمن هذا الترف قد يكون غاليا جدا بالنسبة لبعض المجتمعات قد يكلفها فرصة التقدم والرقى . ولم يكن ممثلو هذه الدول ينصتون الى كل حجج انصار البيئة التي تقوم على مبدا ضرورة تضافر جهود كل الدول والشعوب والمجتمعات لاصلاح البيئة ، وان ذلك يجب أن يتم بسرعة حتى لا يجد العالم نفسه فى مأزق قد يكلفه وجوده نفسه ، وان الوسيلة الوحيدة لتجنب هذا المأزق هو ان يتحكم العالم كله وبكل مجتمعاته فى درجة النمو الاقتصادى والسكاني على السواء . ولقد ذهب الدكتور بول ارليتش Paul Ehrlich فى كتابه الشهير « **القنبلة السكانية** The Population Bomb » الى احتمال وقوع هذه الكارثة الايكولوجية المدمرة حوالى عام ٢٠٤٠ لو استمر العالم يسير فى هذا الطريق الخطر الذى اختاره لنفسه .

وأيا ماتكون الحقيقة وراء هذه الاتجاهات المتعارضة فهناك كثير من الأوضاع والحقائق التي يجب أن تؤخذ دائما فى الاعتبار ، وهى حقائق تحمل كثيرا من التحذير من الاخطار التي تحيط الآن بالعالم والتي يجب الالتباه اليها . مثال ذلك ان كثيرا من المبانى الأثرية فى أوروبا كالكنائس

والكاتدرائيات التي ترجع الى القرون الوسطى ، والتي تعتبر من أكبر مظاهر الحضارة الغربية بدأت تعانى من سحب الدخان والغبار والرماد المتصاعد من المصانع ويكاد بعض اجزائها يتداعى بتأثيرها . ولقد أوصت احدى اللجان التي كلفتها اليونسكو فى أوائل السبعينات بدراسة حالة هذه المبانى الأثرية الخالدة بأن تقوم الهيئة بتغليف الاكروبول كله بالزجاج لكى تمنع عنه آثار التلوث المدمرة ...

والظاهر أن كل مظهر من مظاهر النجاح الفائق يقتضى ثمنا غاليا للغاية . والظاهر أن هذا هو الوضع ايضا بالنسبة للبيئة ، بحيث يمكن القول ان تنفيذ اى مشروع من المشروعات الضخمة التي تؤدى الى حدوث بعض التغييرات فى البيئة الطبيعية لخير الانسان وصالحه كثيرا ماتحمل بين طياتها بعض الآثار الجانبية الضارة التي يلحق عنها بعض الأضرار فى التوازن الايكولوجى . وربما كان افضل مثل لذلك هو التغيرات الايكولوجية التي تحدث الآن فى مجرى نهر النيل واراضى الدلتا الخصبة بعد اتمام السد العالي وبحيرة ناصر . فعلى الرغم من كل ما حققه للآن السد العالي الذى يعتبر من مفاخر الهندسة الحديثة ، ومن اضخم المشروعات التى تهدف الى التنمية ، وعلى الرغم من كل ماقد يحققه فى المستقبل سواء من حيث زيادة مساحة الأرض المنزرعة وتعميم الرى الدائم بدلا من رى الحياض الذى كانت تعتمد عليه مساحات كبيرة من الوجه القبلى ، وكذلك توليد الكهرباء بكل ماسوف يترتب عليها من نتائج اقتصادية ومظاهر حضارية ، فان الثمن الايكولوجى لذلك سيكون فادحا بغير شك . فكثير من العلماء والاطباء يخشون من أن تؤدى بحيرة ناصر بمساحتها الهائلة الى انتشار البلهارسيا على نطاق أوسع مما هو موجود الآن بالفعل فى مصر ، بل ان البعض يخشى من امكانية عودة بعض الأمراض التي كان قد أمكن القضاء عليها تماما مثل الملاريا ، وذلك كله بالاضافة الى ظاهرة النحر النهرى وتآكل الشواطىء فى شمال الدلتا والاخطار التي تهدد التربة ذاتها نتيجة لحجز الطمى الذى كان النهر يحمله ويجدد به خصوبة أرض مصر ، وكذلك بالاضافة الى اختفاء كثير من مظاهر الحياة السمكية البحرية مثل السردين والجمبرى والصناعات التي كانت تقوم على هذه الثروة السمكية ... ومع ذلك فان هؤلاء العلماء أنفسهم يرون ان لكل مشكلة حلا ، وان العلم لن يعجز عن معالجة هذه المشكلات . (٢)

---

(٢) الملاحظ ان التغيرات البيئية توجد فى كثير من الدول وهى تقتضى فى رأى الكثيرين ضرورة تكاتف هذه الدول على وقف تيار التلوث ، وانه لن يمكن لاية دولة واحدة ان تقوم بهذا العمل بمفردها ، وليس ذلك ناشئا عن ارتفاع تكاليف هذه الحرب فحسب بل وايضا نظرا للاوضاع القائمة بالفعل . مثال ذلك ان سبع دول على الاقل تلقى بفضلاتها ونفاياتها فى بحر الشمال ، كما ان الرماد المتصاعد من مصانع الرور فى المانيا مثلا يؤثر فى ثلوج النرويج ويفقدها بريقها ولمعانها وصفاءها ، وبالمثل فان نفايات وفضلات مصانع الرين تصل الى بحر الشمال وتؤدى الى موت اعداد هائلة من الاسماك فيه . والسائد لدى عدد كبير من العلماء ان البحر الابيض المتوسط سوف يصبح بحرا (ميتا) نتيجة لالقاء الفضلات والقاذورات والنفايات من المصانع والبواخر فيه ان لم تبذل الجهود الجبارة لانقاذه ، وان كان هناك من يعتقد أن الوقت قد فات بالفعل وانه لا امل فى انقاذه من ذلك المصير .

والخلاصة من هذا كله هو أن الكثير من الدول المتخلفة والنامية والفقيرة تعتقد ـ كما ذكرنا ـ ان « حركة البيئة » هي آخر سلاح أوعلى الاصح احدث سلاح تتسلح به الدول الغنية في مؤامراتها ضد الدول الاخرى حتى تظل هذه الدول الغنية متفوقة طيلة الوقت وبحيث تستطيع ان تتحكم فى غيرها ، ويكفي هنا ان نذكر انه حين عقد مؤتمر ستكهولم للبيئة كان تعليق احد أعضاء وفد البرازيل عليه ، حتى قبل ان يعقد ، هو ان « مشكلتنا ليست هى التلوث الناجم عن زيادة التفوق الصناعى وانما هى الفقر والتخلف » . وربما كان هذا التخوف أو التشكك هو السبب فى ان المؤتمر عالج بالاضافة الى التلوث الناجم عن التصنيع عددا من مشكلات البيئة في مجتمعات العالم الثالث مثل زحف الصحراء على الاراضي الخضراء الخصبة ، وانتشار الجدب وما الى ذلك . وعلى أية حال ، فلقد بدات بعض الدول النامية بعد المؤتمر تشعر بعالمية المشكلة ، وتدرك ان تهديد البيئة ليس قاصرا على مجتمعات محددة بالذات دون غيرها ، وأن الازمة الايكولوجية أزمة عالمية بكل مافى هذه الكلمة من معان . والأمثلة عديدة على تلوث البيئة والآثار الضارة المترتبة على ذلك ، وهى امثلة يمكن أن نجدها فى كل بقعة من بقاع العالم . والمعتقد على أية حال ان الدول الفقيرة والمتخلفة هى اكثر عرضة من الدول الغنية والصناعية لكوارث البيئة ، على ماقيد يبدو فى ذلك من غرابة ، وذلك لأن هذه الدول المتخلفة تبالغ ـ فى سباقها للحاق بالعالم المتقدم المتحضر ـ فى ادخال نظم الحياة السائدة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وهى ترهق بذلك مواردها الطبيعية التى سوف تستنزف فى فترة قصيرة نسبيا ، كما ان الاقبال الشديد على التصنيع سوف يعجل بتلويث الهواء والماء بدرجة اكبر مما هو موجود فى المجتمعات المتقدمة التى لديها من الموارد المالية مايسمح لها بالتخفيف من ويلات التلوث . ويزيد من خطورة الأمر فى المجتمعات النامية ارتفاع معدلات الزيادة السكانية بدرجة غير مألوفة فى المجتمعات المتقدمة .

(٦)

والشيء الذى يسترعى النظر حقا هو انه على الرغم من أن « حركة البيئة » لم تبدأ بشكل منظم الا منذ أوائل السبعينات فان ماتم احرازه من تقدم حتى الآن فى هذا المجال خليق بالاهتمام والتقدير على الاقل في مجال توجيه الانظار الى خطورة المشكلة ، حتى وان لم تنفذ كثير من البرامج الخاصة بمنع تلوث البيئة ، وعلى الرغم من أن منع هذا التلوث لا يزال أملا يراود احلام انصار البيئة . والمهم هنا هو أن عددا من الدول اصدر بعض التشريعات الخاصة بالمحافظة على البيئة ، كما أفردت ميزانيات ضخمة لذلك على ما ذكرنا .

ولقد بدأ الاهتمام بالبيئة وعلاقتها بالكائنات العضوية ، أو ما يعرف عموما باسم الايكولوجيا ـ على أيدى علماء النبات والحيوان الذين كانوا ينظرون الى المسألة فى الاغلب من الزاوية الفيزيقية

البحته ، او على الاقل كانوا يميلون الى تغليب الجانب الفيزيقي للمشكلة . ولكن الرعيل التالى من علماء الايكولوجيا كانوا يتمتعون بنظرة أوسع وأعمق ، ولذا فانهم اعطوا مزيدا من العناية والاهتمام الى وضع الانسان فى البيئة والى التفاعل القائم بين الاثنين . وكما يقول فريزر دارلنج F. Fraser Darling فى مقال طريف له: ان الايكولوجيا ـ باعتبارها علما يدرس الكائن العضوى فى علاقته بالبيئة التى يعيش فيها ، وكذلك العلاقات التى تقوم بين مجتمعات الكائنات العضوية التى تنتمى الى نوع واحد او الى انواع مختلفة ـ هى فكرة اوسع وارحب واكبر بكثير مما يتصور العلماء الرواد الاوائل ، وان الشيء الرائع حقا فى هذه الفكرة هو انها كانت من العظمة والرحابة والاتساع بحيث استطاعت ان تتعدى كل الحدود وان تمتد الى ميادين لم تكن مفهومة او مدروسة تماما ، كما انها تحاول البحث عن العلاقات والروابط ، وان تفقد المقارنة وتكشف عن أوجه الخلاف مهما كانت صغيرة وغير مرتبة . (٢)

وربما كان اهم ما يميز هذه الدراسات الايكولوجية الرائدة هو النظرة العامة الشاملة التي تحاول الربط بين عناصر البيئة المادية اوالفيزيقية من ناحية ، وحياة النبات وسلوك الحيوان وتصرفات الانسان والتفاعل والتداخل والتأثيرات المتبادلة بينها جميعا من ناحية أخرى. ومن هنا كانت هذه الدراسات الايكولوجية المبكرة، رغم ضحالتها النسبية اذا هى قورنت بما يصدر الآن من كتابات دقيقة متخصصة ، تعكس جانبا انسانيا عميقا تفتقر اليه هذه الكتابات العلمية المتخصصة . فالظاهر ان علماء الايكولوجيا ساروا فى نفس الطريق الذى سار فيه الكثيرون من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية حين حاولوا محاكاة علماء الفيزياء والكيمياء وغيرهم فى تطبيق

---

(٢) Darling, F. Fraser; "A Wider Environment and Ecology Conservation" Daedalus, Fall 1967, P. 1003.

وليس من شك فى ان الفضل فى ابراز علاقة البيئة بالحياة العضوية يرجع فى المكان الاول الى علماء النبات بالذات ، ومن هنا كثر الكلام عن الايكولوجيا النباتية . ثم جاء بعد ذلك علماء الحيوان . ويعتبر كتاب تشارلز التون Charles Elton الذى نشر عام ١٩٢٧ عن الايكولوجيا الحيوانية Animal Ecology من اهم العلامات على الطريق لانه كان يعبر ـ كما يقول فريزر دارلنج ـ عن فلسفة محددة وعن رؤية واضحة لموقف شديد التعقيد فيه يعتبر سلوك الحيوانات ذاتها عاملا فى بيئة الكائنات الاخرى . ولقد طالب التون الذى كان عمره فى ذلك الحين اقل من ثلاثين سنة بضرورة تعاون علماء النبات مع غيرهم من العلماء من أجل الوصول الى فهم كيف تتعاش مجتمعات الكائنات العضوية المختلفة . وقد كان آخر كتاب اصدره التون فى هذا المجال هو كتابه الشهير The Pattern of Animal Communities الذى صدر عام ١٩٦٦ وفيه لا يكتفي بوصف ما هو قائم وانما يتجاوز ذلك الى المستقبل ، ويستمد ذلك من طبيعة الاعمال والبحوث التي قام بها تلاميذه واتباعه خلال عشرين عاما . ورغم ذلك فقد اهتم التون بالتنبيه الى قلة البحوث التي أجريت فى هذا المجال الحيوى العام الذى تتوقف عليه قدرة الانسان على رسم حياته وحياة المجتمع البشرى فى المستقبل .

ويمكن ان نذكر الى جانب التون عددا آخر من علماء النبات الذين اهتموا بتوطيد الدراسات الايكولوجية من امثال هومر شانتز Homer Shantz الذى وضع أطلسا نباتيا ظل معتمدا لمدة طويلة جدا وذلك بعد ان قام برحلة علمية فى افريقيا من القاهرة الى جنوب القارة . كذلك يدخل الدوليوبولد Aldo Leopold ضمن هذه المجموعة من العلماء ، وقد قام بكثير من الابحاث فى صحارى المكسيك واريزونا .

المنهج العلمى الرياضى الدقيق ، وبذلك ترجمواكل العلاقات الايكولوجية ترجمة كمية أفقدت هذه العلاقات كثيرا من « انسانيتها » وعمقها ،وفقدت الكتابات الايكولوجية عموما كثيرا من جاذبيتها السابقة التى كانت تتميز بها ، واخفقتبالتالى فى أن تصل الى كثير من الناس على الرغم من انها تعالج مسائل واموراً تمس حياة الانسانوالمجتمع مسا شديدا . وقد زاد الوضع سوءاً أن عددا من علماء الايكولوجيا النباتية والحيوانيةكانوا يرفضون فكرة امكان قيام ايكولوجيا انسانية او بشرية على الأصح ، وذلك باستثناء عدد قليلمنهم كانوا فى الاغلب من المتخصصين اصلا فى الجغرافيا او الانثربولوجيا . ولعل من أهم هؤلاءالجغرافيين كارل ساور Carl Sauer الذى كان ينظر الى الايكولوجيا دائمافىضوء النشاط البشرىالعام . ويقول آخر فان هؤلاء العلماء الذين كانوا ينادون بضرورة قيام ايكولوجيا بشرية انما كانوايومنون بأن هناك ايكولوجيا واحدة شاملة ، ويصدرون فى كتاباتهم عن هذا الايمان . وعلىأى حال فالواضح ان كلمة ايكولوجيا انتشرت فى مختلف الاوساط العلمية ، ولم تعد قاصرة علىعلماء النبات أو الحيوان، كما أصبحت الدراسات الايكولوجية اكثر ميلا بعد ذلك الى الشمول والتكامل مما يجعل من مشكلة البيئة مشكلة اجتماعية وانسانية بقدر ما هى مشكلة فيزيقية .

ومع ذلك ، فعلى الرغم من اتساع نطاقالبحوث الايكولوجية الانواعطاء الجانبالاجتماعي والانساني قدرا أكبر من الاهتمام ، فلا تزال نقطة لانطلاق فى اى بحث ايكولوجى هى الظروف والاوضاع المادية السائدة في اى مجتمع منالمجتمعات ، والى اى حد تنعكس هذه الاوضاع فى سلوك الناس ، والى أى حد تتأثر بدورها بهذاالسلوك أو بالثقافة السائدة في ذلك المجتمع ، وكيف يمكن الافادة من هذه الظروف البيئيةالعامة . وعلى الرغممن التسليم بأن هذه الاوضاع الفزيقية تؤثر تأثيرا قويا فى حياة الناس الا انها لا تحدد لهم هذه الحياة تماما ، وهذا معناه ان ما كان علماء القرن التاسع عشر يطلقون عليهاسم « الحتمية الجغرافية » والتى كانوا يعنون بها أن الشروط والاحوال الجغرافية تملى علىالناس نوعا معينا بالذات من السلوك والحياة والنشاط الاقتصادى والاجتماعي لا يمكن الخروجمنه — قد اختفت الآن تماما من الكتابات الايكولوجية ، التى اصبحت تعتبر هذه الظروفمجرد عامل واحد ضمن عوامل كثيرة تتعاون معا في تشكيل السلوك الاجتماعى . فسكان الصحراءمثلا لا يشتغلون برعى الحيوان لأن الظروفالبيئية وحدها هى التي تحتم عليهم ذلك ، وانما لأن هناكالى جانب هذه الظروف البيئية الملائمة اوضاعا اخرى اقتصادية واجتماعية وسياسية تتضافرمعا وترسم لهم ذلك الطريق ، مع عدم انكار اهمية الدور الذى تلعبه تلك الاوضاع المادية او البيئيةفى توجيه هؤلاء السكان نحو ذلك النمط المعين — النشاط الاقتصادى ... فالانسان هوالذىيصنعالنظم الاجتماعية التي تسود فى المجتمع الذى يعيش فيه ، آخذا بالاعتبار فى الوقتذاته ماتقدمهله البيئة الطبيعية من امكانيات ، كما ان الانسان هو أيضا الذى يستطيع ان يغير هذه النظمالتي أوجدها بنفسه لنفسه حين يقتضي الأمر ذلك التغيير ، وان كان هذا لا يتم بسهولة فى كلالاحوال . فكأن اى تغير في البيئة الطبيعية يمكن

للانسان أن يقابله بادخال التعديلات والتغييرات المناسبة على النظم الاجتماعية ، بحيث تتلاءم مع الاوضاع والشروط البيئية الجديدة .

ولقد اتجهت البحوث الايكولوجية في معظمها ـ وبخاصة البحوث التطبيقية ـ ناحية العمل للمحافظة على البيئة . وارتبط هذا كله بالتخطيط وبالذات بظاهرة التحضر ، أى ازدياد الاقبال على انشاء المدن نتيجة للزيادة الهائلة في عدد السكان وهجرتهم من الريف الى المراكز الحضرية والصناعية . ولقد كان لهذا أثره بالتالى على المناطق الريفية والخلوية . فقد كان من الطبيعي ازاء زيادة التصنيع وزيادة الهجرة من الريف أن تمتد حدود المدن والمراكز الحضرية بحيث التهمت مساحات كبيرة من المناطق الريفية والخلوية والأرض الزراعية . وقد دعا ذلك بعض العلماء الى الاهتمام ليس فقط بتطهير و (تنظيف) البيئة الحضرية من الأدران التى تلوثها ، ولكن أيضا بانقاذ الريف والمحافظة عليه والابقاء على المناطق الخلوية التي تعتبر رئة المجتمع كله . ولعل هذه كانت هى الفكرة الكامنة وراء ما يقال من أن ارتفاع مستوى المعيشة اقتصاديا عن طريق التصنيع يرتبط بالضرورة **بانخفاض أو تدهور** مستوى المعيشة **بيئيا أو ايكولوجيا** ، ليس فقط نتيجة للتلوث الذى يصاحب نشأة الصناعة ثم انتشارها ، ولكن أيضا نتيجة للازدحام السكاني وازدياد الضوضاء والضجة والصخب التي ترتبط بعمليات التصنيع وظهور المراكز الصناعية ، بحيث أصبح الهدوء الآن سلعة نادرة الى حد كبير . وهذه كلها أمور يتطلب حلها قيام تعاون وثيق بين علماء الايكولوجيا والفيزياء والاجتماع والنفس والانثربولوجيا ، فضلا عن المهندسين والمشتغلين بالتخطيط وغيرهم ، وهو ما يزيد من توكيد وتوضيح خاصية الشمول والتكامل التى تعتبر من أهم الخصائص المميزة لمشكلة البيئة . (٤)

---

(٤) هناك بعض الاتجاهات التي تدعو الى توجيه التربية والتعليم بحيث تخدم البيئة ، بل والى ظهور تخصصات جديدة فى علم البيئة التي يبدو ان كثيرا من الدول حتى المتقدمة لاتعطيها الان ما تحتاجه من عناية واهتمام . وتعتمد هذه الدعوة على أن (إدارة) البيئة والتحكم فيها والمحافظة عليها تحتاج الى عدة تخصصات تتكامل وتتعاون فيما بينها بحيث يمكن ان يخرج منها تخصص جديد يجمع بين عدة فروع مختلفة من العلم **مثل الجيولوجيا وعلوم التربية والاقتصاد والاجتماع والانثربولوجيا بل والفلسفة أيضا باعتبارها من الدراسات التي تساعد على فهم مغزى سلوك الناس وعاداتهم وبخاصة فيما يتعلق بموقفهم من البيئة الطبيعية . فالانسان ـ على ما يقول روبرت موريسون** Roper Morrison **فى مقاله الرائع عن** Education for Ecological Concerns **هو انجح الكائنات فى استعمار الارض واستخدامها واستغلال مواردها ولكنه في الوقت ذاته أكثر هذه الكائنات افسادا للارض وتلويثا لها . ولكن على الرغم من كل الجهود التى تبذلها الجامعات الامريكية بالذات وعدد من الهيئات والمنظمات العلمية لنشر فكر التخصص فى (الايكولوجيا) بهذا المعنى العام الشامل ، فالملاحظ أن الاقبال عليه لايزال ضئيلا نظرا لصعوبة العلوم التي يتعين على العالم الايكولوجي ان يلم بها ، وتشعب هذه العلوم وتنوعها بل وتباينها . وعلى أى حال فان توفر امثال هؤلاء المتخصصين لن يكون سوى الخطوة الاولى فى دراسة البيئة بينما سوف يحتاج الامر بعد ذلك الى تعاونهم مع عدد من المتخصصين فى بعض فروع المعرفة الاخرى وبخاصة الهندسة والتخطيط بل وايضا الكيمياء والبيولوجيا لحل ابسط مشكلات البيئة .**

(٢)

وواضح من هذا أن أهم ما يشغل بال علماء الايكولوجيا الآن هو مسألة «المحافظة على البيئة » ، وهو تعبير حديث نسبيا ، وان كان استعماله شاع كثيرا بين كل المهتمين بأمر البيئة والمحافظة عليها ، حتى وان لم يدركوا كل الأبعاد التى تتضمنها هذه العملية الشديدة التعقيد التى تحتاج الى الالمام بكل جوانب الحياة الاجتماعية الاقتصادية ، بما فى ذلك نفس عادات الناس وموقفهم من البيئة وطريقة معاملتهم لها — او على الاصح تعاملهم معها — وردود الفعل التى ينتظر أن تصدر عنهم ازاء مشروعات وبرامج المحافظة على البيئة ، وهى برامج غالبا ما تتعارض مع رغبات الناس ومع ما تعودوا عليه ، ولذا فانها تثير فيهم الرغبة فى المقاومة . وهذا وضع طبيعى على أى حال ، يصادف كل مشروعات التنمية التى تهدف الى تغيير الأوضاع القائمة . هذا كله بالاضافة الى المعارضة التى يثيرها المشتغلون بالتصنيع على ما سبقت الاشارة اليه . الا أنه يبدو ان الأذهان اصبحت الان مهياة الى حد كبير الى تقبل فكرة المحافظة على البيئة ، كما انه امكن تبديد كثير من الشكوك التى أثيرت حول هذه الحركة وحول تلك البرامج ، وان كانت نتائج البرامج ذاتها لا تظهر بسرعة أو سهولة مما يجعل من الصعب تقدير مدى ما احرزته من نجاح فى المدى القصير ، كما أن وضع هذه البرامج والتخطيط لها يحتاجان الى دراسات وبحوث طويلة وعديدة ومتعمقة وشاملة (دون ان تغرق مع ذلك فى المشاكل المنهجية التي كثيرا ما تكون عائقا أمام اتمام هذه البحوث وبخاصة فى المجال التطبيقى ، وربما كان الجانب الاجتماعى هو اصعب جوانب عملية دراسة مشكلة البيئة والمحافظة عليها . فقد يكون من السهل العثور على أعداد كبيرة من الباحثين الذين يمكن الاعتماد عليهم فى جمع المعلومات الخاصة بعملية التلوث ، ولكن من الصعب جدا العثور على مثل هذا العدد من الباحثين الذين لهم القدرة على الكشف عن العوامل السياسية او الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية التي تكمن وراء تلويث الناس لأحد الانهار مثلا ، (٥) مع أن المعركة الحقيقية تدور ضد العادات والجهل واللامبالاة وما اليها ، وهى كلها أمور يصعب قهرها والتغلب عليها ، وتحتاج الى جهود طويلة ومكثفة ، وقد تحتاج في آخر الامر الى أصدار قرارات سياسية حاسمة للقضاء عليها . وهذه القرارات السياسية تتخذ شكل تشريعات خاصة بالمحافظة على البيئة ، (مثل تحريم القاء الحيوانات الميتة فى الانهار ومجارى المياه) . وان كان السلاح الاقوى والاكثر فعالية واستمرارا هو التعليم ونشر الوعى ، رغم ما يتطلب ذلك من وقت ومجهود .

ولقد سبق القول ان «المحافظة على البيئة» لا تعنى ابدا الامتناع عن كل ما عساه ان يؤدى الى تغيير الاوضاع البيئية الطبيعية . فليس من شك في أن عمليات استخراج المعادن مثلا من باطن الارض ، او انشاء مشروعات الرى وتوليد الكهرباء الكبرى قد اسهمت اسهاما ملموسا فى

(٥) R.W. Patterson; "The Art of the Impossible" op. cit., P. 1030.

نمو الاقتصاد القومي في البلاد التي نفذت هــذه المشروعات ، كما ادت الى ارتفاع مستوى المعيشة وتقدم المجتمع الانساني ككل ، على الرغم من كل ما نجم عنها من تلوث واضرار تتمثل ــ في ابسط واوضح مظاهرها ــ في الامــراض التي تصيب الانسان نتيجة لتلوث الهواء واستنشاق ذلـك الهواء الملوث (٦) . والمشكلة الرئيسية التى تواجه المهتمين بهذه المســألة ليســت هى الطريقة التي يمكن لها السيطرة على تلوث الهواء ، وانما هي الى اى مدى يجب التحكم فى هــذه الســيطرة ، خاصة وان تكاليف هذه العملية باهظة الى حد كبير ، وترتفع ارتفاعا رهيبا كلما زادت درجــة التحكم فى تطهير وتنظيف الهواء وتنقيته . ولايزال ثمة جدل كثير حول جدوى العمل على تطهير الهواء تماما من كل ما يشوبه ، كما انه لا يزال ثمــة جدل طويل عما اذا كان كل ما يشوب الهواء يعتبر من عوامل التلوث الضارة التى يجب ابعادهــا وازالتها تماما . والرأى السائد هو انه لا يكاد يوجد الآن ما يمكن تسميته بالهواء النظيف تماما في اى بقعة من بقاع الارض . وهذا نفسه يصدق على الارض والماء وغيرهما من عناصر ومكونات البيئة الطبيعية ، وان كان تلوث الهواء يثير انتباه واهتمام وعناية العلماء أكثر مما يثيره تلوث تلك العناصر الاخرى ، وذلك نظرا لأن الهــواء هو العنصر الوحيد من عناصر البيئة الذى لا يمكن الاستغناء عنه والذى تحتاج اليه كل الكائنــات العضوية وكل اشكال الحياة . وكما يقول تيلر Teller : « ان خدمات الهواء تحتاج اليها جميع الكائنات دون أن يملكها أى كائن واحد منها . فالهواء سلعة جماعية بكل ما فى الكلمة من معنى » .

ومع ذلك ، فالرأى السائد الآن هو اننا لن نستطيع ان نتحكم في البيئة الطبيعية ان لم نتحكم أولا فى أنفسنا ، اما عن طريق التشريع أو عن طريق التوعية والاقتناع الشخصي والادراك السليم . وهذا يقتضي بغير شك اعدادا طويلا يقوم على التعريف بالمعلومات الاساسية المتعلقة بالبيئــة والاخطار التى يمكن أن تلحق بها نتيجة لسلوك الانسان . ورغم هذا كله ، فالرأى السائد ايضا بين أغلب العلماء والمشتغلين بمشاكل البيئة هو ان ثمة حقيقة يجب قبولها كقضية مسلم بها وهى أنه لا مفر ــ رغم كل المحاولات التي تبذل لتنظيف البيئة ــ من وجود درجة معينة من التلوث في كل مكان وفى كل شيء وفى كل وقت ، وان المهــم فى الامر ــ من الناحية العلمية ــ هو أن نعرف متى تصبح درجة التلوث مسألة لا يصح السكوت عليها ، وان كان من الصعب الوصول الى مثل هذا التحديد الدقيق .

• • •

---

(٦) انظر فى ذلك التقرير المرفوع عام ١٩٧٣ الى مجلس الشيوخ والنواب الامريكيين عن :

"A Study of Pollution — Air" P. 14 . ويشــير التقرير الــى اهــم مصــدر تلــوث الهواء مثل السيارات والصناعة ، كما انه يعدد الكائنات العضوية وغير العضوية التي العضوية كالبانى . ومثل هذه الاشارات توجد بكثرة في جميع الكتابات التي تتناول مشكلات البيئة والتلوث .

وتضافر كل هذه القوى فى معالجة البيئة ،وكذلك النظر الى مكونات البيئة وعناصرها المختلفة على انها تؤلف كلا واحدا متماسكا معناه ان البيئة ذاتها تؤلف وحدة متكاملة او نسقا متمايزا System . ولقد كثر الكلام في السنوات الاخيرة عن الانساق الايكولوجية Ecosystems ، وحاول كثير من العلماء تصنيف هذه الانساق تبعا لأحد الانماط الاساسية التى تغلب على شكل الحياة داخل كل (نسق) كما هو الحال مثلا فى التمييز بين النسق الايكولوجي الصحراوى الذى ينشأ نتيجة لتوافر عناصر فيزيقية معينة تتمثل في جدب الارض وقلة الماء ووجود المراعى وما يرتبط بهذا من وجود نمط اقتصادى معين وتنظيم اجتماعى قبلى ، والنسق الايكولوجى الريفي الذى ينشأ نتيجة لتوافر الارض الصالحة للزراعة وامكانيات الرى وما يرتبط بذلك من نشأة القرى بتنظيمها الاجتماعى الذى يختلف عن التنظيم القبلى اختلافا شديدا ويعتمد اساسا على الارتباط بمكان واحد والاستقرار فيه ، والنسق الايكولوجى الحضرى الذى يرتبط بالتجمعات الانسانية الكبيرة التي تنشأ فى مناطق معينة بالذات نتيجة لظروف جغرافية معينة تساعد اما على التجارة او تقديم الخدمات أو قيام بعض الصناعات ، وهكذا .واعتبار البيئة نسقا يتطلب بالضرورة ترتيب مكوناتها وعناصرها فى نظام واحد يتدرج من ابسط الكائنات العضوية الى أكثرها تعقيدا بحيث تؤلف سلسلة واحدة تتداخل حلقاتها بعضها فى بعض وتتفاعل معا من ناحية ، ومع بقية الاشياء غير العضوية وكل ما فى الكون من قوى مختلفة ومتباينة من الناحية الأخرى . الا انه لابد من أن نميز فى هذا النسق بين التجمعات البشرية وبقية (التجمعات) واشكال الحياة الاخرى ، على الرغم من كل مابينها من تفاعل وتشابك فى العلاقات في المتبادلة . وتجتاز هذه التجمعات البشرية فى اى نسق ايكولوجي بتعقد سلوكها الاجتماعى الى حد كبير جدا وبخاصة فيما يتصل بالبيئة بحيث يحقق هذا السلوك درجة عالية من التكامل البيولوجى لانجد له مثيلا في العلاقات القائمة بين الحياة الحيوانية او النباتية وبقية مكونات البيئة فى ذلك النسق ، كما ان الانسان في كل نسق من هذه الانساق الايكولوجية هو الذى يسيطر سيطرة تامة على بقية تلك المكونات و (التجمعات) وأشكال الحياة ، وهذه السيطرة هى التى تخلق فى آخر الامر الأزمة الايكولوجية التى تعانى منها كل المجتمعات فى الوقت الحالى ، وذلك نتيجة لاساءة استخدام تلك المكونات والعناصر . وليس هناك من ينكر أهمية العلاقات بين الكائنات العضوية المختلفة والبيئة ، ولكن التكامل بين الانسان والبيئة خليق بأن يلقى أكبر قدر من الاهتمام وبخاصة حين تكون المسألة متعلقة بمحاولة التعرف على مستقبل المجتمع الانسانى ومصادر الثروة فى الارض وامكانية تحقيق درجة اكبر من التقدم .(٧)

---

(٧) على الرغم من كل الاهتمام الذى يبديه العلماء الان بدراسة البيئة فلا تزال الدراسات والبحوث عن الانساق الايكولوجية المختلفة ـ بكل مكوناتها وعناصرها المتفاعلة ـ قليلة نسبيا ، كما ان معظم ما كتب للان لا يخرج من الوصف السريع الذى يكاد يخلو من تحليل العلاقات المتبادلة بين هذه المكونات المختلفة . وربما كان ذلك راجعا الى تعقد هذه العلاقات والى الحاجة الى الاحاطة بكثير من العلوم المتخصصة لفهم هذا التفاعل على ما ذكرناه . وثمة اتجاه يحاول ان يفرض نفسه الان على دراسة الانساق الايكولوجية عن طريق تطبيق المناهج الرياضية والكمية .

←

وهذا ينقلنا مرة اخرى الى ماسبق أن ذكرناه من أن النسق الايكولوجي ــ رغم تعقده ــ نسق اجتماعي الى حد كبير ، وان مشكلات البيئة مشكلات اجتماعية فى المحل الاول .

(٣)

ولقد جاء اهتمام علماء الاجتماع والانثربولوجيا وغيرهم من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية والانسانية بمشكلات البيئة فى مرحلة متاخرة على اهتمام علماء النبات والحيوان بهذه المشكلات ، والمعروف ان كلمة « ايكولوجيا Ecology » ادخلت لاول مرة الى ميدان العلوم البيولوجية على يد عالم الأحياء الالماني ارنست هيكل Ernst Haeckel عام ١٨٦٩ للاشارة الى العلاقات المتبادلة بين النباتات والحيوانات التي تعيش معا فى بيئة طبيعية معينة ، بينما لم يستخدم المدخل الايكولوجي أو النهج الايكولوجي فى مجال العلوم الاجتماعية والانسانية الا فى أوائل القرن العشرين ، وبخاصة فى كتابات عالم الاجتماع الامريكي جالبن Charles Galpin وبخاصة فى كتابه الهام الذى ظهر عام ١٩١٥ بعنوان « التشريح الاجتماعى لاحد المجتمعات المحلية الزراعية Social Anatony of an Agrarian Community ومع أن جالبن لم يستخدم في هذا الكتاب كلمة (ايكولوجيا) صراحة الا انه فى دراسته للعائلات القروية التى تعيش ذلك المجتمع المحلى الزراعى (الذى يقع فى احدى مقاطعات امريكا) اهتم بتبيين العلاقات المتبادلة بين افراد المجتمع ومكونات البيئة الطبيعية السائدة هناك . وأفلح في أن يكشف عن مختلف انواع النشاط وعوامل توزعها . وقد كان الهدف الاول من دراسة جالبن هى أن يدلل على انه يوجد فى كل مجتمع من المجتمعات الانسانية « مناطق طبيعية Natural areas » تظهر تلقائيا نتيجة لتوفر ظروف ايكولوجية معينة ، كما انه يوجد فى كل منطقة من هذه المناطق أنواع معينة من النشاط الاقتصادى والاجتماعى ، بل وأيضا التنظيم السياسي التي تتلاءم مع هذه الظروف . ولم يلبث هذا الاتجاه أن انتشر فى كتابات علماء الاجتماع الآخرين في أمريكا من أمثال روبرت بارك Robert Park وبيرجيس Burgess , ففى عام ١٩١٥ أيضا حاول بارك أن يدلل على ان المدينة ظاهرة طبيعية تنشأ نتيجة لتوفر عوامل

→

وهذا اتجاه ينظر اليه الكثير من العلماء بغير قليل من الحذر والشك والتخوف على ما اشرنا من قبل ، لانه قد يفقد هذه العلاقات الايكولوجية جانبا من معناها الانساني ، وان كان اصحاب هذا الاتجاه انفسهم يرون ان تطبيق المناهج الرياضية سوف يدفع البحوث الايكولوجية الى افاق علمية جديدة ويحقق لها مستوى لا يتوفر لها الان باستخدام الاساليب الوصفية البحتة . وعلى اى حال فان التحليل الكمي للانساق الايكولوجية لا يزال فى بداية الطريق . كما ان النتائج التي امكن الوصول اليها غير مقنعة تماما . والامر لا يزال فى حاجة على اية حال الى كثير من المثابرة والجهد حتى يمكن ــ حسب قول موريسون ــ فهم اعماق ايكولوجيا المجتمع بنفس الطريقة التي يفهم بها الان الشفرة الوراثية Genetie Code مثلا (انظر مقال موريسون المشار اليه فى Daedalus op. cit., p. 1210

Hamilton, L.S., "Education for the Changing Field of Couservation", Science Education Vo. 51, No. 2.

طبيعية لايمكن التحكم فيها ، وان لكل مدينة من المدن تنظيمها الخاص الذى تنقسم بمقتضاه الى مناطق مختلفة لكل منها نشاطها الخاص ، سواء كان ذلك النشاط نشاطا صناعيا أو تجاريا أو سكنيا ، بل ان لكل منطقة خصائصها الاجتماعية والثقافية التي تطبع حياة أهلها بطابع خاص . اما بيرجس فقد حاول ان يكشف عن درجة التناظر بين المناطق الطبيعية فى المدينة والظواهر الاجتماعية والثقافية ، فالمناطق المتخلفة فى المدينة مثلا هى بطبيعتها مثوى للجريمة والرذيلة والامراض والفساد والتفكك العائلى وغير ذلك من السلوك الانحرافى . (٨)

ومع ذلك فانه يمكن القول أن الاهتمام الحقيقى بدراسة النسق الايكولوجى (وبخاصة فى العلوم الاجتماعية والانسانية) لم يبدأ الا فى الربع الثانى من هذا القرن لدرجة انه يمكن الكلام عن « المدرسة الايكولوجية » . وليس معنى هذا ان الاهتمام بدراسة الظروف الايكولوجية كان معدوما لدى هؤلاء العلماء ، ولكن كل ما نقصده هو ان الدراسات الايكولوجية ، وبخاصة ابتداء من الثلاثينيات من هذا القرن بدأت تهتم بأمور اخرى غير مجرد وصف الظواهر الاجتماعية فى حدود والفاظ التوزيع المكانى ، وبدأت تولى عنايتها بوجه خاص الى علاقات التكافل التى تقوم بين أفراد المجتمع وموارد الثروة الطبيعية التى يشتمل عليها ذلك المجتمع .

ولقد ثار خلاف كبير بين العلماء حول ما اذا كان يمكن اعتبار « النسق الايكولوجى » نسقا قائما بذاته ومتميزا عن غيره من الانساق كل التميز ، أو انه يدخل مع غيره من الانساق الاجتماعية فى تكوين النسق الاجتماعى العام أو البناء الاجتماعى Social Structure وكان انصار تمايز النسق الايكولوجى واستقلالها عن بقية البناء الاجتماعى يقيمون حججهم على أن النسق الايكولوجى يهتم فى المحل الأول بدراسة العلاقات بين الانسان والطبيعة بعكس انساق البناء الاجتماعى التى تهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية المستمرة التى تقوم بين الجماعات البشرية بعضها وبعض ، وليس بين الناس والظواهر الانسانية . ولقد نشأ هذا التمييز الذى لا يخلو من كثير من التعسف والافتعال من الاتجاه الذى اعتنقه بعض علماء الايكولوجيا البشرية فى الثلاثينات عن التمييز بين التفاعل الايكولوجى Ecological Interaction والتفاعل الاجتماعى Social Interaction بينما الميل السائد الآن — على ما ذكرنا فى أكثر من موضع من هذا المقال — هو أن ينظر الى العلاقة بين الانسان والبيئة نظرة عامة شاملة وتكاملية ، وان كان هذا لا يمنع من اختلافات التخصص والنظرة وتغليب جانب على جانب فى الدراسة والتحليل .

---

(٨) راجع فى ذلك كتابنا عن : البناء الاجتماعى — الجزء الثانى (الانساق) صفحات ١١ وما بعدها . كذلك راجع

Park, R.E., (ed); The City, Chicago
V.P. 1925; Burgess, E.W., The Growth of the City; Hollinshead, A.B., "Human Ecology", in Lee; Principles of Sociology, Barnes and Noble, N.Y. 1955.

والذى لا شك فيه ان التوكيد على تكامل الانسان والبيئة هو الطريق الذى يميل الكثيرون الآن اليه لحل مشكلات البيئة على اسس علمية سليمة ، وهو موقف يعطى للانسان وللمجتمع الانسانى من الاهمية ما يعطيه للبيئة التى يعيش فيها الاثنان ، على اعتبار ان الاثنين طرفان فى ذلك الكل المتكامل الذى يؤلف وحدة تخفى تحتها كثيرا من العناصر والمكونات المتباينة المتشابكة . ومثل هذه النظرة التكاملية الى علاقة الانسان بالبيئة تقتضى من الباحث ، وبالتالى من المشتغلين بتطهير البيئة ، معالجة عدد من الموضوعات يمكن أن تشير هنا الى بعضها للتدليل على مدى تعقد الموضوع والجهود التى يتطلبها تحليل الموقف : ــ

أولا : عناصر ومكونات النسق الايكولوجى موضوع الدراسة ، والمقصود هنا هو بالطبع المكونات الفيزيقية مثل الهواء أو الماء . (ومثل هذا ينطبق عى الأنساق الاخرى كلها كالكائن العضوى الحى والنسق الشمسى أو نسق الكواكب السيارة وغيرها .

ثانيا : البناء او الهيكل المادى (المورفولوجيا Morphology) ــ والمقصود به دراسة تنظيم الاجزاء المختلفة بما فى ذلك التنظيم الاجتماعى داخل أفراد النوع الواحد او المجموعة الواحدة او بين الانواع او حتى المجموعات المختلفة . وهذا ايضا يصدق على بناء المجتمع الانسانى كما يصدق على بقية الابنية النباتية او الحيوانية .

ثالثا : الوظائف والعمليات ، والمقصود بذلك فسيولوجيا النسق بما فى ذلك العمليات التى تتحكم فى سير وسلوك وتصرفات كل الانساق الحية بصرف النظر عن مستوى التنظيم الذى يسود فى كل نسق من هذه الانساق .

رابعا : التوزع فى الزمان وما يرتبط بذلك من تغيرات تطرأ على النسق خلال الزمن .

خامسا : التوزع فى المكان ، والمقصود بذلك انتشار الانسان أو الحيوان أو النبات فى مختلف المناطق وأسباب ذلك التوزع .

سادسا : العلاقة بالبيئة ــ والمقصود بذلك دراسة التأثيرات المتبادلة بين البيئة ومكوناتها من الكائنات العضوية المختلفة .

سابعا : واخيرا مشكلات التصنيف ــ ويشمل ذلك تصنيف النباتات والحيوانات ، بل والناس ايضا ، داخل النسق الايكولوجى تبعا للخصائص الذاتية لكل فئة من هذه الفئات .(٩)

---

(٩) Dillon Ripley and Helmut K. Buechner; „Ecosystem Science as a Point of Synthesis" in Daedalus, op. cit; PP. 1194 - 95.

وكل هذه النقاط اثيرت فى الاصل فى كتابات علماء الايكولوجيا النباتية والحيوانية ، ولكنها تصدق بكل دقائقها وتفاصيلها على مستوى العلاقات القائمة بين الانسان والمجتمع والبيئة ، بحيث ان اى عملية تبدأ فى اى طرف من هذه الاطراف الثلاثة لا تلبث ان تنتقل الى الطرفين الآخرين ، بحيث تؤثر ، آخر الامر ، فى ذلك الكل المتكامل او الوحدة المتكاملة المتميزة (وحدة الانسان ـ المجتمع ـ البيئة) . وابسط مثل لذلك هو حركة جزئيات الـ DDT من النبات أو الحيوانات ومنها تلك التى تقتات على تلك النباتات، الى الانسان الذى كان هو السبب الاول فى نشر هذا التلوث . واكتمال هذه الدورة هو الذى يبين مدى التكامل القائم داخل النسق الايكولوجى . وتتم فكرة التكامل حين تأخذ فى الاعتبار ان حركة هذه الجزيئات الفيزيقية أو المادية D.D.T. تدفع الانسان الى التفكير فى هذا الوضع القائم، والعمل على التغلب على الأخطار الناشئة عن هذا الوضع .

ولقد ظل الانسان منذ نشأته الأولى المبكرة يعمل على تغيير البيئة التى يعيش فيها بحيث تتلاءم مع احتياجاته ومتطلباته ورغباته ، ولكن الغريب فى الامر هو ان هذا التعديل او التغيير كان يحمل دائما فى طياته كثيرا من المساوىء والشرور التى انعكست على حياة الانسان نفسه. فكأنه يمكن القول ان الانسان كان يعمل دائما ، ومن حيث لايدرى ، على تغيير البيئة بما يتعارض مع صالحه . ولقد كان هذا هو الحال خلال الخمسة آلاف سنة الماضية . ـ على الاقل ـ منذ ظهور الحضارات الأولى باستقرار الانسان فى الارض ، وان اتخذ هذا التعديل والتغيير أشكالا مختلفة باختلاف العصر والمكان ودرجة التقدم ونمط الحياة والظروف العامة التي يعيش فيها المجتمع . فمنذ هذه الفترة المبكرة ، وقبلها بكثير بغير شك ، عمل الانسان على استغلال الموارد الطبيعية بطريقة ادت الى نتائج عكسية فى كثير من الأحيان تمثلت فى استنزاف خصوبة مساحات كبيرة من الارض (كما حدث فى اراضى ما بين النهرين) والقضاء على كثير من مناطق الغابات (كما حدث مثلا فى بلاد اليونان القديمة وفى ايران) والقضاء على مساحات واسعة من المراعى فى جنوب أوروبا وشمال افريقيا بحيث تحولت الى ارض صحراوية مجدبة اخذت تتسع وتمتد بدورها على حساب الاراضى الخصبة القابلة للزراعة . كذلك ساعد الانسان خلال كل هذه الفترة على تلويث الهواء باحراقه الغابات وحشائش السافانا على أمل ان يزرع الارض بعد ان (يطهرها) من غطائها الأخضر الطبيعي . ثم اسهمت التكنولوجيا الحديثة آخر الامر فى تدمير البيئة بسرعة والى حد كان يصعب تصور حدوثه منذ سنوات قليلة فقط . وهذا خليق بأن يجعلنا نعطى نصيبا اكبر من الاهتمام للدور الذى لعبته التكنولوجيا الحديثة فى خلق الازمة الايكولوجية التى نعانى منها الآن ، والتى تتمثل فى اختلال التوازن الدقيق بين عناصر البيئة وتخلخل ذلك التكامل الذى اشرنا اليه .

(٤)

ولسنا نقصد بالتكنولوجيا هنا مجرد الاشياء المادية أو الادوات التى نستخدمها فى حياتنا اليومية لانجاز الاعمال الصعبة أو لزيادة الانتاج ، وانما المقصود هنا كل ما من شأنه أن يساعد على مد سيطرة الانسان على البيئة الطبيعية ، وبذلك يمكن ان ندخل ليس فقط الآلات والاجهزة التى نستعين بها فى العمل والانتقال وانجاز الاعمال المنزلية وقضاء وقت الراحة والترفيه فحسب ، بل وأيضا جميع العوامل التى تساعد فى اتمام هذه الأنشطة ، مثل الطرق والمطارات والسدود والخزانات ومحطات توليد القوى وما الى ذلك ، وهي كلها تشغل حيزا كبيرا من البيئة الطبيعية وتؤثر فيها . والواقع أن كل ما تفعله التكنولوجيا بهذا المعنى يمكن تلخيصه فى استخراج المواد الخام من البيئة واستخدامها بالاستعانة بأحد اشكال او صور الطاقة ، ثم رد هذه المواد بعد ذلك الى البيئة مرة اخرى ، ولكن بعد ان تكون قد اتخذت شكلا جديدا تماما . (١٠) ومع ان بعض هذه المواد الخام تستخدم فى صورتها الطبيعية مثل الخشب والحجارة والطين ، الا أن الغالبية العظمى تخضع لكثير من التغييرات والعمليات الطويلة المعقدة التى تفقدها خصائصها الأولى . ولقد كان الانسان المبكر يكتفى فى الأغلب باستخدام المواد الخام كما يجدها ، ولم يكن ذلك يتطلب منه سوى بذل قدر ضئيل من الطاقة هي تلك التى يستمدها من قواه العضلية وحدها . ولقد تمكن بذلك ، وعن طريق استخدام هذه المواد الخام فى صورتها الطبيعية الأولية فى صنع أسلحته وأوانيه الفخارية وما اليها ، ان يصمد امام الطبيعة القاسية ويقاومها . ولقد زودت هذه الأدوات الانسان خلال كل مراحل تاريخه وتطوره بميزات كثيرة لم تكن متاحة لبقية الكائنات الحية الأخرى التى دخل الانسان معها فى صراع طويل وعنيف . ولقد تطورت قوى الانسان وازدادت خلال تلك القرون الطويلة كما اصبحت الادوات والآلات التى يستخدمها اكثر تعقيدا وتقدما ، كما اصبح الانسان يستعين بمواد اخرى كيماوية أو يقوم بعمليات فيزيائية معقدة لتنقية هذه المواد الخام الطبيعية او تحويلها الى مواد اخرى يستخدمها فى حياته العملية كما هو الحال فى صنع الصلب من خام الحديد بعد ان ينقيه من كل الشوائب ، ثم استخدام الصلب بعد ذلك فى صنع كثير من الأدوات . وهذا يصدق على أشياء اخرى كثيرة . وحين يضيق الانسان بهذه الادوات والمصنوعات فانه (لا يلقى بها بعيدا) فى حقيقة الأمر ، أو (ينبذها) تماما ، وانما تعود هذه الادوات والمصنوعات الى البيئة لتصبح جزءا منها مرة أخرى . فالحديد حين يصدأ يعود الى الارض ، والبلاستيك حين يستغنى عنه الانسان ويلقيه فانه اما ان يدفن فى الارض أو أنه يحرق لكى يتحول الى حرارة وغازات تتصاعد فى الهواء ، وهكذا . والمادة قد تتحول الى طاقة كما هو الحال حين يحرق الوقود ولا تلبث أن تمتصها (البيئة) بشكل ما . فكأن البيئة تسترد فى آخر الأمر وبشكل ما كل ما نأخذه منها مثلما تسترد نا نحن ايضا ، على ما يقول هاملتون (صفحة ٢٠) .

---

(١٠) David Hamilton, **Technology, Man and the Environment**, Faber, London 1973, p. 18.

والمهم هو أن التكنولوجيا تساعد الانسان على البقاء والصمود في صراعه الابدى مع الطبيعة. فلكى يتمكن الانسان من الحصول على الطعام والدفء والمأوى (أو المأكل والملبس والمسكن) فانه يتعين عليه أن (يرتب) بيئته بما يتفق مع أهدافه وحاجاته ومتطلباته وبذلك يدخل فى صراع وتعارض مع البيئة ومع الطبيعة التى تعمل على هدم ما قام بترتيبه واعداده وصنعه، بل والقضاء عليه تماما . ولقد خسر الانسان كثيرا خلال هذا الصراع الطويل ، وان كان التقدم التكنولوجى الحديث والآلات والادوات المعقدة قد أعطته ــ كما قلنا ــ مزيدا من القوة التى لم يكن يتمتع بها من قبل . ويبدو ان هذه القوة قد بلغت درجة عالية من الخطورة على البيئة كلها . وصحيح أن البيئة الطبيعية كانت معرضة دائما لكثير من التغيرات التلقائية منذ وجد الكون ، ولكن الانسان أضاف الى هذه التغيرات بتدخله فى سير الطبيعة ، كما ان الذى يهم هنا هو سرعة وحجم هذه التغيرات التى أحدثها الانسان وبخاصة تلك التى لا يمكن الرجوع عنها أو علاجها . وليس من شك فى انه كلما تطورت التكنولوجيا وتعقدت وتقدمت زادت هذه التغيرات عمقا وخطورة . وربما كان أخطر هذه التغيرات هي تلك التى تطرأ على الهواء نتيجة لتلوثه ، وعلى الماء نتيجة لاغراق نفايات المصانع فى البحر (١١) . والاخطر من ذلك هو ان موارد المواد الخام لا يمكن أن تظل الى الابد ، بل أن بعضها بدأ يعانى بالفعل من النقص الشديد نتيجة لمغالاة الانسان فى استخراجها من باطن الارض ، وهناك من العلماء من يقدر أن كثيرا من هذه الموارد سوف تنضب تماما حوالى عام ٢٠٠٠ مما يعنى ان المجتمع الانسانى سوف يجد نفسه فى مأزق شديد نتيجة لهذه الأزمة الايكولوجية المتوقعة .

ولكن اذا كانت التكنولوجيا تحتاج بالضرورة الى توفر الطاقة فان النتائج المترتبة على استخدام الطاقة أصبحت تثير كثيرا من القلق ، وهو الامر الذى لم يكن الانسان يتوقعه فى بداية الثورة الصناعية او حتى فى بداية برنامج استخدام القوى النووية . ويجد الانسان نفسه انه فى موقف صعب لا يكاد يجد لنفسه مخرجا منه ، على الاقل فى الوقت الحالى . ذلك أن الاستمرار فى احراق الوقود لتوفير الطاقة اللازمة وبنفس الطريقة التى نتبعها الآن يؤدى الى مزيد من ذلك التلوث الخطير بالاضافة الى استنزاف موارد الوقود ذاتها بسرعة ، كما ان هناك من العلماء من يرون أن الحرارة المنطلقة من حرق هذه الكميات الهائلة من الوقود قد تؤدى الى ارتفاع درجة حرارة الارض بشكل غير متوقع ، كما قد يؤدى الى حدوث اضطرابات شديدة فى المناخ ذاته . واذا

---

(١١) من اهم ما يشغل بال كثير من العلماء الان مشكلة الحصول على اشكال من الطاقة لا ينجم عنها الا تلوث البيئة. فكل اشكال الطاقة المعروفة الان تؤدى الى التلوث ولكن بدرجات مختلفة ، وربما كان الفحم اكثرها سوءا في هذا الصدد . وربما كان اهم مصادر الطاقة التى لا يتولد عنها تلوث البيئة هي الشمس التي تعتبر المصدر الاصلى لمعظم اشكال الطاقة الموجودة فى الارض كما انها هى الطاقة الاساسية التى تحفظ الحياة بكل صورها واشكالها . والملاحظ هو ان استهلاك الطاقة يزداد باطراد نتيجة لزيادة السكان وارتفاع مستوى المعيشة وتعقد التكنولوجيا واعتماد الحياة اليومية عليها اعتمادا متزايدا . وتبلغ معدلات الزيادة السنوية فى استخدام الطاقة الاولية ٥ ٪ بالنسبة للفحم والبترول والغاز عن السنة السابقة عليها بينما ترتفع هذه المعدلات بنسبة ٨ ٪ في استهلاك الكهرباء . ومن المشكوك فيه ان هذه الزيادة يمكن ان تستمر بغير توقف .

حدد الانسان من الناحية الاخرى استخدامه للوقود لكي يحافظ على مصادر الطاقة ويقلل من درجة التلوث فسوف يعجز عن تحقيق التقدم التكنولوجي الذي يبدو انه اصبح سمة من سمات العصر الحديث والمجتمع المعاصر ، وهذا سوف يؤدي بالضرورة الى انخفاض مستوى المعيشة انخفاضا شديدا عما هو عليه الآن . وليس هناك من يستطيع ان يتنبأ بمصير المجتمع ان حدث ذلك أو حتى يجرؤ على مجرد التفكير فيه ، أو ان يتصور المستويات الدنيا التي سوف تنزلق اليها الحضارة الحديثة التي بدات بالثورة الصناعية ، أو التغيرات الهائلة التي سوف تطرا على حياة الناس . فهل يهجر الناس مثلا المناطق الشمالية الباردة في العالم الى المناطق الاستوائية والمدارية الاكثر دفئا ؟ وهل تتفكك المجتمعات الحضرية والصناعية وتختفى المدن الكبرى بعد أن تتوقف الصناعة وتتحول التجمعات البشرية الهائلة التي ترتبط بهذا التنظيم الحضري الصناعي الحديث الى مجموعات بشرية صغيرة ومتناثرة كما كان عليه حال المجتمع خلال الفترة الاطول من تاريخه ؟ وهذه كلها ليست مجرد تخيلات او افتراضات لا تستند الى دليل وانما هي احتمالات يمكن ان تتحقق اذا زال الاساس التكنولوجي الذي تقوم عليه كل حياتنا المعاصرة . الا اننا نجد في الوقت نفسه ان الدول الصناعية المتقدمة تنفق الآن على البحث العلمي الذي يهدف الى تحقيق مزيد من التقدم التكنولوجي مبالغ هائلة لا يمكن ان تقارن بها تلك المبالغ الضئيلة نسبيا التي تخصص للبحث في المجالات التي تتصل بالحاجات الاساسية للانسان ، مثل العلوم الاجتماعية ومشكلات التخطيط وافضل الطرق لاستخدام الارض وتطوير الزراعة وانتاج الطعام . وهذه التفرقة الواضحة في الاهتمامات وفي الانفاق تعني ضمنا ان الجنس البشري اكثر اهتماما بما قد يودي به وبالمجتمع والعالم كله بدلا من ان يعطي المزيد من العناية بما قد يساعد على بقاء الحياة واستمرارها . ولكن الظاهر أن هناك من العلماء من يحاولون اعادة النظر في الموقف ، او على الاقل تنبيه الاذهان الى ما ينطوي عليه من اخطار (١٢)، خاصة وان الاوضاع في كثير من انحاء العالم

---

(١٢) ينظر كثير من الكتاب الى الامر نظرة ملؤها التشاؤم وبخاصة فيما يتعلق بمستقبل العلاقة بين الانسان والبيئة وتفاقم الازمة الايكولوجية . ففي فقره طويلة بعنوان « الانسان عدو نفسه " Man his onw enemy " يقول ديفيد هاملتون ـ الذي كان حتى وقت قريب رئيس تحرير مجلة New Scientist ـ في كتابه الذي سبقت الاشارة اليه ، ان الانسان لن يستطيع ان ينقذ نفسه من نفسه حتى ولو افلح في التخلص من الاثار السيئة التي تنجم من التكنولوجيا . ذلك أن الانسان في رأيه سوف يظل ينجب ويتزايد في العدد مما سيؤدي بالجنس البشري الى الفناء من الجوع ، او انه قد يضطر الى ان يحشر كل هذا العدد المتزايد باطراد في بيئة الارض المحدودة مما سيؤدي بهم الى الصراع والاقتتال من اجل البقاء وهذا سيؤدي بهم في آخر الامر الى النتيجة ذاتها . ولقد كان منطق الطبيعة دائما أن تقوم بتحديد عدد اى جنس من الاجناس تبعا لمساحة الارض المتاحة وكمية الطعام المتوفرة ، وان زيادة في العدد كان مصيرها دائما الفناء بسبب نقص الطعام او التنافس الطبيعي او نتيجة لتدخل احدى قوى البيئة الاخرى ، ومع ان الانسان يعرف ذلك تماما الا انه يتزايد بطريقة ستؤدي الى استنزاف كثير من الموارد الطبيعية في القريب ، ولكنه بفضل تقدمه التكنولوجي استطاع ان يغير البيئة وان يحفر في الارض الى اعماق بعيدة جدا بحثا عن مزيد من الموارد ولكن هذا كله لا يعني شيئا سوى تأجيل النهاية المحتومة لبعض الوقت فقط . وسوف يدهمه خطر نفاذ الطعام في وقت قريب . بل

←

تستدعى ضرورة الاسراع الى اتخاذالاجـراءات بحفظ حياة الانسان وحياة المجتمع وحياة البيئة على السواء . وقد يكفى أن نذكر هنا انه مع بداية القرن الحادى والعشرين سوف يعيش ثلاثة مـن كل اربعة أشخاص مـن سكان العالم فى تجمعات سكنية كبرى (المدن) ، وسيكون الجـزء الاكبر من هذه المدن عبارة عن مناطـق سكنية متخلفة Slum areas يقيم فيها المهاجرون ــ والنازحون من القرى والأرياف ، وبذلك يضعون أعباء جديدة وثقيلة على البيئة الحضرية . وفى الوقت الحاضر مثلا نجد أن ثلاثة أرباع السكان فى مدينة كبرى مثل كلكتا يعيشون فى اكواخ واكشاك تنقصها كل اسباب الراحـة الاساسيـة او الاوليـة (المياه والمجارى ، وحين تهب الرياح الموسمية بما تجلبه مـن أمطار غزيـرة وترتفـع المياه فى الشـوارع والطرقات يجـد الناس انفسهم مضطريـن حين يريدون الانتقال من مكان لآخـر الى خوض هذه المياه التى تطفو عليها فضلاتهم وفضلات بهائمهم وكل أنواع البقايا والنفايات والقاذورات . وليس حال المناطـق السكنية المتخلفة فى مـدن الشرق الاوسط افضل حالا من هذا . وليس من شك فى ان اى محاولة لتغيير هذه الاوضاع التى ينجم عنها تلـوث البيئة الحضرية سـوف تؤدى الى ادخال تغييرات جوهرية جديدة فى هـذه البيئة ذاتها .

ومهما يكن الأمر ، فهناك عدد من المبادىء التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار دائما حين تدرس الانساق الايكولوجيـة وما تتعـرض له البيئـة الطبيعية من تغيرات على يد الانسان فى محاولته تسخير هذه البيئة لصالحه ، أو حين تحاول ان تفهم طبيعة المأزق الذى وضع الانسان نفسه فيه كما وضع البيئة ذاتها فيه .

ولعل **أول مبدأ** من هذه المبادىء هو تعقد العلاقات بين الانسان والبيئة وتشابكها الى أبعد الحدود . ويزيد من هـذا التعقد تعرض هـذه العلاقات دائما للتغيير والتعديل والتحوير نتيجة للتقدم الثقافى والتكنولوجى الذى يحرزه المجتمع . فليس مـن شـك فى أن مثـل هـذا التقـدم التكنولوجى بالذات يساعد مساعدة فعالة واكيدة على تحكم الانسان فى البيئة الطبيعية بعد أن يكون

→

ان الجنس البشرى يعانى الآن فعلا من نقص الطعام ، وسوف يعانى قريبا من النقـص فى اشياء اخرى مثـل الماء الصالح للشرب والمسكن بل والارض التى يمكنه ان يسكنها ففى الوقت الحالى يشغل كل خمسة عشر شخصا فى المتوسط كيلو مترا مربعا واحدا من سطح الارض ، يرتفع العدد بعد جيل واحد الى أكثر من ثلاثين شخصا لكل كيلو متر مربع . ولقد اوقف التقدم فى مجال الطب عمل الطبيعة التى كانـت تقضى على افراد الجنس البشرى غير الصالحين ــ كالمرضى والعجزة ــ فاطال الطب الحديث حياتهم لكى يزحموا الارض ويزاحموا الآخرين ويسهموا فى استنزاف الموارد الطبيعية وبالتالى فى تفاقم الازمة الايكولوجية .

والمعروف على اى حال ان سكان الارض يتضاعفون كل ثلاثين سنة تقريبا بحيث يتوقع ان يصـل عددهم الى سبعة آلاف مليون نسمة عام ٢٠٠٠ ، وان معظم الزيادة ستكون فى الدول المتخلفة التى هى اقل قدرة على استيعاب اعداد كبيرة من الناس . والظاهر انه لن يكون امام الجنس البشرى الا ان يختار بين العمل على ضبط النسل بكل الطرق بما فيها اباحة الاجهاض (كما يقول) او يمـوت جوعا (صفحات ٢٧٤ ــ ٢٧٩) .

خاضعا لها . وخليق يمثل هذا التحكم ان يؤدى الى تغيرات جوهرية فى البناء الاجتماعى الكلى وليس فى البيئة الطبيعية وحدها (انظر كتابنا عن الانساق ، صفحة ٨٥) .

والمبدأ الثانى ، وهو امتداد للمبدأ الاول ، يقوم على اعتبار كل التغييرات التى يحدثها الانسان فى كوكب الأرض الذى يعيش عليه هى ظواهر ايكولوجية لا يمكن فهمها فهما صحيحا الا فى ضوء العلاقة الثلاثية القوية التى تقوم بين الانسان والمجتمع والبيئة ، او « المجتمع الانسانى زائدا عليه البيئة » كما اصطلح كثير من العلماء على تسمية هذه العلاقة . ومع التسليم بقوة العلاقات بين تلك الاطراف الثلاثة التى تؤلف النسق الايكولوجى فان أثر البيئة الفيزيقية يكون أوضح في المجتمعات البسيطة والاقل تطورا منه فى المجتمعات الراقية المتقدمة ، نظرا لاعتماد الناس فى الفئة الأولى من المجتمعات بشكل مباشر وبطريقة واضحة على ما تقدمه البيئة لهم من امكانيات يفيدون منها فى صورتها الاولية . فالتأخر التكنولوجى يقف عقبة فى وجه الجهود التى قد يبذلها الناس في هذه المجتمعات لتشكيل موارد الثروة الطبيعية وتحويرها بنفس الدرجة التى نجدها فى المجتمعات الصناعية . ومن هنا كان تغييرهم للبيئة الطبيعية محدودا نظرا لانخفاض المستوى التكنولوجى السائد عندهم .

والمبدأ الثالث هو ان ندرك دائما فى دراستنا للانساق الايكولوجية ان الانسان يوجد دائما فى الطبيعة كجزء منها ، وانه ليس (خلقا) خاصا يوجد ويعيش بعيدا ومنعزلا عن الانساق الايكولوجية بحيث يؤثر فيها من الخارج دون ان يتأثر بها او يتفاعل معها . بل ان تأثير (الانسان) على الانساق الفيزيقية انما يتم عن طريق المجتمع ومن خلاله . وليس المجتمع بعد كل شىء الا وحدة معقدة ومتكاملة لها خصائصها المميزة التى تظهر من خلال التفاعل القائم بين اعضاء ذلك المجتمع ، كما ان اى سلوك جماعى يصدر عن اعضاء المجتمع ككل يختلف فى الاغلب اختلافا جوهريا عن السلوك الذى يصدر من اى عضو من هؤلاء الاعضاء على حدة وانفراد . ومع انه يمكن عزل المجتمع (كفكرة) عن النسق الايكولوجى الطبيعى وان ندرسه فى حد ذاته بعيدا عن ذلك النسق فان ذلك يحتاج الى كثير من التجريد ، بينما الواقع يختلف عن ذلك كل الاختلاف . فليس هناك مجتمع يعيش في فراغ ، وانما لكل مجتمع اقليم خاص يرتبط به ويشغل رقعة محددة من الارض وتحيط به ظروف جغرافية وبيئية معينة تؤثر بطريق مباشر او غير مباشر فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة فيه وتطبعها بطابع مميز . وليس من شك في ان دراسة المجتمع فى ضوء النقاط السبع التى سبق ذكرها والتى حددها ريبلى Ripley وبوشنر Buechner تلقى كثيرا من الاضواء على الدور الذى يقوم به المتخصصون فى العلوم الاجتماعية والانسانية لفهم النسق العام الذى يضم الانسان والمجتمع والبيئة .

والمبدأ الرابع هو انه على الرغم من التسليم بأثر البيئة فى الحياة الاجتماعية في كل المستويات الثقافية والاجتماعية فان من الخطأ الزعم بان هذا التأثير يصل الى حد تشكيل حياة الناس كلها

وتوجيهها بطريقة معينة بالذات وفى اتجاه مرسوم بالذات ايضا . وكل ما تفعله البيئة هنا هو انها تقدم امكانيات عديدة للحياة الاجتماعية في اى مجتمع من المجتمعات ـ ايا ما تكون درجة بساطة هذا المجتمع او بداءته وتخلفه ـ بحيث يستطيع الناس ان يختاروا فى الاغلب من بين هذه الامكانيات ما يتفق مع ثقافتهم وتنظيمهم الاجتماعى . وليس ادل على ذلك من اننا نجد كثيرا من طرائق الحياة المختلفة فى البيئات المتماثلة من ناحية ، كما نجد مثل هذا الاختلاف فى اساليب العيش في البيئة الواحدة ، ولكن في الاوقات والفصول المختلفة من الناحية الثانية ، دون ان يكون هناك ضغط شامل من البيئة لتقليل هذه الاختلافات او محوها . ففى معظم المجتمعات الافريقية مثلا يوجد كثير من أنماط الحياة جنبا الى جنب بحيث يمارس الاهالى الجمع والالتقاط الذى يعتبر فى نظر كثير من العلماء أول مرحلة من مراحل الحياة الاقتصادية واكثرها تأخرا ، كما يمارسون فى الوقت ذاته الزراعة بل وايضا استخراج المعادن والصناعة في بعض الاحيان . كذلك نجد فى المجتمع الواحد ان الاوروبيين المستوطنين يمارسون أنواعا من النشاط التى تختلف اختلافا تاما عن تلك التى يقوم بها الافريقيون ، على الرغم من أنهم يعيشون معهم في نفس المجتمع ويخضعون لمؤثرات طبيعية وبيئية واحدة . وهذا كله معناه أننا يجب الا نأخذ البيئة الطبيعية او الظروف الايكولوجية على انها عامل مسبب Causal Factor بقدر ما نعتبرها مجموعة من الظروف او الشروط الشاملة التى تتلازم على قيام نمط معين من انماط الحياة الاجتماعية . (راجع كتاب : الانساق ، المرجع السابق ذكره ، صفحتى ٨٥ ، ٨٦) .

والمبدأ الخامس والأخير ، هو انه ضرورة التعرف على تأثير العوامل البيئية على التنظيم الاجتماعى ، وبالتالى على البناء الاجتماعى الكلى ، وعملية التكيف التى تحدث طيلة الوقت فى المجتمع سواء اتخذت هذه العملية شكل الاكتفاء باستغلال ما تقدمه البيئة من ثروة ، أو شكل التحكم فى الظروف البيئية والجغرافية والسيطرة عليها واكتشاف مصادر وموارد الثروة الدفينة وتشكيلها فى صور وأشكال جديدة ، فلا بد للعلم من ان يعطى جانبا كبيرا من الاهتمام الى الآثار السيئة التى يخلفها تحكم الانسان في هذه الظروف والاوضاع البيئية . اذ ليس يكفى ان تنظر الى علاقة الانسان بالبيئة بما يحققه الانسان عن طريق ذلك التحكم من تقدم للمجتمع والحضارة ، وانما لا بد من ان تكشف عن الجوانب السلبية لهذه العلاقة ولهذا التقدم ، وهى الجوانب التى تتمثل فى تلوث البيئة واستنزاف مواردها الطبيعية وما يترتب على ذلك من مرض او متاعب ومشكلات اقتصادية قد يعانى منها المجتمع في المستقبل ان لم يكن يعانى منها أو من بعضها الآن بالفعل . ودراسة هذه الجوانب السلبية هى التى تكشف لنا عن أزمة البيئة والأبعاد التى وصلت اليها ، كما قد تحفز المشتغلين بالتخطيط ـ فى مختلف فروعه ـ بالعمل على تلافى استفحال هذه الازمة او استحكامها بشكل يهدد حياة الانسان فوق هذه الارض .

اهم المراجـع

— Avril, R.; **Man and Environment**, Penguin, 1967.

— Buchanan, R.A.; **Technology and Social Progress**, Pergramon, Oxford 1966.

— Carson, Rachel, **Silent Spring**, Penguin, 1965.

— Drucker, P.F.; **The Age of Discontinuity**, Heineman, London, 196969.

— Galbraith, J.K.; **The Affluent Society**, Pelican, London, 1970.

— Hamilton, D.; **Technology, Man and Environment**, Faber, London 1943.

— Mumford, Lewis, **The City in History**, Pelican, 1966.

— Roszak, T., **The Making of a Counter-Culture**, Faber, London, 1940.

— Shanks, M.; **The Innovators**, Penguin, 1967.

— Sterland, E. G.; **Energy into Power**, aldus Books, London, 1967.

— Wagner, R.H.; **Environment and Man**, Norton, N.Y. 1971.

— Watt, K.F.; **Ecology and Resoutcie Management**, N.Y. 1969.

وذلك بالاضافة الى المقالات العديدة القيمة التى يضمهاعدد خاص من مجلة Daedalus **(وهى المجلة التى تصدرها الاكاديمية الامريكية للفنون والعلوم عن** America's Changing Environment **خريف عام ١٩٦٧ .**



محمود احمد الشربيني

الإنسان بين العلم والبيئة

الجو مليء بالاشعاعات تأتينا من عل ،وكأن السماء تفرغ علينا ابدا اشعاعات من يوم بدء الخليقة ولكنا لا نأبه لها ولا نتتبع أثرها ، ولعل اثرها حتم فى تطور البشرية .

ومن يدرى ، ربما كانت الجرعة من الاشعاعات التي تأخذها اجسامنا يوميا تؤثر علينا فى نسلنا ، وهى تؤثر على آلات القياس فى معاملنا فتدق فى كل دقيقة جملة دقات .

ولحكمة الهية قل تصادمها مع أجسامنا .يحدث التصادم بين الحين والحين ، وتخطئنا الاشعاعات وتصيب الجو المحيط ، فتجعل بعضا من الهواء مشعا ، ويصبح على وجه التحديد بعض أزوت الجو كربونا مشعا ، وهذا الكربون المشع جزء مما نأكل ومما نشرب ومما نستنشق ، ويمكن معرفة مقداره فى اجسامنا ، وما اكثر الكربون فى اجسامنا . ولكن نسبة المشع منه الى غير المشع نسبة ضئيلة ثابتة مدى الحياة ،ويعزى ثبات نسبتها الى تعويضنا ما نفقده منها ما دمنا نأكل ونشرب وفينا نفس يتردد ، ولكن بعد الموت نعجز عن تعويض ما يفقد فيخمد مع الزمن وتقل نسبته ...

فكأن كل جسم حي فى الوجود يحمل معهساعة دقاقة تدق دائما دون ان يتحرك عقرباها ، ولكنهما يبدآن فى التحرك ساعة الوفاة . ويدلمقدار النقص فى عدد الدقات على مضى الوقت بعد مفارقة الحياة ، واذا اقتلعت شجرة مـنأرضها فقد فارقت الحياة ، واذا انتزعت زهرة من غصنها فقد فارقت الحياة ، وهناك اكثر منسؤال يجول بالخاطر ارجئها جميعا حتى نتعرف على الاشعاعات التى تغمر الجو المحيط .

الاشعة الكونية :

يأتى الينا وابل من الاشعاعـات الذريـةبطاقات عالية وسرعات تقارب سرعة الضوء ، يأتى الينا من كل فج عميق . لا يحابى اتجاها دوناتجاه ، فجميع الاتجاهات عنـده سـواء ، ولا يستريح أبدا فهو دائم التدفق فى كل زمان وعلىكل مكان ، ولا يتأثر باختلاف الليل والنهار أو الصيف والشتاء .

يقيس سكان الكرة الارضية جميعا ، وهماشتات ، رؤوسنصفهم تتجه الى شمال ورؤوس النصف الباقى تتجه الى جنـوب ، واقدامهـمجميعا تتجه الى مركز الكرة الارضية يقيسون ويتفقون على سرعاتهذه الاشعاعات وطاقاتهـاوكل مالها من آثار كما وكيفا ، ويطلقـون عليهـا اسم الاشعة الكونية .

والرأى السائد انها تأتى الينا من أعماقالكون من بين السدم والمجرات ، ثم تصل الى الجو المحيط تزيح ما يعترض سبيلها . وفى عمليةالازاحة تكون هناك ضحايا فتظهـر اشـعاعـات ثانوية ، هذا او جاز ان نسمى الاشعاعات قبلالتصادم مع ذرات الجـو المحيط بالاشـعاعات الابتدائية ـ وربما يصل الينا من وقت لآخر بعضمن الاشعاعات الابتدائية ، ولكن يصل الينـا فى الواقع كثير من الاشعاعات الثانوية .

وقد اجمع العلماء على ان الاشعاعات الابتدائية هى ذرات السحب السالبة التي تفلف نواة كل ذرة ؛ فهى ذرات كاملة التأين ، والذرة بفيرالكتروناتها نواة ، والنواة موجبة التكهرب .

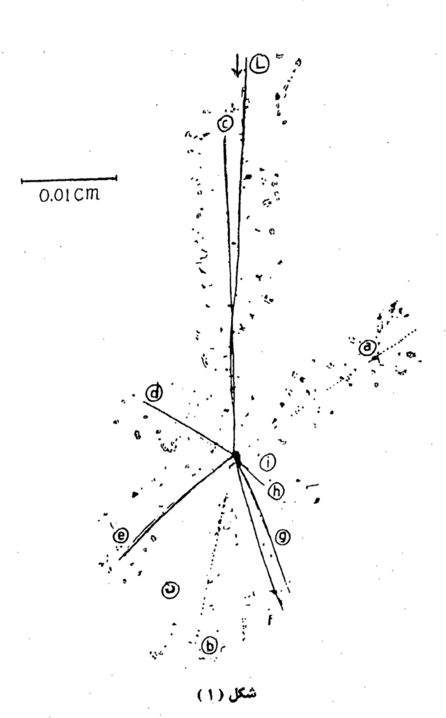
وأجمعوا على انها نوى الايدروجين والهليوم، ونوى ذرات اخرى خفيفة وثقيلة ، ولعل اثقلها نوى الحديد ؛ أجمعوا على ذلك ، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم عند تعيين نسب كل من هذه المكونات، وان كان الاجماع على ان النصيب الاكبر لنـوىالايدروجين ، أو ما يسمى البروتونات ، فقـد اختلفوا ؛ وقال فريق ان تسـعين فى المائة مـنالمكونات هى البروتونات ، وقال فريق آخر انها اقل من هذا . ولكن لم يقل أحد ابدا انها اقلمن سبعين فى المائة من المكونات . واجمعوا ايضا على احتلال الهليوم المكان الثانى بعد الايدروجين، فتراوحت نسبة نوى الهليـوم أو مـا يسـمى بجسيمات الفا بين تسعة وعشرين فى المائة وتسعةفىالمائة ، اما الثقيل من النوى ككل فهو أقل من واحد فى المائة .

كشفنا عن هذه الاشعاعات بطرق بدائية ،ثم تقدم بنا العلم ، فاستحدثنا طرقا متطورة ، اذكر منها المستحلباتالفوتوغرافية لبحثمكوناتالاشعة . اذا اخترق جسيم مشحون مستحلبا

فوتوغرافيا نرىأثر مسار الجسيم بعد التحميض والتثبيت ، اذ نجد خطا من النقاط السوداء تشى بمسار الجسيم فى المستحلب ، حيث يمكن فحص هذا الخط بمجهر اى ميكروسكوب. واستحدثت مستحلبات لهذا الفرض متراكمة وغير متراكمة ،ولكنها تظهر لنا المسارات والتفاعلات النووية داخل المستحلب (شكل ١) .

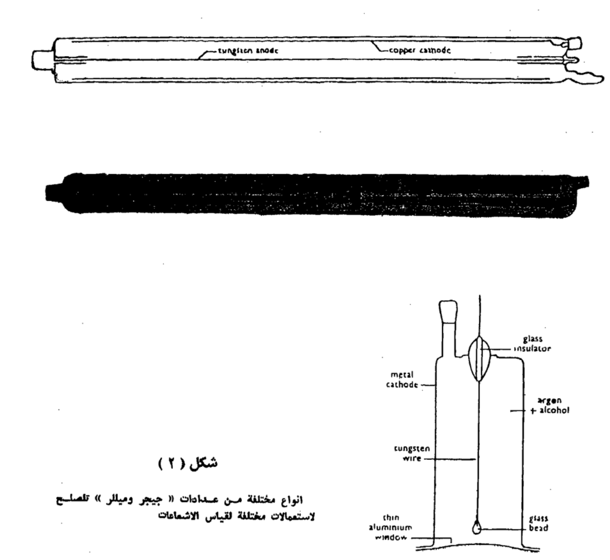
استحدثت طرق كثيرة قصد الكشف ، وقدبحثت خصائص الجسيمات المشحونة ، وتنفرد كل طريقة بخاصية واحدة يصطدم الجسيم الذرى المشحون بذرات متعادلة لغاز ما ، فتتأين ذرات الغاز ، اعنى ينفصل من الذرة الكترون فتصبح أيونا ، وهذا بدوره يؤين ذرة اخرى ، وهكذا يحدث تفريغ كهربائي ، وهذه خاصية تستخدم فى الكشف والقياس . والجهاز هو اسطوانة معدنية من النحاس ، ولكل اسطوانه قاعدتان ، ومادة القاعدة فى حالتنا ليست نحاسا ولكنها مادة عازلة لا تسمح بالاتصال الكهربائي بين جسم الاسطوانة النحاسى وسلك من التنجستن مشدود على امتداد محور الاسطوانة ينفذ من القاعدة . تسمى الاسطوانة المقفلة بسلكها وغازها وضغطه عشر ضغط جوى ،تسمى « عداد جيجر وميللر » وعندما يعمل العداد يكون السلك موجب التكهرب بالنسبة للاسطوانة ، ويوصل العداد بصمامات مختلفة لتسجيل عدد النبضات الناتجة عن دخول الجسيمات الذرية فى العداد ، ولكل جسيم عند دخوله نبضة (شكل ٢) يستخدم أيضا فى الكشف خاصية أخرى ، حيث لا يسمح الجو الرطب بتكوين ضباب عندما يخلو الجو من جزيئات يتكاثف عليها الضباب ، ولكن اذا مر جسيم ذرى مشحون فى هذا الجو المهيأ لتكوين ضباب تكاثف الضباب على الجسيم بفضل شحنته رغم صغر حجمه ، فنرى خطا من الضباب المتكاثف يحدد مسار الجسيم . بل نرى مسارات الجسيمات المتفاعلة مع الجسم الساقط نراها رؤية العين . واذا اردنا تسجيلها أخذنا صورا فوتوغرافية (شكل ٣ ا ، ب) والجهاز الذى يستخدم هذه الخاصية يسمى « غرفة ولسن السحابية » وهو عبارة عن اسطوانة زجاجية قاعدتها السفلى قابلة للحركة ، تتحرك فجأة لاستحداث جو مهيأ لتكوين ضباب ، وفى داخل الاسطوانة بخار يحوى مخلوطا بهواء أو بغاز الارجون ، فاذا حركنا القاعدة الى اسفل فجأة كبر حجم المخلوط وانخفضت درجة حرارته ، وبقليل من المران يمكن التحكم فى سرعة الحركة حتى تؤدى الغرفة وظيفتها ، ونرى المسارات المختلفة للجسيمات الذرية . وتختلف كثافة مسار عن مسار تبعا لاختلاف سرعة الجسيم وشحنته ، ويمكن وضع الغرفة فى مجال مغنطيسى لينحرف الجسيم وبذلك نتعرف عليه وعلى بعض من خصائصه .

بحثت الاشعاعات الثانوية ووجد أنها عبارة عن بروتونات ونيوترونات والكترونات وبوزوترونات ، وهى الالكترونات الموجبة ،وفوتونات وهي جسيمات ضوئية ، وميزونات اغلبها جسيمات وسط اثقل من الالكترون واخف من البروتون ، واشعة جاما ، كل هذا نتاج تصادم الاشعاعات الابتدائية بما فى الجو المحيط من ذرات وجزيئات ، ويتفاعل النتاج أيضا بما فى الجو المحيط ، وتحول النيوترونات التى تصطدم بالازوت فى الجو تحوله الى كربون مشع والذي سبق ان تحدثنا عنه .



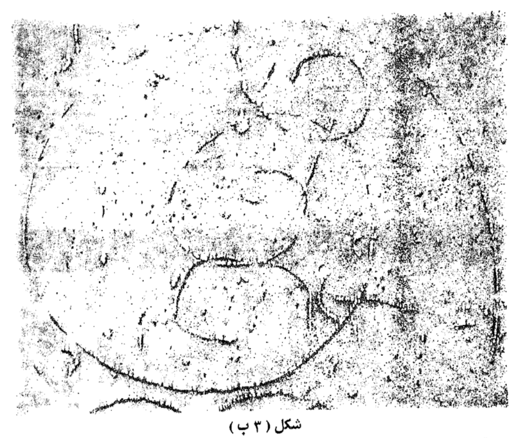
شكل (١)

صورة ما ظهر على مستحلب بعد تعرضه للاشعاعات الذرية الخط a ، b مسار ميزونات باى ، والخط c مسار بروتون .



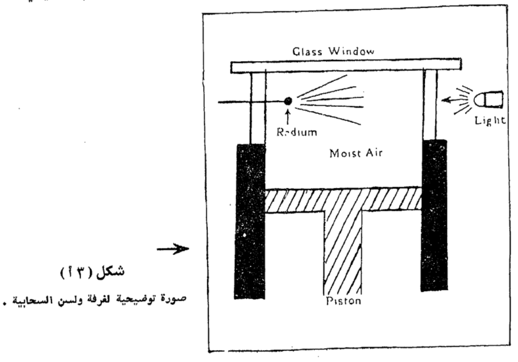
شكل (٢)

انواع مختلفة من عدادات « جيجر وميللر » تلصلح لاستعمالات مختلفة لقياس الاشعاعات



شكل (٣ ب)

صورة فوتوغرافية لمسـارات الالكترونات في غرفـة مثيلـةلغرفة ولسن والغرفة موضوعة فى مجال مغنطيسي .



شكل (٣ أ)

صورة توضيحية لغرفة ولسن السحابية .

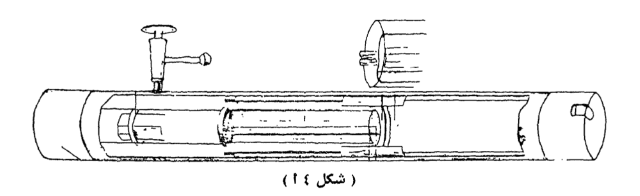
التاريخ والكربون المشع :

لسنا فى حاجة الى تبيان اهميــة معرفــةطريقة لتاريخ الآثار القديمة لمن يحاول دراســة الانسان وبيئته فى عصور ما قبل التاريخ . ولعلأقدم طريقة لجأ اليها العلماء هــى البحــث عــن الصخور التى بها يورانيوم ، واليورانيوم مــادةمشعة تشع وتتحلل حتى تخمد وتصبح رصاصا خامدا ، وتؤدى معرفة نسبة الرصاص الخامــدالى اليورانيوم فى جزء من الصخور الى تعيين عمر الصخور.وتستخدم هذه الطريقة لتحديد الاعمارالتى تربو على مائة الف سنة ، امــا بخصــوص الاعمار التى تقل عــن هــذه الفتــرة فيحســناستخدام نسبة الكربون المشع الى الكربون غــير المشع ، واعود فأقول ان جميع المواد الحية بهاكميات ضئيلة من الكربون المشع (كربون ١٤) . وان هذه الكمية المشعة من الكربون ، والكميةغير المشعة منه تحافظان على نسبة ثابتة بينهما ، وذلك فى الاجسام الحية ، ويتولد هذا الكربونالمشع من تصادم يقع فى الطبقات العليا من الجو المحيط بين نيوترونات الاشعة الكونية والازوتفى الجــو .

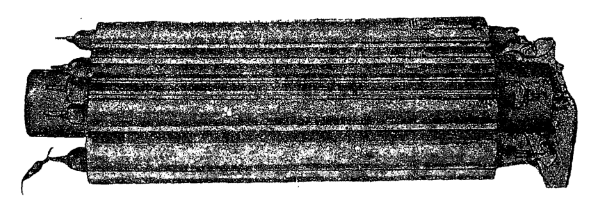
لا يختلف كربون ١٤ من الوجهة الكيميائيةعن الكربون العادى ، فاذا امكننــا استخــلاص الكربون الموجود فى مادة حية كالنبات مثلا نجدانه يشع اشعاعا ضئيلا نتيجة لوجــود كميــات ضئيلة من كربون ١٤ مخلوطة به ، ونسبة هذهالكمية دائما نسبة ثابتة فى جميع المواد الحية . وتخمد نصف كمية الكربون المشع فى ٥٦٠٠ عاموتسمى هذه الاعوام بعمــر النصف ، وتحتــاج البقيةالباقية الى ٥٦٠٠ عام أخرىليخمد نصفها،اى نصف المتبقى ، وهكذا يكون التاريخ من بدء مفارقة الحياة ، اذ تبدأ عملية استنزاف للكربونالمشع دون تعويض ، اذ أن الحياة قد توقفت ، واصبح الجسم يعطى ولا يأخذ ، وتبدأ نســبةالكربون المشع الى الكربون العادى تتضاءل ولا تحافظ على ثباتها . واذا وصلت النسبة الــىنصف قيمتها الاصلية وقت الحياة فمعنى ذلك ان الحياة قد توقفت منذ ٥٦٠٠ عام مضت .

ان النسبة الثابتة أو نسبة الحياة ان جازهذا التعبير ، تجعل آلات القياس تدق ١٥ دقة فى الدقيقة لكل جرام من الكربون ، ومعنى هذاان ١٥ ذرة مشعة تخمد نهائيا كل دقيقة فى جرام واحد من الكربون .

واذا أرجعت هذه الطريقة عمر اثر من الآثارالقديمةالى ٤٠,٠٠٠ عام فانا نقولان آلة القياس تدق ١٥ دقة كل مائة دقيقة . لذا كانت عمليةالقياس دقيقة جدا وتحتاج الى عناية وحرص شديدين ، والبعد عما يشوب التجربة وعما ينأىبها عن الطريق الصحيح . لذا نرى العداد الذى يحوى العينة المطلوب بحثهــا يحاط بــدرع مــنعدادات متلامسة مع بعضها (شكل ٤ أ ، ب) وتوضعكلها فى صندوق من الصلب سمك جدرانه٢٠ سم ، ويصبح الصندوق درعا آخــر يمنــع اختراق الاشعة الكونية ، فيما عدا النوع النفاذ ،وهو الميزونات او المركبــة القاســية ، ويمكــن حساب اثرها باستبعاد جميع الدقــات التــىيسجلها عداد العينة عندما تتفق الدقة مع دقة عداد من العدادات المحيطة ، ومعنى تزامن العدأن المتسبب فى العد جاء من خارج عداد العينة وليس من العينة ذاتها ، وقد استبعدت فى احدىالتجارب ٥٠٠ دقة ، واستبقيت خمس دقات فى الدقيقة ، لذا رؤى أن يستمر العد لعدة ساعاتحتى تكون النتيجة مطمئنة .



(شكل ٤ أ)



(شكل ٤ ب)

(أ) عداد يستعمل لقياس عينة بها كربون مشع .

(ب) العدادات المتلامسة التي تحوط العداد الـذي يحوى عينة مراد قياس الكربون المشع بها .

واستخدمت هذه الطريقة لمعرفة التغيرات المناخية والجيولوجية والبشرية فى العشرين الف سنة الماضية ، ومن الطريف أن التاريخ اثبت بواسطة الكربون المشع ان بدء الحياة الانسانية فى امريكا الشمالية معاصر لبدئها فى انجلترا والدانمارك ، وذلك حوالى عشرة آلاف عام مضت وهذا يدل على ان هذه المناطق كانت مغمورة بالثلوج ، وان نهاية عصر الثلوج منذ عشرة آلاف عام مضت ، اذ أن الانسان أقدم من هذا التاريخ بكثير ، ولكن عصر الجليد قد محا اى اثر للانسان من قبل ، بدليل انه عثر على بقايا فحم فى أحد الكهوف في فرنسا وبحث مابه من كربون مشع ، وانتهى الى أن الانسان كان موجودا فى تلك المنطقة قبل عصر الجليد الاخير بنحو خمسة آلاف سنة ، وكذلك ثبت ان الانسان قد ظهر حول حوض البحر الابيض المتوسط قبل عصر الجليد بكثير .

نخرج من كل هذا أنك تنزع شجرة فتدق الساعة ويموت الحيوان ، فتدق الساعة وتقف دقات قلب الانسان ، فتبدأ الساعة فى الدق ، هذه هي ساعة تدق بعد الوفاة تصاحبك وتصاحبني وتصاحب كل حي من نبات وحيوان وتبدأ حيث تنتهي الحياة . لو وجدت جثة محنطة سمعت دقات الساعة التي تحملها وتعلم منها متى مات صاحب هذه الجثة . ولو عثرت على حفريات لشجرة ، وانصت الى دقات الساعة التي تحملها قطعة منها لعلمت متى قطعت الشجرة التي فيها القطعة ، ولكنك تعجز عن معرفة كم من السنين عاشت حية .

ولكن السؤال المتبادر الى الذهن لو أعدنا هذه التجارب هل نصل الى هذه النتائج وقد حدثت تفجيرات نووية وامتلأ الجو بالاشعاعات ؟ كثر تشغيل الافران الذرية او ما يسمى بالمفاعلات النووية مما نتج عنه أحزمة مشعة حول الارض لم يسبر غور أثرها حتى الآن ، ومهما كانت هذه الاحزمة موقوتة يحسن التحدث عن مسببات زيادة الاشعاعات فى الجو ، اي تلوث الجو بالاشعاعات وهي من مسببات تغير البيئة .

حزام الاشعة :

اطلقت الاقمار الصناعية وبداخلها آلات قياس منها عدادات « جيجر وميللر » ودقت العدادات بما يدل على أن الاشعة الكونية قد عطلت عملها ، ولكن لو تتبعنا مسيرة القمر الامريكي (المستكشف ١) وهو يدور فى مدار حول الارض وكان أبعد ارتفاع اليه هو ٢٥٥٥ كم وأقرب ارتفاع من الارض هو ٣٥٢ كم لاحظنا أمرا غريبا اثناء دوران القمر بين الارتفاعين المذكورين ، وعلى وجه التحديد عندما جاوز الارتفاع ٧٠٠ كم ، اذ صمتت العدادات وتوقفت عن العد ، وعندما عاد القمر مرة اخرى الى مسافة ٧٠٠ كم انخفاضا عملت العدادات وبدات العد .

ذهب **فان ألن** الى أن الصمت ناتج عن اختناق ، فقد اختنقت العدادات لانها مرت فى منطقة اشعة مكثفة تعجز العدادات عن متابعة مرور الذرات بها فتختنق عجزا عن المتابعة ، ولكنها تعود سيرتها فى العد عندما تتعدى هذه المنطقة انخفاضا ، لذا صمم « فان ألن » عدادات

خاصة تصلح لهذه الاشعة المكثفة ويمكنها المتابعة ومسايرتها عدا ثم وضعها فى القمر الصناعي « الرائد III » بمساره الاهليجي ، حيث كان أكبر ارتفاع له عن الارض ١٠٧٠٠٠ كم . لوحظ ان القمر اخترق ذهابا وايابا منطقتين حول الارض بهما اشعاعات مكثفة ، وتمتد المنطقة البعيدة عنا مسافة تقدر بعدد من الاطوال ، والطول هنا هو نصف قطر الكرة الارضية . واخيرا حقق صحة هذا الامر ما أرسل من اقمار روسية وامريكية فيما بعد . عند ذلك سميت المنطقتان **بحزامي فان الن** .

وقد وجد ان الحزام الداخلي والحزام الخارجي مكونان من جسيمات ، اغلبها موجبة من البروتونات ، وبطاقات عالية للحزام الخارجي ، وبطاقات اقل للحزام الداخلي . قلت اغلبها بروتونات اذ ان القلة من الالكترونات السالبة . وينسب بقاء وجود الحزامين الى المغنطيسية الارضية . وهناك خطورة من وجود هذين الحزامين على رواد الفضاء ، لذا تختار مسارات الاقمار لتتفادى المرور بهما حتى لا يتعرض الرواد لهذه الاخطار الاشعاعية ، وقد أحدثت التفجيرات النووية أحزمة اشعاعية ، وكان سمك الحزام ٤٠ كم ، وبقي بعضها لبضعة ايام وبقي البعض الآخر لعدة أسابيع .

وعلى كل فقد ثبت نظريا ان المغنطيسية الارضية هي السجان المسئول عن وجود الجسيمات المشحونة فى حزامي « فان الن » .

التفجيرات النووية :

القنبلة التقليدية هي قنبلة كيميائية مليئة بالكيماويات المتفجرة التي هي جزئيات ذراتها قلقة غير مستقرة ، وتزداد قلقة وعدم استقرار لو هزتها الحرارة العالية ، حتى انها لا تلبث أن تعيد ترتيب نفسها وتتخذ نظاما ما بتشكيلات جديدة مثيرة زوبعة من الحرارة خلفها ، وتمتد هذه الحرارة الى جزيئات أخرى تزيد ذراتها زعزعة لتستقر فى وضع غير وضعها ، محدثة زوبعة من الحرارة اكبر . وهكذا يزحف التفاعل زحفا سريعا خاطفا حتى يأتي على المادة باجمعها ، فتصبح قطعة من غاز ملتهب يستعر حرارة فيزداد ضغطه وينتشر متمددا . وناقوس الخطر هو شرارة كهربائية من فتيل أو قدح زناد يشعل مادة سريعة الاستجابة ثم يتسلسل التفاعل .

اما القنبلة الذرية فهي قنبلة محطمة تحطم الذرة ولا ترتبها كسابقتها ، وان قلت الذرة ، فانا اقصد نواة اليورانيوم المتوسط على وجه التحديد ، اذ بلغت من التعقيد مبلغا جعلها غير مستقرة ، بل على استعداد اذا تصاعدت معها قذيفة غير مكهربة « نيوترون » ان تنشطر الى شطرين يطير كل شطر بقوة كبيرة ، ومن غريب الامر توالد القذائف غير المكهربة اثناء الانشطار ، وكأني بها تخرج من صلبها ما يزيدها اشتعالا فيزداد الانشطار ويزداد التوالد . واذا بها كرة غازية من السعير حرارة وضغطا ، وتعمل حرقا وهدما وتدميرا . وهذا السعير نشأ من الوميض الناتج عن تحطيم نوى كبير الى نوى صغير .

ولكن كيف تنشطر النواة ؟ والنـواة علىما نعلم كرية الشكل أو هي الكرة أقرب منها الى هيئة أخرى متماسكة ، بها قوى تجاذب وقوىتنافر ، وتربو قوى التجاذب على قـوى التنافر حتى لا تتناثر .

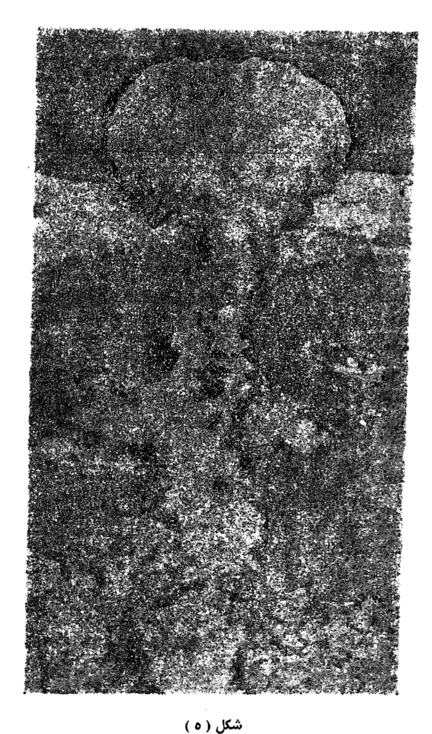
ولو كان فى النية ان نجبر النواة لتنشطروجب ان نجعلها تسطيل ، وان يدق منتصفها حتى تصبح اشبه بكرتين فى طرفي عاتق . وفىهذه الحالة تكون قوىالتنافر قدر قوىالتجاذب، وتكاد تكون هذه النواة غير مستقرة او هـي فىاسـتقرار حرج فى انتظار الضغط الـذى يقصم ظهرها . فاذا هيجت النواة ضعفتقوى التجاذبوفعلت قوى التنافر فعلها وتطايرت النواة الى شقين يكادان يكونان متساويين .

وقد كفتنا الطبيعة مؤونة البحث عن طريقةلاستطالة النواة ، اذ وجدت نواة مستطيلة فعلا هي اشبه بكرتين فى طرفي عاتق . وهذه النواةهي نواة اليورانيوم ، بل ان شئت دقة فهو نظير من نظائر اليورانيوم ، ولليورانيوم نظائر مختلفة ،والنواة التي نقصدها هي النواة التي يبلغ وزنها الذري ٢٣٥ ويعز هذا النوع عن زملائـه مـنالنظائر ، اذ يندر وجوده ندرة كبيرة . واذا اردنا ان نخرجه عن استقراره الحرج وجب ان نهيجهبقدر ، وهذا المقدار هو اقل درجة يمكن ان تهيج بها النواة ، اذ النواة تهيج فى درجات . وقد وجدان من خصائص خلط بعض من مادة اليورانيوم مع بعض من مادة البيريليوم أن يبعث من المخلوطنيوترونات يمسك البطىء منها بنوى اليوارنيوم ٢٣٥ فتهتاج بالمقدار الصحيـح ، وتخرج عـناتزانها ، فاذا بها شقان مشعان ينطلقان بطاقة حركة كبيرة .

وقد بحث الشقان ووجد فى بعض الاحايينان احدهما باريوم والآخر كريبتون،وهما مشعان تنطلق منهما اشعة جاما واشعة بيتا ، وتنطلـقايضا اثناء الانشطار نيوترونات ، وبذلك يضاعف البطىء منها الاثر ثم يتضاعف مرة أخرى بهـذاالتضاعف ،وهذه العملية عملية متسلسلة ، ومثل المخلوط (الراديوم والبيريليوم) مثل عود الثقاببدأ واشعل وللنار ان ترعى وتغـذي بعضهـا ، وكلما ازدادات سريانا ازدادت اشتعالا ، والقنبلةالذرية ، كما وصفها تقرير الحكومة البريطانيـة يوم ان القيت على هيروشيما : كرة مـن النارقطرها أكثر من مائة متر ، يخرج منهـا وميض خاطف من الضوء وسعير من الحرارة وقطـعمتناثرة فىجميع الجهات من المواد المشعة،ويتبعها امواج من لفحات هوائية ودوي أصوات .

يصل الضوء والحرارة الى أرض الهدف ،ومن بعد تصل فى بضع ثوان لفحات الهواء ودوي الاصوات ثم المواد المشعة الناتجة عـن مخلفاتالمواد الانشطارية فى القنبلة .

تفقد الكرة بريقها سريعا وترتفع فى الهواءالغازات الساخنة الناتجة عن الانفجار فى شكل عمود متعدد الالوان أولا ، ثم يأخذ لونهفىالبياض،ويرتفع العمود فى هيئة دوامـة مـن الغـازات والجسيمات ، يرتفع عدة آلاف من الامتـار ،واثناء ارتفاعه ينتشر كأنه مظلة مفتوحة أو زهرة تقف على ساقها ، وفى أسفل العمود عند الارضسحب متكاثفة من الدخان والغبار (شكل ٥) .



شكل (٥)

عمود من الغازات والجسيمات يرتفع على هيئة مظلةمفتوحة .ارتفاع العمود حوالى ٢٠ كم فى الجو.أخذت الصورة للعمود عندما سقطت القنبلة الذرية علـى الميناء اليابانـيوالمركز الصناعى المسمى ناجازاكى .

نعود ونسأل عن أثر الانفجار في اطواره المختلفة فنجد ان تقرير الحكومة البريطانية يخبرنا ان الحرارة تسري بسرعة الضوء ، أعني بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية ، وتبلغ حرارة الاجسام التي تحت الكرة النارية مباشرة عدة آلاف من الدرجات المئوية ، ولتقدير ذلك يقول ان الانسان يحس الحرارة على بعد سبعة كيلو مترات ، وتستمر الحرارة مدة ثانية من الزمان أو ثانيتين ، لذلك تحدث الحرائق وتبدا بالمواد القابلة للاشتعال ، ولقد حدثت حرائق على بعد ثلاثة كيلو مترات من مركز التخريب ، ويبدا الحريق بالابواب والنوافذ حيث تدخل اللفحة الحرارية وتحرق الخشب الجاف والاوراق والملابس السوداء ، وقد رؤي الاسمنت المسلح على بعد كيلو متر ونصف وقد احمر لونه ، وانابيب غاز قد انفجرت ، واسلاك كهربائية وقد انصهرت ، واصيب بحروق شديدة كل من كان في العراء وفي دائرة قطرها كيلو متر ونصف واصيب بحروق اقل شدة كل من كان على بعد اربعة كيلو مترات ، ويقل الخطر عند التواجد في مأوى حصين مع ارتداء ملابس غير قاتمة اللون وفضفاضة .

وليت الامر اقتصر على الحرائق بل هناك المواد المشعة ، اذ تهب عند الانفجار رياح محملة بجسيمات نفاذة هي النيوترونات ومعها أشعة جاما ومعها المواد الانشطارية التي هي مادة القنبلة ذاتها .

وتنبعث اشعة جاما بسرعة الضوء وتستطار في الجو وتنتشر في جميع الجهات فور الانفجار ، او في الثواني الأولى منه ، وتقل شدتها مع الزمن ، وذلك بارتفاع عمود الجسيمات والغازات نحو السماء ، وينعدم خطر اشعة جاما بعد دقيقة من الزمان ، وكانت في الثواني الاولى شديدة الخطورة على كل من كان في منطقة مركزها مكان الانفجار وقطرها كيلو متر ونصف أو اكثر ، ولا يقلل من خطورتها انها لا تكسب الاجسام والمباني التي تخترقها خاصية الاشعاع ، فقد لقى جميع من في المنطقة التي قطرها ثلاثة ارباع الكيلو متر حتفهم ، اذ كان من نصيبهم جرعة مميتة من اشعة جاما .

ومن لم يمت باشعة جاما مات بالنيوترونات . والنيوترونات اشعاعات نفاذة خطيرة يبدأ خطرها وقت الانفجار ، فهي جسيمات صغيرة تنبعث من المواد الانشطارية المحدثة للانفجار ، وتتحرك بسرعة في جميع الجهات وسرعتها اقل من سرعة الضوء ، وهي اقل اثرا على الاجسام من اشعة جاما ، ورغم قلة اثرها فهي أكثر خطورة ، اذ تجعل الاجسام عند الاصطدام بها مشعة اشعاعات اصطناعية ، فخطرها مؤجل غير ناجز يأتي الانسان من مأمنه . وأخطر من كل هذا المواد الانشطارية فهي تملأ مساحة كبيرة من الارض ، وتساعد على انتشارها الاحوال الجوية ، اذ تحمل مع العمود وتوزع على مساحات كبيرة بفضل الامطار الساقطة ، وتصبح مساحة كبيرة ملوثة ومصدر خطر ينبعث منها أشعة جاما ، وتحرم على الاحياء حتى ينقضي عمرها الاشعاعي ، أو بعبارة أدق أعمارها الاشعاعية ، فالعمر وعمر النصف يختلفان باختلاف المواد . ولكثرة المواد المختلفة كان من الصعب التنبؤ بموعد زوال الخطر والسماح للارض بأن تعمر ، ويزيد الامر خطورة ان الاشعاعات لا تشم ولاترى ولا تحس الا بآلات خاصة وعدادات معينة ، وكثيرا ما ينسب الاختلال الوظيفي لاجزاء الجسم الى غير مسبباته الحقيقية .

واخيرا ليس المجال مجال التحدث عن لفحة الهواء الناتجة عن القنبلة الذرية ، ولكني اقول ان هناك اجماعا من جميع العلماء والمختصين على وجوب تحريم تجارب التفجيرات النووية للآثار الضارة الناتجة عن الغبار الذري ، سواء في مكان الانفجار او في الاماكن المجاورة أو في نطاق خط عرض الانفجار ، وما يتبع ذلك من زيادة كمية الاشعاعات في جو الكرة الارضية جميعها مما يزيد في مقدار الجرعة التي اعتاد الكائن الحي ان يتجرعها في حياته الدنيا . لا اريد ان اذكر تفاصيل علمية عن تأثير الاشعاعات ذات الكمية فوق المعتادة على الكائن الحي . فهي تقلل من مقاومته للامراض ، وتجعله هدفا لمختلف انواع السرطان ، سرطان الدم وسرطان العظام . بل تؤثر في النسل والحرث ، فتقصر العمر وتسرع بالشيخوخة ، وتتلف الاعصاب ، ويورث الآباء الابناء والاحفاد الشذوذ والجنون .

وظني ان العلماء قد بدأوا يفزعون من خطر الاشعاعات اذ رايناهم ينقصون الى النصف مقدار اكبر جرعة مسموح بأخذها دون حذر على الاجسام . وكان ذلك في المؤتمر السادس للعلماء الراديولوجي سنة ١٩٥٠ اذ انقصت الجرعة الى نصف ما كان متفقا عليه عام ١٩٢٥ . كل هذه الظواهر ادلة على خطر زيادة الاشعاعات في الجو المحيط .

وكما أن القنبلة الذرية رمز الفناء فهي أحيانا رمز البناء ، فقد استخدمت في شق القنوات وانشاء الطرق وغيرها ، وكأننا جعلنا من الهلاك نفعا ومن النار زرعا ، بل جعلنا القنابل الذرية مستأنسة نحرك بها فرنا ذريا أو ما يسمى بالمفاعل النووي للاستعمالات السلمية ، من استحداث كهرباء الى تحلية ماء الى ري ارض لا يصلها الماء ، الى غير ذلك من امور نحتاجها في بناء المدنية والحضارة .

المفاعل النووي :

المفاعلات النووية او الافران الذرية عبارة عن تكويم لقوالب من الجرافيت كما هو حاصل فعلا عند بناء هرم من اللبنات (قمينة الطوب) لطبخها لتأخذ خواص الفخار (طوب أحمر) .

ترص قوالب فوق بعضها في طبقات ، ولكنه في حالتنا ترصع طبقة من قوالب الجرانيت بصناديق من الالومنيوم ملأى باليورانيوم ، والصندوق على هيئة اسطوانة او على هيئة قرص توضع في شكل هندسي ، وعلى أبعاد متساوية من بعضها ، وتسمى هذه الطبقة بالطبقة الحية ، وبين طبقة حية واخرى طبقات من قوالب الجرافيت غير المرصع ، فهي طبقات خالية من اليورانيوم ، أعني طبقات غير حية ، واليورانيوم في جملته يأخذ شكلا هندسيا مجسما يوافق ما يقرره البحاث النظريون . واليورانيوم هو المادة الحية او الوقود الذي بانشطاره يعمل الفرق ، والجرافيت هو المهدىء ، وهو الذي يقلل من سرعة النيوترونات حتى تصبح سرعتها قدر سرعة جزيئات الغاز في درجة الحرارة العادية وربما يكون المهدىء غير الجرافيت ، فيكون الماء الثقيل ، وهنا يوضع اليورانيوم على هيئة قضبان مغطاة بالالومنيوم وتغمس في الماء الثقيل . ويمتاز الماء الثقيل بانه يهدىء النيوترونات بعد ٢٥ خبطة مع نواة

الايدروجين الثقيل ، فى حين ان الجرافيت يهدىءبعد ١١٤ خبطة مع نواة الكربون ، فضلا عن ان قدرة الماء الثقيل على امتصاص النيوترونات أقل بكثير من قدرة الكربون ، وعليـه نحتاج الى حجم اقل فى حالة الماء الثقيل عنه فى حالة الجرافيت . ويسـمى الفـرن فى هاتين الحالتين فرنا غـير متجانس ، لان الوقود والمهدىء يحافظ كل على كيانه ، اي لكل كيان مستقل ، واحيانا نجعل الوقود والمهدىء فى امتزاج تام ، بمعنى ان يكون الوقود ملحا من أملاح اليورانيوم غنيا فى النظير ٢٣٥ فيكون الملح على هيئة كبريتات او ازوتات مذابة فى ماء عادي ، والماء هنا هو المهدىء ، ولا يصلح الماء العادي مهدئا لو استعملنا اليورانيوم الطبيعي غير الغني بالنظير ٢٣٥ ، ويسمى الفرن فى حالة ملح اليورانيوم المذاب بالفرن المتجانس . واذا نشط الفرن يمكن اخماده بادخـال قضبان تمتص النيوترونات بشراهـة كالكـادميـوم اوالبورون ، بل يمكن التحكم فى التفاعل بادخـال اطوال مختلفة من القضبان ، لذا سميت القضبان بالقضبان الحاكمة . ان الاخماد بواسطة القضبان فى حالة الفرن الجرافيتي اسرع منه فى حالة فرن الماء الثقيل ، اذ عند اخماد فرن الماء الثقيـل يستمر نتاج الانشطار فى ارسال اشعة جاما التي تولد نيوترونات من الماء الثقيل ، وهـذا يؤخر الوصول الى الاخماد التام .

ولا يصح ان نسمح بتسرب النيوترونات الا بقدر ، لذا وجب أن نبحث العلاقة بين السطح والحجم ، فالتوالـد يكون فى الحجـم والتسرب يكون من السطح ، ونبحث ايضا تغليف الفـرن بغلاف عاكس . اليورانيوم هو الوقـود الـذرى وقود مركز يشغل حيزا صغيرا وينتج من الحرارة الشىء الكثير . تخرج من الوقود الحرارة بعـد الاشتعال ، ويشعل الفحم والبترول بالكبريت او بشرارة كهربائيـة ، وعود الكبريت للوقـود الذرى هو النيوترون أحد مكونات المادة . فالنواة مكونة من بروتونات بشحنات موجبة ونيوترونات بغير شحنات ، وهذه النيوتـرونات موجـودة فى الجو المحيط ، ولا يتعدى عمرها عشرين دقيقة ويمكـن تحضير فيض منهـا ، كمـا سـبق أن ذكرنا ، وذلك بخلط الراديوم بمادة البريليوم . وهذه النيوترونات سريعة يمكن ان تهدىء مـن سرعتها بالماء او الجرافيت ، لان النيوترون البطىء هو الكبريـت لليورانيـوم ٢٣٥ ، واذا التصـق نيوترون بطىء باليورانيوم ٢٣٥ اهتاج اليورانيوم وانقسم على نفسه وتناثر ، كما سبق ان شرحنا عند الحديث عن القنبلة الذرية ، ولكن القضبان الحاكمة تجعلنا نتحكم فى التفاعل ونسيطر عليه .

ومن رحمة الله ان بسط المادة وعقدها . فمنها البسيط ومنها المعقد ، وأودع العالم الحياة والحركة ، فالبسيط يستريح اذا تعقد ، والمعقد يحاول ان يتحرر الى ابسـط ، فالايدروجـين بسيط لا مانع ان يتعقد ، واليورانيوم معقـد لا مانع ان يتحرر ، وهذا فى تعقده وذاك فى تحرره يعملان عملا ويحدثان طاقة ، وهـى ما نسـميها بالطاقة الذرية .

فالطاقة الذرية تظهر عندما تحاول نـواة الذرة ان تأخذ مكانا وسطا بين الثقيل والخفيف ، وتظهر الطاقة الذرية حرارة واشعاعا فتستخدم الحرارة وتمنع الاشعاع ، وسأصف مفاعلا بالماء

الثقيل انشىء قصد الابحاث العلمية ، وتخبزالمواد فيه لتخرج مواد مشعة اصطناعيا ، ثم أصف مفاعلا بالماء العادى انشىء قصد توليد الكهرباء لاستخدامها صناعيا .

فرن ذرى بمائه الثقيل :

يمتاز الفرن التجريبى الذى رأيته بوجود ٢٥٠ عمود من اليورانيوم تبلغ زنتها ٢ر٢ طنا ، وقطر العمود ٢ر٢ سم وطوله ٦ر١ مترا ، والعمود مغلف بغلاف من الالمنيوم سمكه ملليمتر واحد ، وبحركة بسيطة لمفتاح مثبت فى لوحة التوزيع تأخذ الاعمدة شكلا هندسيا معينا ، ويتغير الشكل بتغير بسيط لحركة المفتاح . وبلغت الدقة درجة جعلت التحكم فى مواضع الاعمدة تاما ، فالزحزحة تصل الى ١٠ر٠ مم .

تغمس الاعمدة فى الماء الثقيل البالغ قدره ٥ر٤م٣ والماء فى وعاء من الالمنيوم مقفل ومزدوج الجدران ، ويفرغ ما بينهما ويعلو الماء الثقيل فى الاناء غاز الهليوم تحت ضغط ١ر١ جو .

وهناك قناة تنفذ فى الاناء من قمته وتتجه الى قاعه قطرها ١٠ سم وتسمى قناة التجريب حيث توضع المواد لتخبز اى لِتَشَعْشُعْ وتصبح مادة مشعة ، واقرب عمود يبعد ٦ سم من الحافة الجانبية لهذه القناة ، ولكن بحركة بسيطة لمفتاح معين مثبت فى لوحة التوزيع ، يمكن تحريك أى عمود دون الاخلال باوضاع الاعمدة الاخرى .

وهناك أربعة قضبان حاكمة ، وهي مادة البورون وقضيبا أمان من الكادميوم ، قطر كل منهما ٣ سم وطول كل منها ٥ر١ متر ، يتحركان تلقائيا ، لو زاد الاشعاع الى درجة يخشى عندها حدوث انفجار . اما قضيب التجريب الحرارى ، وهو الذى يعترض النيوترونات السريعة ويجعلها تأخذ طريقا وتتركه فى النهاية مسلوبة الطاقة لا تملك منها غير ما يملكه الغاز فى درجات الحرارة العادية ، فطوله الخارج من الفرن متران ونصف ويسمح عند نهايته الخارجية بفيض من النيوترونات مقداره عشرة آلاف نيوترون ، وقدكان الفيض فى بدايته او فى الفرن بليون ، أى مليون مليون نيوترون .

اكبر درجة حرارة للماء الثقيل ٧٠°م ، كما ان مقدار ما يفقد منه فى ٢٤ ساعة من التشغيل ٨سم٣ ، ودرجة حرارة اليورانيوم في المنتصف هى ١٤٠° م ، كما أن قدرة الفرن ٥٠٠ كيلوواط ، ويحاط الفرن بمتر من الجرافيت كعاكس ، ويوضع أعلاه طبقة من الكوبلت الرصاصى والبرافين الرصاصي .

وفى دائرة الفرن اربع مضخات . المضخة الأولى لتفريغ الهواء بين جدارى الاناء المزدوج . والمضخة الثانية لارجاع الهيليوم مرة أخرى الى الوعاء ، اذ ان الهيليوم يمر فى دائرة مقفلة تبدأ من الفرن الى غرفة حيث يمر الهيليوم مع ما تحلل من الماء الثقيل ، اعني مع غاز الاكسجين والايدروجين الثقيل فوق لوح من البلاديوم ليتحد الاكسجين والايدروجين الثقيل مرة ثانية ليصبحا ماء ثقيلا ، ويعود الماء مع الهيليوم الى الفرن مرة ثانية . اما المضخة الثالثة فهي لسحب الماء الثقيل

من الفرن بغية تبريده ثم ارجاعه الى الفرن مرةثانية فى دائرة مقفلة ، ويبرد بامراره على متبادل حرارى ينقل حرارته الى دائرة اخرى بها مـاءبارد متحرك فى دائرة اخـرى بواسطـة المضخـة الاخيرة والدائرة الاخيرة غير مقفلة اذ يقذف ماؤهاالى غير عودة وتسحب هذه المضخة ٢٥٠ م ٣ من الماء فى الساعة (شكل ٦)

يستخدم هـذا المفاعل للبحث والتجريبلمعرفة اثر الاشعاعات على الموادولاستحداث نظائر مشعة للعلاج الطبي ، ولشئون الصناعة .

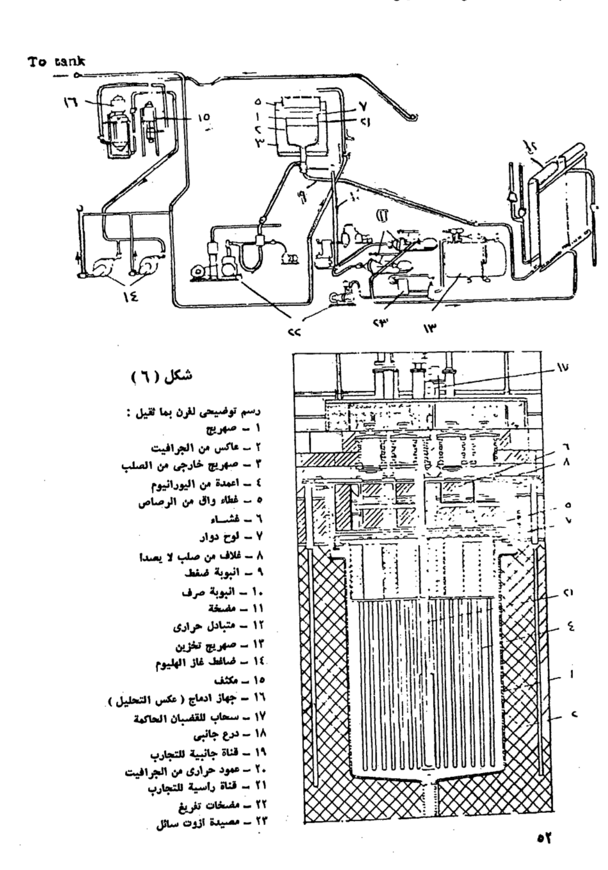
محطة الكهرباء الذرية :

يتلخص عمل هذه المحطة الذرية فى توليـدحرارة نتيجة للانشطار المتسلل لقوى اليورانيوم. وتستخدم هذه الحرارة لتحويل المـاء بخـارا ،ويعمل البخار فى ادارة تربين يحرك بدوره آلات توليد الكهرباء ، والفرق بين المحطة الذرية والمحطةالتقليدية التي تستخدم الفحم وقودا هو طريقة توليد الحرارة ، اذ تولد فى حالتنا مـن الوقـودالذرى . لذا نرى المحطة من ثلاثة اقسـام : القسم الاول هو الفرن الذرى لتوليد الحرارة ، والقسمالثاني هو المتبادل الحرارى حيث يتكون البخـار المضغوط. اما القسم الاخير فهو التوربينالتقليدىالذى يحرك آلات توليد الكهرباء .

سأكتفـي بوصف الفـرن الـذرى ، اذ انالمتبادل الحرارى والتربين لايختلفان عن مثيليهما فى المحطات التقليدية .

الفرن الذرى :

انابيب مصنوعة من اليورانيوم مغلفة مـنالداخل والخارج بمعدنالصلب الذى لا يصدأ . يدخل الماء من اعلى الـى جوف الانابيب ، حيثيخرج من اسفلها ليغمرها من الخارج من اسفل الى اعلى ليملأ الوعاء الخارجي لانابيب اليورانيوموعددها ١٣٠ انبوبة . وهذا الوعـاء مـن الصلب الذى لا يصدأ ، وارتفاعه ٥ر٦ م محاط بمتر منالماء يليه ثلاثة امتار من الخرسانة المسلحة ، وكل انبوبة يورانيوم عبارة عن اقراص مثقوبة عنـدمنتصفها من اليورانيوم الفني بالنظر ٢٣٥ بنسبة ٥ ٪ وتوضع الاقراص فوق بعضها لتكون انبوبةاشبه بالانبوبة الشعرية من اليورانيوم طولها ٥ر٢ م وقطرها الخارجي ٢ر١ سم . ويزن اليورانيومباكمله نصف طن . نسيت ان اقول ان كل انبوبة من انابيب اليورانيوم توضع داخل انبوبة مـنالجرافيت قطرها الداخلي ٦ر١ سـم وقطرهـا الخارجي ٥ر٦ سم ، ويغطى سطحهـا الخارجيبالصلب الذى لا يصدأ ، ويترك السطح الداخلي عاريا ، اى جرافيت غير مغطى ، ويدخل الماءتحتضغط ١٠٠ جو ، ويمر فى داخل الوعـاء ويغمـر الانابيب جميعها من الداخل والخارج ، ثم يخرجحيث المتبادل الحرارى ، ويصله بدرجة حرارة قدرها ٢٧٠ م ٥ ويتركه فى درجة حرارة قدرها١٩٠ م ٥ . ويأتي الماء مضغوطا من بالـون مـن الصلب على ارتفاع ٥٠ م عن الفـرن ، ويحـوىالبالون انابيب طول كـل منها ٥ر٥ م وقطرهـا الداخلي ٢٠ سم ، ويملأ الربع الاعلىللانبوبة هواءتحت ضغط ١٠٠ جو ، ويفصل الماء عـن الهواء غشاء من الصلب ، ويرشح الماء مرتين قبلوصولهالى الفرن ، ثم يمر منه الىالمتبادل الحرارىحيث يعود مرة اخرى فى دائرة مقفلة .



شكل (٦)

رسم توضيحي لفرن بما ثقيل :

١ ـ صهريج

٢ ـ عاكس من الجرافيت

٣ ـ صهريج خارجي من الصلب

٤ ـ اعمدة من اليورانيوم

٥ ـ غطاء واق من الرصاص

٦ ـ غشــاء

٧ ـ لوح دوار

٨ ـ غلاف من صلب لا يصدأ

٩ ـ انبوبة ضغط

١٠ ـ انبوبة صرف

١١ ـ مضخة

١٢ ـ متبادل حرارى

١٣ ـ صهريج تخزين

١٤ ـ ضاغط غاز الهليوم

١٥ ـ مكثف

١٦ ـ جهاز ادماج (عكس التحليل)

١٧ ـ سحاب للقضبان الحاكمة

١٨ ـ درع جانبى

١٩ ـ قناة جانبية للتجارب

٢٠ ـ عمود حرارى من الجرافيت

٢١ ـ قناة راسية للتجارب

٢٢ ـ مضخات تفريغ

٢٣ ـ مصيدة ازوت سائل

يتبخر ماء فى دائرة اخرى تحت ضغط ٥ر١٢ جو ، وذلك عند المتبادل الحرارى، بفضل الحرارة التي يحملها ماء الدائرة الاولى . وقد وجد ان البخار خلو من الاشعاعات . ويذهب البخار الى تربين من النوع التقليدى ليعمل عمله ،ثم يتكاثف ماء يسحب الى المتبادل الحرارى مرة اخرى ليعود سيرته الاولى بخارا ليبدأ دورته من جديد . وحركة الماء فى الدائرة الاولى ٣٠٠ طن كل ساعة ، وحركة البخار فى الدائرة الثانية ٤٢ طنا فى الساعة ويستعمل فى دائرة الماء مضختان تصرف كل منهما ١٥٠ طنا فى الساعة ، ويديرها الفرن ذاته ، وتعمل المضخة ثلاثة آلاف دورة فى الدقيقة .

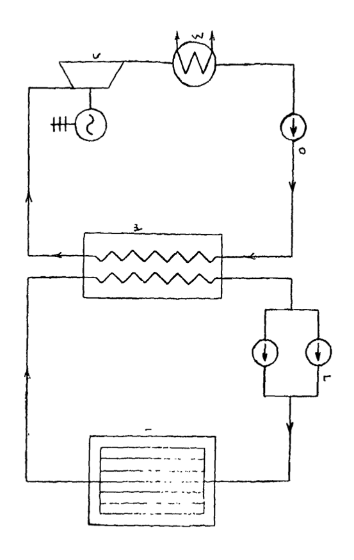
ويضبط الماء الداخل فى كل أنبوبة بمعرفة درجة حرارته عند خروجه من الفرن ، وتتساوى درجات الحرارة فى جميع الانابيب ، وتضبط كل انبوبة على حدة ومقدار ما تأخذه الانبوبة من الماء في الساعة هو ٣م٣ ، والتهوية لازمة اذ يتغير الهواء فى الحجرة وحجمها مائة متر مكعب خمسا وعشرين مرة فى الساعة ، والقضبان الحاكمة فى الفرن من كربيتيد البورون وكذلك قضيبا الأمان من نفس المادة ، ومقدار الطاقة الحرارية له ٣٠ مليون واط ، ومقدار طاقته الكهربائية خمسة ملايين واط بكفاية قدرها ١٧٪

وهكذا استحدثت الكهرباء أول ما استحدثت من الذرة (شكل ٧) .

التسمم والمخلفات :

يتلقى اليورانيوم فى الفرن الذرى ضربات كثيرة من النيوترونات التي تمرق خلال الالومنيوم الذى يغلف اليورانيوم ، وينشطر نوى اليورانيوم ٢٣٥ الى شطرين ، والنوى المتولد نتيجة التصادم هو نوى يأخذ مكانا وسطا بين العناصر ، وهو الباريوم والكريبتون والاسترونشيوم والاكزينون وغيرها . تتكون هذه العناصر فى انابيب اليورانيوم فتقل كفايتها مع التصادم حتى تعجز عن أداء رسالتها ، ويقال للانابيب انها تسممت ، لذا كان واجبا حتى لا يتعطل عمل الفرن ان تخزن مجموعة من الانابيب الاحتياطية السليمة لكي توضع مكان مجموعة مسممة جزئيا بعد بضع شهور من التشغيل ، ولا أقول لتفسل الأنابيب شبه المسمومة وتعود سيرتها الأولى ، بل اقول لتعالج كيميائيا وتفصل المواد المفسدة او ماتسمى بالمخلفات الاشعاعية ، اذ هي مواد نشطة نشاطا اشعاعيا ، اقول هذا ولا ادخل فى الاعتبار احتمال حدوث خلل مفاجيء لغلاف الالمنيوم لانبوبة او اكثر ، وبذلك يتلوث ماء الفرن بالمواد الاشعاعية ،وهنا الاشكال الاكبر فى كيفية التخلص منها ، هل نقذفها فى اعماق البحار وقد اصاب الفزع الاسبان عندما اشيع ان غواصة ذرية غرقت بجوار شواطئها ؟ ام ندفنها فى اعماق رمال الصحراء ؟ ام نبني لها حصنا سميكا من الاسمنت المسلح ؟ ... هناك حلول كثيرة ، وخوف اكبر من تلوث البيئة والجو بالاشعاعات ، وقد استأنسنا التفجيرات الذرية ، ولكن من يدرى فربما تكون وبالا علينا ... ورحم الله الاعرابي الذى استأنس ذئبا وبعد ان اطمأن اليه اكل الشاة الوحيدة التي يملكها فخاطبه قائلا « ومن انباك ان اباك ذيب » ؟

اقول هذا لابين ان الخير في استخدام الطاقة الذرية فى الاغراض السلمية ليس خيرا كله ، بل يحمل بين طياته احتمال شر يجب السهر علـى تلافيه والعمل على عدم ايقاظه ، وقانا الله ووقاك ووقي البيئة شره .



شكل (٧)

رسم توضيحي لمحطة كهربائية ذرية :

١ ـ المفاعل

٢ ـ التربين

٣ ـ المتبادل الحراري حيث يتولد البخار .

٤ ـ المكثف حيث يتحول البخار الى ماء .

٥ ـ مضخة للدائرة الثانية .

٦ ـ مضختان للدائرة الاولى .

العلم والبيئة :

لم يكن علم الانسان فى بداية وجوده علىالارض شيئا مذكورا ، وكانت خبرته بما حوله رغم ما حباه الله من عقل وتدبير لا تختلف كثيراعما يأتيه الحيوان بفريزته . ولعل أكبر دليل على مستوى التفكير الانساني فى ذلك الوقت حيرة ابنآدم وهو يحاول ان يوارى سوأة أخيه وقد امتدت يده الى اخيه ليقتله ، فلم يهتد الى مواراته حتىرأى غرابا يهيل التراب على أخيه الغراب . . .

فلا غرابة ان يحاول الانسان ان يقتات مماحوله ويعدل فى طبيعة البيئة التي ولد فيها ينزع الاشجار من الغابات ويسوى الارض . . . ولعلافلاطون هو الذى نسب المساحات الجرداء حول مدينة « اثينا » فى ذلك الوقت الى عدم درايةالانسان الاول بالزراعة . . . ولكن مع تقدم العلم تحولت الاراضي الجرداء الى اراض زراعية ،وتغيرت البيئة تغيرا كاملا ، غيرها العلم . . . . ثم جاءت الحشرات ترعى ، وأتى الجراد على الاخضرواليابس ، والديدان على شجر القطن تلتهمه ، واذا بالعلم يخرج علينا بالمبيدات الحشريةوالاشعاعات الذرية والمخصبات الكيماوية ، واكتسبت الحشرات مع الزمن مناعة وتدهورتصحة الانسان من تعامله مع المبيدات ومن تعرضه للاشعاعات ، ورغم ذلك فالانسان يتكيف بالبيئةويوائم حياته مع التغير الطارىء ، ولكن هذاالتغير يحتاج الى الوقت والعلم ، وقد طور المواصلات ،وجعل الدنيا صغيرة الحجم يطوف ارجاءها الانسان فى ساعات قليلة ، لذا كان العلم حريصاان يطور التقنية لاستحداث بيئة محلية حتى لا يشعر الانسان بالتغيرالمفاجىء ، فالحجراتالمكيفةالهواء محاولة من هذا النوع ، وانى اشعر ان البيئة التي تقاس على الانسان تتنافى والفطرة، فطرة الله التي فطر الانسان عليها . حقيقة لابد مما ليس منه بد ، فشخص يتنقل فى الفضاءالخارجي بين الكواكب والاقمار لابد ان يعد للرحلة لبوسها ليأمن الاشعاعات ومخاطرالطريق ، ورجليريد ان يغوص فى البحر لابد له ان يعد العدة ليتقى الضفوط العالية مع اتصاله بالجو المحيطليتنفس بحرية ، ولكن هذه رحلات موقوته بزمن محدد. أما الحياة ، الحياة الطبيعية ، الحياة علىكوكب الارض تحتاج الى وقفة تأمل . . ونتساءل هل يمكن لرجال الاسكيمو العيش فى الجو الحار ؟ . . . وهل يمكن لرجال المناطق الاستوائية العيش فى المناطق القطبية ؟ . . . . أعدت حجرات لتمثلهذه المناطق ، واجريت التجارب للوصول الى نتائج محددة يعتد بها ، وانتهى بعضها الى انالانسان حيوان استوائي وبيئته استوائية يحملها معه أينما ذهب . وان بقاء الاسكيمو واستمرارهمفى الحياة هو بسبب معرفتهم كيف يتجنبون البرد اكثر من كيف يصمدون له ما استطاعوا الى ذلكسبيلا ، وبان أيضا ان الاسكيمو لا يأكلون اكثر مما يأكل غيرهم . . . ولكن العمل الشاق هوالذى يتطلب كميات اكبر من الطعام . . . وبان أيضا ان الزيوت والدهون ليست اساسطعامهم ،فلو اتيح لهم طعام آخر لأكلوه ، ولكن المتحكم هو ما فى متناول اليد من طعام . . .

هناك حالات تأقلمت مع تغييرات تتناسبوالتأقلم .

ومن رحمة الله أن سوّى الانسان حسب بيئته ، اذ نلاحظ خفة وزن انسان المنطقة الاستوائية واستقامة جسمه وكثرة عرقه الذي يصل الى نصف لتر فى ساعة من الزمان ، وبذلك وقاه الله شر ضربة شمس مميته ، وجعل النسبة بين مساحة جلده الى وزنه اكبر ، فنحن نرى ان لو جئنا بقطعتين قابلتين للتشكيل وزنهما واحد وشكلنا احداهما على هيئة كرة والاخرى على هيئة أسطوانة رفيعة طويلة لوجدنا ان مساحة سطح الاسطوانة الرقيقة الطويلة اكبر فتعرضها للجو اكثر ، وفقدها للحرارة اكبر ، وتبخر العرق منها أكثر ، فكأن الرجل الاستوائي على تحمل الحرارة اقدر .

ورغم كل هذا فقد نجح العلم فى تكوين البيئة المناسبة ويعتز بها الانسان ولا يصبر عليها طويلا ، فهو دائم الصراع بين العلم والبيئة يطلب العلم فتتغير البيئة او يحاول ان يوائم بين نفسه والبيئة ويضيق بهذا وذاك ويظل فى صراع ، وسيظل فى صراع ابدى حتى يحدث الله أمرا كان مفعولا .

الانسان والعلم :

لعلى تجاوزت المعنى بقولي ان الانسان فى صراع بين العلم والبيئة فما كان العلم والبيئة على طرفى نقيض . فالعلم يبنى ، ومع البناء نفايات وغبار وعفار وبها تتلوث البيئة ونلجأ مرة اخرى الى العلم لمحاولة منع التلوث او ازالة آثاره حتى تصلح البيئة للحياة السليمة من كل ما يفسدها . فالصراع بالعلم يقدم الينا نتاجا نظيفا لاغبار عليه.

ومن قدم رأى العلم ان الطاقة لاتفنى ولاتستحدث ولكنها تتشكل باشكال مختلفة . بل تتلون كما تتلون فى أثوابها الفول . فاذا اختفت طاقة حرارة مثلا ظهرت طاقة اخرى ، ولتكن طاقة ميكانيكية ، والطاقة المختفية قدر الطاقة المستحدثة ، والفارق بينهما كالفارق بين اختفاء دينار وظهور ما يعادله من القروش . فالنقود المختفية قدر النقود المستحدثة وان اختلفتا عددا وما الاختلاف الا اختلافا شكليا ناتجا عن اختلاف الوحدات ، فلو وحدنا الوحدات لاتحدت فى الكم والعدد ايضا . وأسهل انواع الطاقة الحرارية اسهلها حدوثا . تحدث باشعال مادة قابلة للاحتراق ، وهذا التلوث نراه فى مداخن المصانع وافران الخبز ، وفى عادم السيارات وفى غيرها من امور نحتاج اليها عند استعمال الفحم ,والكوك والبترول وما أشبه . والطاقة الحرارية ايضا ابخل انواع الطاقة عند تحويلها الى طاقة اخرى .اذ تتحول الى طاقة اخرى بمقدار وعلى شروط . فالآلات الميكانيكية التي تعمل بالطاقة الحرارية لهامصدر تأخذ منه الحرارة ، ولا يتحول كل ما تأخذه الآلة من حرارة المصدر الى طاقة ميكانيكية ولكنها تحول جزءا منه وتقذف بالأجزاء الباقية الى مستودع ، ولاتعمل الآلة دائما دون شروط ،ولكنها تعمل عندما تستوفى شرطا ، وشرط عمل الآلة ان تقل درجة حرارة المستودع عن درجة حرارة المصدر ، ولا تعمل الآلة اذا تساوت درجتا الحرارة ـ درجة حرارة المصدر ودجة حرارة المستودع . لذا يستحيل على هذه الآلة بدون استعانة خارجية اعادة الحرارة المقذوفة الى المستودع اعادتها الى المصدر مرة اخرى ، ويستحيل عليها ايضا اعادة ما فقده المصدر تلوثا من دخان وحبيبات وغازات . ولكن تعاد ويزال تلوثها باستخدام آلة مضافة .

وهنا يأتى دور العلم الـذى انتج الآلـة التي افادت البيئة ريا وزرعا وحصادا ، او غزلا ونسجا ولبسا، يأتي دوره في صيانتها من العبث بالبيئة التي التي عاش لها يرعاها ويكلأها بعنايته . وخلاصة القول تظهر قيمة العلم الـذى انشـأ الآلات التي افادت فى تعمير الأرض باستحداث ادوات الحضارة التي يستخدمها ساكن هذه البيئة تظهر قيمته بأن يصبح همه المحافظة على صحة الساكن والقيام على بقاء نوعه فيعدل ويبدل ويضيف الى الآلات اجهزة لمنع تلـوث الجو الـذى يستنشق هواءه واجهزة لمنع تلوث الارض حيث يشرب ماؤهـا ويؤكل زرعها ويقتات على لحم حيوانها .

ولحكمة نحصد خيرا كثـيرا عنـد ازالـة التلوث ، اذ استخرجت بعض المعادن النادرة من الدخان الذى يخرج من المداخن فنرى قبل تنقيته لينتشر فى الجونظيفا ، وكذلك جرت عملية التنقية على عادم حافلات الطريق ليخرج ما يخرج منهـا من غير سوء لا يثير انفا ولا يؤذى صدرا .

السيارات والتلوث :

بحثت اضرار عـادم السيارات فى « لوس انجلوس » احدى مدن الولايات المتحدة الامريكية ووجد ان فى المدينة وقتذاك ٣ر٥ مليون سـيارة تستهلك فى المتوسط ٧ ملايين جالون من البنزين يوميا ، وهي عبارة عن ٢١٥٠٠ طن من البنزين ، وينتج عن الاستهلاك استهلاك هذه الكمية مـن البنزين يوميا ينتج ١٨٠٠ طن من الكاربوهيدرات غير تامة الاحتراق ، وكذلك ٥٠٠ طن من اكاسيد الازوت بالاضافة الى ٩٠٠٠ طن من أول اكسيد الكربون . تتولد هذه الكميات يوميا وتلوث جـو مدينة « لوس انجلوس » .. ولكن ما اثر كل هذا على الانسان .. اجريت أبحاث ووجد ان العـين تتأثر ، ويشكو سكان المدينة من التهابات فى العين اذا وصل تلوث الهواء من المؤكسدات ١٥ر. جزء من ميلون جزء من هواء المدينة، ويتعدى الاثر الضار الى التربة فنرى النبات وقد اصابه الذبول .

واذا عدنا مرة أخرى الى الانسان وحللنـا دمه على وجه التحديد نجد ان خمسـة فى المائـة من هوموجلوبين دم كل فرد خمل وفقد نشاطه ، وذلك عندما يصل أول اكسيد الكربون فى جـو المدينة الى ٣٠ جزءا من بليون جزء من هواء المدينة وبقي الاكسـيد فى الجو ثماني ساعات ، لـذا كان حتما واجبا ان يحاول البحاث التخلص من التلوث كلية او ازالته جزئيا الى حد لا يخشى معه الضرر وكان هذا موضع اهتمام القائمين على صناعـة السيارات ، وقد لاحظوا ان اكثر من ثلثى العادم يخرج من انبوبة العادم الخلفية يخرج نتيجة عدم كمال الاحتراق ، ويكون الاحتراق كاملا عندما تكون نسبة الوقود الى الهواء واحد الى ١٥ ، ولكـن تصمم السيارات بنسبة الوقود الى الهواء أعلى من ذلك لتصبح السيارة على الحركة اقدر ، ولكن النتيجة ان يخرج العادم غير كامل الاحتراق ، لذا رؤى لعلاج هذا الامر بقاء النسبة عالية ومنـع التلوث او تقليلة ، ان يعاد احتراق العادم قبـل خروجه الى الجو المحيط حيث الهواء الطلـق . والعادم عبارة عن غازات الازوت والاكسجين وثاني أكسيد الكربون وبخار الماء وأول اكسيد الكربون وكربوهيدرات واكسيد الازوت واكسيد الكبريت .

وهناك طـرق مختلفة استحدثت لمعالجـةالعادم . اذكر منها طريقة الاحتراق المباشر ، وذلك بوساطة شمعة اشعال وينطق شكل (٨ أ) عـن نفسه ولا يحتاج الى شرح ، والشيء بالشيء يذكر ، لذا اشير الى طريقة اخرى يستعمل فيها عامـل مساعد لتحترق الغازات غير كاملة الاحتراق فى درجة حرارة أقل منها فى الطريقة الاولى ، وذلك بجعل العادم يحترق مع وجود عامل مساعـد . ونظرة الى شكل (٨ ب) تغنينا عن الشرح .

معيار التلوث :

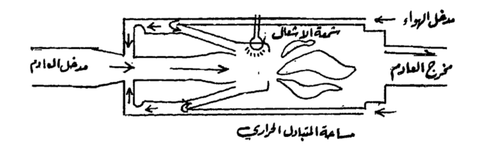
ترتاح النفس العالمة الى الدقة فى القياس ، ولن يكون قياس بغير معيار ، ولقد اطمأن البحاث الى ثلاثـة مناسيب عياريـة للتلوث : منسوب استعداد ومنسوب انذار ومنسوب اخطار . ولكل منسوب علاماته ، فعلامة منســوب الاستعـداد التهاب الحواس وحدوث ضرر للخضروات ، وعلامة منسوب الانذار حدوث تغير فى وظائف اعضاء الجسم يؤدي الى مرض مزمن ، وعلامة منسوب الاخطار هي الموت او مرض مفاجىء حاد . ولواردنا دقة فى القياس وعبرنا عن المناسيب باجزاء من مليون جزء من الهواء من الملوثات فى مدة ساعة من الزمان لسطرنا جدول (١) .

المـادة	منسوب استعداد	منسوب انذار	منسوب اخطار
أول أكسيد الكربون	ـ	١٢٠	٢٤٠
اثيلين	٥ر٠	ـ	ـ
كبريتيد الهيدروجين	١ر٠	٥	ـ
ثاني اكسيد الكبريت	١ر٠	٥	١٠
الكاربوهيدرات	١٥ر٠	ـ	ـ
ثاني اكسيد الازوت	١٥ر٠	ـ	ـ
مؤكسد	١٥ر٠	ـ	ـ
أوزون	١٥ر٠	ـ	ـ
دخان	١٥ر٠	ـ	ـ

من مليون جزء من الهواء من الملوثات في مدة ساعة من الزمان لسطرنا جدول (١) .
على ان يستمر لمدة ساعة من الزمان ، وعشر جزء لو كان التلوث من غاز كبريتيد الهيدروجـين ، ومنسوب الاستعداد فى حالة الكاربوهيدرات هو عشر جزء ونصف العشر . وقد حرصنا ان لا نرصد رقما فى الجدول (١) حيث لا اتفاق بين البحاث على رقم بعينه لذا جـاء الجدول ادرد كأسنـان العجوز .

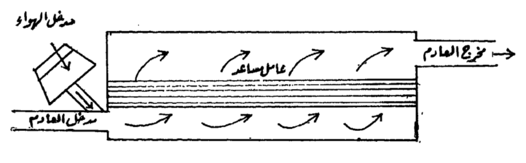
ثاني اكسيد الكبريت

يظهر ثاني اكسيـد الكبريت فى دخـان المصانع ومحطات القوى ، ونتخلص منه بتحويله الى ثالث اكسيد الكبريت ، ثم تحويل ثالث اكسيد الكبريت الى حامض كبريتيك ، حيث يمكـن تخزينه والاستفادة منه .



شكل (٨ آ)

جهاز يضاف الى السيارة لاعادة احتراق غير المحترق من الغازات بالاستعانة بشمعة الاشعال .



شكل (٨ ب)

جهاز يضاف الى السيارة به عامل مساعد لاحتراق غير المحترق من الغازات عند درجة حرارة اقل من الدرجة بالشمعة في شكل (١) .

استحدثت طريقتان . نشأت احداهما وترعرعت عند تشييد المصنع ، اذ رأى القائمون عليه ان يتخلصوا من ثاني اكسيد الكبريت فيمراحل عمل المصنع فيكون جهاز الازالة جزءا من المصنع اثناء تشييده ، ويؤخذ الغاز الملوثمباشرةمن الفلاية شكل (٩ أ) اذ نرى وحدة التسخين للغاز الملوث جزءا من المحطة فيسخن الوقد ماءالفلاية وفى الوقت نفسه يسخن الغاز المطلوب تحويل ما به من ثاني آكسيد الكبريت الى ثالثاكسيد الكبريت ثم الى حامض كبريتيك .

ونجد في الطريقة الثانية شكل (٩ ب)مأخذ الغاز من المدخنة مباشرة ، فالعملية الثانية هي اضافة لما هو قائم من مصنع لتنقية ما هوخارج من ثاني اكسيد الكبريت ، ويلاحظ ان وحدة تسخين مستقلة وضعت لاعادة تسخينالغاز الخارج .

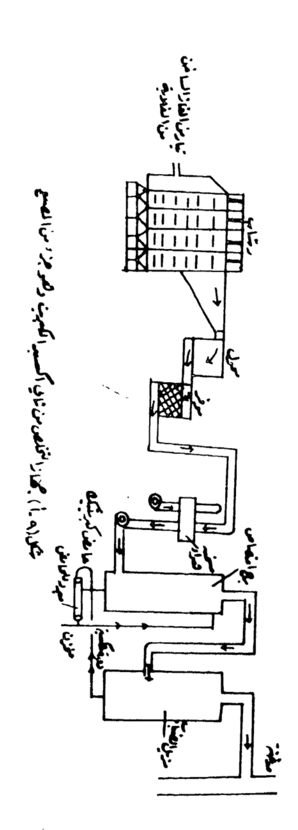
ووجد ان الطريقة الاولى تزيل ٩٠٪ منثاني اكسيد الكبريت فى حين ان الطريقة الثانية حيث وحدة تسخين اضافية مستقلة تؤدى اليازالة فى حدود ٨٥٪ .

ويفصل فى كلتا الحالتين في الطريقة الاولىوالطريقة الثانية يفصل الرماد والحبيبات شكل (١٠) أولا بوساطة عملية الفصل الميكانيكي ثمالترسيب الالكتروستاتيكي ثم يمر تيار الغاز بعد التخلص من الرماد بالمحول فى شكلي (١٣ أ،ب)حيث يوجد خامس آكسيد الفانديوم ، وهو عامل مساعد صلب يساعد فى رفع اكسدة ثاني اكسيدالكبريت الى ثالث اكسيد الكبريت ، الذي يتحد بدوره مع بخار الماء ليصبحبخار حامض كبريتيك،حيث يبرد فى برج الامتصاص ويخرج سائلا هو حامض كبريتيك ، اما وظيفة مزيل الضباب فهيازالة ما بقي من بخار حامض الكبريتيك ويحوله الى سائل .

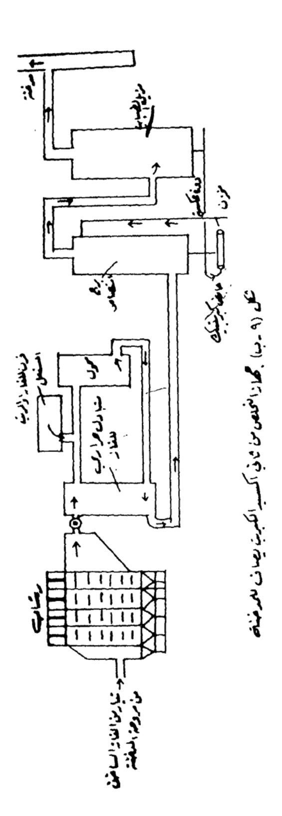
الانسان المتهم

غريب أمر الانسان يلقي التهمة على الآلةوهو المتهم الاول المتسبب فى التلوث فقد خلق مصدرا متحركا للتلوث فهو يلوث البيئة التييعيشها حتى لو كان قعيدا لا يبرح فراشه من المهد الى اللحد .

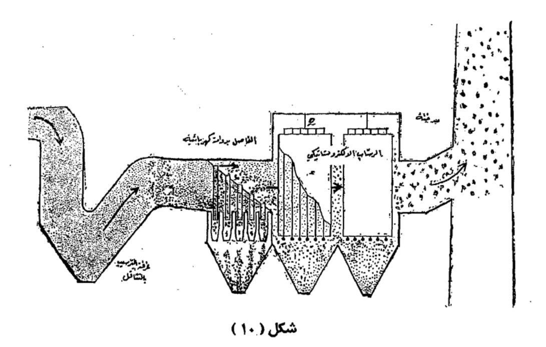
دع عنك افرازاته ، تراه يأخذ منالاكسجين ٣٥٠ سم ٣ شهيقا فى كل دقيقة من الزمان ويطرد بديلا عنه ٢٠٠ سم ٣ من ثاني اكسيد الكربون .ولحكمة يعلمها الله اسكن الانسان الارض وابقى على نوعه وحفظ قدر الاكسجين الذي يحتاجهمتنفسا ليعيش ويعيش ابناؤه واحفاده واحفاد احفاده الى يوم الدين ، اذ جعل النبات يزدهرنهارا باستهلاكه ثاني اكسيد الكربون من الجو فى عملية تسمى التمثيل الضوئي ، وهي عمليةعكسية لتنفس الانسان فحصيلة العملية ظهور مادة محببة للحياة هي الاكسجين الذي يخرجالى الجو المحيط بديلا عن ثاني اكسيد الكربون الذي اخذه النبات ، فكأن النبات ينظف ما لوثهالانسان أثناء تنفسه فهو مسئول أولا واخيرا عن بقاء الانسان الى يومنا هذا دون اختناق ، ولكنلا يزال يعترينا بعض الخوف ، فنحن نلمس الانفجار السكاني وبالتالي انكماشالرقعة الخضراءمن الارض، ثم التقدم الصناعي وما تنفثه مداخنه من ثاني اكسيد الكربون . لذا كان هم البحاثفى التلوث هو ضبط المقدار وتقنين ما يسمح به ،



شكل (٩-أ) جهاز التخلص من ثاني أكسيد الكبريت وهو جزء من المصنع



شكل (٩ - ب) . جهاز التخلص من ثاني أكسيد الكبريت بعصارات الدرفلة



شكل (١٠)

طريقة لازالة الحبيبات من الغازات بعد خروج العادم من الافران وتتاين ذرات الغاز وتلتصق بالحبيبات ويتخلص منها

والانسان طرف فى هذا الموضوع بحكم مولده وعمله وخبرته ، ومن الطريف أن بعض الابحاث تتحدث عن كفاية العمال وتقول انها تقل ويسوء الاداء كلما كثر التلوث فى الجو ، ويضيفون الى الملوثات المعروفة الاصوات المزعجة ، وعلى كل ليس هذا موضعه ونقول يخدع الانسان نفسه ويظن انه يتنفس هواء نقيا ، ولكن لو راجعنا التاريخ نجد ان ملك انجلترا ادوارد الاول حرم استعمال الفحم فى لندن لانه اعتبر وبحق الدخان غير صحي فهو نوع من انواع التلوث وكان ذلك عام ١٣٠٤ ميلادية .

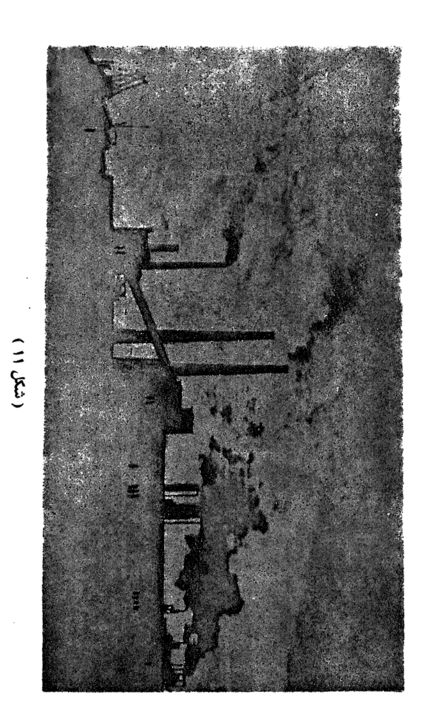
انواع التلوث

قسم التلوث الجوي الي نوعين . نوع يسمى فصيلة « لندن » وتتكون غالبيته من مركبات الكبريت الناتج عن احتراق الفحم . والنوع الثاني يسمى فصيلة « لوس انجلوس » ويتكون غالبا من احتراق البنزين ويسمى تجاوزا فصيلة « الكاربوهيدرات » .

ولعل نوع « لندن » هو أخطر النوعين واذكر ان آلافا من سكان لندن قد ماتوا عام ١٩٥٢ نتيجة اختلاط اكسيد الكبريت بالضباب . واني اترك الامر لاحساس القارىء وهو ينظر الى شكل (١١) حيث يرى المداخن وما يخرج منها ، ومن جهة أخرى لو نظرنا الى اثر حركة مرور السيارات فى مدينة لوس انجلوس بامريكا شكل (١٢) نرى فعل الكاربوهيدرات واكاسيد الازوت فى الجو مع حركة تيارات الهواء (ب) ومع الضباب (جـ) ثم نرى الفعل المضاد لاشعة الشمس (أ) ولكني ساكتفي بالتحدث عن بعض خصائص فصيلة لندن من التلوث وهي اخطر الفصيلتين .

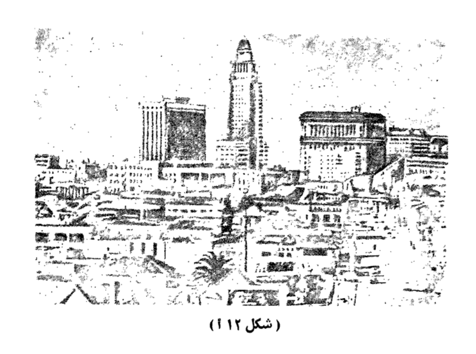
لندن والتلوث

اثبت علماء الانكليز ان التخلص من ثاني اكسيد الكبريت وغيره من ملوثات الجو هام لانقاذ الثروة القومية ، اذ اظهرت الاحصائيات ان انجلترا خسرت فى عام واحد نتيجة تلوث الجو أكثر من ٢٥ مليون يوم عمل وذلك بسبب مرض العمال لاصابتهم بالتهاب فى الشعب الهوائية ، وقد صنف علماء انجلترا التلوث فى جوها الى ثلاثة اصناف : **جزئيات غاز وجسيمات دقيقة جدا وجسيمات مرئية** ويبين جدول (٢) خصائص هذه الاصناف الثلاثة ، ومهما كانت العوامل الجوية التي تساعد على تخفيف تلوث الجو فان مقداره يحسب حسابه اذ يزن الهواء الجوي ٥ر٧ × ١٠ ١٥ طن ويصل مقدار التلوث الى ١٠ ٨ طن . ولعلماء الانجليز طريقة فى التعبير عن هذا التلوث سواء كان التلوث غازا او سائلا او جامدا اذ يقدر بالميكروجرام لكل متر مكعب ــ (١٠ ــ ٦ جم م ــ ٣) ويبين جدول (٣) مقارنة بين التلوث فى لندن فى ثلاث سنوات وهي ١٩٣٨ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٨ وعناصر التلوث فى هذا الجدول (جدول ٣) هي الدخان وثاني اكسيد الكبريت ، ولكن مقارنة التلوث من الغبار والحبيبات الخشنة فى السنوات الثلاث سابقة الذكر تظهر فى جدول (٤) .

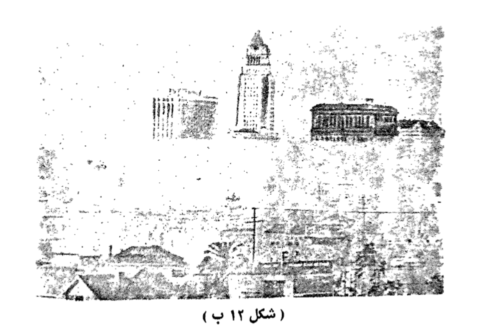


(شكل ١١)

منظر عام لمداخن المصانع وهي مصـدر مـن مصـادر التلوث .



(شكل ١٢ أ)

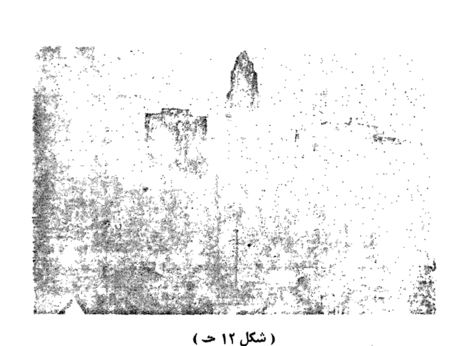


(شكل ١٢ ب)

يظهر صورة مدينة لوس انجلوس .

(أ) فى يوم لا غبار فيه ولا تلوث .

(ب) فى يوم حار ترتفع فى الغازات الملوثة الى اعلى .



(شكل ١٢ حـ)

(جـ) فى يوم فيه ضباب مكثف .

ويرينا جدول (٥) التلوث من أول اكسيدالكربون عام ١٩٦٨ ويعطينا جدول (٦) بعض البيانات عن حافلات الطريق . وهناك مقارنة بينالتلوث في العالم ككل والتلوث في المناطـــق الاكثر تقدما ، وهي بين خطي عرض ٣٠ ٥ ، ٦٠ ٥ نراهفى جدول (٧) ونلاحظ من هـــذا الجـــدول ان التلوث من ثاني اكسيد الكبريت من صنع الانسانولا دخل للطبيعة فيه فهي بريئة منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

جدول (٢)

اصناف التلوث	جزئيات الغاز	جسيمات دقيقــة جدا	جسيمات مرئية
الملـوثات المنتشــرة فى انجلترا البعد النموذجي خواص	ثانياكسيد الكبريت تقاس يوميا ــ ١٠ ــ ٧سم تختلط مع الهواء غير مرئية اكالة	دخان تقاس يوميا ١٠ ــ٤ سم تطفو فى الهواء لاترى بالعين المجردة تلوثجميع السطوح	غبار وحبيبـــات خشنة تقاس شهريا ١٠ ــ ٢ سم ترسب فى الهواء ترى تلوث مكان سقوطها
الصحة	مهيج سام اذا كان مركزا	يصل الى الرئتين عند الاستنشاق	يحبس فى الانف والقصبة الهوائية
المصــدر	الوقود كــل انـــواع الاستخدامات	الاحتراق غير التام خاصة الاستخدمات المنزلية	كل ما يفضـي الى رماد غبار الوقود سناج خاصة الاستخدامات الصناعية
ملوثات اخرى لهـــا اهمية محلية	اكاسيد الازوت أول اكسيد الكربون فى تراكمات راكدة المرور	رذاذ حـــامــض كبريتيك ضباب دخان الديزل الابخرة فى الصناعة	الاتربة فى الصناعة من المصنوعات من التخزين

جدول (٣)

دخان وثاني اكسيد الكبريت فى ٦١٠ طن

السنة		←	١٩٣٨	١٩٦٠	١٩٦٨
دخان	من الفحم	منازل	١ر٧٤	١ر٢١	٠ر٧٥
		قطارات	٠ر٢٦	٠ر٠٧	ضئيل
		صناعات وغيرها	٠ر٧٥	٠ر١٩	٠ر٠٩
		مجمـوع	٢ر٧٥	١ر٤٧	٠ر٨٤
ثاني اكسيد الكبريت	من الفحم	منازل	١ر٢٣	٠ر٩٢	٠ر٦٠
		محطات قوى كهربائية	٠ر٤١	١ر٥٦	٢ر١١
		قطارات	٠ر٣٧	٠ر٢٦	٠ر٠١
		نقالات فحم المناجم	٠ر٣٢	٠ر١٤	٠ر٠٧
		صناعات وغيرها	١ر٣٥	١ر٢٢	٠ر٧٧
		افران كوك	٠ر٠٧	٠ر١١	٠ر٠٩
		صناعات الغاز	٠ر١٤	٠ر١٦	٠ر٠٧
		مجمـوع	٣ر٨٩	٤ر٣٧	٣ر٧٢
	من الزيت	منازل		ضئيلة	٠ر٠١
		صناعات وسوق التجارة	٠ر٠٥	١ر١٧	٢ر٠١
		طرق وقاطرات	٠ر٠١	٠ر٠٥	٠ر٠٩
		بواخر داخلية	—	٠ر٠٤	٠ر٠٢
		مجمـوع	٠ر٠٦	١ر٢٦	٢ر١٣
	من الكوك	منازل ووقود بغير دخان	٠و٠٦	٠ر١٠	٠ر١٤
		صناعات	٠ر١٨	٠ر٢٦	٠ر١٥
		مجمـوع	٠ر٢٤	٠ر٣٦	٠ر٢٩
المجموع	الكلي لثاني	اكسيد الكبريت	٤ر١٩	٥ر٩٩	٦ر١٤

جدول (٤)

الغبار والحبيبات الخشنة فى ٦١٠ طن

السنة	١٩٣٨	١٩٦٠	١٩٦٨
مواقد منزلية	١٤٥ر٠	١ر٠	١٠ر٠
محطات قـوى	١٤٥ر٠	٤ر٠	٣٢ر٠
قطارات	١٤٥ر٠	١ر٠	ـ
فحم وكوك يستعمل فى الصناعة	٢١٥ر	٢ر٠	١ر٠
المجمـــوع	٦٥٠ر٠	٨ر٠	٦٠ر٠
عمليات صناعية مختلفة	٥ر٠	٥ر٠	٥ر٠
المجمـوع الكلي	١٥ر١	٣ر١	١ر١

جدول (٥)

اول اكسيد الكربون في ٦١٠ طن

عام ١٩٦٨

من	
الصناعة	٦ر٠
المنازل	٥ر٠
آلات بترولية	٦ر١
آلات ديزل	١ر٠
المجموع	٢ر١٧

جدول (٦)

التلوث من حافلات الطرق فى $١٠^{٦}$ طن

عام ١٩٦٨

نــوع الآلة	آلات بالبنزين	آلات بالديزل
أول أكسيد الكربون	١ر٦	٠ر١٠
كاربوهيدرات	٠ر٣٠	٠ر١٨
الدأهايد	٠ر٠١	٠ر٠٠٣
اكاسيد الازوت	٠ر٢١	٠ر٠٥
ثاني اكسيد الكبريت	٠ر٠٢	٠ر٠٣
المجمــوع	٦ر٦٤	٠ر٣٦٣

جدول (٧)

التلوث الكلي فى $١٠^{٦}$ طن

التلوث	طبيعي	صنــع الانسان	العالم	مناطق متقــدمة بــين خطي عرض ٣٠°، ٦٠°
ثاني اكسيد الكربون	٢×١٠^{٥}	٢×١٠^{٤}	العالم	———
أول اكسيد الكربون	٢×١٠^{٢}	٢×٢٠^{٢}	العالم	———
ثاني أكسيد الكبريت	مهمل	١×١٠^{٢}	———	مناطق متقدمة
اكاسيد الازوت	٢×١٠^{٢}	٥٠	———	مناطق متقدمة
كاربوهيدرات	٣×١٠^{٢}	٩٠	العالم	———
جسيمات	$١٠^{٢}$	$١٠^{٢}$	———	مناطق متقدمة

التلوث فى الميزان

تضاربت الآراء واصبحنا فى احتيــاج الىالمزيد من الابحاث حتى نصل الى راي حاسم عن مدى أثر التلوث على الصحة ، اذ يرى دكتــور**باتريك لوثر** مدير وحدة تلوث الهواء فى مجلس الابحاث الطبية بانجلترا ان مقدار ما يحويــه دمالذين يدخنون السجائر بطريقة معتدلــة وبغير افراط من أول أكسيد الكربون أكثر مما يحويه دمالمعرضين لحركة المرور فى لندن ولعد ةساعات .

ومن الغريب اني قرات تقريرا لرابطـــةالمستهلكين بانجلترا يعلن عن ابحــاث اجريت فى نوفمبر سنة ١٩٧٠ تقرر نقص الاداء الذهنــيلاربعة من الشبان أثناء استنشاقهم هواء على علو ٥ر٣٧ سم من رصيف الشارع ولم يفصح التقريرعن التجربة وكيفية اجرائها .

وكذلك اختلفت آراء الباحثين ، اذ يــرىفريق ان جملة جرعات صغيرة من أول أكسيد الكربون على فترات متباعدة لا تحدث تسمما ،لان أثر الغاز لا يتراكم مع الزمن . ويرى فريــق آخر غير هذا الــرأى ، وتسرب الشك ايضا الــىثاني أكسيد الكبريت ، وبدأ اليقين يهتز فى سبب موت آلاف فى لندن سنة ١٩٥٢ وقــد نســبالسبب حينذاك الى الضباب المكبرت - لو جاز هذا التعبير - وذلك لان الظاهرة تكررت سنة١٩٦٢ وكان عدد الضحايا ٧٠٠ فقط رغم تشابــه الاجواء والاحوال .

ويحسن ان نثبت هنا أنه قد صدر قانونانجليزي يعرف بقرار الهواء النقي عام ١٩٥٦ وهو عام يقع بين عامي ١٩٥٢ ، ١٩٦٢ ونفذ القــراروكان من نتائجه تقليل الدخان القاتم ، حتــى ادعى البعض ان لندن بلا دخان ، ورغم اختلافالآراء فهناك اجماع على ان ثاني أكسيد الكبريت غير مقبول عند التنفس ، وان أول أكسيــــدالكربون سام ، وان البيئة تأثرت تماما بالتلوث . وان انس لا انسى رؤيتي مــن ســـنين مضــتالعديد من الاسماك الميتة الطافية على مساحــة كبيرة فى ميناء بيريه باليونان . .

وعلى كل فالابحاث لا زالت جارية فى اغلببلاد العالم ، بل أصبحت ابحاث تلوث البيئــة عالمية ترعاها الامم المتحدة ، ونتمنى التوفيــقللجميع لصالح الانسان والبشرية .

* * *

حسن صادق المرصفاوي

البيئة والجريمة

تشغل الجريمة فى عصرنا الراهن ــ كماشغلت دواما فى الازمنة السالفة ــ بال الكثيرين من الفلاسفة والمفكرين والعلماء ، لما تكشفت خطورتها وتفاقمت جسامتها وزاد انتشارها بين أفراد عديدين من مختلف الجماعات ، مهما تباينت اتجاهاتها او اختلفت درجتها فى التقدم والرقى . والجريمة موجودة دائما وان تغيرت صورها ومظاهرها ، ويكفى للتدليل على هذا ان ينظر الانسان من حوله ، ويمد بصره الى فترة سابقة من الزمان عاشها ، ليتبين صورا من الجريمة خلقتمع الايام وليدة ظروف معينة، يستوى فى هذا الدول المتقدمة والاخرى النامية، لأن الحال لا يتعلق بالتقدم او التخلف ، فأثرهذا يقتصر على تنوع الجريمة التي تختلف من مجتمع الى غيره . والتطور فى ذاته يؤدى الى صور جديدة من الاجرام ، لا سيما حين يكون التغيير بخطي سريعة قد لا تستطيع الافكار والتقاليد السائدة مسايرته ، فتختل القيم وتضطرب الموازين فى المجتمع ، مما يسفر عن صعوبة الاهتداء الى السبيل القويم فترتكب الجرائم . واذا اردنا ان نستقى من واقع الحياة دليلا لوجدناه فى الجرائم التى برزت حديثا بشكل ملموس ــ لا سيما فى اعقاب الحرب العالمية الثانية ــ وهي التي تمس الجوانب الاقتصادية من الحياة.

ولا تعتبر الجريمة وليدة المجتمعات الراهنةاو انها قاصرة عليها ، بل ان الجريمة قديمة قدم اجتماع الانسان بغيره من الافراد ، وكل ما فى الامر أن الجريمة تختلف فى مفهومها وفى مـدى انتشارها وفقا لتقاليد ونواميس جماعة معينةفى وقت معين وفى مكان معين . والعدوان هـو الاساس فى الجريمة ، بل هو الاســاس فى كـل الافعال التي تلحق بالغير ضررا وتستوجب فعل هذا الضرر . والعدوان منشؤه بعض الغرائز التىقضت حكمة الله سبحانه وتعـالى ايجادهـا فى الانسان ، تلك الغرائز التي لن تزول الا بفناءالانسان وتحركه نحو كل ما من شأنه أن يحافظ على وجوده ، ومن هنا ينشأ تضارب المصالح .وفى سبيل البقاء ينشب العدوان الذى هو أساس كل نزاع ، عدوان مرجعه الغريزة . واذا أردناتقصى اسباب الجريمة والبواعث عليهـا لانتهينا معها الى الغرائز البدائية فى الانســان . ولهـذافمن الملاحظ انه كلما تهذبت غرائز الانسان قـل عدوانه ، وتبعا لهذا انكمش نطاق الاجرام دونأن ينعدم .

واذا كانت الغرائز هي المحركة لكل عدوانفهي أيضا المحركة لكل دفاع فى مواجهة العدوان ، فغريزة البقاء التى تدفع بالانسان الى السعى نحوالمحافظة على كيانه مهما كان فى تصرفه من مساس بغيره هي بذاتها التي تحرك هذا الغير الى دفـعالاعتداء محافظة على بقائه ، ولو كـان فى هـذا مساس بالمعتدى . وهذا هو الأصل فى نظريةالدفاع الشرعى ، التي تقرها التشريعات جميعا على أساس أن المحرك للدفاع المتمثل فى اعتداء هوالغريزة التي خلقها اللـه سبحانـه وتعالـى فى الانسان. ومتى كان الامر كذلك فالجريمةمرتبطةبالانسان وجودا وعدما . فالجريمة والانســان كلمتان متلازمتان وجدتا سويا وتنتهيان سويا ،وبهذا فان تصور قيام مجتمع بغير جريمة ــ على اية صورة كانت ــ غير مقبول .

والعدوان فى الصورة التي عرضناها ، هوالذى يقع من فرد ، والدفاع الموجه نحو العدوان يصدر عن فرد ، ولكن الفرد المنعـزل عن غـيرهانعزالا كاملا لا وجود له ، بل ان مـن علمـــاء الاجتماع من يرىأن الانسان وجد دائمافى مجتمعخلال كل فترات التطور التاريخي التي مرت بها الانسانية . وعلى كل حالً فان صور العدوان ــمع تطور المجتمعات ــ بدات تتغير ، واثرها لم يعد قاصراً على من وجهت اليه أفعالـه ، بـلأصبحت الجماعة ذاتها كوحـدة متكاملـة تحس بالعدوان ولو بصورة غير مباشرة ، وشعرت بأنعليها واجبا ازاء ذلك العدوان . فالجماعة لهـا كيان ذاتي مستقل ، ومنذ وجودها خلقت فيهاغريزة المحافظة على بقائها ــ وهي ذات الغريزة التى دفعت الانسان للمحافظـة علـى نفسـه ــووجهتها نحو طريق رد كل عدوان ، سواء وجـه اليها بطريقمباشر أم وجه الى أحد أفرادها فلحقبها بسبيل غير مباشر .

وبحثنا يتناول البيئة والجريمة ، الامر الذى يثير كثيرا من التساؤلات ، أولها تحديد مفهوم كل من الجريمة والبيئة فى هذا النطاق . وغايةالبحث هي تعرف مـدى العلاقـة بـين البيئـة والجريمة وتأثير كل منهما فى الآخر ، وقدر مـاتمثله البيئة فى السلوك الاجرامي باعتبارها عاملا

من عوامله . فاذا أمكن التوصل الى هذه العناصر سهلت معرفة الطريق المؤدى الى مكافحة الجريمة (١) .

الجريمة فى موطن هذا البحث :

الانسان منذ مولده حتى نهاية حياته لا يكف عن الحركة، سواء فى ذلك بارادته، كالأكل والشرب والكلام ، أو كانت الحركة مبعثها طبيعة خلقه دون أن يكون لارادته دخل فى ذلك ، كنبضات القلب أو تردد التنفس . ولا يعنينا فى هذا المقام النوع الاخير ولكن يهمنا بالدرجة الاولى النوع الاول ، وهو ما يشمل التصرفات ذات الاثر فى المحيط الخارجي والتي قد تؤثر فى الجماعة المنتمى اليها الفرد بوجه من الوجوه .

وتصرفات الانسان المنبثقة عن حركته الدائمة كثيرة ومتنوعة ، وهي تمثل استجابة لحاجات أو رغبات له ، يستوى فى ذلك الظاهرة منها للعيان والمفهوم امرها ، أم الخافية الناشئة عن انفعالات أو خلجات قد يعسر فهمها وتحتاج الى تعمق فى شأنها للوصول الى غورها وتفسيرها . واذا كان الانسان فردا فى مجتمع فمما لا شك فيه أن تصرفاته تنعكس على المجتمع ، وقد يتأثر بها أو يؤثر فيها . فالمجتمع قد يتأثر بها لما تحدثه فى نواميسه وقواعده من تغيرات على أية صورة كان التغيير ، كما أن المجتمع قد يؤثر فيها نتيجة لردفعل ذلك التصرف سواء كان بالرضا عنها عند مواءمتها لطبيعة تكوينه أو عدم الرضاء عند الاختلاف والمعارضة .

ونقسم تصرفات الانسان تقسيما بسيطا يرتبط بموقف المجتمع منها الى اقسام ثلاثة، تصرفات لا تعنى الجماعة بأمرها كثيرا ، وتصرفات تتقبلها الجماعة بالرضى وتشجع عليها ، واخيرا تصرفات تستهجنها الجماعة وتنفر منها . والنوع الاول من التصرفات ينطوى تحته فريق يتم دون ارادة من الشخص – والقول بأنه تصرف فيه نوع من التجاوز – وهو الناشىء عن التكوين العضوى لجسم الانسان . والفريق الآخر من التصرفات لارادة الانسان دخل فيه ، وهو الذى يقتضي بحث موقف الجماعة بصدده . والاصل فى هذه التصرفات كقاعدة عامة أن يقف المجتمع منها موقفا سلبيا ، بمعنى أنه لا يتدخل فى أمرها مادامت تتم فى حدود النواميس والقواعد والنظم التي تحكم المجتمع . والنوع الثانى من التصرفات هو ما يتفق مع النواميس والقواعد والنظم التي تضعها الجماعة ولا يقف منها المجتمع موقفا سلبيا، بل انه يمتدحها ويشجع عليها لما تؤدى اليه من بقائه والعمل على تقدمه ، ومن هذا قيام الانسان بالواجبات التى تفرضها عليه طرق العيش الذى يرتزق منه ، فالسعى الى الرزق واجب على الفرد وهو من العمد الاساسية فى بناء الجماعة . وهناك نوع آخر من التصرفات ترضى عنه الجماعة لما فيه من معنى التآلف والتآخى بين أفرادها ، والتعاون المثمر الذى ينعكس أثره على أمر المجتمع وهدوئه ، ومن هذا القبيل التعاون على دفع الكوارث ومساعدة الغير واعانة المحتاج .

---

(١) يرى بعض الباحثين ان الاهتمام بظاهرة زيادة السلوك الاجرامي يوجب العناية التامة باظهار الحقائق ، وبدلا من الاندفاع في سياسة عقابية يتعين النظر بعمق الى طبيعة المجتمع للتحرى عما اذا كانت هناك قوى ذات صبغة اجتماعية وبيئية مؤثرة فى السلوك يكون من الافضل الكشف عنها (جون مايز ص ٩) .

والنوع الآخر من التصرفات يتعارض معالنواميس والقواعد والنظم التى تقررها وتسير عليها الجماعة وتؤدى الى رد فعـل مضـاد منالجماعة متنوع النوع والمقدار دفاعا منها عـن كيانها ، وعملا على استقرار الأمن والهدوء فيها . فالمجتمع كالانسـان خلق كل منهمـا وفيه غريزة البقاء التى تتحرك تلقائيا وتدفع عنه كل مايهددكيانه . فاذا كان الفرد العادى يرفع يده فىحركة غريزية لا ارادية ليتقى خطرا على وشك الوقوعبه بتهدده ، فالشأن كذلك بالنسبة الى المجتمع يتحرك غريزيا محافظة منه على كيانه لدرء كل مامن شأنه ان يؤثر فى بقائه واستمراره . واذا كان رد الفعل الغريزى لدى الانسان ازاء أى خطـريتهدده يختلف من وقت الى آخر ومن موقف الى آخر حسب ظروف ذلك الخطر ، بمعنى أنتصرفهالغريزى ليس مطلقا من كل القيود وانما تحـدده اعتبارات عديدة ـ لعل اخصها درجة العـدوانوكيفية مقاومته والظروف التى يقع فيها كل من الخطر ودرئه ـ اذا كان الأمـر كذلك بالنسـبةللانسان فهو الحال أيضا بالنسبة الى المجتمع . فمتى كان كل خروج على نواميسـه وقواعـدهونظمه يستوجب رد فعل معه ، فان تحديد هذا الأثر يختلف من حالة الى اخـرى وفقـا لقدرالعدوان وظروفه ومدى المسـاس الذى يلحـق الجماعة من جرائه .

ويمكن القول بصفة عامة انه لا يوجد تطابقكامل لتصرف وآخر من ناحية نوعه ومداه وأثره، ومع هذا فانه تقريبا للأمور يمـكن ضم بعـضالتصرفات الى بعضها الآخر فى مجموعات تحوى نماذج يوجد بينها نوع من التناسق والتقـاربالذى لا يصل الى حد التطابق . وتمشيا مـع الفكرة آنفة البيان يمكن تقسيم تصرفات الفـردالتى لا تلقى رضاء من المجتمع الى عدة اقسـام استنادا الى درجة ردالفعل الذى يقابل بهالمجتمعتلك التصرفات ، وهو ما يتدرج فيبدأ بمجـرد الاستهجان ، ثم قد يصاحب هذا الاستهجانجزاءتأديبى ، أو قد يصل التصرف الى درجة الخطورة التى تستوجب فضـلا عن اسـتهجان المجتـمعللتصرف توقيع جزاء جنائى على مرتكبه ، وبهذا تتفاوت درجات عدم رضاء المجتمع ورد فعله عنالتصرف الذى يقع مخالفا لنواميسه وقواعـده ونظمه. فاذا وقفـرد الفعل عند مجردالاستهجاناعتبر التصرف جريمة تاديبية ، أما ان وصلالحد الى احد الجزاءات المنصـوص عليها فى قـانونالعقوبات كانت الجريمة جنائية ، ومن هذايتضح شمول مصطلح الجريمة لكل التصرفات التى تقعمنافية للمجتمع .

ويهمنا بالمقام الاول الجريمة الجنائية ،وهيالنشاط الذى يصدر من الشخص ايجابا كان أو سلبا يقرر له القانون عقـوبة من بين العقـوباتالمقررة بقانون العقوبات . فالمجتمع قد يرى فى بعض التصرفات التى تصدر من الفرد ما مـنشأنه أن يخل بامنه ونظامه ، يستوى فى هـذا أن ترتب تلك التصرفات ضررا لفرد معين ، أم انأثرها يصيب المجتمع باعتباره شخصية قـائمة بذاتها تدفع عنها كل ما يهدد كيانها . وهو فىهذاالسبيلينذر بالعقاب كلمنتسول له نفسهمقارفة مثل تلك الأمور ، فان أتى الفرد واحدا منها ،رغمتحذير القانون ، وقع تحت طائلة العقوباتالمقررة فى هذا الشأن ـ بالتصرف الذى يشكل جـريمةجنائية مستهجنة من المجتمع ، ويتفق فى هذا مع الجريمة الدينية والخلقية والتاديبية ، بيد انخطورة التصرف تجعل المشرع يتدخل بتقـرير

احدى العقوبات الجنائية . وبهذا ايضا يتضح الفرق بين الجريمة الجنائية وغيرها من الجرائم، ويتمثل هذا فى التزام المشرع الجنائى والقاضى من بعده بقاعدة ان لا جريمة ولا عقوبة بغير نص فى القانون . ومعنى هذا انه ان انتفى وجود نص القانون الذى يعد نشاطا معينا فعلا معاقبا عليه باحدى العقوبات الجنائية ، فلا محل لمؤاخذة الشخص جنائيا .

وليس بالضرورة ان تنطوى دائرة الجرائم الجنائية داخل دائرة الجرائم الدينية او الخلقية، لأن هناك من الأفعال ما يثير النقاش حول مخالفتها لقواعد الدين أو الأخلاق من عدمه رغم تدخل المشرع واعتبارها من الجرائم الجنائية ، ومن هذا القبيل كثير من المخالفات والجرائم المسماة بالجرائم المادية . ولهذا قيل بأن الجريمة قد تكون من خلق الجماعة السياسية فى الدولة فى وقت ما ولظروف معينة ، فان تغيرت الجماعة الحاكمة او تبدلت الظروف التى استوجبت تجريم فعل معين فان هذا قد يترتب عليه رفع صفة الجريمة عن النشاط ، بل يمكن القول بأن سياسة التجريم فى ذاتها مصدرها سلطان الحكومة . على أن هذا القول ، وان كان فيه جزء من الصحة فانه لا يخلو من المبالغة ، فلا ينكر احد ان هناك من التصرفات ما تعدها الهيئة السياسية الحاكمة جريمة حماية منها لمكانتها وتثبيتا لأركانها او تحقيقا لسياسة معينة تنشدها . وهناك ايضا من الأفعال ما يعد جريمة تقتضيها مصلحة المجتمع وان كان قد يغيب عن بعض الافراد الغاية من التحريم، كالجرائم التموينية أو جرائم الضرائب . ولكن الى جوار هذا يوجد من الافعال ما قد يكاد يجمع على تجريمه لما له من مساس بالمجتمع فضلا عن المساس بالأفراد، ومن هذا القبيل القتل والسرقة وخيانة الأمانة والزنا ، وان كان من بينها ما لا يعد جريمة احيانا فى قليل من المجتمعات . وهذه الجرائم الأخيرة تنطوى داخل دائرة الجرائم الاخلاقية لأن نواميس المجتمع وتقاليده تأباها . بل لقد ذهب البعض الى اعتبار مثل هذه الأمثال جرائم طبيعية لانها تأتى ضد الطبيعة الموجودة فى المجتمعات ولا تتغير بالزمان ولا بالمكان . وهذا القول بدوره اثار الانتقاد لما يتسم به من طابع المبالغة ، اذ هناك من المجتمعات ما لا يعد القتل جريمة ، بل واجبا اجتماعيا ، وغيرها لا يرى فى فعل الزنا جريمة ، بل يراه تصرفا من جانب الفرد فى حريته الشخصية .

ويعنينا فى بحثنا الجريمة الجنائية ، ويمكن القول بأن اضفاء صفة الجريمة على نشاط معين امر نسبى يتوقف على ظروف الزمان والمكان ، فهو يختلف من وقت الى آخر ومن مكان الى غيره. فمن المسلم به ان هناك من الافعال ما يعد جريمة فى دولة ما فى حين انه من الأفعال المباحة فى دولة اخرى ، بل انه فى الدولة الواحدة قد يعد النشاط جريمة ثم يعدل المشرع فى سياسته وينقله الى قائمة الأفعال التى لا يلحقها العقاب ولا يمنعه من هذا من بعد أن يعود الى الجريمة مرة اخرى .

وتختلف التشريعات فى تقسيمها للجرائم من حيث جسامتها ، فمنها ما يأخذ بالتقسيم الثنائى فالجريمة تكون على نوع من اثنين اما جناية او جنحة ، ومن القوانين ما يأخذ بالتقسيم الثلاثى للجرائم ــ الجناية والجنحة والمخالفة ــ ومن بينها التشريع المصرى . وكخطوة أولى نستبعد من نطاق البحث الجرائم المعدودة من المخالفات لأنها من البساطة بمكان ، وهي تصرفات يمكن أن تقع

من كل فرد يكتفى القانـون فى الغالب بوقوعها لتقرير العقاب دون اشتراط توافر القصد الجنائى فى مرتكبها ، اى أنه لا يتمثل فيه أو فيما وقـع منه خطورة شديدة على المجتمع .

أما الجنايات والجنح فانه وان كانت خطورة الجنايات ظاهرة وكانت الجنح اقل منها فى هذا المقام ، الا أن هذا لا ينفى ان اهتمامات البحث فى عوامل الجريمة لا تسير دوما وراء تقدير المشرع لخطورتها . فجريمة تسليم بعض الأسرار الحربية الي دولة معادية أشد خطورة فى نظر المشرع من جريمة قتل ترتكب اخذا بالثأر مثلا ، ومع هذا فان الباحث فى عوامل الجريمة تعنيه بالدرجة الأولى الجريمة الأخيرة وحدها . واذا كانت الجنـايات والجنح لا تتساوى فى اهميتها فان هناك من الجرائم مهما كان وصف القانون لها تخرج عن البحث ، وذلك لما لها من طبيعة خاصة تجعل لها صـفة الجرائم الاصطناعية ، ونسوق على سبيل المثال الجرائم الضريبية التى لا يشعر مقارفها أحيـانا بتأثيم الاجرام حين يأتى احد الأفعال المكونة لهـا بسبب عدم ادراكه للفائدة التى يراد للمجتمع الوصول اليها بتحصيل الضريبة ، ولا يأخذ فى اعتباره الا القدر من المال الذى يدفعه الى الدولة ولا يتقاضى عنه مقابلا محددا واضحا ، وكذلك الحال بالنسبة الى شعور الجمهور .

والغاية من الدراسة هي التى تحدد الجريمة التى تكون محلا للبحث ، ولا شك فى ان الجريمة التى تثير الاهتمام تكون قد وصلت فى المجتمع الى درجة من الكثرة تكشف عن أن لها من العوامل ما يمتد جذوره فى الجماعة بما يمكن من متابعتها والاهتداء اليها ، أى أن يكون من شأن تلك العوامل تهيئة المناخ الصـالح لوقوع الجـريمة ، وكأن الجريمة المعنية اصبحت آفة المجتـمع يسـتحق الجرى وراءها للقضاء عليها . ولذا فان بعضا من الجرائم التى ترتكب بصفة عارضة تخـرج عن البحث ، ومن هذا القبيل جرائم الضرب البسيط والسب فهى جرائم ــ قلت ام كثرت ــ ليست لها سمة الثبات والتكرار ، تقع نتيجة لظروف طارئة من اى فرد وفى أى وقت دون أن يجمعها ضابط معين يمكن الاهتداء به أو البحث عن أسـبابها للعمل على مكافحتها .

واذا كانت التشريعات تعبر عن انعكاسات لمشاعر المجتمع ، وكانت الأبحاث المختلفة وليـدة حاجاته ، فان تحديد الجريمة يهتدى فيه بالدرجة التى وصلت اليها والتى تقاس باستنكار المجتمع لها ــ كله تقريبا وفى كل وقت ــ واحساسه أنها قد بلغت من كثرتها مرحلة يخشى منها على المجتمع ذاته . وليست المجتمعات كلها على نسق واحد ، والمقياس آنف البيان يوصل بالضرورة الى ان تكون الجريمة المعنية موجودة فى كل الدول ، بل هي قد توجد فى دولة ولا تتوافر فى غيرها . وعـلى سبيل المثال اذا اردنا تطبيق المقياس السـابق على الجريمة فى مصر لوجدنا أن اخطرها جريمة القتل ، لا سيما ما كان منها متصلا بالثأر . ويزداد الاهتمام حاليا بجرائم الاختلاس والرشوة التى تنتشر فى المجتمع بصورة مذهلة ، حتى حركت كثيرا مـن الأجهزة الباحثة وراءها . ولا تخلو جرائم التشرد والتسول بدورها من الأهمية ، كما لا يشك احد فى خطورة جرائم المواد المخدرة . واخيرا تأخـذ الجرائم التى تقع من الأحداث مكانا خاصا بين الجرائم التى تكون محلا للبحث ، لأنه كما يقـال **حدث اليوم هو رجل الغد** ، ورعـايته وتنويره حفظ للبلاد برجال المستقبل .

البيئة فى موطن هذا البحث :

الجريمة ظاهرة مادية نتيجة لعمليات متعددة ومعقدة ، وتضر بالمجتمع ، وهو لا يقف منها عاجزا وانما حماية لنفسه يوقع الجزاء على مرتكبها وحتى يكون عنوانا يردع الغير عن الاقتداء به . وردفعل المجتمع على هذه الصورة يقف عند الاثر الظاهر لتصرف الانسان — اى الجريمة — ولا شك فى انه من الأفضل العمل على منع الجريمة قبل وقوعها ، وهو ما يقتضى البحث عن أسبابها لعل فى معرفتها ما يمكن من علاجها ودرء خطر الاجرام .

ولما كانت الجريمة نتيجة لعمليات بشرية واجتماعية ونفسية فان البحث فى أمر مسبباتها شغل فريقا من العلماء مختلفى التخصصات . فلقد شارك فى الدراسة والأبحاث فلاسفة واطباء ورجال قانون وباحثون أجتماعيون وغيرهم ، ونظر كل فريق الى الجريمة من وجهة نظر تخصصه وتبعا لذلك تعددت الآراء واختلفت النظريات . . بل لقد تأثر كل عالم بالمنهج الخاص الذى يتبعه فى أبحاثه التخصصية ، وعلى سبيل المثال ارجع لومبروزو — الذى كان يعمل طبيبا — عامل الاجرام أساسا الى التكوين العضوى للفرد . وفضلا عن هذا فان اختيار الانسان لطريق معين فى بحثه يتوقف على امكانيات الأدوات التى تيسر له الاستعانة بها ، واقرب الأدوات اليه هو ما تمده به حياته العملية (٢) .

واذا كان الانسان فردا فى مجتمع ، وكانت الجريمة ظاهرة انسانية فقد لزم البحث عما اذا كانت هناك علاقة بين الجريمة ذاتها والمجتمع من عدمه . ويعتبر توماس مور (١٤٧٨ — ١٥٣٥)(٣) من أوائل من نظروا الى الجريمة فى ارتباطها بالمجتمع ، وبين أن عواملها تكمن فى المجتمع نفسه ، وكان ذلك فى قصته الشهيرة (Wopia) وهى مستوحاة من المدينة الفاضلة لأفلاطون . ووصف توماس مور الظروف التى كانت تعيش فيها انجلترا آنذاك وانتشار الاجرام وقسوة القانون ، واشار الى وجوب تعرف عوامل الجريمة والتخلص منها بتوفير امكانية العيش للناس . ومن صور عوامل الاجرام ذكر الحروب المستمرة التى اسفرت عن المحاربين العاطلين . وقال أن العامل الأساسى يكمن فى ظروف الحالة الزراعية ، ذلك انه بعد انتاج المصنوعات الصوفية حول كثير من اصحاب الاراضى الزراعية أملاكهم الى مراع للغنم ، وترتب على هذا تعطل آلاف من المزارعين الذين رحلوا واستقروا حول المدن وكانوا فريسة سهلة للوقوع فى وهدة الاجرام ، وفضلا عن هذا ظهر الثراء الفاحش الذى سرعان ما يزول ويؤدى بدوره الى طريق الجريمة .

ومن كتابات قادة الفكر خلال القرن الثامن عشر نجد اشارة الى الجريمة والظروف الاجتماعية المحيطة بها (٤) . فقد ذكر **منتسكيو** أن المشرع الناجح هو الذى يكافح الجريمة لمنع وقوعها أكثر منه بالعقاب عليها . وكتب **روسو** أن الفقر هو أهم الجرائم الكبيرة ، وان المجرمين قلة فى ولاية

---

(٢) راجع الدراسات الاولى لعلم الاجرام ، بيناتل ، ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) بونجر ، ص ٢٨ .

(٤) بونجر ، ص ٣١ وما بعدها .

منظمة تنظيما حسنا . كما ذكر **بكاريا** ان السرقة هي عادة جريمة الفقراء . وفى كتابات **بنتام** نظرة اجتماعية عميقة لأسباب الاجرام ، وهو يرجو ان تمنع الجريمة لا ان يعاقب عليها . وعدد صورا من العوامل الموصلة الى الجريمة ومنها الخمور التى اعتبرها من الاسباب الهامة . وفى صدد الجرائم الاقتصادية يحث على معاونة الافراد الذين ليست لديهم موارد كافية والا اصبحوا مجرمين ، ولن يقعدهم عن هذا الطريق اى تهديد بالعقاب .

وبعد أن أرسيت الدراسات الاحصائية على قواعد ثابتة استخدمت كأداة فى الدراسات الاجتماعية ، وفى ضوئها درست الجريمة باعتبارها ظاهرة فى الجماعة بطريقة علمية . وقد أوجد **أندريه جيري** فى فرنسا (١٨٠٢ ــ ١٨٦٦) ما يسمي بالاحصاء الاخلاقى ، حيث تناول الرابطة بين الجنس والسن من ناحية ، والاجرام من ناحية اخرى . كما عنى بجفرافية الجريمة فى فرنسا التي اتضح منها ان بالمناطق الفنية أكبر عدد من الجرائم ضد المال ، واستنتج عدم عدالة توزيع الثروة ، حيث الى جوار الثراء الفاحش هناك فقر مدقع . وصاغ قانون الحرارة للظاهرة الاجرامية ــ والذى ايده **فرى** ــ حيث اكد ان الجرائم ضد الاشخاص تغلب فى الاقاليم الجنوبية خلال أوقات الحر ، وان الجرائم ضد المال تغلب فى الاقاليم الشمالية اثناء فترات البرد (٥) .

وأبان أودلف كاتليه (١٧٩٦ ــ ١٨٧٤) ثبات اية جريمة من عام الى آخر حتى فى تفاصيلها او طريقة ارتكابها ، وبين ذلك بجدول احصائي عن الجرائم التى وقعت فى فرنسا . وقال ان الارقام لا تتغير وهي ثابتة بشكل مطرد فى كل ما يتصل بالجريمة حتى بالنسبة للجرائم غير المتوقعة للتقدير العادى ، كالقتل الذى يحدث فجاة وبلا اية بواعث مسبقة . وقال ان المجتمع يحوى بداخله بذور الجرائم المستقبلة ، وكل نظام اجتماعي يعد الظروف لعدد من الجرائم التي تنتج بالضرورة من تنظيمه . ويضيف بأن على كل مجتمع أن يعد نفسه على أساس وجود الظاهرة الاجرامية ، كما يعد نفسه لظاهرة طبيعية ، وهو ما يستنتج من قوله ان كفاح الجريمة تمكن تحقيقه بتغيير ظروف الحياة الانسانية . وبحث **كاتليه** ايضا بعض البواعث التي تؤثر على الاتجاهات العامة فى الجريمة كالتعليم والمهنة والفقر والجو وتغير الفصول .

وربطت المدرسة الاشتراكية (٦) الظاهرة الاجرامية بالظروف الاقتصادية معتبرة ان الجريمة حصيلة فرعية للظروف الاقتصادية ، فعدم المساواة الاقتصادية هو العامل الاساسي فى الجريمة التي تمثل رد الفعل لانعدام العدالة الاجتماعية ، وقامت الفكرة على أساس دراسات واقعية مبنية على الطرق الاحصائية التي اوضحت تغير معدل الجريمة ومدى ارتباطه بالظروف

---

(٥) ستيفانيه وآخرون ص ٨٠ بند ٨٨ ، واشار الى معارضة البعض لهذا الراى حيث ان الجو يرتبط بظروف اجتماعية . ففى بعض البلاد حيث يطول النهار تمتد تبعا لهذا الحياة الاجتماعية وتكفى لزيادة فرص الاجرام ضد الاشخاص ، في حين ان الظلام فى ليالي الشتاء الطويلة يساعد على زيادة الجرائم ضد المال . راجع ايضا بوزا وبناتل ص ٨٩ وما بعدها .

(٦) بونجر ص ٨١ وما بعدها .

الاقتصادية ، وانتهت الى انه لن تكون هناك جريمة فى المجتمع الاشتراكي، ولن تكون الافعال التي تقع ضد رفاهية الجماعة الا نتيجة لحالة مرضية . وقد عكس التطور الاقتصادى صداه على تطور الجريمة ، بالانتقال من الاقتصاد الزراعى الى الاقتصاد الصناعى خلال القرن التاسع عشر ، صحبه انتقال من جرائم العنف الى جرائم الذكاء. وعدم الاستقرار الاقتصادى الناشيء عن عدم استقرار الأثمان والاجور والاسواق والنقود كان له أثره فى الاجرام الذى يقصد منه الكسب ، ويؤدى تحسن الظروف الاقتصادية الى نقص الجرائم ضد المال وسوء هذه الظروف يؤدى الى زيادة تلك الجرائم .

ومن أشهر المدارس فى بحث عوامل الجريمة المدرسة الايطالية (٧) وتقوم وجهة نظرها على ان الظواهر الاجتماعية ــ شأنها شأن الظواهر الطبيعية ــ تنشأ وتتتابع وفقا لقواعد تحكمها وتربط بينها بعلاقة السببية الموصلة الى آثارها ، ولكن تحديد هذه القوانين من الدقة بمكان بسبب الظروف العديدة التي تتدخل فى هذه الظواهر . وفى تقدير الظاهرة الاجرامية ينبغي الاعتداد بعنصرين الفرد والوسط . ويجمع علماء هذه المدرسة على ضرورة وجود شذوذ عضوى لوقوع الجريمة ، ثم اختلفوا بعد هذا فى عديد من النقاط.

فلقد اعتد لومبروزو ابتداء بالمميزات العضوية فى الانسان المسببة للجريمة ، ولكنه بعد ذلك وتحت تأثير النقد الشديد اعتد بالظروف الاجتماعية ، وقال أن لكل جريمة اسبابا عديدة ، ولما كانت تلك الاسباب تختلط ببعضها فى الغالب فيجب الا يؤخذ كل سبب فيها على انفراد ، ومن بعد هذا اعتد لومبروزو بالاسباب الاجتماعية وقال ان المدينة لم تقلل من عدد الجرائم وان اتسمت بطابع خاص أقل شراسة ، وتميزت بأنواع معينة ناشئة عن الروابط الاجتماعية والاسرية ، وكان للحالة الاقتصادية فى نظره أثر محدد على الاجرام .

واعتد فرى بالعوامل البيولوجية واضاف اليها العوامل الطبيعية والعوامل الاجتماعية ، وعلى وجه الخصوص العوامل الاقتصادية . ويختلف اثر العوامل البيولوجية والاجتماعية وفقا لاشخاص المجرمين وأنواع الجرائم المرتكبة. وقسم المجرمين الى خمسة انواع ، المجرم بفطرته والمجرم المجنون ، والمجرم بالعاطفة ، والمجرم بالصدفة ، والمجرم المعتاد . والفكرة الاساسية لدى فرى مبناها تساؤل هو انه اذا كانت العوامل الجغرافية والاجتماعية تكون مصدر الاجرام فما يزال السؤال باقيا لمعرفة ما يدعو عدة افراد يسيرون في طريق الجريمة بينما لا يسير غيرهم فيه ، والجميع يخضعون لمؤثرات واحدة . وفى رايه ان الجريمة ظاهرة ذات اساس معقد بين عضوى ونفسى واجتماعى ، ولها اشكال ودرجات تتغير حسب الظروف المختلفة للاشخاص والاشياء والوقت والمكان . وقد قسم فرى عوامل الاجرام الى ثلاثة أنواع انثروبولوجية وطبيعية واجتماعية . والاخير هو الظروف الاجتماعية للجريمة الناشئة عن الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه المجرم ، أى السكان والافكار العامة والمعتقدات الدينية والانتاج الصناعى والمنظمات

---

(٧) بونجر ص ٥٦ وما بعدها .

الاقتصادية والسياسية . ولقد صاغ قانون التشبع الاجرامى اى انه فى وسط اجتماعى معين اذا وجدت ظروف شخصية وطبيعية معينة فانها تنتج قدرا من الجرائم لا يزيد ولا ينقص وبشكل منتظم .

ويرى جاروفالو ان الجريمة نتاج عيب شخصي يسبق الفعل الضار ، والجريمة هي الطبيعية لا تلك التي يخلقها المشرع ، وهي تتكون من الانتهاك الضار للشعور الاخلاقى العام الذى اتصل بالشعوب على مدى تاريخ الانسانية . ومن رايه ان من الافضل قبول الظاهرة الاجرامية على علاتها كما تحدث دون محاولة لتفسيرها ، وان كان لم ينكر دور العوامل الخارجية فى احداث الجريمة ، فعرض للعوامل الاقتصادية وكذلك للمدنية التي لم ير فى تقدمها شيئا لازدياد الاجرام، بل انها تحصره فى انواع خاصة .

وخلاصة اتجاه المدرسة الايطالية انها حصرت اسباب الاجرام فى نوعين **أولهما** الاسباب الداخلية التي تتصل بشخص المجرم من الناحية الجسمية والعقلية والنفسية والميول والطباع ، **وثانيهما** اسباب خارجية تتصل بالوسط والبيئة التى يعيش فيها وما بها من ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية .

ويهمنا فى هذا المقام مدرسة الوسط الاجتماعى التي تقوم على اساس أن الجريمة وليدة الوسط الاجتماعى الذى توجد فيه ، فالسلوك الاجرامي ينتج من مظاهر السلوك والعمليات الاجتماعية الاخرى . ولم تنكر المدرسة العامل الشخصي ، ولكنها مع اعتدادها به جعلته جزاء من الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه المجرم وهو محدود الاثر . فالوسط الاجتماعى هو تربة زراعة الجريمة ، ومكروبها هو المجرم الذى ليست له اهمية الا من اليوم الذى يجد فيه التربة الصالحة لانباته ، والاسباب الاجتماعية للجريمة عديدة ومختلطة ليس من العسير وضع تقسيم يحدد معالمها .

ومن اقطاب هذه المدرسة لاكاساني(٨) الذى قال عبارته الشهيرة « ليس للجماعة الا المجرمين الذين تستحقهم » . وقد عرض لاسباب كثيرة للجريمة . وعلى سبيل المثال يرى ان حرارة الجو تؤدى الى ازدياد الجرائم ضد الاشخاص وتصل الى مداها فى الصيف ، فى حين ان الشتاء يؤدى الى زيادة الجرائم ضد المال بسبب البرد وطول الليل واستهلاك كميات كبيرة من الخمر . ويختلف اجرام الريف عن اجرام الحضر ، فالجرائم فى الريف ذات اتصال بالاصل الفريزى فى الانسان كالانتقام والطمع ، اما جرائم المدن فتتسم بالطابع غير الاخلاقي كالاغتصاب وهتك العرض والضرب الشديد .

ويرى جابرييل تارد (٩) ان المجرم وليد الظروف الاجتماعية ، وانه وان كانت تتدخل فى انتاج الجريمة اسباب فسيولوجية وطبيعية واجتماعية، الا ان الاخيرة هي الغالبة وذات الاثر الفعال فى

---

(٨) بونجر ص ٧٨

(٩) بونجر ص ٨٠

وجود الجريمة . فالجريمة لا تقـع من مجـردالانسأن الحي وانما من شخصية الانسان التي خلقتها الجماعة وشكلت صورتها . وقد وضـعتارد نظريته فى أن الجريمة مفتاح التقليد ، فلا شك فى أن الاجرام كالشأن فى كل نشاط اجتماعىيفترض وجود ظروف فسيولوجية وطبيعية ، ولكنه يفسر قبل هذا بالقوانين العامة فى التقليد ،وذلك فى صور الصفة الخاصةبالصبغة المحلية لكل وقت والتوزيع الجغرافي والتحول التاريخى وتنوع الدوافع وغير ذلك . وهذا التقليد يمتد من الطبقات العليا الى الطبقات الدنيا ، وقديما كانيجرى تقليد الطبقة الارستقراطيـة ، أمـا الآن فالملاحظ سير التقليد من العاصمة الى الريف . فكل الوقائع الاجتماعية تحدث تحـت سـلطان يحتذى به . ويذهب تارد الى أن الفقر لا يؤدىوحده الى الجريمة ، وانما عدم الرضـا وعـدم الشبع هو الذىيولده ، وهذا وذلك كما قد يوجدعند الفقير فانه قد يتوافر لدى الغنى .

ولا يختلف دوركهايم عن غـيره من علمـاءمدرسة الوسط الاجتماعى فى اعتبـار الجريمـة وليدة الظروف الاجتماعيةواليها ترجع اسبابها .على انه يرفض اعتبار الجريمة ظاهرة غير عادية فى المجتمع ، بل انه يؤكـد صفتهـا الاجتماعيـةالعادية ، فهي موجودة فى كل مجتمع انسانى ، وهي علامة من علامات صحته ، ولا يوجد مجتمعلا تحدث فيه يوميا انتهاكات لاخلاقياته . ويؤدى رايه الى انه لما كانت الجريمة ظاهرة عادية فهيلا تنشأ عن أسباب استثنائية ولكنمنذات الهيكل الثقافى الذى تنتمى اليه . وانه لما كانت الجريمةناتجة عن التيارات الاجتماعية الكبيرة فى الجماعة فان وجودها وعلاقاتها بالهيكل الاجتماعى يحملانلها صفة الاستمرار والعمومية . وعلى هذا فانه لا يجب تفسير الجريمة ولا تحليلها الا بالثقافـةالغالبة فى وقت ومكان محددين .

ويرى سذرلاند (١٠) — وهو من المدرسةالاجتماعية فى الولايات المتحدة الامريكية — أن السلوك الاجرامي هو سلوك انساني يشترك فىالكثير مع السلوك غير الاجرامي . ويضع سذرلاند نظرية تكوينية للسلوك الاجرامى ، مبينا كيف تتمالعملية التى تؤدى بشخص معين الى السـلوك الاجرامى . وتتلخص فى أن السلوك الاجـرامىيُتَعَلَّم ولا يورث ، وذلك بالتداخل مع أشخاص آخرين فى عملية اتصال ، وهو يحدث فى نطـاقجماعات الأشخاص ذات العلاقة الودية الوثيقة ، وتعليم السلوك الاجـرامى يتضـمن فن ارتكابالجريمة ، وينحرف الشخص حين ترجح له كفة الآراء التى تحبذ انتهاك القوانين على كفة الآراءالتى لا تجيز انتهاكها ، وهذا هـو مبدأ العلاقـة التفاضلية . وحينما يصبح الأشخاص مجـرمينفهم يقبلون هذا لاتصالهم بنماذج اجرامية مـن جهة ، وبسبب عزلهم عن النماذج التى تقـاومالاجرام من جهة أخرى ، وأى فرد يتشرب حتما الثقافة المحيطة به الا اذا وجد حوله نماذجأخرىفى صراع معها . والأسبقية هنا هامة بمعنى أن السلوك القويم الذى يكتشف فى الطفولة المبكرةقد يستمر طول الحياة ، كما أن السلوكالمنحرف الذى يكتشف فى الطفولة المبكرة قد يستمربدورهطول الحياة . وتبدو أهمية الأسبقية من خـلال تأثيرها على الشخص عندما يقف موقف الاختبار.

---

(١٠) سذر لاند وكريسي — الترجمة الفرنسية ص٨٨ ، الترجمة العربية ص ١٠١ .

والنظرة الحديثة الى الجريمة هي اعتبارها مسألة اجتماعية، وتبدى الاهتمام بكل من العاملين البشرى والبيئى ، وهو ما يبدو من الابحاث الأخيرة التى تقرر بأنه لفهم الفرد يحتاج الأمر لفهم طبائعه وظروفه وقت ارتكاب الجريمة وكذلك الوسط الذى نشأ فيه والعوامل التى كان لها الأثر فى بناء شخصيته (١١) . ويتوافر عامل الجريمة فى النظام الكامل المعتاد للفرد فى مجتمعه الخاص . فربط الجريمة بعامل واحد يفتح الباب للنقد من اساسه ، فاذا قيل ان التعطل سبب الجريمة لصح القول بأن التعطل يؤدى الى الحياة على نفقة الأقارب ، او قبول الاعانة العامة ، أو احتراف التسول او التشدد او السرقة او الانتحار . فالعامل الاقتصادى قد يثير كل هذه الاحتمالات . فلماذا يختار الفرد المتعطل طريقا دون الآخر ؟ والجواب على هذا انه فى كل حالة على حدة يوجد طريق معتاد للحياة يجعل ايا من هذه العوامل يظهر عندما تحين له الفرصة . فالتعطل بديله ليس هو ارتكاب الجريمة وانما العامل الكامن فى طرق الحياة المحيطة بالفرد (١٢) .

ولقد اردنا بما سلف ذكره بيان أن محاولة اسناد السلوك الاجرامى الى عامل واحد ليس من السهل قبوله ، لأن الانسان منذ مولده حتى وفاته تحيط به عوامل عديدة مختلفة الأنواع هي التى تشكل سلوكه فى الحياة . حقيقة قد يكون لأحد هذه العوامل اثر اكبر من غيره ، ولكن لن يتأتى منفردا حتى يؤدى قطعا الى سلوك معين . فاذا قلنا ان المنزل المتصدع من العوامل المؤدية للاجرام فمما لا جدال فيه أن بعضا ممن نشأ فى منازل متصدعة لم يرتكب جريمة . وكل عامل من العوامل التى يتناولها العلماء بالبحث يمكن النظر اليه من وجهتى نظر مختلفتين ، اى باعتباره مؤثرا فى السلوك الاجرامى او بغير اثر عليه . واذا كان السلوك الاجرامى ينشأ عن تفاعل عوامل عديدة مع بعضها فقد حاول بعض العلماء وضع تقسيم لتلك العوامل بناء على اسس اتخذوها قاعدة للتقسيم . على أنه لما كان من الصعب وضع ضوابط فاصلة بين مختلف عوامل السلوك الاجرامى، فكذلك الشأن بالنسبة الى التقسيمات، وعلى سبيل المثال اذا قلنا أن السلالة عامل يتصل بشخص الفاعل فلا شك ايضا انه يمكن ادراجها ضمن الظروف الاجتماعية اذا نظر اليها من ناحية تقاليدها .

ويوصل بنا كل ما تقدم الى السؤال التالى: ما هو المقصود بالبيئة (١٣) فى نطاق بحث علاقتها بالجريمة ؟ وهل يراد بها معنى واسعا ام نطاقا ضيقا ؟ اى هل يقصد بها المجتمع كله الذى يعيش فيه الفرد ، او المحيط العام الذى تجرى فيه حياته ام الوسط الخاص الصغير الذى ينشأ

(١١) نوروود ايست ص ٢١٩ .

(١٢) تنبوم ص ٢١٦ ، وقد ذكر حالة امراة من متشجان حكم عليها بالحبس لمدة شهر وبدلا من تحمل الحبس قتلت اطفالها الثلاثة وانتحرت ، وهذه الاستجابة تحققت بسبب تحديدها لمعنى الشرف والمهانة وقيمة الحياة . فاذا كانت تؤمن بأن الانتحار سوف يدمر روحها وروح أولادها لماكان الانتحار بدلا من المهانة . فالظروف الاجتماعية لوسيلة الحياة هي التي حددت الطريقة .

(١٣) وقد استمد علم البيئة اساسا من علم الاحياء حيث لفت الانتباه الى حقيقة ان مختلف انواع النباتات تتجه نحو النمو معا ــ كالشأن بالنسبة للمجتمعات البشرية ــ ولها بداية مؤقتة ثم تتغير نتيجة للتطورات حتى تصل الى صورتها النهائية (برنس ص ٢٥) .

فيه ويتصل به ؟ وفى عبارة اخرى هل يرادبالبيئةالدولة أو جزء منها أم المنطقة التى يعيش فيها أم وسط ضيق سواء تمثل فى أسرة أو مدرسة أو عمل ؟ ومما ينبغى التنويه اليه ابتداء من جميع الاتجاهات التى حاولت ان ترد الجريمة الى عوامل محددة لم تغفل وجود مسحة من أثر الجماعة أو الظروف الاجتماعية على أى من تلك العوامل . فالعامل الجغرافى سواء تعلق بالشتاء او الصيف لا يمكن نزعه عن المجتمع الذى يعمل أثره فيه . وقد ينتهي بنا هذا الى دراسة جميع عوامل الجريمة اما باعتبارها نتاج البيئة بوجه عام أو ان البيئة تؤثر فيه بشكل أو آخر . مع أننا فى مجال هذه الدراسة نقتصر على عوامل الجريمة ذات الصلة المباشرة بالبيئة .

وقد حاول بعض العلماء تقسيم البيئة الى بيئة جغرافية واخرى اجتماعية وكذلك الى بيئة عامة واخرى خاصة . والبيئة الجغرافية هي التى يعيش فيها الانسان وتتعلق بالجو والفصول والرياح ، وأن أثرها بالنسبة الى الانسان ثانوى ، الا انه لا يمكن فصلها عن البيئة الاجتماعية . والبيئة الاجتماعية يقصد بها التعمق فى الظروف المدرسية والثقافية والاقتصادية . وهذه البيئة قد تكون عامة ، اى تشمل الظروف العامة لوسط معين له تأثير على كل الأفراد فى هذا الوسط ، وقد تكون بيئة خاصة يبين أثرها الواضح على الفرد بذاته بصورة جلية . والبيئة الخاصة يمكن تقسيمها الى اقسام ثلاثة (١٤) ، **الأول** بيئة لا اختيار الفرد منها وهي التى تتصل بالأسرة ، فالطفل يتبع المكان الذى يوجد فيه . **والقسم الثانى** هو البيئة العارضة ومثالها المدرسة والمصنع وأداء الخدمة العسكرية والمؤسسة حين ادانة الشخص ، فحياة الانسان عبارة عن خطوات لا يستطيع التخلص منها كقاعدة عامة ، وتلك الخطوات تترك بصماتها على الفرد . واخيرا **الوسط المختار** أو المقبول حيث يختارها الفرد فى فترة المراهقة والبلوغ أو يرضى عنها حيث يقيم بها . ويدخل فى هذا ايضا الأصدقاء الذين يختارهم الشخص وقد يكون لهم أثرهم فى السلوك الاجرامى وعلى وجه الخصوص تكوين العصابات (١٥) .

وفى سبيل دراسة البيئة والجريمة يتعين علينا تحديد غاية هذه الدراسة والفكرة التى تقوم عليها . فالانسان بطبيعة الحال اينما كان لابد وان يوجد فى جماعة معينة يعيش معها او يعايشها ، على أن ظروف الحياة قد تقتضيه التنقل من ذلك المكان ، ولكنه غالبا ما يعود اليه ، ومن هنا كان المكان أكثرها التصاقا بشخصه ، وهو يتأثر به ويؤثر فيه . ولما كان السلوك الاجرامى يعتبر نتيجة لعمليات انسانية ونفسية داخل الفرد فلابد ان يكون لها جذورها فى حياته السابقة ، وهذه

---

(١٤) راجع فى هذا الصدد ستيفاني وآخرين ص ٩٤ وما بعدها ، وكذلك بناتل ص ٥٧ وما بعدها وهو يقول ان البيئة في المعنى الدارج تفيد الوسط الخارجي المحيط بالشخص ولكن المتخصصين يؤكدون فى تحديد البيئة على الدور الايجابي الذي يلعبه الوسط فى صدد كل كائن يتحرك تحت سلطانه ، وقد ادخل علم الاجتماع الحديث فى تعريفه للوسط عنصرا جديدا يقتصر على الانسان دون غيره من الكائنات . ويذهب ارنست سيلج (ص٦ و ١٨٦) الى ان الاسباب المباشرة للجريمة تتركز فى عنصرين الاول البيئة والآخر شخصية الجاني ، والبيئة تعني الظروف القائمة وقت ارتكاب الجريمة وتؤدي الى الفعل وتجعل تنفيذه ممكنا او يمتنع عن التنفيذ ، اما شخصية الجاني حين ارتكاب الجريمة فانها تتالف من مكونات شخصيته في الحياة .

(١٥) ستيفاني بند ١٠٠ .

الجذور تستوحى من المكان الذى يعيش فيه ، فهو يعرف عنه ما لا يعرفه عن مكان آخر ويتجاوب معه عاطفيا بما لا يحدث له فى غيره . ويلزم ان يكون هناك نوع من الاتصال المستقر الثابت الذى يعطى فرصة كافية للقيم أو النماذج السلوكية لترسخ فى نفس الفرد . وهذه القيم والنماذج السلوكية هي التى تحدد الطريق الذى يختاره الفرد فى حياته . وعند تحديد معالم المكان الذى يكون له ذلك الأثر فى الانسان فانه يعتبر بيئة له . على أن هذا لا يعنى أن تكون البيئة هي المكان الذى يقيم فيه الشخص دواما فلا يبرحه ، بل على العكس ان مقياسها هو درجة ماتتركه بصماتها على السلوك طالت مدة وجوده به أم قصرت . وعلى سبيل المثال يمكن اعتبار فترة الدراسة فى احدى مراحل التعليم بيئة للفرد خلال جزء من حياته لما تتركه من آثار فى نفسه تنعكس على سلوكه .

وتمشيا مع سير الأمور الطبيعى فى الحياة يمكن ان ينطوى تحت مصطلح البيئة ، الأسرة والمدرسة والعمل والطريق والحي الذى يوجد فيه الشخص والريف والحضر ، وجفرافية المنطقة من ناحية الجو وما يتبعه من مواسم زراعية أو تضاريس اليابس والماء ذاتها ، لأن كلا من هذه العناصر قد يترك بصمته بصورة أو بأخرى على سلوك الفرد بصفة عامة ، والذى قد يكون اجراميا .

واذا أردنا أن تكون لهذه الدراسة صورة واقعية ، فاننا نستعين بالأدوات المتاحة لذلك وهي الاحصائيات الجنائية التى ترسم حقيقة الجريمة وحجمها ، وعن طريقها يمكن الوصول الى العوامل المتصلة بالبيئة ، وفى معرفتها ما قد يسهل البحث بعد ذلك فى كيفية مقاومتها للتغلب عليها ، وبذا يكون الاقلال من حجم الجريمة . هذا مع التنويه بما يوجه الى الاحصائيات الجنائية من نقد ، حيث تعتبر ارقامها تقريبية وتعطى مجرد مؤشر للباحث (١٦) .

ولقد تناولت دراسات الجريمة فى البيئة صورتى الريف والحضر مع العناية بتحديد تلك الأماكن من الدولة وبيان صور الاجرام وحجمه وعوامله وخطورته فى المدن الصغيرة منها والكبيرة ، مع مقابلة بينهما على اساس من نسبة تعداد السكان .

ومشكلة الجريمة فى المدينة الكبيرة أكثر تعقيدا حيث لوحظ وجود مناطق خاصة ذات ثقافة اجرامية عالية لا سيما فى أطراف المدن بالقرب من المناطق الصناعية حيث يستقر المهاجرون ، كما تبين تنوع صور الجريمة حسب موقعها من المدينة . وهذه الدراسات تقوم على أساس من البيئة الخاصة التى يختارها الباحث . واهتداء بهذا الاتجاه فان البيئة العربية سواء فى جمهورية مصر العربية أو غيرها تختلف عن البيئة فى الدول الأجنبية المتقدمة ، وعلى سبيل المثال فان مصر ما تزال ــ رغم تقدم بعض الصناعات ــ تعتمد أساسا على الثروة الزراعية فى حين أن الصناعات متقدمة فى الدول الغربية بدرجة مذهلة ، وكان من الطبيعى أن تختلف صورة الجريمة عندنا عن تلك التى تتوافر لديهم .

---

(١٦) حسن المرصفاوي ــ ص ٥٤ .

ويذهب بعض العلماء الى القول بأن الفوارق بين الاجرام فى الريف والاجرام فى الحضر سوف تقل بمرور الأيام بسبب تقدم المدنية فى الحياة الحديثة ، لسهولة المواصلات بين البلاد وانتشار وسائل الاعلام وأثرها فى العلاقات بين الناس وبالتالى فى الاجرام . وهذا القول ان كان فيه بعض الحقيقة الا أن هذا التغيير يراد به أن يشتد التقارب بين الريف والحضر ، وهو يحتاج فى مصر بالذات الى أجيال عدة. ويرجع هذا الى ان العماد الأساسى لغالبية الشعب فى عمله هو الزراعة ، وهذه مسألة خلقتها الطبيعة ولن تغيرها الأيام ، وقد نشأ الفلاحون وتربوا على تقاليد تمتد جذورها الى آلاف السنين ، وليس من اليسير تغييرها مهما امتدت وسائل المدنية الى أقصى القرى ، لأن المطلوب هو تغيير النفس البشرية . وآية ما نذهب اليه هو ما كشفت عنه الاحصائيات الجنائية بوضوح حيث تبين ان الجرائم الدموية التى يعتدى فيها على الأشخاص تمثلت فى الريف فى العشرينات والثلاثينات والأربعينات والسبعينات ، والجرائم التي يكون موضوعها المال ويراد بها الكسب هي سمة اجرام المدنية .

ويبين الجدول التالى جنايات القتل العمد والشروع فيه خلال السنوات ١٩٣٨ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٤ ، وذلك وفقا لما وقع منها فى محافظتي القاهرة والاسكندرية ، ثم محافظات الوجه البحرى ومحافظات الوجه القبلي :

السنة / المكان	١٩٣٨	١٩٤٨	١٩٥٨	١٩٦٨	١٩٧٤
القاهرة والاسكندرية	٢٩٩	٢٦٣	١٩٢	١٧٨	١٢٩
الوجه البحرى	١١٣٧	٧٧٩	٨٨٧	٣١٥	٣٥٣
الوجه القبلي	١٨٧٠	١٤٥٨	١٨٣٣	٧٢٩	٧٧١

ويكتشف هذا الجدول عن أنه الى حوالى اربعين عاما مضت زادت جنايات القتل العمد والشروع فيه فى الوجه القبلي عنها فى الوجه البحرى ، رغم تدرجها الى خاصية النزول فى كل من الوجهين البحرى والقبلي ومحافظتي القاهرة والاسكندرية. هذا مع ملاحظة ان تعداد سكان الوجه البحرى يزيد على عدد سكان الوجه القبلي ، ويمكن رد النتيجة التي تتبين من الجدول الى عادة الثأر التى ما تزال قائمة بين أهالي البلاد ، ويتضح هذا من الاحصاء الجنائي الذى يوضح الدوافع التي تبرز خلف جرائم القتل . وبمراجعة جدول جنايات القتل العمد والشروع فيه خلال السنوات ١٩٢٧ حتى ١٩٣٣ فى بعض بلاد الحضر والريف ــ والذى يأتى بيانه ــ يتضح ان الجزء الاكبر من هذه الجرائم ما زال مسيطرا على المناطق الريفية. ونتناول فيما يلي عوامل الجريمة ذات الصلة المباشرة فى البيئة .

●●●

عوامل طبيعة البيئة .

نقصد بطبيعة البيئة ما تختص به منطقةمعينة من ظروف خلقها الله سبحانه وتعالي ولا دخل لارادة الانسان فيها ، ويمكن اعتبار العوامل الطبيعية فى ذات الوقت عوامل جغرافية . ويندرج تحت تلك العوامل جغرافية الارض منناحية اليابس والماء والسهول والمرتفعات ، وتعاقب الليل والنهار ، وحرارة الجو وبرودته ، والامطار والجفاف بما يترتب على هذا من المواسم الزراعية.

ولقد استلفتت حرارة الجو وبرودته وآثارها على الجريمة أنظار الباحثين ، وقيل أن الجو الحار يساعد على توتر الاعصاب ويضيف تحكم الانسان فى ارادته لما يصنعه من ضيق فى التنفس، فتكون انعكاسات الظروف التي تتصل بالفرد سريعة دون ترو أو تفكير ، وعنيفة تخرج عن التقدير المألوف ، هذا اذا كانت درجة الحرارة فى حدود المعقول ، اما اذا زادت عما يتحمله الانسان عادة فان اثرها يكون عكسيا ، اذ يترتب عليها الخمول وقلة الحركة ، وقليلا ما يسلك الفرد سلوكا عدوانيا ، وفى الجو البارد تنعكس الآية فتكون اعصاب الانسان اكثر هدوءا وتصرفاته أكثر اندفاعا ، بل ان البرد فى حد ذاته ، اذا زاد عن المألوف ، يدفع الفرد الى الانزواء فى الاماكن الدافئة ، ومن ثم يقل اتصاله بالناس ، وتبعا لذلك يقل الاحتكاك الذى قد يؤدى الى السلوك الاجرامي .

وهذا الذى سقناه انما يخص الجرائم التي تمس سلامة الجسم ، كالقتل والضرب ، وتنعكس الآية بالنسبة الى جرائم الاعتداء على المال ، فهي تقل فى الجو الحار وتزيد فى الجو البارد ، وبمعنى آخر تقل فى شهور الصيف وتزيد فى شهور الشتاء، ذلك ان حرارة الجو من شأنها ان تقلل من نوم الافراد ، الامر الذى يجعل الظروف غير مواتية لارتكاب الجرائم ضد المال ، وعلى وجه الخصوص جرائم السرقات . أما برودة الجو فى الشتاء فان الليل وانكماش الناس طلبا للدفء يتيح الفرصة للمجرمين ــ لا سيما اللصوص ــ لارتكاب جرائمهم .

ومع هذا فانه لا يمكن القطع بأن حرارة الجو أو برودته عامل أساسي فى الاجرام ، وانما قد تكون طرفا مساعدا له يرتبط بغيره من الظروف التي تؤدى الى الجريمة . فاذا كانت بعض الابحاث قد اثبتت زيادة الجرائم ضد الاشخاص فى الصيف وزيادة الجرائم ضد الاموال فى الشتاء بما يتفق مع أثر الحرارة فى خط سير الجريمة ، فهناك من يقول بأن الجرائم تزيد فى الصيف لان الناس اكثر اتصالا فى الصيف مع بعضهم ، الامر الذى يدعو لبحث ما اذا كانت للحرارة آثار على البناء الانساني ، ثم يأتى بعد هذا البحث الاكثر اهمية وهو قيام الصعوبة فى وسيلة التغلب على هذا التأثير على البناء الانساني (١٧) .

واذا نظرنا الى واقع مصر وجدنا ان جوها بصفة عامة معتدل ، ومع هذا فان جو الصيف يعد حارا نسبيا فى حين أن الشتاء متميز بالبرد نسبيا ، هذا فضلا عن ان الجو فى بلاد الوجه

---

(١٧) برنس ص ٣٥ .

البحري أقل حرارة عن بلاد الوجه القبلي . ولا ينبغي علينا ان نغفل فى هذا المقام عادات اهل البلاد من تركهم لدورهم فى الصيف والمبيت على أسطحهامما يترتب عليه سهولة اقتناص الفريسة فى جرائم القتل اخذا بالثأر ، وصعوبة ارتكاب السرقات حيث يصعب على اللص الوصول الى داخل الدار ، كل هذا بعكس الشتاء .

ولو أردنا ترجمة اثر حرارة الجو فى ارتكاب جريمة القتل العمد على اساس ما يقع بالمحافظات فى مصر بالوجهين البحرى والقبلى من جرائم لتبين من الاحصائيات الجنائيـة أن جنايـات القتـل والضرب المفضي الى الموت ، والضرب الذى تنشأ عنه عاهة مستديمة غالبا مـا تقع فى شـهور الصيف ، كما ان نسبتها فى محافظـات الوجـه القبلي أعلى منها فى محافظات الوجه البحرى ، الا انه لا يمكن اسناد هذه الظاهرة الـى حـرارة الجو وحدها ، ذلك أن هناك من الزراعات خـلال شهور يوليو واغسطس وسبتمبر ما يكون عاليا ويساعد على اقتناص المجني عليه كما يساعد على هروب الجاني ، بعكس باقى شهور السنة ، ولايجب أن ننسى عواقب الثأر وما يقتضيه من ارتكاب جرائم القتل فى المواسم والاعياد الدينية ، وعرف الثار هو الذى جعل جنايات القتل العمد تزيد فى الوجه القبلي عنها فى الوجه البحرى . اما بالنسبة الى جرائم المال فلا يمكن أن يستشف من الاحصائيات قاعدة عامة يمكن ربطها بحرارة الجو أو برودته ، ومما يسـتلفت النظـر فى الاحصائيات ارتفاع نسبة الجرائم الجنسية فى الجو المعتدل .

ولعل اقل عوامل الطبيعة تأثيرا فى وقوع الجريمة هو وقت وقوعها ، فهي تحدث فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار . ومع هـذا فان هناك من الجرائم ما يكون اختيار الجـانى لوقت ارتكابها ليلا مما يساعده على اتمامها فى الخفاء والافلات من يد العدالة ، فالليل هو وقت الهدوء والنوم للناس بعـد عنائهم من العمـل ، يعمل فيه المجرمون وهم فى مأمن كبير من أعين الرقباء ، وليست الجرائم على درجة واحـدة من اختيار الليل لارتكابها وانما يختلف الأمر وفقا لموضوع الجريمة . فالجـرائم التى يراد منهـا الاعتداء على الأشخاص لن يوفر الليل لها ظرفا خاصا الا فى صور مستثناة أبرزها القتل اخـذا بالثار أو انتقاما ، ولهذا يستوى أن يقع فى الليل أو فى النهار . أما الجرائم التى يكون موضـوعها الاعتداء على المال فان الجانى غالبا ما يتخذ مـن الليل ستارا لارتكاب فعلته ، وهو ما حدا بالمشرع الى اعتبار الليل ظرفا مشددا فى تلك الجرائم .

ويبين من الاحصائيات الجنائية فى مصر عن السنوات من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٤ ان جنايات القتل العمد والخطف تزيد نهارا عنها ليلا ، وان جنايات السرقة وجنايات الحريق وجنح السرقة تزيد ليلا عنها نهارا ، وهو امر ملاحظ بصفة مضـطردة خلال الخمس سنوات السابقة . على أن هـذا لا يقطع بأثر ظرف الليل على تلك الجرائم ، فلقد كان الأمر مغايرا لما تقدم فى الثلاثينات بالنسـبة لجرائم القتل العمد ، فلقد بلغ مجموع ما وقع فيها ليلا فى السنوات العشر من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٩ أكثر من ضعف مجموع الجنايات نهارا ، ثم انه فضلا عما تقدم فان النهار ـ ونقصد به فتـرة انتشار الضوء ـ يطول كثيرا بالنسبة الى الليل ـ أى وقت الاظـلام ـ خـلال شـهور الصيف ، على العكس من شهور الشتاء ، وهو ما ينبغى ان يؤخذ فى الاعتبار عند حساب عدد الجرائم .

ويعنينا على وجه الخصوص العلاقة بين طبيعة البيئة والجريمة فى المواسم الزراعية والطبيعة الجغرافية للأرض .

المواسم الزراعية :

تعتمد مصر فى الجانب الأكبر من اقتصادها على الانتاج الزراعى، وغالبية سكانها من الفلاحين الذين يعتمدون فى حياتهم على الزراعة ، وتتم الزراعة فى مصر فى ثلاث دورات رئيسية : الصيفى والقبلى والشتوى ، وتعتمد الأراضي الزراعية فى ريها على مياه النيل ، واذا كان عماد الفلاح فى حياته على الزراعة ، وحياة الزراعة متوقفة على الماء ، لتصورنا مدى أثر الزراعة والمياه فى حياة الفلاح . والزراعة فى مصر قد تكون سببا مباشرا للجريمة ، وهي كذلك ظرف مهيء لارتكاب الجرائم .

فالفلاح المصرى يحرص على زراعته حرصه على حياته، واى ضرر او اذى يصيبها انما يصيبه فى قوام معيشته ، والعدوان على زراعة الفلاح يتمثل فى قطعة الأرض التى يقوم بزراعتها والحياة التى تستخدم فى ريها . والرقعة الزراعية فى مصر محدودة ولا تتجاوز ٤ ٪ من مساحة الدولة كلها . ولهذا فان ما يضع الفلاح يده عليها منها يحرص ويتفانى فى المحافظة عليه ، واى مساس بالأرض التى يزرعها يدفع به الى حمايتها الدرجة ارتكاب أخطر الجرائم : ويتمثل ذلك المساس فى صورة من اثنتين **الأولى** منهما محاولة من جانب المالك او نحوه رفع يده عن أرضه لأى سبب من الأسباب المشروعة وغير المشروعة ، **والصورة الأخرى** محاولة بعض الجيران الافتئات على الحدود للأراضى الزراعية ، وضم بعض الارض الى الجزء من الأرض الذى يحوزه .

أما بالنسبة الى مياه الرى فانه الى ما قبل اقامة السد العالي كان هناك موسم فيضان النيل، حيث تتوافر المياه فيستطيع كل فلاح رى أرضه فى يسر وسهولة ، وهناك الموسم المقابل الذى تقل فيه المياه وتقوم فيه الحكومة بتوزيع مياه الرى على البلاد فى فترات محددة، فى خلال تلك الفترات التى كثيرا ما تكون قصيرة فيحصل التزاحم بين الفلاحين حول اسبقية الرى ، ومن الطبيعى أن يحصل الخلاف حول هذا الأمر الحيوى الهام الذى قد يتطور الى معارك تنشأ عنها اخطر الجرائم .

هذا عدا ما يمكن أن يحدث من جرائم لأسباب أخرى ، كالخلاف حول قيمة الايجار او المزارعة ، أو طرد مستأجر من ارضه ، أو توقيع حجوزات على المحصولات الزراعية ، أو الخلاف حول استخدام أدوات الزراعة او ادوات الرى كالآلات الميكانيكية او ادوات رفع المياه . وقد تكون الماشية التى تستخدم فى الزراعة سببا لبعض الجرائم ، لا سيما عند الخلاف على استعمالها ، بل قد تكون هي بذاتها موضوعا لجريمة ، كالاضرار بها ضررا جسيما أو قتلها .

والمواسم الزراعية هي بدورها عامل مهييء للاجرام، ففى شهور الصيف على وجه الخصوص يكون انتاج بعض المحصولات الزراعية والاعداد لأنواع أخرى من الزراعة . ولهذا فانه اذا كان

قد سبق القول بأن حرارة الجو فى شهورالصيفمن عوامل الاجرام فان الظروف الزراعية بدورها تعد من عوامله . ففى شهر مايو يكون حصـدالقمح ووضعه فى الأجران تمهيدا لعملية فصـل حبه عن قشه ، وتكون الفرصة مواتية حينئـذلارتكاب جرائم الحريق ، لا سيما ما كان منهـا انتقاما ، وسرقة المحصولات ، بل والقتل ، حيثيتيسر اقتناص المجنى عليهم بسبب عادة الفلاحين بالمبيت فى الأجران أثناء جمع المحاصيل . وفىشهر مايو أيضا تكون شجيرات القطن قد اخـذت تكسو الأرض ويكون أشد ما يصيب الفلاح اتلافهاانتقاما . وفى اغسطس وسبتمبر يجنى القـطن ويحصد الذرة ، مما يسفر عن ارتكاب اخطـرجرائم السرقات بالنسبة الى محصول القطـن ، وكثيرا ما تكون مصحوبة بجرائم القتل نتيجـةللمقاومة . وفى فترات بذر البذور يكون الخلاف بين الفلاحين ، لا سيما حول الحدود ، بما يؤدىالى أخطر الجرائم ، فيبذر الذرة الشـامى فى سبتمبر ويبذر القمح والفول والبرسيم فىاكتوبر .ومما يلاحظ ايضا ان الذرة الصيفية خلاليونيو ويوليو واغسطس تكون متكاثفة الأعـواد طويلةالسيقان ، ويقابلها فى موسم الشتاء زراعةالقصب الذى يغرس فى مارس وابريل ويحصد فىديسمبرفى الوجه القبلى . فالسيقان الطويلة تساعد على ارتكاب جرائم القتل حيث يتيسر للجناة الاختفاءبها والهرب بعد ارتكاب الجريمة ، كما أن هـذه الحقول تكون موضوعا لجرائم الحريق .

ويعطى الجدول التالى صورة عن جناياتالحريق العمد خـلال السنوات ١٩٧٢ و ١٩٧٣ و ١٩٧٤ (١٨) :

السنة	مجموع الجرائم	وقت الجريمة		الاتهـام		أعلى شهور السنة مرتبة تنازليا			مكان الحريق تنازليا			محل وقوع الجريمة تنازليا		
		نهارا	ليلا	مجهول	معلوم	١	٢	٣	١	٢	٣	١	٢	٣
١٩٧٢	٧٨	٣٥	٤٣	٤٦	٣٢	مايو	يونيه	يوليو	مسكن	مزارع	شركة	أثاث	محاصيل زراعية	مسكن
١٩٧٣	٦٦	٢٢	٤٤	٤٣	٢٣	مايو	ابريل	يوليو	مسكن	مزارع	شركة	أثاث	محاصيل زراعية	مسكن
١٩٧٤	٣٧	١٣	٢٤	٢٥	١٢	مايو	يناير	يونيه	مسكن	شركة	مزارع	أثاث	مدارسية	بضائع

واعلى نسبة لحرفة المهتمين هي للمشتغلينبالاعمال الزراعية والصيد فى البحر والبر وأعمال الغابة ومن اليهم ، وبعدهم اصحاب الحـرفوالصناع والعمال والمشتغلين فى عملية الانتـاج والفعلة والعتالين ، والذين لم يصنفوا فى مكانآخر .

---

(١٨) راجع تقارير الامن العام فى مصر عن السنواتالمشار اليها بالمتن .

يتضح من الجدول آنف البيان أن صـورجريمة القتل العمد تحتل المزارع بالنسـبة الى المكان المركز الثانى أو الثـالث ، وأن موضـوع الجريمة وكونه محاصيل زراعية يحتـل بدوره المركز الثانى ، وان الجريمة غالبا ما تقع فى شهور الصيف ، الأمر الذى يدل على وجود علاقة كبيرة بين المواسم الزراعية وانتاج الحاصلات وجـريمة الحريق .

ولا تختلف الصورة بالنسبة الى جناية اتلاف المزروعات وفق الجدول التالى :

السنة	مجموع الجنايات	وقت الجريمة		الاتهـام		أعلى شهور السنة تنازليـا		
		ليلا	نهارا	مجهول	معلوم	١	٢	٣
١٩٧٢	٧	٧	—	٦	١	يوليو	أغسطس	سبتمبر
١٩٧٣	١٧	١٦	١	١٥	٢	يوليو	يونيو	ابريل
١٩٧٤	٧	٦	١	٦	١	أغسطس	يوليو	مايو

ويتضح من هذا الجدول أن شهور المواسم الزراعية هي التي تقـع فيها جرائـم اتـلاف المزروعات ، وأن المتهمين ان لم يكونوا كلهم مـن المشتغلين بالاعمال الزراعية فانهم يمثلون الغالبية، والجزء الاكبر من جنايات اتلاف المزروعات يتم ليلا ، ولذلك فان الاتهام فيها يكون نادراً أو غالبا ما تحفظ القضايا مؤقتا لعدم معرفة الفاعل .

وضيق رقعة الارض الزراعية ، وما يتركه من أثر فى الحياة الاقتصادية ربط بينه وبين نوع من الزراعات طويلة السيقان ، وافرخ نوعا معينا من الجرائم هي جرائم الخطف ابتغاء الحصول على فدية من ذوى المجنى عليه . وقـد تركـزت جنايات الخطف فى مصر فى محافظات المنيا وأسيوط وسوهاج وقنا بوجه خـاص ، حيـث تكونـت عصابات الخطف المسلحة التي يهـدف أفرادها الحصول على المال ، وغالبية المجنى عليهم فى تلك الجرائم من البالغين، وتتراوح الفدية للافراج عن المخطوف بين مائة والف جنيه . وقد ساعـدت انواع معينة من الزراعات ذات السيقان الطويلة على نشأة ما يسمى بالعصابات الموسمية حيث توجد فى مواسم زراعية معينـة وتنتهي بانتهـاء الموسم . ويسهل اختفاء الجناة واخفاء المجنى عليهم فى تلك الزراعات ، كزراعـات القصـب فى محافظة قنا وزراعات الذرة فى محافظتي اسيوط وسوهاج (١٩) .

والى جوار هذا توجد العصابات المحترفة التى تتكون من بعض الخارجين على القانون وتبقى بصفة دائمة ، يستغلون بدورهم المواسم الزراعية فى ارتكاب جرائم الخطف ، ويعتصمون بالجبال حيث يقيمون اقامة دائمة . وهـي تتركـز فى محافظتى أسيوط وسوهاج . ويحول مكان اقامتهم

(١٩) زكريا مصطفى طه ـ ص ١٩ ، ٢٥ .

دون وصول رجال الشرطة اليهم بسبب وجود المغارات والدروب التى يجهلونها ، والتى يعتصم بها المجرمون ويقيمون فى اعلى الجبال ، حتى تستهلك مطاردتهم جهدا كبيرا من رجال الامن ، ويستطيعون من اماكنهم السيطرة على كل قوة مهاجمة لهم (٢٠) .

جغرافية البيئة :

الانسان هو الشق الاصلى فى الظاهرة الاجرامية وهو العامل المحرك للحدث المكون للشق الثانى ، اى الجريمة حسبما وقعت فى المحيط الخارجي، والانسان وليد البيئة والظروف المحيطة به، بمعنى ان ظروف البيئة هي التي تهيىء السلوك الانسانى على نحو معين ، لدرجة انه يمكن القول بأن تغير الظروف من شأنه ان يؤدى بدوره الى تغير السلوك الانساني سواء فى هذا أكان سلوكا حميدا أو سلوكا غير قويم . والانسان فى هذا الصدد شأنه شأن بذرة النبات فانها ان وضعت فى الارض فقد تصادف تربة صالحة تتفاعل معها وتنبت وتستوى نباتا سليما ، أو لا تصادف هذه التربة فتنشأ معتلة ان لم يقدر لها عدم النبت اطلاقا بسبب عدم ملاءمة الظروف التي وجدت فيها . وكما يقال ان لكل بيئة أو مجتمع الجريمة التي تتوافق معه .

واعمال القاعدة آنفة البيان لا بد وان ينتهى بنا الى أن الانسان لو شاء له قدره أن يسلك سبيل الجريمة فان اختيار نوعيتها يكون متوائما مع طبيعة المكان الذى يوجد فيه والظروف المحيطة به . فمثلا اذا كان الفرد يشتغل بالأعمال الزراعية فان الجرائم التي يرتكبها تكون فى نطاق تلك الاعمال ، ومن هذا القبيل بالنسبة الى جرائم الاعتداء على المال جرائم اتلاف المزروعات وطريق المحصولات . واذا كان الشخص عاملا فنيا ذهبت جرائمه نحو الاعمال الصناعية التي تتعلق بالمصانع الصغيرة والورش ، واذا كان يعمل بالخدمة لدى الافراد كانت جريمته فى غالب الاحيان سرقة مال مخدومه .

ومما يتصل بالبيئة فى صدد تحديد السلوك الاجرامي الذى يتخذه الشخص هي الطبيعة الجغرافية للبيئة التي يوجد فيها ونقصد بها طبيعة الارض، وما اذا كانت زراعية أم صحراوية أو مسطحات من المياه (٢١) ، وكذلك يراد بذلك الموقع من حدود الدولة لما يساعده من وقوع نوع خاص من الجرائم . ولقد سبق ان اشرنا عند الكلام على جريمة الخطف كيف يتخذ الجناة من البيئة الزراعية السيقان الطويلة لارتكاب الجريمة، ومن الجبال والمغارات اماكن اخفاء المجنى عليهم واختفائهم هم عن اعين رجال الامن ومقاومة كل من يتصدى لمقرهم . وقد لاحظنا ان جريمة الخطف استيفاء اقتضاء فدية تتركز فى المحافظات المتاخمة للمناطق الجبلية .

---

(٢٠) ومن بين تلك العصابات عصابة الخطف فى اسيوط سنة ١٩٤٥ ، وعصابة حامد الاعمى بمحافظة سوهاج سنة ١٩٤٦ ، وعصابة مصطفى هاشم رشيد الصعيدي بمحافظة سوهاج سنة ١٩٥٦ الى سنة ١٩٦١ (المرجع السابق ص ٢٩).

(٢١) فعلى ما سبق القول لفت كاتليه النظر الى جغرافية الجريمة وطريقة الحياة والتفكير العام وانها تختلف فى الجبال عنها فى السهول الزراعية او المناطق البحرية حيث يوجد جمهور الصيادين (ستيفاني وليفاسير ص ٨٠) .

واذا كانت غالبية سكان جمهورية مصر العربية يعتمدون فى وادى النيل ــ أى فى الارض الزراعية على شاطىء النيل ــ والجرائم التي ترتكب من بعض افراده اما ان تتسم بطابع الريف أو تكون من جرائم الحضر ، فانه الى جوار هذا يوجد فريق من السكان يقيمون فى الصحراء أو هم على حدود المناطق الزراعية ، وكذلك يقيم فريق آخر على شواطىء البحيرات الواقعة فى شمال الجمهورية . وتطبع الطبيعة الجغرافية لتلك المناطق نوعية الجرائم التي ترتكب فيها . وآية هذا دراسة عن سمات الجريمة فى محافظة البحيرة واخرى لسمات الجريمة فى بحيرة المنزلة .

تتميز محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية (٢٢) بأنها تضم داخل حدودها منطقة ساحلية متصلة بالبحر الابيض المتوسط ، واخرى زراعية تتصل بباقى الاراضى الزراعية الدلتا ، وثالثة صحراوية كمدخل للصحراء الغربية ، ولهذه المحافظة خاصية اخرى حيث تعتبر منطقة هجرة داخلية حيث يجرى فيها استصلاح الاراضى القابلة للزراعة ، ويوجد بها بحيرتان متسعتان هما بحيرتا ادكو ومريوط . ومن الطبيعي ان يترتب على هذه الطبيعة المختلفة فى جغرافية الارض وجود فئات من السكان يختلف عمل البعض منهم عن الآخر ، فكما يوجد الفلاحون يوجد البدو ، وكذلك نجد من يشتغل بأعمال الصناعة المختلفة التي قامت فى هذه المنطقة .

ويعنينا فى محافظة البحيرة الاقليم الصحراوى منها الذى يقطنه نوعان من القبائل ، قبائل مستقرة وقبائل رحل ، وهم جميعا يغلب عليهم الفقر بسبب ضيق مصادر الرزق ، ومن ثم فهم غالبا لا يستقرون فى مكان وان كانوا يتمسكون دواما بانتسابهم القبلي وخضوعهم لعرف القبيلة وبعدهم عن أجهزة الدولة ، ومن ثم تتسم جرائمهم بالطابع القبلي والمتفق مع جغرافية الصحراء . هذا وقد ظهر من استقراء الحوادث فى تلك البيئة الصحراوية (٢٣) ان جرائم القتل والشروع فيه ترجع دوافعها الى السرقة أو الثأر أو النزاع الطارىء أو النزاع على الارض، وغالبيتها من نوع الجرائم الانتقامية . وكانت طبيعة هذه المحافظة ومشروعات استصلاح الاراضى الصحراوية وزراعتها مما دعا الى تهجير عديد من الافراد وعمال التراحيل اليها لاسيما بعد حرب ١٩٦٧ ، وادى هذا الى ازدياد مستمر فى معدل جرائم القتل العمد والشروع فيه والضرب المفضى الى الموت والذى ينشأ عنه عاهة مستديمة والسرقات بالاكراه والحريق العمد والاختلاس .

وأبرز الجنايات وضوحا فى جغرافية محافظة البحيرة هي جنايات سرقات الأسلاك والكابلات ، حيث كان عددها ست جنايات عام ١٩٧١ واصبحت ١٥ جناية عام ١٩٧٢ و ٢٠ جناية عام ١٩٧٣ ثم نقصت الى ٥ جنايات عام ١٩٧٤ . وترجع تلك الجرائم الى اتساع رقعة المحافظة ومتاخمة حدودها لخمس محافظات ، وامتداد الأسلاك التليفونية والكابلات لمسافات طويلة فى مناطق

---

(٢٢) عبد العزيز محمد القطني ص ٣٦ .

(٢٣) عبد العزيز محمد القطني ص ٤١ .

غير آهلة بالسكان ، ويصعب وضع حراسة عليهابالامكانيات المحلية ، ودخول الكهرباء لبعض قرى المحافظة مما دفع بعض العمال الى سرقة الاسلاك التليفونية واستخدامها فى توصيل الكهرباء لمنازل بعض المقيمين بتلك القرى .

ويبدو أثرجغرافية المحافظة على وجه خاص فى صدد اتصالها بحدود الصحراء الغربية ، حيث تكون هي المدخل لارتكاب جرائم المخدرات لا سيما جلب المواد المخدرة ، ويبين هذا بوضوح من مقارنة تقريبية لجنايات المخدرات فى محافظات البحيرة والشرقية والاسكندرية لاتصالها بالحدود ، وبين محافظات القليوبية وكفر الشيخ والمنوفية وبنى سويف والمنيا خلال عامى ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ .

السنة / المحافظة	١٩٧٣	١٩٧٤
البحيرة	١١٤	١١٤
الشرقية	٣٤٤	٢٩٨
الاسكندرية	٤٠٢	٤٠٣
القليوبية	١٢٨	٨٣
كفر الشيخ	٥٣	٣٠
المنوفية	٧٠	٦٦
بنى سويف	٤١	٣٨
المنيـا	٨٩	٥٩
قنـا	٦١	٦٢

والمثال الثانى لأثر البيئة فى السلوك الاجرامى يتضح من دراسة سمات الجريمة فى بحيرة المنزلة. فهذه البحيرة التى تزيد مساحتها على ثلاثمائة ألف فدان تم تجفيف جزء صغير منها ، وتدخل فى حدود خمس محافظات بمصر الشرقية والدقهلية ودمياط وبورسعيد والاسماعيلية ، ويوجد داخل البحيرة العديد من الجزر الطينية والرملية .وتنمو النباتات بكثرة فى الأراضى المحيطة بالبحيرة فى حزام عريض يغطيه الماء على شاطىء البحيرة ومثبتة فى القاع فضلا عن نباتات طافية على سطح البحيرة . وهناك عديد من انواع الطيور المائية وهذه قد تكون من عوامل السلوك الاجرامى بسبب التنافس على صيدها باعتبارها موردا للرزق كالشأن بالنسبة لأسماك البحيرة . ونظرا للطبيعة الخاصة لبحيرة المنزلة كان من الضرورى أن تكون سمات الجريمة متوائمة مع تلك البيئة وهو ما يتضح من النقاط التالية .

ترتكب اغلب جرائم القتل على سطح الماء حيث يتم اخفاء الجثة فى باطن البحيرة بعد تنفيذ القتل . وتنتشر جرائم الخطف حيث يسهل اخفاء المجنى عليه فى الجزر العديدة المنتشرة داخل البحيرة والتى لا يمكن حصرها أو كشفها بسبب حجبها بالحشائش والنباتات المائية ، وتجعل من العسير الوصول اليها . ولذات السبب يسهل ارتكاب جرائم السرقات وعلى وجه الخصوص اخفاء المسروقات . وكذلك الحال بالنسبة الى الجرائم الخلقية حيث يسهل تهيئة المكان لها فى البحيرة بعيدا عن مراقبة الشرطة ، وكذلك بالنسبة لتعاطى المخدرات ، واخطر الجرائم التى ترتكب

فى البحيرةهي جرائم التهريب سواء كانموضوعهاالأسلحة والذخائر أو المخدرات أو المحصـولات والسلع التموينية (٢٤) . ومن أبرز الجرائم كذلكما يخالفأحكام قوانينالصيد وتراخيصالوحدات المائية لجرائم صيد الأسماك بالمخالفة لمواصـفاتالمقاس والطول واستعمال مراكب الصيد بدون ترخيص ، ومزاولة صيد الطيور بدون ترخيص. ومن أهم الجرائم سرقات الماشية بمعرفةعصابات مسلحة حيث تجرى سرقتها من القرى المتاخمةللبحيرة ، ثم اخفائها فى الجزر داخل البحيرةحتى لا يسهل الوصول اليها . ويبين هذا من الجدولالتالى الذى يبين جنح سرقة المواشى فى مركز المنزلة بالنسبة الى جملة الجنح به خلال المـدةمن ١٩٧١ الى ١٩٧٥ (٢٥) .

السنة	جنح سرقة المواشي	مجموع الجنح عامة
١٩٧١	١٦	٣٦
١٩٧٢	١٢	٤٣
١٩٧٣	٩	٤٠
١٩٧٤	١	٤
١٩٧٥	٩	١٥

وللموقع الجغرافى لبحـيرة المنزلة أثره فىالسلوك الاجرامى والحد من قدرة رجال الأمن على مكافحته ، حيث يساعد هـذا الموقع علىصعوبة الوصول اليها وخاصة فى فصل الشتاء نتيجة عدم صلاحية الطرق المؤدية الى هنـاك ،وكثرة الأمطار والأوحال التى كثيرا ما تعرقلعمل رجال الحفظ عن مطـاردة المجـرمين والقيـامبالدوريات ، فضلا عن انعـدام الوسـائل لدى الشرطة للتعامل فوق السطح المائى ، الأمر الذىيشجع المجرمين على ارتكاب الجرائم والاختفـاء داخل جزر وأحراش الجزيرة (٢٦) .

وقد أسفر موقع بحيرة المنزلة وطبيعتهـاالجغرافية عن اعتماد غالبية الأهالى فى معيشتهم على الصيد ، وهي مهنة غير ذات مورد ثابت ،وقد لا تفى بالاحتياجات الضرورية للمعيشة ، وقد ارتبط هذا بالجهل الذى لا يقف حائلا أمامالنزعات الاجرامية للفرد ، وآية هذا أن غالبيـة المحكوم عليهم فى القضايا من الفقراء المعدمين (٢٧).

وتركزت عوامل الاجرام فى بحيرة المنـزلةحول عوامل ساعدت عليهـا البيئة الجغـرافية للمنطقة (٢٨) ، ذلك بسبب سعة مساحة البحيرةالتى يقع بها أربعمائة وخمسون جـزيرة آهـلة

---

(٢٤) المرجع السابق ص ١٦ وما بعدها .

(٢٥) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢٦) المرجع السابق ص ٦٠.

(٢٧) المرجع السابق ص ٦٢

(٢٨) المرجع السابق ص ٦٣

بالسكان ، يتنافس الاهالى فيها على وضع اليـدعلى تلك الجزر واستغلالها استغلالا غير مشروع، بما يسفر عن ارتكاب جرائم القتل والشروع فيه،هذا بالاضافة الى التنافس على مناطق الصيد ، وسهولة السطو على المراكب بواسطة العصـابات المسلحة واخفاء المسروقات واختفاء الأشقياء .

ولا شك فى أن الموقع الجغرافى لحدودالدولةيساعد على ارتكاب أنواع معينة من الجـرائم ، وعلى سبيل المثال فى الجمهورية العربية الليبيـةتقع محافظة غـريان فى الجنـوب الغـربى من الجمهورية ، وتشـترك فى حـدودها مع تونس والجزائر ، وقد ترتب على هذا أن ظهرت فيهـا جريمتا التهريب ودخول البلاد بوجه غير شرعى. فيعمد البعض الى اتخاذ التجارة فى السلع المهربة موردا لهم ، خصوصا بالنسبة الى موادالتموين والسلع الكهربائية والملابس الـى آخره . وهم يستخدمون فى ارتكاب الجرائم السيارات ، بل يستخدمون الدواب فى المناطق الجبلية. ومن ناحية أخرى فان توافر فرص العمل وارتفاع الأجوريحمل على مخالفة القانون رقم ١٧ لسنة١٩٦٢، بشأن دخول البلاد . وبالاضافة الى ما تقـدم فان منافذ الخروج أو الدخول الى البلاد تكون محلا لارتكاب نوعيات خاصة من الجرائم تقـع جرائم جلب المواد المخدرة عن طـريق الموانىء والمطارات (٢٩) .

بيئة الريف والحضر :

قلنا فى اكثر من مناسبة ان الانسان كائن حي ينفعل ويتفاعل مع الوسط الذى يوجـد فيه والبيئة المحيطة به بما تحويه من كائنـات وعوامل طبيعية . ومن المشاهد دائما أن كل مجموعة من الأفراد توجـد فى مكان ما وتربط بينها ظروف متقاربة يتسم سـلوك أفرادهـا بقواعد متقاربة نتيجة لما استقر فى نفوسهم ـومن قبلهم أصولهم ـ من مجابهة مختلف شئون الحياة بتصرف معين ، ومن هنا تنشأ لكل بيئةتقاليد خاصة تحكم العلاقة بين أفرادها تلقـائيا دون اجتهاد من جانبهم لمعرفة الطـريق الذى ينبغى سلوكه . ولا شك فى اختلاف كل بيئـة عن الأخرى فى بعض ظروفها وتبعا لطريق سلوكها، فليس هناك من بيئة تطابق غيرها مطابقة تامة ، على أن هذا لا يمنـع مـن التقارب بين بعض البيئات مادامت تتحد فى السمات الأساسـية لكل منها .

وابـرز انواع التفرقة البيئية بمصر هي البيئة الريفية والبيئة الحضرية بما ينعكس أثره على سمات الاجرام فى الريف وفى المدن ،بسبب التقاليد الراسخة فى الريف والصبغة المادية التى يتسم بها السلوك فى المدن (٣٠) . هذا بالاضـافة الى وجود البيئة الصحراوية أو البدوية التى تحكمها تقاليد خاصة . وللتفرقة بين القـرية والمدينة أثرها فى جرائم القتل بوجه خاص وعادة

(٢٩) منصور غيث قنديل ، وقـد أورد ان جرائم المخدرات في عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ فى طرابلس هي ٧ ، ٢٤ وفى بنغازي هي ٢٤ و ٤٤ على التوالي .

(٣٠) راجع ما سبق لنا ذكره عند الكلام عن المقصود بالبيئة فى موطن البحث .

الثأر المتأصلة فى نفس أهل الريف ، وكذلك فيمايتسم به اجرام المرأة والأحداث فى كل من البيئتين .

وتذهب آراء الباحثين فى الغرب الى تأييدالتفرقة بين اجرام الريف واجرام الحضرسواء من ناحية النوعية أو طريقة التنفيذ ، فطابعالاجرام فى الريف هو الاعتداء على الأشخاص فى حين أن طابع اجرام المدينة هو جرائم المال ،فضلا عن الوسائل المستخدمة فى طريقة تنفيذ الجريمة فى كل من المنطقتين . ويقف بعضالعلماء من هذه النتائج موقف المعارضة ، ومع هذا فليست هناك أدلة علمية قاطعة علىذلك(٣١)

ان الحياة فى القرية المصرية تختلف عنالحياة فى المدينة اختلافا كليا ويرجع هذا فى أساسه الى اختلاف تكوين كل منهما ، ففىالقرية المصرية يسيطر على العلاقات بين أفرادها الى اليوم مبدأ التعاون ، وذلك للروابط الوثيقةبين عائلاتها والمصالح المشتركة التى تجمعهم وطبيعة الحياة التى يعيشونها ، ولعلنا نلحظهذا فى تضافر أبناء القرية نحو أى خطب يقع بواحد منهم . أما فى المدينة فالأمر على خلافذلك حيث تسيطر النزعة الفردية على العلاقات بين أفرادها وتقل الصلات حتى بين أفراد العائلةالواحدة ، وكلما اتسع العمران وزادت مشاغل الناس فى المدينة وهنت العلاقات والاتصالات .هذا من ناحية ، والى جوارها يقوم الجهل أو التعليم كعامل هام فى التفرقة ، فلا شك أننسبةالجهل التى تسود مجتمع القرية أكبر بكثير من نسبتها فى المدينة،ومن أجلهذا كانتهناك سماتتميز اجرام الريف عن اجرام المدن .

وطبيعة الاجرام فى الريف تختلف عنه فىالمدينة ، فالأول تحركه العلاقات الشخصية فى حين تدفع الآخر العوامل المادية . ففى القريةنادرا ما يكون الدافع الى الاجرام هو الكسب المادى ، وذلك بسبب التضامن بين أفرادها مما لا يجعل للحاجة الملحة وجودا، ولأن الفلاحبطبيعته قانع صابر يرضيه أقل القليل . وعلى هذا فانالاجرام فى الريف تدفعه عوامل أخرى تجعل موضوعه دائما الأشخاص كالقتل والضرب ،وهووان وقع فى بعض الأحوال على المال فلا يكون الغرض منه الكسب المادى . وفى المدينة ــ حيثلا روابط ولا تقاليد ــ يكون الصراع على كسب العيش ، ولا يجد قوت يومه من لا يعمل ، وانأعوزه المال فقديلجأ الىالجريمة وهدفهالحصول عليه وتدفعه المغريات الشديدة فى المدينة وسائروسائل المتعة الى طلب المزيد من المال ، ولهذا تكثر الجرائم ضد الآداب .

واذا كانت عواصم المحافظات فىمصرتدخلفى حدود المدينة ويطلق عليها البندر أو القسم وكانت البلاد الريفية المحيطة بها يطلق عليها بلادالمركز فان الاحصائيات التالية تبين لنا سمة طبيعة الاجرام فى الريف والمدن .

---

(٣١) ستيفاني ص ٨١ وما بعدها حيث يعرض لقياسالتفرقة بين الريف والحضر ، ويشير الى المناطق الريفية المتحضرة ، وضواحي المدينة والمناطق القامة خارجها ،وتقسيمات المدينة فى ذاتها ، والتفرقة بين المدن الكبيرة والمدن الصغيرة . وراجع كذلك بوزا وبناتل ص ٩٣ ومابعدها .

عدد جنايات القتل والشروع فيه فى بعض الجهات
من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٣٣

السنة / اسم الجهة	١٩٢٧	١٩٢٨	١٩٢٩	١٩٣٠	١٩٣١	١٩٣٢	١٩٣٣
بندر طنطا	٨	١٥	٦	٦	٦	٤	٧
مركز طنطا	٤٩	٥١	٥٠	٥٠	٥٣	٥١	٦٣
بندر الفيوم	٨	٤	١٢	٦	٩	٦	٩
مركز الفيوم	٣٦	٣٥	٣٨	٥٣	٤٨	٥١	٥١
بندر اسيوط	٧	٦	١١	٦	١٢	٧	١٠
مركز اسيوط	٣٥	٣٤	٢١	٤١	٣٥	٢٣	٣١

ويبين من هذا الجدول ان جنايات القتل والشروع فيه هي في المراكز دائما ــ سواء فى الوجه البحرى أم فى الوجه القبلى ــ وهي اعلى منها فى البنادر ، بل أن الحد الأدنى دائما فى المراكز اعلى من الحد الأقصى بالنسبة للبنادر .ولم تتغير النتيجة بالنسبة الى الدراســة التى أجريت (٣٢) عن توزيع الجنــايات والجنــح فى المناطق الحضرية والمناطق غير الحضرية ســنة ١٩٤٧ .

جدول بيان ما يخص كل مائة الف نسمة من
السكان فى جرائم الجنايات موزعة حسب المناطق
الحضرية وغير الحضرية فى مصر عام ١٩٤٧

أنواع الجرائم	المناطق الحضرية	المناطق غير الحضرية
قتل وشروع فيه	١١ر٢٨	١٧ر٥٠
ضرب افضى الى موت	ر٩٦	١ر٦١
ضرب نشأت عنه عاهة	٧ر٥٠	٨ر٥٠
سرقة وشروع	٨ر٨٦	٦ر٢٠
حريق واتلاف وتسميم مواشى	٢ر٨٤	٥ر٩٢
فسق وهتك عرض	٣ر٧٢	٠ر٦٥
رشوة وتزوير	٩ر٣٤	١ر٩٥
عــود	٨ر٧٠	١ر٤٧

(٣٢) دراسة التحضر والجريمة في الاقليم المصري ــص ١ وما بعدها .

جدول بيان ما يخص كل مائة الف من السكان
من جرائم الجنح موزعة حسب المناطق الحضرية
وغير الحضرية عام ١٩٤٧

نوع الجرائم	المناطق الحضرية	المناطق غير الحضرية
تزوير	٨٦ر٣	٨٠ر٢
هتك عرض وفعل فاضح	٥٦ر٤	٣٧ر٠
سرقة	٥٦ر١٠٤	٠٧ر١٩٩
نصب وخيانة امانة	٢٦ر١٣٩	٥٩ر٧٠
تسميم مواشي	٥٠ر٠	١١ر١
اتلاف مزروعات	٩٤ر١	٤٣ر١٧
تشرد	٧٢ر١٥٤	٥٨ر١٥
رشـوة	٤٦ر٤	٧٥ر٠

وهذا ايضا بيان من بعض الجنايات والجنح في البنادر والمراكز سنة ١٩٧٠ حسب ما ورد في تقرير وزارة العدل .

الجنـايات

نوع الجريمة البندر والمركز	قتل وشروع	ضرب لموت	ضرب لعاهة	سرقة وشروع	حريق	رشوة	فسق وهتك عرض	اختلاس	عود	مخدرات
البنادر	٦٣	١٦	٦٨	١٣	٣	٩	١٧	٨٠	٢٦	٤٠٥
المراكز	١١٥	٢٧	٨٩	١٩	١٣	٢	٩	١٣	٥	٢٠٠

الجنـح

الجريمة البندر والمركز	تزوير	هتك عرض وفعل فاضح	سرقة	تسميم مواشي	اتلاف مزروعات	تشرد
البنـادر	١١٠	٨٣	٥٢٨٩	١١	٥٢	١٦٧٥
المـراكز	٥	١٠	٢٩٤٦	٤	١٨٩	١٨٥

ومما ورد بتقرير الأمن العام بمصر عن سنة ١٩٧١ عن الجنايات فى البنادر والمراكز البيـان التـالى :

الجريمة البندر او المركز	قتل وشروع فيه	سرقة وشروع	حريق عمـد
المراكز	١٢٤	١١	٧
البنـادر	٤٣	١١	٤

والبيانات آنفة البيان تكشف بجلاء عن أن سمة الاجرام في الريف تغلب عليها جرائم الاعتداء على الأشخاص ، وان سمة الاجرام في المدن هي المادية برغم مرور السنين .

ومن دراسة عن المحكوم عليهم في سجون طنطا والقاهرة والاسكندرية يوم ١٩٦٠/٨/٣١ تبينت الحقائق التالية (٣٣) : ان نسبة الجرائم للمهاجرين تزيد ١٠٪ عنها للمهاجرين الريفيين. لا اختلاف في متوسط سن مرتكبي الجرائم الحضريين ونظرائهم الريفيين ، ولا علاقة بين السن وبين ارتكاب الجريمة بالنسبة للريفيين والحضريين . نسبة الجنايات لمجموع الجرائم المرتكبة من اهل الريف ٨٨ ٪ بينما تبلغ هذه النسبة ٨٣ ٪ بالنسبة للحضريين ، كما يتضح ان نسبة الجنح من اهل الريف اقل من هذه النسبة في الحضر . الجرائم ضد الفش وهي الجرائم التى تتسم بطابع العنف تكثر في المجتمع الريفي عنها في المجتمع الحضرى ، فجرائم القتل والضرب المفضى الى موت واحداث العاهات المستديمة تبلغ في الريف ٣٦ ٪ تقريبا من مجموع جرائمه ، بينما لا تزيد هذه النسبة عن ١١ ٪ في القطاع الحضرى . ومعنى ذلك ان هناك ارتباطا بين منطقة الجريمة وبين انواع الجرائم المرتكبة ، ففي المجتمع الحضرى تقل نسبة الجرائم العنيفة وتتضاءل عدد الجرائم ضد الفش . جريمة هتك العرض تحدث في المناطق الحضرية بنسبة أعلى منها في المناطق الريفية ٦٠،٠ ٪ من العينة يقيمون في أحياء شعبية . ٢٨٫٥ ٪ يقيمون في احياء متوسطة ، ١١٫٥ ٪ فقط هم الذين يقيمون في أحياء راقية . ويدخل في هذه النسبة الخدم والسائقون والمكوجية وغيرهم ممن تحتم عليهم الاقامة في هذه الاحياء. وقد قسمت الاحياء الى شعبية ومتوسطة وراقية على اساس طرق الحياة والمعيشة في هذه الاحياء ومن الواضح ان الأمية والفقر وقرب المساكن بعضها بجوار بعض سمات تميز الاحياء الشعبية عن غيرها من الاحياء، وقد تكون لهذه العوامل مجتمعة علاقة وثيقة بزيادة نسبة مرتكبي الجريمة فيها . ان ٢٨٫٥ ٪ من مجموع افراد العينة بسجن القاهرة كان محل ميلادهم الحضر بينما كان ٧١٫٥ ٪ محل ميلادهم الريف . وقد يرجع ذلك الى ان المولودين في الريف وهاجروا الى المدينة لم يستطيعوا التكيف مع طرق الحياة والمعيشة فيها وقوة العادات والتقاليد وتماسك الاسرة سمات تختلف في المجتمع الريفي عنها في المجتمع الحضرى . ويتبين ان هذا التباين بالاضافة الى اختلافات في القيم والنظم قد ادى الى الصراع بين هذه السمات وتلك مما ترتب عليه أن تكون نسبة مرتكبي الجريمة من المهاجرين الريفيين اعلى منها بالنسبة لمرتكبي الجريمة من الذين ولدوا في الحضر . تبين أن الهجرة ترجع الى عوامل اقتصادية وتعليمية كما ترجع الى اختيار المدينة منطقة الحياة منها بالاضافة الى صعوبات كثيرة في الموطن الاصلى ، وتكون الهجرة اما مع اقارب او مع اسرة المهاجر نفسها . المهاجرون يقيمون عند حضورهم وقت الهجرة في الاحياء الشعبية ، اذ يشير الجدول الى ان ٩٢٫٤ ٪ من مجموع مهاجرى العينة قد اقاموا

---

(٣٣) محمد خيري ، ص ١٣٦ وما بعدها .

عند هجرتهم فى أحياء شعبية ، وتبرير ذلك أنالاحياء الشعبية قد تكون قريبة الشبه لقرية المهاجر من حيث المستوى الاقتصادى ، كما قديرجع ذلك الى أن الاحياء الشعبية غالبا ما تتسم بالطابع الديني وهي سمة تشترك فيهاهذه الاحياء مع مجتمع القرية . وقد يرجع ذلك أيضا الى أن الاقامة فى الاحياء الشعبية ــ حيثيتيسر تأجير الفرفة الواحدة الى عدة أشخاص ــ أيسر من الاقامة فى الاحياء المتوسطة أوالراقية التى لا توجد فيها هذه الظاهرة . ان أسباب ارتكاب الجريمة طبقا للمعلومات التيأدلى بها المجرمون هي قلة الدخل وعدم وجود عمل ، وهما العاملان الرئيسيان لارتكابالجريمة .

ويبين الجدول التالى ما يتميز به اجرامالمدن الكبيرة من الطابع المادى عن غيره من المدن أو الريف . ويتضمن جنايات تزييف المسكوكاتوتزوير الاوراق المالية (بنكنوت) والرشوة والاختلاس سنة ١٩٧٤ ، وسوف تضممحافظات الوجه البحرى فى مجموعة ومحافظات الوجه القبلي فى مجموعة اخرى .

الجريمة / الجهات	التزييف	تزوير أوراق مالية	الرشوة	الاختلاس
القاهرة	١	—	٣٧	٤٤
الاسكندرية	١	—	٩	٤٣
الوجه البحرى	—	٧	٣٧	٨٠
الوجه القبلى	١	١	١٥	٣٢

هذا وتكشف الاحصائيات بسبب الماديةالتي تطغى على حياة المدينة والامكانيات المتاحة لذلك عن ازدياد مطرد فى جنايات الرشوةوالاختلاس . وكذلك الشأن بالنسبة للجرائم التى تتعلق بالآداب العامة ، فالحياة فى المدينةالكبيرة بما فيها من مغريات تجعل هذه الجرائم أكثر وقوعا فيها ، أما فى الريف فنظرا للتقاليدالمرعية يكاد يكون وقوع تلك الجرائم قاصرا على عواصم المحافظات ، وهو فى الوجهالقبلى أقل عددا منه فى الوجه البحرى ، كما يبين من الجدول التالى عن أحصاء الامن العام سنة١٩٥٢ .

الجرائم / الجهات	منازل للدعارة السرية	تحريض على الفسق من النساء	معاكسة بالطريق من شبان	القوادون	جرائم فنادق وبنسيونات	جرائم محال عامة	ألعاب قمار	مراهنات خيل	مطبوعات مخلة بالآداب	زنا	فعل علني فاضح	تسول
القاهرة	١٢٣	٣٧٦	١٢٢٢	٤٩	٨٦	٤٨	١٣٠	٢٣	١١	٦	٢١	٣٠٠١
الاسكندرية	٣١	١٢٩٦	—	٧	٥٤	١٥	١٠	١٠	١	—	—	١٧
الوجه البحرى	٩	١٦٦	٣	—	٣	٧	٣٢	—	—	—	—	٢٣٥
الوجه القبلي	١٦	٥٩	—	—	١	٨	١٣	—	—	—	—	١٩١

ونظرا للتقاليد الاخلاقية الموجودة فى الريف نجد ان نسبة قتل الاطفال مجهولي النسب الى مجموع جنايات القتل بكل محافظة مرتفعة فى القاهرة والاسكندرية والجيزة ودمياط ومنخفضة فى باقي المحافظات . فالنسبة سنة ١٩٧٤ فى القاهرة ١٨٪ والاسكندرية ٢٠٪ والجيزة ٣ر٢٪ والغربية ٧ر١٠٪ والدقهلية ٤ر٢٪ والقليوبية ٨ر٣٪ واسيوط ٣٪ وقنا ٢ر٦٪ .وقد لوحظ ان اسوان ٥ر١٢٪ ولكن هذا يرجع الى قلة جنايات القتل ذاتها اذ هي ٧ وجنايات قتل الاطفال اثنتان فقط .

ويترتب على التضامن الاسري الموجود فى الريف ان هناك بعض الجرائم لا توجد فى القرية الا نادرا ، وتتركز فى المدينة ، ويتبين هذا من قضايا التشرد ومن قضايا الاحداث ، فالشخص المتشرد قانونا هو من ليست لديه وسيلة مشروعة للعيش . وفى الريف لا تتصور جريمة التشرد الا فيما ندر ، فالاعمال الزراعية كثيرة تستوعب كل الايدي العاملة لاسيما بعد هجرة الكثير منها الى المدينة ، انما التشرد فى المدن ـ لاسيما الكبيرة منها ـ فهو امر عادي ، وقد يكون هذا نتيجة للهجرة الى المدينة جريا وراء كسب اكبر وعيش افضل ثم مواجهة لصعوبات البحث عن عمل ، فالتعطل فالتشرد ، وآية ما نقول الجدول التالي:

قضايا التشرد عام ١٩٧١

المحافظة	عدد القضايا	المحافظة	عدد القضايا	المحافظة	عدد القضايا
القاهرة	٢٥٣٧	البحيرة	٥	الفيوم	٥٠
الاسكندرية	٢٠٤٠	الغربية	٨	المنيا	١
دمياط	٢	كفر الشيخ	٢	أسيوط	١
الدقهلية	١٨	الجيزة	٥٨٣	قنا	١١
الشرقية	١	بني سويف	٣٣	أسوان	٢

وكذلك الشأن بالنسبة لاجرام الاحداث ، فالروابط العائلية فى الريف يجعل انحراف الحدث وسيره فى تيار الجريمة امرا بعيد الاحتمال ، لان شئون الحياة يتولاها الكبار الذين يجعلون تصرفات الصغار تحت اشرافهم . ويبين هذا ايضا من الجدول المقارن التالي :ـ

بعض جنح الاحداث التي وقعت سنة ١٩٧٤

القسم او المركز / الجريمة	سرقة	اتلاف	ضرب
قسم المنصورة	٧٥	٣	٦١
مركز المنصورة	٢	١	١٧
قسم الجيزة	٧٣	٢	٩
مركز الجيزة	١	—	٢
قسم المنيا	٦٦	—	٤
مركز المنيا	٦	—	٤

ومن تقرير الامن العام لسنة ١٩٦٢ عن ظاهرة الاجرام فى مصر :

١ ــ ان محافظات المدن تتميز عن غيرها بانحصار الظواهر الاجرامية فى جنايات التهديد والاختلاس والرشوة وتزوير الاوراق الرسمية وتزييف المسكوكات وتزوير الاوراق المالية وهتك العرض .

٢ ــ فى محافظات الوجه البحري تنحصر الظواهر الاجرامية التي تتميز بها فى جنايات الضرب المحدث عاهة والحريق العمد واتلاف المزروعات ، يضاف اليها جنايات القتل فى محافظتي الشرقية والقليوبية وجنايات السرقة فى محافظة الشرقية وحدها .

٣ ــ فى محافظات الوجه القبلي تنحصر الظواهر الاجرامية التي تتميز بها فى جنايات القتل العمد والضرب المحدث عاهة والخطف . واذا كان تقرير الامن العام سنة ١٩٦٢ يشير الى خطورة جرائم القتل فى الوجه القبلي فالحال لم يتغير أبداً الى الان حتى سنة ١٩٧٤ ، وقد كان كذلك فى السنوات ١٩٢٧ و ١٩٣٢ و ١٩٣٣ كما يتبين من الجدول التالي ، وهذا من أكبر الادلة على ما يتميز به الاجرام فى الريف عنه فى المدن ببلادنا ، لما هو مدون من بسط التقدم الحضاري فى بلاد الوجه القبلي والتمسك بالتقاليد .

نسبة جنايات القتل والشروع فيه لكل
عشرة آلاف نفس فى السنوات ١٩٢٧ ، ١٩٣٢ ،
١٩٣٣ فى بعض مديريات مصر

اسم المديرية / السنة	١٩٢٧	١٩٣٢	١٩٣٣
القليوبية	٠٤ر٢	٦٠ر٢	٦٥ر٢
البحيرة	٤٢ر١	٤٧ر١	٢٢ر١
الغربية	٤٨ر١	٦٨ر١	٥٩ر١
المنوفية	٢٣ر١	٣٥ر١	٤٦ر١
الشرقية	٠٧ر١	٤٠ر١	٧٧ر١
الدقهلية	٨٧ر٠	٨٨ر٠	٨٣ر٠
بني سويف	٦٧ر٢	٣٤ر٣	٨٦ر٢
الفيوم	١٢ر٣	٦٢ر٣	٠٢ر٤
المنيا	٣٨ر٢	٥٩ر٢	٥٩ر٢
اسيوط	٤٣ر٤	٠٥ر٣	٥٥ر٣
جرجا	٦٠ر١	٠٢ر٢	٢٢ر٢
قنا	٨٨ر٠	٧٧ر٠	٤٥ر١

واذا كان اختلاف بيئة القرية عن بيئة المدينة ادى الى تمييز الاولى بالجرائم ضد الاشخاص ، والاخرى بالجرائم التي تكون غايتها الكسب المادي ، فان هناك تفرقة اخرى مترتبة على ذلك هي اختيار الوسيلة المستخدمة فى ارتكاب الجريمة . فجرائم القرية يجرى تنفيذها بوسائل

تتسم بالعنف والقسوة وتمثل انعكاسا لغريزةالعدوان البدائية . فالقتل يتم بالاسلحة النارية على اختلاف انواعها ، أو بالآلات الحادة التيـيستخدمها الفلاحون أساسا فى اعمالهم اليومية كالفأس وما اليها ، وهي أيضا تتم غدرا وغيلةدون أن يتنبه اليها المجنى عليه سلفا ولا يستطيع لها دفعا ، أما الجرائم التي ترتكب فى المدينة فلاتحتاج الى استخدام العنف وانما وسيلتها ذكاء المجرم الذى يستغل مختلف الظروف للوصول الى المال ، فلا يصدر منه اعتداء على الاشخاص الا اذا أوصلته وقائع الحال الى ذلك ، وتكشف الاحصائيات الجنائية عن ان غالبية جرائم القتل والشروع فيه يستخدم فيها الاسلحة النارية والآلات الحادة ، فى حين أن جرائم القتل تنتشر فى المدن والاماكن المزدحمة والسرقات من المساكن فى غالبيتها جنح وان لا يسبقها بعض الظروف المشددة كالكسر والتسور .

البيئة والتقاليد :

تحرص بعض الجماعات على تقاليد خاصة بين أفرادها وتحترم القواعد الخاصة بها وتقوم مقام القانون المكتوب . وبالاضافة الى هذا هناك مجتمعات صغيرة متماسكة تتخذ من الجريمة حرفة لها حتى انها لا تشعر بالاثم حين مقارفتها. ومن هذه الظاهرة ما يشاهد فى تجارة المخدرات، حيث يقوم أفراد جماعة معينة ــ وعلى ما هو معروف ــ باتخاذ حي معين تمارس فيه تجارتها ويلتزمون فيما بينهم بقواعد سلوكية خاصة يعتبر الخروج عنها جرما فى حق الجماعة وتوقع هي العقاب الذى تراه فى مواجهته .

على ان أخطر التقاليد الموجودة فى البيئة المصرية هو ما كان متعلقا بالثأر (٣٤) . فلقد تبين لنا فيما سبق أن أكثر الجرائم وقوعا فى الريف هو ما كان موجها ضد الاشخاص وهي القتل والشروع فيه والضرب المفضى الى الموت والضرب الذى تنشأ عنه عاهة مستديمة . وتأتي بعد هذا جرائم اتلاف المزروعات والحريق ولا نكون مبالغين اذا قلنا أن الجهل هو العامل الاساسى وراء الاجرام فى الريف تحت ظله تبقى المعتقدات سائدة وفى قوة العقيدة . فأخذا من الاحصائيات يكاد يكون كل المتهمين من الاميين ، ولا نعنى بهذا ان الجهل يؤدى الى الاجرام ، وانما المراد هو انه لا يساعد على وجود النماذج المعادية للاجرام ، فالفلاح فى الريف يعيش أسيرا للتقاليد والمعتقدات التي اصبحت راسخة فى نفسه ولا قوة أعلى من القانون .

وفكرة الثأر تتمثل فى أن الاعتداء الذى يقع على فرد فى الجماعة يعتبر وكأنه قد وقع على جميع أفرادها ، ولا ينبغي أن يستريح لهم بال الا اذا اقتصوا من المعتدى أو جماعته ، وكانت النتيجة المنطقية لهذا هو عدم الاعتراف بسلطان آخر يجازى الفاعل على جرمه . وكان من الطبيعى كذلك ان تقع احدى جرائم القتل فيبلغ عنها ولكن دون ان يسند الاتهام الى أحد ، مع العلم

(٣٤) احمد ابو زيد ــ الثأر ــ دراسة انثروبولوجية باحدى قرى الصعيد ، وقد تناول الموضوع كاملا .

بأن كلا من الطرفين ــ أهل القتيل وأهل القاتل ــ يدرى بتبين من هو مرتكب الجريمة ، وعائلة القتيل تتحين الفرصة المواتية للانتقام من الجاني، وعائلة القاتل تحترس من وقوع العدوان عليها ، ولا زلنا الى اليوم نسمع أن الثأر ما يزال متوارثا في بعض العائلات من عشرات السنين .

وللثأر تقاليده المعروفة من ناحية من يقع عليه عبء واجب الاخذ بالثأر ، بل أن من يكون موضوعا له يعرف نفسه كما يعرفه الجميع . ولا يجوز ان يكون موضوعا لها الاطفال ، وما كانت تقام المآتم الا اذا تم الأخذ بالثأر ، ولقد كان هذا التقليد هو الدليل الوحيد في قضية قتل (٣٥) حكم فيه بالادانة ، حيث لم يشاهد القاتل احد وقت ارتكاب فعلته ، ولكن في اليوم التالى للجريمة أقيم المأتم وانتعل الفاعل حذاءه وغطى راسه ورفع القناع عن وجهه ، واذ درست المحكمة قانون الثأر وفقا للتقاليد اقتنعت بارتكاب الجانى لفعلته .

ومن بين الاسباب التي ساعدت على تأجيل عادة الثأر قصص البطولة التى تحكى فى مختلف المناسبات ، وتصور الأمر على أنه واجب مقدس يعتبر القعود عنه تقصير يتسم بالجبن ، ويبقى واجب الاخذ بالثأر قائما مهما امتد الوقت ولو لعدة سنوات . والاعتقاد السائد أن روح المجنى عليه لا يستقر لها قرار الا اذا أريق دم الجاني ويكون ذلك على يد اهل القتيل ، ومن ثم فلا ينبغي للحكومة أن تتدخل فى الامر لان الواجب يقع على عائلتهم هم .

وترتب على تمكن عادة الثأر لدى الفلاحين ،أن وجد فريق من المجرمين الذى احترفوا الاجرام الانتقامى وعلى وجه الخصوص جرائم القتل ، فقد لا يوجد من أفراد أسرة القتيل من يتمكن من الاخذ بالثأر لصغر السن مثلا ، فتلجأ الاسرة الى من يقوم عنها بهذا الواجب مقابل مبلغ من المال . وهذا يثير جدال أخطر أنواع الاجرام ، ولا شك فى ان الجهل هو الذى يوصل الى هذه الحالة حيث ابقى كثيرا من المعتقدات سائدة فى أوساط الفلاحين الذين يرون أن القتل لا جزاء له الا القتل أما أحكام المحاكم دون الاعدام ــ ولو بالاشغال الشاقة المؤبدة ــ فانها لا ترضى مشاعر أهل المجنى عليه . ومن ناحية اخرى فان استخدام الاشقياء يبعد عن أهل المجنى عليه من فرض الاتهام ، اذ يستطيعون اعداد دفاعهم سلفا ، كما أن الاشقياء أنفسهم يحترفون اعداد ادلة النفى قبل اقدامهم على ارتكاب الجريمة ، وآية هذا ان نسبة كبيرة من جنايات القتل والشروع فيه ينتهى فيها الامر باصدار قرار بأن لا وجه لاقامة الدعوى .

وقد عنيت الاحصائيات الجنائية ببيان عدد جرائم القتل التى يكون الدافع اليها الثأر ، فبمراجعة الجداول الخاصة ببواعث ارتكاب جنايات القتل تبين ان الغالبية منها كما يلي : ــ

الانتقام والثأر ، رفع العار ، استفزاز ، نزاع على حد أرض . واذا استعرضنا فى ذاكرتنا تاريخ القضاء المصرى لوجدنا ان هذه البواعث كانت غالبة دائما . ويؤيد هذا ان جنايات القتل

---

(٣٥) محمد البابلي ص ٧٢ ز العللي ص ١٥٨ وما بعدها

التي وقعتمع سبق الاصرار والترصد كانت أعلىمما وقع منها بدون سبق أصرار وترصد ، وهذه الظاهرة توصل بنا الى القول بأنه رغم كل تطورفى أساليب الحياة فى مصر الا أن التقاليد ما زالت مسيطرة على البيئة فى كثير من النواحي . واكثرمن هذا ما زالت الوسائل المستعملة فى جريمة القتل على ما هى عليه . الاسلحة النارية الآلاتالحادة ، الخنق ، العصا .... الخ .

جدول خاص بالبواعث لجريمة القتل

السنة / الباعث	الثأر	الانتقام	الاستفزاز	رفع العار	نزاع على حد أرض
١٩٦٨	٢٩٨	١٩٧	١٤٢	٨٣	٧٨
١٩٧١	٢٤٤	٣١٧	٧٨	٨٢	٧٠
١٩٧٤	٣٠٣	٣٣٦	٦٦	٧٦	٥٤

جدول خاص بالقصد

السنة / القصد	مع سبق الاصرار والترصد	بدون سبق اصرار وترصد
١٩٦٨	١٠٩١	٤٥٤
١٩٧١	٨٥٨	٣٦٢
١٩٧٤	٩٢٦	٣٣٥

هذا مع التنبيه الى احتمال أن يكون الانتقام أحيانا مختلطا بالثأر .

وقد قام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية فى مصر بدراسة لظاهرة الجريمة فى قرية طهواى (٣٦) ، حيث تبين أن سكان القريةتتكون من فئتين ، الفلاحين وهم الغالبية ، والفجر وهم بنسبة ٧٪ من مجموع السكان .ويعيش جميع أفراد مجتمع الفجر ذكورا واناثا من احتراف الجرائم خاصة سرقات الماشية ،والسرقة بطريق النشل ، ويتوارثون هذا العمل جيلا عن جيل ، ولا يتحرجون من ذكر أنهم يحترفون السرقة ، وهم يحترفون السرقة دون غيرها من الجرائم ، ولا يميلون الى استخدام العنف عند ارتكابها ، ويفضلون اختيار مكان جريمتهم بعيدا عن المنطقة التى يقيمون فيها .

ويرتبط احتراف الفجر للسرقة بالتنشئةالاجتماعية حيث اعترف ٩٥ ٪ بأن ارتكابهم للسرقة كان نتيجة لضغط الأسر عليهم ، وانممارستهم لها قد تمت عن طريق المشاركة . وتستفيد الغالبية العظمى منهم (٩٢ ٪) منالمسروقات شخصيا أو فى نطاق الاسرة ، ويتميز مجتمع الفجر بالترابط والتكامل بين الأفراد ،حيث انهميتعاونون بعضهم مع البعض اذاما قبض على أحدهم أو أودع السجن فانهم يقدمون لهولأسرته العون سواءكان فيصورة عينية أو مالية.

(٣٦) احمد المجدوب ص ١٦٣ وما بعدها

البيئة واجرام المراة :

انه وان كان اجرام المراة لم يلق نفس الدرجة من الاهتمام التى لاجرام الرجل ــ كما هو واضح فى جلاء من الاحصائيات الجنائية ــ الا ان عــلاقة البيئة باجرام المراة لها مظاهر واضحة تستدعى الدراسة والعناية ، وآية ما تقدم ان كثيرا مــن نشاط المراة الذى يشكل جريمة ينتهى الأمر به الى الحفظ نظرا لظروفها فى البيئة المحيطة بها ، وعلى سبيل المثال بعض صور الاجهاض التى يراد منها رفع العار . بل ان طبيعة المراة ووضعها فى الاسرة العربية يجعل اجرامها ودواما مما يتسم بالجبن والحذر ، ولذا فهو يتم فى خفاء وينتهى الامر فى كثير من وقائعه الى قيده ضد مجهول .

ووضع المراة بالنسبة الى البيئة التى تعيش فيها جعلت حجم اجرامها اقل بكثير من حجــم اجرام الرجل ، سواء دلت على ذلك احصائيات محل ثقة او كان هذا هو الشعور والاحساس العام . وهذا امر لا تختلف فيه الدول العــربية عن غيرها . وعلى سبيل المثال يبين من تقرير الامن العام عن مصر عام ١٩٧٤ ان عدد المتهــمين فى الجنايات هو ٤٩٩٠ منهم ٤٨٧٩ من الرجــال و ١١١ من النساء .

واذا كان مرجع تلك الظاهرة يتعلق بطبيعة المراة كأنثى ، الا انه بوجه خاص يتصل بالبيئــة التى تعيش فيها ، فالمراة اقل من الرجل فى قوة جسمها ، حتى لقد قرر بعض الباحثين مــداها بنصف قوة الرجل ، ووصل الى ان حجم اجرام المراة لا ينبغى ان يتعدى نصف حجم اجرام الرجل ولقد ترتب على هذا الفرق فى القوة الجسمانية ان الجرائم التى ترتكبها المراة لا تحتاج فى تنفيذها الى العنف . بل ان جريمة القتل غالبا مايستخدم فيها السم لتنفيذها . ولقد خلق الله ســبحانه وتعالى المراة لتكون اما ، اذ زودتها الطبيعة بعاطفة الحنان والرحمة والشفقة مما يتمشى مع رسالتها، وهو ما يتنافى مع الجريمة ، اذ لا يتوافر لها اى معنى من هذه المعانى، فان هي أقدمت على ارتكاب الجريمة فلا يكون ذلك الا تحت ظروف خاصة ، ومن ثم كان اجرامها قليلا .

وفى خصوص المجتمع المصرى بالذات نجد ان الظروف الاجتماعية ومكانة المراة من الاسرة تحول بينها وبين طريق الاجرام . فتحرص المراة على سمعتها فى مجتمع تغلب فيه القيم الدينيــة والخلقية يدفعها الى الابتعاد عن طريق الجريمــة تامينا لمستقبلها .

والمراة فى الريف تحتل السواد الأغلب من النساء ، وتعتمد فى حياتها على الرجل ، سواء أكان ابا أو اخا او زوجا أو اى عائل آخر ، بل ان كثيرا من الرجال يأبون نزول نسائهم الى ميدان العمل ، وقد أدى هذا الى بعد المراة عن الاحتكاك بالناس ، واصبحت اكثر ميلا للعزلة ، مما يبعدها عن الاسباب التى تدفعها الى الاجرام . والملاحظ فى الريف المصرى ان المراة تعتمد على الرجل فى حياتها اعتمادا كليا . اما فى المدينة فانه وان كانت المراة قد نزلت الى ميدان العمل ، وزاد احتكاكها بالناس، الا انها مازالت تحكمها طبيعتها الخاصة التى تنأى بها عن ارتكاب الجريمة ، بل ان الملاحظ هو ان الغالبية العظمى من النساء المجرمات من الأميات . أى انه كلما تعلمت المراة

وتثقفت بعدت عن الجريمـة . ويتضـح مـن بحث نزيلات السجون المصرية فى مايو ١٩٥٩ الذى قام به المـركز القـومى للبحـوث الاجتمـاعية والجنائية (٣٧) ان اغلب النزيلات موضوع الدراسة لم يشتغلن بأى مهنة أو عمل ، وان هذا لايخرج عن كونه انعكاسا للوضع الخارجي فى المجتـمع الحر حيث لا يزال اقبال النساء على الاشـتغال بالمهن المختلفة قليلا .

هذا الوضع الاجتماعى للمراة فى مصر والبيئة التى تعيش فيها جعل اجرامها متميزا عن اجرام الرجل، وانه وان كانت تنقصنا الاحصائيات الخاصة بالمراة فانا نحاول أن نحيط بصورته على قـدر الاحصائيات المتوافرة لدينا . والامر الذى تكشف عنه تلك الاحصائيات هو أن نسبة الجنايات التى تقع من المراة كبيرة وتتركز بوجه خاص فى جرائم الاعتداء على الاشخاص ، أى القتل العمد والضرب المفضي الى الموت والضرب الذى تنشأ عنه عاهة مستديمة . فعلى سبيل المثال ارتكبت المراة عام ١٩٧٤ (١١١) جناية بينها (٣٥) قتل عمـد و (٢٦) ضرب أفضى الى الموت ، و (٢٣) ضرب نشأت عنه عاهة مستديمة ، اى ان جملة جرائم الاعتداء على الاشخاص بلغت (٨٤) من مجموع الجنايات . واذا اردنا تعليل هذه الظاهرة لوجدناه فى امرين ، الأول منهما هوان المراة فى غالب الاحيان لا تحتاج الى المال لوجودها فى كنف رجل يكفـل لها حاجياتها ؛ أما اجرامها ضد النفس فأساسه الطبيعة البشرية التى تدفع بمواطنها تحت تأثير الانفعالات الى أقصى مدى ويسهل لها خيالها طريق ارتكاب الجريمة معتقـدة ان فى هـذا راحة لها لا سيما مع الجهل الذى يحيطها . والآخر يتمثل فى باعث المراة على ارتكاب الجريمة ، وهو غالبا ما يتعلق بحياتها ومستقبلها الذى تكرس له كل جهودها ، فاذا قام فى سبيله عائق فانها تزيحـه عن طريقها .

وظروف البيئـة التى تعيش فيهـا المراة بالريف جعلت اخطر دوافعها للاجرام هو الانتقام الذى يكون منشؤه الغيرة ، ذلك انها بمجرد ان تنتقل الى منزل الزوجية ترى انه لا مقام لحياتها الا فى كنف الزوج ، وانها بغير الاعتماد عليه لن تجد من يرعاها ومن ثم فان اى تهديد يمس كيان حياتها يحرك فيها غريزة الدفاع عن نفسها وبقائها وتدفعها الرغبة فى المحافظة على نفسها الى ارتكاب اشد الجرائم خطورة ، وتتحرك غيرة المراة عـلى منزلها اذا ما اتخذ الرجل له زوجة ثانية لأى سبب من الأسباب ، وهي حينئذ لا تستطيع ان تصب غضبها على زوجها لانها فى قرارة نفسها تعتقد انه يستعمل حقا مشروعا له فضلا عن انها فى حقيقتها ليس بمقدورها ان توجه اجرامهـا اليه . ومن ثم فلا يبقى أمامها الا المراة الدخيـلة على حياتها وتبقى صورتها ملازمة لخيالها ، ولا ترى سبيلا لاستعادة منزلها الا بالتخلص منهـا ، وفى صور أخرى قد يكون انصراف زوجها عنهـا بسبب عدم انجابها ورزقه بولد من الزوجة الثانية فتوجه اجرامها للصغير للتخلص منه ، واحيانا قد تندفع المراة الى ارتكاب جريمة قتل الزوج اذا ما احست انه قد ينصرف عنها الى الزواج مـن

---

(٣٧) سمير الجنزوري ـ ص ٣٠٥ وما بعدها

اخرى . ويندر فى مصر ان ترتكب المراة جريمةالقتل لأسباب عاطفية ، كصورة تخلى الشــخص عنها وانصرافه الى غيرها لأن التقاليد ما زالتلا تقر العلاقات الخاصة بين الشباب ، ولهذا نرى أن الاسباب العاطفية اندفعت الىالمساس بالحياة فانما يكون هذا فى صورة انتحار .

واذا كنا قد اوضحنا أثر البيئة وتقــاليدها فى ارتكاب جريمة القتل ثأرا فان المراة لا تختلف عن الرجل فى هذا الصدد وتعتبره واجبا عليها . ولقد تضمن القضاء المصرى كثيرا من جرائم القتل التى لعبت المراة فيها دورا هاما تحت تأثير عادةالثأر ، سواء بنفسها أو بتلقينها اياها لأطفالها مهما امتد الاجل وتحرضهم على القتل .

وقد ترتكب المــراة احيــانا الجريمة ضدالنفس تجنبا للفضيحة فى البيئــة كما فى حــالة جريمتى الاجهاض وقتل المولودة حيث ان الحملسفاحا يمثل عيبا خطيرا هو فى الريف اشد منــه فى المــدن ، حيث تعرف الفتاة أن جــزاءها اذاما كشــف امرها لن يكون الا ازهاق روحها ، لا سيما وان سبيل اخفاء امرها ليس بالامــرالسـهل حيث لاتوجد اماكن لايواء اللقطاء ، كمــا هو الحال فى المدن ـ وقد تقارف المراة الجريمةقتلا دفاعا عن العرض وذلك ان تفريط المراة فى عرضها يمثل مساسا خطيرا بالشرف لا سبيل الىازالته الا بقتلها ، وقد تأصلت هذه التقاليد فى نفوس الكثيرين حتى ثبت من بعض الوقائع أنالأم تتغلب على عاطفة الأمومة وتقتل ابنها دفاعا عن عرضها ، بل قد تقتل الأم أمها أو الأختاختها لهذا السبب .

اقتصاديات البيئة والجريمة :

ليس من المقــبول ونحــن فى صــدد بحثالجريمة وعلاقتها بالبيئة أن نغفــل اثر العــامل الاقتصادى فى هذا الصدد . ذلك لأن البيئة ذاتهاتتلون ظروفها وفقــا لســلوك افرادهــا ووفقا لاقتصادياتها ، وانه وان كان العامل الاقتصادىمن أدق واهم ما تتصل به الظاهرة الاجرامية ، وهو فى حاجة لدراسة مستفيضة مستقلة ، الاانا هنا استكمالا لجوانب البحث نعرض لما يتصل بهذا العامل كمؤثر فى البيئة وقتيا فى السلوكالاجرامى فلا جدال فى أن هناك علاقة وثيقة بين الظروف الاقتصادية والجريمة على الاقل بالنسبةالى الجرائم التى تكون الغاية منها الكسب . وقد عكس التطور الاقتصادى صداه على تطورالجريمةفالانتقال من الاقتصــاد الزراعى الى الاقتصـــاد الصناعى خلال القرن التاسع عشر صحبه انتقالمن جرائم العنف الى جــرائم الذكاء ، وعـــدم الاستقرار الاقتصادى الناشىء عن عدم استقرارالاثمان والاجور والنقود كان له اثره فى الاجرام الذى يقصد منه الكسب .

ودراسة العلاقة بين العوامل الاقتصــاديةوالاجرام يثير مشاكل عــديدة ليس من الســهل ايجاد حل لها . فينبغى تحديد المراد بالعــواملالاقتصادية ، هل ينظر اليها بالنسبة الىالموضوع الذى تتعلق به أو بالنسبة الى وقت حدوثها ،وبمعنى آخر هل ينظر الى العوامل الاقتصادية

باعتبارها متعلقة بالفرد الذى يجرم ، أم بالنسبةالى الوسط الصغير الذى يعيش فيه ، أم البيئة التى تحويه ، أم بالنسبة الى ظروف الدولةكلها. وكذلك فى تقدير الظروف الاقتصادية هل يعتد بوقت ونوع الجريمة أم تقرر خلال فترة طويلةمناسبة . ثم اخيرا هل ينظر الى تلك العوامل والأوقات العادية أم يكون الاعتبار لفتراتالازماتواوقات الرخاء (٣٨) وبالاضافة الى ما تقدم فان جزءا كبيرا من الجرائم لا يدخل فى الاحصائياتالجنائية والتى تدخل تحت الأرقام المظلمة ، واخصها جرائم ذوى الياقات البيضاء أو جرائمالخاصة ، وتكاد تكون هذه الجرائم كلها من نوع الجرائم الاقتصادية التى يكون للبيئة فيه دخل كبير فتنعكس آثارها عليها .

ولقد اصبح الشائع ربط الجريمة منالناحية الاقتصادية بالفقر (٣٩) ، ولكن هل يؤدى الفقر حقيقة الى الجريمة ؟ ثم ما هو المقصودبالفقر ؟ ونشير ابتداء الى احتمال أن يكون ربط الفقر بالجريمة مرجعه الى أن غالبية المجرمين منالطبقات الفقيرة ، وليس من السهولة وضع تعريف للفقر ، فالمعنى المتعارف عليه هو أن الفقيرهو الشخص الذى لا يجد ما يسد به ضرورات العيش ، وهذا المعنى فى رأينا لا مكان له فى مصر، فيكاد لايوجد فى المجتمع المصرى من لا يجد قوت يومه ، وذلك بسبب علاقات التعاطف الاجتماعىالموجودة لدى الشعب المصرى ، ولكن الانسان الفقير فى مفهومنا هو من يرتزق يوما بيوم ،وينطبق هذا بوجه خاص على طبقة العمال . واذا نظرنا الى سواد الشعب المصرى لوجدناه منالفلاحين وهم فقراء ومع ذلك فهم لا يقعون فى طريق الجريمة ، فاذا قيل بأن الانسان الفقير هومن لا يوجد لديه ما يفى باحتياجاته لكانت المسألة نسبية تختلف من حالة الى اخرى ، ومن ثم لايمكن اتخاذ الفقر مقياسا للسلوك الاجرامى .. ولكن مهما كان تحديد معنى الفقر فهل هناكدليلعلى وجود رابطة بينه وبين الجريمة ؟ فى رأينا انه من الخطورة بمكان التسليم بهذه النتيجة لأنمؤداها اعتبار جميع الفقراء مجرمين ، وهم وان كانوا لم يدخوا السجن بعد فانهم فى الطريق اليه،حقيقة ان بعض المجرمين من الفقراء ولكن كم من غير الفقراء والمجرمين وان لم يدخلوا السجون ؟!

ولقد حاول البعض ربط الفقر بالاجرام فىصلته بالبيئة التى يوجد فيها الفقير ، اذ من شأن الفقر ان يوصل الى عوامل اخرى كثيرة متداخلةفى التكوين الاجتماعى ، وهي التى تؤدى الى الجريمة ، ولا يقتصر الامر حينئذ على جرائمالاموال وحدها . والفقر تكون له مصاحبات اكثر من الحاجات الاقتصادية التي تؤدى الى السلوكالاجرامي . والفقر فى المدنية الحديثة يعنى عادة انفصال مناطق الايجار المنخفض ، حيث يعزلالناس الى درجة يعتد بها عن النماذج المعادية للاجرام والجيران على الاتصال بكثير من نماذجالسلوك الاجرامي . والفقر بوجه عام يعني مركزا

---

(٣٨) راجع أثر الازمات الاقتصادية والرواج الاقتصادي- ستيفاني وآخرين ص ٨٧

(٣٩) راجع دراسة حديثة فى هذا الصدد عن الطبقةالاجتماعية والاجرام (جون كلانل وآخرين ص ٤٥١ وما بعدها)

اجتماعيا ضئيلا ليس فيه ما يبعث على الاحترام أو ما يخشى عليه من الضياع اما ما يشجع على بذل الجهد لتحقيق حياة افضل ، وهو بوجه عام كذلك يعني ظروفا منزلية سيئة وصحية صعبة ومقارنة تثير الحقد بالنسبة الى غيرها من الظروف المالية والصحية ، يعنى ان الوالدين يبعدان عن المنزل خلال اغلب الساعات التي يستيقظ فيها الاطفال ، ويعودان اليه وهما متعبان متوتران . وهو يعنى بوجه عام أيضا ان الطفل يؤخذ من المدرسة في سن مبكرة لا تسمح له الا بالتحاق لعمل لا يتطلب مهارة ، بل غير مسل وغير مجزولا يمنحه فرصة التقدم الاقتصادى . وقد يصحب الفقر في المدينة الصغيرة قليل من المصاحبات .

ويعرض برنس (٤٠) الى أن الدراسات الاجتماعية لفتت النظر الى أنه اذا كانت الجريمة من الناحية النظرية تقع في كل الاوساط الا انها أكبر وقوعا في أوساط الجماعات الضعيفة اقتصاديا واجتماعيا . ويتساءل عن السبب في هذا هل هو النقص في اخلاقيات هؤلاء الافراد ؟ ، هل فرصة الحياة الشريفة أقل لديهم ؟ أو ان هناك جرثومة اجرامية اسهل انتشارا في هذه الاوساط عن الاوساط الاعلى اجتماعيا واقتصاديا ؟ وهذه التساؤلات شغلت كثيرا من المفكرين في أوائل القرن العشرين ، وذهبوا الى أن الزيادة في الاجرام تأتي من التعلم من الاصدقاء والجماعات ، وهو رأى مسترد لانه في الجماعات التارفة . وباختصار فان هذا يعنى أنه اذا عرض فرد الى مؤثرات أكثر اجرامية من غيرها في الوسط الذي يعيش فيه فان فرص مخالفته القانون تكون أكبر . ويرى برنس (٤١) أن اعتبار الجريمة أكثر وقوعا في الطبقات الدنيا هو تعميم مبالغ فيه ، وهناك حقيقة متفاوتة للجريمة في الطبقات الدنيا ، ومع هذا فالجريمة موجودة في الطبقات كلها ولكن جزءا كبيرا منها غير معروف . وفي دراسة أجريت سنة ١٩٦٧ ثبت أن المذنبين الصغار في لندن كانوا من جميع الطبقات ، وأن الجرائم لم يختلف نوعها من طبقة الى اخرى . ومع هذا فالمتفق عليه بصفة عامة هو أنه لا بد من عمل طويل قبل تأكيد ظهور الجريمة ومداها في مختلف طبقات الجماعة .

والدراسات التي أجريت بالنسبة الى علاقة الفقر كعامل اقتصادي بالجريمة ــ رغم ما فيها من قصور وما قد يوجه اليها من انتقادات ــ قد وصلت الى نتائج متضاربة . ففي احدى الدراسات وجد أن معدل نسبة الانحراف الى مجموعة من الاطفال في مكان يعد منخفضا جدا ، مع انهم من أسر كانت في فقر اشد من فقر السكان في المناطق المحيطة بهم والذين كان لاطفالهم معدل نسبة كبيرة للاسراف ... وفي دراسة اخرى اكتشف عدم وجود علاقة وثيقة بين المركز الاقتصادي وانحراف الاحداث عندما تبقى العوامل الاخرى ثابتة . بينما وجدت علاقة واضحة بين التنظيم الاجتماعي وانحراف الاحداث عندما تبقى العوامل الاقتصادية ثابتة .

---

(٤٠) برنس ص ٣٦ ، وقد أشار الى الدراسات في الولايات المتحدة الامريكية وفي انجلترا عن مناطق الانحراف .

(٤١) برنس ص ٣٩

فى المجتمع المصري ــ لاسيما المجتمع الريفي ــ لا يمكن القول بأن الفقر يعد عاملا على ارتكاب الجريمة ، لان البناء الاجتماعي والثقافي يقف عائقا ضد ارتكاب الجريمة فى هذه الحالة (٤٢) . وفى اعتقادنا ان تقاليد أهل الريف تمنع من اقتراف الجرائم مهما كانت الحالة الاقتصادية . وذلك سواء بالنسبة الى مصر أو غيرها . ولقد ثبت فى دراسة بامريكا ان سكان المناطق الريفية يقل ميلهم نحو الجريمة مع انهم قد يكونون فى فقر مدقع .

ومن الدراسات الحديثة فى مجالنا بحث عن حجم مشكلة جنح الاحداث واتجاهاتها وعواملها فى مصر اذ جاء بــه انه من المؤكــد ان المستوى الاقتصادي الذي تعيش فيه أسرة الحدث تؤثر بشكل فعال ، بل انه يكاد يسيطر على كل العوامل الاخرى التي تشارك فى توجيه الحدث نحو السوك الجانح . فان المستوى الاقتصادي هو الذي يحدد المستوى التعليمي والمهني والمستوى المعيشــي للاسرة ، ويحدد كذلك المسكن الذي تتخــــذه الاسرة مأوى لها وبالتالي الحي الذي تقطنه ، كما يحدد المستوى الاقتصادي والمستوى الاجتماعي والبيئي الذي تنتمي اليه اسرة الحدث بحــكم مقدرته الاقتصادية . وكل هذه العوامل متجمعة هي التي تؤدي الى سلوك الحدث سلوكا جانحا او تكيفه مع المجتمع الذي يعيش فيه . وقد ظهر ذلك من نتائج البحوث التي أجريت فى هذا المجال. ففي دراسة عن اثر العوامل الاجتماعية فى تشرد الاحداث (٤٣) وضحت الفروق بين متوسط أفراد مجموعة الاحداث جامعي الاعقــاب والمتشردين ومجموعة الاحداث الاسوياء من الدخل الشهري للاسرة ومن باقي المصروفات المخصصة للحاجيات الضرورية للانفاق على الاسرة . وقد تأكد ان هذه الفروق لها دلالة احصائية ، فقد كــان متوسط الانسبة منخفضا فى المجموعــة الاولى عنهــا فى المجموعة الثانية ، وفى بحث السرقة عند الاحداث (٤٤) الذي اجراه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ثبت ان الحالة الاقتصادية لاسر الاحداث المتهمين بالسرقة فى مستوى منخفض جدا .

ولا بــد لنــا من التسليم بان للعوامــــل الاقتصادية اثرها فى الظاهرة الاجرامية ســواء بطريق مباشر او غير مباشر ، على ان الذي لا يمكن تحديده هو مقدار تأثر سير الاجرام بالعوامــل الاقتصادية لصعوبة فصل تلك العوامل وعزلها عن غيرها ولانها متشابكة يؤثر بعضها فى البعض الاخر، وليس من السهل وضع ضوابط محددة لهــا . وعلى هذا فان الظروف الشخصية المحضة قــد تؤثر بدورها فى العوامل الاقتصادية ، بمعنى انه اذا توافر عامل اقتصادي معين فان هذا لا يعني انه يؤدي بالضرورة الى ارتكاب الجريمة ، وانما يتعين ان تتوافر ظروف أخرى تهيىء لتأثيره فى ارتكاب الجريمة (٤٥) . فمثلا قد تحــل بالفرد ضائقة مالية ، ومع هذا فانه مهما بلغت شدتها لا يتخذ من الجريمة سبيلا للتغلب عليها ، وهو امر ملحوظ فى حياتنا العادية . وقد يكون للجو

---

(٤٢) سيد عويس ص ١٧٧ وما بعدها

(٤٣) أثر العوامل الاجتماعية فى تشرد الاحداث

(٤٤) السرقة عند الاحداث

(٤٥) ستيفاني وآخرون ص ٨٩ ويضيف بان عدم وجود عمل لا يكفي بذاته لان يكون سببا فى انتفاء السلوك الاجرامي أو وجوده ، بل هو وجود او عدم وجود العمــل المتناسب لامكانيات الشخص ويكون متوائما معه .

العام الذي يحيط بالفرد عاملا له علــى ارتكاب الجريمة ، وعلى سبيل المثال كان من أثر الحرب العالمية الثانية فى مصر ان قفزت بعض الثروات فى وقت قصير الى ارقام مذهلة مما اغرى البعض وبيسر الوصول الى الثراء السريع من اي طريق، وكان سبيله فى هذا ارتكاب الجريمة . ولقد ذهب البعض الى القول بأن للاحوال الاقتصادية تأثيرا كبيرا فى تحويل مجرى الاجرام ، فبينما يدفــع الفقر لارتكاب بعض الجرائــم كالسرقة ، نرى الثروة ــ على الاخص الفجائية ــ تدفع للجريمة ايضـا لانها تفسد الاخلاق ، بالانغماس فى الشهوات وفى الغلو فى جمع المال . فالعوامل الاقتصاديــة كثيرا ما تكون كالسلاح ذي الحدين فتحدث فى كلا الاتجاهين ازديادا فى الاجرام . ويقال احيانا ان جرائم التسول تعتبر من مظاهر الضيق الاقتصادي، ولكن البعض ينفي هذه الفكرة ، وان المسألــة ترجع الى الاستعــداد الشخصي للفــرد ، وان المتسولين المحترفين لا يستطيعون الاقلاع عــن حرفتهم ولو عرض عليهم عمل شريف يرتزقون منه .

البيئة وجرائم الاحداث :

ان تأثير البيئة فى سلوك الحدث بوجه عام ، وسلوكه الاجرامي بوجه خاص امر لا ينازع فيه احد ، والاهتمام بدراسة سلوك الحــدث امــر مشاهد فى كل المجالات سواء على المستوى المحلي لكل دولة او على المستوى العالمي ، فتعقــد لــه المؤتمرات والحلقات الدراسية مــن فترة الــى اخرى ، والدافع الى هذا هو ان حدث اليوم هو رجل الغد ، وبقدر تنشئة الحدث تنشئة صالحة يستفيد منه مجتمعه .

وفضلا عن هذا فان الحدث فى سنوات عمره المبكــرة يخرج الى الحياة المليئة بالمتناقضـــات ، ولا تكون مداركه قد اكتملت بعد ليتبين الطريق الذي يسلكه فى مستقبل ايامه ، ومن ثم فهــو يختار النماذج السلوكية التي تحيط به ، وهو كالعجينة اللينة التي يسهل تشكيلها على ايــة صورة .

وتكشف الاحصائيات الجنائية عن ان أخطر انواع السلوك الاجرامي بالنسبة للاحداث يتمثل فى جنح السرقة (٤٦) ، وذلك لكثرتها العددية ، لان هذه الجريمة ان بدات فى سن مبكرة وجد احتمال العود الى الاجرام ، ثم ان هذه الجريمة قد يؤدي الحكم فيها الى ايداع الصغير السجن ، حيث يجد مجتمع الجريمة بما لا يقومه وانما يخرج منه أشد اتقانا للاجرام .

وظروف البيئة المصرية توجب التنبيه الى امرين ، الاول ان هناك نوعا من الاجرام له ذاتية خاصة ولم يشكل اية مشكلة بعد ، هــو اجرام الاحداث فى الريف ، فطبيعة الحيــاة فى القريــة المصرية تبعد فى غالبية الاحوال الاحداث عن طريق الجريمة نظرا لان ظروف الحياة التي توصل الى الاجرام فى المدينة تنتفي فى القرية ، نظرا للترابط العائلي بين سكانها . هذا فضلا عن ان الجرائم التي تقع من الاحــداث فى الريف يجري نظــرها وتسوية ضررها وفقا لعادات وتقاليد مرعية ،

---

(٤٦) يبين من تقرير الامن العام لسنة ١٩٧١ عــن الجنح التي تقع من الاحداث بين سن السابعة والخامسة عشرة مرتبة تنازليا كالاتي : الضرب ، السرقة ، ركوب المواصلات بدون اجرة ، الاتلاف ، القتل والاصابة الخطا ، ولا شك ان السرقة هي اخطر تلك الجنح .

ومن ثم لا يدرك شيء من امر الجريمة . والامر الاخر هو ان الارقام المظلمة فى الاحصائيات الجنائية اشد ظهورا بالنسبة الى الاحداث ، فالملاحظ فى البيئة المصرية بصفة عامة هو السكوت عن البلاغ عن جانب كبير من جرائم الاحداث ، يدفع الى ذلك اسباب عديدة ومن بينها سوء حالة الحدث ورافة المجني عليه ، وقلة الضرر الناشيء عن الجريمة ، وتدخل الجمهور لتخليص الحدث من قبضة المجني عليه . (٤٧)

والبيئة الطبيعية التي ينشأ فيها الحدث ويتفاعل معها هي الاسرة ، وهي اول ما يواجهه الحدث فى حياته ومن بعدها المدرسة ، وقد يتنقل بعد المدرسة الى مجتمع العمل او قد يصله مباشرة ، وهو فى كل دور قد يؤثر فيه مجتمع الطريق . ولا نستطيع ان نعرض بافاضة لهذه العوامل المختلفة ، لان كلا منها يصلح لان يكون موضوعا لدراسة كاملة ، ومن ثم نعرض لتلك العوامل بالقدر الذي يسمح به مجال البحث .

تلعب الاسرة أخطر الادوار فى تنشئة الحدث وتربيته ، حيث يتأثر بها وبنماذجها السلوكية ، سواء أكانت معادية للنماذج الاجرامية او متوائمة معه . فلكل اسرة تقاليدها وعاداتها وانماط سلوكها تسير عليها فى مراحلها ، الامر الذي قد تختلف فيه أسرة عن أخرى مهما قربت المسافة بينهما . وهذا من آثار الفردية فى المجتمعات الحديثة ، خلافا لما مضى ولما عليه الحال الان فى القرى .

واول النماذج السلوكية التي يتلقاها الطفل فى حياته هو ما يسير عليه الوالدان ، فبحكم غريزة التقليد الفطرية يقتدي الطفل بالامثلة التي يشاهدها . وعلى هذا اذا كانت النماذج السلوكية للوالدين من المواقف التي تعتبر معادية للاجرام فان الحدث سوف يقتدى بها وتتأصل فيه غالبا الا اذا تدخلت عوامل اخرى تغير السير الطبيعي للامور . ولكن قد تكون المواقف السلوكية للوالدين من غير المواقف الحميدة ، ومن ثم فانها سوف تنطبع فى ذاكرة الحدث ، ويعتبرها من التصرفات الطبيعية فيما قد يواجهه من امور الحياة . فالوالد قد يكون سلوكه اجراميا ، اى منغمسا فى الجريمة ، ومن ثم فهو قدوة للصغير . وقد يخلق هو السلوك الاجرامي فى ولده وان لم يرتكب هو الجريمة ، واخيرا فقد يتخذ الاب موقفا سلبيا ان وقع من الحدث ما يعد سلوكا اجراميا (٤٨) .

---

(٤٧) راجع في هذا الصدد دراسة مقارنة عن اجرام الاحداث فى الشرق الاوسط ص ١٤ وما بعدها .

(٤٨) دراسة عن اجرام الاحداث فى الشرق الاوسط ص ٣٦ . ويذكر جون مايز ان الاب او الام يكافيء الصغير أو يعاقبه حسب ما يرى فى تصرف الصغير من حسن او سوء وفقا لتقدير أيهما بصرف النظر عن المقاييس العامة في المجتمع الخارجي . والطفل يستجيب لها لانه فى مراحل عمره الاولى يروم علاقة متينة بينه وبين والديه حيث يبحث عن الحب . وبهذا يمكن ان ينشا الشخص عدوا للمجتمع ، على ان هذه ليست القاعدة حيث يحتمل آن يبعد الوالدان عن الصغير حقيقة سلوكهما ، فمثلا البغي قد تقوم بتربية صغيرها فى وسط يبعد عما هي منه ، وتغرس فيه احترام القانون (ص ١١٩) فلا يمكن دراسة المؤثرات الاجتماعية على السلوك الاجرامي دون دراسة نوع وطبيعة العلاقات العائلية (ص ١٢٠) والاسرة هي أول مؤسسة لصياغة السلوك الاجتماعي ، عن والديه يتلقى القانون الاخلاقي وسلوكه فى الحياة ، فاذا كانت القيم والمواقف في المنزل تتواءم مع العالم الخارجي فسلوك الصغير يكون متفقا والقانون وقد يكون العكس صحيحا (ص ١٣٠) .

وللقواعد السلوكية فى تربيــة الصغير أثرعميق فى سلوكه واحتمال أوعدم احتمال انحرافه. اننا لو نظرنا الى الاسرة المصرية لوجدنا ان تربيةالصغير تكاد تسير على تقاليد يتلقاها الخلف عن السلف ، وهي وان دخل عليها بعض التعديل فهوالذي يقتضيه تطور الحياة المدنية . ويرجع هذا الى قلة الكتب التي تتناول أسلوب معاملة الطفل ثم قلة من يقرأ هذه الكتب ، ثم قدرة من يتتبع ما جاء بها ، والتصرف ازاء الصغير يكون دائما من وحي الساعة . ومن اخطر العوامــل المؤثرة فى سلوك الصغير هو جهل احد الوالدين بأن مــن شأن بعض التصرفات ان تكون من عوامل انحراف الحدث . ومن هذا القبيل القوة الشديدة التي لا مبرر لها حين ارتكابه لخطأ وقد يصــل الحال الى المروق من سلطة الوالدين ، وتقابل القسوة اللين المتناهي لاى سبب كان ، لان التغاضي عن أخطاء الصغير او التهوين من امرها قد يكون من أثره استمرار الصغير فى ســلوك يــؤدي الــى انحرافه . وقد يكون الاهمال بدوره من عوامــل الانحراف ، لان معناه افتقاد الصغير للرعايــــة والتوجيه ويسفر عن انعدام الرقابة على السلوك، يستوي فى هذا ما يجري داخل المنزل او العلم بما يتعلق بحياة الصغير خارجه . وفى بعض الاحيان قد تؤدي التفرقة بين الابناء واختلاف معاملاتهم الى حقد من جانب بعضهم تجاه البعض الآخر ،وهو شعور اذا عززته عوامل اخرى قــد يؤدي بالحدث الى الانحراف .

ولقد سبق ان عرضنا للظروف الاقتصادية وعلاقتها بالبيئة ، ولاشك فى ان القدرة الاقتصادية للاسرة تكون سعيا فى تحديد كثير من العوامــل المؤثرة والتي قد تؤدى الى اجرام الاحداث (٤٩) . وأول مــا يتأثــر بالظــروف الاقتصاديــة هــو المسكن الذى يقيم فيه الحدث ، ذلك أن رب البيت يتخير المكان فى الحي الذى يتماشى مع اقتصادياته وموارده ، وتؤثر المقدرة الاقتصادية فى تحديــد مدى صلاحية المكان للسكن من ناحيــة اثاثــه واتساعه وكونه صحيا من عدمــه ، ولهذا اكبــر الاثر فى استقرار الصغير داخل المسكن او الثورة عليه والهرب منه الى الطريق لا سيما فى اوقات الفراغ . ولعلنا نلحظ هذا فى انطلاق الاحداث فى كثير من الاحيان الى الشوارع فى تجمعات لقتل الوقت وهي فى ذاتها قد تكون بؤرة لتكون جرثومة الاجرام . وقد ثبت من البحث الخاص بجرائم السرقة عند الاحداث (٥٠) ان حالة اسر الاحداث المهنية فى مستوى منخفض جدا .

والعلاقة بين الأب والأم لها اثرها الكبير فى سلوك الطفل ، فالخلاف بين الزوجين قد يميل بالصغير الى جانب آخر ، وقد لا يستطيع الكشف عن مشاعره فى صورة صريحة فينعكس هذا فى صورة تمثل انحرافا يقود الى الجريمة . وقــد يرجع انتفاء الهدوء فى المنــزل الى ضعف احــد الزوجين ازاء الآخر ، على ان احد الطرفين ــ لاسيما اذا كان الاب ــ يعطي امثلة للأولاد فتطبعهم بأحدى الصورتين الضعف او التحكم ، وهو أمر لا تحمد عواقبه . ومن الأمور الملحوظة فى حياتنا

---

(٤٩) دراسة مقارنة عن الاحداث فى الشرق الاوسط ص ٣٢

(٥٠) بحث السرقة عند الاحداث .

ان ضرورات الحياة اضطرته كلا من الأب والأم الى الانطلاق فى سبيل الحياة كسبا للعيش . ويترتب على هذا ان يفقد الطفل الرعاية الاسرية له ، ويترك فى بعض الاحيان فى مجتمع الطريق لدى بعض الجيران ، بل انه حتى بعد عودة الوالدين من العمل لا يكون لديهما من الوقت او الجهد ما يكفي لرعاية الصغير ، ومن المعروف انما يؤثر فى سلوك الصغير المشاكل التي تنشأ اما عن وفاة أحد الوالدين او هما معا أو الانفصال بينهما بالطلاق ، ثم حياة أحد الزوجين مع بديل للأب أو الأم .

وللتعليم أثره العميق فى الارتفاع بالمستوى الفكرى والثقافى للانسان ويساعد على تكوين شخصيته المستقلة وعلى حسن تقديره للأمور . وتدل الاحصائيات الجنائية سواء فى مصر أم فى الخارج على أن النسبة الغالبة من المجرمين ـ احداثا وبالغين ـ هي للأميين ولمن لا يحسنون القراءة والكتابة ، ومن شأن التعليم خلق نماذج السلوك المعادى للاجرام . والمدرسة من أولى الجماعات المنظمة التي ينضم اليها الطفل فى خارج منزله فى السنوات الاولى من حياته ، واذا كان الصغير يجد فى المنزل نماذج سلوكية محدودة ، فان مجتمع المدرسة الجديد يلتقي فيه بنماذج عديدة متآلفة أو متنافرة ، وهو فى حداثته قد يجد نفسه ازاء تلك النماذج ، ولا بد له ان يختار بعضها سواء بمجرد دافع التقليد او انسياقا فى تيار الجماعة . ومع هذا قد يعينه غيره فى عملية الاختيار (٥١) . وتأتي اثر هذا اهم مشاكل التربية السلوكية ، وهي تحديد دور كل من البيت والمدرسة فى تربية الصغير ، ويمكن لنا القول بأن قصر الواجب على البيت وحده او على المدرسة وحدها أمر غير مقبول ، وانما الخير فى المعاونة بينهما فى تعرف عيوب الصغير الذي يحتمل ان تؤدي الى انحرافه والعمل معا على ابعاده عنها .

وقد ينتقل الصغير من البيت الى العمل مباشرة ، لاسيما فى الاسرة التي تحتاج اقتصاديا الى دخل الصغير ، وقد يمضي الحدث فترة فى المدرسة ثم لا يتم تعليمه لسبب أو لآخر ويلتحق بأحد الاعمال ، وفى العمل يلتقي الحدث بافراد عديدين لهم نماذج سلوكية معينة . ويختلف مجتمع العمل عن مجتمع المدرسة ، فالاخير يحوي الحسن الى جوار السيء ، واذا كانت المدرسة تهتم بالناحية السلوكية فان رب العمل لا يعني الا بالناحية النظامية ولا يعنيه من السلوك الا ما يؤثر فى سير العمل . والتجمعات المختلفة التي تفرضها طبيعة مجتمع العمل لها اثر كبير فى النماذج السلوكية التي يتخيرها الفرد ، سواء اكانت اجرامية او معادية للاجرام ، وقد تفرض ظروف العمل على الحدث ان تكون له صلة بافراد معينين لاخيار لهم فى انتقائهم . ومن هذا قد تبدا بذرة الجريمة فى الانبات ، ويتصل بها الحدث متأثرا بغريزة الجماعة دون ان توجد نماذج اخرى معادية للاجرام تساعده على مقاومة عوامل الاجرام .

---

(٥١) فالبيئة المدرسية تمنح وسطا يعمل اما للخير اوللشر ، سلوك الفرد (برنس ص ٤٠)

واخيرا فقد يجتمع الاحداث خارج نطاق المنزل او المدرسة او محل العمل ، ويكون هذا فيما يسمى بمجتمع الطريق . ومن هذا القبيل الشارع والسينما والمقاهي والحدائق العامة .

واجتماع الحدث مع غيره من الرفقاء امر تدفع اليه الغريزة ، ويؤدي انطلاق الحدث الى الطريق الى اجتماعه بغيره ، سواء من كان في سنه أو يكبره أو يصغره ، فتكون الجماعات الصغيرة . ولا شك في ان افراد تلك الجماعات تحوي نماذج سلوكية مختلفة تتقارب حتى لتكاد تتحد مع مرور الوقت ، والحدث في المجموعة يؤثر او يتأثر بها حسب قوة شخصيته ومدى الاستعداد المهيأ له . ولما كان السلوك غير المعادي للاجرام يشجع عليه التجمع فان احتمال انزلاق بعض جماعات مجتمع الطريق الى الجريمة أمر متوقع .

البيئة والتغير الحضاري :

يتبادر الى الذهن التساؤل عما اذا كان للتنمية الاجتماعية والاقتصادية من أثر على حجم الجريمة واتجاهاتها ، وبمعنى آخر هل هناك علاقة بين التحضر والجريمة من ناحية ، والتصنيع والجريمة من ناحية اخرى ؟ والاجابة على هذا السؤال ليست من البساطة بمكان ، لانها تقتضي ابتداء تحديد المراد من لفظي التحضر والتصنيع . ولا نستطيع القول بأن هناك ضابطا محددا يمكن معه التفرقة بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية ، على انه بالنسبة الى مصر وفقا للاحصاء السنوي الذي تصدره الدولة (٥٢) ، يعتبر مناطق حضرية المحافظات وعواصم المحافظات وبنادر المراكز ، أما غير هذا فيعتبر من المناطق الريفية . واذا كان مفاد التصنيع هو انقلاب كامل في سياسة الدولة الاقتصادية ، بمعنى ان تعتبر الصناعة العمود الاساسي في اقتصادها الا انه بالنسبة لمصر فان الاساس هو الزراعة ، وسياسة التصنيع ما تزال في بدايتها ، ولا يمكن ان يعتبر المجتمع المصري بالمنشآت الصناعية المستحدثة مجتمعا صناعيا .

ومع هذا فبقدر التحول الموجود في مصر هل يوجد تغير في خط سير الاجرام؟ ان هناك صعوبة لا يسهل الافلات منها ، وهي ربط الجريمة بالتحول القائم في المجتمع ، بمعنى اعتبار التحول سببا في ظاهرة معينة تتعلق بالجريمة . فالسلوك الاجرامي نتيجة لعوامل عديدة تتفاعل مع بعضها وتوصل اليه . على ان هذا لا يمنع من ملاحظة بعض التغيرات التي تطرأ على الاجرام في المجتمع وتكون مرتبطة بسياسة التحول . ومن ناحية اخرى يفتقر الحال الى الاحصائيات التفصيلية الدقيقة التي يعتمد عليها في هذا الصدد . واذا رجعنا الى مختلف بيانات الاحصائيات في مصر لا نجد اي تغيير جوهري قد دخل عليها نتيجة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية ، حتى ان كثيرا من الجرائم المنتشرة والمعروفة حاليا لم تدرج بها . واكثر من هذا تأتي الاحصائيات الحالية

---

(٥٢) راجع الكتاب السنوي للاحصائيات العامة لمصر الذي يصدره الجهاز المركزي للتعبئة .

صامتة فيما عدا اشارات عابرة عن سير الاجرام في مقدمة تقرير الامن العام ، في حين ان الجداول الاحصائية السابقة كانت تحوي دراسة عنها وتقليلا للنتائج التي توصل اليها ، فضلا عن ان تقارير الامن العام كانت تشمل ملاحظات رجال الامن في كل محافظة عن حالة الاجرام والاقتراحات الخاصة بمكافحة الجريمة .

واذا نظرنا الى الاحصائيات الجنائية ـ لاسيما الخاصة بتقارير الامن العام ـ لوجدنا ان الجرائم ـ وعلى الاخص الخطيرة منها ـ تتجه نحو النقصان ، وهي نتيجة تلفت النظر لاسيما مع ازدياد تعداد السكان ، وتدعو لدراسة خاصة لمعرفة ما اذا كان هذا النقصان ظاهريا أم يطابق الواقع . وحتى لو ثبتت حقيقة هل يرد هذا الى التحول الذي طرا على المجتمع او الى تقدم المدنية الطبيعي في كل الدول مع مرور الايام ؟ والدراسة الحقة لآثار التحول يجب أن تبدأ بالريف اولا .

والبحث فيما اذا كانت التنمية الاجتماعية والاقتصادية يؤديان الى ازدياد الاجرام من عدمه لا يقتصر على المجتمع المصرى ، بل هو يتناول كل الدول التي تمر بهذه المرحلة من دول العالم الثالث . وقد كان الموضوع من بين ما طرح على المؤتمر الدولى الثانى لمكافحة الجريمة ومعاملة المذنبين الذى عقد في لندن سنة ١٩٦٠ وتبين من المناقشات التي دارت حوله ان الراى لم يستقر على اثر التحول الاجتماعي والنمو الاقتصادى في حجم الاجرام ونوعه . فبينما عرض بعض الاعضاء تجارب بلادهم الفعلية كانت هناك آراء مغايرة لذلك .

وقال المدير العام انه من الواضح انه لا تتوافر لدينا المادة العلمية الكافية للوصول الى نتائج على قدر كاف من الوضوح ، وفي مقدمة هذا النقص عدم دقة الاحصائيات الجنائية المتاحة ، ويبدو هذا جليا في ان الارقام عن الحضر والارقام عن الريف لا يفصل بينهما خط واضح ، اذ ان ما هو حضرى وما هو ريفي في ذاته ليس شيئا محددا ، بل حتى ولو كانت الارقام مما يمكن الاعتماد عليه فانها لا تفصح عن المضمون الاجتماعى وراء هذه الارقام ، وهو مضمون شديد الاختلاف من جماعة الى اخرى مما يجعل من الصعب الوصول الى تفسير دقيق لهذه الارقام ، او امكان اتخاذها اساسا للمقارنة من جماعة الى جماعة .

وقد كان من اهم التوصيات التي اقرها المؤتمر ما يأتى (٥٣) :

١ ـ ليس الاجرام نتيجة لازمة للتغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى في الدول الاقل نموا . فالتغيرات الاجتماعية ، وكذلك النمو الاقتصادى ، كلاهما امر محتم ومقبول ، وقد يؤديان في ظروف مناسبة الى نقص الجريمة . وتعبير الدول الاقل نموا انما يشير الى حالة من النمو الاقتصادى فحسب .

---

(٥٣) احمد خليفة ص ٣٦ .

٢ ـ الاجرام الذى قد ينشأ عن التغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى البلاد الاقل نموا لا يعتبر الآن من صور السلوك التي لم تكن معروفة من قبل . ولذلك ينبغي تركيز الاهتمام على صلة زيادة الاجرام بوجه عام بالتغيرات الاجتماعية ، لا قصره على صورة خاصة من الاجرام .

٣ ـ قد ظنّ خطأ ان الهجرة ، وخاصة الهجرة الداخلية ، التي تقترن عادة بالتغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى البلاد الاقل نموا ، من اسباب الاجرام ، والواقع ان الهجرة فى ذاتها ليست سببا للاجرام ، بل ان عدم الاستقرار الحضارى وضعف الضوابط الاجتماعية التقليدية والتعرض لمستويات متضاربة من السلوك الاجتماعى مما يرتبط بالهجرة ، كل ذلك من شانه ان يتسبب فى الاجرام . وهذا النظر يصدق أيضا بالنسبة الى ظاهرتي التحضر والتصنيع .

٤ ـ ويلاحظ انه عند بحث مشكلة الاجرام وعلاقته بالتغير الاجتماعى يتجه النظر بصفة عامة الى المناطق الحضرية ، وهو أمر وان كان من الممكن تبريره الا ان الحكمة تقتضي ايضا ان يوضع موضع النظر والاعتبار اثر التغير الاجتماعى فى المناطق الريفية ذاتها ، اذ ان ذلك قد يكشف عن جذور الجريمة التي تعلن عن نفسها فيما بعد فى المجتمع الحضرى .

وقد قام المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بدراسة التحضر والجريمة فى مصر(٥٤) معتمدة على احصائيات وزارة العدل لما توافر فيها من تحديد وتقريب للجرائم المختلفة كما جاءت فى قانون العقوبات ، ومن استمرار نفس التبويب والتصنيف للبيانات المختلفة فى المدة الزمنية المحددة للدراسة ، وهي من عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٥٧ . واتضح من هذه الدراسة أن جرائم الجنايات والجنح تزيد بصفة عامة فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وبالنسبة الى الجنايات تزيد جرائم العنف المرتكبة ضد الاشخاص لاسباب انتقامية ، وجرائم الانتقام بالحرق العمد ، او قلع المزروعات ، او تسميم المواشي فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية . اما جرائم السرقة والرشوة والتزوير والاختلاس والفسق وهتك العرض والقود تزيد فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وبالنسبة الى الجنح تزيد الجنح التالية فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية ، تسميم المواشي واتلاف المزروعات . اما الجنح الآتية فتزيد فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية : السرقة ، التشرد ، النصب ، خيانة الامانة ، الضرب ، القتل الخطأ ، الهروب من المراقبة .

---

(٥٤) بحث التحضر والجريمة في مصر ـ ص ١ ومابعدها .

وفى محاولة معرفة اتجاه الجريمة فى المناطق الحضرية والمناطق غير الحضرية خلال المدة من ١٩٤٧ الى ١٩٥٧ اتضح الآتي :

١ ــ ان جرائم الجنايات بصفة عامة أخذت فى الانخفاض تدريجيا حتى ١٩٥٢ ، وكانت نسبة انخفاض الجنايات فى المناطق غير الحضرية اكبر من نسبة انخفاضها فى المناطق الحضرية باستثناء عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٢ .

٢ ــ بدات جرائم الجنايات بصفة عامة فى الزيادة ابتداء من عام ١٩٥٢ الذى زادت فيه بشكل كبير حول الانخفاض التدريجي الى ارتفاع تدريجي .

٣ ــ كانت جرائم الجنايات بصفة عامة اكثر ميلا للارتفاع بشدة فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق الحضرية ، بينما تميل الى الانخفاض بشدة فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية .

٤ ــ جرائم الجنح بصفة عامة اخذت فى الارتفاع التدريجي عام ١٩٤٦ وانخفضت بشكل كبير عام ١٩٥٧ . وايضا تبين أن الجنح بصفة عامة اكثر ميلا للارتفاع بشدة فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية .

والذى يمكن استخلاصه من هذه الدراسة أن الجرائم التي يمكن ان يطلق عليها الجرائم الانتقامية ــ لا سيما ما كان منها متعلقا بالاعتداء على الاشخاص ــ تغلب دائما فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية . وان جرائم الاعتداء على المال ، والتي تكون الغاية منها الكسب تغلب فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وقد لوحظ ايضا ان مختلف انواع الجرائم ــ الجنايات والجنح ــ تتجه دائما نحو الارتفاع . هذا وانه وان كانت الدراسة قد تناولت حجم الجريمة منذ عام ١٩٤٧ حتى ١٩٥٧ الا انها لا تكشف عن أثر التحول الذى حدث فى المجتمع على سير الاجرام ، لانها اعتمدت على احصائيات وزارة العدل التي لم تتغير جداولها وبياناتها للجرائم خلال هذه الفترة .

وقام المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بدراسة اخرى عن ظاهرة الجريمة فى أسوان (٥٥) وذلك فى المدة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ . وقد جاء فى مقدمة هذه الدراسة ان مجتمع أسوان كان ــ الى حين تنفيذ مشروع السد العالى ــ مجتمعا محتفظا باصالته الريفية وبالعلاقات الاجتماعية التى تنمو فى كل مجتمع زراعى ، وقد ترتب على تنفيذ مشروع السد العالى ورود عدد كبير من العمال والمهندسين والموظفين من جميع انحاء الجمهورية بمنطقة السد

---

(٥٥) سيد عويس وشهيرة الباز ، ص ١٧٩ وما بعدها .

العالى ، وقيام بعض الصناعات التى يحتاجها المشروع : ولما كان هؤلاء العمال والموظفون يرتبطون اساسا بالصناعة ، فقد كانت تسودهم قيم واخلاقيات وعادات اجتماعية تختلف اختلافا كبيرا عن القيم والاخلاقيات والعادات الاجتماعية التى تسود سكان أى مجتمع زراعى .

وانه بشكل عام يمكن القول بأن مجتمع اسوان قد تحول بعد بدء العمل فى مشروع السد العالى الى مجتمع صناعى تتضح فيه كل السمات الأساسية التى يتسم بها هذا النوع من المجتمعات، ومن الظواهر التى تأثرت تأثيرا كبيرا بالتغيير الجذرى الذى حدث فى تلك المنطقة ظاهرة الجريمة .

ويمثل الجدول التالى جرائم الجنايات التى وقعت خلال المدة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ :

الجريمة / السنة	قتل وشروع	سرقة وشروع	خطف	حريق	جنايات أخرى	جملة
١٩٥٩	٤	٢	١	٢	٣٤	٤٣
١٩٦٠	١٠	١	—	٣	٢٥	٣٩
١٩٦١	٥	٢	—	—	٢٧	٣٤
١٩٦٢	٥	١٠	—	١	٢٠	٢٧
١٩٦٣	٤	٢	—	١	٣٩	٤٦
١٩٦٤	١٤	٣	١	—	١٥	٦٩

أما جنح السرقة فقد بلغت نسبتها الى مجموع الجنح خلال السنوات ١٩٦١ حتى ١٩٦٤ على التوالى كما يأتى : ٩ر٣١ ٪ ، ٢ر٢٧ ٪ ، ٥ر٢٥ ٪ ، ٣ر٣٢ ٪ .

واتماما لعقد المقارنة يمكن اضافة الجدول التالى عن جرائم الجنايات :

الجريمة / السنة	قتل وشروع	سرقة وشروع	خطف	حريق
١٩٣٨	٩	١٢	—	١٧
١٩٤٨	١١	٨	—	١٣
١٩٥٨	٦	١٠	١	٨
١٩٦٨	١٢	٦	—	٢
١٩٧١	١١	١١	١	١
١٩٧٤	٧	٤	—	١

فهل يمكن ان نستنتج من الجدولين السابقين الخاصين بجرائم الجنايات اثر تحول المجتمع فى أسوان على ظاهرة الجريمة ؟ ، فى رأينا أنه لم تتوافر بعد البيانات الكافية لاستخلاص نتيجة يعتمد عليها . فالجدول المستخلص من بحث المركز القومى لم يبين النسبة المئوية للجريمة

بالقياس الى عدد السكان فى محافظة اسوان الذى تزايد بدرجة كبيرة بما قد يؤدى الى الانخفاض فى نسبة الاجرام لا فى زيادته ، لا سيما اذا رجعنا الى الجدول الثانى حيث تكاد تكون جنايات القتل والشروع فيه متقاربة . هذا ومن المسلم به انه لا يمكن تحديد الآثار الناشئة عن تحول المجتمع فى سنة محددة اثر سنوات تالية ، وانما يحتاج الأمر الى دراسة كل جريمة على حدة . وعلى سبيل المثال اذا كانت جريمة القتل ترتكب للثأر فهل يؤثر التحول الاجتماعى عليها ؟ والأمر لا يختلف بالنسبة الى الجنح حيث تكاد تكون نسبة جنح السرقة خلال سنوات الدراسة متقاربة ، والمهم هو مقارنة هذه النسب مع ما كان عليه الحال قبل تطور المجتمع . وخلاصة قولنا ان الأمر يحتاج الى مزيد من الأبحاث والدراسات .

ومما يتصل بالتغير الحضارى وله اثر بالغ فى سلوك الفرد على اية صورة كان سواء كانت اجرامية او سوية ، هو اثر اجهزة الثقافة والترفيه فى الاجرام ، ذلك ان هذه الوسائل تعتبر جزءا من الوسط الذى يعيش فيه الفرد ويتأثر به (٥٦). فوسائل الاعلام المختلفة تلعب دورا خطيرا فى الحياة الثقافية لافراد الشعب ، فاذا قدمت نماذج صالحة كان لهذا اثره على المستوى السلوكى ، اما ان عرضت لصور من الاجرام بشكل يثير الغرائز الكامنة فى الانسان ، فانها بهذا تشجع السلوك الاجرامى . ولقد تناول كثير من الباحثين دور وسائل الاعلام فى نشر الجريمة او مكافحتها ، حيث يسعى بعضها الى مجرد الكسب المادى دون نظر الى ما قد يسفر عن ذلك من نتائج ، فتصوير المجرمين فى صور البطولة ، وجلب عطف القراء عليهم ، وايضاح سبل ارتكاب الجريمة ، والهرب من ادلتها واعداد نتائجها سلفا ، كل هذا قد يكون من العوامل المساعدة على السلوك الاجرامى .

ونستطيع القول بأن الآثار الخطيرة التى ظهرت لوسائل الاعلام فى بعض البلاد الأجنبية لم تصل الينا بعد ، وذلك للصورة المقبولة التى ينشر بها عن الجريمة . وان كانت هناك بعض الوقائع التى اعترف فيها المهتمون بأنهم رسموا طريقهم فى ارتكاب الجريمة وفقا لما شاهدوه فى بعض الأفلام ، الا ان تلك الوقائع مازالت فردية لا تمثل خطورة . ولم تستطع نتائج الأبحاث التى أجريت قديما وحديثا بيان تأثير أدوات الاعلام فى السلوك الاجرامى لا سيما بالنسبة الى الأحداث .

خاتمة :

رأينا فيما تقدم ان الجريمة تعتبر احدى الظواهر الاجتماعية ، وانها موجودة دائما منذ خلقت البشرية الى ان يرث الله الأرض ومن عليها ، فلا مجتمع بغير جريمة . والجريمة وان كانت ضرورة فهي فى ذات الوقت شر ، يقتضي مداومة البحث عن مختلف السبل للاقلال من ضررها على المجتمع ، واقتضى الأمر تحديد الجريمة التى تستحث الباحث على الاهتمام بها

(٥٦) ستيفاني وآخرون ، بند ١٠١

ومتابعتها وتقصي عواملها وتتبع آثارها ، ثم لزم تبعا لهذا أن يحدد نطاق البيئة ، وهو أمر من الدقة بمكان ، ذلك لأن اى حدود لمعنى البيئة ــ اتسعت أم ضاقت ــ لابد وان يدخل عليها أو يخرج منها بعض العناصر ، لأنها على اية صورة تتفاعل مع مختلف الظروف والعوامل المحيطة بها . وعلى هذا فقد راينا ان كل ما يراه العلماء عاملا من عوامل الاجرام له صلة بالبيئة من قريب او بعيد ، واقتضانا هذا أن نتناول تلك العوامل واحدا بعد الآخر لنتبين مدى ما يتركه من أثر فى السلوك الاجرامى على وجه الخصوص . ولا شك فى ان كل عامل من العوامل يمكن تناوله مستقلا وبالتفصيل ، سواء من الناحية النظرية او من الناحية التطبيقية ، ولكنا اردنا فى هذا البحث أن نلم بتلك العوامل مجتمعة حتى تتضح معالم صورة البيئة كاملة ، ويستطيع من يتناول دراسة عامل معين ان يكون فى اعتباره قيام كل أو بعض العوامل الأخرى .

* * *

المراجـع

أولا ـ اللغة العربية :

١ ـ احمد ابو زيد — الثأر ، دراسة انثروبولوجية باحدى قرى الصعيد ، من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ـ القاهرة ١٩٦٥ .
المجلة الجنائية القومية ، نوفمبر ١٩٦٣ .

٢ ـ احمد على المجـدوب ـ دراسة لظاهرة الجريمةفىقرية طهواى ـالمجلة الجنائيةالقومية ـيولية١٩٧٣ .

٣ ـ احمد محمـد خليـفة ـ الوقاية من الجريمة الناشئةعنالتغير الاجتماعى المصاحب للتنميةالاقتصادية فى البلاد الاقل نموا ـ المجلة الجنائية القومية . مارس ١٩٦١ .

٤ ـ حسن المرصـفاوى ـ الاجرام والعقاب في مصر ـ الاسكندرية ـ ١٩٧٢ .

٥ ـ حسن المرصفاوى ومحمودالسباعى ـ ميادم علم الاجرام ، مترجم (سنرلاندو كريسي) القاهرة ١٩٦٩ .

٦ ـ زكريا طـه ـ جريمة الخطف فى جمهورية مصر العربية ـ معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة ـ القاهرة ١٩٧٤ .

٧ ـ سـمير الجـزورى ـ النزيلات المحكوم عليهن بسجون الاقليم المصرى ـ المجلة الجنائية القومية نوفمبر ١٩٥٩ .

٨ ـ سـيد عويس ـ حجم مشكلة جناح الأحداث واتجاهاتها وعواملها في الجمهورية العربية المتحدة ـ المجلة الجنائية القومية ـ يولية ١٩٦٥ .

٩ ـ سيد عويس ، شهيرة الباز ـ ظاهرة الجريمة فى محافظة أسوان ـ المجلة الجنائية القومية ـ يوليو ١٩٦٦ .

١٠ ـ عبد العزيز محمد القطنى ـ سمات الجريمة فى محافظة البحيرة والتخطيط لمكافحتها ـ معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة ـ القاهرة ١٩٧٤ .

١١ ـ محمـــد البـــابلى ـ الاجرام في مصر ـ أسبابه وطرق علاجه ـ القاهرة ١٩٤١

١٢ ـ محمد خـيرى محمـد على ـ الريف والحضر وظاهرة الجريمة ـ القاهرة ١٩٦٥ .

١٣ ـ محمود عبد الرزاق عبد العال ـ نوعية الجريمة فى بحيرة المنزلة ـ معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة ـ القاهرة ١٩٧٥ .

١٤ ـ منصور غيث قنـديل ـ الامن العام فى الجمهورية الليبية ـ معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة ـ القاهرة ١٩٧٥ .

١٥ ـ الأمم المتحـــدة ـ دراسة مقارنة عن اجرام الاحداث (الجزء الخاص بالشرق الاوسط) ١٩٦٦ .

١٦ ـ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائيـة ـ دراسة التحضر والجريمة فىالاقليمالمصرى ـالمجلة الجنائية القومية ـ مارس ١٩٥٩ .

١٧ ـ المركزالقومى للبحوث الاجتماعية والجنـائية ـ السرقة عند الاحداث ـ من منشورات المركز القومى للبحـوث الاجتماعيـة والجنائية .

١٨ ـ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ـ العوامل الاجتماعية فى تشرد الاحداث ، المجلة الجنائية القومية ـ نوفمبر ١٩٦٥ .

ثانيا ـ اللغة الاجنبية :

1. Bonger W. T. : An Introduction to Criminology, 1936.

2. Bouzat Pierre et Jean Pintil : Traité de droit pénal et de criminologie, T. III, 1968.

3. East Norwood : Society and the Criminal, 1951.

4. Kolaly, El-Mohamed : Essai sur les causes de la criminolilé astuelle en Egypte, 1929.

5. Mays, John Barron : Crime and Social Strecture, 1963.

6. Pinatel, Jean : La Criminologie, 1960.

7. Prins, Hershel : Criminal Behaviour, 1973.

8. Seeling, Ernst : Traité de criminologie, 1956.

9. Stefani, J. & G. Levasseur & R. Jambu Marlin : Criminologie et sience penitentiaire 1970.

10. Sutherland, Edwin H. & Donald Cressey : Principes de criminologie, 1966.

11. Tannenbaum Frank : Crime and the Community, 1963.

12. Wolfgang, Marion & Leonard Sairtz & Norman Johston : The Sociology of Crime and Delinquency, 1970.

* * *

محمد عبد الرحمن الشرنوبي *

بيئة العصر: بين البقاء والفناء

منذ ملايين السنين وعوامل التعرية الهوائية والمائية والتغيرات المناخية تعمل على تغيير العديد من مظاهر البيئة الطبيعية ، ولم يكن يخطر ببال احد أن جنسا واحدا من أجناس الكائنات الحية العديدة التى تحيا حياة الارض ، يمكن أن يعمل بجد ــ سواء كان ذلك بقصد أو بغير قصد ــ على دمار هذا الكوكب او تخريبه والعمل على تدهور ظروفه الطبيعية الا منذ ٨٠٠٠ سنة مضت فى صورة هذا الانسان الجوال المطارد ، الذى يطوف أجزاء الارض بحثا عن الطعام ، ثم تطور الى فلاح يزرع الارض ، ثم جاءت المدنية فحياة المجتمعات الصناعية التي ضوعفت فتضاعفت المخاطر التي تتعرض لها بيئة هذا الكوكب .

لقد كانت الاسرة البشرية الاولى تعمل بجهد لا يعرف الكلل على جمع طعامها بمطاردة الحيوانات خلال ما يعرف بالعصر الحجرى القديم . وكانت فى هذا متفاعلة تماما مع

* دكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبي ، استاذ الجغرافيا المساعد بكلية الآداب والتربية بجامعة الكويت .

المجتمعات البيولوجية المحيطة بها . ولقد أسهمت الادوات التي استخدمها الانسان آنذاك في تكوين أسرة مدربة تدريبا راقيا على مطاردة الحيوانات والايقاع بها ، ومع ذلك فلم يكن تأثير هذا الانسان على تلك المجتمعات البيولوجية يختلف حقيقة عن تأثير أي نوع من انواع الكائنات الاخرى كالحيوانات آكلة اللحوم وآكلة العشب ، ولكن الصورة تغيرت تماما مع مسيرة التاريخ الانساني الطويلة .

لقد جاء أول تغير على العلاقة بين الانسان والبيئة مع اكتشاف النار . ولقد كان ذلك الحدث الخطير في حد ذاته من أهم الاحداث التي عاصرت خروج الانسان من اسر الطبيعة من حوله أو من تفاعله الهادىء مع عناصرها . فليس هناك اي كائن آخر يستطيع أن يشعل النار ويستخدمها . وعندما بدأ الانسان يتحكم في هذه الظاهرة الخطيرة ــ النار ــ ازداد استخدامه لها ، فأحدث بذلك الكثير جدا من التأثيرات الايكولوجية ذات المدى البعيد والخطير . (١)

ولقد مرت علاقات الانسان بعناصر البيئة من حوله آنذاك بتغيرات هائلة ، ولكنه كان في كل تصرفاته وعلاقاته وتفاعلاته مراعيا للمبادىء الايكولوجية ، كما نجح في استمرار بقاء الجسور ممدودة بينه وبين البيئة بعناصرها المختلفة من حوله . كذلك نجح في استغلال هذه العناصر بحكمة متناهية وبصيرة نافذة ، ربما عن غير قصد ، الا أن اثبات ذلك يعتبر امرا عسيرا ، وان كان من الثابت ان ذلك الانسان لم يكن يميز ــ كما يفعل انسان العصر ــ بين ذاته كانسان ، وبين العالم الطبيعي المحيط به .

لقد أطلق علماء الانثربولوجيا على تلك التغيرات اصطلاح ثورة العصر الحجري الحديث Neolithic Revolution ، رغم أن اصطلاح «ثورة» هنا ربما لا يتلاءم تماما مع التغييرات التي حدثت على امتداد ملايين السنين ، ولكونها حدثت في أزمنة متباينة ، وفي تلاحق مستمر ، وفي اجزاء مختلفة من العالم . واستطاع الانسان آنذاك ــ رغم اعداده البسيطة ــ ان يتدخل في بيئته .

ومن خلال ممارسة هذا الانسان لنشاطاته المختلفة خلال ذلك العصر ، تمكن من تطوير ادوات صيده وأسلوب مطاردته لفريسته . ولقد كان مسرفا في ذلك الى حد كبير . (٢) فكان يقود قطعان الحيوانات الى الشراك المختلفة والى الجروف ليسهل القضاء عليها في جماعات . وعلى الرغم من ذلك ، ونتيجة لقلة اعداد السكان خلال ذلك العصر ودوام حركتهم ، كان تأثير الانسان في البيئة تأثيرا محليا ومؤقتا . فالارض كانت تعطى الفرصة لاستعادة ما فقدته من غطاء نباتي ، وكان الانسان يعود اليها ليمارس نشاطه من جديد وكأنها ارض جديدة حل بها .

---

(١) Marston Bates : „ The Human Ecosystem ", Firm Resources and Man, by the Committee on Resources and Man of the Division of Earth Sciences, National Academy of Sciences — National Research Council, 1969, and, Ecological Crisis, Edited by G.A. Love & R.M. Love, N.Y., 1970, P. 3 .

(٢) محمد عبد الرحمن الشرنوبي : « جغرافية السكان » القاهرة ــ مكتبة الانجلو ، ١٩٧٢ ، ص ص . ٥٥ ــ ٥٩ .

ولا نملك الدليل حقيقة على ان ثمة ثورة اقتصادية قد حلت مع بداية العصر الحجرى الحديث ، فقد ظهرت الزراعة واستئناس الحيوان بالتدريج منذ العصر الحجرى الاوسط Mesolithic ، وتجمعت هذه الاتجاهات خلال العصر الحجرى الحديث عندما ظهر الانسان بوضوح كحيوان « سيد » شرع فى غزو بيئته النباتية والحيوانية واخضاعها ، بدلا من التكيف معها .

وتدخل انسان العصر الحجرى الحديث فى البيئة عن طريق زراعة المحاصيل واستئناس الحيوانات، ومن ثم عمل على اجتثاث الغابات، مما تسبب فى ازالة التربة وتلوث الانهار بالرواسب كما عجل بعمليات التعرية الطبيعية بالتدريج . وكان اعداد الحقول وزراعة المحاصيل والعناية بالحيوانات واعداد المواد الغذائية ومنتجات الحيوانات ، يتطلب حياة جماعية فى قرى اكثر من حياة القبائل الرحل . وازداد نظام القرى تعقيدا عندما كانت تحصل قرية ما ، على مورد طيب من الاحجار ، فتصنع فؤوسها وتطورها ، وكانت الاخرى تلجأ الى الطمى لصناعة الاوانى ، وثالثة تلجأ الى الالياف النباتية لعمل السلال . وكانت مثل تلك المنتجات المتنوعة توزع وتنتقل من مكان الى آخر عن طريق التجارة ، الامر الذى استلزم تمهيد بعض الطرق لتيسير الانتقال .

ولقد كان الامتداد المنطقى لهذه الميول ، هو ما آلت اليه حياة المدن الآن ، ودمار الغابات الطبيعية ، وامتداد الرقعة الصحراوية ، ونظرتنا الى الطبيعة الآن على اعتبار انها شيء ينبغي اخضاعه لكافة متطلباتنا فى الوقت الحالى ، وليس شيئا ينبغي ان نتعايش معه فى وفاق .

وحينما بدأ الانسان يمتلك القدرة على اتخاذ القرار الذى يناسبه ويقرر به مصيره ، استطاع ان يسيطر على كثير من مقدراته ومقدرات بيئته ، وهنا فقط بدأ يحطم كل القواعد الايكولوجية التى سبق ان تعايش معها وفى ظلها ، بل قدسها وعبدها احيانا ، (٢) فلقد حطم مسالك تدفق الطاقة ، ومزق نسيج الطعام الطبيعى واخل بسلاسله ، وحقق لبعض جماعاته العزلة ، واخل بكثير من التفاعلات الاجتماعية ، ولم يتمكن من تحقيق التوازن بين موارده واعداد جنسه ، وتمادى فى استغلال الارض والغابات ومصائد الاسماك فى البحار والمحيطات ، ونشر الامراض ، وادخل نظما غريبة للحياة ، فى الوقت الذى استأصل فيه النظم الاصلية وغير ملامحها بدرجة خطيرة .

ويرى العالم الانثروبولوجي البريطانى **جوردن تشيلد** Gordon Childe ان ما حدث بعد العصر الحجرى الحديث انحصر فى حدود ثورتين : الأولى هى الثورة الحضرية Urban Revolution ، والتي اهتمت بنقل وتخزين المواد الغذائية ، مما جعل فى الامكان ظهور المدن والتخصص فى العمل

---

(٢) يرى العالم الانثروبولوجي كون Carlton S. Coon **ان حضارة العصر الحجري الحديث اكثر بكثير من موضوع بحث علماء ما قبل التاريخ ، وان التباعد عنها ربما يكون من اصعب المشاكل فى العالم . (راجع :** Marston Bates, O .Cit. (P. 36, 37.

والمعارف . اما الثانية فهي الثـورة الصناعيـة Industrial Revolution ، والتي قامت على اساس استخدام الطاقة بدلا من استخدام عضلات الانسان والحيوان . وان كان سنو C.P. Snow يضيف ثورة ثالثة اسماهـا بالثـورة العلميـة Scientific Revolution وهي تلك الثورة الحديثة المعاصرة التى جاءت عن اتحاد العلم والتكنولوجيا لحل المشكلات العملية المختلفة ، وهي الثورة التى أتاحت للانسان زيادة درامية مخزنة فى الطاقـة خلال هذا القرن بما فى ذلك الطاقة النووية الرهيبة ، وتطور الأجهزة الالكترونية . وتعتبر هذه الثورة الاخيرة بالذات ، سببا رئيسيا فى تلك التغيرات الايكولوجية على نطاق عالمى أكثر من أى تغيرات اخرى .

• • •

ترابط الغلاف الحيوى :

الغلاف الحيوى Biosphere مصطلح يشتمل على كافة المجتمعات التي تزخـر بهـا بيئة هـذا الكوكب فى حياة ذات نظم وقوانين محكمة ايما احكام . ولقد انصب اهتمام العلماء لفترة قريبة على « اغلفة » الكرة الارضية الاخرى دون الاهتمام بالغلاف الحيوى كغلاف يمثـل وحـدة واحـدة مترابطة اثبتت الثورة العلميـة المعاصرة ان لـه تأثيرا بالغا على سائر الأغلفة الأخرى . (٤)

وأهمية هذا الغلاف تتمثل فى أن الانسان ، وهو أحد عناصره الرئيسية ، قد اصبح يدرك جيدا الآن ان هناك نوعا من « التكافل » الفريزى بين مجتمعاته . وهو يمثل نظاما فريدا مترابطا رغم تنوعه الذى لا حد له . هذا التنوع لا يمكن لأحد أن ينكره ، فالصحراء والغابة على سبيل المثال ، نوعان من الأماكن مختلفان ، رغم انه من الصعب وضع خط يحدد حدود كل منهما . غير أن الانواع المختلفة والعديدة للمجموعات البيولوجية التى تكوّن الغلاف الحيـوى توضح وحـدة حقيقية بالفعل . فالحياة فى كل موقع منظمـة وقائمة على مبادىء اساسية واحدة .

ومن المؤكد علميا أن الاحياء جميعا ـ من نباتات وحيوانات وكائنات أخرى ـ والتي تعيش فى منطقة ما ، وتكوّن مجتمعا بيولوجيا مميزا ، تترابط فيما بينها فى شبكة من العلاقات المعقدة . ولكل مجموعة من هذا المجتمع دور هام يؤديـه لافراد المجموعـات الاخـرى . ويميز علمـاء الايكولوجيا بين هذه المجموعات ، فهناك الكائنات المنتجة Producers ، والحيوانات التي تتغذى عليها ، وتسمى بالكائنات المستهلكة Consumers ، وهناك الحيوانات التي تحيا مباشرة على النباتات

(٤) اغلفة الارض تبدا حول نواة مركزية صلبة يطلق عليها الباريسفير Barysphere يحيط بها الغلاف الصخري Lithosphere ، ثم الغلاف المائي Hydrosphere ممثلا في البحار والمحيطات ، ثم الغلاف الغازي Atmosphere ، وامكن تمييز ثلاث طبقات جوية فيه اطلق عليها تروبوسفير Troposphere وستراتوسفير Stratosphere وايونوسفير Inosphere ونلاحظ ان الغلاف الحيوي Biosphere قد سقط من هـذه التقسيمات فى شتى الدراسات رغم اهميته وارتباطه بالاغلفة الاخرى .

وتسمى بحيوانات الصناعة الرئيسية Key Industry Animals لاعتماد عالم الحيوان كافة عليها ، ثم هناك المحللات Decomposers كالبكتيريا والفطريات لدورها فى تحلل الأحيان بعد موتها .

وهذه المكونات البيولوجية متعاونة « معالعناصر الفيزيائية وتكون ما يسميه علماء البيولوجيا بالنظام الايكولوجى Ecosystem .ويؤكد المفهوم الخاص بهذا النظام على العلاقات الوظيفية فيما بين الكائنات الحية فيما يعرفبنسيج الطعام Food Web ، وبين تلك الكائنات وبين البيئة الطبيعية الخاصة بها . وتتمثل هذهالعلاقات الوظيفية فى سلسلة الغذاء التي تتدفق من خلالها الطاقة ، كما تتمثل كذلك فى الطرق اوالمسارات التي تتحرك على امتدادها العناصر الكيميائية الضرورية للحياة فى ذلك النظام البيئياو ذاك .

ولا شك أن الالمام بظروف هذه العلاقاتوالوظائف أمر حيوى للغاية لفهم الآثار التى يحدثها الاخلال بالتوازن البيئي الضرورى مناجل بقاء ذلك « التكافل » بين عالم الأحياء . واذا كان الاقدمون قد تصرفوا بوعى بيئي عن غيرقصد ، فليس اقل من ان نتصرف بنفس المنطق، ولكن عن قصد . وحتى يعود التوازن الى حالتهينبغيالا نظل علىاسرافنا فى اتلاف البيئة وتلويثها والعبث بقوانينها الأزلية ، مهما كانت الغاية :استثمارا او استغلالا او ثراء او رفاها . ان كل ما يلصق بزيادة السكان او بالثورة التكنولوجيةكعوامل ساهمت فى تلف البيئة لا بد أن يوضع تحت المجهر ، ولا شك ان الادراك الواعىللانسانية ، والذى لن يتحقق فى عالم لا يسوده السلام ، هو وحده السبيل الى اعادة الصداقةاللازمةلبقاء الانسان معالطرف الآخر ...البيئة.

• • •

انفجار البشرية :

يبلغ عدد سكان العالم الآن حوالى ٦ر٣بليون نسمة بزيادة سنوية متوسطها ٧٠ مليون نسمة . الا ان هذه الأعداد الهائلة تكاد تقف علىحافة عصر انقراض كامل ، نتيجة لتدهور البيئة المعاصرة . وليست هناك ظاهرة جيولوجية خلالالبليون سنة الماضية (مثل ظهور سلاسل الجبال الالتوائية الشاهقة وانخفاض كتل يابسة شبيهةبقارات باكملها) قد هددت او عرضت الحياة على سطح الارض للفناء ، مثلما تفعل الآن ظاهرةالانفجار السكانى الذى نشهده منذ فترة .

وقد يمكن ان نميز بين نمو سكان مجموعةمن الدول ونمو سكان مجموعة اخرى ، لكن الحقيقة تقول بعالم واحد . فليست المشكلة فيتزايد سكان منطقة بمعدلات كبيرة فتتعرض لمشكلة ما ، وتزايد سكان منطقة اخرى بمعدلاتاقل فلا تتعرض لمثل هذه المشكلة .

وليست هناك بيانات تاريخية مدونة ،نستطيع على اساسها ان نقدر عدد السكان الذين عاشوا على وجه الأرض قبل عام ١٦٥٠ . الا انهمن المعتقد ان جملة عدد السكان فى زمن السيد

المسيح عليه السلام كان يتراوح بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ مليون نسمة ، وقد ازدادت اعداد السكان حتى بلغت ٥٠٠ مليون نسمة فى عام ١٦٥٠ ، ثم بلغت ١٠٠٠ مليون (بليون) نسمة فى عام ١٨٤٠ ، ثم تضاعفت أعدادهم فبلغت (٢٠٠٠) مليون فى عام ١٩٣٠ . ولقد حدثت عدة مضاعفات سابقة لمضاعفة اعداد السكان من عام ١٨٤٠ الى عام ١٩٣٠ الأخيرة هذه . فقد تضاعف السكان من قبل مرة خلال ١٥٠٠ سنة ، ثم جاء التضاعف الثانى خلال ٢٠٠ سنة ، وكان الثالث خلال ٨٠ سنة ، ولو استمر معدل زيادة السكان ٢٪ (كما كان فى عام ١٩٦٨) فسوف يتضاعف عدد السكان خلال ٣٥ سنة فقط .(٥) ويعنى هذا المعدل ان هناك اضافات للسكان كل عام تقدر بحوالى ٢٠ نسمة لكل ألف من السكان . ويلاحظ انه باضافة ٢٠ نسمة لكل الف من السكان كل عام سيتضاعف السكان خلال ٥٠ سنة . ولكن من المعروف ان تضاعف الزمن اقل بكثير من تضاعف السكان ، ويرجع ذلك الى أن نمو السكان ينمو بنفس طريقة نمو رأس المال عند حساب فوائده بطريقة الربح المركب ، اى كما يربح المال من ذاته ربحا معينا ، ثم يربح هذا الربح ربحا آخر ، وهكذا . ومن هنا كان التضاعف المنتظر يستغرق ٣٥ عاما وليس ٥٠ عاما . فكل اضافة من السكان ينتج عنها اضافة اخرى ، ومن ثم يختزل الزمن المتوقع ويواجه العالم بان الزيادة التالية ستتم فى فترة اقصر(٦) (انظر الشكل رقم ١) .

ولقد كان **توماس مالتوس** أول من اهتم بزيادة السكان عندما نشر مقالته عن السكان فى عام (١٧٩٨) أى فى الوقت الذى كان فيه عدد سكان العالم اقل من ثلث عدد السكان الآن . ولقد كان مدخل مالتوس مدخلا ايكولوجيا سليما. فقد اعتقد ان السكان من البشر يمتلكون قدرة حيوية لمضاعفة أعدادهم كل ربع قرن ، فى الوقت الذى لا تحقق فيه الموارد المتاحة زيادة مماثلة . ولذا فان السكان ، ما لم يتحكموا فى هذه الزيادة، فان اعدادهم سوف تتجاوز حدود الموارد الغذائية، وتكون الترجمة المنطقية لما سماه Dismal Thorem هى بؤس الانسان .(٧)

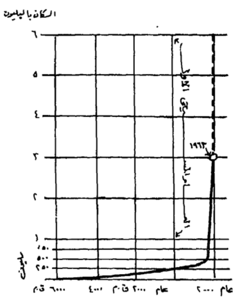
ولقد سخر بعض الناس من هذه النظرية بسبب موجة التفاؤل التى سادت القرن التاسع عشر ، وما زال هناك متفائلون . والحقيقة ان نظرية مالتوس قد ثبتت صحتها اكثر من مرة ، ففى ايرلندا ساعد ادخال زراعة البطاطس وزيادة ورخص الطعام ، على زيادة سكانية كبيرة . ولقد توقفت هذه الزيادة نتيجة لاصابة محصول البطاطس بآفة زراعية تسببت فى مجاعة كبيرة عام

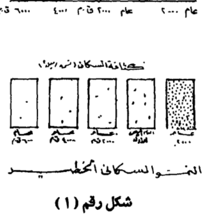
---

(٥) محمد عبد الرحمن الشرنوبي : « المشكلة السكانية فى الربع الاخير من القرن العشرين » محاضرات الموسم الثقافى للجمعية الجغرافية الكويتية عام ١٩٧٥ (مجلة الجمعية – العدد الاول – ١٩٧٦ – الكويت) .

(٦) Ehrlich, P.R. & A.H., : "Population, Resources, Environment," Issues in Human Ecology, San Francisco, 1970, PP. 14-30.

(٧) Warren S. Thompson, : Population Problems, London 1963, PP. 20-23 & 47-54.





شكل رقم (١)

يمكن تتبع الزيادة التدريجية فى اعـداد السكان منذ آلاف السنين حتى حدوث الانفجار السكانى الهائل فى الوقت الحاضر والمنتظر عام ٢٠٠٠ لو ظلت الزيادة الطبيعية الحالية على ماهى عليه . ففى خلال القرن الماضي تضاعف عـدد السكان فى العالم ، وفى مدى نصف قرن آخر تضاعف عددهم مرة اخرى حتى وصل الى تلك الصورة المروعة ، ومع هذا النمو الخطير اصبحت كثافة السكان العامة فى العالم ١٢٥ نسمة فى الميل المربع مقابل ٦ نسمة فى العام المسيحى الأول . والحالة تبعا لذلك لاتبشر بالخير ، فالاراضي التى يمكن زراعتها على سطح الكرة الارضية لا تتجاوز ١٠٪ من مساحتها الكلية ، كما ان معظم أراضي الحاصلات الزراعية تقع خارج قارة آسيا التى يتركز فيها نصف سكان العالم .

١٨٤٥ . كما تشير المجاعة الدائمة فى الهند فى الآونة الاخيرة ، الى عجز البيئة عن مسايرة النمو السكانى هناك ، ولقد بلغ عدد الموتى جوعا اوبسبب سوء التغذية فى العالم عشرة آلاف نسمة يوميا . وعلى الرغم من التقدم الزراعى والرى واستصلاح الصحارى ، الا انه ما زال اكثر من نصف سكان العالم يعانون من الجوع .(٨) (انظر الصورة رقم ٢)

ويمكن القول بأن المجتمعات الغربية المتقدمة فقط هى التى استطاعت ان تتخلص من نتائج ما اسماه مالتوس Dismal Thorem على ما يبدو، وربما كان ذلك بسبب وفرة الانتاج الزراعى فيها فى الوقت الحاضر . ورغم هذا فان نظرية مالتوس لم ترفض من التكنولوجيين الغربيين . ولقد أصاب الذهول الشعب الامريكى الذى يقود ويوجه الحضارة والمدنية الحديثة الآن عندما نشر تقرير الكونجرس عن حالة الغذاء فى الولايات المتحدة ، فقد اثبت هذا التقرير ان ملايين عديدة من المواطنين ينامون جوعى كل ليلة فى قلب الولايات المتحدة الامريكية .

ان حسم مستقبل سكان البشرية امر لا يزال عسيرا . فلا احد يدرى تماما الى اى مدى تستطيع الثورة التكنولوجية زيادة ما يمكن ان نسميه « سعة حمل » Carrying Capacity كوكبنا . كما لا نستطيع التاكد من ان نمو السكان فى المستقبل سوف يزيد عن التقدم التكنولوجى ذاته .

ومن المعروف ان للنظام الايكولوجى العام حواكم او ضوابط . هذه الحواكم يخضع لها السكان من البشر او من غير البشر من سائر الأحياء الاخرى . فهى فى غير الانسان تبدو على شكل منافسة او صراع ناجم عن غريزة حب البقاء ، فهناك جوع ومرض وافتراس . ولكن الانسان يبذل جهدا جهيدا من اجل منع تلك الضوابط الايكولوجية من النيل من أعداد سكانه . ومن هنا كانت معاناة الانسانية . فهناك محاولة لمنع تفشى الامراض حتى لا تتعرض اعداد السكان الى تقلبات عنيفة كتلك التى حدثت فى العصور الوسطى ، عندما ادى مرض الموت الاسود Black Death الى وفاة ربع سكان أوروبا . ولقد تغلب الانسان منذ زمن طويل على افتراس الحيوانات له ، لان ذلك كان يعد عاملا من عوامل التحكم فى اعداد البشرية . والانسان يحاول دائما القضاء على المنافسة بين افراد جنسه عن طريق تحريم الحروب او على الاقل الحد منها . كما يعتمد الانسان على التكنولوجيا الحديثة بدرجة كبيرة لامداد اعداده المتزايدة باستمرار الغذاء . الا ان الفرص المتاحة امام التكنولوجيا، مثل التحكم فى الظروف المناخية ، ونمو الطحالب اللازمة للغذاء فى البحيرات الصناعية ، وازالة املاح البحر ، لها حدود . وهى على احسن الافتراضات مجرد محاولات ابتدائية ناجحة ..ومجرد امل نفتدى به الزمن حتى نجد مخرجا للتحكم فى اعداد البشرية .

---

(٨) Peter Farb, : Man Versus Nature in " Eco-Crisis ", London, 1970, P. 19.



صورة رقم (٢)

بلغ عدد الموتى جوعا أو بسبب سوء التغذية فى العالمعشرة آلاف نسمة يوميا ، ان اكثر من نصف سكان العالـم اليوم يعانون من الجوع (الصورة عن وكالات الانباء من أقليمبيافرا خلال المجاعة التي حلت به اخيرا) .

ان سكان العالم اليوم يعيشون حالة من الفزع امام هذا التزايد الفريد ، وبديهى اننا فى ذروة دورة من الدورات السكانية المؤثرة فى تاريخ البشرية ، اهم ما يميزها معدلات زيادة سنوية مرتفعة(٩) . ولا شك ان رحلة النمو هذه تتداخل فيها عوامل عديدة بحيث تعطى مردودها بعد تصفية الحساب بين معدلات المواليد ومعدلات الوفيات . وهذه وتلك مقاييس ديموجرافية ذات ضوابط عديدة متداخلة ، بعضها سيكولوجي والآخر ايكولوجي والثالث تاريخي والرابع حضارى وغيره تاريخى ووراثى وهكذا . وليست هذه العوامل بؤرة بحثنا ، وانما اهتمامنا اساسا بالظواهر الناجمة عن هذه الزيادة والتى انعكست على ذلك التلف الذى اصاب اركان كوكبنا ، وليست هذه الظواهر خبيئة ولا هى خافية .

ان نمو السكان الانفجاري الاخير قد ساهم ، مع ما واكب ذلك من مظاهر حضارية تمثلت فى حركة التصنيع ونمو المدن والثورة العلميـة الحديثة ، فى التدهور العام الذى اصاب العديد من عناصر البيئة . ولا شك ان اساس هذا التدهور كان تدخل الانسان بلا روية فى النظم الايكولوجية المحكمة النسيج . وينعكس هذا التدهور على كل شيء فى الوجود تقريبا الآن . فقد لوثنا مياهنا وارضنا وهواءنا وحياة مدننا وهدوءها . فهل يبقى الانسان حقيقة هو ذلك «الحيوان القذر»(١٠) الذى لوث كل شيء حوله ؟ ونجح فى استعداء الطبيعة ثقة منه فى قوته وعلمه ؟ وهل سيمضي فى ذلك بغير حساب من الطرف الآخر ؟

• • •

مظاهر التلف البيئى :

فى القرن التاسع عشر عبر الشاعر الانجليزى **توماس بيدوس** Thomas Beddoes عن مأساة عصره آنذاك بحسه المرهف تعبيرا عن حالة اليأس والاشمئزاز عندما يتأمل فى عالمه المحيط به ، والذى غيرته يد الانسان فيقول :

Nature'spolluted.
There's man in every secret corner of her,
Doing damned wicked deeds,
Thou Art, old world
A hoary, Atheistic, murdering star.

---

(٩) U.N. : The Determinants and Consequences of Population Trends (A Summary of the Findings of Studies on the Relationships between Population Changes and Economic and Social Con itions), Population Studies No. 17, N.Y. 1953, P. 240.

(١٠) منذ ست سنوات (عام ١٩٧٠) كتب Jseph L. Myler وهو احد علماء الفضاء والطاقة مقالا بعنوان The Dirty Animal Man ونشر بتصريح من United Press International فى كتاب Eco-Crisis ص (١١٦ ـ ١٣٢) انظر المرجع .

هكذا . . كانت الطبيعة تتلوث ، لأن الانسان اصبح يعبث فيها فسادا ، فى كل ركن من اركانها ، يقتل بأعماله الشريرة كل نزعات الجمال والفن فيها . انه مما لا شك فيه ان ذلك كله حقيقى ولا مغالاة فيه أو مبالغة ، ولكن كيف يمكن ان نتصور أبيات ذلك الشاعر الآن لو قدر له ان يعيش حياة الربع الاخير من القرن العشرين ؟ اننا نعيش الآن عصرا يحاول الانسان فيه جاهدا ان يقطع تلك العرى الوثيقة بينه وبين العالم الطبيعي من حوله . ولم يكن غريبا ان تتوالى « الصرعات » المخيبة للآمال فى كثير من اركان العالم الغربى المتقدم ، تلك التي انعكست على تصرفات شبابهم وسلوك هذا الشباب وفنونه . انهم يتوقون توقا شديدا الآن الى الماضى البدائي البسيط ، او يعبرون بشوق عن مظاهر حضارات زائلة او نائية منعزلة ، ما زالت ترتبط فى توافق وثيق بالطبيعة .

ومن هذه الحضارات من يعيش افرادها فى صداقة قوية بالبيئة حتى الآن . وهناك مذاهب **كالمذهب البوذى** يصون الحيوانات ولا يقدم على ايذاءها بأى صورة من الصور ، لان « **بوذا** » كان يحترم كافة اشكال الحياة ولا يسمح بالقسوة عليها . ومن هنا كانت الاراضى المحيطة بأديرة الرهبان البوذيين ، عبارة عن مساحات رائعة من الارض التى تحتضن فعلا الحياة البرية بعناصرها نباتا أو حيوانا على اختلاف صنوفها . بل ان **مذهب اليانيه** Jainism (١١) يلزم الراهب باحترام كافة اشكال الحياة بما فيها الحشرات ، الى الحد الذى يلتزم فيه بحمل (مكنسة) صغيرة معه دائما لازاحة ما يصادفه من حشرات خشية ان يدهمها صدفة . ان هذه الصلة بعالم الطبيعة ظلت قائمة حتى الآن رغم سخرية البعض منها عندما سخر الغربيون من الهنود الذين تركوا الفئران ترتفع فى المخازن واصروا على ترك المياه لها لكى تشرب منها . (١٢)

وفى هذا المقام يردد العالم الانسانى الدكتور البرت شفايتزر Albert Schweitzer نداءه الى العالم بضرورة تبجيل الحياة الطبيعية وتقديم فروض الاحترام لكافة الكائنات النباتية والحيوانية ، ويذكر ان الخطأ الاكبر الذى ارتكبته كافة علوم الاخلاق اليوم هو اعتقادها بأنها تعالج فقط علاقة الانسان بالانسان .

فالى اين ذهب ذلك الانسان فى تماديه وتحديه للروابط والنظم الايكولوجية التى يعيش حلقة من حلقاتها ؟ ان الحقائق كلها تشير الى ان حالة الانسان الراهنة فى العالم قد أصبحت خطيرة . ويمكن مراجعة عناوين متزايدة لكتابات ودراسات مثيرة . وقد نشرت خلال الخمس

---

(١١) « اليانية » مذهب هندي نشأ في القرن السادس قبل الميلاد ، وتعتمد فلسفة هذا المذهب على تحرير الروح بالمعرفة والايمان وحسن السلوك .

(١٢) Peter Farb, : op. cit. P. 15.

عشرة سنة الماضية ، والتي كتبها العلماء المتخصصون وخبراء الشئون الانسانية ، ومن هذه العناوين على سبيل المثال لا الحصر :

Road to Survival
The Rap of the Earth
Our Plundered Planet
The Geography of Hunger
The Limits of the Earth
The Prevalence of People
Man Versus Nature
The Dirty Animal Man

لقد غير الانسان بدرجة ملحوظة في البيئة الطبيعية ذاتها ــ كما تفعل كل الكائنات الحية الاخرى . ولكن بينما تشجع التغييرات التي تحدثها الكائنات الاخرى الحية على التجديد ، فان الانسان في حالات كثيرة مزق فرص التجديد هذه . وعندما كان الانسان جامعا للطعام بدائيا في هذا الجمع ، استطاع ان يحدث تعديلات طفيفة ، ويمكن اعتباره متوافقا مع بيئته ككل آنذاك . وعندما وصل الانسان الى مستوى من الرقي سمح له باستئناس الحيوان والزراعة ، بدأ في تغيير البيئة تغيرا فيزيائيا . فقد جاهد ضد اعادة نمو النباتات الطبيعية ، فمنع المراحل المتتابعة للنبات من الوصول الى الذروة .

وبزراعته للمحاصيل وتربيته للحيوانات جعل هناك انواعا معينة من الكائنات يعتمد عليها في بقائه . فالقمح الآن لا يمكن ان ينتج من تلقاء نفسه ، والبقرة التي تهجر السهول تقع فريسة في وقت قصير للحيوانات المفترسة خارج السهول . ولقد حول الانسان البقرة من حيوان بري قادر على الدفاع عن نفسه وعن صغاره الى مصنع متحرك للالبان .

وعندما وصل الانسان لمستوى اكثر تقدما في عصره الصناعي ، ذهب الى مدى بعيد ، وعمل على خلق نظام ايكولوجي جديد تماما ليحل محل النظام الطبيعي ، ولقد ارتكبت التكنولوجيا الحديثة التي يمتلكها العالم منذ القرن التاسع عشر خطأ فادحا عندما بدأ تطوير الصناعات المختلفة ، والتي كانت سائدة في ذلك الحين ، وخاصة صناعة قطع الاخشاب والتنجيم . وهذا الخطأ يتمثل في نهب موارد الثروة الطبيعية في العالم . ولقد ترتب عليها تغييرات خطيرة في مظاهر الخريطة الطبيعية للعالم . فلقد خلق الانسان صحاري جديدة تماما مثل الصحراء الموجودة في جنوب شرق تينسي Tennessee بسبب مناجم النحاس ، وصحراء سدبري Sudbury في أنتاريو بسبب دخان النيكل . وفي سعيه لتوفير الكهرباء واعادة توزيع المياه استحدث السدود التي تقام عبر الانهار ، فغيرت نظام الصرف الطبيعي كلية ، فقلب بذلك سطح المياه الباطنية راسا على عقب ، بالاضافة الى العديد من مظاهر الخلل البيئي الصارخ .

ولقد وفرت صناعات الانسان الحديثة المواد الرخيصة حقا ، وساعدت على تكوين مجتمع صناعي حديث ، ولكنها ساعدت على تراكم عبء ضخم لاستنفاذ موارد الثروة التي كان ينبغي ان توفر للاجيال القادمة . فنحن الآن « نسرق » حق الاجيال القادمة ليس فقط فى الاخشاب والفحم ، بل ايضا فى ضرورياتهم الاساسية فى الحياة : الماء والهواء والتربة . ان العالم اليوم فى حاجة ماسة لحركة « صيانة » تحفظ للحياة استمرار مسيرتها .

• • •

ماذا عن المياه :

لم تنشا الحضارات وتنمو وتعطي بسخاء الا مع وفرة المياه ، وما توارت عبر سطور التاريخ الا بتاثير الجفاف ، او على الاقل بمساهمة منه ، قلت او كثرت . وكم من حروب طاحنة تصارع الناس من خلالها من اجل المياه فى كل اجزاء العالم : غرب امريكا الشمالية فى القرن التاسع عشر ، بلاد الرافدين ، مناطق أنهار الصين والهند والنيل والاردن ، مياه الينابيع فى آلاف الواحات المبعثرة على بحار الرمال تطويها الصحراء المحرقة ، فلا سبيل لحياة بدونها ، ولا محل لاستقرار بعيدا عنها . وحديثا اصبح مستوى المعيشة يقاس بنصيب ما يتوفر للشخص او الدولة من المياه العذبة . ولماذا نذهب بعيدا وهناك ست كلمات قرآنية كريمة تحدد بايجاز واعجاز قدر الماء وقدره : « وجعلنا من الماء كل شيء حيّ » . فبدونه لا يمكن ان تكون هناك حياة على سطح هذا الكوكب . فهو أكثر اهمية من الاكسوجين الذي يطلق عليه غاز الحياة Gas of Life فبدونه لا يمكن ان تكون هناك نباتات خضراء هي المصدر الاول للاكسوجين فى الهواء الذي نحيا به ونتنفسه .

ويعتقد العلماء ان الحياة على سطح الارض انما نشأت اصلا فى البحار القديمة أو الاولية Primitive Seas قبل ان يكون هناك اي اثر للاكسوجين فى الغلاف الجوي ، ولم يظهر هذا الاخير الا بعد تطور ونمو النباتات . وما زال دم الكائنات الحية بما فيها الانسان – عبارة عن محلول ملحي مشابه الى حد كبير لمياه البحار ، كما ان مياه البحار هي المورد الاساسي للمياه العذبة للارض والاكسوجين في الهواء . ويأتي ٧٠٪ من الاكسوجين كما يقول كول Dr. Lamon Cole من النباتات الدقيقة الخضراء فى البحار التي تستهلك – شأنها فى ذلك شأن نباتات الارض – غاز ثاني اكسيد الكربون بمساعدة الطاقة الشمسية ، وتقذف بالاكسوجين كناتج أشبه ما يكون بنفاية له . (١٣)

تتوفر للكرة الارضية كمية هائلة من المياه تقدر بحوالي ٣٢٦ مليون ميل مكعب ، منها ٣١٧ مليون ميل مكعب تستقر فى احواض البحار والمحيطات التي تغطي ٧١٪ من مساحة الكرة

(١٣) Joseph L. Myler op. cit., P. 119.

الارضية ، اما الباقي فيتمثل فى المياه المجمدةبصورها المختلفة وتتركز حول القطبين . وتعمل الشمس على تقطير مياه البحار ، فيعمل ذلك الاتون المتقد المسلط عليها على تبخير ٨٠ الف ميل مكعب تصبح مياها عذبة كل عام ، بالاضافة الى ١٥ الف ميل مكعب من المياه المتوفرة على سطح الارض بعيدا عن البحار والمحيطات . ومن ثم تصبح هناك كمية مقدارها ٩٥ الف ميل مكعب تتحرك منذ الازل فى حركة سرمدية رائعة بين السماء والارض فيما يعرف بالدورة الهيدرولوجية .

ولو وزعنا المياه على سكان هذا الكوكب لبلغ نصيب الفرد الواحد ٤٠٠ مليون طن يوميا ، واذا كانت مياه البحار والمحيطات لا تصلح لمن يدب باقدامه على سطح الارض عامة او يضرب بجذوره فى تربتها ، الا انه لكائنات اخرى حيوي وهام ، تلك الكائنات هي لنا حيوية كذلك وهامة ، فالبحار والمحيطات كانت وستظل مجالا يحقق للبشرية الكثير من المصالح انتقالا وغذاء ودفاعا . . فماذا اعد لها الانسان لكي تبقى نظيفة منتجة ، وماذا فعل بمياه انهار الارض وبحيراتها . لا شك ان الكثير الكثير قد كتب فى هذا المجال . فالانسان يضخ من النفايات والملوثات الى مصادر المياه الطبيعية ما لايتسع المجال للحديث عنه فى مقال كهذا . (١٤) ولكن ما احدثه الانسان لاتلاف وتلويث هذه المصادر تتعدد صوره ، فقد وجه الى هذه المصادر مياه البالوعات ومخلفات الاسمدة الكيميائية وروث الحيوانات، والاحماض والسموم الناتجة عن الصناعة ، والاملاح المتخلفة عن المناجم ، ونفايات الشوارع والمزارع والمصانع، والمنظفات ومبيدات الاعشاب والمبيدات الحشرية، بالاضافة الى الملوثات الاشعاعية من المناجم والمصانع الذرية ومولدات الطاقة . ان كل هذا وغيره كثير يؤكد حقيقة ان الاستعمال الرئيسي للمياه الجارية الحرة فى الدول الصناعية ليس فى الصناعة كما تؤكد الاحصاءات ، وانما تستعمل كصندوق قمامة للتخلص من النفايات ، حتى اصبحت أنهار مثل هذه الدول مجرد بالوعات مفتوحة الآن .

ولقد أشار دكتور جلين سيبورج Dr. Glenn T. Seaborg رئيس لجنة الطاقة الذرية الامريكية ، ان نظم الانهار الاثنى والعشرين فى الولايات المتحدة الامريكية ، سوف تنتهي من الناحية البيولوجية (اى ستموت) فى نهاية هذا القرن اذا استمر التلوث على معدلاته الحالية . اذ يتسبب التلف الذي تتعرض له هذه المجاري المائية بتاثير المواد الصناعية المتخلفة ، والتي يلقى بها الى هذه المجاري فى توليد بعض الكائنات التي تؤدي الى استنفاذ الاكسوجين من المياه والقضاء على الاسماك ، ومن ثم تتحول البحيرات الى مستنقعات ثم الى مناطق جرداء من بعد . .

---

(١٤) لدراسة الموضوع بتفصيل اكبر يرجع الى :

محمد عبد الرحمن الشرنوبي : « الانسان والبيئة » القاهرة ، مكتبة الانجلو ١٩٧٦ ، صص ٣٢٩ ـ ٣٣٣ .

وليس غريبا ان نتحدث عن تلوث المحيطات. فهذا حادث بالفعل : فلقد وجدت مادة الـ D.D.T بتركزات مختلفة فى الكائنات البحرية فى كل مكان. ولو حدث ان تعرضت نباتات المحيطات لخطر التلوث ، فسوف نفقد موردا هاما من موارد الاكسجين كما قدمنا من قبل .

ولقد حدثت عدة كوارث معروفة كحادث سانت بربارة فى كاليفورنيا ، وكارثة اصطدام ناقلة البترول « تورى كانيون » ببعض الشعاب المرجانية قرب الشواطىء الانجليزية وهي محملة بشحنة من بترول الكويت عام ١٩٦٧ . ولقد تسببت هذه الحادثة فى تدفق ١٢٠ الف طن من البترول الخام نتج عنه تلوث مساحات كبيرة على امتداد ٣٢٠ كيلو مترا على طول الشواطىء الانجليزية الغربية والجنوبية ، ولقد هدد ذلك الحادث كافة مراكز العمران البشري على طول هذا الامتداد ، وتطلب حماية هذه المراكز انفاق ٥ر٢ مليون جنيه استرليني انفق معظمها كتكاليف للكميات الهائلة من المذيبات التي اخفت التلوث الظاهر لهذه الكميات الهائلة من البترول ، ولكنها احدثت تلوثا خطيرا للمياه اسفل السطح واعلاه ، واستقرت هذه المذيبات بحجم هائل فى قاع المحيط محدثة خللا بيولوجيا محققا لكونها سموما خانقة وقاتلة لكثير من الاحياء البحرية .

ولقد اخذت شبه جزيرة اسكندينافيا نصيبا من تلوث المياه ، وبدات اسراب الاسماك تموت فى انهارها وبحيراتها بتأثير القاء النفايات البشرية فيها ، وكذلك قتلت نفايات مصنع مبيد الباراثيون فى الدانمرك الاسماك على شواطىء البحر ، والقت بجثثها على الشاطىء على امتداد عدة كيلو مترات . اما نهر الراين الذي يخترق المانيا حتى يصل الى هولندا فهو اكبر انهار العالم تلوثا ، لدرجة ان الهولنديين اطلقوا عليه فى سخرية مريرة عبارتهم المعروفة : انه صندوق قمامة العالم . اما فى اليابان فقد ظهرت اعراض ارتخاء فى عضلات السكان وفقدان للبصر وتلف فى المخ والاعصاب مصحوب بشلل واحيانا بغيبوبة ووفاة، ذلك فى خليج « ميناماتا » بتأثير القاء احد مصانع الزئبق بمخلفاته فى ذلك الخليج : مرض ميناماتا!!. وفى السويد حرم صيد الاسماك فى اربعين نهرا وبحيرة لتركز مركبات الزئبق فيها .. كما يمكن ملاحظة ان الالتهابات الكبدية المعدية قد اخذت تتفشى بدرجة مزعجة حقا فى كثير من الدول الاوروبية والامريكية بسبب ضعف معالجة مياه دورات المياه ، ووصولها ملوثة بفيروسات هذا المرض المعدي الى انابيب مياه الشرب . اما فى الوادي الاوسط بكاليفورنيا، فان الاطباء ينصحون دائما بان يشرب الاطفال الماء العذب المغلي فقط . ولقد اضطرت مدينة الجن Elgin بمنيسوتا الى ان تبحث عن مصدر آخر جديد لمياه الشرب بعد ان تلوثت المياه بالنترات التي تتراكم بتركز شديد فى المحصولات الزراعية ، والنترات فى حد ذتها ليست خطيرة ، ولكن عندما توجد انواع معينة من البكتريا فى الجهاز الهضمي ، فانها تحول النترات الى نتريت (ملح حامض النتري) وهي مادة سامة للغاية ، ولو امتصها الدم لتفاعلت مع المادة الملونة (الحاملة للاوكسجين) لخلايا الدم الحمراء ، وبالتالي يتكون الميثيموجلوبين الذي لا يستطيع حمل اكسوجين الهيموجلوبين فينتج عن ذلك الاصابة بمرض الميثيموجلوبينيميا ، واهم اعرض التنفس غير الطبيعي ، وكثيرا ما يتعرض المصابون به الى الاختناق .

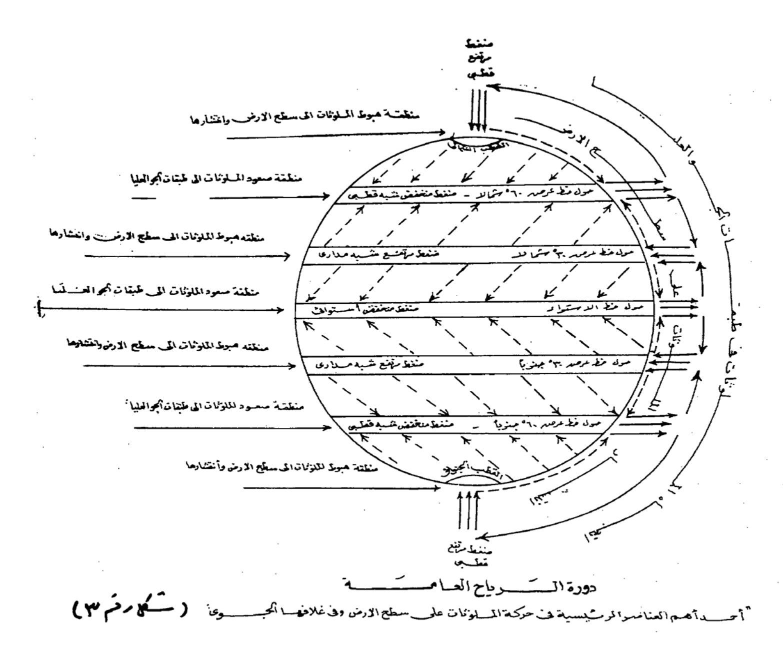
• • •

وماذا عن الهواء : (انظر الشكل رقم ٣)

ان التسليم بحقائق الحركة التي يخضع لها الغلاف الهوائي ، تجعلنا نعمل فكرنا فى كيفية الوقوف بحزم امام تلوث الهواء . ونحن فى تلك الوقفة لا بد ان نؤمن بأن تلوث الهواء فى المناطق الصناعية ليس قصرا عليها ، فالعالم يخضع لظروف وقوانين طبيعية كما كررنا من قبل . ومن تلك القوانين فيما يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوعنا هنا ما يعرف بالدورة الهوائية العامة . فهناك مناطق للضغط المنخفض تتركز حول خط الاستواء وخطي عرض ٦٠ درجة شمالا وجنوبا . كما ان هناك مناطق للضغط المرتفع حول خطي عرض ٣٠ درجة شمال خط الاستواء وجنوبه ، وحول القطبين . والمعروف ان مناطق الضغط المرتفع يخرج منها الهواء الى مناطق الضغط المنخفض فى حركة سطحية نحسها ونلمسها ممثلة فى الرياح السطحية . كما تغذي مناطق الضغط المنخفض مناطق الضغط المرتفع بالهواء ولكن فى نطاق الرياح العلوية . ويتم هذا وذاك فى دورة محكمة لا تؤثر فيها الا بعض الظاهرات المحلية كسلاسل المرتفعات والمسطحات المائية الكبرى ، بالاضافة الى التغييرات الموسمية لموقع الشمس فى حركتها السرمدية بين المدارين .

من هنا يمكن القول بأنه لا يوجد حدود أوحواجز يمكن ان تحدد مناطق التلوث لتعزلها عن المناطق « النقية » ان كان ثمة مناطق نقية حقا . ويعتبر تلوث الهواء من أقرب المظاهر التي يمكن ان يحسها الانسان العادي ويلمسها ، فنحن نشعر به عندما يلهب الهواء عيوننا او يهيج رئاتنا ، ويشعر سكان المدن ــ والمدن الصناعية بصفة خاصة ــ بوطأة ذلك التلوث من خلال حياتهم اليومية ، التي سريعا ما يضيق بها سكان المناطق الاخرى . والامثلة على تلوث الهواء عديدة ، بل ان الكوارث التي تحيق بسكان المدن بتأثير ذلك التلوث تفوق الحصر : نهار ميناء سدني الكئيب المظلم بتأثير سحب الدخان المتحد بالضباب هناك ، كمية ضوء الشمس التي لا تتجاوز ٢٥٪ فى نيويورك و ٤٠٪ فى شيكاغو ، ٦٦ مليون طن من أول اكسيد الكربون نفثتها الى الهواء ٩٠ مليون سيارة فى الولايات المتحدة ، غير ملايين أخرى من أكاسيد الكبريت والهيدروكربون ورابع اثيل الرصاص وغيرها هناك ، الانقلاب الحراري الذي تعرضت له مدينة دونورا عام ١٩٤٨ ولندن عام ١٩٥٢ وما نشأ عنه من كوارث أودت بحياة الآلاف بسبب احتجاز الضباب متحدا بالدخان ، ونفس الظاهرة تتكرر فى وادي الميز ببلجيكا وبوزاريكا فى المكسيك ، آلاف التقارير المعلنة الرسمية وغير الرسمية مع آلاف أخرى سرية مرفوعة الى المستويات العليا فى الدول المختلفة حول هذه القضية ، عشرات المقالات فى الصحف والمجلات العلمية ، وغير ذلك كثير يصعب حصره .. ما هي المشكلات الاساسية . ؟ انها باختصار شديد تتمثل فى العطاء السلبي للصناعة .. وعدم وجود النظرة العقلانية التي ينبغي ان تظلل خطوات النهضة الصناعية .

ان تلوث الهواء بأول اكسيد الكربون ــ وهو امر قائم ما بقيت السيارة والطائرة واية آلة فى اي مصنع و مزرعة ــ يعمل على اتحاد هذا الغاز بهيموجلوبين الدم فيعمل على طرد الاكسوجين



دورة الرياح العامة

"أحد أهم العناصر الرئيسية في حركة الملوثات على سطح الارض وفي غلافها الجوي" (شكل رقم ٣)

الذي ينقله الهيموجلوبين عادة ، لان اتحاد هذا الغاز بالهيموجلوبين أقوى من اتحاد الاكسوجين . ويسبب أول أكسيد الكربون اختناقا وتسمما لانه يحل فى جهاز النقل (العالي السرعة) فى الكائن البشري ، وهذا الجهاز يضمن التجدد الدائم للاكسوجين لحفظ ما يعرف بالايض (Metabolism) ـ أومجموعة العمليات الخاصة ببناء البروتوبلازما ـ فى الخلايا. وعندما يقل امداد الخلايا بالاكسوجين فان القلب يرفع معدل خفقاته وكذلك الجهاز التنفسي ، ولا شك ان هذا وذاك يتسببان فى توترات واجهاد شديد يؤدي الى كثير من امراض القلب والصدر . (شكل رقم ٤) .

وعندما يتعرض الشخص لهواء يتنفسه ويحتوي على ٨٠ جزء فى المليون من غاز أول أكسيد الكربون لمدة ٨ ساعات ، فان الجهاز الدوري لحمل الاكسوجين تقل سرعته بنسبة ١٥ ٪ ويتسبب ذلك في ان يفقد الجسم جزءا من الدم . وعندما تشتد حركة المرور وتزدحم الشوارع بوسائط النقل المختلفة فى أوقات الذروة ، فان محتوى الهواء من أول أكسيد الكربون يبلغ ٤٠ جزءا فى المليون . لذلك كثيرا مايصاب سكان المناطق المزدحمة بالمرور باعراض التسمم الحاد ، والصداع ، وضعف الرؤية ، ونقص فى تناسق العضلات ، والغثيان ، وكثير من الآلام الباطنية ، وفى الاحوال الاكثر حدة قد تكون هذه الاعراض مصحوبة بفقدان للوعي ، ووفاة أحيانا .

وهناك غازات اخرى تلوث هواء المدن خاصة مثل ثاني اكسيد الكربون الذي يعتبر مسئولا عن زيادة معدلات الاصابة بامراض الربو المزمن والالتهاب الرئوي وانتفاخ الرئتين ، أما تلوث الهواء بالمواد الهيدروكربونية فان من أهم مضاعفاته الاصابة بالامراض السرطانية المؤدية الى الوفاة . كما ان هناك غازات أخرى مثل ثاني اكسيد الكبريت واكاسيد النيتروجين وغيرها كثير كثير وهي فى تزايد مستمر فى الهواء .. ولقد قدرت وزارة الصحة الامريكية على سبيل المثال ان انبعاث غاز ثاني أكسيد الكبريت فى الولايات المتحدة الامريكية سوف يرتفع من ٢٠ مليون طن (١٩٦٠) الى ٣٥ مليون طن عام ٢٠٠٠ ، وسترتفع بالنسبة لاكاسيد النيتروجين من ١١ الى ٣٠ مليون طن فى نفس الفترة ، وذلك بتاثير مضاعفة اعداد السيارات وما تنفثه من عوادم الى الهواء ، والذي يقدر باربعة أضعاف خلال الفترة المذكورة .

وملوثات الهواء عديدة ومتنوعة فى الواقع(١٥) ولا يزال الكثير منها لم يكتشف بدقة حتى الآن ، كما ان تركز هذه المواد الملوثة للهواء يختلف اختلافا جغرافيا ، ولكنه كما سبق ان قدمنا

---

(١٥) هناك ملوثات اخرى للهواء ولكن لادخل للانسان فيها كما ان التحكم فيها صعب ومنها كلوريد الايدروجين المتصاعد من البراكين واكاسيد النيتروجين الناتجة عن التفريغ الكهربائي من السحب الرعدية ، وكبريتيد الايدروجين الناتج عن تسرب الغاز الطبيعي من جوف الارض او بسبب البراكين او تواجد البكتيريا الكبريتية ، وغاز الاوزون المتخلف ضوئيا فى الهواء الجوي ، او بسبب التفريغ الكهربائي فى السحب ، وتساقط الهباء المتخلف عن احتراق الشهب والنيازك نتيجة لاحتكاكها بطبقات الجو ، والاملاح المنتشرة فى الهواء بفعل الرياح والعواصف والاشعاعات الشمسية على المحيطات والبحار والبحيرات الملحة ، والاتربة التي تثيرها الرياح والعواصف او تاتي بها الجبهات الجوية وتيارات الحمل الحرارية من التربة المفككة ، وحبيبات اللقاح والفطريات والبكتيريا المنتشرة فى الهواء منبعثة من التربة او لتعفن الهواء والطيور الميتة والفضلات الآدمية ، واخيرا المواد ذات النشاط الاشعاعي كتلك الموجودة فى بعض تربات وصخور القشرة الارضية او الناتجة عن بعض الغازات الجوية بفعل الاشعة الكونية ، وكل هذه الملوثات ليست ذات اضرار جسيمة لان معظم الوان الحياة قد تاقلمت عليها بسبب تواجدها فى الهواء منذ بدء الحياة .



شكل رقم (٤)

تلقى الطائرات بمئات الاطنان من الوقود المحترق يلوث الهواء بغازات سامة اهمها اول اكسيد الكربون . فتساهم مع وسائط النقل الاخرى على الارض فى تلوث الهواء .

ليس قصرا على مكان ، ولكنه اكثر تركزا فى مكان عن مكان آخر . كذلك فان وسائل مراقبة التلوث والكشف عنه لا تزال فى كثير من المناطق غير كافية بالمرة ، كما ان التسجيل لهذه الظواهر ولفترات دورية منتظمة امر غير قائم حتى الآن .

وتعتبر درجات تلوث الهواء ذات ارتباط وثيق بعوامل اخرى تختلف من شخص الى آخر ، فهي تختلف باختلاف درجات التعرض للارهاق على سبيل المثال ، وعلى السكان فى مراحل العمر المختلفة حيث يشتد تأثير التلوث على كبار السن والاطفال ، كذلك على الشعوب ومقدار ما تتمتع به من مستوى غذائي معين ، وكل هذه وغيرها من عوامل لا بد من اخضاعها للتحليل العلمي ، كذلك فان البحث العلمي فى حد ذاته معقد للغاية فى موضوع كهذا ، لان عنصرا واحدا من عناصر التلوث قد لا يعطي مردودا سيئا ، او يسبب مشكلة فى حد ذاته لو وضع تحت الاختبار كعنصر مستقل ، فى حين انه لو ارتبط بعناصر اخرى لاعطى مردودا فى غاية الخطورة ، ولهدد حياة الافراد والمنشآت فى منطقة ما . لذلك كان عزل تأثير العناصر المختلفة من الملوثات الهوائية امر صعب للغاية ، بل لسنا مبالغين لو قلنا ان العلم لا يزال عاجزا عن علاج مثل هذا الموضوع ، الامر الذي يزيد من المضاعفات السيئة كلما مر مزيد من الوقت .

• • •

التلوث بالنواتج الصناعية الثانوية :

من البديهي انه مع تطور الصناعة وتقدمها يكتسب الانسان مزيدا من الكم الحضاري الماضي الذي ــ من المفروض ــ ان يعود عليه وعلى مجتمعه بمزيد من الرفه المادي الذي ييسر له الحياة بشكل او بآخر . الا انه كلما تقدمت الصناعة القت بالمزيد من النواتج الثانوية ، سواء كانت فى شكل غازات او نفايات صلبة اونصف صلبة او سائله ، الى الهواء او على الارض او فى المياه ، لان الصناعة كما نعلم تحول المواد الخام الى منتجات صناعية كاملة او نصف كاملة، وهي حينما لا تجد فى هذه النواتج الثانوية قدرا من النفع على المستوى الاقتصادي ، فانها تلقي بها الى اي مكان . ومن أهم تلك النواتج تلك النفايات الصناعية ، خاصة اذا لم تكن قد عولجت قبل القائها خارج المصانع . وليس من المعقول ان تظل هذه النفايات بجوار المصنع بلا حراك لو قدر لها ان تلقى قريبا منه ، فالرياح تحملها او تحمل غازات الى اماكن بعيدة ، ومن هذه الغازات ما هو سام ، كما ان النفايات السائلة التي يلقى بها فى الماء ، تحملها المجاري المائية الى مناطق بعيدة فتحمل اليها متاعبها وشرورها .

وقد تكون غازات هذه السوائل ملوثات هوائية ، كما قد تكون سوائل هذه النواتج ملوثات مائية او ارضية ، لكن النفايات الصناعية الصلبة والتي تتنوع تنوعا كبيرا بين صناديق مهشمة وآلات معطوبة واوراق ونواتج ثانوية اخرى تتخلف عن المواد المصنعة ، كقشور الفاكهة والخضروات وغير ذلك من مخلفات ، انما تعمل على خلق مرتع خصيب للجراثيم والحشرات

والامراض ، تنقل البؤس والموت الى الاماكن المزدحمة بالسكان ، كما تشوه جمال القيم الانسانية وتقتل مظاهر الجمال التي تتوق النفس البشرية المتحضرة الى توفرها حيثما كان الانسان.
ومن اهم هذه النواتج مساحيق اكاسيد الحديد الحمراء التي تنقلها الرياح الى المناطق المحيطة بالمصنع فتكسوها بغبار احمر كما هو الحال بجوار مصانع حمض الكبرتيك بكفر الزيات ، او بغبار الاسمنت الرمادي اللون الدقيق الذي يأتي على النبات بالدمار فيقتل خلاياه ويعطي لونا رماديا للمساكن القريبة كما هو الحال بمناطق طره والمعصرة بمدينة القاهرة . (انظر الشكل رقم ٥)

اما النفايات الصناعية السائلة فهي ما تلقي به مصانع منتجات الالبان من مواد دهنية وبروتينية ناتجة عن عمليات التصنيع ، اومخلفات تنظيف الاواني ، ومخلفات مصانع التقطير بما فيها من مواد نشوية وخمائر ، ومخلفات مصانع النسيج والصياغة بما تلقيه الى المياه من مواد قلوية واملاح واصباغ ومواد دهنية مستخلصة من بعض الالياف الحيوانية ، وكذلك مخلفات مصانع الدباغة وما يتخلف عنها من مواد حمضية او قلوية ومحاليل التنظيف والصابون ، بالاضافة الى مخلفات مصانع الكيماويات والمطهرات والورق التي تعتبر من اخطر مصادر تلوث المياه .

كما تعتبر المخصبات الزراعية الكيميائية والنيتروجينية التي تصل الى مجاري الصرف ذات تأثير بالغ الخطورة على هذه المياه ، فهي تعمل على زيادة نمو النباتات المائية الخضراء التي تمثل احد مصادر التلوث العضوية للمياه ، كما تتسبب فى كثير من المشكلات المتعلقة بالملاحة والانتقال فى هذه المجاري المائية ، كما ترتفع من نسبة النترات فى هذه المياه ، الامر الذي يعيق استخدامها فى كثير من الاغراض .

اما تأثير النواتج الثانوية الصناعية الغازية فذات تأثير بالغ الخطورة كذلك على صحة الفرد والجماعة ، وهذا النوع من النفايات ينطلق مباشرة من كثير من العمليات الصناعية ، وربما يتخلف عن النفايات الصلبة او السائلة من نواتج هذه العمليات فتنطلق الى الهواء قبل ان تترسب على الارض او فى المياه . ولا تكاد تخلو اي عملية صناعية من عوادم غازية تنطلق منها لتغطي مساحات واسعة حولها .

ولقد اصبحت تعاني كثير من الدول الصناعية مشكلة تراكم هذه النواتج الصلبة فيما يعرف « بالمقالب » المكشوفة ، فتلك المناطق حينما تتعرض للامطار او تصلها المياه من اي مصدر لفترة طويلة ــ تعمل ــ بما يتحلل عنها ويتسرب منها الى التربة ــ على تلوث المياه الجوفية . وفى دولة كالولايات المتحدة ، يحتاج أمر التخلص من مثل هذه النفايات الى ٥٥ بليون وعاء متوسط الحجم ، و٢٦ مليون قنينة زجاجية ، و ٦٥ بليون وعاء معدني وبلاستيكي ,وادوات تعبئة اخرى تبلغ قيمتها نصف بليون دولار هي فى حد ذاتها نفايات صلبة ايضا (!!) .

● ● ●



شكل رقم (٥)

(من نتائج تلوث الهواء بالنواتج الثانوية للصناعة)

هباء الاسمنت المتصاعد يقتل الحياة فى الاشجار على طريق القاهرة ـ حلوان

(التقطت الصورة عام ١٩٧٥ بواسطة كاتب المقال)

اخطار المبيدات الحشرية ومبيدات الاعشاب :

أمدتنا الصناعات الحديثة بقائمة طويلة من المركبات الكيميائية التى اسرفنا فى استخدامها أيما اسراف ، حتى اننا أصبحنا نعمل على تدمير ذاتنابخطى حثيثة كل يوم، فهناك المواد الهيدروكربونية المعالجة بالكلور والرصاص والزئبق والفلوريدات، وهذه تصل الينا فى مجموعها كملوثات للبيئة ، ومن هذه المواد تلك المادة التى اصطلح على تسميتها Decloro-dephenyl Trichlorethane ، ولقد عرفت هذه المادة منذ عام ١٨٧٤ ، وشاع تداولها تحت اختصارها وهو الـ D.D.T. وهى اخطر ما حل بالزراعة التقليدية ، ولقد توصل الى مفعولها العالم السويسرى بول مولر فنشطت مصانعه الضخمة فى انتاج العديد من الانواع والمشتقات . ولقد أسرف الانسان فى استخدام هذه المنتجات منذ اواخر الحرب العالمية الثانية.

وتوجد هذه المادة على هيئة تركزات قد تبلغ ١٢ جزءا فى المليون فى الدهون البشرية ، واكثر من خمسة اجزاء فى المليون فى لبن الامهات، رغم ان التركزات العادية تتراوح بين (٠٫٠٥) جزء فى المليون و (٠٫٢٦) جزء فى المليون . ويحتوى لبن الامهات في كافة الدول الآن على تركزات تختلف باختلاف استخدام هذه المادة فى المنتجات الزراعية التى تستخدمها(١٦) . كذلى تتركز فى البان الابقار لدرجة اصبح معها ما يصل الى الاطفال منها يزيد عن ضعف المعدل المسموح به حسب تقديرات منظمة الصحة العالمية .

ولا شك ان مجموعة المبيدات الحشرية الآن قد أصبحت دون الحصر ، ومشكلة هذه المواد انها تستخدم وتتداول وتخزن بطرق غير سليمة . فالاسراف منها فى ابادة حشرات الزراعة امر مقبول الى حد ما ، ولكن ان يقوم بعض الجهلاء من اصحاب محال البقالة والفاكهة برش منتجاتهم بالمبيدات الحشرية على الأرفف جنبا الى جنب مع المنتجات الغذائية ، فهذا وذاك من الامور الغريبة التى تضاعف من احكام الحصار حولنا بهذه السموم . وبسبب العديد من مشاكل تسرب او تداول هذه المبيدات فقد اصبح من الصعب تقدير مدى التاثير الذى تحدثه هذه الملوثات . (الشكل رقم ٦)

ومن السهل على سكان اى منطقة ان يدركوا آثار ما يمكن ان تحدثه السموم من آثار مباشرة عليهم ، ولكن من العسير عليهم فى كثير من الاحيان، ان يدركوا مقدار التغيرات الفسيولوجية الدقيقة والبطيئة التي تحدث نفس الاثر ، ولكن على المدى الطويل ، ولا شك تعطينا الدراسات التى أجريت على الحيوانات أدلة قاطعة على خطورة تأثير تركزات هذه المواد فى جسم الاحياء . فقد دلت الدراسات على ان الجرعات الكبيرة من مادة الـ D.D.T تتسبب فى الاصابة بالسرطان ، خاصة سرطان الكبد لدى الفئران ، وفى حالة وجود نسبة تركز تبلغ ١٠ اجزاء فى المليون يحدث تنشيط

---

(١٦) هناك مواد اخرى هيدروكربونية مثل الالدرين Aldrin والديلدرين Dieldrin وكلوريد البترول السداسى قد وجدت بتركزات مختلفة فى لبن الامهات .



شكل رقم (٦)

تغذية الحاصلات الزراعية الغذائية بالسموم هل يحول ذلك الحجاب على الوجه دون الاصابة بخطر المبيدات الحشرية بعد العودة الى المنزل لتناول الطعام ؟

لانزيمات معينة فى الكبد وبنسبة عالية ، الامرالذى يؤخر بل ويعرقل العلاج بكثير من العقاقير ، وكثيرا ما افقدت هذه الانزيمات تلك العقاقيرمفعولها . ويذكر **ريتشارد ويلك** RichardM.Welch احد علماء العقاقير بمعهد البحوث العلميةالأمريكيان مادة ال D.D.T. تتسبب فى زيادة وزن الرحم وتحفز على انتاجهرمونات الجنس (الايستروجين)لدى الاناث . ولقد ثبت فعلا ان مادة ال د.د.ت تؤثر فى هرمونات الجنس عند الفئران والطيور ،الا اننا لا نعرف تماما اذا كان هناك حث للتغيرات الهرمونية فى الانسان ، ومقدار تأثير هذه التغيراتان وجدت ، وهناك ما يدل من الدراسات الحديثة على ان هذه المادة والمواد الشبيهة مثلال D.D.E. و ل D.D.D. توجد بتركزات عالية في دهون الانسان وقد تسببت فعلا فى وفاة بعض المرضى .ويذكر **ستينباك** Alan Steinbach طبيب الامراض العصبية بجامعة كاليفورنيا ان مادة ال د.د.ت« عبارة عن سم عصبى من المتعذر التخلص منه أو شفاء المصاب به »(١٧) .

ان تأثير هذه المبيدات ليس فقط لتركزه فىالنباتات التى تقاوم آفاتها من اجل المزيد منها ، بل ينتشر ويتزايد لاستخدام مركباته فى مكافحةالبعوض ، ولقد اثر ذلك فى اختفاء هذه الحشرة فعلا فى بحيرة كلير بكاليفورنيا الذى كان يتكاثرفيها لتلوثها بالنفايات الآدمية والصناعية ، ولكن ذلك الامر قد تسببفى اختفاء اسراب من الطيوركانت تتغذى على اسماك هذه البحيرات بعد أن ثبت وجود تركزاتشديدة فى انسجة الطيور الميتةمن هذه المبيدات . كما نشرت ادارة الصحة الامريكية بيانا أعلنت فيه ان هذه المبيدات قدأبادت ٣٢٪ من أسماك المياه العذبة فى كل الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ . والاكثر خطورةمن ذلك ، ان هناك العديد من الحشرات التى اكتسبت مناعة ضده ، حتى اننا اصبحنا فىانتظار ان تعطى هذه الحشرات السيادة على كثير من امورنا وبتشجيعنا . ويقول ايرلش ان الزراعةالحالية تتعرض لهزة عنيفة قد تحول دون استخدامنا للمبيدات مستقبلا ، كما يذكر العالم الايكلوجي ڤوجت William Vogt فى كتابه « الطريق الى البقاء » أن ١٠٪ من النباتاتالزراعية فى الولايات المتحدة تتلف كل عام ، وأن الأمل ضعيف فى استمرارنا على معدلات ما نلقىبه من أطنان المواد المبيدة للحشرات على الاراضى الزراعية ، وان الفدان الواحد من الاراضى القريبةمن مستنقعات مصب لونج آيلاند بالولاياتالمتحدة والتى تم رشها بمادة ال د.د.ت منذ ربع قرن ،يتوفر به ٢٣ رطلا من هذه المادة يمكن الحصول عليها من الطبقة السطحية .

وتتدخل هذه المواد المبيدة للحشرات بدرجةخطيرة فى مقدرة الطيور على انتاج (الأيض) الخاص بالكالسيوم ، ومن ثم تضع بيضها فى اغلفة رقيقةللغاية لدرجة لا تتحمل معها وزن الطائر عندما يرقد فوقها تمهيدا للفقس فتكسر . ولقد أجريتالتجارب على بيض الطيور الجارحة ووجد انخفاض شديد فى سمك قشر البيض فى الفترةمن عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٤٧ وهى الفترة التى

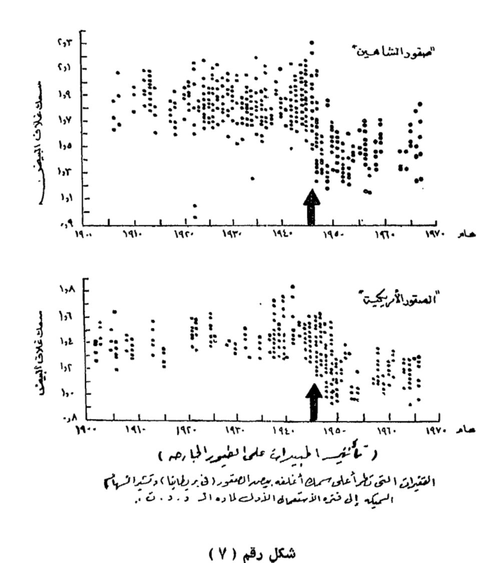
---

(١٧) Ehrlich, P.R. & A.H. op. cit. pp. 176-190.

انتشر فيها استخدام مادة الـ .D.D.T كذلك فان اسماك السلمون فى بحيرة متشجن تضع بيضا يحتوى على هذه المادة ، كما وجدت تركزاتمنها فى عينة اخذت من اسراب هذه الاسماك والتى ماتت بأعداد كبيرة (٧٠٠٠٠ من صغار السلمون)فى عام ١٩٦٨ لامتصاصها هذهالمادة . وحدثنفس الشىء لبعض الاسماك البحرية التى تصدر مثلالتونا والماكريل والقد . لقد عملت هذه المبيدات على حل أو تبسيط النظم الايكولوجية واختزالها، فلقد حررت الآفات فعلا من القيود الطبيعية . فالآفة او الحشرة التى تبدو فى باديء الأمر وقدوقعت تحت تأثير هذه المبيدات او حتى قد ماتت بتأثيرها ، سرعان ما تعود بأعداد اكبر بكثير منذى قبل . (شكل رقم ٧)

وعلى سبيل المثال فقد ازداد محصول القطن زيادة كبيرة عند رشه بخليط من مادة الـ D.D.T. والـ B.H.C. والتوكسافين فى وادىكانيت الساحلى فى بيرو عام ١٩٤٩ ، فزاد تبعا لذلك محصول القطن من ٤٩٤ كيلو غراما للهكتارعام ١٩٥٠ الى ٧٢٨ كيلو غراما عام ١٩٥٤ ، ومع فرحة الفلاحين خُيّل اليهم ان مزيدا منهذا المبيد يمكن ان يعود عليهم بمزيد من القطن ، ومن ثم استخدموا هذا المركب ليشمل الوادىكله وليس مناطق القطن فقط ، كما قطعت الاشجار لكى يتمكنوا من رش المبيد بالطائراتفماذا حدث ؟ لقد اختفت الطيور بطبيعة الحال من هذه الاشجار حيث كانت تلجأ اليها ، كمااختفت انواع من الكائنات كانت ذات فائدة محققة مثل طفيليات الحشرات، وكانوا يقومون باستخدامهذا المبيد فى فترة مبكرة عن فترة رشه فى العام الأسبق نظرا للهجوم المبكر الذى كانت تتعرض لهمحصولاتهم من الآفات، وفقدت مادة التوكسافين مفعولها فى عام ١٩٥٤ عندما فشلت فى القضاءعلى دودة ورق الطباق . وبلغ البلاء اقصاه من دودة القطن فى موسم عام ١٩٥٥ — ١٩٥٦ عندماظهرت لأول مرة ستة انواع جديدة من آفات لم تكن معروفة من قبل فى هذا الوادى ، بالاضافةالى زيادة فى مقاومتها لهذه المبيدات ، فانخفض الانتاج تبعا لذلك فى الموسم المشار اليه الى ٣٣٢كيلو جراما للهكتار رغم الكميات الهائلة التى استخدمت من المبيدات ، وبالتالى حلت كارثةبالوادى في عام ١٩٥٧ . والصورة ذاتها تتكرر عند استخدام السكان لمادة الأزودرين المبيدةلدودة لوزة القطن عندما اعطت نتائج عكسية تماما .

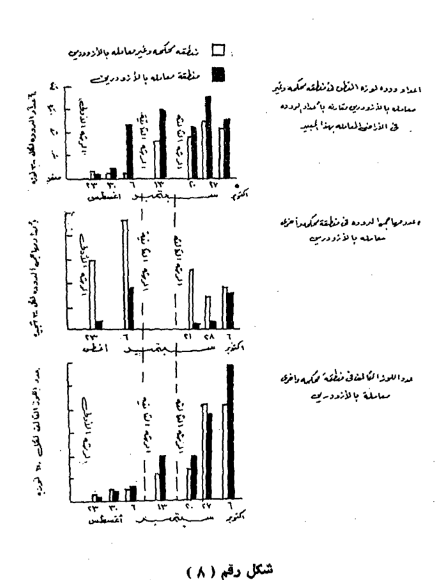
وتحدث هذه المبيدات تأثيرات اخرى علىالتربة فتزيد من الخلل البيئي وتعرض التوازن الايكولوجى المحكم الى مخاطر شديدة ، وتقضىهذه المبيدات على كثير من الكائنات الحية الدقيقة المسئولة عن تحويل النيتروجين الى صورة ملائمةلتناول النبات له ، وهى مسئولة عن انتاج اشكال معينة من الفوسفور والكبريت حيوية ولازمةللنبات . ولا شك ان الاخلال بمثل هذه النظم يؤكد الخلل او التلف الذى تتعرض له بعضالدورات اللازمة لبقاء الحياة عامة كدورة النيتروجين والفوسفور والكربون فى الطبيعة ..انه توازن الحياة كلها والوجود بأسره .. اى خلل يتعرض له ذلك التوازن بتأثير هذه المبيدات ...(انظر الشكل رقم ٨) .



(تأثير المبيدات على الطيور الجارحة)

التغيرات التي تطرأ على سمك أغلفة بيض الصقور (في بريطانيا) وتشير الأسهم السميكة إلى فترة الاستعمال الأول لمادة الـ د . د . ت .

شكل رقم (٧)



شكل رقم (٨)

ماذا حدث في محاولة القضاء على دودة لوزة القطن ؟

تدل نتائج التجارب التي اجريت لاستعمال مادةالأزودرين المبيدة لدودة لوزة القطن على أن لهذه المادة فاعليـة وتأثير واضح على مهاجمي هـذه الدودة أكثر مـنفاعليتها وتأثيرها على دودة لوزة القطن ذاتها ، ومن ثـم فكلما ازداد اسـتعمال الأزودين كمبيد حشـري ازداد تلفالمحصول .

أما مبيدات الأعشاب Herbicides فقدزاد استخدامها فى السنوات الأخيرة كبديل للآلات الزراعيــة الميكانيكية والأيــدى العاملة ، وذلـكللمحافظة على جوانب الطرق والسكك الحديدية، وارتفع معــدل اســتخدامها حتى عــن معــدلاستخدام المبيدات الحشرية ، ويتلخص تأثيرها على قتل النباتات اما عن طريق التغيرات التيتحدثها فى خلال هذه النباتات فتموت وتسقط أوراقها ، او عن طريق حرمانها من مقومات اتمامحصولها على الطاقة والبناء الضوئي ، ومن ثم تموتأيضا . ومن اهم هذه المبيداتمادة (2-4-D)ومادة (2,4-T) . ولقد استخدمتهما القوات الامريكية المسلحة فى فيتنام لابادة الاعشاب التيكان يلجأ اليها الوطنيون ، فبدت مساحات هائلة الآن وقد تجردت تماما من أوراقهــا أو هــى فىطريقها الى الموت . وينبغى ان نلاحظ ان ذلك يقضى على التوازن البيئي عندما يعمــل علــىانقراض الحشرات والطيور والزواحف والثدييات المحلية التي تعيش على هذا النمط من الغطاءاتالنباتية .

● ● ●

مدننا : هل هي هادئة آمنة ؟

يتجه العالم اتجاها واضحا وسريعا الــىعالم يسوده سكان المدن . ويعرف هذا الاتجاه بعملية التحضر Urbanization **ولقد قام كنجزلىديفز باجراء عدة دراسات خاصــة باتجاهــات التحضر واسقاطاته ، وتوصل الــى ان نصــفسكان العالم سوف يصبحون من سكان المدن مع حلول عام ١٩٨٤ لو استمر معدل نمو الحضر علىما كان عليه عام ١٩٥٠ . اما لو استمر هذا الاتجاه حتى عام ٢٠٢٣ فان سكان العالم كافة سيكونونسكان مدن ، بل ان حوالى نصف سكان العالم سوف يكونون سكان مدن مليونية ، وفى عــام٢٠٤٤ لن تكون هناك مدينة دون المليون نسمة ، ومن المتوقع فى ضوء هذه التوقعــات ان يصبحتعداد اكبر مدينة فى العالم ٤ر١ بليون نسمة.(١٨)**

قد تكون هذه الارقام مزعجة فى الواقــعومثيرة . لكن الاكثر ازعاجا واثارة حقا هو تصور بيئة هذه المدن مع هذا المستقبل فى ضوء ما هيعليه مدن العالم . لقد فقد سكان المدن كثيرا من مقومات الحياة الرغد فى الواقع . ولقد انتشرتفى السنوات الاخيرة عدة دراسات حول ما يعرف **بالتلوث الضوضائى** Noise or Sound Pollution كأحد عناصر تلوث البيئة ، كما سادت الفوضى بعض القيم الاخلاقية التى انحدر بها بعض سكانهذه المدن فأضفت على المدينة ستارا كثيبا مــن الحياة ، واصبح السكان فى كثير من المدن الكبرىاليوم فى حالة قلق دائم ، مع تزايــد الجــريمة وتشويه حياة المدن بالاصوات المزعجة لوسائلالنقل والموسيقى الصاخبة وغيرها ، والتخريب الذى يعم المرافق العامة فيها .

---

(١٨) الشرنوبي ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ ، ١٢٩.

اما عن الضوضاء ، فما اقبح ان يمزق سكون المدينة زئير سيارة على الطريق او هدير طائرة متجهة الى المطار او مغادرة له . من المعروف ان الضوضاء تقاس عادة بالديسيبل Decibel وهو وحدة قياس التفاوت فى الشعور بين شدة صوتين . ويمثل السكون على هذا المقياس الرقم صفر . ويتراوح الصوت تبعا لذلك بين صوت التنفس العادى وهو ١٠ ديسيبل ، وصوت نهوض الطائرة النفاثة وهو ١٢٠ ديسيبل اى نفس الدرجة التى يسجلها صوت قذيفة المدفع عندما تكون قريبا منه عند الاطلاق .

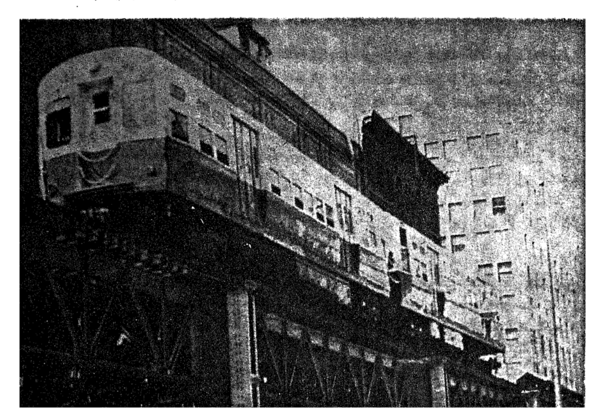
وقد يسبب التعرض للضوضاء الشديدة فقدانا مؤقتا لحدة السمع ، اما عندما تكون مستويات الضوضاء أقل من ٥٥ ديسيبل ، فانها قد تؤخر نوم الانسان ، او تؤدى الى الشعور بالارهاق عند اليقظة . وهناك دليل واضح على ان الضوضاء عند مدى ٩٠ ديسيبل قد تكون الضوضاء عاملا هاما من عوامل الاصابة بالامراض الناجمة عن التوتر ، مثل القرحة وضغط الدم ، كذلك فقد اثبتت الدراسات التي أجريت ان المناسيب العالية للصوت لها تاثير ملحوظ على الناحية النفسية للانسان . (انظر الشكل رقم ٩) .

وتزدحم المدن اليوم بأصوات السيارات بشتى احجامها وانواعها مختلطة بأصوات الدراجات البخارية واجهزة الانذار البوليسية وصفارات عربات الاسعاف والمطافىء ، مع خليط فريد من اجهزة الراديو او التلفزيون فى المحلات العامة ، كل هذا مع مطارق أوناش آلات البناء ، كل هذا خارج المنزل . اما فى داخله ، فبالاضافة الى صوت الراديو او التلفزيون هناك العديد من الاجهزة المنزلية الصاخبة التى قد « تيسر » حياة الاسرة ، ومن هذه الاجهزة المكانس الكهربائية والخلاطات والغسالات وماكينات الحلاقة والحياكة والتجفيف وغيرها .

ان تأثير الصوت يختلف من شخص الى آخر ، ويتوقف هذا على مستوى ضغط موجاته وترددها ، كما تختلف التأثيرات السيكولوجية تبعا لمغزى الصوت بالنسبة للسامع وظروفه . فصوت محرك الدراجة ربما يكون من الناحية البدنية مرهقا ومدمرا للاذن ، ولكنه فى نفس الوقت قد يعطى تأثيرا نفسيا مغمورا بالنشوة والسعادة لسائق الدراجة ، تماما كما يتعمد الشباب رفع صوت سياراتهم باحداث ثقب فى مجرى العادم ، ان ذلك يعطى تأثيرا فريدا عليهم حقيقة .

ـ اما وسائل النقل الجوية ممثلة فى الطائرات ، فان الطائرات النفاثة الاسرع من الصوت تعتبر من اكبر المنغصات لسكان المدن القريبة مساكنهم من الموانىء الجوية التي تستقبلها . ولقد ثبت فعلا ان الصدمة التي يحدثها صوت اختراق الطائرة لحاجز الصوت ، تعتبر تهديدا مباشرا وخطيرا للأسماع . كما ثبت فعلا اصابة السكان بالقرب من المطارات بكثير من الاضطرابات النفسية والعصبية ، خاصة فى مواسم الطيران الزائد .

وبالاضافة الى هذه المظاهر ، هناك أصوات الوسائط التى تجوب الانهار والبحيرات كاللنشات وغيرها من وسائط النقل الميكانيكية ، ولها تأثير سيء على السكان القريبين منها ، كما ان اصوات





شكل رقم (٩)

(التلوث الضوضائى بمدن اليوم)

لاشك ان وسائل النقل داخل المدن تجاوزت حـدودالمعقول فى تاثيرها الضوضائى .

موسيقى الجاز الصادرة من اجهزة الصوت المجسم تعتبر هى الاخرى ، وقد بدات تجذب المزيد من الشباب الى سماعها وقد تصل الى ١٢٥ ديسيبل وهو مستوى مدمر للاذن لو تعرض لها الانسان لفترة طويلة ، وهكذا .. حتى الموسيقى التى هى فن وجمال ، ننسى تاثيراتها الضارة مع غمرة البهجة الظاهرية الآنية .

ويؤكد **صامويل ردزن** احد رواد البحث العلمى فى الاصوات ، ان هناك علاقة بين الاجهاد الناجم عن شدة الصوت والاضطرابات القلبية ، وان رد فعل التعرض المستمر للصوت الشديد يؤدى الى تضييق الشرايين وعدم انتظام ضربات القلب ، وتؤثر الضوضاء فى الانسان اما عن طريق اصابته بالصمم نتيجة لتلف الخلايا الشعريـة المجهرية الناقلة للصوت من الاذن الى المخ ، الامر الذى قد يسبب انفجارا مفاجئا فيها ، واما يضعف السمع ضعفا مزمنا ..

وبالاضافة الى هذه الصور المزعجة لحياة الصخب والضوضاء التى تجتاح مدن العالم اليوم هناك العديد من الصور الانسانية الموسعة التى بدات تضيف مزيدا من التدهور الى بيئة المدن . وتتضح هذه الصور فى العينات والأحياء الفقيرة حيث يصل معدل الجريمة الى اقصاه . وهناك أكثر من دليل يؤكد ان حياة المدن عامة ، وتلك النماذج المنتشرة لانماط عديدة للجريمة والعادات السيئة فى المدن ، انما يؤدى الى عدم تقارب الافراد والأسر ، وضعف فى العلاقات العامـــة والتعارف بين الافراد ، مما يتسبب فى توترات نفسية .

وفى هذا المجال يقول العالم السيكولوجى زمباردو P. G.Zimbardo **ان الضغوط الحضارية فى المدن انما تعمل على تحويل الامريكيين الـــى جماعات من القتلة وسفاكى الدماء . وقد توصل الى هذا الاستنتاج عن طريق الدراسات التـــى أجراها حول العلاقة بين مـــا يعـــرف بالغفلية** Anonymity **والاعتداء** Aggression **، وعـــن طريق الدراسات الميدانية لمـــا يعـــرف بالونداله** Vandalism **وهى التخريب المتعمـــد للممتلكات والمرافق العامة والخاصة بغير ما سبب واضح . فلقد رصد فى الفترة من عام ١٩٦٤ الى عام ١٩٦٩ حوالى ٢٣٠ ثورة عنف اجتاحت المدن ، وذكـــر ان المخربين قد قاموا فى عام ١٩٦٧ بتدمير (٣٦٠٠٠٠) جهاز تليفون عمومى فى نيويورك فقط . بالاضافة الى تحطيم (٢٠٢٧١٢) شباك مدرسة ، واتلفوا العديد من المواقف العامة للسيارات . وحدثت اعتداءات على السيارات فى نيويورك فقط بلغت ٢٣ اعتداء خلال ثلاثة أيام بلا سبب وامام المارة وفى وضح النهار(١٩) .**

ومن دراسات اخرى تبين ان معدلات جرائم العنف ترتبط ارتباطا كبيرا بالكثافات العالية فى المدن ، ولقد أوضحت الاحصائيات التي جمعت على مدى ثلاث سنوات من المدن الامريكية (وهى اعوام ١٩٤٠ ، ١٩٥٠ ، ١٩٦٠) ان جرائم الاعتداء والسرقة والقتل والجنس ذات ارتباط واضـــح بمناطق الكثافات العالية فى هذه المـــدن . هذا بالاضافة الى ان هناك أعراضا أخرى ذات ارتباط وثيق بالازدحام السكانى فى المدن .

---

(١٩) Ehrlich, P.R. & A.H., : Op. Cit. pp. 12 -136.

ففى أواخر الستينات أجريت عدة دراسات فى مانهاتن عن تأثير الازدحام على السكان ، فوجد ان هناك حوالى ٥ر١٨ ٪ من السكان يعانون بدرجة أو بأخرى من الاضطرابات العصبية او النفسية ، ولم تشمل هذه الدراسات السكان فى الاحياء الفقيرة او المرضى فى المستشفيات .

ويعتبر الفقر والتمييز العنصرى أو الطائفى من اهم العوامل التى تقترن بالاضطرابات النفسية خاصة بين المراهقين . ومن أهم اعراض هـذه الاضطرابات تعود حالات الطلاق فى المدن ، واساءة معاملة الاطفال ، وحالات الانتحار وغيرها ، هذا بالاضافة الى ما تسببه هذه التوترات من امراض للقرحة والشريان التاجى وارتفاعات ضغط الدم . ويمكن تجنب مثل هذه الظواهر بتشييد منازل واحياء اكثر ابداعا وجمالا وتشجيرا وان كان ذلك يستغرق مالا وجهدا ووقتا ليس بالقصير .

• • •

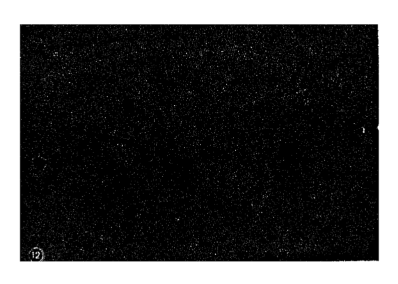
البيئة وتهديدات التسلح النووى : (انظر الشكل رقم ١٠)

يشكل السباق النووى الرهيب الذى يجتاح القوى العظمى فى العالم اليوم ، انتهاكا خطيرا للنظم البيئية كافـة فى هذا العالـم . وتضيف الاشعاعات الناتجة من مفاعلات الطاقة النووية وعن التجارب المختلفة مزيدا من الملوثات التـى تترك آثارا مخيبة لكل رجاء فى بيئة نظيفة . ولقد تركت التجارب النووية قبل عام ١٩٦٣ آثارا لا تزال نتائجها تتكشف يوما بعد يوم ، وذلـك نتيجة لتلك التجارب علـى تفجيـرات القنابـل الهيدروجينية الضخمة (H-Bomb) وما اعقبها مـن ترسـب لسحابتهـا المحدبـة الضـخمة على سطح الارض .

ولقد تركت عملية الانشطار النووى الناتجة عن هذه التجارب انواعا جديـدة مـن الـذرات الاشعاعية غير موجودة فى الطبيعة من قبل (٢٠) وتبددت فى الهواء والمياه ومصادر الغذاء واستقرت فى اجسامنا . وتبعا لخواص بعض هذه المـواد فقد تركزت فى اجزاء حساسة مـن اجسـامنا محدثة فيها تلفا لا يزال العلم عاجزا عن علاجه . فالجرعة الاشعاعية قد ترتفع بنسبة ولو قليلة نتيجة للغبار الذرى المتساقط عن تجارب القنابل الذرية ، غير ان التلف البيولوجي الذى تسببه خطير لدرجة غير متكافئة بالمرة .

وخلال التجارب النوويـة التى اجـرتها الولايات المتحدة الامريكية ، استنكر المتحدثون الرسميون عن الحكومة الفيدرالية حظـر عنصر معين من عناصر الغبار الذرى المتساقط عن هذه التجارب وهو الاسترونتيوم ــ ٩٠ (Strontium-90) الا ان الذى كشـف عن خطورة هذا العنصر جهد اساتذة الجامعات هناك فى بحـوث مستقلة لهم . ولقد اثبتوا ان لهذا العنصر فاعلية اشعاعية ذات مدى زمنى طويل ، وهو من الناحية الكيميائية يشبه الكالسيوم ، اى انه يتركز فى

(٢٠) يتعرض الانسان عادة ومنذ بـدء الحياة الـى نوع من الاشعاعات الكونية والاشعاعات الناتجة عن الصخور بدرجة طفيفة تاقلم معها جسم الانسان والحيوان والنبات .



شكل رقم (١٠)

تفجير لقنبلة نووية حديثة ... سحب هائلة من الغبار الذرى سوف تجد طريقها الى سطح الارض ولو بعد حين ...

العظام وبالذات فى العظام السريعة النمو ، كعظام الأجنّة فى الارحام والاطفال الصغار ، ويصل الى هذه العظام عن طريق ترسبه فى الاعشاب والنباتات التي تتغذى عليها الابقار ، وبالتالى يتركز فى البانها. وقد يسبب عنصر الاسترونتيوم- ٩٠ هذا مرض اللوكيميا احد انواع الامراض السرطانية ، فهو - اى هذا العنصر - يهاجم الأجنّة فيسبب تشوهات خِلقية للاطفال عند ميلادهم ، كما يتسبب في وفاتهم احيانا . ولما كانت مثل هذه الاعراض تحدث نتيجة لاسباب اخرى ، فان تحديد الحالات الناجمة عن هذا العنصر ربما كان صعبا .

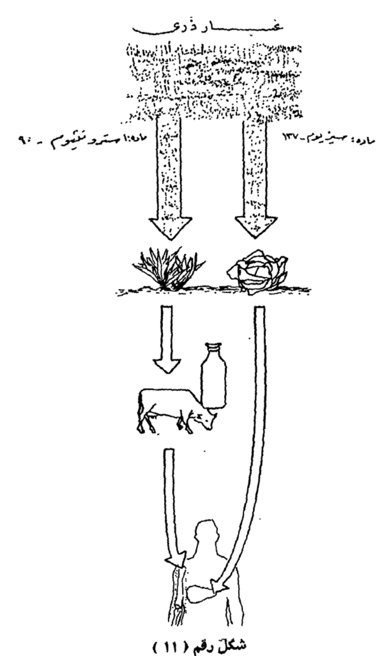
وعلى الرغم من صعوبة ملاحظة الغبار الذرى المتساقط ، ورغم تحريم التجارب النووية الجوية ، الا ان من بين التجارب العديدة التي اجرتها الولايات المتحدة الامريكية تحت الارض ١٧ تجربة (من مجموعها وقدره ٢٠٠ تجربة)تسربت منها الفاعلية الاشعاعية ، ومنها تجربتان وصلت هذه الفاعلية لهما الى كندا. (شكل رقم ١١)

ولو فرض وامتنعت هذه التجارب تماما ،فان سباق التسلح النووي سيظل له تأثير خطير على البيئة من خلال تجهيز المواد النووية. فمخلفات مناجم اليورانيوم ومصانعه انما تشكل فى حد ذاتها خطرا محليا جسيما . فهي تعرض المواد الخام تحت الارض للتلوث بها بعد ترشيح مياه الامطار لها الى باطن الارض ، ومن ثم تتسرب الى مياه الانهار لتلوثها بالاشعاعات .

والاخطر من ذلك تلك العناصر المشعة الجديدة الناتجة عن المنتجات الجانبية للمفاعلات الذرية التي تصنع البلوتونيوم والترتيوم .وتستمر بعض هذه العناصر لفترات قصيرة ، ولكنها قد تحدث اخطارا اشعاعية مباشرة وكثيفة ، وتكفي فى نفس الوقت لخلق اخطار تستمر عشرات السنوات ان لم تكن مئات . فعنصر الاسترونيوم - ٩٠ والسيزيوم - ١٣٧ يتحلل ٥٠٪ من قيمتها على مدى ثلاثين عاما ،اي ان ١٠٪ من قيمتها سيظل بعد مرور ١٠٠ سنة متبقيا كمادة اشعاعية ذات اخطار جسيمة . (٢١)

ويظل معظم النشاط الاشعاعي الذى ينتج عن المفاعلات النووية داخل عناصر الوقود المعدنية فى قلب المفاعل . وبعد سنة أو سنتين يوقف المفاعل مؤقتا ويزال الوقود منه ليوضع غيره ، ويرسل الوقود المستعمل الى مصنع معالجة المواد المعادة لاستخلاص النفايات الاشعاعية منه فى محلول حمضي . ويظل هذا المحلول ساخنا -ربما الى درجة الغليان - بسبب عملية التحلل الاشعاعي، لهذا فلا بد من تبريده بصفة مستمرة. وينبغي عدم نفاذ هذه المواد الى البيئة . وتخزن الولايات المتحدة الامريكية مثل هذه المواد فى حوالي ٢٠٠ خزان مبني من الخرسانة المسلحة ومدفونة تحت سطح الارض ، ويتسع كل خزان منها الحوالي مليون جالون ، ولو ان ثلاثة جالونات فقط من هذه المواد قد وزعت بالتساوي على كافة سكان الارض لوصلتهم جميعا ، وعرضت اجسامهم الى نقطة الخطر الاشعاعي . ومع هذا فان مائتي مليون جالون منها مخزون فى الولايات

(٢١) David R. Inglis, Neuclear Pollution and Arms Race, From Crisis Survival, N.Y. 1973, . 145.



شكل رقم (١١)

الى اين يتجه الغبار الذرى المتساقط ؟

ان جوهر مشكلة الغبار الذرى المتساقط لا تكمن أساسا فى الكمية الساقطة بل تكمن بالدرجة الاولى فى الطريقة التي تصبح فيها الجزئيات الاشعاعية مركزة فى مجرى السلسلة الغذائية ، ومن هنا فان مـادة الاسترونشيوم ـ ٩٠ للنظير الاشعاعى تمتصة الماشية اثناء تغذيتها بالاعشاب الملوثة ، ثم تتجة هذه المادة الى الانسان من خلال تناوله اللبن والجبن ، ثم يتسبب فى أصابة الانسان بسرطان العظام . اما مادة السيزيوم ـ ١٣٧ الاقل ذوبانا ، فتنتقل مباشرة من الخضراوات الى الانسان حيث يتركز في الاعضاء والانسجة الدقيقة مثل الكبد والغدد التناسلية وفى هذا خطـر جسيم على كـل المورثات (الجينات) .

المتحدة فقط تحت حراسة مشددة ودائمة ويقظة. بل تحتاج هذه الخزانات لتبديلها بخزانات افضل مرة كل ٢٠٠ سنة على مر العصور . ولقد حدث من قبل خلل فى احد هذه الخزانات ترتب عليه انسكاب ٦٠ الف جالون من تلك المادة المهلكة اخذت طريقها المجهول في التربة . (٢٢)

وتحدد وكالة الطاقة الذرية الكمية السنوية التي تتسرب من العناصر الاشعاعية الخطيرة . وتحدد كذلك الجرعات الاشعاعية المسموح بها للعاملين فى المصانع الذرية وللعامة من الشعب بالولايات المتحدة الامريكية ، وهي للفئة الاخيرة لا تتجاوز ١٠٪ من المسموح به للفئة الاولى ، وهو بذلك اقل من مستوى الخطر الاشعاعي . الا ان الدلائل تشير الى انه فى حالة استمرار العامة من الشعب الامريكي للتعرض لهذا القدر المحدد للغاية من الاشعاعات ، فان ١٠ آلاف مواطن سوف يموتون سنويا بسبب السرطان . وان كان هذا العدد ضئيلا بالنسبة لسكان الولايات ، الا انها نسبة كبيرة لافراد من الجنس البشري يموتون بسبب تغيرات متعمدة فى الظروف البيئية .

اما السكان بالقرب من المفاعلات النووية فان الاخطار ستظل تتهددهم ، كما ان انتاج المواد النووية مثل البلاتونيوم والترتثيوم واليورانيوم تنطوي على انتاج نفايات اشعاعية تستعمل فى انتاج الطاقة ، والتي تنتهي عادة بتسخين مياه الانهار والبحيرات بدرجة تؤثر فى الحياة المائية . ولا شك ان التخلص من هذه النفايات الاشعاعية انما يعد من اخطر المشاكل التي تقدمها الطاقة النووية للبيئة .

والواقع اننا لم نتحدث فى كل هذا عن اخطار الحرب النووية لو انها — لا قدر الله — قامت . ويبدو ان المجتمعات الحديثة قد هيأت نفسها لهذا النوع من الصراع .. أو هكذا نتوهم . فبالاضافة الى القتل الفوري للارواح البشرية ودمار الممتلكات ، فانها سوف تؤدي الى كوارث بيئية ووراثية تفوق الخيال .

ان ما يمكن ان يحدث للعالم نتيجة صراع نووي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي والصين ودول اوروبية نووية اخرى له تاثير خطير على كل اجزاء العالم . سوف تتوقف فورا مساعدات الغذاء والمساعدات التكنولوجية التي تقدمها الدول المتقدمة الى الدول الاخرى . وسوف تمتنع الاولى عن مد الدول الاخرى بالبذور ذات الانتاجية العالية والاسمدة والحبوب الغذائية . والجرارات وآلات التنقيب على المياه ، وبالتالي سيجد العالم نفسه على شفا كارثة رهيبة لكون العالم اليوم فى ترابط محكم من حيث هذا النوع من العلاقات .

وفى حالة نشوب حرب نووية على هذا المستوى سوف تستحيل زراعة المحاصيل فى مناطق عديدة ، كما ان اندلاع النيران الهائلة فى نصف الكرة الشمالي ، سوف يؤدى الى ارسال كميات هائلة من الحطام والهباء الى الغلاف الجوي الى حد يفوق التلوث البركاني الذي يعقب ثوراناته المفاجئة ، وسوف تحدث تبعا لذلك تغيرات جذرية للظروف المناخية فى سائر انحاء العالم ، وحيثما توفرت مواد قابلة للاحتراق كنطاقات الغابات الهائلة فى عروضها المختلفة

---

(٢٢) David R. Inglis, op.cit. P. 147.

شمالا وجنوبا ، ولتولدت عواصف نيران رهيبة ، تلك العواصف التي عرفها العالم بدرجة محدودة للغاية في مساء يوم ٢٧ يوليو عام ١٩٤٣ . حينما قامت قاذفات القنابل اللانكستر والهاليفاكس من السلاح الجوي الانجليزي بالقاء ٢٤١٧ طنا من القنابل المحرقة شديدة الانفجار على مدينة همبورج . لقد التحمت كافة النيران الانفرادية في عاصفة من اللهب غطت ستة اميال مربعة ، وارتفعت السنة النيران الى ١٥ الف قدم ، وبلغت درجة حرارة المناطق المغطاة بالعاصفة ١٤٥٠ درجة فهرنهيت ، وبلغت سرعة الرياح التي تولدت نتيجة للتيارات الهوائية الصاعدة والتي تهب نحو مركز النيران الى أكثر من ١٥٠ ميلا في الساعة ، وسخن هواء الملاجىء المحفورة تحت الارض لدرجة كانت تشتعل فيها المواد القابلة للاحتراق بمجرد فتح هذه الملاجىء لدخول الاكسوجين وهو امر لازم لها حيث كانت تفتح للتهوية مرة كل عشرة أيام عادة في الظروف العادية .

لا شك ان حربا كهذه سوف تتسبب في احتراق الجزء الاكبر من نصف الكرة الشمالي ، وسوف لا يكون دمار الغطاء النباتي هو الاثر الوحيد لهذه الكارثة ، بل ان التربة سوف تصبح عقيمة عقما جزئيا او كليا ، كما ستعمل الامطار على جرف الطبقة العليا منها . ولنتخيل مثلا تجرد تلال كاليفورنيا من غطائها النباتي وسقوط الامطار الشتوية عليها . وكذلك الاحمال الهائلة من الطمي والحطام المشع الذي سينجرف من القارات الشمالية الى المياه بعيدا عن الشاطىء . ولنتخيل كذلك مصير الحياة المائية التي سوف تتأثر تماما بتلوث المياه . كما ينبغي ان نفكر في آبار البترول الموجودة في البحار ، لا شك سوف تنفجر وتدمر بتأثير الاحداث على اليابس المجاور ، وسيتدفق فحواها الى مياه المحيطات وسوف يستحيل اغلاقها ، كما لا بد ان نتخيل مقدار التسرب الذي سيحدث للمذيبات والوقود والمواد الكيميائية الاخرى وما ستتعرض له انابيب نقل الخامات المختلفة . (٢٣)

اما الاحياء الذين سيبقون بعد اي حرب كهذه فسوف يعيشون في بيئة محطمة منهارة فاسدة ، كما سيتركزون في نصف الكرة الجنوبي الضيق ، وسوف يتخلفون ثقافيا وحضاريا لاختفاء التكنولوجيا ، وستتحول الجماعات البشرية الى اشتات مبعثرة عليها ان تواجه المشكلات الوراثية المعقدة ، لان كلا منها سوف يمتلك جزءا ضئيلا فقط من المتغيرية الوراثية للجنس البشري ، كما انها سوف تتعرض الى نقد اكثر لهذه المتغيرية ، ولقد اظهرت الدراسات التي اجريت على بعض سكان اليابان ان هذه المشكلات تؤثر بشكل خطير على معدل وفيات الاطفال وزيادة التلف العضوي للانسان والتشوهات الخلقية التي سوف تصيبهم قبل الميلاد ، باختصار فان تأثير هذه الحرب لن يكون قاصرا على قتل جزء كبير من الجنس البشري ، بل سيظل اثرها باقيا ومدمرا لمن سيبقى على الارض من بعدها .

---

(٢٣) الشرنوبي ، المرجع السابق ، ص ص ٤٤٦– ٤٥٠ .

ان موارد الثروة الطبيعية التي تكونت فى احقاب التاريخ الجيولوجي محدودة . وفى خلال الربع قرن الاخير استنفذنا من الوقود الحفري ما يعادل كمية الوقود الذي استنفذ فى كل التاريخ من قبل (٢٤) ، فنحن فعلا فى أزمة طاقة ، تلك الطاقة التي يتضاعف احتياجنا لها مرة كل عشر سنوات . فاذا استطعنا توفير كل جالون من الوقود ، وكل رطل من النحاس واليورانيوم من تلك التي نستهلكها فى سباق التسلح النووي حاضرا او مستقبلا ، فسوف نجني ثمار ذلك بالتخطيط لتلك الموارد المنهوبة عمدا فى ظل شراهة القرن العشرين .

ان كل ما تقدم من حديث عن تلف البيئة المعاصرة او التهديد باتلافها ليس وحده هو الممكن حصره فى هذا المجال . فهناك تهديدات اخرى عديدة متشعبة ومتفرعة ، فهناك تلوث ناتج عن مركبات الرصاص بسبب تصاعد ايثيل الرصاص وتتعرض له البشرية من خلال المبيدات الحشرية والدهان واللحام وبعض اواني الطبخ وانابيب المياه المصنوعة من الرصاص . وهناك التلوث الجرثومي والبكتيري والفلوريدي Fluoride Pollution حيث يتلوث الهواء من مادة الفلوريد المنبعثة من مصانع الحديد والالمنيوم والفوسفات والزجاج والخزف والطوب ، كل هذا بالاضافة الى الخلل الذي يمكن ان يحدث فى دورات العناصر الطبيعية كدورة الكربون ودورة النيتروجين ودورة الفوسفات ، يجعل من الصعب طرق كافة جوانب تلك المشكلة البيئية فى مقال واحد او لمتخصص واحد . (٢٥)

ان اخطار الملوثات المعاصرة غير مدركة بصفة عامة حتى الان خصوصا فى الدول غير الصناعية ، ولكن سوف نجد ، وبطريقة غير ملحوظة ، بحيراتنا فاسدة وانهارنا ملوثة واطفالنا وشيوخنا مرضى ، ورغم خطورة التحلل من الهجوم على موارد الثروة الذي حدث فى القرن التاسع عشر ، الا اننا لا زلنا ننظر باستخفاف الى ما يجري اليوم ، فهل فشل العلم فى ارشادنا عن كيفية استغلالنا للبيئة ، أم ان الزمام قد فلت من ايدي العلماء الذين تقع على عاتقهم المسئولية لكونهم بمثابة الاوصياء على استقامة ونزاهة هذا العلم ؟ ان السرية حول كثير من الامور العلمية التي تجرى فى المعامل والمؤسسات العلمية ، قد اعاقت المناقشات الحرة ، وهناك الكثير من المؤسسات العلمية الهامة قد تحكمت فيها الاهداف القومية المحدودة ، بل فى بعض الحالات كان العلماء مرتبطين ارتباط وثيقا بالاهداف السياسية ومن ثم بعدوا عن المناقشات العلمية المفتوحة .

• • •

(٢٤) David R. Inglis, Op.Cit. P. 149, 150.

(٢٥) See Ehrlich, P.R. & A.H., : Op. Cit. Chaps. 4,5,6.

نظرة اخلاقية للمشكلة :

يبدو أن العلماء اليوم لا يجدون طريقهم لتقديم الترشيد الدقيق للكتكنولوجيا ، وهم مطالبون حقيقة بايجاد طرق جديدة لحماية العلم ذاته من انتهاكات الضغوط السياسية ، وهذه ليست مسألة جديدة ، فكثيرا ما تعرض العلم للهجوم والطغيان عندما يصبح جريئا فى المناقشة ، نزيها فى البحث عن الحق . ولقد كانت القوة الكامنة للعلم وقدرته على فهم الطبيعة تضعف عندما كانت المبادىء الحرة للمناقشة العلمية تتعرض للكبت او الخطر ، وكانت هذه القوة تسترد عندما يكون هناك دفاع عن هذه المبادىء . ولقد تعرض العلم فعلا للقمع والكبت فى العصور الوسطى ، كما تعرض لضلال النظريات العنصرية النازية وسخف السرية المضروبة على المعامل العسكرية النووية والجرثومية .

ولقد اعتدنا فى الماضي ـ وخاصة فى نظمنا الاخلاقية المنظمة وبخاصة فى الدين ان نضرب المثل بمبادىء الحياة الاخلاقية ، وكان ذلك فى مصر خلال الحكم الفرعوني ، وفى روما تحت حكم الاباطرة ، وفى الجزيرة العربية فى صدر الاسلام ، ومن قبل ذلك من خلال دعوة السيد المسيح عليه السلام . وكانت قيم هذه الاديان تعمل فعلا على تغييرات ملائمة فى المجتمع . وحديثا ـ وللاسف ـ اصبحت هناك هوة سحيقة بين المبادىء الاخلاقية التقليدية وحقائق الحياة العصرية بدءا من الكنيسة الكاثوليكية والمذاهب الدينية الاخرى ، خاصة في الغرب الذي يمارس الاساليب التكنولوجية على اعلى مستوى ، ولقد أصبح من العسير فى هذا العالم ادراك جوهر الموضوعات الاخلاقية فى حدود السرقة او الايذاء بحجر ، فالموضوعات الاخلاقية للعالم المعاصر لا بد ان تنحصر فى الجوهر المركب للعلم والتكنولوجيا . فممارسة الاخلاق اصبحت الان تتطلب تحديد الحق بين الفلاحين الذين يعملون بمبيداتهم الحشرية على تلويث المياه ، وبين صيادي الاسماك الذين تتوقف حياتهم على تلك المياه ، وهذا نفسه يدعو الى حكم سليم بين مزايا احلال مولد للطاقة غير نووي ينبعث منه الدخان محل مولد نووي خال من الدخان ولكنه ينطوي على كوارث خطيرة .

ان الحرب النووية الرهيبة لا يمكن وصفها الا فى الحدود العلمية ، فهي توصف بلغة الروتنجينات والميجاطينات ، ويفهمها جيدا من لديهم ادراك بالتنظيم الصناعي وبعلم البيولوجيا البشرية ، ومن لهم ادراك بتعقيدات الايكولوجيا على المستوى العالمي ، فالتدمير الذاتي للحرب النووية ما زال يستتر خلف قناع العلم والتكنولوجيا ، وان الجريمة الاخلاقية الكبرى فى وقتنا هذا اخفاء طبيعة هذه الحرب لان ذلك يحرم البشرية من حقها فى تقرير مصيرها .

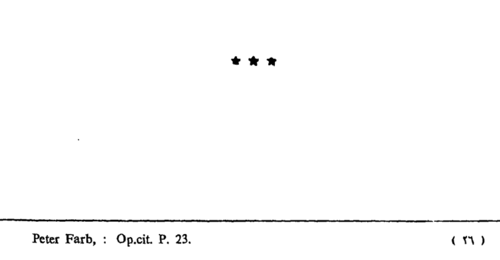
ان مشاكل العصر تحتاج الى اعمال اجتماعية وسياسية بعيدة المدى ، وسوف يؤثر حل المشكلات المرتبطة بالتلوث البيئي فى البناء الاقتصادي الى حد بعيد ، كما ان هذا الحل لا شك سيحتاج الى تغييرات اساسية فى تنظيم المدن ، ولكي تقضي على تهديد الكوارث النووية لابد من حل او علاج للصراعات الدولية التي تسبب الحروب المدمرة على مر الاجيال .

وهكذا نصبح فى حاجة لمظلة عقلية او غلاف عقلي Noôsphere نتفحصه جيـداً ، لانه سوف يعطينا الفرصة للوصـول الى حـل لمشكلات العصر التي تهدد بقاءنا . الا ان توقف عقارب الساعة لا يحل المشاكل الايكولوجية ، بل ان ذلك يعتبر غلقا للمصارف او البنوك التي تحل المشاكل الاقتصادية ، ففي الايكولوجية لا توجد جنات عدن ، ولا المدن الفاضلة ، ولا يمكـن ان نعيد عقارب الساعة الى الوراء للعيش فى مجتمع ابسط وحياة اكثر اشراقا ، بل ان طبيعة الانسان هي التي تدفعه الى التغيير ، وهذا ما دفعه الى الورطة الراهنة حيث اصبح سيدا على الارض دون معرفة لقواعد السيادة .

اننا فى الختام لا نستطيـع ان نعبث لفترة طويلة بالقواعد التي تتحكم فى نظم البيئة والمجتمع ، تلك النظم التي هي اساس التوازن فى تنوع الحياة من حولنا . وهناك ذلك المبدأ الذي يقف جنبا الى جنب مع العديد من المبادىء الايكولوجية الاخرى ، المبدأ الاساسي الذي ذكره الفيلسوف فرانسيس بيكون فى القرن السابع عشر عندما ذكر اننـــا لا نملك حق اصدار الاوامر للطبيعة ، بقدر ما نملك من تقديم فروض الولاء والطاعة لها .

(٢٦) We cannot command nature except by Obeying her.

ان الحكمة التي نحتاج اليها يجب ان تنبثق عن المجتمع بكل افراده ، ومن الحكومات والاجهزة التي تصدر التشريعات والقوانين والبرامج اللازمة لتثبيت حجم السكان عند مستويات يمكن اعالتها فى مستوى معيشي مقبول ، ولتنظيم استعمـال موارد الثروة فى ضوء احتياجات المستقبـل .. وهذا يعيدنا الى السطور الاولى من هذا المقال لكي ندرك الى اي رقم يمكن ان يصل تعداد سكان العالم .. فهل يكون الحل فى الحد من تزايدنا .. أم فى ثراء مداركنا بأبعاد المشكلة الايكولوجيـة والنظم البيئية التى تعمل فى توازن دقيق .... ؟



---

(٢٦) Peter Farb, : Op.cit. P. 23.

أهم المراجــع

أولا : مراجع عربية :

ــ جــوزويــه دى كاسترو « جغرافيــه الجــوع »ترجمة زكى الرشــيدى ، القاهرة (الالف كتاب ــ رقم ٣٦٦) بدون تاريخ .

ــ عبد المحسن صالــح (دكتور) : « المدنية الحديثــةومشكلات التلوث » مجلة عالم الفكر (ديسمبر ١٩٧١) .

ــ محمد عبد الرحمن الشرنوبى (دكتور) ، « المشكلة السكانية فى الربع الاخير من القرن العشرين » ، مجموعة محاضرات الموسم الثقافى للجمعية الجغرافيةالكويتية،الكويت (١٩٧٥) .

ــ « جغرافية السكان » القاهرة ــ مكتبة الانجلوالمصرية ، (١٩٧٢) .

ــ « الانســان والبيئــة » القاهرة ــ مكتبة الانجلوالمصرية ، (١٩٧٦) .

ثانيا : مراجع اجنبية :

— Barry commoner : To survive on the Earth, in : Science and Survival, by Commoner, N.Y. 1966.

— Cecil E. Johnson : Eco-Crisis, N.Y. 1970.

— David R. Englis, : " Nuclear Pollution and the Arams Race," in : The Crisis of Survival, N.Y. 1973.

— Ehrlich, P.R. & A.H. : Population, Resources, Environment, San Francisco, 1970.

— Joseph L. Myler : " The Dirty Animal-Man ", in Eco-Crisis, N.Y. 1970.

— Marston Bates, : " The Human Ecosystem," in : Ecological Crisis, N.Y. 1970.

— Peter Farb : ' Man Versus Nature ', in: Eco-Cris, N.Y. 1970.

— Rhoda M. Love & G.A. Love, : Ecological Crisis, Readings for Survival, Chicago, 1970.

— United Nations : " The Determinantseon Consequ nces of Population Trends ", Population Studies No. 1 , N.Y. 1953.

— Warren S. Thompson : Population Problems, London, 1970.

* * *

الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق

منصور احمد منصور *

مفهوم دوافع العمل

نادت نظرية العلوم السلوكية ، طبقا لتجارب عملية بضرورة الأخذ بمبدأ دوافع العمل أو الترغيب فيه ، باعتباره أسلوبا انسانيا يحث العامل ويدفعه الى تكريس جهوده ، وبذل طاقاته العملية ، والعلمية ، والفنية لتحقيق أهداف المنظمة ١ .

ويدور موضوع دوافع العمل Motivation to Work **حول دراسة طبيعة الانسان العامل** Human Nature **وسلوكه او تصرفاته** Human Behavior **. والغرض من هذا هو التعرف على حاجات الانسان ، ورغباته ، ثم محاولة اشباع هذه الحاجات أو تحقيق تلك الرغبات . والهدف الامثل** Ultimate Opjective **الذى ترمى اليه المنظمات العاملة ، هو**

---

* دكتور منصور احمد منصور استاذ مساعد بقسم ادارة الاعمال ـ كلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة الكويت . له العديد من الدراسات والبحوث فى الادارة العامة والقوى العاملة .

١ ـ تنادى النظرية المذكورة بخمس مبادىء :

(١) مبدا اعتبار المنظمة نظاما اجتماعيا ، (٢) مبدا القيادة ، (٣) مبدا دوافع العمل (٤) مبدا الاتصالات (٥) مبدا تدريب وتنمية قدرات العاملين .

تحقيق اهدافها عن طريق اشباع حاجات القوى العامله ، وتحقيق رغباتها الأمر الذى يدفعها الى العمل والانتاج Productivity وهذا يعنى سد حاجات العاملين ، وتحقيق رغباتهم بالاسلوب الذى يحرك قدراتهم الفنية والعلميه والعملية ووضعها في خدمة الاهداف .

وقد عرف بعض الكتاب مفهوم دوافع العمل ، او ترغيب العامل فى العمل والاستمرار فيه بانه **الرغبة الانسانية** Willingness فى الاستجابة الى متطلبات المنظمة ، اى تحقيق رسالتها او اهدافها (٢) (The Accomplishment of Organizational Missions)

وأخذا بالمفاهيم العالمية المختلفة لدوافع العمل او ترغيب العاملين في العمل والاستمرار فيه ودراسه هذه المفاهيم وتحليلها فانها جميعها تدور حول الاجابة على الاسئلة الآتية : ــ

الاول : ماهى الوسائل الفنية او العلمية التى تمكن المنظمة بمقتضاها من اختيار وترغيب الاكفاء من الناس للالتحاق بوظائف المنظمة ؟

الثانى : ماهى الحوافز ، المادية اوالمعنوية التى تتمكن المنظمة من تطبيقها للابقاء على الاكفاء من العاملين ، وكسب ولائهم ورغبتهم فى تحقيق الحد الامثل من الكفاية والانتاجية Productivity ?

ولاشك ان السؤال الاول يعنى الاهتمام بدراسه السياسة الادارية الخاصة بتوظيف العاملين الجدد وتعيينهم . على أن هناك ارتباطا وثيقا بين هذه السياسة وبين الحوافز التي تقدمها المنظمة للعاملين لديها . اذ ان اختيار وترغيب الاكفاء من الناس ، يقتضى «اغرائهم» بما تقدمه المنظمة من مزايا او حوافز مادية كانت او معنوية ، في الحال وفى المستقبل ، ومن ثــم فان الاجابة عن السؤال الثاني يرتبط موضوعها بالاجابة عن السؤال الاول ، مــن وجهة نظــر الحوافز التى تحــرك دوافــع الانسان نحــو الالتحاق بالعمل والاستمرار فيه ، وتكريس جهوده الفكرية والفنية والعمليــة لتحقيــق اهداف المنظمة .

السلوك الانساني

ان دراسة السلوك الانسانى Human Behavior فى العمل ترتكز اساسا على قدرة الرجل الادارى فى فهم طبيعة الانسان وبفرض توافر هذه القدرة ، فان فهم طبيعة الانسان تتطلــب ان نعطى المــدير قدرا من الوقت أو الزمن . ومن ثــم فان الجهود التــى تبذل في اختيار الافضل من الناس مقــدرة وسلوكا ، لا تكفى فى حــد ذاتها للتنبؤ بسلوك الانسان وتصرفاتــه فى الوظيفــة . وهذا لا يتأتــى الا بالممارســة الفعليــة لواجهــات ومسئوليات الوظيفة من جانــب الموظف . ولهذا اخــذت الدول عامة بمبدأ تعيين الموظف الجديد تعيينا « تحت الاختبار » (Probationary period) وفي خلال هذه الفترة (من ٣ اشهر الى سنة) يمكــن دراسة سلــوك الانسان وتصرفاتــه فى الوظيفــة وخلالها ، يكــون للمنظمة ابقاؤه أو ابعاده دون مسئوليــة فى تعويضــه أو التزام بقبوله عاملا .

وتدل التأمــلات الفكريــة ، والدراســات الانسانية علــى أن نشاط الانســان هو تعبير مادى لسلوكه ، ومن ثم فان السلوك الانسانى يعبر عنه بمجموعة من الانشطة الانسانية . وتتمثل هذه الانشطة في طريقة سير الانسان

---

٢ ــ Billy J. Hodge & Herbert J. Johnson, **Management and Organizational Behavior** (New York : John Wiley & Sons Inc., 1970), p . 193 — 213.

وتعبيره بالحديث وتصرفه مع زملائه في العمل، واسلوبـه في أداء الواجبـات والمسئوليـات الخاصة بعمله ، وقد يؤدى الانسان اكثر من نشاط في وقت واحد ، كالتحدث مع زميل في العمـل اثناء تدوينه بعـض البيانات الخاصة بعمله .

ولا شك ، أن الانسان له قدرة على احداث تغيير مفاجيء في سلوكه ومـن ثم في نشاطه ، كما أنه يستطيع التوقف عن نشاط او انشطة معينة وتبديلها بغـيرها .. كمـا ان للانسان قدرة على الابطاء في ممارسة نشاط معين ، او تأجيله او انهائـه بصورة او بأخـرى . هذه الحرية السلوكية تثير تساؤلات هامة منها : ما هوالدافع او الدوافع التي تجعل الفرد يقوم بنشاط معين دون غـيره ؟ ما هـى الاسباب في تغيير الانسان لسلوكه أو تصرفاته ، ومن ثم في نوع نشاطه او الانشطة التى كان يزاولها ؟

وتكون هذه التساؤلات اكثـر اهمية ، اذا ارتكـزت على سلـوك الانسان وتصرفاتـه في العمل . ومن ثم فان مناط الصعوبة ، يتمثل في ايجاد الوسيلـة او الوسائـل التى تمكـن الرجل الادارى من فهم سلوك العاملين تحـت رئاسته او اشرافه ، وفي قدرته على توجيه هذا السلوك واخضاعـه لمسيرة معينـة لتحقيق أهداف المنظمة ، والطريـق الى هذا الفهم ، وخلق هذه القدرة او تنميتها لدى المديرين يتمثل في ضرورة الالمام بالدوافع او الحافز أو الحاجات Motives or Incentives or Needs البشرية التى تؤدى الى تكوين السلوك المرغوب فيه في وقت معين .

ولا شك أن هناك صلة وثيقة بـين دوافع الانسان واشباع رغباته أو حاجاته. فالدوافع تدفعه الى سلـوك او تصرف معـين ، ويقوم الانسان بالتعبير عن السـ... عمل معين ، الامـر الذى ... حاجاته أو رغباته أو اهدافه ... ذلك بالشكل (رقم ١ ...

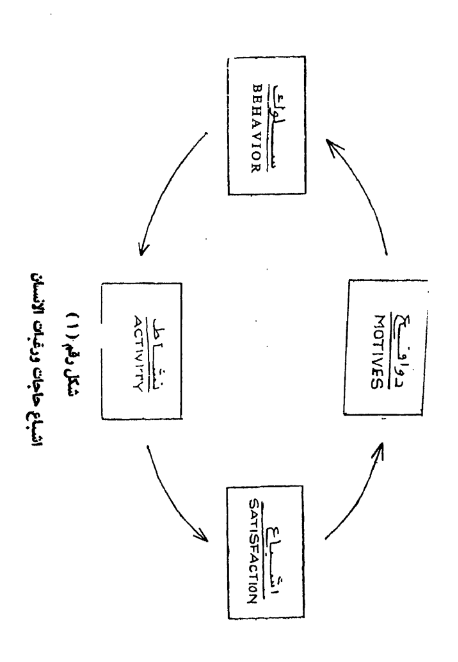
من الشكل رقم (١) ... الاسباب (whys) الحقيقية ... المحركة للانشطـة ، وبها ... السلوك ، وتلك الانشطة ... مرتعا للابحـاث السلوكية ... التى ينطلق منها انواع السلو... Mainsprings of action)

ومن ناحية أخرى ... أن الرغبة او الحاجة (Desire ... تمثل الغاية أو الهدف (Target ... يسعى الانسان الى تحقيقه او ... بالدرجة أو المستوى الذى يراه ... نفسه منها . ومن ثم يمكن العـ... الى اشباع حاجة ، أو تحقيق ... المحركـة لدوافـع الانسان ... وتحديد نشاطه ، الذى قد يحقـ... الحاجة أو تحقيق الغاية .

الحوافـز

وتطبيقا لما تقدم فان ... كيفية اختيار «الحافز» او ... التى تحرك دوافع الانسان ... وادائه لنشاط أو انشطة ... أو بالاسلوب الذى يحقق له اهدافه ... وبمعنى آخر يتعين اقامة صلة مباشرة ... بين الحافز وتحقيق الهدف أو الرغبة ...

ومن ناحيـة أخـرى فان ... الانسان العامل أو تحقيق رغباته ... المنظمة يقتضى ان يحدد مسـ...



شكل رقم (١)
اشباع حاجات ورغبات الانسان

الى تحقيــق أهداف المنظمة ، ومــن ثم فانه يتعين اقامة صلة اخــرى وثيقة بــين اهداف المنظمة واهداف العاملين بها . ومعنى ذلك ان تكون الحوافز المتاحة كافية لخلق الظروف المناسبة والاقتناع الانسانى بأن تحقيق اهداف المنظمة ضرورى لتحقيق أهداف الجماعة فى المنظمة ويمكن تصوير ذلك بالشكل الاتى رقــم (٢) .

يشير الشكل رقم (٢) الى ان اشباع حاجات الانسان العامل وتحقيــق رغباتــه مرهــون بتحقيق أهداف المنظمة ، ومرتبط بها ، بمعنى ان تحقيق الاهداف شرط لازم لامكان اشباع حاجات الانسان ورغباته . واذا اردنا اعادة صياغة هذا في اسلوب أكثر دقة وسهولة، فانه يمكن القول ان الحد الامثل لانتاجية العامــل هو الغاية والهدف ، وتحقيقه أمر جوهــرى فى اشباع الحاجة او تحقيــق رغبــة الانسان العامل .

على أن ما تقدم لا يعنى قيام المنظمة بوقف اشباع الحاجة او تحقيق الرغبة ، حتى يتحقق لها هدفها فى الوصول الى الحــد الامثــل في الانتاجية . بل انه تجب التفرقة بين ما يسمي بالحاجات او الحوافز الضرورية او اللازمــة (Primary Incentives) وبين الحوافــز المساعدة (Auxiliary Incentives) . ويتمثل النوع الاول فى الاجر المحدد للوظيفة ومشتملاته ، ويتمثل النوع الثاني فى كل المزايا او الحوافز ، التى تقررها المنظمة ماديــة او معنوية بالاضافة الى النوع الاول تشجيعــا للعاملين ، وحثا لهم على تحقيق الحد الامثل في الانتاجية ومــن ثم فــان النوع الاول مــن الحوافز ، يمثل حاجات العمل الضروريــة التي يتعين اشباعها بصورة منتظمة، ومستمرة الا فى الاحوال التى يجوز فيها ، أو يتعين معها اتخاذ امر يؤثر على صفة الاستمرار أو الانتظام في ادائها ، اما الحوافز المساعدة ، فهى التى تقررها المنظمة لجميع العاملين او لبعضهــم بشروط معينة ، تشجيعــا لهــم ، لتوجيــه نشاطهم وقدراتهم الفنية والعمية والعملية فى تحقيق أهداف المنظمة (الانتاجية) ، توصلا الى تحقيق رغباتهم وآمالهم الذاتية .

ولهذا فانه قد يكون من الضرورى للمنظمات العاملة ، تحديد نوع Kind ، وطبيعة Nature) ، وقــوة فاعليــة (Intencity) الحوافز التي تقررها للعاملين لديها . كما انه من الضرورى اختيار الوقت لادائها ، وارتباطها بأهداف العاملين وتغييرها او تنوعها تبعا للتغيير فى رغبات الافراد . وهذا لا يتأتي الا عن طريق اجراء الابحاث العلمية بصورة مستمرة .

وتدل الدراسات العديدة على انه يتعــين توافر شروط محددة فى تقرير هذه الحوافز (بالنسبة للاجر مثلا فانه يتعين تحديده وهو احد الحوافز الضرورية) ارتكازا على عوامل ثلاثة ، **العــدالة ، والمساواة والكفاية** . امــا الحوافز المساعدة أو الاضافية ، فيجب توافر ما يلي عند اختيارها واقرارها :ـ

١ ـ سهولة فهم السياسة التي تقــررهــا المنظمة في تقريرها للحوافز
(Easily Understood).

٢ ـ عدالة الحوافز وكفايته Equitable)

٣ ـ ارتباط الحوافز ارتباطا وثيقا مباشرا بالجهود الذهنية أو البدنية أو السلوكية التى يبذلها العامل فى تحقيق الحد الامثل للانتاجية
(Directly related to effort)

٤ ـ اقرار صرفها او ادائها للعاملين فــى مواعيد محدودة ومتقاربة
(Based on short Payback period)

٥ ـ ارتكاز الحوافز على أسس او مستويات مقبولة .
(Based on relevant standards)

... الاستمرار أو الانتظام فى

(Continuous rather than S...

... مرتبطا مباشرا ووثيقابرسالة

(Related to Organization ...

... اتصالا مباشرا

. (٢) Drives ... اعثه

... المزايا الاضافية فى

الدول النامية عامة ، والدول المتقدمة خاصة، تشجيعا للعاملين واستمالة لجهودهم فى تحقيق الحد الامثل في الانتاجية ليتكامل نجاح اهداف المنظمة . وقد تمنح هذه المزايا ، الى جانب الحوافز الاخرى ، بصورة جماعية (Group Incentives) أو بصورة فردية (Individual Incentives) (٤) .

ويصور الجدول (رقم ١) أهم المزايا الاضافية التي تمنحها المنظمات العاملة فى الدول المتقدمة ويمكن استخدامه كاطار لقطاع الخدمات في تخطيطها لسياسة الحوافز .

حوافز
INCENTIVES

اهداف المنظمة
ORG. MISSIONS

حاجات ورغبات الانسان
NEEDS AND DESIRES

شكل رقم (٢)

تحقيق أهداف المنظمة

— Robert A. Sutermeister, **People and Productivity** (New York . McGraw-Hill, Company, 1963), and Billy J. Hodge & Herbert J. Johnson, ...

— David W. Belcher & R. H. Leukert, **Job Evaluation** (Englewood Cliffs, N. J. Prentice Hall, Inc., 1954), pp. 379-514.

جدول رقم (١)
اهم المزايا الاضافية التى تمنحها بعض المنظمات العاملة

مسلسل	نوع المزايا الاضافية	امثلة
١	مزايا اضافية مقابل عمل يؤدى	ـ البدل النقدى للاجازات الرسميه ـ المزايا المالية الاضافية فى النوبات الليلية . ـ المزايا المالية عن عمل وقت اضافى ـ البدل النقدى للعمل فى الاجازة الاسبوعية
٢	مزايا نقدية غير مرتبطة بالانتاج	ـ مكافآت الاعياد السنويه ـ مكافآت المواظبة على الحضور ـ مكافآت الجودة فى الانتاج ـ مكافآت اتباع تعليمات الامن والصيانة ـ مكافآت الخدمة الممتازة ـ مكافآت تقديم اقتراحات بناءة . ـ مكافآت نهاية السنة المالية
٣	مزايا نقدية غير مرتبطة بساعات العمل :	ـ البدل النقدى للاجازات غير الرسميه ـ الاجر المدفوع للوقت الذى يقضيه العامل خارج المنظمة باذن مثل الذهاب للادلاء بصوته فى الانتخابات او الادلاء بشهادة في المحكمة ... الخ ـ الاجر المدفوع عن أوقات الراحة اليوميه . ـ الاجر المدفوع عن اوقات تناول الغداء ـ المزايا المالية المدفوعة فى حالات وفاة أحد افراد الاسرة . ـ المزايا المالية المدفوعة للوقت الذى يستغرقه العامل فى تغيير ملابسه او الاستعداد للعمل .

تابع جدول رقم (١)

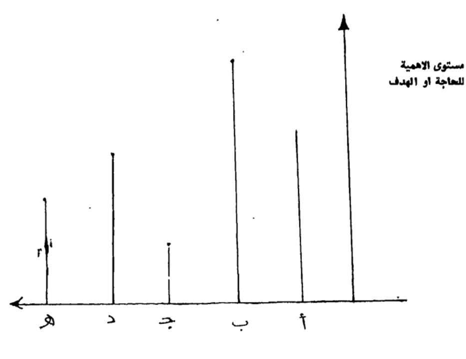
مسلسل	نوع المزايا الاضافية	أمثلة
٤	المزايا الاضافية في نطاق حماية العامل :	ـ أقساط التأمين التى تدفعها المنظمة لصالح العامل . ـ المزايا المالية الاضافية فى حالات العجز ـ المزايا المالية الاضافية في حالات الرعاية الصحية ، والعلاجية والجراحية . ـ أقساط التأمين المدفوع لصالح العامل ضد السرقات . ـ الضمانات المالية التى تؤديها المنظمة لصالح العامل .
٥	مزايا اضافية للخدمات	ـ توفير المطاعم في مكان العمل ـ توفير الوسائل الرياضية والاجتماعية ـ توفير المساكن للعاملين ـ تقديم منح دراسية وتدريبية ـ تقديم استشارات فنية وقانونية

وموجز القول أنه يتعين اختيار الحافز او الحوافز التى تتوافر فيها الشروط السابقة ، وعلى الاخص تلك التى تمثل الحاجة او الرغبة الملحة والهامة والقصوى لدى العاملين . ومعنى ذلك أن حاجات الفرد العامل متعددة . الا ان الرغبة فى اشباعها تتفاوت فيما بينها من حيث اهميتها لديه . ومن ثم ، فان على المنظمة ان تختار الحاجة أو الهدف الذى يمثل الدرجة القصوى لدى العاملين فى وقت معين .

ويبين من الشكل رقم (٣) أن الحاجة او الهدف (ب) يمثل أعلى مستوى من الاهمية لدى الانسان فى وقت معين ، ومن ثم يكون اشباع هذه الحاجة او تحقيق هذا الهدف طريقا لتحقيق اهداف المنظمة . ويعني هذا ان معرفة وتحديد حاجات الفرد ورغباته تمثل الخطوة الهامة نحو التأثير على سلوك العامل ونشاطه ، بحوافز مناسبة Appropriate Incentives واشباعها فى وقت الحاجة اليها .

وقد تثار صعوبة حول ضمان التأثير على سلوك الفرد العامل ، وتوجيه نشاطه فى اتجاه تحقيق اهداف المنظمة . وتتمثل هذه الصعوبة في ثلاث نقاط :

الاولى تتمثل فى اشباع حاجات العاملين او تحقيق رغباتهم الفردية . ولاشك انه من الصعوبة بمكان الوصول الى هذه النتيجة نظراً لتعدد حاجات الافراد فى وقت واحد ، وعلى الاخص بالنسبة للمنظمات التي يعمل بها عدد كبير من الافراد . ولهذا ، فان هناك من الدلائل العلمية ما يشير الى اشباع هذه الحاجات أو تحقيق تلك الرغبات التي تمثل



شكل رقم (٣)

اهمية الحاجة او الهدف

آمال واهداف النسبة الغالبة من الافراد . وهذا لا يتأتى الا عن طريق الابحاث العلمية فى مجال الحوافز .

الثانية تتمثل فى ضرورة خلق الشعور العام والطمأنينة لدى الافراد بتوقع (Expectancy) قيام المنظمة باشباع هذه الحاجات او تلك الرغبات وضمان ذلك فى المستقبل . ولا شك فى ان هذه الصعوبة تقع مسئولية حلها على الادارة العليا بالمنظمة .

الثالثة تتمثل فى الشعور العام للجماعة او الافراد بتوافر امكانيات المنظمة الكفيلة بالوفاء بالتزاماتها فى مجال الحوافز (Availability of Incentives) ولا شك في أن السياسة المعلنة فى مجال الحوافز ، والسوابق التاريخية للمنظمة فى مجال علاقات العمل من شأنهما خلق هذا الشعور بين العاملين بالمنظمة .

وتدل الدراسات العديدة فى مجال سلوك الافراد فى المنظمات العاملة على ان البحث العلمي يمثل المشعل الذي ينير للادارة المعرفة الموضوعية فى مجال دراسة طبيعة الانسان وسلوكه واهدافه ووسائل تحقيقها

ابحاث الدوافع :

تعددت الابحاث النظرية والميدانية في مجال الدوافع والحوافز ، لكن القليل منها لا يعتمد على تجارب ناجحة تمنحها الصحة العلمية ، وتعطيها ركيزة الاعتماد عليهافي المجالات المختلفة فى المنظمات العاملة . وقد يرجع هذا الى أسباب عديدة منها أن هذه الابحاث تحتاج الى وقت لوضعها موضع الاختبار العملي فى مجالات العمل المختلفة ، وعدم الاهتمام بالابحاث السلوكية فى الدول عامة والنامية خاصة ، وقلة الاعتمادات المخصصة للابحاث والتجارب فى ميدان العلوم السلوكية (٥).

على أنه مما لاشك فيه ان هذه الابحاث قد أرست مبادىء هامة واساليب فنية ، وافكارا ترتكز على تأملات فكرية ، وفروض علمية ، ونتائج موضوعية فى مجال العلوم السلوكية ، هذا فضلا عن أن بعض هذه الابحاث نجحت حينما وضعت فى مجال التجربة ، وما زال الوقت متسعا للمزيد من هذه الابحاث وتلك التجارب (٦) .

وتعتبر نظرية الحاجات التي بداها **ماسلو** (Maslow) من النظريات التي اخذت مسارها فى التطبيق وارتكز عليها كثير من المفكرين والكتاب فى ابحاثهم وابتكاراتهم فى مجال الدوافع والحوافز . ويعتقد ماسلو ان هناك خمس حاجات للانسان لها اهمية تصاعدية أو هرمية . هذه الحاجات تتمثل فى:

(١) الحاجات المادية او الضرورية

(٢) الحاجة الى الامان والضمان

(٣) الحاجات الاجتماعية (٤) الحاجة الى التقدير (٥) الحاجة الى الاحراز او تحقيق أقصى الآمال أو الطموحات .

---

٥ ـ د . منصور احمد منصور ، البحث العلمي واهميته فى مجال الادارة ، الادارة ، المجلد الخامس ، العدد الثاني ، اكتوبر ١٩٧٢ (يصدر مجلة الادارة اتحاد جمعيات التنمية الادارية بجمهورية مصر العربية) .

٦ ـ تدل الدراسات على ان اهم نظريات الدوافع والحوافز خمسة هي :

(١) النظرية الكلاسيكية ، (٢) نظرية الحاجات ، (٣) نظرية العلاقات الانسانية ، (٤) نظرية التفضيل والتوقع ، (٥) نظرية العاملين ، راجع :

د . منصور احمد منصور ، المبادىء العامة في ادارة القوى العاملة . (الكويت : وكالة المطبوعات ١٩٧٣) الباب الخامس .

وتدل الشواهد العلمية ، والدراسات الحديثة في الستينات من هذا القرن على ان نظرية ماسلو (نظرية الحاجات) اتخذت نموذجا رائدا في مجال دراسة طبيعة الانسان وسلوكه وحاجته ورغباته . ونتيجة لهذا الاتجاه ظهرت دراسات وابحاث بناءة فى مجال الدوافع والحوافز ارتكازا على الحاجات الانسانية الخمسة التي جاءت فى النموذج الذي قدمه ماسلو نعرض بعضها فى ايجاز .

الحاجات المادية : اجري العديد من الابحاث لمعرفة مدى واهمية الحاجات الضرورية او المادية لحافز او دافع للعمل . وقد اشارت هذه الدراسات والابحاث الى انه غالبا ما يرتبط اشباع الحاجات المادية (الطعام ، والملبس .... الخ بوفرة النقود . على ان الافراد لا يهتمون بالنقود فى حد ذاتها ولكن نظرا لكونها اداة (Tool) تمكنهم من اشباع مثل هذه الحاجات ، لذا فاشباعها بهذه الوسيلة يكمن في قوة النقود الشرائية (Purchasing Power) . الا انه مما لاشك فيه ان للنقود وظائف اخرى قد تكون اكثر اهمية ، واعظم ضرورة في استعمالها .

وقد دلت الابحاث التي اجريت فى مجال النقود كأداة لاشباع الحاجات الضرورية ، انها باعث أو دافع معقد ومتشابك . كما ان اهميتها قد تتضاءل كلما تقدم الفرد ساعيا لاشباع حاجات اخرى طبقا للنموذج الذي قدمه ماسلو . ومعنى هذا انالنقود تلعب دورا هاما وحيويا فى اشباع الحاجات الضرورية ، ثم تأخذ هذه الاهمية فى التناقص كلما ارتفعنا فى سلم درجات الحاجات .

واجريت دراسة ميدانية في الستينات من هذا القرن بهدف وضع نظرية ماسلو موضع الاختبار . وارتكزت هذه الدراسة على عينة من ٤٩ موظفا عينوا بالادارة المتوسطة Management-Level Employees في شركة التليفونات والتلغرافات الامريكية عام ١٩٥٧ ، واستمرت هذه الدراسة خمس سنوات اعتبارا من تاريخ التحاق هؤلاء الموظفين بالخدمة ، واجريت لهم مقابلات شخصية بحضور متخصصين فى العلوم النفسية .

وتتلخص اهم النتائج التي توصلت اليها هذه الدراسة فيما يلي :

١ ــ يتطلع الانسان لاشباع حاجاته ، عند بداية عمله ، بصورة تسلسلية طبقا للنموذج الذي قدمه ماسلو ، بادئا بالحاجات الضرورية (الاجر والامان والطمأنينة فى العمل) .

٢ ــ ليس بالضروري ان يستمر هذا الاتجاه ، اي تسلسل اشباع الحاجات ، عندما تطول مدة خدمة الموظف . فقد يتطلع الموظف لاشباع نوع معين من الحاجات لا تتفق في تسلسلها مع نموذج ماسلو .

٣ ــ بعد انقضاء مدة خدمة معينة (وهي هنا خمس سنوات) ، يتطلع اولئك الذين حققوا نجاحا فى عملهم ، لاشباع المستويات العليا عن الحاجات (الرغبات) تاركين أو غير عابئين بالمستويات الدنيا منها (كالاجر والامان والطمأنينة في العمل) ، وهذا يرجع اساسا الى ان هذه الفئة تضمن بقاءها في الوظيفة ، وتقدمها فى التسلسل الاداري ، ما يضمن لها الاجر والامان والطمأنينة فى العمل . وينطبق نفس الحكم على المديرين الذين لم يحققوا نجاحا ملموسا فى العمل ، الا ان الفرق بينهم وبين الذين حققوا نجاحا ، يتمثل فى ان الفئة الاولى تكوناشد حماسا واكثر اهتماما باشباع هذه الحاجات .

٤ ــ اظهر المديرون (الناجحون منهم والاقل نجاحا) اهتمامهم باشباع الحاجات المتمثلة في احترام النفس ، وتحقيق الذات ، والانجاز ، وكانوا اقل اهتماما بالاجر والامان والطمأنينة في العمل مثلما كان الامر عند بداية خدمتهم .

الحاجة الى الامان : تمثل هـذه الحاجة الخطوة او المرحلة الثانية فى اهميتها وتسلسلها للانسان بصفة عامة . وتتمثل هذه الحاجة فى محاولة أو رغبة الانسان فى ضمان عمل دائم ودخل دائم يعينه على مواجهة التزامات الحياة له ولافراد اسرته . كما تشمل هذه الحاجة الرغبة فى حماية الانسان من الاخطار الطبيعية او المهنية او الاقتصادية .

ويعتقد بعض الكتاب ان ميـول الانسـان واتجاهاته تجاه اشباع الحاجة الى الامان تلعب دورا هاما في اختيار الوظيفة . على ان الاجابة على اهمية حاجة الانسان الى الامان واثرها على اختياره للوظيفة تحتاج الى ابحاث علمية عديدة حتى يمكن التوصل الى نتائج موضوعية وواقعية .

وخلاصة القول ان حاجة الانسان الى الامان والطمانينة امر يرتكز على الواقع وتؤيـده الدلائل . ولاشك في ان الـدول عامة توفر للانسان العامل اشباع حاجته الى الامـان والطمانينة . وتتمثل وسائل اشباع هـذه الحاجة فى التأمينات الاجتماعية (Social Insurances) والمساعـدات العامة ؛ وعقود العمل مدى الحياة (كما هو الحال فى اليابان) ، وعدم جواز فصل العامل الا بشروط خاصة (كما فى بعض الدول الاشتراكية مثل جمهورية مصر العربية) . كما تعمل المنظمات الخاصة ، ومنها النقابات العماليـة ، علـى اشباع مثل هذه الحاجة عن طريق المساومات او المفاوضات الجماعية مع اصحاب الاعمال (كما هو الحال فى الدول المتقدمة وعلى الاخص الراسمالية منها .)

الحالة الاجتماعية (الانتماء الى الجماعة) :

ذكرنا من قبل ان حاجة الانسان الى الانتماء الى الجماعة Affiliation ترتفع الى الاهمية القصوى عندما يعتقد الانسان او يشعر انه قد اشبع حاجته المادية وحاجته الى الامان والطمانينة ، وعندما تصبح حاجة الانسان الى الانتماء الى الجماعة فى اهميتها القصوى فان عدم اشباعها قد يؤدي الى مقاومـة الفـرد (Resistance) للمنظمـة التي يعيش فيها ، والى عدائه لها (Antagonistic) والرغبة او التصميم على عدم التعاون معهـا (Uncooperative) .

وتشـير هذه الدراسـات الـى ان الانسـان يسعى لاشباع حاجته الى الانتماء الى الجماعة لا باعتبارها هدفا فى حد ذاتها(A Goal In Itself) بل باعتبارها وسيلة لتحقيق رغبات او اهداف اخرى ، فقد يرغب الانسان فى الانتماء الـى جماعة معينة حتى يستطيع كسب تأييدها ، ومساندتها فى مسائل او آراء او معتقـدات معينة . ومن ثم فغالبا ما يتجمع الافراد الذين يؤمنون بآراء او معتقدات واحدة ، محاولين استمالة غيرهم ، وتطويع الجماعة للانضمام اليهم تحت ظلال هذه الآراء او تلك المعتقدات . ولاشك ان تكوين هذه الجماعات التي قـد تختلف فيما بينها من حيث المبادىء التي تؤمن بها ، ربما يحول المجتمع الى جماعات متنافرة مسببة فى خلق مشاكل اجتماعية تعوق المجتمع عن تحقيق اهدافه .

ودلت هذه الدراسات ايضا على ان الافراد الذين يشعرون باليأس أو القلق او الملل ، يميلون الى صحبة من يشاركهم نفس الشعور، وقد اكد هذا الاتجاه بعض الدراسات الدالة

٧ ـ راجـع :

— Saul W. Gellermen, **Motivation and** Productivity (New York : American Management Association, 1963).

على ان تطـور الجمـاعات غير الرسميـــة (Informal Groups) انما يرجع اساسا الى شعور الجماعة بالسأم (Boredom) واحساس افرادها بعدم أهميتهم فى العمـــل (Insignificance) وافتقارهم الـى الخبرة او المهارات الفنية فتكون لديهم الاعتقاد بأنهم ضحايا المجتمع الذي يعيشـــون فيه ، أو نظام العمل الذين يرتبطون به .

على ان الجماعات غير الرسمية المشـــار اليها لا تضم جميع الافراد الذين يعملـون في المنظمات العاملة . فقد دلت الدراسات على ان هناك من الافراد من لا توجد لديهم الرغبة في الانتماء الى جماعة معينة (Loner) وقد يرجع عدم الرغبة فى الانتماء الى الشعـــور بالشك (Suspicion) فى هذه الجماعة او نظرة الفرد نظرة الازدراء حيالهاcontemptuous او ان يكون على درجة من الكفاءة تسمح لــه بحماية نفسه ، وتحقيق اهدافه دون حاجة الى الانتماءاليها .

وهناك من الدلائل ما يشير الى ان الادارة فى المنظمات العاملة تنظر بعين الشـــك الـى الجماعات غير الرسمية التي تتكون وتنمو في المنظمة . وقد اشارت بعض الدراسات الى ان القيود التي تفرضها تلك الجماعات على الانتاج ما هي الا نتيجة طبيعية لشعـورهم بتفاهــة أعمالهم ، لاسيما اذا كانت الادارة لم تمنحهم الفرصة للمشاركة في اصدار القرارات الخاصة بهـذه الاعمال، ويبدو ان مثل هـذا الشعور يبدو واضحا (Materiaized) عندما تكون أعمال هــذه الجماعة مملــة ، او روتينية (Routine) لا تحتاج الى ايــة مهارات . وقد يزداد تاثير هذه الجماعة على الانتاج سواء اذا أحكمتالرقابة عليها ، او حرم افرادها وسائل الاتصال المناسبة مـع ادارة المنظمة .

فى مثـل هـذه الظروف المشار اليها تبدا الجماعات غير الرسمية فى الظهـور والتكوين بالمنظمات ، وتأخذ فى النمو . وتكتسب قوة لها تأثيرها علىالانتاج . والانتماء الى مثل هذه الجماعات يعتبر اشباعا لحاجـة الانتمـــاء (الحاجة الاجتماعية) . والقيود التي تفرضها هذه الجماعات على الانتاج (Restriction of Output) ما هي الا احـد الامثلــة لنشاطها فى مجـال الانتاج . على انـه ليس بالضروري أن تكون هذه القيود وليدة كراهية أعضاء هذه الجماعات لطبقة المديرين او لادارة المنظمة بل هي وسيلة (Means) للمحافظة على اعضاء الجماعة ، وشخصيتها والوصول الى اهدافها .

وجدير بالملاحظة ان الجماعات غير الرسمية تلفظ من بين اعضائها من لا يلتزم بشروطهــا وينفذ حدود معدلات انتاجها او أدائها ، ذلك أن مثل هذا العضو يضعف من قوتها ، ويؤدى الى تحطيم وجودها ، وذهاب طمأنينة افرادها والاهمية التي يجب ان تكون عليها .

وخفض الانتاج ليس بالضرورة ان يكـون نتيجة ظهور الجماعات غير الرسمية . اذ انه يمكن للادارة الواعية ان توجه نشاط هــذه الجماعات لصالحها واستخدامهـا كركيـزة تنطلق منها لتحقيق اهدافهــا ، وذلــك اذا استطاعت الادارة فهم وتوجيه مثـل هــذه الجماعات . ومثال ذلك انه اذا ساد الشعور لدى اعضاء هذه الجماعات بأن هناك تعارضا بين اهداف المنظمة وأهدافهم الذاتية ، فان انتاجهم تميل الى الانخفاض . اما اذا كان تحقيق اهداف المنظمة سيعمل على تحقيــق اهدافهم الشخصية فان انتاجية الجماعــة سوف تميل الى الارتفاع . وكنتيجة لهذا فان المنظمة سوف تتمكن من تحقيق اهدافها .

وبهذا يمكن القول بأن ظهور الجماعات غير الرسمية ونموهــا ، ليس بالضرورة اعتباره مرضا يؤثر على حركة المنظمة او مسيرتها نحو

تحقيق اهدافها ، اذا ما اتجهت الادارة الى فهم طبيعة وسلوك ورغبات او اهداف هذه الجماعات ، ثم محاولة تحقيق هذه الاهداف وجعلها مرتبطة ومتصلة باهداف المنظمة .

الحاجة الى التقدير : بعد أن يشبع الانسان حاجته بالانتماء الى الجماعة يتجه محاولا اشباع الحاجة الى التقدير . هذه الحاجة تضم هدفين للانسان :

١ ـ حاجته الى الاعتزاز بنفسه ، وقيمته واعتباره كعضو في جماعة (Self-esteem) وتشير هذه الحاجة او الرغبة الى الثقة بالنفس (Self-Competence) واستقلال الشخصية (Autonomy) والكفاءة او المقدرة الذاتية (Competence) في الانجاز .

٢ ـ حاجة الانسان الى الشهرة او السمعة الطيبة أو المكانة المرموقة (One's reputation) وتتمثل فى احقية الانسان فى ان ينال من الجماعة تفضيلا أو تمييزا عن غيره لخدمات اداها او مساهمة قام بها (Recognition) كذلك تشير هذه الحاجة الى رغبة الانسان فى تحقيق منزلة معينة أو مرتبة مرموقة لدى الجماعة (Status) أو تقدير معين لنشاطه وانجازاته (Appreciation) .

وموجز القول أن الحاجة الى التقدير تتمثل فى رغبة الانسان في ان يرى صورة ما يجول في نفسه ، متمثلة فى اعتراف وتقدير الجماعة لها . ويمكن اجمال حاجة الانسان اليها فى تحقيق امرين (١) احترام الجماعة للانسان ، ومكانته لديها لاعمال اداها أو خدمات ساهم فى انجازها Prestige (٢) القوة التى يملكها الانسان فى شخصيته أو لقدراته العلمية أو الفنية او العملية (Power)

ويسعى الافراد لاشباع هذه الرغبة او الحاجة بطرق مختلفة . فقد يسلك الانسان طريق اداء خدمات مرموقة او انجازات ذاتية لتكون رمزا ماديا لاجتذاب الآخرين الى احترامه وتقديره ، وقد يحاول آخر تحقيق منجزات فردية (Personal Achievement) كالوصول الى أعلى درجات العلم والمعرفة ، كوسيلة للوصول الى مركز او مكانة مرموقة في المجتمع الذى يعيش او يعمل فيه .

ومهما تكن اساليب اشباع الحاجة الى التقدير فان حاجة الانسان اليها امر يرتكز على الواقع ، وتؤيده الدلائل ، مع ملاحظة ان بعض الافراد يميلون الى المبالغة Over-emphasis فى تقييم انفسهم . ومن ثم فانه يمكن القول بوجوب ايجاد توازن Balance بين تقييم الفرد لنفسه وتقييم الجماعة له .

ومن نتائج ما تقدم فان تقييم الفرد لذاته قد يرتكز على مستويات مقبولة تتفق واقصى ما يمكن ان يحققه من مكانة او مركز فى المجتمع . وعندما يحقق الفرد ما تطلع اليه طبقا لهذه المستويات فانه يحاول جاهدا المحافظة عليها بدلا من التطلع لتحقيق مستويات أعلى . وذلك هو السبب فى رضاء بعض الافراد عما حققوه من احترام فى المنظمات التى يعملون بها ، على اعتبار انهم وصلوا او حققوا ما كانوا يتطلعون اليه في الماضى (Preconceived Level) اما الافراد غير العاديين (Unreasonable Individuals) فقد يتطلعون لاشباع حاجتهم على المستوى القومى او العالمى غير مراعين لحدود طاقاتهم أو مستويات قدراتهم ، او الظروف المحيطة بهم ، ولا شك أن نتيجة هذه الحالة هى الخيبة والفشل .

الحاجة الى الانجاز : تدل الدراسات التى تمت على ان هذه الحاجة تمثل صعوبة عند محاولة فهمها او التعرف عليها او تحديد آثارها ، بسبب أن الانسان يحاول اشباعها بطرق ووسائل متعددة . وقد ركزت الابحاث الحديثة اهتمامها على نوعين من الغايات

الانسانية التي تتدرج تحت الحاجة الى الانجاز ، الاول ويتمثل في الشعور او تحقيق الاحساس بالكفاءة (Competence) والثاني يشير الى محاولة الانسان احراز تقدم ملموس في مجال معين من المجالات .

وتتمثل هذه الكفاءة في قدرة الانسان في السيطرة على عوامل البيئة التي يعيش فيها سواء كانت مادية او اجتماعية . ويبدو ان الافراد الذين يحاولون اشباع هذه الرغبة لا يستطيعون انتظار حدوث عوامل اشباعها ، بل انهم يحاولون تطويع جميع الامكانيات المحيطة بهم لتحقيق هدفهم .

ويتضح مما تقدم ان هناك علاقة وثيقة الصلة بين شعور الفرد بالكفاءة ودرجة توقعة لاشباعها : فنجاح الانسان في ماضيه هو الذي يحدد توقعات نجاحه او فشله في كفاءته في مستقبله . فيتسم الشعور بالكفاءة بالقوة عندما تكون مجالات نجاحه في الماضي اكثر من مجالات فشله . ومن ثم تصبح نظرة الانسان الى الحياة اكثر ايجابية (A Positive outlook toward life) ويرى في كل مشكلة جديدة تحديا ممتعا لكفاءته في التغلب عليها . وبالرغم من ان الحاجة الى الشعور بالكفاءة تظهر وتنمو مبكرا في حياة الانسان ، الا انه ليس من الضروري أن تصاحبه طوال حياته . فقد دلت بعض الدراسات على ان نجاح الفرد مرة اوعدة مرات ، رغم توقعه للفشل ، غالبا ما يدعم شعوره بالكفاءة ، ويدفعه هذا النجاح الى احراز الكثير منها . وعند تكرار ذلك يتحول شعور الانسان الى اعتقاده بامكانية التنبؤ بامكان نجاحه واشباع حاجته الى الكفاءة ، وغالبا ما يكون عامل السن (Age) ذا اثر على امكانية النجاح . اذ للانسان طاقة معينة ومحددة ، يستطيع معها توقع نجاحه اوفشله في مجالات الحياة المختلفة .

ويعتبر العمل احد المجالات الرائدة التي تمكن الفرد من المواءمة بين قدراته الفنية والعلمية والعملية . ومتطلبات البيئة التي يعيش أو يعمل بها ، وهي مواءمة تأخذ شكل مباراة تتسم بالتحدي والاصرار ، ولا شك في ان الاعمال التي تعطي الانسان الفرصة للدخول في مثل هذه المباراة تسمح له باشباع حاجته الى الكفاءة والتعبير عنها ، هذا بالاضافة الى ما يمكن أن يحصل عليه من حوافز مادية كانت أو ادبية . ولذلك نرى أن الاعمال الروتينية لا تمكن الفرد العامل من الدخول في مجال لاظهار براعته الوظيفية او قدراته العلمية ، وفي هذه الحالة ، يضحى هذا الانسان خاضعا لنظام عمل تظلله رقابة اشرافية محكمة .

الحاجة الى الاحراز : واذا وجهنا النظر الى دراسة وفهم الحاجة الى الاحراز (Achie-vement) فانه يتعين الاشارة الى انها لاتعنى مجرد جهود علمية او فنية او مبتكرة يبذلها الانسان ، بل انها بالاضافة الى ذلك ، تعنى تحقيق ثمرة هذه الجهود ، رغم ماقد يوجد من صعوبات أو عقبات يمكن ان تحول دون احراز هذه الثمرة .

فاذا توافر لدى بعض الافراد الشعور بحاجتهم الى احراز ثمرة معينة فان قوة رغبتهم تدفعهم الى العمل الجاد وبذل الجهود المتواصلة حتى يتحقق لهم اشباعها بدلا من ترك نتائجها للصدفة . وغالبا ما يتميز هؤلاء الافراد بقوة الحاجة مدفوعة بدوافع ايجابية ، وعلى الاخص اذا كان تحقيق الاحراز سيحقق لهم عائدا ماديا او ادبيا . ومع ذلك فان هدف الافراد في هذه الحالة ، تجسم اساسا في احراز الثمرة . بغض النظر عن حجم الحافز أو مقداره ، ونتيجة ذلك ان النقود – باعتبارها حافزا – لا تعتبر بالنسبة لهؤلاء الا مقياسا لادائهم ، وتقييما لجهودهم ومابذلوه.

البيئة كمصدر للدوافع Motivating Environment : يتضح مما سبق أن حاجات الانسان متعددة ، ووسائل اشباعها متباينة ، والدوافع التي تدفع هذه الحاجات الى الحركة

والاشباع مختلفة ، كما أن قوة ودرجة الاشباع تختلف من فرد الى آخر ، والادارة الناجحة هي تلك التي لها قدرة التنبؤ بدوافع الانسان ، وحاجاته واستخدام الحوافز المناسبة في الوقت المناسب .

ولا شك فى ان استخدام الحوافز فى العمل انما يهدف الى استخدام الطاقات البشرية بالشكل الذى يضمن أن العناصر البشرية تعطى كل ما هى قادرة على اعطائه ، اذ ان الدراسات العديدة تعطي الدلائل العلمية الثابتة على أنه كلما ارتفعت كفاءة استخدام الطاقات أو القدرات البشرية ، ارتفع الاداء الانساني (Human Performance) كما أن الحوافز مادية كانت او ادبية ، تساعد على استخدام أفضل لهذه الطاقات ، عن طريق تحريك دوافع الانسان واستخدام طاقاته المعطلة او الكامنة .

وقد اجريت فى احدى قطاعات الصناعة الامريكية دراسات حاول الباحثون الرد على السؤال التالي : ماذا يريد العاملون من أعمالهم (What do workers want from their jobs?) فى هذه الدراسة طلب من طبقة المشرفين Supervisors أن يضعوا انفسهم مكان العاملين لديهم (A worker's shoes) ويعدوا كتابة قائمة بالحاجات التي يعتقدون ان العاملين يتطلعون الى اشباعها من العمل على ان يراعى في ترتيب هذه الحاجات وضعها حسب اهميتها لهم . كما طلب من العاملين ايضا اعداد هذه القائمة ، التي تبين الحاجات التي يتطلعون الى اشباعها من عملهم .

ويصور الجدول الآتي رقم (٢) الحاجات مرتبة حسب اهميتها ، مع مراعاة أن الرقم ١ يعنى الاكثر اهمية والرقم ١٠ يعنى الاقل اهمية

جدول رقم (٢)

ماذا يريد العاملون من أعمالهم ؟

العمال	المشرفون	الحاجات
١	٨	تقدير الادارة للعمل الذى يؤدى
٢	١٠	الشعور او الاحساس الداخلى للعامل
٣	٩	التعاطف وفهم المشاكل الشخصية
٤	٢	الامان والطمأنينة في العمل
٥	١	اجور ممتازة
٦	٥	عمل يثير اهتمام العامل
٧	٣	الترقية والتقدم مع نمو المنظمة
٨	٦	ولاء او اخلاص الادارة للعاملين
٩	٤	طرق وظروف عمل جيدة
١٠	٧	عدالة وحساسية نظام التاديب

ويمكن اعادة ترتيب الحاجات ، بالشكل الذى يبين وجهة نظر المشرف ، ووجهة نظر العامل فى الجدول الآتي (رقم ٣) .

جدول رقم (٣)
ماذا يريد العاملون من اعمالهم ؟

العمال	الحاجة طبقا لاهميتها	المشرفون	الحاجة طبقا لاهميتها
١	تقدير الادارة للعمل الذى يؤدى	١	اجور ممتازة
٢	الشعور الداخلى للعامل	٢	الامان والطمأنينة فى العمل
٣	التعاطف وفهم مشاكل العاملين	٣	الترقية والتقدم الوظيفى
٤	الامان والطمأنينة فى العمل	٤	طرق وظروف عمل جيدة
٥	اجور ممتازة	٥	عمل يثير اهتمام العامل
٦	عمل يثير الاهتمام	٦	ولاء واخلاص الادارة
٧	الترقية والتقدم الوظيفى	٧	عدالة وحساسية نظام التأديب
٨	ولاء واخلاص الادارة	٨	تقدير الادارة للعمل الذى يؤدى
٩	طرق وظروف عمل جيدة	٩	التعاطف وفهم مشاكل العاملين
١٠	عدالة وحساسية نظام التأديب	١٠	الشعور الداخلى للعامل

ويتضح من الجدول السابق رقم (٣) الملاحظات الهامة التالية :

١ ـ أن طبقة المشرفين غالبا ما تعتبر ان الاجور المرتفعة تمثل الحافز الاول لزيادة انتاجية العامل . فان الدوافع الاساسية للعاملين ، تتمثل فى فرص الكسب الاقتصادى ومن ثم فهم يختارون أفضل الظروف التى تضمن ان يكون الكسب المادى هو النتيجة المباشرة لزيادة انتاجيتهم .

٢ ـ ان طبقة المشرفين اضافوا الشعور بالطمأنينة والترقية والتقدم الوظيفى باعتبارها عوامل أو حاجات يتطلع العاملون لاشباعها من عملهم في المنظمات العاملة . ولاشك في أن الامان والطمأنينة فى العمل (Job Security) اعتبرت فى المرتبة الثانية من الاهمية فى نظرية ماسلو السابق الاشارة اليها. وقد جاء في الجدول السابق ان هذه الحاجة تعتبر من الحاجات او الرغبات الهامة لدى العامل ولو انها ادرجت تحت رقم ٤ بدلا من رقم ٢ طبقا لوجهة نظر طبقة المشرفين .

والترقية قد تعني امرين :

الاول انها تضيف أمانا اكثر وطمأنينة فى نفس الانسان نحو بقائه في الوظيفة .

الثاني انها تعني زيادة فيالاجر او المرتب ، وفى كلتا الحالتين تعتبر الترقية من الحوافز المادية وان كانت تعطي الانسان الاحساس باهميته في المنظمة ، ومن ثم يمكن اعتبارها من الحوافز الادبية .

وقد ادرج العاملون الترقية فى المرتبة السابقة من الاهمية ، وان كانوا قد اعتبروا ان تقدير الادارة لعملهم هو اول ما يتطلعون اليه . ويمكن تفسير ذلك بأن تقدير الادارة لاعمال الانسان ، غالبا ما يؤدى الى ترقيته ومنحه الفرصة للتقدم الوظيفي بالمنظمة .

٣ ــ أدرج العاملون تقدير الادارة للعمــل ، والشعور الداخلي للعامــل تجاه المنظمــة ، والتعاطف وفهم مشاكلهم فى الاهمية القصوى بالنسبة لهم . وهذا يفسر اهمية العــلاقات الانسانية في العمل .

٤ ــ يتضح ايضا من الجدول السابق ان الحاجات التي اعتبرها العاملون مــن اهــم متطلباتهم ، ويتطلعــون الى اشباعهــا ، راى المشرفون انها اقل أهمية من غيرها .وهذا يعني ان بعض المديرين ليس لديهم القدرة او الرغبة فى فهم الحاجات أو الرغبات التي تمثل الاهمية القصوى للعاملين لديهم . وهذا يؤدي الى اختيار الحافز الخطأ او استخدامه فىوقت غير مناسب .

٥ ــ ما زال بعض او اغلب المديرين يعتقدون ان اشباع الحاجات المادية للعاملين من اهــم الحوافز فاعلية لتحقيق الاستخدام الامثــل للطاقات البشرية . وهذا ما يخالفه الواقع في النتائج التي توصلت اليها الدراسة المشــار اليها . ويبدو أن الحافز المادي ، يكون منتجا فى الدول النامية،نظرا لضآلة الاجور وانكماش فرص التقدم .

خلاصة ونتائــج

يتمثل الهــدف من هــذا البحث فى شرح ودراسة وتحليــل الدوافــع والحــوافز ، والتطبيقات الميدانية لها والآثار المترتبة على استخدامها في المنظمات العامة بصفــة عامة وقطاع الخدمات بصفة خاصة .

واستخدام الدوافــع والحــوافز يتطلــب الاجابة على سؤالين هامين :

الاول يتمثل فى الوسائل التي تتمكن المنظمة بمقتضاها اختيار وترغيب الاكفاء من الافراد ، والالتحاق بالوظائف واستمرارهم او بقائهــم عاملين بهــا .

والثاني يدور حول الحوافز المادية والمعنوية التي تتمكن المنظمة من توفيرها للابقــاء على الاكفاء من العاملين ، وكسب ولائهم ورغبتهم فى تحقيق الحد الامثل من الانتاجية .

من خلال الصفحات السابقة نرى انها تؤكد حقائق محددة نوجز اهمها فيما يلي :

(١) ان الانسان طاقة اذا احسن استخدامها تضحي قوة ، واذا وجهت هذه القوة اضحت وسيلة لتحقيق غاية أو غايات . لكن الطاقة الكامنة في الانسان لا تصبح قوة الا بتحريكها او استخدامها ، واذا أحسن توجيه قـــوة الانسان نحو هدف ما فانه فى الغالب يتحقق .

(٢) ان الانسان يختلف عن الآلة ، ويتمثل اهم هذا الاختلاف فى ان الانسان بطبيعتــه مخلوق متغير وغير مستقر ، ومن ثم يصعب التنبؤ بسلوكه او تصرفاته او اتجاهاته .

(٣) ان هناك صعوبة او استحالة في تواجد تماثل بين انسان وآخر فى الطبيعة والسلوك والتصرفات والاتجاهات ، ومن ثم فان ذلك قد ينشىء صعوبة فى المنظمات العاملة نحــو ايجاد التآلف بين الافراد والتناسق فيسلوكهم ، والتقارب بين اتجاهاتهم .

(٤) انه لا توجد حتى الآن وسيلة علمية مؤكدة تتميز بالدقة والسلامة لاستخدامها فى امرين :

الاول يتمثل فى قياس مساهمــة الفرد او

عمق اهتمامه او مقدار ولائه للمنظمة التي يعمل بها .

والثاني يتمثل فى التنبؤ او فى تفسير ما يطرأ على سلوك الانسان او تصرفاته او اتجاهاته من تغيير او تقلب فى المستقبل .

وازاء هذه الحقائق تضحي المهمة شاقة في ادارة الانسان العامل . وتزداد هذه المهمة صعوبة اذا اجتمع هذا الانسان مع غيره من الافراد تحت ادارة واحدة . وتضحي هذه المهمة اكثر تعقيدا كلما ازداد حجم القوى العاملة التي تعمل فى منظمة واحدة او فى مكان واحد . ومن ثم يضحي التوازن حتمي وضروري فى تطوير اساليب الادارة في مجال ادارة الطاقات البشرية عن طريق سياسات تخطيطية تمهد المسيرة نحو تعاون جماعي ، ومساهمة فعالة لضمان تحقيق اهداف المنظمة من خلال تحقيق حاجات الفرد وتطلعاته فى المستقبل .

★ ★ ★

المراجــع

د . منصور احمد منصور ، المبادىء العامة فى ادارة القــوى العاملة . الكويت ـ وكالة المطبوعات ، ١٩٧٣ .

د . منصور احمد منصور ، الدوافع والحوافز فى قطاع الانتاج : دراسة مقارنة . القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية . ١٩٧٤ .

د . منصور احمد منصور ، المبادى العامة فى ادارة القوى الافريقية ، القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية : ١٩٧٤ .

د . منصور احمد منصور ، تطور مفهوم تخطيط القوى العاملة فى الدول المتقدمة (١) القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٧٢ .

د . منصور احمد منصور ، ايكولوجية الادارة العامة . القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٧٢ .

د . منصور احمد منصور ، القوى العاملة : تخطيط وظائفها وتقويم ادائها ، الكويت : جامعة الكويت ١٩٧٥ . (تحت الطبع)

د . منصور احمد منصور ، البحث العلمي واهميته فى مجال الادارة ، مجلة الادارة ، أكتوبر ١٩٧٢ .

د . منصور احمد منصور ، مفهوم الانتاجية بين النظرية والتطبيق ، مجلة الادارة ، ابريل ١٩٧٤ .

د . منصور احمد منصور ، الثورة الادارية بين النظريــة والتطبيق ، مجلة الادارة ، أكتوبر ١٩٧٤ .



عقوبة الاعدام
بين الابقاء والالغاء

عبد الوهاب حومد

من بين المشاكل التي ثار حولها جدل طويل،واصطرعت فيها الفلسفات والعواطف والمعتقدات، مشكلة عقوبة الاعدام . ولعل اصطدام الفكر بواقع المجتمع ، بما فيه من مركب الخوف على نفسه ان يقع الفرد منه ضحية خنجر من شرير ، او رصاصة من دموي ، يغلف النقاش الهادىء بسحب قاتمة ، تجعل البصيرة اقل نفاذاً في بحثها عن الحل الأمثل، في مصطرع التناقضات الاجتماعية .

ومما يزيد في صعوبة اتخاذ قرار ثوري حاسم ، ان البشرية درجت على الرضا بهذه العقوبة ، ومارستها منذ الازل ، وارتاحت اليها ، كوسيلة من وسائل تسكين الحقد الذي يعتمل في نفوس ذوي المقتول ، وطمانة لمن روعتهم الجريمة ، دون أن تنالهم في اشخاصهم ، بان هناك عينا ساهرة على سلامتهم ، هي الدولة ، وسيفها المسلط في يدها على رقاب العابثين باقدارهم العظمى ، يرهب اعداء الله واعداء القانون ..

ولقد عاقبت البشرية انماطا من المجرمين بالموت ، منذ فجر تكوئن المجتمعات الاولى ، اذا لم اغامر بالقول ، منذ تكون المجتمع الاول .. ولا يذهبنَّ بنا الخيال ، الى ان هذه العقوبة كانت قاصرة على القتلة ، الذين يزهقون ارواح الناس . لانها ، فى حقيقتها ، كانت تطال غير القتلة . بل ربما كان اعدام القتلة لم ينشر الا بعد مرحلة طويلة من التطور الحضارى .

فقد عاقبت **مصر الفرعونية** جرائم كثيرة بالاعدام :

عاقبت قتل الحيوانات المقدسة ، والسحر ، وعدم افشاء مؤامرة ضد الفرعون ، والتصريح الكاذب عن الموارد المالية ، وعدم اغاثة من تعرض لهجوم الاشقياء ، فى الطريق ...

ونوعت طرق تنفيذ هذه العقوبة :

فمن قتل اباه ، كان يعدم بغرز قطع حادة من القصب فى جسمه ثم يقطع الجلادون من لحمه قطعا صغيرة بآلة خاصة ، وبعد ذلك يلقى به على كومة من القش ، ويحرق ببطء .. وكانوا يحرقون الزانية ...

وكان يدخل فى سلطة القاضى اختيار طريقة اعدام المجرمين الآخرين ، بين الشنق ، او الاغراق او التقطيع ، او النار ..

ومع الزمن ، خفت حدة الغرائز البدائية ، فادخلوا فى مفهوم المسئولية الجماعية تقييدا أساسيا ، هو ان تنفيذ العقوبة اصبح قاصرا على الفاعل وحده ، وان المراة الزانية ، اصبحت تعاقب بجدع الانف ، لحرمانها من محاسنها التي كانت تغرى بها الرجال لانتهاك حرمة الرباط الزوجى المقدس ...

وينقل احد المؤلفين المعاصرين (١) عن المؤرخ اليونانى هيرودوت "Herodote" « ان الفرعون "Sabacon" » احد مؤسسي الاسرة الخامسة والعشرين (ما بين ٧١٠ ـ ٧٠٣ ق . م.) الغى عقوبة الاعدام ، وابدلها بعقوبة السجن مع تقييد المجرم بالسلاسل ، وتشغيله فى الاعمال العامة . فاذا صحت هذه الرواية ، تكون مصر القديمة ، اول نظام منظّم ، حقق خطوة حاسمة ، لا تزال البشرية فى حيرة امامها حتى اليوم .

وقد اعيدت هذه العقوبة فيما بعد ، واصبحت تطال ، فى عهد مصر البطلموسية وهى الفترة التى تمتد ما بين الغزو الماكيدونى لمصر عام ٣٣٢ ق.م والغزو الرومانى عام ٣٠ ق.م ـ ، كما يتضح من اوراق البردى اليونانية وبعض النقوش ، عدد متزايد من الافعال ، كارتشاء الموظفين ، والتطفيف فى الميزان ، والتعدى على اموال المعابد ..

ولقد اجبرت كليوباترا ، بمرسوم اصدرته عام ٥٠ ق .م. التجار الذين يشترون حبوب مصر الوسطى وخضارها ، بنقلها الى الاسكندرية وعاقبت مخالفي هذا المرسوم بالاعدام .

وفي ظل الحضارة الرائعة التي ازدهرت فى **بلاد ما بين النهرين** ، وضعت قوانين متكاملة ، من اعظمها ، قانون **حمورابي** عام ١٧٠٠ ق .م ، الذى يعكس في مواده الجميلة نضوجا فكريا خصبا .. واذا كان هذا التشريع البابلي ، يعاقب افعالا كثيرة بالاعدام ، كالسرقات الكبرى ، واخفاء المسروقات ، التي استلبت بواسطة العنف ، وازالة الوشم عن وجه العبد لاخفائه عن مالكه ، والقتل ، وزنا المراة واغتصابها ، والشهادة الزور فى جريمة القتل ، والبلاغ الكاذب عن ارتكاب جريمة قتل

(١) Jean Imbert, la peine de mort, P.U.F. P. 15

مكذوبة ، ومحالة التهرب من اداء الخدمة العسكرية ، فانه امتاز بثلاث ميزات مدهشة :ـ

الأولى : ـ انه قلص الجرائم الدينية كثيرا حتى اصبحت قاصرة على جريمتي السحر ، وانحراف الراهبة التي ترتاد الملاهي ..

والثانية : ـ انه اشترط وجود العمد فى القتل ، ليستحق القاتل الاعدام . فقد نص فى المادتين ٢٠٧ ، ٢٠٨ على انه : ـ

« اذا تسبب الضرب بموت الضحية ، واقسم الفاعل بانى لم اضربه عن قصد ، فانه يدفع ثلاثين مثقالا من الفضة »"Sicles" (٢) ، اذا كان المقتول مواطنا ، وعشرين مثقالا اذا كان المقتول لا يتمتع بالمواطنية mesquin ...

والثالثة : ـ انه الغى صيغة المماثلة ، (La talion) الا في حالة واحدة ، هي حينما يأخذ الدائن ولد المدين رهينة لسداد دينه ، ويعامله معاملة قاسية ، فيموت من جرائها ، فان ولد هذا الدائن هو الذى يعدم.

وكان الاعدام ينفذ بطرق شتى ، كالشنق والقتل بالسيف ، والاغراق والحرق . يضاف الى ذلك طريقة جديدة ، هي الخازوق ، وكانت المراة التي تقتل زوجها او تشترك فى قتله تعدم بهذه الطريقة الرهيبة .

وقد تأثرت بهذا التشريع بعض الدول المجاورة ، ويذهب بعض الباحثين الى ان العبرانيين استقوا كثيرا من مبادئه . وليس هذا بغريب ، فقد كان ابراهيم الخليل يعيش فى أور ، احدى بلاد تلك الدولة قبل مهاجرته الى العرب ، وحين بدأ التقنين اليهودى بالظهور ، كان التشريع البابلي يجتاز قرنه الثامن .

وقد عرف **التشريع اليهودى القديم المسئولية الجماعية** ، ففى سفر التكوين ، **(الاصحاح الرابع والثلاثين ، الآية ٢٦ ـ ٢٧)** ، ان Sichem ابن Hémor خطف امراة تدعى Dina . واغتصبها ، ولكنه اعلن انه يريد ان يتزوجها . غير ان اخوتها قتلوا الخاطف واباه انتقاما لشرف اختهم الملوث ..

وحين قوى ساعد السلطة المركزية ،بدأت تفرض عدالتها ، محل العدالة الفردية ؛ واصبحت العقوبة تتجه الى الفاعل وحده . ففي سفر الـ Deutéronome ، الاصحاح الرابع والعشرين الآية ١٦ :

« ولا يعاقب الاولاد بالموت بدلا منآبائهم » ، « ولايعاقب بالموت الا من ارتكب خطأ شخصيا»

ولكن ولي الدم هو الذى ينفذ العقوبة فى جريمة القتل ... اما فى الجرائم العامة ، فان الاعدام كان سخيا جدا .. فقد كان يعاقب بالاعدام السحرة ، وعبدة الأوثان والمرتدون ، والذين يحقرون الرب ، وكان يعاقب بالاعدام كل يهودى يشتغل يوم السبت « لأن اليوم السابع سيكون يوم راحة كاملة مكرسة ليهوه » EXODE XXX, 15

ويقتل الزاني، والزانية ايضا ، وتعاقب بالاعدام كل فتاة تخفي عن زوجها انها ليست عذراء ، ويعدم مرتكبو الاتصال الجنسي بالمحرمات ، واللواط واتيان الحيوانات ...

ولكن الجرائم الاقتصادية والجرائم الموجهة ضد الملكية لم تكن معاقبة بالاعدام .. ومما يلفت النظر ان تنفيذ الاعدام ، كان يتم بالرجم بالحجارة ، فى جميع الجرائم . وكانوا يعللون ذلك ، بأن الحكم يصدر عن القضاة ، ولكن

---

(٢) فى لاروس انسيكلوبيديك ، انه يبدو ان كلمة« Sicle عبرية ، وهو يزن عند العبريين » ١١ غراما وكسور « وعند البابليين ٨٫٤٠ غرامات .

الشعب كله هو الذى ينفذه . واول من يبدأ بالرجم ، شهود الاثبات ، ثم يليهم الحاضرون حتى الموت ، وبعد ذلك تعلق الجثة على شجرة طيلة النهار ، ولكن يجب دفنها قبل حلول الليل .

ولم تكن طريقة التنفيذ بالنار مطبقة شرعا الا فى حالتين : تعهر ابنة الكاهن ، والاتصال الجنسي بالأم أو الأخت .

وعرف المجتمع العربى الجاهلي عقوبة الاعدام وطبقها ، بطريق العرف الذى كان ينظم علاقات الافراد ، وتوارثوه كابرا عن كابر ،دون ان يكون للتشريع اليهودى او النصراني اى اثر فى تكوينه او تعديله . ذلك ان اليهود الذين فروا من بلاد الشام ، خوفا من مجازر الروم ، لاجئين الى الجزيرة العربية ، لم يكونوا من الكثرة بحيث يستطيعون ان يؤثروا فى عقلية الناس . وقد اعتمد بعض المستشرقين على دراسة اسماء يهود الحجاز ، وواقعهم الاجتماعي ، وقرروا انها اسماء عربية خالصة ، وان المستوى الاجتماعي لم يكن يختلف عن مستوى سائر سكان الجزيرة ، وانهم كانوا يتزوجون منهم ، ويزوجونهم ، دون تحرج ، واستنتجوا من كل ذلك ، ان غالبية يهود الجزيرة العربية ، هم قبائل عربية ، تهودت (٢) .

وكان للنصرانية مستعمرات مبعثرة على حدود الجزيرة الشمالية ، تسللت اليها من اتصال الحجاز بفلسطين ، كما كان لها بعض الاتباع فى اليمن ، تأثرا بالنصرانية الحبشية . .

ولكن العادات والتقاليد العربية الراسخة ، هي التي كانت تحكم الجزيرة واهلها ، ولم يكن يسيرا على جماعة غافلة ، مغلقة الابواب والبصائر على التيارات الفكرية الاجنبية ، ان تغير او تبدل من مفاهيمها الأزلية . .

وقد اشار الى ذلك تعالى بقوله : وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الاقال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على اثارهم مقتدون »

(الزخرف ، الآية ٢٣) .

ولم يكن للعرب دولة موحدة ، تضع لهم القانون ، وتنفذ فيهم العقوبات . . . لانهم كانوا مجموعة من المجتمعات المتموجة ، الفت احكام الطاغوت ، ونهاها الله عنه ، عندما بزغ عليها فجر عهد جديد ، جاء ينقذهم من الضلالة الى الهدى فى دنياهم ودينهم ، ويضع لهم قواعد للسلوك القويم ، على اساس من التساند الاجتماعي والتمسك بنظام الشرع ، عقيدة وسلوكا . . فقال تعالى :

« يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت ، وقد امروا ان يكفروا به » (النساء آية ٦٠)

والطاغوت هذا هو حكم العرف ، الذى كانت العدالة فيه تقوم على الثار على اساس من مسئولية جماعية قبيحة ، وكان للكاهن والعارفة دور كبير فى اقامة البينة وتقرير العقاب . .

والظاهر ان عقوبة الاعدام لم تكن منتشرة عندهم ، لفقدان التنظيم الدولى .

فقد كان من حق الأب ان يقتل أولاده الذكور ، ويئد بناته . . وفى ذلك يقول الله : «قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم» (الانعام ١٤٠) .

ويقول : ـ « واذا الموؤودة سئلت : بأى ذنب قتلت » (التكوير الآيتان ٨ و ٩) .

واذا وقع قتل بين اثنين من عشيرة واحدة ، او من عشيرتين مختلفتين ، كان من حق ولي

---

(٢) جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٦ ،القسم الدينى ص ١ ـ ٥٠ و « Margolioth ص ٦١ .

الدم ان يثأر فى الحال ، او فى خلال ايام قليلة فان وفق يكون الموضوع قد صفى ، والا تدخل الحكماء لبذل المساعي الحميدة ، وانتهى الامر اما بتسليم القاتل للاقتصاص منه ، او لدفع دية ، وهذا هو الغالب . وكان تسليم القاتل الى اهل المقتول معروفا لدى الرومان ، وكانوا يسمونه « Noxae Diditio » .

ولم تكن السرقات الكبرى معاقبة ، وهـي المتمثلة في الغزو ، بل كانت موضع تفاخر وتباه ، والدهر قلّب فيهم ، والحرب سجال :

فيقومٌ علينا ، ويوم لنا : ويوم نُسَاءُ ويومٌ نسر .

ولكن الجريمة التي كانت ، دون ريب ، معاقبة بالاعدام عندهم ، هي جريمة الزنا ، خوفا من اختلاط الانساب ، ودفاعا عن الشرف والسمعة ...

والى هذا اشار المؤرخ اليوناني سترابون فى حديثه عن العرب .. ولكن الاهل هم الذين ينفذونها ، غير انهم لم يكونوا مجبرين على ذلك .

وجاءت الشريعة الاسلامية ، بقواعدها الجديدة ، ونصت على عقوبة الاعدام فى بعض الجرائم ، بصورة حصرية ، وهي :

١ ـ جريمة القتل العمد : ـ

وعقوبتها الاعدام ، الا اذا عفا ولي الدم . وسند هذه العقوبة ، قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى ، فمن عفى له من أخيه شيء ، فاتباع بالمعروف ، واداء اليه باحسان » .

(البقرة آية ١٧٨)

وفي الحديث : ـ

« من قتل له قتيل ، فهو بخير النظرين ، اما ان يفتدى واما ان يقتل » .

٢ ـ الحرابة : ـ وهي قطع الطريق ، قال تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الارض فسادا ، ان يقتلوا او يصلبوا ، او تقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف ، او ينفوا من الارض .... » . (٤) (المائدة آية ٣٣) .

٣ ـ الردة : وهي الخروج من الاسلام بعد أن كان فيه .

والاجماع على ان المرتد يقتل . واختلف الفقهاء فى امر المرأة المرتدة . ويرى ابو حنيفة انها لا تقتل ، ولكن تحبس حتى تتوب .

ولم يرد فى القرآن الكريم نص على قتل المرتد . فقد قال تعالى : ـ

« ومن يرتدد منكم عن دينه ، فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » .

(البقرة آية ٢١٧)

ولكن روى عن رسول الله قوله : ـ من بدل دينه فاقتلوه ...

---

(٤) اختلف الفقهاء المسلمون فى تفسير هذه الآية .

فذهب فريق ، منهم الكاساني فى البدائع ج ٧ ص ٩٤ ، الى ان حرف او للتنويع ، وهو مذهب ابن عباس ، اي انهم يقتلون ويصلبون اذا قتلوا وسرقوا المال ، ويقتلون اذا قتلوا ولا يصلبون اذا لم يسرقوا المال .

وذهب فريق اخر الى ان النص يخير القاضي بين احدى العقوبات ويفوض اليه الامر فى كل على حدة . وعلى راس الفريق مالك رضي الله عنه .

وفي الراجح من المذاهب، ان المرتد يستتاب ثلاثة أيام (ابو حنيفة ,ومالك واحد قولين للشافعي) .

ويرى علي أن يستتاب شهرا . ولكن ابن حنبل وقولا اخر للشافعي : « انه يقتل دون استتابة » .

٤ ـ البغي : وهو خروج المسلمين على الامام بتأويل سائغ ، ولهم منعة وشوكة .

والبغاة هم المجرمون السياسيون فى الشريعة الاسلامية ، ونقول هم الثوار الذين ثاروا على الامام الجائر فخرجوا عليه يقاتلونه لخلعه .

وقد يكونون مخطئين فى اجتهادهم .. لذلك جاز للامام ان يقاتلهم في ارض المعركة ، اذا بدأوه ولم يقاتل علي الخوارج ، الا بعد ان قتلوا عبد الله بن خباب ، وامتنعوا عن تسليم قاتله .

فاذا انحسرت المعركة عن فرار البغاة ، فانه لا يجوز قتال المدبر منهم ، ولا من القى سلاحه ولا من اغلق بابه ، ,ولا يقتل اسيرهم ولا جريحهم وتعاد اليهم اموالهم ، لانها ليست غنائم .

٥ ـ وتبقى لنا كلمة فى جريمة الزنا .

فهل يقتل الزاني والزانية رجما بالحجارة ؟ هذا ما لم يرد عليه نص في القرآن . ولكن رسول الله امر برجم ماعز والغامدية مرة ، ولم يأمر برجم شخص آخر ، جاءه بعد ايام يعترف بالزنا ، فسأله رسول الله هل توضأت وصليت معنا ؟ قال نعم : قال اذهب فقد غفر الله لك . (٥)

وقد اخذ قانون معاقبة الزنا الليبي ، الذى صدر مؤخرا ، فى المادة الثانية الفقرة الاولى ، بعقوبة الجلد مئة جلدة ، ولم يأخذ بعقوبة الرجم .

وقد عرفت اوروبا القديمة ، منذ اقدم الازمان ، عقوبة الاعدام ، وطبقتها بسخاء منقطع النظر ، تارة دفاعا عن المجتمع واخرى عن الملك ، وثالثة عن الدين . وان المرء ليشعر بقشعريرة تخترق جسده وهو يذكر محاكم التفتيش التي ذهب ضحيتها مئات الالوف من المسلمين فى الاندلس ، وجنوب فرنسا ، بسبب تمسكهم بعقيدتهم ، فى حين انه فى ظلال حكمهم السمح جدد ابن ميمون الديانة اليهودية فى عاصمة الملك قرطبة ، وفى اروقة جامعاتهم ، تخرج البابوات ورجال الاكليروس والعلماء الذين اصبحوا مصابيح هدى لتبديد ظلمات الفكر المتخلف فى اوروبا المسيحية .

وكانت طرق تنفيذهاتدل على سادية لا مثيل لها ، كالاحراق بالنار ، والتقطيع والرجم ، والدفن حيا فى كفن من الشوك .. وقد يمدون للمحكوم عليه ، فى حفرته ، انبوبا رفيعا يتنفس منه بصعوبة ، امعانا في تعذيبه .

وعلى الرغم من قوافل الملايين من الذين اعدموا ، على مر مئات القرون من السنين ، لا تزال البشرية ، فى كثير من بقاع الارض ، تطبق هذه العقوبة . فهل فشلت هذه العقوبة في القضاء على الجريمة ، وردع المجرمين ، بدليل ان جرائم القتل وغيرها من الجرائم الكبرى ، لا تزال تروع مجتمعات اليوم متقدمها ومتخلفها وبالتالي ، فلا مبرر لاستمرارها ؟ ام انها عقوبة لا غنى عنها ، للابقاء على كيان المجتمعات والدفاع عن سلامةالافراد وبدونها يكون الوضع ادهى وأمر ؟

---

(٥) هذا ما ذكره الاستاذ علي حسب الله فى محاضرة له القاها فى جامعة الكويت عام ١٩٦٨ ، منشورة فى الموسم الثقافى لهذه الجامعة ١٩٦٨/١٩٦٩ ص ١٤٧ .

هذا هو السؤال الصعب الذى انكبت ، للاجابة عليه ، ادمغة كبيرة ، استقرأت الوقائع وسبرت اغوار النفس البشرية ، واتخذت لها موقعا محددا من هذه العقوبة . فذهبت جمهرة الى المطالبة بالغائها ، وقال فريق آخر بابقائها . وحارت جماعة بين هذا وتلك ...

والموضوع اليوم مطروح على رجال القانون ، وعلى غيرهم من المفكرين ورجال السياسة وافراد الشعب .. كما هو مطروح على الحكومات ايضا .

ومن الدول التي اهتمت بهذا الموضوع **انجلترا** التي شكلت « اللجنة الملكية لدراسة عقوبة الموت » عام ١٩٤٩ ، وظلت تعمل خلال اربع سنوات حتى عام ١٩٥٣،وتقدمت بتقرير اكتسب شهرة واسعة . وشكلت حكومة المانيا الاتحاديةلجنة خاصة لاصلاح التشريع الجزائي كان نصيب الدراسة المخصصة منه لعقوبة الاعدام ، مجلدا ضخما صدر عام ١٩٥٩ . وشكلت **كندا والولايات المتحدة** لجانا مماثلة وانكب فقهاء **الاتحاد السوفيتي** بدورهم على دراسة الموضوع ، فى اعوام ١٩٥٤ ، ١٩٦٠ من خلال العمل على اصلاح التشريع الجزائي. وعقدت فى **فرنسا** عدة مؤتمرات عام ١٩٦١ لتقريب وجهات النظر المتباينة حول هذا الموضوع الخطير ..

وقبل ذلك جرت فى فرنسا عدة محاولات لالغاء هذه العقوبة منها عدة مشاريع قوانين تقدم بها نواب فى الجمعية الوطنية فى اعقاب حرب ١٩١٤ وحرب ١٩٣٩ ، ولكنها كلها بقيت دون نتيجة .

وفى السنوات الاخيرة نشاهد تصعيدا خاصا لدراسة هذه القضية ومن ابرز مظاهرها ، اهتمام الجمعية العامة للامم المتحدة ، فقد قررت في نوفمبر ١٩٥٩ تكليف المجلس الاجتماعى والاقتصادى اتخاذ الاجراءات التي يراها ضرورية لدراسة مسالة عقوبة الاعدام ، ونتائج الغائها . وقد قرر هذا المجلس القيام بدراسة تعرض بعد ذلك على لجنة استشارية خاصة من الخبراء والمختصين فى الوقاية من الجريمة ومعاملة المذنبين ، لدى اجتماعها في شهر ابريل سنة ١٩٦٣ .

ومن الذين تقدموا بتقارير هامة حول الموضوع مستشار النقض الفرنسى انسل "Ancel" الذى قدم تقريره عام ١٩٦٢(٦) .

والاستاذ نورڤال موريس "Norval Morris" مدير مركز الدراسات الجنائية فى جامعة شيكاغو ، عام ١٩٦٨ ، (٧) .

ولكن لم يتخذ قرار فى الموضوع من جانب الامم المتحدة ، فهو اذن لا يزال مطروحا للبحث . ولكن المادتين ٤و٥ من ميثاق الامم المتحدة تمنعان بصراحة تطبيق عقوبات قاسية او وحشية او محطة بالكرامة الانسانية » .

ولكن مجال تفسير هذه الالفاظ واسع . على انه توجد ظاهرة تستأهل أن اسجلها الآن ، وهي تقهقر عدد الحالات التى تعاقب بالموت :

فقد كان عدد الجرائم التى تعاقب بالموت في انجلترا منذ قرن ونصف القرن ٢٠٠جريمة بينها بعض السرقات العادية(٨) وكان عددها فى فرنسا فى ظل الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ،

---

(٦) وزع التقرير برقم ST / SOA / S D 19

(٧) وزع التقرير برقم ST / SOA / SD / 10

(٨) انظر Zalaric ص ١٤

١١٥ جريمة ، خفضت الى ٣٢ جريمة فقط بقانون العقوبات الصادر عام ١٧٩١ .

والمدهش ان الجمعية الوطنية المعروفة باسم "La convention" كانت صوتت فى ذلك الوقت على الغاء الاعدام ولكنها حانت ، وظلت العقوبة باقية .

وقد كان احد القضاة الالمان فى القرن السابع عشر واسمه "Cartzow" يفاخر بانه اصدر خلال ٤٠ عاما من توليه القضاء عشرين الف حكم بالاعدام(٩) .

ولكن الانظمة الدكتاتورية فى النصف الاول من القرن الحالي جاءت كارثة عظمى على التطور الالغائى .

ونحن اليوم نشهد صراعا شديدا بين تيارين ، تيار يتمسك بعقوبة الاعدام ويتشبث بها ، لانها ، فى فلسفته ومفاهيمه ، السلاح الذى يرهب به المجتمع أعداءه الشريرين من القتلة والخونة وخاطفى الاطفال ، وتيار يقابل التيار الاول ، ويقارعه حجة بحجة ، وينتهى الى المطالبة بالغاء هذه العقوبة .

ومن الامانة أن ألاحظ أنه لم تقم فى البلاد العربية ، من أقصاها الى أقصاها ، حركة جدية ، تهدف الى تغيير الواقع ، الذى ألفناه ، ونمنا على هدهدته ، ووقفنا نرصد الصراع الفكرى ، لدى غيرنا دون أن يتاح لنا أن ندلى بدلونا في الدلاء ...

أنام ملء جفونى عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

فما هى حجج الابقائيين والالغائيين ؟

انى أود ، فيما يلى ، ان اعرض حجج الفريقين ، ليستطيع كل منا أن يكون لنفسه عقيدته الخاصة ، مدعمة بالحجج والمنطق ، وليس بمجرد العاطفة التى تستمد كيانها من المألوف ، الذى آن لنا أن نعمل على هزه من سباته .

١ ـ التيار الابقائى :

يقول أنصار الحفاظ على عقوبة الاعدام ، انها ضرورية للحفاظ على سلامة الجماعة وامنهم ، ويسوقون لدعم رأيهم ، الحجج التالية :

أ ـ هذه العقوبة ظفرت بتأييد عدد من المفكرين الكبار ، مثل جان جاك روسو ، الذى فلسفها بنظريته الشهيرة عن العقد الاجتماعى . فالفرد الذى قبل ، مختارا بعقد يبرمه مع المجتمع ، أن يتخلى عن الانتقام الفردى ، مقابل حماية المجتمع له ، يكون قد قبل سلفا بالتخلى عن حياته ، فيما اذا فصم هذا العقد ، واعتدى على حياة شخص آخر ، وقبلها **لمبروز وغارفالو** وهما من زعماء المدرسة الوضعية ، لتخليص المجتمع من رجل لمبروز الشهير ، وهو المجرم بالفطرة . ويأتى على رأى قافلة المؤيدين المعاصرين ، كبار أساتذة القانون الجنائى الفرنسى مثل **غارو وغارسون ودونديودوفابر** .

ب ـ **انها عقوبة تكفيرية** ، بمعنى ان الذى قتل آخر فى ظروف فظيعة وحرمه من حياته ، بدون وجه حق ، يجب أن يُكفّر بدمه عن خطيئته .

فهى اذن **عقوبة عادلة** ، يتساوى فيها تماما ، الاذى الذى أوقعه المجرم بحياة قتيله ، بالاذى الذى تعرضت له حياته هو . وحياتان تتساويان أمام القانون ، وفي مفاهيم الناس ، الذين يقولون : « يداك أوكتا وفوك نفخ » .

---

(٩) الاستاذ محمد عبدالله محمد ، بسائط علم العقاب ص ٣٦

جـ ـ **انها عقوبة مخيفة** ، يهلع من هولها قلب من تسول له نفسه هز دعائم المجتمع الآمن ، فليس أمرا بسيطا أن يعرف القاتل ما ينتظره من حبل يجز عنقه ، ويحرمه من احبابه وذويه ، كما حرم ضحيته من نعمائها واحبائها (١٠) .

ثم انها تخيف الآخرين ، الذين يشهدون تنفيذ الاعدام أو تبلغهم أنباؤه . فاذا نفذت احكام الاعدام على فترات متقاربة ، بقيت العظة ماثلة فى كل نفس ..

د ـ ولماذا تلغى عقوبة الاعدام ، ولم يقم دليل قاطع على أن الغاءها قد ساعد على انخفاض الخط البيانى للاجرام ، أو حتى على الاقل ، الحفاظ على مستوى الاجرام ؟

يقول انصارها : هاتوا احصاءاتكم ، فان كانت مقنعة ، فاننا سننحاز الى رأيكم ، اما ان نغامر بقذفه فى المجهول ، ونعرض كيان الامة الى اخطار غير متوقعة ، فهذا أمر لايمكن أن يقبله رأى حصيف .

هـ ـ هذه العقوبة ، هى الوسيلة الوحيدة للقضاء على شرير خطر ، يهدد المجتمع واهله بشر مستطير . وكل عقوبة أخرى ، لا يمكن ان تكون ناجعة حياله .

هل نحكم عليه بالحبس المؤبد ، كعقوبة بديلة ؟ حسنا ولكن لم يحدث ، الا نادرا ، أن يبقى مجرم سجينا طيلة حياته .. فهو يحلم تارة بالهرب ، أو بقانون عفو شامل ، أو مرسوم عفو خاص .. يقصر مدة سجنه ، ثم يجد نفسه حرا ، خارج القضبان ، يزرع الذعر والهلع في الناس .

ومن ذكرياتي ،أنني عملت مرة علىاستبدال عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة بالاعدام ، لشقيقين ، كانا يستحقان فى نظرى هذا الابدال ، ولكن لم تمض الا سنوات لم تبلغ العشر ، حتى كانا طليقين ينعمان بالحرية . الا اننى لم أسمع عن معاودتهما مقارفة الاجرام .

ولو فرضنا جدلا ، يقول أصحاب هذا الراى ، أن المحكوم عليه بقى فى زنزانته طيلة حياته ، فانه سيكون فى غاية التعاسة ، لا ينفعه ان يحسن سلوكه ، أو يبذل جهده

---

(١٠) نقل الاب Vernet هذه الاقوال عن محكوم عليه بالاعدام :
« لقد طال انتظاري شهورا ، لذلك فانا اعيش فى جحيم ..
وفى كل صباح أنظر لارى هل نصبت لي المشنقة ام لا ، ولكنى لا اجدها ..
وفى كل صباح يجتاحني قلق اشعر به كانه يضغط على حنجرتى ويجعلنى ارتجف ..
ان شعورى باننى سوف اعدم يكاد يمزقنى ...
ومع ذلك ، فان الاوهام تراودني احيانا ...
انى اعترف بانه لولا الكاهن الى جانبى يعطينى القوة ،لكنت قتلت نفسى لاتخلص من هذه الصباحات المشئومة ».
ونقل عن محكوم آخر قوله :
« بصراحة انى اريد ان اعدم ..
فمنذ احد عشر عاما ، لم ألتق كلمة من والدى ، فهلتراه صفح عنى .. ؟
وولدى ، حين يحدثونه عنى ، يرفض الاعتراف بى ..
وزوجتى تزوجت .. وبذلك تهدمت الاسرة ..
أليس هذا عقابا كافيا ؟
ان الرغبة فى الحياة لا تزال تنقصنى .... » .

لاعادة تأهيله ، مادام سيظل قابعا فى مكانه حتى الموت ... انها حياة عذاب نفسى لا يطاق، لانهـا لا يلوح على آفاقهـا طيف من اطيـاف الفرج ..

و ــ ان الرأى العام قد الفها ، واطمأن اليها . والبحث فى الغائها سيثير أعصابه ، ويجسد له المخاطر . فلماذا نقلب قواعد حياتنا القانونية ، من أجل عدد ضئيل من القتلة والاشرار ؟

ولقد رأيت أن احاور طلابى وطالباتى من السنة الرابعة حول هذه العقوبة ، فاستفتيتهم فى ابقائها أو الغائها ، فكانت النتيجة مذهلة :

طالب واحد من بين جميع الطلبة قال بالالغاء ، وأجمع الآخرون على الابقاء .

أما الطالبات ، فكن ، باجماعهن ، مع الابقاء ...

ز ــ ويضيفون حجة ذات طابع مالى الى حججهم ، فيقولون : لماذا نحتجز سفاكا سنين طويلة ،ويتكبد المجتمع نفقات حراسته واطعامه ، دون هدف ، كهدف اصلاحه مثلا ؟ أليس من حق دافعى الضرائب ، أن يطالبوا بتوجيه هذا المبلغ ، الى جهة يكون نافعا فيها ؟

ولكنى اود أن اعلق على هذه الحجة ، بان حياة الفرد تظل دوما أثمن من المال ، ولن يعجز الدولة اطعام عدد قليل من الناس ، دفاعا عن مبادىء عليا ، ويمكنها أن تشغلهم مقابل ذلك .

ح ــ ولهم ، فوق ذلك ، حجة سياسة . يقولون ، مادام كل نظام سياسى يزعم انه نظام ديموقراطى،اى أنه يخضع لحكم الاكثرية، فان من واجب كل مؤمن بالديموقراطية ، أن يستشير الشعب فى قضية حيوية ، ويخضع الى حكمه الذى تصدره أكثرية . وهم قانعون أن الشعوب اذا استفتيت ، فانها ستقف الى جانب عقوبة الاعدام .

ط ــ لا ريب في أن الفقهاء المسلمين ، سيقولون ، أن عقوبة الاعدام قصاص عن جريمة قتل عمد ، وبعض جرائم غاية فى الخطورة. وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ... » (البقرة آية ١٧٨) .

وقال ، جل من قائل « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا » (الاسراء آية ٣٣) .. وطلب القصاص حق للولى ، ومن حقه أن يعفو ... ويأخذ الدية ..

ولكنه رغب فى العفو بقوله : « وان تعفوا اقرب للتقوى (البقرة آية ٢٣٧) «.. وقوله» .. فمن تصدق به فهو كفارة له « .. (المائدة آية ٤٥) .

ومما يلفت النظر ، هذا التضييق الشديد الذى قيد به **أبو حنيفة** القصاص . فعنده ان القتل بغير المحدد لا يستوجب القصاص ، وانما تؤخذ الدية من القاتل ...

فالقتل بالسم ، وهو من افتك وسائل القتل ، والقتل بالحجر ، وربما بالكهرباء أو الغاز ، لا يستحق القصاص عنده ، مستندا الى رواية أبى داود عن النبى عليه الصلاة والسلام : « الا أن في قتيل خطأ العمد قتيل السوط والحجر مئة من الابل » ..

يضاف الى التضييق آراء عدد من الفقهاء ، بأن القصاص ، لا يقع فى جرائم القتل العمد بين ذوى الارحام ، بشبهة الجزئية ، ولا بين الازواج ، بشبهة الزوجية ، ولا قتل العبد ، بشبهة التملك(١١) ، ولا القتل الواقع فى اثر الرضا . والقتل بالرضا يسقط القصاص عند الحنابلة وأبى حنيفة والصحابيين . واذا رجح هذا الرأى ، فانه يقدم لنا حلا شرعيا لمسألة القتل بدافع الشفقة وهو المسمى بالاوتانازيا ...

٢ ــ التيار الالغائى :

يذهب الذين يطالبون بالغاء عقوبة الاعدام ، الى انها عقوبة لم تثبت جدارتها للبقاء ، ولاخير فيها للمجتمع . ويتناولون حجج الفريق الاول، ويردون عليها، ويدعمون آراءهم بحجججديدة، يرونها كافية لزعزعة البنيان العقابى القديم وتهديمه . ويأتى فى مقدمة مؤيديهم مدرسة الدفاع الاجتماعى الجديد ، على لسان احد رؤسائها المستشار آنسل(١٢) .

وفيما يلى ما يعرضون من الادلة :

أ ــ يقولون ، ان الذى منح الحياة هو الله ، فلا يحق لمخلوق أن ينوب عن الخالق فى انتزاع روح مخلوق آخر . فهى مخالفة للمبادىء الفلسفية العامة .

ولكنا رأينا ان الفقهاء المسلمين مجمعون على أن القصاص ورد النص عليه فى محكم التنزيل قال تعالى « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب » (البقرة آية ١٧٩) .

ب ــ وانها قاسية على الشخص ، مهما كانت وسيلة تنفيذها ؛ لانه لا توجد حتى اليوم وسيلة تحقق موتا فوريا ، ودون الم . وقد كان اليهود يسكرون المحكوم عليه قبل اعدامه ، حتى يقل شعوره بالالم ....

وقد نوعت البشرية وسائل الاعدام ، الى أن استقرت اليوم على المشنقة ،والرصاص ، والجيلوتين،والسيف ، وغرفة الغاز ، والصعق بالكهرباء والخنق . وكلها قاسية واليمة .

ج ــ انها عقوبة غير منطقية ، لانها « قتل منظم » كما يقول بكاريا ، تضفى عليه الدولة الصفة الشرعية . فالمجرم يرتكب جريمته ، ولا يستطيع احد ان يؤكد تحت أى دوافع اندفاعية أو مرضية ارتكبها ، فى حين ان المجتمع يقرر اعدامه ، وينفذه ، وهو بارد العصب ، هادىء النفس . فالدولة حين تعدم شخصا ، فانها لا تمحو آثار جريمته ، وانما تعاود ارتكاب جريمة القتل بنفسها مرة أخرى، وكأنها تكرر مع الشاعر قوله « وداوني » بالتى كانت هى الداء » ...

د ــ انها عقوبة غير مفيدة ، خلافا للزعم القائل بأنها رادعة مانعة .

فلم يثبت أن البلاد التى الغتها قد زادت فيها نسبة الجريمة ،بل ثبت ان دولة النمسا

---

(١١) انظر فى ذلك ، محمد ابو زهرة ، الجريمةوالعقوبة فى الفقة الاسلامى ص ٣٨٠ وما يليها .

(١٢) انظر Revue des science criminelle, 1963 P. 404 Ancel الذى كتب يقول : « اننا نود ان نجيب فورا وبصراحة ، بان مذهبالدفاع الاجتماعى ضد عقوبة الاعدام ... فهو يرفض اسسها الثلاثة : التكفير expiation ومعاقبةالخطا retricution والردع . intimidation

حين أعادتها عام ١٩٣٤ ، لاحظت بصورة مؤكدة أن الاجرام ارتفع فيها كثيرا . قد رأى النائب العــام الاميركي رامســي كلارك Ramsy Clarck أمام اللجنة الفرعية في مجلس الشيوخ الاميركي يوم ١٩٦٨/٧/٢ ، أن هــذه العقوبة « قــد فشلت في أن تكون وسيلة وقاية » وهو رأى للاســتاذ الكبير Th. Sellin استشهد به ــ وطالب بجراة بالغاء عقوبة الاعدام . ومــن أبرز ســوءات هذه العقوبة في نظره ، أنهــا تتقوقع على مفهوم التكفير ، ولكنها لا تسمح بمحاولة اعادة تأهيل المجــرم ، وعنده أنهــا لا تصلح لمجتمع متمــدن ، ارتقت عنده المفاهيم الخلقية والاجتماعية .

هـ ــ وانها **عقوبة ظالمة** ، **لان** القاضي مهما أوتي من المقدرة العامية لا يستطيع هو ، أو أعوانه من أصحاب الاختصاص ، قياس درجة الخطأ ، لانها شيء مستقر في أعماق النفس ، لا يستطيع أن يدركه الا الله سبحانه وتعالى .

والواقع أن التشريعات المعاصرة قد تخلت عن البحث في حــرية الارادة ، واكتفت بفكرة « العادية » ، la normalite وهي تقصــد بذلك ، ان المرء يعتبر مسئولا عن فعله ، اذا كان **يريده ، ويدرك مداه** . فالادراك والارادة هما ركنا المســئولية الجزائية . وليس من شك في انهما من مسائل ما وراء الطبيعة ، metap- hysiques وبهذه الصفة لا يستطيع احــد أن يجــزم بالتحقيق من وجودهما سليمين حين ارتكاب الجريمة ، وان سلامتهما شرط لقيام المساءلة الجزائية .

وهكذا تكون العدالة المطلقة شيئا وهميــا لا وجــود له ، ويكون الحكم بالاعــدام ، من ناحية اقرار المســئولية ، قرارا لا يســتند الى سند اخلاقي صحيح ، ينزهه عن المطاعن .

و ــ وهي **عقوبة غير زاجرة ولا رادعة** . ولو كانت كذلك ، كما يزعم أنصارها ، لوجب أن تكون الجريمة قد انحسرت عن الحياة الاجتماعية منذ آماد بعيدة . والواقع أن الانسانية بدأت تطبيق اعدام المجرمين منذ فجر تاريخها القديم . فلماذا لا تزال موجودة في القوانين حتى اليوم ، لو كانت حقا زاجرة ؟

فقد اعدم **في ايران** ، عام ١٩٧٠ ، على سبيل المثــال ، خمسة وسبعون من مهربي المخدرات ، في سنة واحدة .. ومع ذلك ، بقيت عمليــات التهريب مستمرة ، ولا تزال المشانق فيهــا ، تجتذب أعــدادا متــزايدة من قوافل المحكوم عليهم .

واذكر ، بهذه المناســبة ، انه أعدم **في الكويت** قاتل منــذ ســنتين ، ولم تمض أيام ، حتى قرانا في الصــحف عن جنــاية قتل ثلاثية ، ارتكبها مجرم آخر كان يشهد عملية الاعدام ، ثم راح يعمل سكينه وناره في صديقه وزوجته وطفلهما ... فهل حركت رؤية المشنقة شهيته الى أن يكون بطل حفلة مشئومة ، يستقطب فيها انظار الحشــود ، وهو التــافه الذي لا يثير ، في الحياة ، انتباه احــد ؟ .. اذن يكون الاعــدام في هذه الحال ، محرضا لبعض الشواذ المغرمين بحب الظهور ، والسيئي التقدير ، على ارتكاب افظع الجرائم ، بدلا من أن تكون وسيلة زجر أو ردع ، !.

ز ــ لا يستبعد أن يكون لبعض الاعتبــارات الاجتماعية دور تمييزي شائن فيها . فالوقائع تــدل على ان الغالبية العظمى من المحكوم عليهم بالاعدام من الفقراء البؤساء ، ان لم يكن كلهم . أولا لمــا تتمتع به طبقة اجتماعية دون اخرى من نفوذ توظفه في صالح أبنائها ، وثانيا لان

الاســتعانة بمحامين مشاهير ، وخبراء ماليين ، تثقل كاهل الضعيف ، وتاتى نعمة وبركة على المترفين ...

وتؤكد الدراسات فى أمريكا ، بوجه خاص ، أن مجتمع الزنوج فيها ينال القسط الاكبر من هذه العقوبة ، لان المجتمع الابيض مشبع ضدهم بالافكار السيئة ... وهذا واقع يجب أخذه بعين الاعتبار حين القيام بدراسة جدية . فمنذ عام ١٩٣٠ نفذ حكم الاعدام فى ٢٠٦٦ اسود و ١٧٥١ ابيض ، مع أن السود لا يتجاوزون ثمن السكان !..

٨ ــ وانها لعقوبة خطرة ، اذا وقع فيها خطأ ، فانه غير قابل للتلافى ، في حين أن سائر العقوبات الاخرى ، يمكن أن يتلافى فيها الخطأ . فاذا نفذ حكم الموت فى شخص ، ثم ثبت خطؤه فان الفارط يكون قد فرط . وقد ثبت ، فعلا ، وقوع أخطاء قضائية ، من شأنها أن تجرح الضمير الانسانى .

وأسباب الاخطاء القضائية عديدة :

يقول البعض ، أن المتهم كثيرا ما يعترف ، والاعتراف شهادة المرء على نفسه ، وأنه سيد البينات . فهل تريدون عدلا أكثر من ان يدين المرء نفسه ؟

نعم ، نريد أكثر من ذلك . فقد عرفنا اعترافات شتى ، انتهت بأصحابها الى المشنقة ، ثم ثبت كذبها . ومن ذلك ان شخصا اتهم بقتل امرأة ، و«عولج» فى دائرة الشرطة حتى اعترف بقتلها والقاء جثتها فى النهر ، فاعدم وبعد عامين عادت المرأة الى بيتها ، من زيارة قامت بها الى بعض أقاربها فى منطقة أخرى .

وفي حلب ، اتهم شخص بقتل ثرى والقائه فى بئر ، وتمرست به أكف الضابطة القضائية وعصيها ، حتى أدلى باعترافات كاملة ... وكاد يصعد الى المشنقة ، لولا أن أحد المسئولين ، لم يرتح ضميره الى هذه الاعترافات ، فاستجوب زوجة أحد أصدقاء القتيل ، وعرف منها أن القاتل هو زوجها ، لانه مدين للقتيل بمبلغ كبير ، عجز عن سداده ، وانها عاونته فى نقل الجثة الى البئر .

ويقولون أيضا : كثيرا ما تؤيد الجريمة بشهود عيان ، يحررون ضمائرهم ... فهل تريدون أن ندير ظهورنا لشهادة شهود عدول ؟

أن الشهادة بينة من البينات العديدة ، ويجوز أن تأتى فى المؤخرة من قافلة البينات .. فقد أثبتت الدراسات الجدية الحديثة ، أن كثيرا من الشهادات مضللة ، رغم مظاهر البراءة على أصحابها .. فالشاهد قد يخطىء ، لضعف فى الذاكرة أو فى حاسة الرؤية أو السمع ، وقد يخطىء لاصابته بمرض عصبى ، يثيره منظر الجريمة ، وقد يكون مدفوعا الى الشهادة بمصلحة شخصية ، فيحرف فيها ما شاء له التحريف ، وبذلك يضلل القضاء .. ولعل رجال القانون المدنى يعرفون حقيقة قيمة الشهادة فى العقود ، لذلك فانهم لا يقبلونها الا لاثبات مبلغ صغير من المال .

واذكر اننى ترافعت مرة عن متهم بقتل شرطى ، قال عدة شهود انهم راوه باعينهم وهو واقف أمام باب الجامع يطلق النار من مسدسه عيار ٩ مليمتر ، على رجال الشرطة ، فأصاب شرطيا ، بينما كان واقفا أمام باب المدرسة فقتله .

وكان للمتهم قصة قتل سابقة ، حكم عليه من اجلها ، وقضى مدة عقوبتها . اذن كانت النظرة اليه سيئة ، وكانت القناعة بجرميته مستمدة من ماضيه المشبوه . وجاء الشهود يحملون عن ضمير المحكمة ، عبء اتخاذ قرار حاسم ، بهدف اجتثاث هذه الجرثومة .

وشاءت ارادة الله ، أن أكون عارفا بالمنطقة ، ورحت اتجول فيها . فوجدت انه لم يكن فيها الا جامع واحد ، والا مدرسة واحدة ، وهما متقابلان ، ولكن كان يوجد بينهما بناء ضخم ، يجعل من المستحيل على الرصاصة ان تبلغ حالب الشرطي . فقد كان عليها ان تسير موازية للارض ، ثم ترتفع عمودية الى محاذاة اعلى البناء ثم تغير مسارها ، الى نهاية البناء ، ثم تنخفض الى الارض ، ثم تعدل مسارها على موازاة الارض ، وتتجه باتجاه الشرطي ، فتصيبه وتقتله ... وحين ثبت للمحكمة كل ذلك ، قررت براءة المتهم . ولم تكن براءته بمهارتي ، وانما لمحض الصدفة الماثلة بقيام بناء شاهق ، لم ينتبه له الشهود الزور ...

ومن المحقق ان رجال القانون الجزائي يفضلون القرائن والخبرة على وسائل الاثبات الاخرى ، ولكن الاخطاء في قراءتها كثيرة جدا .. هي أيضا . انها حقا لا تخطىء ، ولكن المختص هو الذي يقع في الخطأ ، فيضلل القضاء ..

ففي قضية : اتهم زوج بقتل زوجته بالسم الممزوج بالكحول ، ولما يمض على زواجهما غير شهرين ، كانا فيهما ، على احسن ما يكون تفاهم بين زوجين .

وارسلت احشاؤها الى التحليل ، فجاء الجواب ، ان كمية الكحول فيها مخيفة .. وطالب النائب العام باعدامه .. ولكن المحامي اكتشف ان مساعد الطبيب المحلل كان ينظف الاواني الزجاجية بالكحول ، وانه وضع الاحشاء فيها مدة يومين ، فامتصت كمية كبرى منها ، ولذلك ظهرت في التحليل كأنها أداة جريمة .... وانقذ هذا الاكتشاف المتهم .. ولكنه اكتشاف تم بطريق الصدفة .

بل ان تطور الفكر العلمي نفسه ، قد يلعب دورا في تجريم المرء أو تبرئته : فقد صدف أن اتهم صيدلي فرنسي ، اسمه Denval بقتل زوجته بالسم ،واكتشف التشريح وجود بعض مليغرامات من الزرنيخ في جسمها ... فأدانته المحكمة ، ولكنها لم تحكم عليه بالاعدام ، بل قضت عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة .. وظل المسكين يعلن ، على مدى عشرين عاما وهو في السجن ، انه بريء .. حتى ثبت علميا عام ١٩٢٣ ، ان جسم الانسان العادي ، يمكن ان يحتوي ، بصورة طبيعية ، على هذه الكمية من الزرنيخ . كذلك اكتشف العلماء مرضا جديدا ، هو النقص ما فوق الكلوي الحاد . L'insuffisance surrénale aigue ، تبدو أعراضه كأعراض التسمم بالزرنيخ . وتقررت اعادة محاكمته ، فتبرأ وعاد الى الحياة شيخا متهدما ، ولكنه مع ذلك على قيد الحياة ..

ولست في حاجة الى وقفة خاصة عند الاعدامات التي تتم ، في اعقاب الانقلابات العسكرية ، وخاصة الفاشلة منها . ذلك ان المرء ليشعر بالغثيان ، عندما يعلم ان ثلاثة من « الجزارين » يسوقون الى حمامات الدم ، قوافل خصومهم ، دون شاهد يشهد او محام يدافع .. ويعلنون في الاذاعة بأن المحكمة اصدرت احكامها باسم الشعب ...

وتحضرني هنا كلمة قالتها **مدام رولان** ، وهي تصعد الى المقصلة في عهد الثورة الفرنسية:

« بريد الشعب الخبز ، فيقدمون له المقصلة» ، وقد صرخ النائب **بودو** في مجلس النواب ذات يوم : « يجب أن نقتل حتى لا نقتل » .... وتباً لهذه العدالة ، وتباً لرجالها ...

هذا موجز الكفاح النظري بين تيارين كبيرين . فما هو واقع عقوبة الاعدام في التشريع وفي التطبيق ؟

الامر الذي لا شك فيه ، هو أن عقوبة الاعدام ، فقدت في هذا القرن الاخير كثيرا من مكانتها وهيبتها ! ومن المحتمل جدا ، انه لولا الاحداث التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، لربما كان وضعها أكثر ضعفا ، وكانت الافكار أكثر تقبلا لالغائها ، أو تقليلها جدا على الاقل .

ففي القرن التاسع عشر ، الغتها عدة دول من تشريعها ، منها **رومانيا** عام ١٨٦٤ ، **والبرتغال** عام ١٨٦٦ ، **وهولندا** عام ١٨٧٠ ، **وايطاليا** عام ١٨٩٩ . وفي هذا القرن العشرين ، الغتها الغاء قانونيا أيضا ، **النرويج** عام ١٩٠٢ **والنمسا** عام ١٩١٩ ، **والسويد** عام ١٩٢١ ، **والارجنتين والدانمرك** عام ١٩٣٠ ، **واسبانيا** عام ١٩٣٢ ، وكذلك الغتها **بعض ولايات امريكا الشمالية** .

كما ان بعض الدول الغتها **الغاء واقعيا** ، اي انها لم تنفذها رغم وجودها في التشريع . وفي مقدمة هذه الدول ، **بلجيكا** التي لم تنفذ عقوبة اعدام واحدة ، منذ عام ١٨٦٣ .

وفي هذه السنوات الاخيرة ، أصدرت انكلترا عام ١٩٥٧ قانون القتل Homicide Act ، قللت به عدد الجرائم المعاقبة بالاعدام ، وأصدرت بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩٦٥ The Murder Act (قانون القتل العمد) ، الغت بموجبه عقوبة الاعدام لمدة خمس سنوات على سبيل التجربة . وفي هذه الفترة وقعت عدة جرائم فظيعة ، ولكنها وقفت في وجه التيار الشعبي وأصدرت قانونا عام ١٩٧٠ الغت بموجبه عقوبة الاعدام بصورة نهائية .

وحذت حذوها **كندا** ، فالغت عقوبة الاعدام عام ١٩٦٩ .

وكانت **المانيا الاتحادية** قد سبقتهما ، فنصت في المادة ١٠٢ من دستورها الصادر بتاريخ ٢٤/ مايو ١٩٤٩ على الغائها . وقد شكلت الحكومة الالمانية لجنة من اثنى عشر عالما ، بينهم الجزائي وعالم النفس ورجل الدين والفيلسوف والبيولوجي والمحامي والاستاذ الجامعي ، ووضعت دراسة جيدة عام ١٩٦٢ ، انتهت فيها الى ضرورة الابقاء على الغاء هذه العقوبة .

ولم تبق الولايات المتحدة ، رغم تفاقم الاجرام فيها بصورة مخيفة ، مما جعلها بحق عاصمة الاجرام الاولى في العالم ، بمعزل عن هذا التيار : ففي عام ١٩٦٢ الغت ست ولايات عقوبة الاعدام ، وبعد ذلك تضاعف العدد ..

وفي عام ١٩٧٢ قررت محكمة نيوجيرسي ، باكثرية ٦ اصوات ضد صوت واحد ، أن الاعدام مخالف للدستور . ومنذ ٢ حزيران ١٩٦٧ لم ينفذ في أمريكا حكم واحد بالاعدام ، وفي ذلك التاريخ اعدم في غرفة الغاز مجرم قتل زوجته وأولاده . واليوم يوجد في سجون الولايات المتحدة ٦٠٠ محكوم بالاعدام يترقبون مصيرهم كل صباح ...

وقد عرضت ثلاثحالات اعدام على المحكمة العليا للولايات المتحدة ، فقررت « بانه فى هذه الحالات تعتبر عقوبة الاعدام قاسية ولم تعد صالحة للتطبيق ، وهى مخالفة للتعديل الثامن والتعديل الرابع عشر من الدستور » ومعلوم بأن احكام هذه المحكمة نافذة فى كل امريكا ولكن يتضح من حكمها انه خاص بهذه الحالات الثلاث فقط ، ولا يشمل جميع حالات الاعدام .

وعدد قضاة هذه المحكمة تسعة ، صوت اربعة منهم ضد الالغاء ، ارضاء للرئيس نيكسون الذى عينهم . اما الخمسة الآخرون فقال اثنان منهم صراحة بانهم مع الالغاء ، واكتفى الثلاثة باصدار حكمهم على هذه الحالات الثلاث فقط ...

وتشير الاحصاءات الى ان الجرائم المعاقبة بالاعدام فى هولندا لم يزد عن عددها عام ١٨٧٠ وهو عام الغاء العقوبة . ويسترعى الانتباه بصورة خاصة تطور جرائم القتل في المانيا الغربية ، منذ الغاء عقوبة الاعدام :

فقد كان عدد حالات القتل عام ١٩٤٩ (سنة الغاء العقوبة) : ٥٢١ وانخفض عام ١٩٥٠ الى ٣٠١ ، واصبح عام ١٩٦٠ ، ٣٥٥ حالة .

على ان الامانة فى البحث ، تقتضينى ان الاحظ ، بأن عددا من الدول التى الغتها ، اعادتها بعد تجربتها ، فقد اعادتها ايطاليا عام ١٩٢٥ ثم الغتها ثم اعادتها عام ١٩٣٠ ، واعادتها زيلاندا الجديدة عام ١٩٥٠ ، ثم عادت فالغتها عام ١٩٦١ ، والغاها الاتحاد السوفييتى عام ١٩٤٧ ، ثم أعادها بعد سنتين لجرائم الخيانة والتجسس ، كما أعادها عام ١٩٥٤ من اجل جرائم القتل المرتكب في ظروف مشددة ، واعادها مرسوم فدرالى صادر عام ١٩٦٢ من أجل جرائم الرشوة والاغتصاب والاعتداء على رجال الشرطة ... وقد جرى فى العام الماضى استفتاء في ولاية جورجيا الامريكية ، صوت فيه ثلثا الناخبين على اعادة عقوبة الاعدام ، فاعيدت تشريعيا ...

واود ان أسجل لهذه المناقشات والمحاولات انها اثرت عمليا فى واقع عقوبة الاعدام . فالبلاد التى لا تزال تحتفظ بها فى تشريعها ، وتطبقها ، لا تفرط كثيرا فى تنفيذها .

ففى كندا (قبل الالغاء) نفذ ١٦ حكما بالاعدام من أصل ٥٩ وفى **المغرب** نفذ ١٥ حكما من أصل ٤٣ **وفى لبنان** (قبل المأساة) نفذت ٤ احكام من أصل ٣٠ ، وفى فرنسا لم تصدر المحاكم عام ١٩٦٢ الا ١٠ أحكام بالاعدام ، نفذ منها اثنان فقط . وفى انكلترا ، صدر ما بين ١٩٥٤ ــ ١٩٥٨ مئة حكم بالاعدام نفذ منها ٢٨ وفى **مصر** نفذ ٦٦حكما من أصل ١٠٣ ، وفي **تركيا** نفذ الحكم فى ٣٢ شخصا من اصل ٣٣ ، وفي **اليابان** نفذ الحكم في ١٢٦ شخصا ، هم جميع المحكوم عليهم (١٣) .

وقد يرد على الذهن سؤال هو :

ماهي الجرائم التى تعاقب فى ايامنا هذه بالاعدام ، واى البلاد تعاقبها ... وقد رأيت اتماما للفائدة ، ان اذكر فيما يلى هذه الحالات ، والى جانبها البلاد التى تتبناها .

---

(١٣) هذه الاحصاءات ماخوذة من دراسة للامم المتحدةعن الفترة ما بين ١٩٥٩ ــ ١٩٦١ .

الجرائم الموجهة ضد الاشخاص :

١ ــ **القتل مع سبق الاصرار :** وهو معاقب في الغالبية الساحقة من البلاد التي تحتفظ بعقوبة الموت ، وفي مقدمتها ، اوستراليا وكندا والشيلي والصين واسبانيا وبعض ولايات امريكا ، وفرنسا وغانا واليونان والهند وايران ، وانكلترا وتشيكوسلوفاكيا وتركيا والاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا ، وجميع البلاد العربية .

٢ ــ **القتل العمد :** (اى العادى غير المقترن بالاصرار) ، وهو معاقب بالموت في بلاد قليلة ، اكثرها افريقية ، ولكن لاحظت ان السودان من البلاد العربية وبولونيا من المعسكر الشيوعى ، والباكستان من هذه الدول القليلة .

٣ ــ **القتل اثناء مبارزة :** وهو مقصور على عدد من الولايات المتحدة الامريكية .

٤ ــ **جريمة الغش :** وهي موجودة ايضا في بعض الولايات المتحدة الامريكية .

٥ ــ **التسميم :** معاقب بالاعدام في فرنسا والعراق واليابان والمغرب ومصر ، وبعض الجمهوريات الجديدة .

٦ ــ **قتل الاب او الام او الولد :** ويعاقب بالموت في فرنسا ، وتركيا ولبنان والمغرب والعراق واليابان وغيرها .

٧ ــ **القتل الذي يرافق او يعاقب ارتكاب جريمة :** وهو معاقب بالموت في لبنان ومصر والعراق ، وانكلترا واسبانيا وغيرها (واكثر ما يصادف هذا الجرم في اثناء السرقة ، او قطع الطريق او القرصنة) .

٨ ــ **قتل شرطى او موظف اثناء الخدمة ..**

٩ ــ **ضرب او جرح ولد بصورة عنيفة :** فمات ، (فرنسا والمغرب خاصة) .

١٠ ــ **الحريق العمدى الذى نجم عنه موت احد ..** فرنسا ، مصر ، العراق ، ايران ، اليابان ، المغرب ، انكلترا ، تركيا ، يوغوسلافيا وغيرها .

١١ ــ **الاشتراك** complicité في انتحار ولد أو مخدر أو مجنون .

السودان ، أركانساس الامريكية ، الهند ، الصومال .

١٢ ــ اجهاض امراة تسبب في موتها .

١٣ ــ اغتصاب امراة بالعنف :

أ ــ اذا نشأ عنه موت : اليابان وتركيا والفلبين .

ب ــ أو الاغتصاب العادى : الصين ، بعض الولايات المتحدة ...

١٤ ــ الخصماء الذى يعقبه الموت .

١٥ ــ المتاجرة بالمخدرات في بعض حالاته الخطيرة : تركيا ، ايران ، الصين ، بعض الولايات المتحدة .

١٦ ــ خطف القاصر :

١ ــ بعض البلاد تشترط موت المخطوف : فرنسا ، المغرب .

٢ ــ بعضها لا تشترط ، وانما يجب ان يتم في شروط خاصة ، كطلب فدية (الشيلى وبعض الولايات المتحدة) .

١٧ ــ الاعتقال التعسفى مع التعذيب الجسدى : الصين ، فرنسا ، ايران ، تشيكوسلوفاكيا .

١٨ ــ الشهادة الكاذبة التي تسبب فى صدور حكم بالاعدام :بعض الولايات الامريكية وفرنسا والهند والعراق ، والمغرب ومصر والسودان .

١٩ ــ العدد بعد الحكم باطول عقوبة مانعة للحرية ، أو اجتماع عدة جرائم معاقبة بهذه العقوبة : الشيلى ، الصين ، العراق ، تركيا الصومال ، تركيا وغيرها .

٢٠ ــ الاضرار الخطيرة التى تتسبب للمواصلات (كالقطار وغيره) : بعض الولايات المتحدة .

ب ــ الجرائم الموجهة ضد الاموال والجنايات الاقتصادية :

١ ــ **السرقات الموصوفة** : او المشددة (وخاصة مع استعمال السلاح) : بعض الولايات المتحدة ، فرانسا ، اليونان ، أفريقيا الجنوبية ، التوغو .

٢ ــ **القرصنة مع العنف** : او ستراليا ، كندا ، شيلى ، اسبانيا ، جبل طارق ، غواتيمالا ، وغيرها .

٣ ــ الاحتكار او رفع الاسعار بصورة غير مشروعة وخطيرة واختلاس اموال الدولة: الصين ، اسبانيا ، يوغوسلافيا .

٤ ــ تزييف النقد والمضاربةعلىالعملات الصعبة devises : روسيا وبولونيا .

٥ ــ الاعتداء الخطير على الملكية الاشتراكية : بولونيا ، روسيا ، يوغوسلافيا.

ج ــ الجرائم الموجهة ضد الدولة والنظام العام :

١ ــ الخيانة : دول كثيرة .

٢ ــ التجسس : الصين ، اسبانيا ، الولايات المتحدة (القانون الفدرالى، فرانسا، اليونان ، ايران ، المغرب ، بولونيا ، مصر ، تشيكوسلوفاكيا ، تركيا ، روسيا ، يوغوسلافيا ..

٣ ــ الاتصال بالعدو intelligence او التعاون معه ... دول عديدة .

د ــ الاعتداء على سلامة الدولة الداخلية

١ ــ العصيان المسلح والثورة أو التآمر على الدولة .

٢ ــ القتلَ المرتكب اثناء اضطرابات émeute او ثورة : بعض ولايات أمريكا .

٣ ــ الاعتداء على سلامة رئيس الدولة: (وبعض الشخصيات الهامة) .

٤ ــ النهب pillage والقتل الجماعى massacre والتخريب Devastation **والافغان تعاقب الزنا بالموت .**

والآن ، ماهى الحكمة التى يجب ان نستخلصها من هذه الدراسة،بالنسبة لتكوين راى فيما يخص الغاء الاعدام او ابقاءه ؟

هل كانت آراء الابقائيين مقنعة ؟

ام ان آراء الالغائيين ، والتطور الذى حدث عند الامم المتقدمة ، هى الأرجح وزنا ، وأكثر ثقلا فى ميزان المقارنة ؟ انا لااظن ان اية دراسة هادئة ، موزونة ، تستطيع ان تنال

اجماعا أو شبه اجماع ، فى مشكلة شديدة التعقيد ، متصلة بمفاهيم الطبقات المختلفة ، وغرائزها وعواطفها ، لان هذه المشكلة مشكلة انسانية ، قبل كل شيء ، ومن شانها أن تلامس بقوة اوتار كل نفس ، فتحركها ، فى الوضع التى هى عليه . فلا نحاول اذن أن يعمل بعضنا على اقناع الآخر بوجهة نظره ، وليكون كل واحد منا لنفسه قناعته خلال تفكيره ودراساته وملاحظاته الشخصية ...

ولى راى فى الموضوع ، أود ان اعرضه ، كونته لنفسى بعد اربعين سنة فى رحاب القانون ... ولست أزعم انه نهائى بالنسبة لى ، فقد اغيره ذات يوم ...

انى ارى ابقاء عقوبة الاعدام فى القانون، بالنسبة للجرائم الكبرى العادية ، وخاصة حين يقع ازهاق روح بريئة ... كخطف طفل صغير طلبا للفدية وقتله ، وقتل الضعاف من النساء ، والعجزة ... طمعا فى أعراضهن أو اموالهن ...

وارى ان تتشدد المحاكم فى قبول البينات حتى لا يبقى ، حقا وصدقا ، اى ظل للشك فى نفس القضاة ... والا يكون عليهم اى سلطان في قضائهم لغير القانون ، كما يقول الدستور .. وأن تقف في وجه الرأى العام ، اذا أثارته الصحافة او الدعاية، حتى تستطيع احقاق الحق ، دون تأثر أو تأثير ...

ولقد جرت عادة المحاكم ، أن تمتنع عن الحكم بالاعدام على الفتيان ، ولو كانت بعض القوانين تعاقبهم به ، كما جرت العادة أن تقلل هذه الاحكام على النساء ، وخاصة الحوامل منهن ، وعلى المصابين ببعض من شذوذ فى التفكير والمحاكمة ، لايصل الى درجة منع المسئولية ... وهذا تعامل ، وليس حقا مقررا . فقد حكمت المحاكم الفرنسية مؤخرا على فتى هاجم عجوزا وقتلها بسبع عشرة طعنة من سكينة ، ليستلب منها ما اقتصدته لايامها الاخيرة ، كما قررت اعدام امراة تآمرت مع عشيقها على الخلاص من الزوج ، فقتلاه ، وقطعاه وجعلا جسده سمادا لحديقة البيت ، وراحا يستمتعان بزهورها حين أزهرت، وهما يقطفان ثمرات الحب الحرام ، حتى كشف الله الستر عنهما ، فأسلمت عنقاهما الى الجلاد ... جزاء وفاقا .

ويأتي دور رئيس الدولة ، كملاذ أخير ، باستعماله حق العفو فى حالات تركها الدستور الى ضميره ، دون رقيب عليه الا شعوره بالمسئولية وخوفه من الله . وقد جرت العادة أن يمارس هذا الحق بشيء من السخاء ، وخاصة اذا تصرف القضاء بشيء من الاندفاع ... فعلى سبيل المثال ، ابدلت ٨ احكام بالاعدام فى استراليا من اصل ١٠ ، وابدلت ١٧ حالة فى فرنسا من أصل ٣٤ ، و ٣٤ فى كندا من أصل ٥٥ (١٤) ...

وقد كان لسورية رئيس جمهورية ، كان يمتنع عن تصديق اى حكم بالاعدام ، خلال رئاستين متواليتين ... ولم يلاحظ احد أن حبل الامن اضطرب ، أو أن الاجرام ازداد .. بل كنا نلاحظ ان المشانق تنصب فى الساحات العامة ، فى الايام الاولى للانتفاضات العسكرية على الدستور، وقلب الحكم ، لارهاب الناس.

وبتعبير اوضح انى أريد لهذه العقوبة أن تظل تظل فى التشريع ، لحين الحاجة اليها ،

---

(١٤) انظر تقرير Norval Marris السابق ذكره ص ٢٢ .

وليس لتطبق باستمرار . ولقد أتيح لى ذات يوم أن أتولى تنفيذ أربعة قرارات جمهورية تقضى باعدام اربعة مجرمين .

أحدهم عبث بزوجة أبيه ، وعاشرها معاشرة الزوجة ثم اتفق الاثنان على قتله ، فاحتالا عليه ، واخذاه الى خارج القرية ، وحطم الولد راسه بحجر كبير ، ودفنه فى حفرة مهجورة ، وعاد الى فراش خالته .

وثانيهما ، غريب استضافه محسن فى بيته ، فطمع فى زوجته ، فقاومته ، فقتلها وجرح اثنتين هبتا لنجدتها .

الثالث ، قاتل مأجور ، قبض مبلغا من المال مقابل قتله انسانا لا يعرفه ، ولم يسىء اليه من قبل ...

والرابع ، شخص اتهم ظلما وعدوانا طبيبا انسانيا بانه يعاون عليه خصومه فتربص به وقتله ، ثم تبين أن المسكين لا يعرف عن موضوع الخلاف شيئا ...

ولقد فكرت وانا اوقع أوامر التنفيذ ، بالابرياء والثكالى والايتام ، وهم يذهبون ضحية بعض الاشقياء في ظروف تدعو الى الرثاء والبكاء . وأمام دموع الصغار الذين لفهم اليتم ، والنساء اللواتي فجعن ببعولتهن أو أبنائهن ، لا يمكن للمشاعر الا أن تتحرك ، وللنقمة الا ان تشتد . وفي مثل هذه الحالات النفسية ، يتخذ الانسان قراره ، متحسسا بمشاعره . وقد قرأت مؤخرا تعليقة على ندوة تلفزيونية عرضت فى فرنسا (١٥) ، استجوب فيها المذيع اشخاصا من مختلف الاتجاهات ، ولفت نظرى جواب والد طفل صغير ، اختطفه مجرم أثم ، وطالب بالفدية، ثم خشى أن يعرفه الصغير فخنقه ، ثم اكتشف أمره ، قال : « حين قتل ولدى ، فقد ناداني .. صرخ بابا .. انه وكلني بالاقتصاص له .. فاذا أفرج عن قاتله ، فانى سأثأر لولدى ، وأقيم العدالة بنفسى » ...

ويترتب على رأيي هذا ، أن يمكن المتهم من الدفاع عن نفسه ، بكل حرية وأن يتمتع بكل الضمانات التى يمنحهاإياها الدستور والقانون وأنه لمن مصلحة المجتمع أن يؤمن له دفاع جيد لا حبًا به ، ولكن زيادة في الاحتياط ضد مزالق الزلل ، ورغبة فى التشدد فى اقامة عدالة سليمة . وهذا يعنى واجب المحامين الكبار بعدم التهرب من التوكل عن هؤلاء المتهمين ، وعليهم أن يقوموا تجاههم بواجب الدفاع على وجهه الاكمل ، حتى يكون تساو بين كفتى ميزان العدالة ، أى كفة الاتهام وكفة الدفاع . وهذه مسألة نوليها اهمية كبرى . ثم اننا نشجب بقوة ، تعامل بعض محاكم الجنايات ، التي تندب لبعض المتهمين الفقراء محامين متمرنين ، تكافهم وهم فى قاعة المحاكمة بالتوكل عنهم ، دون أن تضع الملف بين أيديهم قبلمدة كافية، فيقفالمحامىليقول: لما كانت التهمة غير ثابتة على موكلى ، فانى أطالب له بالبراءة ... هذا التعامل يعنى طعن العدالة فى صميمها ، والاستخفاف بحقوق أشخاصقد يكونون أبرياء ، وتجريدهم من حقوق ضمنها لهم الدستور والقانون ...

وانى لاشعر ان هذا البحث لا يكتمل ، اذا لم أشر الىعقوبةالاعدام فىالجرائم السياسية.

(١٥) Le Figaro 13 / II / 1975

انى من حيث المبدأ معارض لهذه العقوبة فيها ، لا أستثنى من ذلك ، الا جريمة الخيانة فى حالاتهـا الفظيعة ، لأنهـا تقطع الصلة بين الخائن ووطنه ، الذى قد يعرضه بخيانته الى التهلكة الجماعية . وتكفى العقوبات الاخرى للجرائم الاخرى . ذلك أن المجرم السياسي ، مجرم عقيدة وفكر ، وطالب اصلاح ، واجرامه يختلف عن اجرام القاتل وهاتك الاعراض . فهو يسعى الى الاصــلاح وحــرق المراحل للخلاص من التخلف ، وتحقيق مثل أعلى فى وحدة قومية ، أو تحقيق مساواة اجتماعية . وقد يكون خطره اشمل من خطر المجرم العادى لشموله وتعريضه نظاما قائما الى هزة عنيفة ، الا أن الذى يشفع لمعاملته بشىء من الرفق ، انه مثالى النزعة ، نزاع الى اقامة مجتمع يحقق آماله فى المدينة الفاضلة ...

وانى لاحتفظ من هذه العقوبة ، بذكريات سوداء قاتمة، فقد شهدت اعدام ٣١ شخصا؛ قتلوا رميا بالرصاص ، في ساعات حقد أسود

ولو أن الذين حكموا على تلك الزهرات الحلوة من أصحاب العقيدة الوحدوية الصافية بهذه العقوبة الرهيبة ، تربصوا بانفسهم بضعة أيام، لكان مقدرا أن تهدأ العواطف ، وتسكن النفس، ويعود الصفاء الى الاعصاب ، وترتفع راية العدالة ، بعيدا عن التصفيات الجسديــة ، ولكن حين تخرج القضاء من يد القضاة ، فان كل الاحتمالات تكون ممكنة ، ويكون التعصب الذميم ، القانون والسيف .

ويا بلادنا ، التى انهكتها الانتفاضات منذ أكثر من ربع قرن لقد آن لك ان يسود فيــك القانون ، ويحترم الانسان ، وتصان الحريات ... فقد قال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم» واحسن تكريم له أن تصان انسانيته ، ويزول من قبله شبح الخوف ..

ويرحم الله المعرى ، القائل :

ما دامت الخيــــــل والانعـــام خائفة

فرسا ، فما صح أمر النسك للاسد

* * *

المراجـع

Jean Imbert : La peine de mort.
P.U.F. 1972.

J. Ancel : Rapport publié par les Nations Unies, 1962 : S /SOA/SD/9
— Les doctrines de la défense sociale devant le probléme de la peine de mort. in Revue des sciences criminelles 1963.

J. Graven : Nouvelles reflexions sur la peine de mort, dans :
Recueil d'études en hommage à la mèmoire du professeur
Donneoliu de Vabres,
Paris, Cujas 1962.

Norval Morris, Rapport publie par les Nations — Unies, 1968 :
ST/SOA/SD/10

Vouin : La peine de mort,
Revue des sciences criminelles, 1966.

Thorsten Sellin : la peine capitale et le procés pènal, dans :
Problèmes contemporains de Procedure pènale, Paris 1964.

R. Merle, Les aspects théologiques de la peine de mort' dans :
" Travaux du Colloque sur la peine de mort Organise à
Athenes en 1960.

Oerton : l'abolition de la pene de mort en Grande-Bretagne, dans :
Revue des sciences criminelles, 1966.

Savey = **Casard** : L'Eglise catholique et la peine de mort,
meme Revue : 1961.

Vernet — Joseph, Enquete prealable a la peine de mort
meme Revue, 1966·

Thierry Lévy, l'znimzl jufivizitr, Pztid, Grasset, 1975.

وبالنسبة لآراء الفقهاء الجزائيين العرب ، تراجع مؤلفاتهم في العلوم الجزائية ، وهي كثيرة .

* * *

ميخائيل نعيمة

ناقداً أدبياً

الدكتور مناف منصور

مفهوم النقد ووظيفته

ليس النقد الأدبى عند ميخائيل نعيمة الا وجها من نتاجه الأدبى المتنوع ، والذى يشكل ، فى النهاية ، نظاما تفكيريا واحدا من حيث النوع والمدى . فالفاعلية الفكرية واحدة . وبما ان كل انتاج له هو ثمرة الجهد الكبير لتصوير تلك الفاعلية فقد كان من الواجب طرح انتاجه بكامله — على بساط البحث لكى نتعرف بوضوح الى نظامه النقدى فى صورته الأكمل . وعندما اردنا ان نتبين نتاجه النقدى وجدناه متوزعا فى اربعة مناح :

١ — رسائل يكتبها الى المؤلفين والشعراء الذين ارسلوا اليه نتاجهم فيعرض نعيمة فى هذه الرسائل آراءه وانطباعاته . وهى كثيرة : بعضها منشور فى الصحف والدوريات ، وبعضها لم ينشر بعد .

٢ — المقدمات التى يكتبها لدواوين ومؤلفات الآخرين .

٣ — الأحكام والآراء والملاحظات فى الأدب والنقد يبثها بين الحين والآخر عبر نتاجه الأدبى أو الفلسفى او السيرة .

٤ ـ كتاب « الغربال » الذى يضم احدى وعشرين مقالة توزعت فى ثلاثة محاور :

أ ـ مقالات عن النقد البناء : الغربلة ، محور الأدب ، الرواية التمثيلية العربية ، المقاييس الأدبية ، الشعر والشاعر .

ب ـ هجوم عنيف على الأدب التقليدى والتبحر اللغوى : الحباحب، نقيق الضفادع، وهجوم على العروض التقليدى : الزحافات والعلل . وهناك مقال قصير جدا يدعو فيه للترجمة .

ج ـ النقد التطبيقى : الأرواح الحائرة ، الدرة الشوقية ، القرويات ، الريحانى فيعالم الشعر ، السابق ، ابتسامات ودموع ، غاية الحياة ، اغانى الصبا ، النبوغ ، شكسبير ، خليل مطران ، الديوان ، عواصف العواصف، الفصول .

وهكذا فسمة تاليفه النقدى ، على الاطلاق، هى المقالة . وكان أول مقال نقدى له (١٩١٣) يدور حول رواية الأجنحة المتكسرة اذيقول : قرات الرواية فاستفزنى لكتابة مقال فيها دعوته « فجر الأمل بعد ليل اليأس » (١) وارسلت به الى « الفنون » وهو أول مقال نقدى حبرته ، فكان فاتحة حياتى الأدبية . وقد ندت فيه تنديداً مُرًّا بجمود اللغة العربية فى خلال عصور طويلة ، وانصراف كتابها وشعرائها عن الحياة فى داخلهم ومن حولهم الى الشعوذات اللغوية والبهرجات الفارغة والتقليد المميت » (٢) .

وعلى هذا ، لاينطلق نعيمة فى مفهومه للنقد من منظور ضيق أو من أساس فنى محدد ، فاذا كان الأديب ضمير الحياة والانسانية ، فان الناقد ضمير الأديب ، والحياة ، فى منتهاها ، مجموعة من الأفكار والمشاعر المتحركة حركة ذات غنى وخصوبة ، واذا تكون الحياة مجال النقد وميدان عمله . هكذا ببساطة كلية يرفع نعيمة النقد من أسار القواعد الضيقة ـ مهما وسعت ـ ليكون وجه الحياة اذ « الحياة والأدب توأمان لا ينفصلان » (٣) . فليس هو نشاطا عرضا بل (لو شئت ان احدد النقد بكلمات ثلاث لقلت انه عمل الحياة الدائم) (٤) انه حاجة مستمرة وملحة لكى تبقى الاشياء والحياة فى قيمتها المتالقة المنشودة « فنحن مدعوون فى كل لحظة من وجودنا الى التفكير والتمييز والاختيار ـ أى الى النقد » (٥) . فهو دليلها ومؤكدها ، فالحياة هى الانتقاد والتجدد (٦). انه بحث مستمر عنحقائقها العميقة واكتشاف اسبابها ، فهو اذا شكل الحياة بل سُنّة من السنن التى تقوم بها الطبيعة والطبيعة اكبر مغربل ... الغربلة سُنّةُ الطبيعة وسنة البشر الذين هم بعض من الطبيعة (٧) . وهكذا

---

(١) دمج نعيمة قسما من هذه المقالة فى مقال « الحباحب »المدرج فى الغربال (دار صادر بيروت الطبعة الثامنة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٧ ـ ٦٤ .

(٢) راجع نعيمة : جبران خليل جبران ، ط أولى ، مطبعةلسان الحال ، بيروت ١٩٣٤ ص ١٦٩ . و « سبعون » دار صادر ودار بيروت ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠) المرحلة الثانية ص ٣٠ .

(٣) الغربال ص ٣٠ .

(٤) راجع مقالة نعيمة « الاديب والناقد » دروب (ط ٣/دار بيروت ودار صادر ١٩٥١) ص ١٧٠ .

(٥) دروب ص ١٧٢ .

(٦) الغربال ص ٤٢ .

(٧) المصدر نفسه ص ٢١ .

يتحول نعيمة بمسألة النقد ومشكلة تعريفه من قضية فنية الى موقف اخلاقى ، يبين بالتالى خطر مسؤوليته وفداحة مهمته ونتائجها « فالفن اخلاقي ولابد من أن يكون النقد مثله ضرورة (٨) . والناقد ــ ككل انسان ــ مفروض عليه « ان يصحح » ما يراه او يعتقد انه خطأ ، وعدته فى ذلك تفكير نير ، وتمييز مسؤول ليتسنى له أخيرا مجال الاختيار ، فيكون نشاط النقد التزاما للحياة واشيائها ، وارتباطا عضويا بها . من هنا بان من الضرورى التمييز بين نوعين من النقد يقوم بهما : الحياة والانسان . . . ان الفرق بين نقد الحياة ونقد الناقدين منا وفينا لفرق شاسع جدا، فالحياة تنقد ذاتها بذاتها . اذ ليس ماهو خارج عنها لتوجه اليها نقدها . ولأننا بعض من ذاتها فهى تنقدنا كذلك فى كل لحظة من وجودنا . فى حين اننا ننقد الآخرين وقلما نوجه نقدنا الى انفسنا (٩) فيقيم المقارنة على مستوى نوع العمليتين النقديتين ، وهو امر يصدر عن خطأ مبين يغفل التمييز السوى بين النقد الانساني وما سماه نقد الحياة . فالقول بان الحياة تنقد ذاتها بذاتها لايمكن ان يعنى عندنا الا ان الحياة تملك من نفسها وفى نفسها طاقة الحركة فتتجدد وتستمر فاعلة ، غير اننا نرى ــ فى هذه الحال ــ ان هذه الظاهرة لايمكن أن تكون الا بواسطة الانسان ، فهو أولا يعي ذلك ويقدره ، وقيمة الشيء فى معرفتك به ، ووعيك له . وثانيا لانعرف كائنا آخر يملك الحس والارادة والتمييز والاختيار غير الانسان. فالحياة لاتختار وانما تعرض أشياءها عرضا ، وبقاء الشيء والموجود رهن بحاجة الانسان وارادته له ، ثم أوليس الانسان هو محرر الحياة ــ على حد اشارته ــ وأن قواه هى التى ترينا فى دياجير الحياة وميض أنوار تحببها الينا (١٠) . . . وان « لاقيمة لعمل يأتيه (الانسان) الا بمقدار مايدنيه ذلك العمل من معرفة نفسه او يقصيه عنها ؟ وسواء ادرك ذلك أم لم يدركه فهو ابدا يقيس كل مايأتيه بهذا المقياس فيهمل منها مالا يزيده بنفسه معرفة ، ويحتفظ بما يشاهد فيه مظهرا من مظاهر نفسه (١١) . وأما ان الحياة تنقدنا فى كل لحظة من وجودنا فلا يمكن الأخذ بهذا ايضا الا على أساس انها مجال نشاطنا ، واذا نحن سليل تفاعل مع اشيائها وتجاربها وتأثر فاعل ومتبادل، من هنا سبيل الارتقاء والتطور المعروف حيث الانسان أساسه ومحوره ، اذ لاوجود للاشياء الا بنا . كذلك نقف موقف الحذر من قوله « **فى حين أننا ننقد الغير وقلما نوجه نقدنا الى أنفسنا** » على أن هذه الظاهرة تبدو صحيحة وواقعة ، للوهلة الاولى ، لدرجة انها تكاد تعمى وراءها حقيقة ابعد ، ذلك ان نقد الآخرين انما هو ، عندنا ، شكل من أشكال نقد النفس ، فنحن فى العملية النقدية لا يهمنا الناقد والمنقود ، بل الاهم الكشف عن قيم وتجارب ومعطيات انسانية ، فكل مظهر ذاتى ، بل اى مظهر ذاتى ، انما هو فى الحقيقة مظهر انسانى ايضا ، وفى آن . فاذا كان مجال عمل النقاد ماكتبه غيرهم وما انتجوه فان مادة هذا المعطى وهذا النتاج انما هى الحياة « ان النقد الحق يأخذ مادته والهامه من الحياة » (هدسن) .

وهذه هى الحلقة الدائرة التى ينهجها النشاط الأبداعى :الحياة الأدب النقد ،ليصب

---

(٨) راجع ستانلى هايمن : النقد الادبى ومدارسه الحديثة ج ١ ص ١٠٠ .

(٩) دروب ص ١٧٧ .

(١٠) راجع الغربال ص ٢٣ ــ ٢٥ .

(١١) الغربال ص ٢٥ .

النقد ، أولا واخيرا ، فى الحياة ، اى النفس الانسانية بكل مالها وما عليها ، لانها وحدها قطب هذه الدائرة .

النقد هو التمييز

وعلى هذا يتحصل بان النقد حق للناقد اذا كما للكاتب الحق فى الكتابة على حد سواء (١٢) لان « مهمة الناقد الغربلة . وما يدونه قسم من الناس من الافكار والشعور والميول هو ما تعودنا ان ندعوه أدبا . فمهنة الناقد اذا هى غربلة الآثار الأدبيةلاغربلة اصحابها » (١٣) فيكون النقد « أدبا على الأدب » اى أن مادة الناقد الأولى بديل أن تكون من الحياةالمشاهدة مباشرة ، فانها الحياة « المؤلفة » والمعبر عنها بالدرجة الأولى من الشاعر او القاص ... وهكذا يرى نعيمة انلتبيان مكانةالنقد بالنسبة للانتاج الأدبى علينا ان نعرف اولا حدود العمل الادبى نفسه ،وحدودالاشكال الثقافية الاخرى والتى تمسه بشكل أو بآخر ، وعلى هذايتبين وظيفة النقد لاعلى انها غايةبذاتها بل « القصد من النقد الأدبى هو التمييز بين الصالح والطالح ، بين الجميل والقبيح ، بين الصحيح والفاسد »(١٤) فينهج بذلك نهج اليازجي خاصة والنقد العربى عامة ويتفق مع ما تقدم من نظراته تلك . فعلى الناقد مسؤولية كبرى، عبئها ـ الى حد ما ـ انها تقرر نوع المقاييس الأدبية والفكرية التى تسود ، فى زمن ما ، على ضوء ذلك التمييز المنشود . ولكن لمن يقرر الناقد ذلك (او على الاقل يمهد للتقرير) : للكاتب أم للقارىء ؟ . فاذا كان « لكل منا الحق بان يكون له غرباله يغربل به نفسه كيف شاء (١٥) فان لكل منا أيضا « عواطف وافكارا مشتركة هى نتاج مجهوداتنا الأدبية المشتركة. وغربلة هذه هى وظيفة الناقدين » (١٦) ، بدافع الشوق والقلق وكلاهما « يتفاوت عمقا وعنفا ومدى بتفاوت البواعث التى تبعثه ثم بتفاوت القوى التى تعيه وتتأثر به . وهذه القوى هى العقل والوجدان والخيال والذوق والارادة . وهى لا تتساوى ابدا عند اثنين من الناس . فكيف بهنا تتساوى عند جميع الناس . » (١٧)

علاقة النقد بالكاتب :

من هنا تكونعلاقة الناقد بالكاتب، فهو يعبر عن القلق الذى يثيره العمل الادبى فيه ، ثم رغبته فى التخلص من ذلك القلق . فالكاتب والناقد « يعملان بدافع من القلق والشوق . فالكاتب فيما يكتب انما يعبر عن قلق تثيره فيه حواسه الخارجية والباطنية من أوضاع يعينها وعن شوق الى التخلص من ذلك القلق . ويأتى الناقد ليعبر عن القلق الذى يثيره فيه عمل الكاتب وعن شوقه الى الانعتاق من ذلك القلق (١٨) . اى ان محور العلاقة بين الكاتب وعمله من جهة ، وبين الناقد وعمل الكاتب من جهة أخرى هى علاقة اثارة . « فمن يريد ان يثير

---

(١٢) الغربال ص ١٤ .

(١٣) المصدر نفسه ص ١٣ .

(١٤) الغربال ص ١٥ .

(١٥) الغربال ص ٢٢ .

(١٦) المصدر نفسه .

(١٧) دروب ص ١٧٥ .

(١٨) المصدر نفسه ص ١٧٤ .

مشاعر الآخرين عليه ان يتاثر هو قبل كل شيء » . (راسكين) (١٩) وهكذاتبدو الاثارة مصدرا وجوديا ممتدا للحياة ، دائب الحركة ، يستنفر المواهب للعطاء والابداع ، ومن ثم الاستمتاع ولا ضرورة لان يكون النقد ــ اثارة على نسق الاثارة المباشرة للطبيعة او الحياة خلقا وابداعا . فالناس ليسوا على مستوى شعوري واحد لتبليغ الاثارة لدى الجميع حدا متشابه النوع . من هنا تبدأ مرحلة النقد انطلاقا من الاثارة ، فالكشف عن مقوماتها ، واستمداد عناصرها الفكريةوتعليلها يستنزف معالم الشخصية المنتجة ويمتد الى استخراج عناصره الحية . وعلى هذا يتحصل لدينا ان قلق الناقد أوسع ، بل احد ، ذلك انه وليد : الكيان الادبي نفسه المطروح امامه ثم بما يذكر به هذا العمل الادبي من قلق صاحبه الباعث الأول له .واذا ليس سهلا على الناقد ان يكتنه اثارة الاديب وان يعي ما تضمنته من اغوار ، بحيث تخلص الى ان الاثارة ركيزة كبرى في النقد ، عند نعمية ، ولها صح اعتبار الاثر النقدي أدبا وان لم يستمد من الحياة مباشرة، فعلى مستوى الاثارة وروحها يشيد الناقد بناءه النقدي في الكشف عن حسنات النص وسيئاته ، وتقييمه على ضوء مقاييس خاصة وهو بذلك يقترب من **اليوت** » يقيني ان للنقد غاية : هي توضيح الاثارة الفنية وتثقيف الذوق فبصرف النظر عن اية فلسفة ادبية ينطلق منها ، فان أساس النقد الادبي هو التجربة الشخصية مع النص وما يثيره من تأثيرات ، اذ ان كل نقد أدبي لا بد ان يبدأ بالتاثير ، وذلك لانك لا تستطيع ان تستغنى عن الذوق الشخصي والتجربة المباشرة لادراك حقيقة ما ادراكا صحيحا فهو يعتقد اذا مع **سانت بوف** بأن الموهبة الاولى والضرورية للناقد هي ان يشعر على الفور بلا أي اعتبار للقوانين النظرية بجمال العمل الادبي وقيمته (٢٠) عبر هذا ، ولما كان القصد من النقد التمييز لا اطلاق الحكم ، كان يرى ان واجب النقد ان يظهر كيف يعيش **الأثر الأدبي** ، ما هي حقا صورته وبنيته وحياته الاساسية ، وان يوضح ذلك بتبيان خصائص شاهدة ، فالناقد يعنى بكيفية الاثارة اكثر من اعتنائه باثرها الذي حققته في نفس القارئ ، على نقيض ما يرى **ادموندجوس** من ان النقد « هو فن الحكم على صفات الشيء الجميل وقيمته سواء كان ذلك في **الأدب** او في الفنون الاخرى ... ولكن المصطلح (نقد ادبي) قد بدأ يحمل معنى ثانويا آخر اكثر تخصيصا ، وهو تحليل المزايا الاثر الادبي او الفني وتحديد صفاته . (٢١)

غير ان نعيمة يذهب في علاقة الناقد بالكاتب مذهبا آخر ، فيحكم اواصر ارتباطهما ، بحيث يصبح الناقد عنده تابعا للاديب ، اي ان الاديب الكبير هو الذي يمهد للناقد الكبير او يخلقه « **ما من شك في ان مستوى النقد يرتفع ويهبط بارتفاع مستوى النتاج الادبي وهبوطه فالادباء الكبار يمهدون الطريق للنقاد الكبار ، ولا أعكس فاقول ان النقاد الكبار يمهدون الطريق للادباء الكبار . فالعبقرية الحقه تشق طريقها بقدرتها لا بما يقوله فيها مادح او قادح** » (٢٢) . ومن هنا فالنقد لا يقرر او يعطي العمل الادبي قيمة بل هو يكشف عن العمل

---

(١٩) راجع Walter Thomas : John Ruskin P. 29

(٢٠) راجع فان تيغم : المذاهب الادبية في فرنسا (منشورات عويدات بيروت ١٩٦٨) ص ٢٣١ .

(٢١) ادموند جويس : دائرة المعارف البريطانية : النقد .

(٢٢) دروب ص ١٧٩ ــ ١٨٠ .

قيمته التى يحملها . اى ان النقد بطبيعته غير قادر على رفض حقيقة كائن ادبى : ولعله بذلك يذكر بموقف **ورد ذورث** « ليست القدرة على النقد عندى قيمة كبيرة . النقد ملكة من ملكات العقل احط شأنا من ملكة الخلق والابتكار » .... ولو ان الوقت الذى يبذل فى نقد الآثار الأبية ينفق فى الأدب الانشائي من أى نوع كان لكان ذلك خيرا لنا واجدى (٢٣) (ورد ذورث)، او بما ينشده **اميل فاجيه** « اننى لا أعتقد بان للنقد ثمة امرا ، وبقدر ما أتعمقه اقتنع بأن **ليس له أى أثر** (٢٤) . **فالناقد لاحق بالكاتب**، واذا كان الادب نقد الحياة فالنقد هو نقد له « عمل الناقد هو نقد النقد » ، وهو مدين به الى عمل الكاتب ، فلولا الكاتب لما كان الناقد ولا يصح العكس ، وذلك هو الفارق الاول **والأهم ما بين الاثنين** » (٢٥) . **فالادب الخالق** ينظم تجاربه التى استمدها من « رأس النبع » فى أكثر الاحوال ، اما النقد فينظم تجاربه المستمدة من الادب الخالق ، أى من الحياة ، **أى بعد أن نقلها الادب نقلة جديدة** . واذا شئت فقل ان كليهما نوع من الشعر ، ولكل واحد منهما حظه فى الاستقلال بقدر ما بينهما **من اتصال** (٢٦) . **فالناقد اذا هو الحلقة التى** تربط بين العمل الادبى والحياة ، وواجبه ان يحدد هذه العلاقة . وطبيعة القيمة الادبية تعتمد على طبيعة العلاقة بين الفن والحياة فى مجموعها . ومحاولة اصدار حكم على الادب قبل الوصول الى تصور نهائى بشأن هذه العلاقة لا يمكن ان يكون لها نتيجة مفيدة ، لان ذلك معناه تحديد القيمة بقاعدة غير محددة .

الا ان نعمية يفرق تفريقا قاطعا بين النقد والادب ، بينما هو فى الواقع « ادب من الأدب » : « وحكم النقد لا يختلف عن حكم الادباء فى أن بعضهم مبدعون وبعضهم سخفاء : وسيظل فيهم السخفاء والمبدعون . كل ما فى الامر أن النقد فرع خاص من فروع الادب ، والنقد لا يعدو أن يكون ادبا يتخذ من الادب نفسه موضوعه (٢٧) **وهكذا يظهر لنا ان نعيمة** لا يقول بان وجود الناقد وعدم وجوده سيان . ولكنه لا يقول أيضا ان النقد دعامة لا يقوم الأدب الا بها وعليها . فقد يقول بمهمة النقد القارىء والناظر والسامع والزمان . فان أخطأ القارىء والناظر والسامع فلن يخطىء تقدير الزمان فى المدى البعيد اذا كان لبعض النقاد من مراتب عالية **كلنانت بوف وتين وراسكين وبيلنسكى** فيما فى نفوسهم من كنوز الافكار والأحاسيس ما تكتشف الا لدى احتكاكها بكنوز مماثلة ، « فهى ثمينة فى ذاتها لا فى كونها **جاءت تعليقا على هذا الكتاب او ذاك** » (٢٨) من هنا كان لنا أن نستنتج ما يلى :

أ ــ التأكيد بأن ليس الناقد وحده ، وبالضرورة ، الذى يقوم بمهمة النقد ، بل هناك الزمان (٢٩) (**يلحظ هنا ان نعمية يعدد** الاسماء لقوة خفية واحدة هى وحدها تحفظ

---

(٢٣) راجع الثقافة ١٩٤٣ ع ٢٢ ص ١٦ .

(٢٤) E. Faguet, Propos Littéraire, II P : 5.

(٢٥) دروب ص ١٧٤ .

(٢٦) ستانلى هايمن : النقد الادبى ومدارسه الحديثة ج ١ص ١٧ .

(٢٧) رئيف خورى ، الاداب ١٩٥٦ ع ١٠ ص ٩ .

(٢٨) دروب ص ١٨١ .

(٢٩) يلحظ هنا تقربه من موقف الريحانى فى هذا الصدد ،راجع رسائل الريحانى (دار الريحانى ١٩٦٠) ص ١٨٦ .

خلود العمل الادبى فحينا الحيـاة ، وحينـا الطبيعة وهنا الزمان ، وهناك القارىء ايضا). اذ ليس ثمة ناقد أعلى من الجمهور ، فهو متبصر بحسب المكان والزمان ولكنه دائما محترم بما يصيب من احكام سديدة فى جميـع الانواع ، فهو يطلقها أولا متفرقة ثم لا تلبث ان تتوحد فى اللغة لتؤلف الرأى العام (٣٠) . وهكذا فالنقد ليس مجالا اختصاصيا عند نعيمة يتكرس له أصحاب اختصاصيون ، بل هو أمر يتولـد طبيعيا عند الناس ، وبالتالى يمكن أياً كان القيام بهذه المهمة ولا خطر مما تستتبع مـن مسؤوليات ، فـان الصحيح لايعـوز ناقدا يكشف عنه ، بل ان طبيعة الحياة هى التى تعطى الاثر الادبى القدرة على البقاء اذا كان حاملا اسبابها .

ب ـ غير انه ينزع ، من قبيل آخر ، الى تعليل قيمة بعض النقاد الكبار فتراه يرتفع بالنقد الى مستوى الخلق وعدم اقتصاره على مجرد الشروح والتعليقات او الاسـفاف لأن يكون ضربا من المهاترات او نوعا من المماحكات، انه تأليف تنبع قيمته من ذاته ولايستعيرها من المواضيع التى يشغلها . فالناقد الحقيقي هو خالق كالشـاعر ، فينحـو بذلك نحـو **سانت بوف** او **دى غورمون** ، ويتهيأ لنـا ان هذا التأكيد يرافقه شعور بالمرارة لاحساسهم بالعجز عن أن يكونوا غير ناقدين .

النقد بين الابداع والاسفاف :

يبدو لنا ان نعيمة حائر فى أمر النقد ، وفى تحديد المكانة التى ينبغى ان يشـغلها هـذا النشاط . فمرة يرفع النقد الى مرتبة الخلق، ويعظم الناقدين حين يذكر **تين وسانت بوف** الفرنسيين **وبيلنسكى** الروسى . فيؤكد ان من آثارهم النقدية ما يماثل كنوز الخلق الادبى . ومرة يحط من هذا النشاط واصحابه ، فيكاد ينكر فضلهم فيجعلهم كالدجاجة التى تقوقى كلما باضت رفيقتها ، ويدعوهم الى الشغـل بانفسهم والى الانتاج الادبى وترك سـواهم وشانه . وهنا يتهيأ لنا انه يميز بين نوعين من النقاد : نوع يعيش على هامش النقد وحقيقة عمليتـه فيفهمه تناولا للمؤلفـين ونتاجهم ، وهؤلاء يرفضهم نعيمة رفضا قاطعا . ونوع آخر يجعله قرين المبدعين بل هما من طبيعة واحدة ، وذات مهمة واحدة ، غير ان نعيمة لم يكن صريحا وواضحا فى هذا التعريف ، بل كثيرا ماكان يتحدث بصورة عامة فانت لاتكاد تعرف من يقصد من النوعين ، مما دفع رئيف خورى الـى ان يأخـذ عليه هـذه الظاهرة « فالاستاذ نعيمة حين يميل الى هذا التهوين من شـأن النقـد والناقدين انما يعتمد على فلسفة ليؤذن لى ان أصفها بالمائعة . فلسفة يصر بعض المفكرين على ان يستمدوا منها نتائج خاطئة بليغـة الضرر . تلـك هى الفلسفة « الليبراليـة » المحض وادعـوها بالعربيـة « الاصطفالية » دهى تستند على ان هـذه القيم التى نسميها الحق والخير والجمال قيم متحولة متبدلة فى العصور ، عدا انها فى كل عصر وبيئة تختلف مفاهيمها بل تتضارب نسبة حتى الى الاشخاص والافراد . وهكذا تكون النتيجة أن ليس فى الواقع من حق ولا خير ولا جمـال ترسم حدودها واضـحة معينة لاشية فيها . وبالتالى ليس فى الواقع من نقد بوسعه ان يدعي انه يصدر عن هذه القيم قيم الحق والخير والجمال ... (٣١) وتفسيرا لتلك الظاهرة فهو يصف العلاقة بين الكاتب والناقد على اساس من الحذر والحقد . فهما مستويان مختلفان بينهما خصام شديد ، ويريد لو تكون

---

(٣٠) وهذا ماذهب اليه Marmontel (1723-1799) راجع ايضا Fayolle, La critique P: 24

(٣١) رئيف خورى / الآداب ١٩٥٦ ع ١٠ ص ٩ .

العلاقة على أساس من الثقة والاطمئنان » . الا ان علاقة الكاتب بالناقد هى على الاجمال علاقة قلق وحذر وحرب قد تكون سخنة وقد تكون باردة . وكان من الأحرى ان تكون علاقة اطمئنان وثقة وسلام لوصفت نية الناقد واستقامت موازينه واخلص لنفسه ولعمله (٣٢) . فهو اذا يرد باعثها الى الناقد ويعتبره مسؤولا عن شكلها . ولعل **علي ادهم** يفسر ، فى شكل أو فى آخر ، جانبا مما يضمنه قول نعيمة هذا « من الطبيعى ان ينظر الناقد بشيء من الحسد الى الخالقين الموهوبين الذين يعبرون فى يسر وسهولة عن احزانهم ومسراتهم ، ويرخون العنان لخيالهم الموجد وعواطفهم الجائشة ، فى حين انه محروم من هذه القدرة الخارقة ولا يحسن سوى التحدث عما ينتجه الآخرون ، وشرحه وتفسيره . (٣٣) .

وهو اذ يفهم النقد غربلة لمجهوداتنا الادبية المشتركة لتمييز جيدها من رديئها ، وهو اذ يرى ان الاثارة اساس الملكة النقدية ، وهو اخيرا ، اذ يفصل فى العلاقة بين الكاتب والناقد ، يتأتى لنا بأن بحث نعيمة فى المفهوم النقدى لا يقوم على فلسفة فنية معينة ، او على أساس اتجاه مذهبى محدد ، او هو يستل من نظام فكرى فلسفى مترابط الاجزاء فيكون النقد نتيجة لـه على غرار المذاهب النقدية الأوروبية ، وهو لا يطرح مشكلة النقد على أساس أنه فن هو أو علم . او هو لا يبين علاقة النقد بالعلوم الانسانية واللسانية الاخرى ، كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم اللغة ... وبالتالى لا يبين نوع هذه العلاقة ودرجتها بل فى رأيه ، وبعيدا عن أى تعقيد مهمة النقد اكتشاف سر الحياة الذى تكتنفه الآثار الفنية.

فالحديث عن النقد ليس حديثا عن قيمة هذه الآثار على أساس جمالى او مثالى مطلق . وهو لا يعتمد فنية جمالية بل الحياة مباشرة . ان النقد الحقيقى عنده لا يكون التزاما بقواعد مفروضة ومسبقة بل هو استخراج قيم جديدة باستمرار من النصوص المدروسة . وهكذا يكون الناقد فى توتر دائم للخلق والابداع . فاذا كان المؤلف او الشاعر خالق أثر ما فان الناقد خالق قيمة هذا الاثر امام الجاهلين (٣٤) . فضله انه يقف كترجمان بين الملهمين وغير الملهمين (كارليل) **فمن هو هذا الناقد ؟ ما صفاته وما ثقافته ؟ وكيف يقف بين الأثر الأدبى والآخرين ؟** أولا يكون فى وقفته هذه سدا ، فى الوقت نفسه ، بين القراء والعمل الادبى ؟

● ● ●

صفات الناقد وثقافته :

ان النقد الأدبى ، فى اساسه ، وظيفة فكرية، مادتها المنتوج الأدبى ، باعتبار ان مبرر وجود هذا الأثر نفسه لا يمكن ان يكون الا بالقارىء وله ، فهو الذى يعيد خلق هذا النتاج باستخدامه وممارسته له . واذ الأديب نتيجة لروح وشكل تفاعل تحصل من عوامل كثيرة اجتمعت وانصهرت لتأتلف فى كائن جديد ، يؤكد بأنه ليس عملا من اعمال البنية الانسانية (كالمشي والأكل) بل هو شكل أو جزء من النمو الاجتماعى او الحضارى . فان الاصول والأدوات الجديدة فى النقد ، والاتجاهات فى البحث ، تعتمد فى أكثر احوالها ، على

(٣٢) دروب ص ١٨٥ .

(٣٣) علي أدهم ـ على هامش الأدب والنقد (دار الفكر العربى ، مصر . لا . ت) . ص ١٢٤ .

(٣٤) الغربال ص ١٧ ـ ١٨ .

فروض (٣٥) اصبحت أساسية في الفكر الانساني الحديث ومميزة له . واذا القارىء عاجز ، كل مرة ، عن الاهتداء وحده ، وبسهولة ، الى المقاصد والابعاد الحقيقية التي يكتنزها الابداع الأدبي ، كان على الناقد اذآ عبء المسك بالقارىء في يد ، والمسك بالأثر الأدبي وصاحبه في يد اخرى فيساعد القارىء على فهم العمل الفني وتذوقه ، ويساعد الفنان على ان يفهم منه ويقومه ، ويعين على تقدم الفن وتطوره بتعميم المعايير المطلوبة او بتحديدها وتجهيزها فيكون الناقد بالتالي مستقطبا بثلاثة اهتمامات واضحة : أولها الاديب المبدع والخلفية الفكرية التي استمد منها مقدماته بل كانت مدار وروح نتاجه ، وثانيها العمل الأدبي نفسه ككائن أصبح ما بينه وبين مبدعه مسافة ، فلم يعد ما أراده الأديب بل يصبح له استقلاله النسبي وقوانينه التي تحكمه بنفسه ، وثالثها القارىء الذي هو ، بالنهاية ، مرتكز جميع هذه المقومات والاهتمامات . فمن هو ، في رأي نعيمة ، هذا الناقد الذي هو حاجة ضرورية في المجتمع تبلغ مسؤوليته مبلغا دقيقا وخطيرا اذ اننا في حاجة الى الناقدين لأن أذواق السواد الأعظم منا مشوهة بخرافات رضعناها من ثدي أمنا ، وترهات اقتبلناها من كف يومنا ، فالناقد الذي يقدر أن ينتشلنا من خرافات امسنا ، وترهات يومنا ، والذي يضع لنا اليوم محجة لندركها في الغد هو الرائد الذي سنتبعه ، والحادي الذي سنسير على حدوه (٣٦) .

فحين يكون الماضي تراكما يورث الضلل ويبعث الشوه في أذواق الناس وملكاتهم واذا لا يعود الزمن أكبر مغربل اين منه غرابيل الناس (٣٧) ، يكون وجود الناقد منارا لا لكشف الغطاء عن ذلك الماضي لتحسس حقائقه ، وحسب ، بل لامكان تنبؤه بالغد واطلالته عليه ، فيكون له السبق في استشراق القيم الجديدة ، أي ، هو ، في حالات خاصة ، يوقظ جيلا من الشعراء كما فعل **امرسون** ، وقد يعين موضوعات للأدباء يكتبونها مثلما فعل **جوركي** ، وقد يغير اتجاه الفن او يحاول ذلك مترسما خطى **تولستوي** وخطى **بوالو** والنقاد الرومانسيين . او قد يمد الفنان بموضوعات محددة وقواعد وتقنيات علمية ... واذا يكون الناقد شبيها بمخرج فني ، يبين للقارىء الروح التي يجب ان يستلهمها في سبر أعماق الأثر الأدبي فلا يكون (هذا الأثر) ثابتا ونهائيا عند فراغ المؤلف من كتابته ، بل هو ، في الحقيقة ، ينتهي مع النقد . وهذا الناقد القادر على كل ذلك يخلق وفيه ملكة فطرية لهذا النشاط ، فهي لا تكتسب اكتسابا — كما ادعى اليازجي — بالمطالعة او بالدربة والممارسة او بأي سبيل آخر ، فهو من طينة النقد أي

---

(٣٥) يعود الفضل في هذه الفروض ، بالدرجة الاولى ، الى اربعة علماء كبار من مفكري القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وهم : داروين (منه جاءت الفكرة بان الانسان جزء من الطبيعة وان الحضارة تطورية) وماركس (القائل بان الادب هو الذي يعكس ولو بطريقة معقدة ملتوية احيانا ، العلاقات الاجتماعية ، والانتاجية لهذا العصر او ذاك) وفرويد (الذي يرى ان الادب تعبير مقنع وتحقيق لرغبات مكبوتة قياسا على الاحلام ـ وان هذه المقنعات تعمل حسب مبادىء معروفة ... وفكرته أن هناك مستويات ومدارج عقلية تقع وراء الوعي وان بين الرقيب والرغبة في التعبير صراعا مستمرا) وفريزر صاحب الافكار عن السحر البدائي والاسطورة والشعائر البدائية ...) كلها تكمن في اساس اعلى النماذج الادبية ، يضاف اليها فكرة السلوكيين بان الادب ليس الا رجلا يكتب ورجلا يقرأ ولا شيء غير ذلك ، وفكرة العقليين بان الادب قابل للتحليل » ... للتفصيل في هذا الموضوع راجع ستانلي هايمن : النقد الادبي ومدارسه الحديثة ج ١ ص ١٥ وما بعدها .

(٣٦) الغربال ص ١٧ .

(٣٧) راجع « في مهب الريح » (ط ٣ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٢) ص ١٦٤ .

هو يكون ناقدا ولا يصبح كذلك ، فيقرر حسب هذه الملكة الطبيعية والأصيلة (واذا النيرة) مقاييس وقواعد تنبع منها فتكون شكل رؤيتها للحقيقة وكيفية تمثلها لها « هناك خلة لا يكون الناقد ناقدا اذا تجرد منا وهى قوة التمييز الفطرية . تلك القوة التى توجد لنفسها قواعد ولا توجدها القواعد ، والتى تبتدع لنفسها مقاييس وموازين ولا تبتدعها المقاييس والموازين ، فالناقد الذى ينقد « حسب القواعد » التى وضعها سواه لا ينفع نفسه ولا منقوده ولا الأدب بشيء » (٣٨) من هنا التأكيد على شخصية الناقد تأكيدا لايحد ، وعلى مؤهلاته الطبيعية فيه واهمها قوة التمييز ، لأن النقد ليس « حكما » فقط بل هو قبل كل شيء « تمييز » و « تمحيص » و « ترتيب » فى مرحلة أولى . واذا فدراسة القواعد وتطبيق معطيات النقد وتقنياته لاتطلع ناقدا ، بل فى ذلك خيانة لحقيقة النقد والأدب على حد سواء ، اذ ليس من مهمة الناقد التعليق أو الادلال على المعايب او المحاسن فى النص الادبى ، وكما تتراءى له ، وهو لن ينفعه فى ذلك براعة أسلوب او طابع تهكم وسخرية ، (٣٩) لان فى ذلك قتلا للروح المبدعة فيه ، وفهما سيئا لوظيفته ، اذ الناقد خلاق ومبدع ولا شيء آخر . يتوسل الى ذلك « بالمعرفة » و « التمييز » و « الاحاطة » « للحق » و « الخير » و « الجمال » . **فالناقد الذى يتعرض الى اثر من الآثار الأدبية عليه ان يعرف الحق وان يميز الخير وان يحيط بسائر صفات الجمال ، كيما يحل له ان يصدر حكمه فى ذلك الأثر . الا ان مثل هذا الناقد لاوجود له على الاطلاق .** (٤٠) من هنا كان الناقد شريك الكاتب فى طبيعة العمل ومهمته ، سبيله ان يبصر الاشياء على حقيقتها ، محاولا ان لاتسود بين الناس غير روائع الآراء ، صادقا مع نفسه فى مايذهب اليه ، فعندما يعطى « من وهج روحه مقاييس للحق والخير والجمال » ولا يعيش على حساب غيره كالطفيليات ، عندها يرفع النقد الى مرتبة الفن العالى ويسر الأدب بأن يتبناه ويعتز به .

فهو مرشد من مرشديه ومنارة من مناراته وبانٍ من بُناته ، وكثيرا مايكون نقده من قوة الاشعاع والاقناع بحيث يقضي قضاء مبرما على اتجاه قديم فى الأدب ويدفع به فى اتجاه جديد . . . انه روح الثورة فى الأدب (٤١) واذا قد يفعل النقد ، حينا ، ــ فى الحركة الفكرية ــ **ما لا يستطيع الأدب وحده ان يقوم به . فهو** حديث مباشر مع القراء ، يشرح الاشياء ويكشف عنها الغوامض والأسرار التى اكتنفتها عملية الابداع والتوليد . فيكون روح الثورة فى الادب ، **اى ان النقد الخلاق هو المصدر وهو** السبيل ، معا ، فى التمهيد لمنازع جديدة وفى القضاء على اتجاهات قديمة ، او قل هو محك الادب يستظهر منه طاقة الحياة فيه وأسباب الجمود والموات أيضا ، فلكى يقضي نعيمة على نوع الأدب السائد أثناء ئذ (النازع الى القديم والقائم على براعة الاسلوب والبهلوانيات اللغوية والرياضة الكلامية) لم يجد غير النقد سبيلا يعتمده للقضاء على ترهات الماضى وللتمهيد لأدب جديد ، مغاير (ينزع للانسان) فكان المدماك الأول لبنائه الادبى على الاطلاق .

---

(٣٨) الغربال ص ١٧ .

(٣٩) دروب ص ١٨٢ .

(٤٠) المرجع نفسه ص ١٧٢ .

(٤١) المرجع نفسه ص ١٨٢ .

الذات هي الاصل

وعلى هذا يكون الناقد الخالق مقاييسه من نفسه والقادر على حمل القارىء والكاتب معا على احترامها والايمان بها ، انقى بصيرة وأوسع افاقا واسلم ذوقا واصدق نية وامضى عزما واشد ثقة بنفسه وبمقاييسه من قارئه ومن منقوده (٤٢) وهنا يفوق الناقد الكاتب في درجة الملكات او مستواها ، فلكي يستطيع ان يدخل ، غبر الاثر ، في تواصل مع الكاتب عليه ان يكون أولا من طينة الكاتب « من حيث ملكة الابداع ، ومن ثم مايملك هو من ملكة اخرى مهمتها محاورة الكاتب ، وبالتالي فالناقد قادر أن يكون اديبا ايضا من حيث الشعور بالحالة المولدة الواحدة ، لا من حيث طبيعة النوع الفني الذى يختلف باختلاف نشاطات ومجالات التعبير . » فلكي تكون ناقدا ممتازا يجب عليك أن تكون مؤلفا جيدا، فالموهبة تسمح بتلمس نظرات جديدة وتدفع بالناقد قدماً لتبين مقاييس في الجمال لم توجد بعد . (٤٣)

الناقد مبدع ايضا

لايقتصر عمل الناقد على ملاحظة ما هو أمامه وتمحيصه ، وتثمينه وترتيبه (٤٤) فهو مبدع ومولد ومرشد مثلما هو ممحص ومثمن ومرتب . فالنقد ، في النهاية ، حالة خاصة من المعرفة بحيث ان الناقد الاصيل هو الذى يجعلها شكلا من الحس ، يحولها الى نمط من الشعور خاص به « فهو مبدع عندما يرفع النقاب في أثر ينقده عن جوهر لم يهتد اليه احد حتى صاحب الاثر نفسه (٤٥) . **واذا يعتبر أولا** أن الانتاج الادبي ليس وليد خلفية فكرية يلتزمها الأديب ويسعى الى اثباتها وتحقيقها ، بكل وعي وارادة فيكون بالتالي عارفا بجميع ابعاده وبنائه وخفاياه ، وانما يقدر انه يصدر عفويا عن نفس صاحبه مع شعور بالغربة عنه، أى الاديب ، قد لايعرف جميع اسرار مولوده الأدبي . « ما أكثر ما تناولت قلمي وفي نيتي ان اكتب كيت وكيتواذا بي أكتب غير مانويت كتابته ، حتى ليبدو لي احيانا أن يدى ليست وحدها التى تقود قلمي . او ان قلمي ليس وحدى » (٤٦) واذا هو في موقف شبيه بموقف القارىء **ويعتبر ثانيا** ان مع الناقد ، وهنا ، يتكامل الانتاج الادبي من حيثولادته وتذوقه. **فالنقد « اكتشاف »** (٤٧) للموهبة وكشف عن ماهيتها . من هنا فان روح الخلق الأدبي وروح النقد الأدبى من نوع واحد « وفي اعتقادى ان الروح التى تتمكن من اللحاق بروح كبيرة

---

(٤٢) المرجع نفسه ص ١٧٨ .

(٤٣) Villemain (1970—1870) = Discours sur les avantages et les inconvenients de la critique.

(٤٤) يرى فردينان برونتيير (١٨٤٩ ــ ١٩٠٦) في مقالتــهعن النقد في « دائرة المعارف » ان غرض النقد : التمحيص والتصنيف والحكم . ويفهم الشرح والتمحيص على انه تحديدعلاقات الاثر بالتاريخ العام للادب ، وبالمبادىء الخاصة لنوعه الفني ، وبالمكان الذى طلع فيه ، واخيرا بصاحبه ، ويكونشرح الاثر يعنى تحديد موقعه من الحركة الادبية وتطورها وليست دراسة الظروف الجغرافية والاجتماعية غير معين لان المهم هو تحديد موقع الاثر في « الزمن الادبي » . والتصنيف والحكم هما عمل موضوعى غير شخصي اذا تطلبنااعتبار « الروح الادبى » من جهة ودور وظيفة النقد من جهة اخرى .

(٤٥) الغربال ص ١٨ .

(٤٦) سبعون (المرحلة الثالثة) ص ٢١٠ .

(٤٧) الغربال ص ١٩ .

فى كل نزعاتها وتجوالها فتسلك مسالكها وتستوحى موحياتها وتصعد وتهبط صعودها وهبوطها هى روح كبيرة مثلها (٤٨) . وهكذا فالتفريق الأصيل بين الناقدين والمبدعين فى الأدب لايملك اى معنى او قيمة ، او هو لايمكن ان يكون الا مع النقاد من الدرجة الثانية . وليست هذه الفكرة جديدة فى تاريخ النقد ، بل لها أسيادها وخاصة فى النقد الفرنسى انطلاقا من **سانت بوف** (١٨٠٤ ـ ١٨٦٩) وارتقاء **بمارسيل بروست** (١٨٧١ ـ ١٩٤٥) **واندريه سوياريس** (١٨٦٨ ـ ١٩٣٩) و (**اميل شارتييه**) الآن (١٨٦٨ ـ ١٩٥١) فلا يعود النقد حكما ، بل هو فهم الأثر واعادة خلقه ، اى ان الناقد قادر على اثارة العواطف والمشاعر المختلفة وان يعيش من جديد التجارب نفسها . **يقول دوبو** : ان طريق النقد المثالى هى طريق الابداع ولكن بأن يسلكها الناقد باتجاه معاكس . فهو يبدأ من حيث ينتهى المؤلف لينتهى من جديد حيث بدأ المؤلف ايضا ... ذلك انه من النادر ان تبدو لى حقيقة متميزة عن صاحبها ... ان كل شيء يبدو لى حقيقيا بالنسبة للقوة التى ابدعته ، فعلاقة التعبير الفكرى والاصالة التى تختفي وراءه تبدو فى عينى علاقة مشابهة ومماثلة (٤٩) وهكذا يكون الناقد ايضا مولدا « لانه فى ما ينقد ليس فى الواقع الا كاشفا نفسه ، فهو اذا استحسن امرا لا يستحسنه لانه حسن فى ذاته بل لانه ينطبق على آرائه فى الحسن ، وكذلك اذا استهجن امرا فلعدم انطباق ذلك الامر على مقاييسه الفنية (٥٠) اى ان الناقد هو محور العمل النقدى ، دائما ، كما الأديب محور الأدب (٥١) ، فلا قيمة لشيء الا بالنسبة للانسان، بالنسبة لرؤيته ومقاييسه الخاصة به التى هى « بنات ساعات جهاده الروحى ورصيد حساباته الدائمة مع نفسه تجاه الحياة ومعانيها . وهى اذا تسامت ثم دعمت من الناقد بالاخلاص والحماسة والغيرة ومقدرة البيان سطت بقوة خفية على جماهير قرائه فاعطتهم وجهة جديدة وايمانا جديدا (٥٢) وهكذا فبحركة تكاملية يصبح الناقد ، بدوره ، كاتبا لا ادعاء بذلك المرتقى ، بل رغبة فى أن يكون كذلك ، اذ الكاتب لا يمكن ان يحدد بمقاييس الدور او القيمة ولكن بالنسبة « لضمير » الأدب وحده . فعلاقة الناقد بالأثر الادبى هى علاقة الشكل بمعناه ، والناقد لا يمكن ان يزعم ترجمة الاثر الادبى وتفسيره وتوضيحه اذ ليس اكثر وضوحا من الاثر الادبى نفسه ، ومن ثم ما قيمة نص أدبى بحاجة الى شرح وتفسير ؟ . منا يمكنه هو ان يلتمس اتجاها يشتقه من شكل هو الأثر نفسه . وبالتالى فالناقد يثير امام النص الاسباب نفسها التى يثيرها الاديب امام العالم واشيائه.

غير أن هذا المنطلق التأثرى العامل بمنطق الذوق واحكامه انما هو امتداد طبيعى للقلق المتوثب عنده باستمرار ، فنقل افكاره عن الحق والخير والجمال من الموضوع الى الذات والنكران لهذه المجردات وجودا مطلقا او ملتصقا بجوهر الاشياء والافعال ، مؤكدا ان وجود هذا المثلث (من كيان الحياة) هو فى ذهن الانسان وحده (لا فى خارجه) مصدر

---

(٤٨) المرجع نفسه .

(٤٩) Du Bos, Journal (24 Novembre) 191 .

(٥٠) الغربال ص ١٩ .

(٥١) الغربال مقالة « محور الادب » ص ٢٣ ـ ٢٨ .

(٥٢) الغربال ص ١٩ .

الاحكام على الاشياء والافعال . وهكذا ففي مثل هذا الجو من الذاتية لم يعد للناقد مجال الكلام على مقاييس واضحة للادب فلم يبق امامه الا الشعور يعتمده في احكامه . فنقد الادب كثيرا ما يكون ، عنده ، عملا شخصيا كالتاليف الادبي سواء بسواء . غير ان شعور الناقد او القارىء(رضاه او نفوره) عما يقرأ، ناشىء في الحقيقة ، من انه وجد ما يحبه وما يميل اليه او ما يبغضه وينكره . وهذا شيء من خواص نفسه وميوله الذاتية . اى كأنه وجد نفسه فيما يقرأ لا نفس الكاتب ، واعجب بميوله الكاتب وآرائه ، وهكذا ترتفع قيمة الاديب او تتلاشى بمقدار ما يعبر عما يدور في خلد الناقد (او القارىء) **فنعيمة يقيم شانا عظيما للانطباعات الشخصية** . الا ان النقد لا يحتاج الى مثل هذه التعبيرات عن هذه الانطباعات وتعليلها ، لأنها ليست في حقيقة امرها ، الا انعكاسا مباشرا بشكل او بآخر ، لاهوائنا فيقع الناقد في خطأ مبين ، اذ لا يعود يرى الاشياء بقدر ما يرى نفسه . ذلك ان تحكيم مستوى ذوقي معين ــ مهما بلغ نضج هذا المستوى ــ انما يصدر عن موقف سيء : فهو يسلب الآخرين حريتهم (الاديب والقارىء) ، بل لشدة التصاقه بالنص الادبى لا يمكنه ان يراه بوضوح . أوليس البعد عن الاثر الادبى بعدا معقولا ومقبولا يسمح من تقديره قدرا أوفى ؟ بل ان هذا التحكم الذوقى هو شكل من اشكال الانصراف عن حقيقة التفهم لانه لون من الانانية والاسراف في تأكيد اهتمامات معينة لا تبقى الحياة اسيرتها ، بل تتسع لهنا ولغيرها . فكان على نعيمة ، بدل ان يعكف على ترديد صوت نفسه وقيمها دون ملل ، ان يتوجه الى ارساء أصول الفهم ودراسة مفاعلاته ، اذ ليس الغرض من الاطلاع على النصوص ان نؤكد باستمرار ما نحب وما نكره ، لأن في ذلك ، بالنهاية ، انطواء نفسيا ووجدانيا لا يقود الى اى ارتقاء ، او الى ادراك ما في القيم من تنوع لا ينفد .

وعندنا ، ان نعيمة حينما دعا الى اقامة الحد الفاصل ما بين شخصية الكاتب وما يكتبه لكى يسهل فهم الغربلة الادبية والقصد منها (كما سنرى في المقاييس النقدية عند نعيمة) انما كان يتحول الى اقامة علاقة شخصية اخرى ولكن ما بين الناقد والنص الادبي ، هذه المرة ، وبالتالى ، فالنقد كالفلسفة والتاريخ ، نوع من القصة في متناول نخبة تلاحظ وتهتم ، وكل قصة نمط من السيرةالذاتية ، والناقد الحاذق هو الذى يكتشف نفسه عبر روائع الآثار ، فاذا كان الشاعر يتلمس المجال الذى تتفتح فيه موهبته وتحيا فان الناقد يتلمس غريزته وما تنص عليه موهبته (٥٣) فيبعد النقد عن ان يكون علما بالمعنى الدقيق والشامل ، بل هو تفتق فني . من هنا يتبدى من جانب ، نوع العلاقة بين الناقد والكاتب ، انه من ثم مرشد « لانه كثيرا ما يرد كاتبا مغرورا الى صوابه ، أو يهدى شاعرا ضالا الى سبيله (٥٤) ولكن ليس كل ناقد كذلك (مر معنا آنفا ان لافضل للناقد على الكاتب) . غير ان خاصة الارشاد هنا تأتى نتيجة حتمية وطبيعية لخاصتى الابداع والتوليد في الناقد . ولكن كيف تتم هذه الوظيفة وما مداها في التجربة النقدية ؟

الناقد مرشد :

كثيرا منا يكون الأديب ، غير موفق في اختيار مجال نشاطه ، اى يكون ضالا سبيله . (هنا تعارض مع موقف آخر اصيل ودائم عند نعيمة يقول بان الادب ولادة فطرية في نفس صاحبه ،

---

(٥٣) Sainte-Beuve, Portraits littéraire , P. Corneille.

(٥٤) الغربال ص ١٩ .

واذا لا يصدر عن الفطرة والعفوية الا مايمسها وما يخصها ، فأية فطرة هذه صادقة تنتج فى مجال ما فاذا نتاجها فى مجال آخر ...)هذا الكلام لا يصدر عن موقف سليم وصادق فى مفهوم الادب وابداعه : فاما ان يكون الاديب لهذا المجال من نفسه وبها ، أو لا يكون أديبا . ألم يقل « من كان معدا للادب كان فى غنى عمن يدله على طريقه ، ففي داخله ومن خارجه حوافز لاتتركه يستريح حتى يتم التزاوج ما بين عقله وقلبه وذوقه وبين القلم والمداد والقرطاس (٥٥) . فيأتى الناقد ليهدى هذا الاديب الى فرعه ويدله بالتالى الى المجال الذى يصلح فيه » . رعندنا ،ان قيمة هذا الامر ضئيلة من حيث المتوخى من هذا الاديب بالذات . اما ان يكون الناقد مرشدا من حيث انه يكشف عن مواهب الكاتب الثمينة وودائعة النفيسة التى ضلها القراء فاذا بسخرهم من الاديب ينقلب تهليلا وتكريما له ، فهو امر واقع بل هو جانب من اهم جوانب المهمة النقدية . فمثل هذا الكاتب والشاعر هما هدية الناقد الى الامة والبشرية (٥٦) واذا هو مرشدا للقراء (ليس الناقد غير رجل يعرف كيف يقرأ ويعلم الآخرين كيف يجيدون القراءة (سانت بوف) . وما يريد ان يعلمه للاخرين هو الحس الجيد والقياس الصحيح دونما فرض لاية قواعد حاجزة او احكام مسبقة. وهو مرشد للمؤلفين ،ولكنلا من حيث هديهم الى النوع الفنى الملائم والمناسب لملكاتهم الابداعية (الملكة وحدها تقرر نوعها الفنى « لان النوع الفني عندنا هو شكل هذه الملكة اى لا يمكن ان توجد وتظهر الا به) بل من حيث الكشف ، على طريق الفنان ، عن قيم فنية وفكرية ، جديدة ، هي امتداد لقيمه او مغايرة لها . فمن التماس معها والاحتكاك بهذا الكشف تتولد امكانات جديدة باستمرار .

وعلى جميع ماتقدم من خصائص الناقد ، **نستنتج ان للناقد ، عند نعيمة ، شانا فى ذاته، ينبع من شان موافقة نفسها وليس من قوة اخرى** . فهو يد اب فى تأكيد ما يذهب اليه لا بواسطة قواعد او اصول أو موارد خارجة عنه ، **لان ما ذهب اليه ايضا ليس من منطلق خارج عنه ، بل سبيل تدعيم موافقة واثباتها** يعود الى نفسه والى قوته بالذات « ولا قوة تدعمنا (المقاييس والموازين التى تكون لكل ناقد) وتظهرها قيمة صادقة سوى قوة للناقد نفسه . وقيمة الناقد هى ما يبطن به سطوره ، من الاخلاص فى النية والمحبة لمهنته ، والغيرة على موضوعه ، ودقة الذوق ، ورقة الشعور وتيقظ الفكر ، وما أوتيه بعد ذلك من مقدرة البيان لتنفيذ ما يقوله الى عقل القارىء وقلبه (٥٧) موقف يذكر بما يراه **اناتول فرانس** فى « ان النقد لا يقدر الا تبعا لشخصية صاحبه ، والاكثر ذاتية منه هو الاكثر فائدة واهمية » (٥٨) .

بواعث النقد

البواعث التى تعطي النقد مركز التقدير هى نفسها البواعث التى تعطى العمل الأدبي وجوده وكيانه :

أ ــ اخلاص فى النية ، اى اصالة متمكنة لاتحيد عن الحق والحقيقة رافضة ان تقيم اى

---

(٥٥) فى مهب الريح ص ١٧٢ .

(٥٦) الغربال ص ٢٠ .

(٥٧) الغربال ص ١٦ .

(٥٨) A. France, la vie littéraire TI, P : 176.

شأن لما هو خارج عن عملية النقد (كالعلاقات الشخصية بين الناقد والمنقود فينحاز النقد الى التهليل او الى التحقير تبعا لنوع العلاقة على غرار ماراينا في الفصل الاول من هـذه الدراسة) .

ب ـ يستتبع هذا حبه لمهنته وغيرته على موضوعه ، فحيث لاحب لا حق ولا جمال ولا عطاء . فسمة النقـد السلبي ، افتقاده لعنصر الحب هذا (٥٩) اذ يورث فيه التزام عمله النقدي الصافي فيكون همـه ، وبالتالي لايقبل فيه الزيغ ، لانه يصدر عـن دقـة في الذوق ورقة في الشـعور وتيقظ في الفكر . فيتاتى لنا انه يريد ان يجعل من النقد عمـلا صعبا ، يعلم الجمهور ظواهر الأثـر الادبي الجميلة والمختلفة وان يصل عبرها بين مختلف العبقريات (سانت بوف) . وهو اذ يقيم لهذه الامور الوزن الاكبر فلا يغفل الحديث على ملكة التعبير عند الناقـد وطريقتها وقوتها ، لانها متممة للعناصر الاولى ، وهو اذ يضعها في درجة ثانية لا لشيء الا ردة فعل لما ذهب النقاد قبله من اعتبار النقد سبيل رياضـة لغوية قبل كل شيء . فما اشبه الحالة التي يصـدر عنها هنا بحالـة **فلوبير** حـين كتب (١٨٦٩) الى **جورج صـاند** عـن موضـوع الناقدين فقال « كان الناقدون في زمن **لاهارب** نحويين ، وفي ايام **سانت بوف وتين** مؤرخين فمتى يصبحون فنانين حقا وصـدقا (٦٠) . فعند نعيمـة اعتبـار كبير لطريقـة العرض النقدي ، اذ انه يؤمن بان كثيرا مـن الناس يملكون الحقيقة ولكنهم سرعان مايفقدونها من طريقة عرضهم لها .

الناقد يتذوق ليخلق

غير أن القول بهـذه البواعث والعناصر ، لايعنى ، في نهاية الأمر ، بان يكون الناقد هو الأديب . او انه لايجوز ولا صلاحية لناقد فن من الفنون الادبية الا اذا كان هو نفسه مـن ابناء ذلك الفن . وهذا مذهب قيل باخلاص وصدق عند العرب ، اذ المشكلة قائمة قديما في النقد العربي ، وذهب النقاد العرب فيها مذاهب شتى ، ولعل **ابن رشيق** يلخص طابع مذهبهم ذاك حين يقول بأن « أهـل صناعة الشعر ابصر به من العلماء بآلته مـن نحـو وغريب ومثل وخبر وما اشبه ذلك ، ولو كانوا دونهم بدرجات ، وكيف وان قاربوهم أو كانوا منهم بسبب ! (وقد كان ابو عمرو بن العلاء واصحابه لايجرون مع خلف الاحمر في حلبة هذه الصناعة ، اعنى النقد ، ولا يشقون له غبارا لنفاذهفيها وحذقه بها واجارتهلها) .(٦١) اى ان الناقد الشاعر ابصر عنده من الناقد غير الشاعر . ولكنه يقبل ايضا وبحماس بانه ليس من الضروري على ناقد فن ما بأن يكون هو اولا من ابناء ذلك الفن المنتجين له » وقد يميز الشعر مـن لايقوله كالبزاز يميز مـن الثياب مالم ينسجه ، والصيرفي يخبر مـن الدنانير مالـم يسكبه ولا ضربه ، حتى انـه ليعرف مقدار مافيه من الغش وغيره فينتقص قيمته ... (٦٢) وهو عين مايذهب اليه نعيمة حين يرد على ذلك الادعـاء بقوله مستشهدا بجواب احدهم وقد سمع هذا الاعتراض عينه « آعليَّ ان ابيض البيضة اذا لأعرف ما اذا كانت صالحة أو فاسدة ؟ » (٦٣) ولعل ذلك

---

(٥٩) Ernest Hello, L'Homme (la vie, la science, l'art) 1872.

(٦٠) ستانلي هايمن ج ١ ص ٢٧ .

(٦١) ابن رشيق ، العمده ج ١ ص ٧٥ .

(٦٢) المرجع نفسه .

(٦٣) الغربال ص ٢٠ ـ ٢١ .

يعود الى بعض المفارقات البديهية مابين النقد والادب ، فالادب يعتمد ملكة الخلق بينما النقد يعتمد ملكة التمييز . اى ان الاديب يخلق الاشياء ليتذوقها ، اما الناقد فيتذوق ليخلق . فهما شريكان ، لا فى نمط التأليف ، بل فى القدرة على الشعور بالحالة نفسها وبالتجربة ذاتها اللتين صدر عنهما العمل الادبى « غير ان من الناس من لايدركون أنمن لاينظم القصيدة قد يقرأ فيها اكثر مما اودعها ناظمها . فرب ناقد لم ينظم فى حياته بيتا ولا عرف مافى النظم من مشقة الأوزان والقوافى ولا من لذة الفوز بها ، غير ان ذلك لايعوقه عن ادراك مافى الافصاح من عوامل النفس من لذة روحانية، ولا يعميه عن تموجات الالوان فى الرسوم الكلامية ولا يصمه عن رنة الألحان فى مقاطع الألفاظ والعبارات . والا لايكون ناقداً . واذا تيسر له ذلك ففي امكانه الدخول الى مستودع روح الشاعر وتفقد مخبآته الى أن تتولد فيه حالة نفسية كالتى تمخضت فى الشاعر بتلك القصيدة . فيصبح الناقد كأنه الشاعر وكأن القصيدة من وضعه . واذ ذاك لاحاجة به ان يكون عالما بكل دقائق العروض ليفهم الشاعر ويقدر نتائج قريحته (٦٤) فيكون دون الشاعر أن ينقل الحالة كما هى ليأتى الناقد ويعيش هذه الحالة نفسها ، يعيد خلقها من جديد ليحلل خباياها وكنوزها . ولن يعيق الناقد شكل النتاج الادبى اذ همه مايحمل هذا النتاج من عوامل النفس ، فهو لاينظر الى كيف قال الشاعر بقدر ماينظر الى نوع ماقاله ، فغرضه تحليل الحالات النفسية للفرد وللوسط اللذين اطلعاه ، اى أن الناقد يتجه فى بحثه اتجاها يعتبر النص كصورة صاحبه المنتج له (التحليل النفسي) وهو فى كل هذا انما يصدر عن موقف ادبي واحد اذ يعتبر الانسان محور المنتوج الادبى ، وان سلطان الادب في انه أبدا يجول فى اقطار النفس باحثا عن مسالكها مستطلعا آثارها بصرف النظر عن شكله ، فليس هو معرضا للازياء اللغوية والبهرجة العروضية (٦٥) فاذا معه يتحول النقد الى وسيلة للتحليل النفسي بديل الاقتصار على الكشف عن الاخطاء اللغوية أو تبيان المعايب والمساوىء كما تحول فن النقد مع سانت بوف « من فن مساعد للتاريخ الى آلة حقيقية للتحليل والتفتيش واكتشاف أسرار النفوس » (٦٦) فدراسة الآنا التلقائية ، اى الشخصية الطبيعية والخام ، هى احدى وظائف الناقد الهامة . بل وظيفته الأولى على الاطلاق عند نعيمة . فالسر الحقيقى عند مؤلف لا يمكن أن يكون الا فى نفسه ، لذا كان من الأحرى على الناقد امام كل نص أو اى نص ، ان يسأل نفسه : الى اى مدى وبأى مقياس استطاع المؤلف ان يكشف عن نفسه الحميمة فيكشف ، في آن ، عن حقيقة الكون ومجراه (٦٧) ؟ ان ناقدا كمثل هذا الناقد يمتاز بخصائص وصفات طبيعية فيه من نفسية متأصلة « الاخلاص ، الطهارة ، الجرأة ، الذوق ، الشعور ... » وفكرية متيقظة وطاقة تعبيرية نافذة يكون رائدا لا يعدم اناسا ينضوون تحت لوائه ويعملون بمشيئته ، فيستحبون ما يحب ويستقبحون ما يستقبح، فيصبح وهو وراء منضدته ، سلطانا تأتمر بأمره وتتمذهب بمذهبه وتتحلى بحلاه وتتذوق بذوقه الوف من الناس . اذا طرق سبيلا سلكوه ، واذا صب نقمته على صنم حطموه ،

---

(٦٤) الغربال ص ١٧ ـ ٢١ .

(٦٥) الغربال ص ٢٧ .

(٦٦) راجع قسطاكى الحمصى ، منهل الوارد فى علم الانتقاد ، ج ١ ص ٩٠ .

(٦٧) هذا ما يقول به P. Valéry راجع M. Bémol, la méthode critique de P. Valéry P. 135-145.

واذا أقام لهم الهـا عبـدوه وبخـروا لـه وسبحوه (٦٨) لأنه انما يصدر فى ذلك لا عن فردية خاصـة به (وهنا يكـون الاختلاف والتفاوت بين الناس) وانما يصدر ــ فى تلك الخصائص المذكورة ــ عن الطابع العام والمناخ الطبيعي الـذى يحدده اطـار عوامل كثيرة : الزمان ، المكان ، ومسـتوى الشـعب الثقافى والفكري العام فيهما . فالناقد خير من يتمثلها جميعا ويصهرها فى بوتقة واحدة ، فهو فى عمله انما يعبر عن الرأى العام لمحيطه فاذا قال به لا يكون غريبا . فالناقد يعبر بالفعل عما فى نفوس قرائه من اسـتعداد فطرى للتذوق بالقوة . وهكذا لا يكون الناقد مقتلعا من الارض التى اطلعته بل هو واحد من وسط ، يختلف عنهم درجة لا نوعا ، فلديه قسط من الحساسية الحية اكثر من سائر الناس ، ومعرفة أشمل بطبيعة الخلق الأدبي ، وروح أوسـع احاطة بالنفاذ الى حقائق الاشـياء . وهو فى كل هذا انما يصدر عن حقيقة لا ترد ، وهى ان شيئا لا يمكن ان يكون من لا شيء .

النقاد طبقات

الا أن نعيمة لا يشير الى نوع الثقافة التى يجب على الناقد اكتسابها والى نمط المعرفة التى عليه العمل بنورها . فاذا كان ازدهار النقد يفترض ثقافة واسعة اكثر مما تتطلبه الأشكال الأدبية الاخرى ، فان نعيمة ، على ما يبدو ، لا يقـول بالناقـد المتخصص والمطبق لقوانين ونظريات العلوم الاخـرى . فالعلوم تنمو نموا كبيرا مع الايام ، حتى أن دراسـة فرع واحد منها تستنزف العمر كله اذا أريد تسليطها على النقد الادبى ، اى لن يبقى للناقد الا وقت قليل للتعرف على الأدب نفسـه . واذا دعا للتعرف على مآثر الآخرين ونادى بالترجمة « فلنترجم ولنجل مقام المترجم لأنه واسطة تعارف بيننا وبين العائلـة البشرية العظمى ، ولأنه بكشـفه لنا أسرار عقول كبيرة وقلوب كبيرة تسـترها عنا غوامض اللغة يرفعنا من محيط صغير محدود . . . الى محيط نرى فيه العالم الأوسع فنعيش بأفكار هذا العالم وآماله وافراحه واحزانه . فلنترجم (٦٩) فدعوته هذه لا تحدد ــ وعلى سبيل المثال ــ (تفكير نعيمة يكره التحديد فهو يتجه دائما اتجاهات عامة) حاجة الناقد الى علوم كعلم النفس والفلسفة والتاريخ ، وأية ضرورة تقتضـيه على ذلك ، اوليس مرد النقد قبل وبعد كـل شيء الـى الذوق والبصـيرة ؟ أوليس الناقد أيضـا كالشاعر يولد ولا يصنع ؟ ولكن هـل يصيب الذوق وحده فى كل مرة ؟ فلطالما أحس نعيمة بهذا الهاجس الذى كان يقلقه ، باسـتمرار ، فتراه فى كل مرة يسارع الى الطرف الآخر من الحذر والاحتمال ولا يجزم فى الموقف الواحد جزما قاطعا فيسـتدرك « غـير أن الناقدين طبقات . كما ان الشعراء والكتاب طبقات . فما يصح ان يقال فى الواحد منهم لا يصح ان يقال فى كلهم (٧٠) . **وهكذا فان نعيمة هنا ينزع الى تقسيم (٧١) النقاد والشعراء الى طبقات منزع النقاد القدامى انفسهم فى تصور الشعراء على أنهم طبقـات** (ابن قتيبة : الشـعر والشعراء) فيهتمون بالمفاضلة اهتماما ينافس التحليل والكشف . غير انه لا يبين لنا أيضـا

---

(٦٨) الغربال ص ١٦ .

(٦٩) الغربال ص ١٢٦ .

(٧٠) الغربال ص ١٧ .

(٧١) طالما ترددت هذه النزعة الى التقسيم عنده ، فهى تصدر عن ايمان بان « الناس من حيث قواهـم الجسديـة والعقلية والروحية ليسوا سواسية » راجع نعيمة : رسالـة آل رضوان الشهال .

على اى اساس يجرى هذا التقسيم الطبقى ؟ وانما كل ما نعرفه ان الناقد كلما ملك من قوة التمييز الفطرية كان ناقدا اكبر . وبمقدار ما يسبر غور الأديب ويعرف كنهه ويحاور المبدعين الكبار بمقدار ما يكون ناقدا : « فظاهرة النقاد الكبار الاعجاب بالشعراء » (هوغو) .

الناقد بنيّاته :

وكان طبيعيا أن يصل به هذا الحذر الى النهاية الحتمية فيستنتج بأن « ... الناقد لا ينجو من زلة او هفوة . فقد يرى القبيح جميلا ، او يحسب الصحيح فاسدا وما ذاك الا لانه بشر والعصمة ليست لبنى البشر (٧٢). اوليس فى هذا القول ثمة تعارض مع ما قدمه من ان « الناقد مرشد » او انه حاجة ضرورية فى المجتمع لانتشال الناس من الخرافات والترهات . وربما يصدر هذا الرأى عن ايمان عميق عنده ، بمبدأ الصدفة ، اى ان النقاد ــ كذلك الكتاب ــ نتيجة لعوامل معلومة ، يكتبون ما تمليه عليهم ملكاتهم المبدعة ، وما صدف ان حمل من طاقة الحياة وامكاناتها يستطيع البقاء ويكون سليما صائبا ، والا فلا وعلى هذا يمكن التفسير الوحيد لكثرة تطلبه بان الحياة هي خير غربال وافضل ناقد . لأن المسألة برمتها عند نعيمة ، انما هي مسألة نسبية ، فما هو صحيح او خطأ وما هو جميل او قبيح هو كذلك بالنسبة للحياة ، فهى القوة الخفية التى تحفظ للاشياء بقاءها او تحرمها اياه . ويجب ان نأخذ معنى الحياة هنا لا على انها مجرى العيش اليومي ــ وهو جزء منها ــ بل هى الحاجات والمقاييس المشتركة بين بنى البشر ، والتى تخاطب جوهر الانسان الحميم والذى لم يتغير عبر الأزمنة والأمكنة . فالحياة عنده خبرة شعورية وفكرية . ثم ليس من يقين مطلق فى الحياة ، فما هو خطأ الآن قد يبدو صحيحا فى لحظة اخرى وتحت عوامل وظروف اخرى ، وما يبدو جميلا فى حالة قد يفقد شيئا من جماله فى حالة اخرى . من هنا كانت تخف وطأة زلة النقاد وينعدم خطرها الفادح . « فلنحاسب الناقدين بنياتهم اولا ، فان اخلصوا النية فزلاتهم مغفورة لهم (٧٣) فالمهم ان تكون النية سليمة » اى طبيعة نفس الناقد واصالته ، خالية ، من اية شائبة ، عندها لا قيمة لخطأه ، لأن جوهره الانسانى صاف فيستطيع ان يعوض تلك الهفوة ، خاصة اذا كانت مقاييسه محكمة متناسقة واجاد استعمالها فذاك حد ما يحق لنا مطالبته به (٧٤) ــ ليس لنا ان نسأل الناقد لماذا يقف هذا الموقف من هذه المسألة . له ان يذهب فى ذلك مع ما ترتضيه نفسه . انه حر . المهم ان ينبثق عن نفسه ، كالأديب . واذاً لا يمكن درسه على اساس ما قال ، بل على اساس ما يرتبط بالنفس وما يكشف عنها فى عرض مترابط منظم منسق الأجزاء والكليات . وعندنا أن الأمر ينطلق من موقف واحد من الأدب والفن عند نعيمة ، اذ لا يعتبر الأديب او الناقد من غير طينة البشر (وهنا رد عنيف وقاس على اصحاب النظرة المميزة للأديب عن سائر الناس والقائلة بتفوقه النوعي على البشر) بل هو يتهكم من الأديب الذى خال انه جُبِلَ من غير جِبِلَّةِ الناس ، فراح يلبس غير ما يلبسون ، ومن ذلك قوله بلسان ميشلين موجها كلامه اللاذع لجبران ذلك العهد « انت خلقت للشعر والفن وانت تعتقد أن الشعر والفن رزق من السماء . وانا ــ كما قلت لى مرة ــ من التراب وللتراب . وقد كنت اظن فى بساطة قلبي ان التراب الذى

---

(٧٢) الغربال ص ١٥ ــ ١٦ .

(٧٣) الغربال ص ١٦ .

(٧٤) المرجع نفسه .

ينبت القمح الغذى والزنبقة الطاهرة والوردة الجميلة يصلح كذلك تربة للشعر والفن (٧٥) . فهو اذاً لا ينم عن منظور ارستقراطي في فهم وظيفة الأدب والنقد ، وانما يريد ان يرى الاشياء والجمال والقوالب ... عبر حقيقة النفس والحياة ، لأن لا شيء فوق النفس والحياة اللتين تعطيان الموجود قيمته (الموجود قيمة روحية : سنفصل هذا عند الحديث عن المقاييس النقدية) من هنا اذا لم يكن للناقد من فضل سوى فضل رد الأمور الى مصادرها وتسميتها باسمائها لكفاه ذاك ثوابا (٧٦) لأن **اساس العملية النقدية السعي الى اكتشاف** ومعرفة حقائق الامور والاشياء . المهم ان يبقى منارا ضابطا لمعالم القيم ، فالسواد الأعظم من النـاس لا يمكن ان يحافظوا أو ان يبقوا باستمرار ، ودون « مرشدين » ، في كل مرة ، ضمن الاطار الروحي والحي السبيل الوحيد لادراك الموجودات وجوهرها . فليس عند جميع النـاس القدرة على النفـاذ الى لبِّ الأمور ، بل كثيرا ما يتناولونها عرضا ، فليس عندهم دائما هَمُّ التحري والسبر في الاعماق. من هنا كان الناقد ضرورة يتعامل مع اذواقهم وطبائعهم وملكاتهم ، يحاول ان ينظفها من الشوائب عن طريق الهدى فهم منضوون تحت لوائه. ولكن التعامل مع الناس صعب وشائك : فعدا كون النقد عملية معقدة ، فان طبائع الناس ايضا (والنقد في سبيلهم بالدرجة الأولى ولأجلهم) مختلفة ومتعددة . من هنا صعوبة التحدث الى جميعهم بالرضى والقبول فيكون حظه منهم قليلا لأن النقاد « لا يرضون فريقا من الناس الا باغضاب فريق آخر ، غير ان القوى بينهم — والقوى من اخلص النية — لا يحفل بمن يرضى وبمن يغضب لأنه يخدم غاية اكبر من رضى الناس وسخطهم ، ويتم وظيفة هي من اهم وظائف الحياة (٧٧) . **وهكذا يبقى الاخلاص في النية المعيار الأوفى في الحكم على كفاءة النقاد ومقدرتهم وصلاح مذاهبهم .**

وعلى هذا يسير الناقد الأدبي موازيا للأديب : له نظرة يتدبرها خاصة به ، تكونت بطريقة عفوية طبيعية ، فيصبح بالتالي صاحب دعوة ادبية جمالية من خلال نقده فيضع النص الادبي باعتباره مجالا متحركا . فليست وظيفته اصدار احكام اخلاقية مقنعة خلف مظاهر الاستحسان او الاستقباح الجمالي فحسب ، بل هي وظيفة تشريحية ايضا تفتش عن « نسمة الحياة » وعن « المدى » بناء على مقاييس واضحة ، واصول تنبع من نفس الناقد ، لأن النقد يدور حول الفهم والتذوق بالدرجة الأولى . غير ان هذا لا يعني ابدا ان الفهم شيء والتذوق شيء آخر ، اي ان الاول يخضع للعقل والآخر يوضحه . ان الناقد يقوم بمهمة النقد لأنه انسان (لا مجرد آلة) له اهتماماته ومبادئه ومعتقداته ، ومر بتجارب ادبية وغير ادبية ! فيهتم بتحويل تجاربه وخواطره وانفعالاته الى مفاهيم .

●●●

المقاييس النقدية :

من الطبيعي ان مفهوم الأدب هو الذي يحدد ، في شكل او في آخر ، مفهوم النقاد واتجاهاتهم ، ويصدق هذا اكثر حينما يكون الناقد نفسه أديبا ، فيصدر عن خلفية وجودية هي روح نظراته وجوهرها على تعدد مناحيها واشكالها ، والمقاييس النقدية هي كل مفهوم للنقد ، وكمثل الأدب ، هي محصول نوعي

---

(٧٥) نعيمة ، كتاب « جبران خليل جبران » ص ١٢٤ .

(٧٦) الغربال ص ١٨ .

(٧٧) الغربال ص ٢١ .

لناقد له صفات وخصائص أصيلة فيه ، ومرتبطة أيما ارتباط بطبيعة موقفه من الاشياء والوجود عامة . ولما كان النقد قراءة متعمقة للآثار لاكتشاف ما فيها من أبعاد فكرية (لا تؤخذ كلمة فكر هنا بمعناها التجريدي بل من حيث هي تصدر أو تشحن بطاقة وجدانية وشعورية نافذة) ولما كان هذا الاكتشاف مرتبطا بقدرة الناقد (٧٨) وملكاته (بحيث انه لا يمكن تصور العملية النقدية بلا ناقد يقوم بها) كان النقد ، تبعا لذلك ، عملا فنيا فرديا ، يختلف باختلاف النقاد ومنازعهم ، ولما كانت الحقيقة نسبية (لا تظهر الحقيقة الا من خلال منظور معين ولا يمكن ان « نراها » كما هي (٧٩) اي هي لا تكون الا بنا وتبعا لمداركنا لها) كانت المقاييس التي تبنى عليها نسبية ايضا وبالتأكيد . **من هنا كان النقد عند نعيمة ، في أساسه ، عملية فردية لا تنقاد الى التصنيف العلمي تماما كأي نشاط آخر »** والعمل الفني عملية معقدة لانه عمل نفساني ، وليس حديثنا عن تكوينه ونموه في نفس الفنان ، ثم عن ولادته ، غير ضرب من الرجم بالغيب . فكيف بتذوقه وتفهمه من قبل الذين لم يجعلوا به ولم يلدوه ؟ انه لأمر يعود في النهاية الى فطرة المتذوق والمتفهم ، والى مزاجه وميله وثقافته ومجمل تركيبه الجسداني والعقلاني والروحاني . لذلك لم يخضع تقدير الفن ولن يخضع لقياسات « علمية » وسيبقى عملية فردية لا تنقاد الى التصنيف العلمي (٨٠) ففي الواقع ليس ثمة الا حالة نفسية ، الا شكل خاص من التفكير لانتاج هذا أو ذاك من الآثار ، ويجب تبعا لذلك اعتماد الحالة النفسية ايضا في تذوقها وتقديرها حق قدرها أن كل عمل فني يمثل حالة خاصة ويجب ان يحكم عليه باعتباره حالة خاصة . ان التصنيف العلمي واي شكل اتخذه ، لا يمكن ان يحيط بالانتاج الأدبي ، لأن الأدب ، في النهاية ، « مفارقات » والناقد يتذوق وفقا لطبيعته (اى السليقة) ويصدر احكامه نتيجة لذلك (اى للتأثير الذي أحدثه الانتاج الأدبي في نفسه) بالجودة أو الرداءة في صورة عفوية وان كان لها في واقع الأمر أساسها الجمالي الدفين في نفسه ، فيقول سانت بوف « ان النقد لا يمكن ان يصبح علما وضعيا ، وسيبقى دائما فنا دقيقا في يد من يحاولون استخدامه وان يكن قد اخذ يستفيد واستفاد بالفعل من كل ما انتهى اليه العلم أو كشف عنه التاريخ من حقائق (٨١) (سانت بوف) . فالمسألة اذاً مسألة احساس فردي (ذاتي) فبقدر ما تحب الأثر وتنفعل فيه يكون لحكمك قيمة (الحب هنا يكون شخصيا أصيلا ونابعا من الذات نتيجة الاحتكاك المباشر بالنتاج الأدبي ، ولا يعني ذلك الحب المتولد عند الآخرين من مجرد قولك لهم بأن هذا النتاج جيد) ومع ذلك « فالنقد مذهبيا كان أو غير ذلك ، ومهما تكن اهدافه ، لا يصل الا الى ان يحدد الأثر الذي يخلقه في نفوسنا في وقت ما هذا الكتاب أو ذاك ، وقد دون فيه

---

(٧٨) يرى نعيمة دائما انه « لابد لكل مذهب جديد ، ان في الادب او في سواه ، من شخصية قوية توجه خطاه وعبقرية فذة تتعهد نموه » نعيمة : وولت هنتمان او الشعر المنسرح : الادب ص ١ (١٩٣٥) ع ٤ ص ٩ .

(٧٩) يرى رولان بارت ان ما يطلب الى الناقد ان يصدر عن خلفية لا ترى الحقيقة بل تحاول ان تكونها ، بحيث يحق لنا ان نداعيه لا بان يجعلنا نعتقد بما يقول ، بل يجعلنا نؤمن بما قرر قوله ، وهو يستعين في ذلك بقول « كافكا » الشاعر ان كل العالم لا يمكنه رؤية الحقيقة بل يمكنه ان يكونها

Roland Barthes, critique et vérité, P. 75.

(٨٠) نعيمة : من رسالة الى رضوان الشهال بمناسبة كتابيه « في الشعر والفن والجمال » . « و ابو الطيب المتنبي » بسكنتا في ١٠ كانون الثاني ١٩٦٢ .

(٨١) راجع محمد مندور : في الادب والنقد ص ٦٥ .

المؤلف نفسه الأثر الذى تلقاه هو الآخر من العالم الخارجى فى وقت ما (جول لوميتر) ، وعلى هذا يبنى نعيمة أساس عمله النقدى الذى يصدر عن نفسه وذوقه وثقافته التى تبتدع لنفسها المقاييس والموازين » فلو كان لنا « قواعد » ثابتة لتمييز الجميل من الشنيع، والصحيح من الفاسد ، لما كان من حاجة بنا الى النقد والناقدين . بل كان من السهل على كل قارىء ان يأخذ تلك « القواعد » ويطبق عليها ما يقرؤه (٨٢) من هنا ، ومن جميع ما تقدم ، يتأتى لنا بأن نعيمة ، فى مذهبه ، ناقد تأثرى يعتبر الذوق (٨٣) السبيل الوحيد للقيام بمهمة النقد والأدب » والذوق الفنى هو الذى يدل الشاعر على الكنوز الشعرية فى الموضوع الذى ينتقيه ، ثم يهديه الى الطريقة المثلى لعرض تلك الكنوز وابراز ما فيها من روعة وجمال وتناسق ومعان . فلا يكثر الطلاء حيث يكفى القليل . ولا يصرح حيث يكفى التلميح . ولا يسهب حيث الايجاز أوفى بالغرض واوقع فى النفس . ولا يعظ حيث الوعظ بلادة . ولا يغالى حيث المغالاة تصنع وتكلف وتدجيل ، وتعفير خد وجبين ، وتسخير كرامة ووجدان ، واهانة للفن الذى يجب ان يتسامى ابدا عن التملق والذل والامتهان (٨٤) . فهو يعتقد على نحو ما يعتقد **برك** (٨٥) ويصر بأن يكون الحكم على الشعر بحسب تأثيره (٨٦) فى العاطفة ، أى النقد بمقتضى المقياس الذاتى الصرف .

« والحق ان لكل جيل نمطا من التذوق الفنى ، والاجيال فى ذلك كالافراد من الناس لكل طريقته ومذاقه ومطالبه واغراضه الفنية الخاصة . والتذوق الفنى الخالص حين لا يكون مجرد حكم مصطنع انما هو فى رأيى مثال أعلى ، ويجب أن يظل كذلك ما دامت عملية التذوق قضية أناس يطوون الحياة وهم مقيدون فى وجودهم بحدود الزمان والمكان (ايليوث)

فتكون السمة الأولى للدراسة الأدبية هى العناية بالعواطف والمشاعر ، ومعرفة ما اذا كانت متكلفة وعاجزة او صادقة ومؤثرة .

ولعل مبعث هذا الاهتمام ، عند نعيمة ، بالعاطفة والتأثير انما يرجع عندنا الى ظواهر طبيعية كان لها الفعل الأكبر فى توجيهه الى ذلك نذكر منها :

١ ــ ردة فعل لما ورث نعيمة فى مستهل هذا القرن من شعر ردىء نوعا ومستوى .

٢ ــ اعتبار اللغة ، قبله ، غاية الابداع ومنتهاه وهو فى الحقيقة امتداد لوظيفة الشاعر العربى ــ بفعل عوامل ساعدت على انحرافه عن مبدئه الأول ــ فى العصور المتقدمة اذ كان النقد العربى القديم نفسه يكرس جانبا عظيما للحديث عن الشعراء الذين يسحرون الناس بألفاظهم .

---

(٨٢) الغربال ص ٦٧ .

(٨٣) بدا النقاد ـ فى الادب الانجليزى ـ يعتبرون اهمية « الذوق » ووجوب توفره فى الناقد البصير منذ اواخر القرن الثامن عشر : « والذوق هنا معناه الادراك الغريزى لخصائص العمل الفنى ، او الحدس بطبيعة النتائج وبقيمته . ولاشك ان الناقد حينما يعتمد على الذوق بهذا المعنى لايلجا الى القواعد الملقنة ولا يكتفى بتطبيقها تطبيقا اليا . كما ان اعتبار الذوق المعيار الاخير فى تقييم الادب يعنى احلال العنصر الشخصي او الفردى ، اى شخصية القارىء محل القاعدة العامة التي كان يطبقها الناقد تطبيقا موضوعيا من قبل .

(٨٤) نعيمة : خليل مطران فاتح عهد وخاتم عهد ، الرسالة ١٩٥٧ ع ٥ ص ٢ .

(٨٥) يصر برك على ذلك فى رسالة موضوعها « بحث فلسفى عن منشا آرائنا فى الجلال والجمال ظهرت عام ١٧٥٦ فكان اصراره هذا اول مناداة بحقوق المذهب الحر فى النقد الادبي . راجع فى ذلك : لاسل آبركرمبى : قواعد النقد الادبى (ترجمة محمد عوض محمد) ص ١٧٥ .

(٨٦) يلحظ هنا ان دعوى نعيمة هذه ليست جديدة بل ظهرت تباشيرها واسبابها منذ مستهل هذا القرن مع سليمان البستاني ومصطفى لطفى المنفلوطى قبل هذه المرحلة .

٣ ـ لقد وصلت دراسات الأدب فى القرون الوسطى الى جمود ، وعناية بالشكل ، واستغراق فى التقسيمات والتفريعات ، مما قتل روح الجمال الأدبى وخرج تذوق النصوص من طبيعتها الفنية الى طبيعة البحث المنطقى او الرياضي، فأصبحت همة الدارسين منصرفة الى بيان ما فى النصوص من تشبيه واستعارة وايجاز أو اطناب ، وجناس أو طباق ، واصبح الناشئون لا يتذوقون من روائع الآثار الأدبية الا معرفة اجزاء الاستعارة او تقرير الكناية ، **أو تمييز هذه الناحية أو تلك من المحسنات** البديعية (٨٧) .

غير أن هذا التجديد ، عند نعيمة وامثاله ، فى تشييد دعائم التأثرية فى النقد العربى الحديث ، هو ، بشكل او آخر ، من قبيل « الاحياء » للنزعة النقدية العربية القديمة . أى ان لهذا التجديد منطلقا فى القديم . ولقدر ما استفحل امر النزعة التأثرية فى النقد العربى ، قديما ، عم شيء من الفوضى النقدية حاول المرزوقى تصويرها « وزعمت » ... فانك مع طول مجالستك لجهابذة الشعر والعلماء بمعانيه ، والمبرزين فى انتقاده ، لم تقف من جهتهم على حد يؤديك الى المعرفة بجيده ومتوسطه ورديئه. حتى تجرد الشهادة فى شيء منه ، وتثبت الحكم عليه أو له ، آمنا من المجاذبين والمدافعين ، بل تعتقد ان كثيرا مما يستجيده زيد يجوز الا يوافقه عليه عمرو ، وانه قد يستحسن البيت ويثنى عليه ثم يستهجن نظيره فى الشبه لفظا ومعنى حتى لا يخالفه ، فيعرض عنه اذ كان ذلك موقوفا على استحلاء المستحلي واجتواء المجتوى (٨٨) .

فاذا بالحكم النقدى العام يصبح ، فى أساسه ، طبعا واستعدادا متمكنين فى النفس وقادرين على التمييز والابداع . ويؤيد هذا المنحى ويسلكه القاضى الجرجانى اذ يقول « وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه والعنف به ، ولست اعنى بهذا كل طبع ، بل المهذب الذى قد صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الرديء والجيد ، وتصوير امثلة الحسن والقبح (٨٩) . ومع ذلك يبقى النقد مهمة لا تقتصر على تعليل استحساناتنا ، بل تندفع ايضا الى معرفة طبائع الاشياء من منظور مقبول عند الطبائع السليمة الاخرى ، على غرار ما نحا الآمدى (٩٠) اذ يقسم الذوق الى ثلاثة أقسام : الطبع والحذق ثم جماع الاثنين اى الفطنة . من هنا فان « التذوق نفسه يستطيع ان يكون ذا معايير يقيس بها صحته ورصانته ، ولا بد لكى يكون مكتملا من أن يدل على فهم « دائم » لغاية هى النتيجة الضرورية، بل هى الثمرة الصحيحة لما فيه من صحة ورصانة (بلا كمور) .

اما المعايير أو المقاييس الاخرى (والتى اساسها الذوق دائما) التى يعتمدها نعيمة فى النقد فينبغي ، تسهيلا للدرس والبحث ، ان نقسمها الى قسمين : واحد يتناول فن النقد

---

(٨٧) محمد خلف الله : من الوجهة النفسية فى دراسةالادب ونقده ص ١٢٤ .

(٨٨) المرزوقي : مقدمة شرح ديوان الحماسة (القاهرة١٩٥١) ص ٤ .

(٨٩) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبى وخصومه(ط صبيح ١٩٤٨) ص ١٩ .

(٩٠) « ويبقى مالم يمكن اخراجه الى البيان ولا اظهاره الىاحتجاج وهى علة مالا يعرف الا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة وبهذا يفضل اهل الحذاقة بكل علم وصناعة منسواهم ، ممن نقصت قريحته وقلت دربته ، بعد ان يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطبائع وامتزاج ، والا لايتم ذلك ،واكلك بعد ذلك الى اختيارك وما تقضى عليه فطنتك وتمييزك فينبغي ان تنعم النظر فيما يرد عليك ولن ينتفع بالنظر الامن يحسن ان يتامل ، ومن اذا تامل علم ومن اذا علم انصف » راجع الآمدى : الموازنة (ط المعارف الاولى ج ١ ص ٣٨٣ ـ٣٨٤) .

بعامة ، وواحد يتناول العمل النقدى بذاته ويستخرج من خلال النقد التطبيقى عنده ، على ان كلا القسمين واحد فى روحه وشكله ، ويؤلف فى النهاية أصول مذهبه فى النقد .

انه يرى أولا ان لكل ناقد موازينه ومقاييسه الخاصة به (٩١) . وهذا ينطلق من اعتباره النقد ذاتيا لا موضوعيا . وقوله بقوة التمييز الفطرية قبل الموازين فصحيح ، لأن فقدانها لا تعوضه المقاييس والقواعد (وهو هنا يتفق مع ايليوت فيما ذكرناه آنفا فى أن كل جيل يختلف عن الجيل الآخر فى فهم الأدب ، ولذلك ياتى بمعايير خاصة ، والذوق الفنى المطلق مثل أعلى ...) . ويدعو ثانيا الى التمييز باصرار ما بين شخصية المنقود وآثاره الكتابية والا « فلا يكون الناقد من حاملى الغربال او الدائنين بدينه » (٩٢) ولشد ما يشبه هنا André Suarès فى اعتباره ان اهتمام الناقد يتعلق بالنتاج الأدبى وليس باعتبارات شخصية تخص صاحبه . وعيبه ان يجعل من المؤلف هدفا له عبر النتاج نفسه ، عندما ينال من صاحبه سواء بالهزء به او بشتمه . ولقد اسهب فى شرح هذا المبدأ الناقد المعاصر Richards لأهميته ، ولكن نعيمة المح اليه بايجاز ، ورأى ريتشاردز أن على الناقد ان ينحو جميع العوامل التي تفسد عليه حكمه كالاختلاف فى المذهب والاتفاق فيه او وجود استجابات جاهزة فيكون الانفعال من مخزون القارىء لا من القصيدة نفسها او دقة الحس او اللاحساسية ... ويقول ريتشاردز « علينا ان نتجنب الحكم على العازفين على البيانو بشعرهم » (٩٣) فقول نعيمة اذاً على ايجازه على جانب كبير من الأهمية للوصول الى الحكم الصحيح ، ولابداء الرأى بحرية وشجاعة ، وللسمو بالنقد الى المرتبة الخليقة به . واذاً على الناقد ان يفتش عن الفكرة التى تسكن المؤلف فجعلته « اداتها » فيكون النقد تحليلا وخلقا اكثر منه صوغ احكام واطلاقها » فكما يخلق الكاتب نفسه فى ما يكتب يخلق الناقد نفسه فيما ينقد . وما الأثر الذى ينقده غير الحافز والمشحذ . اما النور الذى يلقيه على ذلك الأثر فنوره (٩٤) اذ الناقد الجيد من يروى مغامرات نفسه وروحه غير الأثر المنقود (اناتول فرانس) . من هنا كان الأثر الخالد هو ما فيه بعض من الروح الخالدة (٩٥) . والروح الخالدة هى ، فى نظره ، قوة الفن الذى مهما تسامى فى نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الاهمية على شيء مالم يترجمه صاحبه والناس الى قوة تنشط بهم من علاقات المعيشة المحدودة الى حرية الحياة التي لاتحد من الانسان فى الله ، الى الله فى الانسان (٩٦) انه ، فى النهاية ، وبكلمة واحدة « هو الحياة والحياة هو (٩٧) لذا كان على الناقد أن يفهم الجمال ، والألوان المبهجة لاتصنع الضعف فلا الكلام الجميل يرفع الشناعة الى مستوى الجمال ، والالوان المبهجة لا تصنع الضعف قوة ، وقولك ان الحب هو الله لا يجعل الشهوة

---

(٩١) الغربال ص ١٦ .

(٩٢) الغربال ص ١٣ .

(٩٣) راجع اسحق موسى الحسيني : النقد الادبي المعاصر فى الربع الاول من القرن العشرين ص ٩٨ .

(٩٤) نعيمة : النقد والكلمة : الاداب ص ٩ (١٩٦١) ع ١ ص ٤ .

(٩٥) الغربال ص ٢٦ .

(٩٦) نعيمة : جبران خليل جبران ص ٧ .

(٩٧) المرجع نفسه ص ١١٧ .

الجســدية الهنا ولا اللذة الحيوانيــة ناموس الحيــاة (٩٨) فليس همُّ نعيمة فى النقد ابراز قيمة الآثار الضئيلة ، بل رد الموضوع المنقود الى حقائقــه العقليــة والاخلاقيــة والعاطفية فيتعرف الى هذه الحقائق كمجموعات متصلة محاولا ابرازها بايضاح الانطباعات دون تنسيق او مبالغــة . على اننــا نفهم بالانطباعات هنا لا كونها ردة فعل أمام الآثار الأدبية وحسب ، بل هى تمتد الى الحالات النفسية ذاتها التى تتأتى أمام الطبيعة والاشياء . واذا ليس النقد مجرد قراءة او تطبيق قواعد . انه قبل كل شيء « تجربة » تلتزم الكيان الحي ، بأسره فى ظواهره الفردية وظواهره الجمالية على حد سواء . فعنده بقدر مايكون الاثر الادبي كبيرا يكون شخصيا (هاجس الناقــد التأثرى أن لايكون له هدف غير التحدث عن نفسه) لأن فى امكان الذاتية الفنية والنافذة وحــدها ان تستنبش من ضمير الجماعة رؤيتها الى العالم وموقفها منه ، فالحقــائق لايمكن ان تكــون الا فردية ، اى لا يمكن اكتشاف ابعاد الكون الا بالسير فى أعماق الشيء والنفس (فى كل شيء ينطوى العالم الاكبر) . ومن هذا المنطلق الصوفي كان منطلقه النقدى ، اذ الفن عنده ــ كما مر معنا ــ لايعلمنا ان نرى فقط بل ان نكون ايضا . انه يؤمن بان التواصل الحقيقي الوحيد ، والممكن ، مع الآخرين ، هو بالخلق (الابداع) الصادر عن جميع الانسان : فكره وقلبــه وجســده . وهكــذا فنعيمة لايكتب ليشتهر بل ليحدد علاقته الخاصة مع العالم . من هنا لاتكون الثورة الادبية فى أسلوب التعبير بل فى الانسان مصدر كل تعبير . والبحث عن النفس الانسانية (اننا فى كــل مانفعل وكــل مانقول وكل مانكتب انما نفتش عن أنفسنا (٩٩) والعالم هــو جوهر نظامه الفكرى والادبى : فالحياة والفن والانسان ثلاثة اشكال لوجود واحد : النفس الكلية او الروح الخالدة كما سماها آنفا . فاذا توقف النقد عند اديب ما او عند اى اثر ما ، فلا يعنى ذلك اعادة تأليفه فى قيمة ما بقدر مايرمى الى اعطائه المحــل المتناسب له بين الموجودات .

الفردية والحرية :

سمة النقد النعيمي ، الفردية والحرية . وهما مفتــاح جميع عمله النقــدى وظاهرته الاصيلة (لقد تأثــر المهجريون بالأدب الغربى ولا سيما بالادب الرومنتيكي الذى يعزز النزعة الفردية والتعبير عن الذات وخلجات النفس فى بأسها ورجائها وحزنها وفرحهــا وصحتهــا ومرضها وفقرها وغناها وآمالها وآلامهــا : فنزعوا الى الشعور الوجدانى الذاتى وكرهوا الأدب التقليــدى الذى لايصــدر عن شــعور واحساس) . وهذه هى الخلفية الفكرية التى يصدر عنها نظامه النقدى . وهى نفسها التى يصــدر عنها نظامه الادبى . مــن هنا ترابط نظراته ، احيانا ، الى حد ما ، بحيث لم تعد لمات او مجرد آراء مفككة بل يبقى النقد عند نعيمة (اى المقاييس) خواطر انما تصدر عن منظور واحد لايتغير (اولم يقل بعد نحو من اربعين عاما من صدور الغربال « فى الكتاب نظريات وآراء وتوجيهات لو سئلت فيها اليوم لتبنيتها دونما تردد » (١٠٠) .

ولنــا ان نستنتج بسرعة ان نعيمة ، على مايبدو ، يريد ان يجعلنا نرى العمل الادبي بعينيه لابعيوننا وان نفهم منه مايفهمه هــو نحكم عليه بحكمه . وفى هذا امكان ان يكون النقد اذا عقبة بيننا وبين العمل الادبي بديل ان يقربه الينا .

---

(٩٨) المرجع نفسه ص ١٢٥ .

(٩٩) الغربال ص ٢٥ .

(١٠٠) راجع نعيمة : سبعون (المرحلة الثانية) ص ٢٠١ .

بين الذوق والموهبة

فاتجاه نعيمة فى النقد لم يعتمد على التراث النقدى العربي القديم ، كما انه لم يعتمد التراث الغربى ايضا ، وحسب ، بل هو اتجاه يهضم جميع هذه المكونات لتتمثل فى شكل او فى آخر ، فى محاولات ذاتية ، تعول على الموهبة وما تستعينه فى استحضار نفسها. ولا تعارض بين الذوق والموهبة . الذوق هو حالة خاصة من الاحساس ، والموهبة تحتقر الصنعة والتعمل لتترجم انطلاق النفس ووثبتها بالافعال المعبرة « والموهوب هو الذى يخلق بيئته ولا تخلقه البيئة » (١٠١) اى ان العمل الادبى لايقتصر على مجرد التعلق بسلسلة من الافعال والعواطف ، بل بقيمتها ، بوقعها وبنتيجتها (وما يمكن ان نسميه « ماهيتها »). من هنا كانت مقاييس نقده التطبيقى صادرة عن هذه المبادىء العامة بالتأكيد ، ففي حديثه عن « اغانى الدرويش » لايهمه ان يحاسب الشاعر لِمَ اختار هذا الموضوع دون ذاك ، أو لِمَ يغنى هذا النوع من العواطف دون غيره، فكل مجال النقد وميدانه ان يقول هل احسن الشاعر فى اثره أم اساء . المهم فى الخلق عنده ، كيفية التوقيع لانوعه « ليُصعّد **رشيد أيوب** من الزفرات ماشاء وليبك مادام فى مقلتيه دموع . فلا شأن لي معه فى ذلك . تلك هى أوتاره ، وذاك هو أسلوبه فى التوقيع عليها . والذى يهمنى هو انه يحسن التوقيع (١٠٢) . ولعله ينطوى على موقف من النقد والادب عامة ، ابعد واعمق ، فيرى ان ازدهار الادب او تقهقره لايعودان الى طبيعة المقاييس نفسها بقدر ما يرجع ذلك الى حسن استخدامها وممارستها أو العكس . فيبقى الانسان ، باستمرار محور العمل الادبى والنقدى . واذا كان الادب العربى آنئذ فى فقر أو نقص ، لايعنى ذلك انه فى حاجة الى مقاييس ثابتة . فهى متوفرة (١٠٣) (لعل هذا الوجه من رؤيته يفسر لنا مبعث أخذه عن النقاد العرب الذين سبقوه أو عاصروه وعن نقاد الغرب والكبار ، بحيث يفقد الاقتباس خطورته وفداحته التى صرح عنها مرة فى الهلال « ان الشرق لفى غنى عن اقتباس حرف واحد من المدنية الغربية ، اذ ليس الاقتباس الا تقليدا . وكل من يقلد سواه لايكون مخلصا لنفسه (١٠٤) اذا عيب التقليد لا فى الأخذ عن آراء الآخرين ومواقفهم بل فى أن تنهج منهج الآخرين انفسهم وتسير فى مسالكهم نفسها فتفقد بذلك « ذاتيتك » « وحريتك ») واذا كيف تزهر آدابنا وتثمر مادامت مقاييسها فى ابد لا تعرف من الادب كوعه من بوعه (١٠٥) (يقصد الجرائد والمجلات التى تقيس الأدب بعدد مشتركيها ومناصريها واعمدتها ....) وخاصة فى تلك المرحلة اذ هى دور انتقال (وهو من أصعب الادوار فى الحركات الادبية) غرضه تهديم روح قديم والتمهيد لبناء روح جديد . فبقدر ــ ما ينجح فى هذا التمهيد ستكون مرحلة البناء التالية ، نوعا ومدى ، ذات شأن .

وعلى ضوء هذا المفهوم يبين الموازين التى يقيس بها الآثار المنقودة وخاصة الشعرية منها بعد ان يؤكد « ان لكل قارىء مقاييس عديدة

---

(١٠١) نعيمة : راجع جورج صيدح : ادبنا وادباؤنا فى المهاجر الامريكية ص ٢٨ (ط القاهرة ١٩٥٦) .

(١٠٢) نعيمة : مقدمة ديوان « اغانى الدرويش » لرشيدايوب ص ٧ (صدر الديوان ١٩٢٨) .

(١٠٣) الغربال ص ٧٣ ــ ٧٤ .

(١٠٤) نعيمة : الهلال نوفمبر ١٩٢٢ (ص ٣١) ج ٢ ص١٢٨ .

(١٠٥) الغربال ص ٧٣ ــ ٧٤ .

يقيس بها الشعر والشعراء لست لآخذها منه ولا لأبدلها بمقاييس ، فما انا الا عارض عليه ما عندى ، فلينبذه اذا شاء او ليقبله اذا شاء (١٠٦) . هكذا تتولد المواقف من بعضها ، عند نعيمة ، فشرط المحافظة على حريته وذاتيته الذى تطلبه باستمرار ، كان شرطا عليه ايضا فى المحافظة على حرية القراء ومنازعهم . فمهمته أن يعرض ، بلا فرض ، على الناس ما يذهب اليه ، فما يجدونه ملائما لهم ولحاجاتهم اخذوا به ، ومالا يروق لهم نبذوه وهجروه . بكلمة اخرى ان اى تفاعل ادبى يكون مستحيلا بلا القراء ، والاديب هو ، فى شكل أو فى آخر ، مبدع ضمن اطار ايديولوجى لوسطه وجماعته، فيمكن ان يقبلوها أو أن يعدلوا فيها ، أن يرفضوها كلية او جزئيه ، غير انه لا يمكنهم التنصل او الفرار منها . ولهذاايضا كان القراء بحاجة الى الناقد وغرضه : فاذا بقوا وحدهم مستفردين يظلون خارج نظام الحقائق الاصيل وينخدعون .

البحث عن نسمة الحياة لا عن النوع الادبى

وهو اذا اراد ان يبدأ عمله النقدي ، « فأول ما ابحث عنه فى كل ما يقع تحت نظرى باسم الشعر هو نسمة الحياة . والذى اعنيه بنسمة الحياة ليس الا انعكاس بعض ما فى داخلي من عوامل الوجود فى الكلام المنظور الذى أطالعه . فان عثرت فيه على تلك النسمة ايقنت انه شعر والاعرفته جمادا . واذذاك ليس ليخدعنى بأوزانه المحكمة ومفرداته المنمقة وقوافيه المترجرجة (١٠٧) . فبقدر ما يظهر الشعر من الاحاسيس يكون شعرا . وبعبارة أخرى ، فان منطلق هذا المقياس هو ان الشاعر يعبر عما وجدنا نحن من قبل ، وكأننا جميعا أدباء بالقوة ، ومزية الشاعر وفقا لهذا التفكير ايجاد العبارة التى اعوزتنا (هذا ما يراه التأثريون) فاذا قوى احساس المرء بعمل أو قصيدة خيل اليه انه عانى ما يشبهه من قبل . ولطالما تطلب نعمية هذا المقياس فى جميع نقده فطبقه فى « الارواح الحائرة » (الفربال ص ٢٧) والدرة الشوقية (الفربال ص ١٤٥) والقرويات (الغربال ص ١٥٥) والريحانى فى عالم الشعر (الفربال ص ١٦٣) وكثير من رسائله ... فيكون جميع نقده مسكونا بهذه الظاهرة نظرا وعملا . ونحن نقره هنا على ضرورة (نسمة الحياة) مقياسا للشعر ، غير اننا نخالفه فى مفهومه لها . اذ لا يمكن قصر الشعر او الادب على اثارة العواطف فقط . فمرة واحدة لم تكن قوة الشعور وحدها ، وفى ذاتها من الاسباب الهامة فى بقاء الادب ، فكثير جدا من الناس أقوياء الشعور غير انهم ليسوا فنانين « وليس الشعر كلهمحتاجا الى العواطف القوية ولكنه محتاج الى أن يكون خلقا خياليا ، فالخلق الخيالى صفته الاولى (١٠٨) غير انه اذ يقول فى ذلك فانما يصدر عما كرره من مفهومه للحياة وعلاقة الانسان بها ، ولعل ما يقوله هذه المرة يلخص ما ذهب اليه هنا وهناك فيعتبر ان انفسنا « لا تستفيق ... الا اذا شعرت برعشة الحياة فى داخلها ، لأن الحياة فينا وليست خارجا عنا ، وما التأثيرات التى تحدثها فينا الطبيعة او الحياة الخارجية الا منبه لما كمن فى داخلنا من العواطف والافكار ، فلولا عواطفنا ولولا افكارنا لكان ما ندعوه « الطبيعة » صحيفة بيضاء . ان الحياة ارث مشترك ، ولي فيها مالك . غير ان ما ينتفع به كلانا من هذا الارث يتوقف على ما تنبه فيه من

(١٠٦) الفربال ص ١٢٩ .

(١٠٧) المرجع نفسه .

(١٠٨) راجع مصطفى ناصف : دراسة الادب العربى ص٥١ .

العواطف والافكار (١٠٩) من هنا تكون قيمة النص الشعرى او الادبى بقدر ما يحمل من الحياة والانسان لا بما يحمل من اساليب بيانية او مفردات منمقة ، وليس الوزن هو الذى يعطى الشعر شيئا من قيمته الحقيقية . بل اكثر من ذلك ليست قيمة الشعر فى ذاته (فى انه شعر) اذ ان نعمية لا يقيم كبير شأن للنوع الادبي ، لانه يعتبر النوع الادبى شكلا يتوسله الشاعر او الاديب لفرض آخر ، يبرر وجوده، الا وهو ، « الافصاح عن الحياة اى عن كل ما ينتابنا من العوامل النفسية (١١٠) ولا ضير فى اى اسلوب او مظهر اتخذته هذه الحاجة . فما ابواب الادب الا اساليب (راجع «الريحانى فى عالم الشعر » : الغربال) حيث يؤكد ان ليس من آفة فى ان يتنقل الكاتب من هذا الباب الى ذاك من ابواب الادب ، وليس ما يمنع كاتب المقالات من ان يؤلف الروايات ، ولا مؤلف الروايات من ان يزاول الدراما ، ولا كاتب الدراما من ان يقرض الشعر (١١١) . فلا تمييز لنوع فني على آخر ، اى ليست القصة ارقى من المسرح ، او أن الشعر يفضلهما لاعتبارات فنية تقنية .

ومتى يوقن ان فيما يطالعه شعرا يعتبر العنصر الثانى فى تمييز الاثر الادبى من غيره « باتساع مداه ، بعمقة وعلوه وانفراج ارجائه (١١٢) فى الافكار والخيال والعاطفة . وهو مقياس لا حق بسابقه ومنه يمتد . ولطالما راعاه فى مجمل نقده (١١٣) . اذ يقدر كالعقاد ان الشاعر يمتاز على سواه « بقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الاشياء (١١٤) فما الذى يعطى الابيات كيانها الشعرى غير الرسم الجديد والفكر المبتكر والعاطفة الحية والمتطورة ارتقاء دائما (١١٥) . من هنا كان مقياس الصدق والاخلاص اساس النقد ، لانه المقياس الذى يكشف عن حقيقة ارتباط الاثر بصاحبه بل يعين فى تلمس مناخيه واعماقه بصرف النظر عن قالبه والسبيل الذى اعتمده صاحبه فى اظهاره « وانا حيثما اطل على الصدق والاخلاص فى اى عمل ادبي قلت : انه لعمل مبارك . ولا شأن لى من بعد ذلك مع الناثر او الناظم اذا هو خاطبنى بهذه الطريقة او تلك واذا هو اختار ان يبث افكاره واحاسيسه في قوالب بيانية قد تبعد كل البعد عن القوالب التى فيها اسكب افكاري واحاسيسى . فلست من الجهل وضيق الصدر بحيث انكر على غيرى حقا اعده من اقدس حقوقى . وهو أن أعبر عن ذاتيتى بالاسلوب الذى يرتضيه ذوقى ويطمئن اليه وجدانى (١١٦) . فنعيمة لا يعير الاثر الادبي اى انتباه فنى ، ولا ينطلق من أية فلسفة فنية جمالية فى ذلك ، ولعل السبب يعود الى ان الظروف الزمنية التى راح نعيمة يطلق فيها آراه النقدية ونتاجه الادبى لم تكن لتسمح بالاتجاه اتجاها فنيا كبيرا . ذلك ان المناخ العربى السائد حينئذ لا ينم عن نضج راق فى

(١٠٩) الغربال ص ١٢٣ — ١٢٤ .

(١١٠) المرجع نفسه ص ٧٠ .

(١١١) المرجع نفسه ص ١٦٣ .

(١١٢) الغربال ص ١٢٩ — (مقالة الارواح الحائرة) .

(١١٣) راجع الغربال تبيانا لذلك ص١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ ، وراجع مقدمة الجداول لابي ماضي .

(١١٤) الغربال ص ٢١٢ .

(١١٥) الغربال ص ١٥٠ .

(١١٦) نعيمة : رسالة الى نقولا قربان .

المبحث الفني الاستطيقي الجمالي ، ثم ان احداث العصر نفسها وقضاياه لم تكن لتنحو بالادب غير ذلك المنحى . من هنا فان ما يميز الخلق الادبي الكبير ، عنده ، هو هذه الهالة السحرية التي تمتد في فكر القارىء ووجدانه اثناء التعرف عليه . اى ان خير مقياس لنجاح الاثر الادبى انما هو فى الفعل الذى يحدثه فى النفس التي تستطلعه . فكما فى الادب كذلك فى النقد . سره وقيمته فى مدى صدق الناقد واخلاصه المتفانيين لانهما «سر الابتكار والابداع عند الأديب » (١١٧) وهكذا لم يعد النقد ، مع نعيمة ، تصنيفا للاثار على أساس مطلق ومجرد ، بل على اعتبار العلاقة الحميمة بين النتاج وصاحبه من جهة ، وبين النتاج نفسه ونتاجات قبله سبقته ، ولا بأس اذا كانت للكاتب نفسه او لغيره ، فيؤول النقد نمطا من دراسة العلاقات القائمة والتى يمكن ان توصل فى النهاية الى الحكم الصحيح . ان السؤال عن المدى هو ، عندنا ، فى غاية من الاهمية ، اذ ينم عن ارتقاء في المفهوم النقدى عهدئذ ، بل هو فتح من جملة ما أعطاه نعيمة فى هذا المضمار . انه يعنى انتقالا من الجانب الوصفى الىالجانب التقييمي ،اى ان الناقد تحول من جو التأمل النظرى ــ خاصة بعد ما يسوق فى طريقة من المقارنات والمفارقات والتوضيحات وضرب التحليل والتمثيل ــ الى هجير حلبة الصراع فى الممارسة الادبية العملية. فكان اذا ثمة تدرج منطقى وطبيعى فى منهجه ، فتطلب المدى بعد تبينه نسمة الحياة عن طريق التأمل فى النص ، كما ورد معنا . فلا سلامة اللغة ، ولا سعة الاطلاع ، ولا براعة التعبير ، ولا حسن الذوق هى المنشودة لذاتها ، بل القيمة للقدرة على الاتصال بالناس عن طريق القلب والفكر ، بصرف النظر عن اى اعتبار مادى آخر كالجنس ، او المذهب او غيرهما لقد جمع (عمر فاخورى) الى سلامة اللغة سعة الاطلاع واستقامة التفكير وبراعة التعبير وحسن الذوق . ولكن هذه كلها ليست بذات بال مالم يترجمها صاحبها الى عواطف انسانية تصل قلبه وفكره بقلوب الناس وافكارهم اينما كانوا ، ومن أيما جنس أو ملة كانوا (١١٨) . ومن المعروف ان هذا الناقد الذى يعتبر هذه المقاييس فى استكشاف الادب وتقدير مدى الصحة والعمق فيه ، هو ولا شك الناقد الحصيف الذى تكونت عنده قوة التمييز الفطرية .

قضية الشكل

أما العنصر الثالث فهو ثوب الأثر الادبى الخارجى ، اى دقة تركيبه وحلاوة رنته« وبعد ذلك فحصت عن سرواله الخارجى ، عن دقة تركيبه وحلاوة رنته وطلاوة الوانه وما أشبه (١١٩) وطبيعى موقفه هذا لان » الازياء البيانية ظلال لا تستقر على حال ،والمستقر هو الانسان وحاجته الى التعبير عن كيانه (١٢٠) . فالكاتب اثناء الكتابة لا ينصرف الى التفنن في صناعة التعبير ، بل يعتمد الاسلوب السهل والقريب لافراغ التفتق الابداعى الذى يتوتر ، كالنهر ، ولا يعود مرة أخرى . ثم ان الكاتب كما أشرنا همه الانسان لانه وحده يستحق كل جهد وكل قيمة . غير ان نعيمة فى هذا لا يقصد اهمال الاسلوب التعبيرى ، وانما يفهم الجمال والفن بقالبهما ، كما يفهمهما بجوهرهما ،

(١١٧) نعيمة : المراحل (ط ٢ بيروت) ص ٥٩ .

(١١٨) نعيمة : عمر فاخورى اديب وانسان : الطريق ، ١٩٥٠ ع ٤ و ٥ ص ٩ .

(١١٩) الغربال ص ١٢٩ .

(١٢٠) نعيمة : رسالة الى يوسف الخال .

ويفهم القالب على انه « لا ينحصر فى تنميق الكلام وتنسيق الخطوط والالوان ، بل مـا يفرغ فيه الكلام من بعد التنميق ، والخطوط والالوان من بعـد التنسيق ، والفنان يعنـى بقوالبه عنايته بما يسكبه فيها من روحه لعلمه ان جمال القالب يزيد فى جمال ما يسكب فيه (١٢١) ذلـك لانـه باعتبـار منطلقـه الفلسفي والادبـي كمـا بينـا يعتـبر بوحـدة واحدة فى الجمال والكون . فكيف لايعتبر فى النتاج الادبي ومقيناسه وحدة واحدة ايضا . فلا شكل بلا محتوى ، او ان اى محتوى لابد له من شكل يتجسد به . الفرق فى الموقف اذا : بديل ان يعطى الشـكل قيمة المحتوى (كما فى النقد القديم) فـان الشكل ، عند نعيمة ، انما يزيد فى جمال المحتوى . يضفى على ماهو موجود شيئا ما فيكتمل . ولا بأس بالاستعانة بالفنون الاخرى وطبيعتها الخلاقة ، لان لاتناقض فيما بينها ، بل هى فى الحقيقة ، اساليب متنوعة للابداع الانسانى الواحد . ويقرب هنا كثيرا من نظرية تولستوى فى الفن التى تقول بانالفن فعل انفعالات انسان ما بغية ان يشاركه الآخرون اياها ، وذلك عن طريق الحركـات والخطوط والالـوان والاصـوات والاشكال المعبـر عنها بالكلمات . اى لابد أن تكون هناك فكرة جديدة تهم الانسانية ويكون التعبير عنها بوضوح ليفهمه جميع الناس . واخيرا ان يكون دافع المؤلف الى انتاجه هو الحاجة الداخلية ، فالمضمون هو الذى يعطى العمل الفني قيمته (الخير) والتعبير يعطيه قيمته من حيث هو عمل جميل (الجمال) ، اما علاقة الفنان بعمله فيعطيه قيمته من حيث هو عمل حق . (١٢٢)

القرابة الروحية :

معنى كل هـذا ان التحـولات فى الموقف النقدى ، عند نعيمة ، كانت تخرج من المفهوم العام لا لتسير فى خط مستقيم ولكن لتدور حول نفسها فتنتهى حيث تبدأ ، كل مرة ، وامام اى ظاهرة ، فاقتصرت محاولة احيـاء الروح فى العمل الادبي بكشـرة تطلب عنصرى الشعور والحرية . انه لايقدر فنا ولا ادبـا الا بقدر ما يرفع من نفسه ويفتح عليه مـن الآفاق الجديدة ، وهو لايرضى بالفن المحلق دون الفنان ، ولا بالخيال الطائر بغير الشاعر الطائـر ، يريـد المثل الأعلـى وصـاحبه فى آن (١٢٣) . من هنا كان آخر ما يعيره انتباها فى نقد الأثر الشـعرى هو الأوزان والقوانين العروضـية والقواعد اللغوية ... فالشـعر الذى ينـزل بفكره الى اغوار تحتها اغوار ، ويعلو بهذا الفكر الى سماوات تلوح من ورائها سماوات ، ويفتح لخياله آفاقا خلفها آفاق ، ويفسح لعاطفته مدى يجرها الى امداء ، هو الشعر الذى تستأنس به روحه وتتفتح له براعم الحيـاة فى داخلـه (١٢٤) . وهكذا فان نعيمة حين يقف أمام الأثر الأدبى — وخاصة الشعرى — يقيسنفسه به حينا ، فاذا بالشعر يكتسب قيمة من الشخصـية التي يوجه لها عهد كان يكتسـب قيمته من الشخصية التى صدر عنها . وهو فى كل هـذا يعرف ظاهرة « الاتحـاد الفني » حيـث تفنى الـذات فى الموضوع ، فاذا به يقترب كليا من ابن قتيبة فى حكمه النقدى « اشعر الناس من انت فى شعره حتى تفرغ منه » (١٢٥) فالمطلوب من الشاعر ان

---

(١٢١) نعيمة : جبران خليل جبران ص ٢٤١ .

(١٢٢) راجع مجلة الآداب ١٩٥٤ ص ٨٨١ .

(١٢٣) راجع فاتحة كتاب « جبران خليل جبران » .

(١٢٤) راجع الغربال ص ١٢٩ .

(١٢٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٠ .

يجعلك تعيش فى شــــعره فتكون انت هــذا الشعر . انه يسعى باستمرار وراء « القرابة الروحية (١٢٦) بينه وبين الشاعر » .

آراؤه فى فن الرواية :

الا أننا نشير أخيرا ، الى أن هذه المقاييس النقدية عنــد نعيمة ، وان اقتصرت فى معظم الاحيان على الشعر دون غيره من الفنون ، فقد تطاولت ايضا الى فن الرواية فرأى انها تحتاج « عدا الفكر المعلل والمحلل الى يد المتفنن لابراز أشخاصها الى الحياة ولتطبيق مشاهدها على فكرتها الأساسية (١٢٧) . فتتطلب ، بالتالى ، خبرة فنية تقدر على الملاءمة ومراعاة أصــول هــذا الفن . فالروائى الفنــان اذا ما خلــق شخصــين أو اكثر نوَّع الاغراض التي يرمى اليها من وراء كل منهم (١٢٨) . اى ان التأليف الــروائى ليس كتابة مقــال ثم يأتى للمؤلف ليوزع كلامه على عدد معين من الابطال ، بل لكل بطل حضور خاص فاعل فى سير الرواية ، وله غرض يساعد على نمو الاحداث وتطورها . « فالشــخص فى يــد الروائى كالحجر فى يد المثال يخلق منه ما يشاء ،والمثال الماهر ليس كالمرائين الذين يحســبون ــ كما قــال فيهم يسوع ــ ان بكثرة صلواتهم يستجاب لهم . فهو قد يبرز معنى بارعا بضربة ازميل مثلما قد يخلق المصــور العبقرى آيــة من الحسن بلمسة ريشة ، والكاتب الفنان أفقاً من الجمال بشطحة قلم (١٢٩) ومنتهى ذلك ، عنده ، ان مقياس جودة الرواية هو فى القدرة على التأثير (كما فى الشــعر وســائر الفنون الأدبية) فى السامع والناظر . ولاحداث هذا التأثير كان لا بد من التأكيد على امرين :

أ ــ اذا كانت الرواية مشــــهدا حيا من مشاهد الحياة الحقيقية .

ب ــ اذا كان الممثل قــادرا على فهم أفكار المؤلف وغايته وتفسير هذه الافكار وتأدية تلك الغاية الى الســـامع بواســـطة الصـــوت والحــركات (١٣٠) . فالــرواية عنده ، تكتب لتمثل ، لا لشيء آخر ، فكثيرا ما يتوكأ الكاتب على الممثل والممثل على الكاتب . الا ان قيمة ما كتبه نعيمة فى هذا الباب كبيرة نظرا لما كان النقاد عليه من عــدم اعارتهم أى انتباه لهذا الفن . فأفرد نعيمة له فصلا كاملا « الرواية التمثيلية العربية » فى كتاب الغربال (وهى نفسها مقدمة مسرحيته « الآباء والبنون ») كذلك كان يلمح بين الحين والآخر فيما نقد من روايات مترجمة (شكسبير خليل مطران) او قصص موضــوعة (العواطف لجبــران) . . . وهو بذلك يتقدم على سابقيه او معاصريه من النقاد . لأن مجمل تلك المقاييس التى حاولوا ان يؤكدوها (العقاد ، المازنى . . .) انها تهتم بالشعر بل لا تنصرفالا الى فن محدد منه هو الشــعر الغنائى المتوارث من القديم « واخذ نقادنا ومفكرونا يقتتلون حوله خلال الربعالأول من هذا القرن بل الى ســـنوات بعد ذلك ، مغفلين فنونــا اخــرى أخذت تظهــر فى أدبنا المعاصر مثل فن المسرحية الشــعرية ، وفن القصة والاقصوصة وفن السيرة وفن المقالة ، فهذه كلها فنون لا نكاد نعثر على آراء فيها وفى

---

(١٢٦) نعيمة : مقدمة ديوان الجداول لابي ماضي (٢١حزيران ١٩٢٧) .

(١٢٧) الغربال ص ١٦٥ .

(١٢٨) نعيمة : رسالة الى كرم ملحم كــرم عــن روايته« المصدور » .

(١٢٩) المصدر نفسه .

(١٣٠) الغربال ص ٣٢ .

مناهج نقدها عند نقاد الجيل السابق ، واذا كان نعيمة يمس بعضها حينا ، فانما كان ذلك من قريب ، حيث انك لا تجد تحريا لوضع اصول مترابطة فى هذه الفنون ، بل خطوات تتولد من جراء التعليق على قصة أو التمهيد لرواية ...

هذه هى أهم المقاييس التى اعتمدها نعيمة فى نقده ، وهو يرى ان الأمة المتيقظة بحاجة الى «تقويم» مفهومياتها الأدبية ، وتعديل مقاييسها وموازينها الروحية باستمرار (١٣١) ان النقد فى تحد مستمر لأنه فى نبض مستمر . فعمل الناقد لا ينتهى ، انه عمل يبدأ من جديد فى كل مرة ، لأنه على استعداد دائم لمواجهة الاشياء والحقائق لتبيانها . ولكل حقيقة نمط تظهر به . واذا كان يؤكد بأن للزمان غربالا اين منه غرابيل الناس ، أو أن الحياة للحياة وحدها القول الفصل والحكم الاخير (١٣٢) لا يعنى ذلك ، عندنا ، الا ان الحياة والزمان يعطيان الناقد « خبرة نقدية » و « تجربة معرفة » تسيران بالناقد أو بالمبدع الى النضج (للزمن فعل كبير فى تطوير الملكة الشعرية عند الشاعر (١٣٣) لأن المقاييس النقدية ، بالتالى ، غير منفصلة عن الحياة أو هى من خارج الحياة . من هنا كان الشاعر فى حاجة الى غربال ، لكنه يجب ان يكون هو الغربال والمغربل معا (١٣٤) . على هذا تأتلف جميع الظواهر : الأدب (الأديب) ــ النقد (الناقد) ــ المقاييس النقدية (الحياة) . فلا تمييز ولا تفريق بين الابداع والنقد والمقاييس النقدية ، بل كلها فى الحقيقة وجوه متعددة ــ مظهرا ــ لشيء واحد : هو الانسان محور الاشياء والوجود . ولكم يذكر حكمه هذا بقول ابسن « اذا اردت الكتابة فانك تستدعى نفسك الى محكمة انت قاضيها » .

• • •

المنهج الانطباعى :

مهما كان المنحى الذى يسلكه النقد الانطباعى او الموضوعى او العقائدى او اللغوى او الجامعى ... وايا كانت مقاييسه الذاتية أو العلمية او التاريخية او الفنية .. يبقى له منهجية ، تنطلق من هذه المفاهيم وتحتويها ، اى هو يعتمد اصولا معينة فى فهم الادب ، وفى تبيان القيم النفسية والفكرية والجمالية . غير ان هذا لا يعنى اخضاع كل عمل أدبى ، الى مقاييس ثابتة جامدة ، فتتجمد بذلك شخصية الناقد ، وتتعطل عنده حساسية التذوق الذاتية ، القادرة على اكتشاف القيم الخاصة فى كل أثر ادبي بذاته . من هنا كان من الخير للأدب أن تتعدد مناهجه ووظائفه فلا يعمل الكتاب كلهم عملا واحدا . فبناء الحياة الذى هو شغل الأدب لا يختلف من هذا القبيل عن اى بناء (١٣٥) . اوَ ليْسَ كل أثر هو نتاجا شخصيا فريدا قائما بذاته (التجربة الواحدة لا تتكرر عند فنانين بل هى لا تكرر نفسها فى نتاجين لفنان واحد) واذا فمنهج تقديره والبحث فيه لا يصدران عن مناهج سابقة لانهما لا يحملان احكاما سابقة مستقاة من آثار اخرى . وعلى هذا يكون المنهج النقدى ، عند ناقد معين ، صادرا من نوع مقاييسه ؛ بل هو كيفية عرض لها .

---

(١٣١) الغربال ص ٢٠٨ .

(١٣٢) نعيمة : دروب ص ١٨٩ .

(١٣٣) راجع الغربال ص ١٥٥ ــ ١٥٦ .

(١٣٤) الغربال ص ١٦١ .

(١٣٥) دروب ص ٥٤ .

ونعيمة ، قبل كل شيء ، يصــدر في نقده النظرى والتطبيقى على حد سواء ، عن مقصد واحد هو الاقنــاع (التأثير) لا الفرض . ولا يكون الاقناع الا بالحجة (١٣٦) . **والسبيل الى** ذلك يتحصــل عن ضــبط البحث وتصميمه ودقة تأليفه ومتانة ترابطه بعضه ببعض ، فهو مقدمة فشرح فاستنتاج ، وكأن هذه العناصر حلقات في سلســلة واحــدة (١٣٧) تقــوم على التبسيط والوضــوح الى اقصى حــد ، فهو عندما يخاطب القارىء تراه ينتقل به خطــوة خطوة ، بكل بساطة ، وهذا ضرورى عهدئذ زيادة في سبيل تأكيد الاقناع وفعله في العقلية المتحجرة الســــائدة ، فيعرض ويشرح ثم يستنتج مكثفا ما يرمى اليه (١٣٨) .

وهــو من منطلق الاقنــاع أو التأثير هذا ، وعبر مقالته « الفربلة » يتبين لنا ان **منهجه في النقد منهج تأثرى ذاتى** (لكل ناقد غرباله ... ولا قوة تدعم مقاييسه غير قوة التمييز الفطرية...) اى هو منهج لا يقوم على التفسير والتقييم ، بل ينتهى الى خلق أدبي مبتكــر . « أجل ان كل ما يفعله الناقد في نقده هو أن يعرض نفسه بما فيها من قلق وشوق ، وذلك في عرض الكلام عن غيره » . فقد يقلقه اشــد القلق أن يقع في كتــاب ما على مجرور بحرف اللام بدلا من الباء فيثور ثائره ولا يهدأ باله ، حتى يعلن على الملأ انه ارســـخ قدمنا في علم النحو من مؤلف الكتاب (١٣٩) . وبالنســـبة للقارىء فله مقاييســـه واعتباراته ، فغرض نعيمة في النقد العرض لا الفرض « فما أنا الا عارض عليه ما عندى » (١٤٠) . والمقالة النقدية التى يعرضها انما هى « مزيج من فلسفة وأدب وانتقاد » (١٤١) ينخو بذلك نحو **بيلنسكي** الناقد الروسى في تنويع المقالة بحيث تضفي جوا من الخصوبة وتبعث على الارتياح والامتاع ، فلا يعــود النقد متطلبا لذاته ، لذا كان يطلب من القراء مطالعتها، فربما يجدون فيها ما يستحق النظر « لا بل طالعاها ، قبلتم أم لم تقبلوا ، ولماذا المداجاة ، فانا لم اكتبها لذاتى » (١٤٢) على ضــوء ما تقدم ، يســلك نعيمة في عمله النقدى منهجا نحاول أن نرسم خطوطه فيما يلى :

« انتهيت الساعة (من « منشود ») ويسرنى ان انقل اليك بغير ابطاء بعض ما تركته هذه الرواية من طيب الأثر في نفســي فقد راقني تصويرك للاشخاص...مثلما راقنى ما اجريته على السنتهم ... (١٤٣) .

واذاً هو منهج انطباعى تأثرى ذوقي ، ينقل مباشرة عند الفراغ من قراءة النتاج ردة الفعل التى تكونت لديه . وهذا هو مادة نقده ، أولا وأخيرا ، فاذا لم تتوفر لا يمكن كتابة اى نقد ، عنده . ثم يبدأ كتابة البحث النقدى بالتعريف

---

(١٣٦) الغربال ص ١٨٦ .

(١٣٧) انظر الغربال ص ١٨٨ .

(١٣٨) هذا هو المنهج الذى اتبعه بوضوح كبير في مقالته « الغربلة » راجع الغربال ص ١٣ ــ ٢٢ .

(١٣٩) دروب ص ١٧٩ .

(١٤٠) الغربال ص ١٢٩ .

(١٤١) المرجع نفسه ص ٤٠ .

(١٤٢) المرجع نفسه ص ٤١ .

(١٤٣) نعيمة : « منشور كما يراه نعيمة ، راجع الحكمقس ١٩٥٥ ، ع ٥ ص ٥ .

بالأثر المنقود ، وذكر موضوعاته ومحتوياته ووصفه (١٤٤) . وهو يهتم كثيرا بعرض جانب الحياة الخاصة والوسط اللذين يعيشهما الشاعر أو الكاتب المنقود ، بكل تفاصيلها ودقائقها ، حتى تكتمل ، فى رأيه ، صورة المنقود ، فى أكمل وجه ، ثم يتحدث عن ثقافته وتعلمه ذاكرا أول اطلالاته الأدبية (أين ومتى) ثم ينتقل الى القسم الثانى وهو دراسة مؤلفات (أو مؤلف واحد بعد ذكرها جميعا) (١٤٥) . أى بامكاننا تذوق النتاج الأدبى دون معرفة صاحبه ، ولكنه لا يمكننا فهمه وتقديره حق قدره ، وبالتالى ، فان نعيمة يحاول أن يلم ، فى طريقة للفهم ، بكلية الأديب فى شكل مؤتلف . فما يهمه من النتاج ، أولا واخيرا ، هو اكتشاف الانسان وراء الأديب اكثر من اهتمامه بالفنان . ان الأثر الأدبي وحده ، منفصلا عن صاحبه ، ومعتبراً لذاته ، ليس هو غرض نعيمة فى البحث. وهكذا ينتهى الى النقد الاخلاقي الذى عرف فى أوروبا منذ القرن التاسع عشر وقصاراه « أن جمال الأثر الفنى يجب أن لا يواجه بصورة مجردة ومستقلة عن الوسط الذى نتج فيه رينان : مستقبل العلم) . أى ليس للأدب قيمة أو جمال الا باعتباره شهادة للانسان . فلا قوانين مجردة ، ولا قواعد مطلقة . فلا يمكن الاعجاب بالنتاج الأدبى الا على أساس معرفة صاحبه وزمانه ومكانه معرفة حقة وسليمة . وكان Villemain (١٧٩٠ ــ ١٨٧٠) أول من أراد أن يشرح العمل الادبى بسيرة الكاتب وبالعصر الذى عاش فيه (١٤٦) . ولعل نعيمة يحذو فى ذلك حذو **سانت بوف** ، الناقد الرومنسى الكبير ، فى منهجه الذى يتلخص بالعناية بالكاتب ودرسه قبل نقد مؤلفاته ، واعتبار شخصية المؤلف اساسا لفهم ما يكتب ولنقده « ليس الأدب ــ أى الانتاج الأدبى ــ منفصلا فى نظرى عن الانسان ، فباستطاعتى أن أتذوق مؤلفا أدبيا ، ولكن من الصعب ان احكم عليه دون معرفة للكاتب نفسه ، وذلك لأنه كما تكون الشجرة يكون ثمرها ، وهكذا تقودنى الدراسة الأدبية الى الدراسة الانسانية قيادة طبيعية (١٤٧) . وقد بلغ به هذا الاتجاه ان راح يتطلبه ليس فى الدراسات النقدية البحتة وحسب ؛ بل حتى فى كتب « المنتخبات » او ما نحت نحوها . فاسمعه يعاتب أحدهم لعدم ذكر ترجمة عن حياة كل شاعر ذكر له قصيدة فى كتابه ، ويقول « تمنيت لو انك أوردت فذلكة عن حياة كل شاعر ترجمت منه . ففي ذلك نفع للقارىء العربى الذى لا يعرف شيئا عن أولئك الشعراء والذى يطل عليهم لأول مرة من خلال كتابك » (١٤٨) لأن النقد الحق (يتكون ــ كما أجده ــ من دراسة كل شخص ، أعنى كل مؤلف ، أعنى كل ذى موهبة ، حسب احواله الطبيعية لكى نقيم له وصفا حيويا حافلا ، حتى يمكن أن ينزل ــ فيما بعد ــ فى موضعه الصحيح عن سلم الفن » (١٤٩) .

---

(١٤٤) انظر الغربال ص ١٨٩ ومجمل رسائله النقدية .

(١٤٥) انظر رسالة نعيمة (تولستوى عملاق الروح والقلم) ورسالته غوركى من القاع .الى القمة ايار ١٩٥٨) ومقالة (عمر فاخورى الفنان) المنشورة فى الرسالة ١٩٥٦ ع ١ ص١ ، ومعظم رسائله الاخرى .

(١٤٦) راجع فان تيغم « المذاهب الادبية الكبرى فى فرنساص ٢٣٠ .

(١٤٧) سانت بوف : احاديث الاثنين الجديدة ج ٣ : مقال عن شاتوبريان .

(١٤٨) رسالة نعيمة الى صاحب « قصائد من الادب الاجنبي » توفيق اليازجى ، الاديب ١٩٦٢ ، ع ٨ ص ٥٧ .

(١٤٩) راجع ستانلى هايمن : النقد الادبي ومدارسه الحديثه ج ١ ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧ .

المحتوى والشكل :

اذا انتقل الى القسم الثانى ، وهو دراسة الأثر المنقود نفسه ، فتراه يشرع فى عرض مقاييسه « قلت فى مقدمة الكلام ان أول ما اتطلبه من الشاعر هو المدى – مدى الفكر والعاطفة والبيان . ومن ثم اتفحص قوالب شعره الخارجية . اما المدى فليس من ينكره فى شعر (نسيب عريضة) ... واما قوالبه ... (١٥٠) . وتراه فى معظم الأحيان ينهج فى احكامه نهجا فحواه « ضربة على الحافر وضربة على المسمار » ، فكلما ذكر الردىء ذكر الى جانبه الجيد فى آن ، وعن قصد ، ويكفي ان نتمثل هنا ببعض ما جاء فى نقده « للدرة الشرقية امثال كثيرة من... الوصف السطحى الذى لا يحرك فكرا فى راس ولا يرسم صورة فى مخيلة ، ولا يهيج عاطفة فى قلب . غير ان فيها من الوصف الشعرى ما يكاد يشفع بتلك الترهات لو لم يكن ضائعا بين ابيات جاءت حشوا ، فبان كضمة من الزهر فى حقل من العوسج » (١٥١) ولشد ما كان يزعجه الأثر السيء التأليف (بدليل ظاهرة التكلف والتفكك فى القصيدة ، وانعدام الوحدة العضوية فيها ، ثم تقلب الشاعر السريع فى بنائها) كل ذلك يبعث عنده شعورا بالحيرة ، فلا يعود يملك امره أو يتدبر عمله النقدى ، متى تقلب الشاعر ... التقلب السريع بين مطلع القصيدة وختامها ولم يترك فى النفس سوى رنة القافية المتتابعة ، حار فى أمره الناقد وسدت فى وجهه السبل . فلا حول ولا » (١٥٢) ، لذا يتأتى لنا ان بحث نعيمة النقدى يقوم على التنظيم ودقة التصميم ، والمنهجية، وليس هو مجرد خطرات متباعدة أو متناثرة ، اساسه التحرى النفسى . وهو ، بعد كل ذلك ، يعتمد فى منهج البحث ظاهرة « الربط » بين مجمل نتاج الشاعر فيتأتى له باخلاص وامانة وسلامة ، كيفية تطور الشاعر أو الكاتب فى خبراته الأدبية وتجاربه الحياتية . وهذا ما يتفق مع منزعه التأثرى ، بكل تأكيد ، اذ « تقول التأثرية على « الربط » فاذا عرضت قصيدة انتقل متلقيها ... الى اشياء ترتبط بها ... وقد يأخذ الربط شكلا خاصا نسميه التشخيص، ويحكى المتلقى فى وصف العمل الفني مؤثرات نفسية(١٥٣) وبيولوجية ويخضع المتلقى لسلطان الذاكرة واحكام التداعى (١٥٤) . واذا يعتمد المقابلة بين مختلف مؤلفات الأديب الواحد لينتهى الى الحكم الصحيح على النشاط الخاص به (١٥٥) . ذلك ان «المقابلة» والتحليل هما فى راى **ايليوت** ، عدتا الناقد الاساسيتان ، ويقومان على تشريح المنقود وتفسيره تفسيرا مستمدا دائما من عند الناقد يكمل به نواقص الأثر فيسد بعض الخلل الواضح فيه . الا ان اعتماد المقابلة هذه سبيلا فى النقد لا يعنى ، عند نعيمة ، الانتهاء الى تحديد مراتب الكتاب وطبقاتهم ، فاذا كان للناقدين ولع بتحديد مراتب الكتاب والشعراء والمقابلة بين واحدهم والآخر وتفضيل هذا على ذاك أو ذاك على ذلك – وقد يكون فى مقابلاتهم وتفاضيلهم نفع لهم أو لقارئيهم « اما انا فان عثرت على كاتب له قلب يخبر وعقل يفكر وقلم يسطر شكرت ربي الف مرة ومرة . وتركت

---

(١٥٠) راجع الغربال ص ١٤٢ .

(١٥١) المرجع نفسه ، ص ١٤٩ .

(١٥٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٤ .

(١٥٣) راجع مقالة « الارواح الحائرة » فى الغربال ص ١٣٤ .

(١٥٤) مصطفى ناصف : دراسة الادب العربي ص ٢٦ .

(١٥٥) الغربال ص ١٦٤ .

للقارىء المقارنة بينه وبين سواه ومحاسبته بالخطأ والصواب والحلال والحرام والنفع والضرر . فتقديرك الكاتب منوط بما تقرأ من نفسك وعنها في سطوره وبين سطوره لا بما يقرؤه سواك (١٥٦) . ولكنه في رفضه لظاهرة تحديد المراتب وتقسيم الشعراء الى طبقات الا يتعارض مع ما قال به في موضع آخر من هذا البحث حين صرح بوضوح بأن الكتاب طبقات وكمثلهم النقاد ، وما يصح ان يقال في الواحد منهم لا يصح ان يقال في كلهم « كما ان الشعراء والكتاب طبقات » (١٥٧) .

ومن جانب آخر ، كان احيانا ، بنتيجة هذه المقابلة او المقارنة ، يجد نفسه على غرار النقاد القدامى في موقف يطلق فيه « الاحكام المطلقة » عن الاندفاع الشعوري المتحمس . فبعد ان يسود فقرة من مقول المنقود يردف بسرعة حكمه التالي وكأنه ضرورة حتمية في السياق النقدي عنده : « فهل قرات ارق وادق وابدع من هذا الوصف (١٥٨) . أو يكثر في حديث آخر من « صيغ » التفضيل كمثل « ما اظن فنانا من ابرع الفنانين كان يستطيع ان يرسم .. صورة اوقع في النفس ... و « ابلغ من تهكمه ... و « الغاية في الابداع .. » في مقال يمتد الى صفحتين تشغل الاستشهادات قسما كبيرا منهما (١٥٩) . او تراه في موضع آخر يطلق لنفسه العنان ليحكم في بيت واحد من الشعر على انه « اجمل بيت وصفي في ديوان الشاعر على وجه الاطلاق ... (١٦٠) . (كل هذا يصدر عن منهج تأثري ذوقي) وهذه هي عادة القدماء في النقد كما هو معروف ، ذلك ان الناقد كان يحكم بأن هذا البيت من الشعر او ذاك هو خير بيت قيل في هذا المعنى أو ذاك أو أن هذا الشاعر هو احسن شاعر في هذا الفرض أو غيره) . ولعل تفسير هذا عندنا يعود الى اعتبار نعيمة أن العمل النقدي استنفاذ لقوى الناقد « هذا حد مداركنا وغاية ما بلغته قوة التمييز فينا (١٦١) فيصدر الاحكام داعمها بكل تأييده .

التهكم والسخرية :

من سمات منهجه في النقد ، ايضا ، روح التهكم والسخرية اللاذعين . وكثيرا ما استعانهما في مجمل ابحاثه النقدية النظرية والعملية . فكأني به ، قد تحول بظاهرة التهديد والتجريح والانتقام من شخصية المنقود الى ظاهرة تهكم موضوعي على النظرة والعقلية في فهم الادب وتقديره . وهذا وجه ارقى . واكثر مواضع هذه الظاهرة بروزاً عنده في مقالته «الحباحب» (الغربال ص ٣٧) والدرة الشوقية (الغربال ص ١٤٦) وابتسامات ودموع (الغربال ص ١٨٣) ومستهل «اغاني الصبا» (الغربال ص ١٨٩). واماكن أخرى . ولكم كان موفقا في سلك هذا المسلك ، فتأتي سخريته تدمر حيث تبدو وكأنها تتحاشى ان تمس مسنا . فهو هنا لايقل جودة وفنا عنه في رصانته واتزانه . فيصقل تأليفه لتشف منه خواطره الحية . واراني مضطرا لنقل هذه الاسطر لتبيان هذا الملمح عنده ، فيقول في « الدرة الشوقية » (قصيدة

---

(١٥٦) الغربال ص ٢٤٥ .

(١٥٧) الغربال ص ١٧ .

(١٥٨) نعيمة ـ عمر فاخوري اديب وانسان ، راجع الطريق ١٩٥٠ ع ٤ و ٥ ص ٨ .

(١٥٩) راجع مقالة نعيمة : عمر فاخوري الفنان ، الرسالة ١٩٥٦ ع ١ ص ٦ .

(١٦٠) انظر مقالة نعيمة « القرويات » في الغربال ص ١٦٠ .

(١٦١) الغربال ص ١٢٧ .

لأحمد شوقي كان قد نشرها في الهلال) مرتفعا بالهزء في تصاعد مستمر مبطن « لقد سمعت » بدرر « شعرية كثيرة ولما اعملت فيها طرف المبرد وجدتها صدفا لماعا ... ولولا ما للهلال عندي من الاعتبار والثقة بحسن ذوق صاحبه الفني والادبي لما اقبلت على مطالعة « الدرة الشوقية » . لكن للهلال في عيني منزلة خاصة به بين سائر المجلات والجرائد العربية : فقد تعودت منذ أيامي المدرسية ان اصدق مايقوله الهلال وان اعتبر من يعتبره ، واحتقر من يحتقره ، لذلك عندما رأيته يقدم لي درة قلت لاشك في انها درة ... ووقفت قليلا لأتأكد مما اذا كنت اطالع قصيدة جاهلية ام عصرية ... (١٦٢) . غير ان نعيمة لم يجر على ذلك في جميع منتوجه النقدي ، فهو في كتابه « جبران خليل جبران » انصرف الى النقد البانى ، يحلل ويدقق في اصول فنية متكاملة ، مما دفع خليل هنداوي الى التعليق على ذلك بان قال « لصاحب الغربال روح كانت تظهر بتهكم لاذع ، تسلك به السبيل الذي تريد ، ولكن هذا التهكم لاتجد له اثرا في هذا الكتاب (كتاب جبران) وانما هو النقد الجاد الصارم، الذي يمتزج بالحياة الجادة ، فهو يبح ويبكت. ولا يتهكم ، واذا تهكم فلا يبتسم (١٦٣) .

ان عملية الهدم ، عند نعيمة ، وعملية البناء وحدة متكاملة تتجسد في عملية الخلق ، التي لاتكون الا مع الانسان ، الذي هو أعظم من الزمان والمكان (١٦٤) . انها الروح الخالدة التي تمتد وراء الحدود والاصطلاحات . اي ان الادب والنقد استثمار للاشياء ومصالحتها ، وبالتالى ابتعاد عن التسليم وانصراف الى التأمل ـ من هنا لم يعتمد نعيمة ، المنظور اللغوى ، لينتهى الى الذوق الادبي (١٦٥) ، بل اتخذ ، في نقده ، منهجا روحيا يبدأ بالنظر الفكرى والروحى الى الاشياء والكائنات (الآثار الادبية) لينتهى الى الذوق الادبي ، فالنظر اللغوى . ذلك لان النقد ينفر من الهياكل الجاهزة والقواعد المحددة . انه تفتق شعورى وفني .

★ ★ ★

---

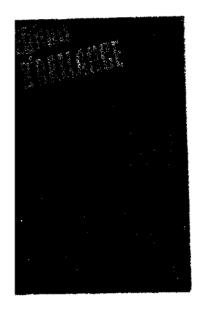
(١٦٢) الغربال ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(١٦٣) خليل هنداوى : التصوير والنقد والفن عندميخائيل نعيمة في كتاب جبران خليل جبران ، صوت الاحرار ، ٥ كانون الثانى ١٩٣٦ ص ٦ .

(١٦٤) راجع نعيمة في فصل « خراب ماهول » من كتابهوامش (بيروت دار صادر ١٩٦٥) .

(١٦٥) هذا هو المنهج الفهمي في النقد وقد اتبعه فيما بعدمحمد مندور : راجع كتابه « في الميزان الجديد » ص ٦٩ .

عرض الكتب



عرض وتحليل ونقد لكتاب :

قوة الفدائيين العرب ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢

عرض وتحليل : الدكتور أسعد عبد الرحمن

تمثل هذه الدراسة التى وضعها الميجر « ادجار أوبالانس » بعنوان « قوة الفدائيين العرب : ١٩٦٧ ــ ١٩٧٢ » . حلقة فى سلسلة تقع فى خمسة عشر كتابا نشرها المؤلف فى ربع القرن الأخير . وتختص هذه المؤلفات بمعالجة مواضيع عسكرية الطابع ، تشمل أبحاثا محددة عن جيوش معينة أو عن حروب اقليمية او أهلية، تغطى شريطا عريضا من البلدان المختلفة على امتداد رقعة واسعة من الكرة الارضية . فقد كتب « أوبالانس » عن « الحرب الهندية الصينية : ١٩٤٥ ــ ١٩٥٤ » وعن « كوريا : ١٩٥٠ ــ ١٩٥٣ » وعن الملايو : حرب العصيان الشيوعى بين ١٩٤٨ ــ ١٩٦٠ » وعن « الجيش الاحمر الروسى »و« الجيش الاحمر الصينى» كلا على حدة ، وعن « الحرب الاهلية اليونانية : ١٩٤٢ ــ ١٩٤٩ » وعن « حرب العصابات » بشكل عام . وعن « حكاية الفرق الاجنبية الافرنسية » بالاضافة الى سبعة كتب (آخرها هذه الدراسة) عن حركات مسلحة وثورات وحروب وقعت فى الوطن العربى ،سواء فى شمال العراق أو الجزائر أو فلسطين او اليمن ، زيادة على كتبه الخاصة بالحروب العربية ــ الاسرائيلية الثلاث الاولى.

وتمتاز دراسة « أوبالانس » :

أولا : بتسلسل منطقى وزمنى وتقسيم جغرافى يجعل محتوياتها تنساب الى ذهن القارىء عبر أحد عشر فصلا دونما أى تشويش . وستظهر معالم هذا التسلسل وذاك التنسيق عندما نعرض للمادة المتضمنة فى الدراسة . وفى هذا المجال ، سيشكل استعراضنا لمحتويات الكتاب الجانب الرئيسى **الأول** فى هذه المراجعة .

ثانيا : تتمتع الدراسة بمادة ومعلومات غزيرة تشهد على اطلاع المؤلف واتصالاته وعلى

المامه ، وبالتالى ، وفى كثير من الاحيان ، بأدق التفاصيل . على أن ذلك لا يعنى ان الدراسة خالية من الأخطاء الفادحة احيانا ، على مستوى المعلومات . وسيشكل تعدادنا لأبرز هذه الاخطاء الجانب الرئيسى **الثانى** فى هذه المراجعة .

ثالثا : « تفاخر » الدراسة بأنها نجحت فى معالجة الموضوع بقدر من الموضوعية يجعلها اقل تحيزا من غيرها لصالح وجهة النظر الاسرائيلية ــ الصهيونية ــ الغربية المناهضة لوجهة النظر العربية . وستشكل اشارتنا الى بعض أوضح المغالطات حول هذه المسألة الجانب الرئيسى **الثالث** فى هذه المراجعة .

الجانب الاول : المحتويات

يخصص المؤلف **الفصل الاول** ، **« عبادة الفدائيين »** The Cult of Fedayeen لاستعراض جذور النشاطات الفدائية الفلسطينية من نقطة زمنية تبدأ مع اسدال الستار على أحداث الحرب العربية ــ الاسرائيلية الاولى فى العام ١٩٤٨ . فيشير « أوبالانس » الى أن غارات العرب بشكل عام ، والفلسطينيين بشكل خاص ، كانت فى مطلع الخمسينات ، غارات فردية لم تحركها دوما الاعتبارات الوطنية (ص ١٦) ، وبقى الحال كذلك الى أن بدأت الجبهة المصرية ــ الاسرائيلية بالالتهاب فى العام ١٩٥٥/١٩٥٤ مما ادى الى هجمات فدائية منظمة ومنسقة ومدعومة من النظام المصرى الجديد . وقد تبلور رد الفعل الاسرائيلى فى غارات انتقامية كبيرة وقع العديد من العسكريين والمدنيين المصريين والفلسطينيين ضحية لها (ص ١٩) . وبقى الحال على ما هو عليه على الجبهة المصرية حتى ازداد تصاعدها فشمل الجبهة الاردنية وادى بالتالى الى حرب السويس (الحرب العربية ــ الاسرائيلية الثانية) فى العام ١٩٥٦ . ومع انتهاء تلك الحرب خيم على تلك الحدود هدوء نسبى (٢٠ ــ ٢١) . الا أن هذا التوقف فى الهجمات والغارات لم يمنع فكرة العمل الفدائي من التفاعل فى العقل الفلسطينى . ومع نهاية الخمسينات ومطلع الستينات بدأت الفكرة بالخروج الى حيز العمل فبرزت عدة تنظيمات فلسطينية تدعو جميعها الى اعتماد الكفاح المسلح أسلوبا أساسيا من أجل تحرير فلسطين . وبالرغم من انشاء « منظمة التحرير الفلسطينية » فى العام ١٩٦٤ ، فان الانظار اتجهت الى « حركة التحرير الوطنى الفلسطينى ــ فتح » أثر مباشرتها النضال المسلح فى مطلع العام ١٩٦٥ (٢٣ ــ ٢٦) . وهنا يتابع المؤلف حديثه محاولا تأريخ حركة فتح مستعرضا ، دونما توفيق كبير ، جذورها وردود الفعل الاسرائيلية والعربية ازاء اعمالها ، مشيرا الى ازدياد شعبية عملها فى الاشهر التى سبقت حرب حزيران ــ يونيو ١٩٦٧ ــ (٢٩ ــ ٣٤) .

فى الفصل الثانى « السمكة والبحر » ، يوضح « أوبالانس » الترابط ما بين موقف الرفض العربي كما تجلى فى لاءات مؤتمر الخرطوم الشهيرة وبدء موجة العمل الفدائي (٣٦) . وبعد أن يستعرض المؤلف سقوط قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وصعود فتح عبر المقاومة وعبر تجميع السلاح من سيناء (٣٨) وتشكيل خلايا سرية داخل المناطق المحتلة (٣٩) و (٤٢) « يقرر » فشل العمل الفدائي فى تطبيق منطق السمكة (الفدائيون) والبحر (الجماهير الفلسطينية داخل الاراضى المحتلة) مما دفع المنظمات الى اقامة قواعدها شبه الثابتة على الحدود وبدء حرب استنزاف ضد اسرائيل (٤٢ ــ ٤٣) . وقد تمثلت قمة الغارات الاسرائيلية الانتقامية فى « معركة الكرامة » التى منيت بها الغطرسة الاسرائيلية بضربة موجعة ، فى حين شكلت تلك المعركة بداية الزخم الفلسطيني الجديد فى العمل الفدائى الفلسطينى

(٤٦ – ٤٧) ليس فى مواجهة اسرائيل فحسب بل وفى مواجهة السلطات الاردنية ايضا (٤٨).

يركز المؤلف فى الفصل الثالث « توسع الفدائيين » ، على معالجة ما يمكن تسميته بالمراحل الأولى من العمل الفدائى العلنى » (٥١) ، شارحا التزايد المستمر فى اعداد رجال المقاومة وكيف مكنهم ذلك الوضع من فرض وجودهم العلنى وتحسين أحوالهم المالية (٤٩) . كما يستعرض « أوبالانس » نشأة المنظمات الفدائية الاخرى (٥٠) (٥٢ – ٥٣)، محاولا – بدون نجاح كبير – شرح موقف الاتحاد السوفياتى من العمل الفدائي فى تلك الفترة (٥٦ – ٥٧) ومثبتا ازدياد مكانة المنظمات فى الاوساط الشعبية والرسمية العربية وسيطرة حركة فتح وباقى المنظمات على منظمة التحرير (٥٤ – ٥٥) . كما واستعرض المؤلف الازمة الرئيسية الاولى بين منظمات المقاومة والسلطات الاردنية فى شهر تشرين الثانى – نوفمبر ١٩٦٨ (٦٢ – ٦٥). وينتهى هذا الفصل مع سرده لبداية العمليات الخارجية التى ابتكرتها « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وما تلا ذلك من ردود فعل اسرائيلية كان ابرزها الهجوم الاسرائيلى الشهير على مطار بيروت (٦٨ – ٦٩) .

اما الفصل الرابع « تعاظم الفدائيين » فانه يتضمن تثبيتا لحقيقة كون العمل الفدائي قد وصل ذروته فى العام ١٩٦٩ ، وذلك بسيطرته الكاملة على منظمة التحرير (٧٠ – ٧١) وتحقيق بدايات فى الوحدة الوطنية الفلسطينية (٧٥) على الرغم من معاناة أحد أكبر التنظيمات الفدائية (الجبهة الشعبية) من سلسلة انشقاقات من جهة (٧١ – ٧٢) ، وعلى الرغم من عدم تبلور موقف ايجابى – حسب اعتقاد المؤلف – من قبل الاتحاد السوفييتى من جهة ثانية (٧٦ – ٧٧) . وقد شهد ذلك العام تطورا نوعيا فى عمل حركة المقاومة ، اذ تمكنت « فتح » من رفع العلم الفلسطينى فى بلدة « الحمة » بعد تحريرها لمدة بضع ساعات (٧٧) . كما يشير المؤلف الى تضارب مصالح ونشاطات بعض فصائل المقاومة (الجبهة الشعبية بالذات) مع مصالح بعض الدول العربية ، خاصة بعد أن نسفت الجبهة جزءا من خط أنابيب التابلاين (٧٨ – ٧٩) . هذا وقد حرص « أوبالانس » على رصد ردود الفعل الاسرائيلية (غارات خارج المناطق المحتلة واللجوء الى أعنف الوسائل داخل تلك المناطق) ازاء الهجمات الفدائية . كما يتحدث « أوبالانس » عن ردود الفعل على حرق المسجد الاقصى فى ١٩٦٩/٨/٢١ (٨٢ – ٨٣) وعن ازدياد حدة التناقض بين الفدائيين والسلطات الاردنية (٨٤ – ٨٥) . وأخيرا لا يفوت المؤلف الاشارة الى التوترات بين الاطراف المشاركة فى « الجبهة الشرقية » والى التعارضات بين فصائل المقاومة وبخاصة « حرب الدعاية » التى اندلعت فيما بينها (٨٨ – ٨٩) .

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى لبنان فيشرح فى **الفصل الخامس « أرض فتح »** العوامل التى ادت الى بدء تركز العمل الفدائي فى بعض مناطق جنوبى الجمهورية اللبنانية (٩١ – ٩٤) ويربط « أوبالانس » بين هذا التطور والأزمات التى حكمت العلاقات الفلسطينية – اللبنانية (٩٤ – ٩٦) والتي أدت الى « تحرير » المخيمات من السلطات اللبنانية والى سلسلة من الاقتتالات (٩٨ – ٩٩) كان أبرزها صدامات تشرين الاول – اكتوبر ١٩٦٩ . تلك الصدامات التي انتهت – عبر الوساطة المصرية – الى عقد اتفاقية عرفت باسم « اتفاقية القاهرة » (٩٩ – ١٠٢) . كما ويستعرض المؤلف التوترات والصدامات التي وقعت بين الفدائيين وبعض الفئات اللبنانية مثل حادثة الكحالة (١٠٩) ويتضمن العرض وصفا لما اشتهر فيما بعد باسم معركة العرقوب (١١٠ – ١١١) التي واجه فيها الفدائيون الفلسطينيون القوات الصهيونية ، وما تلا ذلك من التهاب فى الجبهة السورية – الاسرائيلية (١١٤ – ١١٥) .

وفى الفصول الثلاثة التالية يعـود المؤلف بالقارىء الى الساحة الأردنية ، فيشرح عبر تتابع زمنى الاحداث التى شكلت **« مدخلا الى الحرب الاهلية » (الفصل السادس) مرتكزاً** فى الفصل الذى يلى (السابع) على وقائـع « الحرب الاهليـة فى الاردن » ومنتهيـا (فى الفصل الثامن) الى « هزيمـة الفدائيـين فى الأردن » .

وتتضمن صفحات الفصل السادس عرضا وافيا بسلسلة العمليات التـى قامـت بهـا « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » فى اكثر من مكان خـارج الشرق الأوسـط ، والتـي تضمنت بالأساس ، خطفا لطائرات متنوعـة الجنسيات ، وهجوما على اكثر من مطار فى أوروبا ، ونسفا لعدد من الطائرات (١١٧ ــ ١٢١) . وفى تلك الاثناء كانت العلاقات الاردنية الفلسطينية تزداد تشنجا واقترابا من درجة الصدام الحاسم ، الا ان الملك حسين عرف ــ اكثر من مـرة ــ كيف يحنى راسـه للريـاح الفدائية الشديدة فحافظ على « شعرة معاوية بينـه وبين الفدائيين وكان ذلك كلـه مدعاة لاسـتياء القبائل البدوية ومعظـم قطاعـات الجيش (١٢١ ــ ١٢٢) و١٢٧ ــ ١٢٩) . وفي هذه الاثناء ، قام عرفات بعدة زيارات شملت الاتحاد السوفياتى والصين وفيتنام (١٢٣ ــ ١٢٤) فى حين كانت الهجمات على اسرائيل متصلة وكذلك الغارات الانتقامية الاسرائيلية (١٢٥ ــ ١٢٦) . وقد ازداد التوتر بين أطراف الصـدام الثلاثى الجوانـب (الفـدائيون ــ اسرائيل ــ الاردن) بعد اعلان وليم روجرز ، وزير الخارجية الاميركية ، عن مبادرته السلام والتى وافق عليها عدد من الرؤساء العـرب كان فى طليعتهم الرئيس جمال عبدالناصر والملك حسين(١٣١ ــ ١٣٣) . وكانت الحصيلة ان ساءت علاقات الثورة الفلسطينية ليس بالاردن فحسب ، بل ومع الجمهورية المتحدة أيضا ، وبدا كل من الفدائيين والملك حسين يعد نفسه لمواجهة بات وقوعها امـرا متوقعا ووشيكـا (١٣٥ ــ ١٣٦) .

وفى الفصل السابع يستعرض المؤلـف التصاعد المتسارع في التوتر بين السلطـات الاردنية والفلسطينية وصـولا الى انفجـار « الحرب الاهلية فى ايلول ــ سبتمبر من العام ١٩٧٠ » . وقد بدأ هذا التسارع مع خطاب الملك حسين الذى أعلن فيه موافقته على بادرة روجرز (١٣٧) . وفى تلك الاثناء ، قامـت « الجبهةالشعبية» بتنفيذ سلسلة منالعمليات التى استهدفت خطف طائرات عدد من البلدان المعادية واجبرتها على الهبوط فيما عـــرف باسم «مطار الثورة» (مطار داوسون المهجور) باستثناء طائرة الجمبو التابعة للبان اميركان والتي نسفها فدائيو « الجبهة » على أرض مطار القاهرة (١٣٨ ــ ١٤٠) . هذا فى الوقت الذى بدات فيه الاشتباكات المحـدودة بـين الفدائيين والسلطات الاردنيـة تـزداد قـوة وانتشارا حتى شملت معظم مدن المملكة وحتى بلغت قمتها باندلاع الحرب الاهلية يوم ١٧ ايلول ــ سبتمبر ١٩٧٠ (١٤٣ ــ ١٤٥) . وقد خصص « أوبالانس » الصفحات التالية (١٤٥ ــ ١٦٠) لشرح ادق « التفاصيل عن معارك أيلول بما فى ذلك الدعـم السـوري للفدائيين ، وتمحور الوضع الدولى بين مؤيد لهذا الفريق ومؤيد لذاك (١٥٠ ــ ١٥٣) . وبقى الحال كذلك على الرغم من انعقاد المؤتمر الطارىء للرؤساء والملوك العرب ، والذى عثل الاردنفيه البريجادير محمد داوود،الذىعينفى وقت سابق رئيسا للحكومة العسكرية التـى انيطت بها مهمة القضاء على الفدائيين (١٥٣). وفى مرحلة لاحقة ، واثر ايفاد مؤتمـر القمـة الرئيس السودانى (جعفر النميري) الى عمان نجح المؤتمرون فى اعلان « اتفاق القاهرة »بين عرفات والملك حسين الذين كانا قد وصلا الى العاصمة المصرية اثناء احتدام المعارك فى الاردن (١٥٤ ــ ١٥٥) هذا وقد أعقب ذلك اتفاقية

اخرى عرفت باسم « اتفاقية عمان » ينسحب الفدائيون بموجبها خارج المدن ليتمركزوا عند الحدود مع اسرائيل (١٥٩) . وما كاد الاقتتال يتوقف حتى قام الملك حسين بتعيين وصفى التل (١٩٧٠/١٠/٢٨) رئيسا للوزراء (١٦٠) .

اما الفصل الثامن ((هزيمة الفدائيين فى الاردن)) فيستعرض شريط الاحداث التي أدت الى اخراج الفدائيين من المدن وتسليم أسلحة الميليشيا فى المخيمات ، بالاضافة الى محاصرة الفدائيين المتمركزين فى احراش جرش وعجلون الى خارج الاراضى الاردنية وكل ذلك تحت سمع وامام ابصار لجنة المراقبة العربية (١٦١ ــ ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦). ويعتقد المؤلف ان ما كشفته « هزيمة » الفدائيين فى الاردن يتلخص فى افتقادهم للاستراتيجية الواضحة ، وفقدان الوحدة ، وتعدد وجهات النظر ، وعجز القيادة ، (١٦٢). ومع ذلك يشير الكاتب الى نجاح المنظمات الفدائية فى تقليص عددها من احد عشر تنظيما الى أربعة او خمسة تنظيمات ، وذلك عبر سلسلة اندماجات فى حركة فتح (١٦٣) ، الا أن موجات النقد والنقد الذاتى ملأت الساحة الفلسطينية واستمرت « الجبهة الشعبية » فى موقفها المتصلب الرافض تسليم اسلحة الميليشيا واى صيغة للتعاون مع نظام الملك حسين (١٦٩) . ومع بدء الربيع بات واضحا أن الصدام واقع لا محال ، وان اسرائيل ــ عبر ما اعلنه مسؤولوها ــ ستكون جاهزة ومستعدة للتدخل اذا ما بادر اى طرف (المقصود سورية والعراق أساسا) لمساعدة الفدائيين (١٧٥) . هذا وقد تعاظم القتال فى شهرى أيار ــ مايو وحزيران ــ يونيو وبلغ قمته فى تموز ــ يوليو حيث دارت معارك عنيفة فى جرش وعجلون ، خسر الفدائيون نتيجتها وجودهم على الاراضى الاردنية فى حين استشهد أبو على اياد ، احد ابرز قادة فتح (١٧٩ ــ ١٨٣) واثناء انعقاد مؤتمر الدفاع العربى المشترك فى مقر جامعة الدول العربية فى القاهرة قام بعض انصار ابو على اياد باغتيال وصفى التل الذى كان يمثل الاردن فى ذلك المؤتمر بوصفه رئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع ، وقد اعلن الفدائيون انتماءهم الى منظمة جديدة حملت اسم « أيلول الاسود » (١٨٥ ــ ١٨٦). أثناء ذلك ، كان الوجود الفدائى فى لبنان يتعزز يوميا بمن يفد اليه من الساحة الاردنية (١٨٩) فى حين كانت اسرائيل توجه ضربات قاسية لبعض الخلايا الفدائية فى المناطق المحتلة . وعندئذ لم يكن قد بقى فى الساحة الفلسطينية أية نقطة ضوء متوهجة سوى غزة (١٩٠) .

والفصل التاسع برمته مخصص للحديث عن **صمود وتمايز غزة** ، ذلك الصمود الذى منع اسرائيل من تحقيق مخططاتها بالنسبة للقطاع ، وذلك التمايز الذى جعل غزة مختلفة عن باقى المناطق من زاوية حدة مقاومتها للاحتلال الاسرائيلى . ويذكر « أوبالانس » ان البداية فى النضال الحقيقى جاءت مع نجاح كل من فتح والجبهة الشعبية فى الوصول الى غزة والانتشار فيها بدءا من العام ١٩٦٩ (١٩١) . وقد ترافق العمل العسكرى مع انتفاضات طلابية ونسوية (١٩٣) على الرغم من لجوء اسرائيل الى أعنف الوسائل (المطاردة والقتل ، نسف المنازل ، حظر التجول ..) استمرت العمليات الفدائية ليس ضد قوات الاحتلال فحسب ، بل وضد كل الافراد الذين تعاونوا مع اسرائيل . وعندما لم تؤثر مجازر ايلول ــ سبتمبر على تصاعد العمليات فى القطاع ، قرر موشيه دايان ، وزير الحرب الاسرائيلى آنذاك ، القيام بتنفيذ

حملة واسعة للقضاء على « الارهاب » وذلك مع مطلع العام ١٩٧٠ (١٩٤ ــ ١٩٥) . وقد تضمنت الحملة الاسرائيلية ترحيل النازحين من مخيماتهم الى اماكن أخرى لتقليل كثافة السكان والتقليل من امكانية اختفاء الفدائيين بينهم (١٩٨ ــ ١٩٩) . ثم يتحدث المؤلف بنوع من التفصيل عن العلاقات بين قوات الاحتلال من جهة ورؤساء البلدية العرب من جهة ثانية (١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣) .

ويختار المؤلف **للفصل العاشر** عنوانا لـه مغزاه الكبير : **« الجمر يخبو »** وكأنه يقول ان العمل الفدائي أصبح يعانى حشرجات الموت ! فالفدائيون طوردوا الـى خـارج الاراضـى الاردنية ، وقيدوا فى سورية ، وهم فى طريقهم لان يحاصروا فى لبنان . هذا الوضع الصعب جعلهم يلجأون الى طرق واساليب جديدة : مزيدمن خطفالطائرات (٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩) مزيد من « قتل الرهائن والاغتيال » (٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩) ، وبدء لحملة الرسائل الملغومة المتبادلة (٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥) ، ثم يتحدث المؤلف بنوعمن التفصيل عن الهجومالاسرائيلى الكبير الذى تعرضت له الاراضى اللبنانية ، طوال أربعة ايام فى شباط ــ فبراير ١٩٧٢ م ذلك الهجوم الذى اختتـم بدخـول الجيش اللبنانى الى المناطـق التـي كـانت القـوات الاسرائيلية قد احتلتها ، والتى كان الفدائيون قد انسحبوا عنها أثناء المعركة (٢٠٦،٢٠٧).

ويخصص « أوبالانس » الصفحات التالية للحديث عن العلاقات اللبنانية ــ الفلسطينية ، وعن الازمات التى مرت بها تلك العلاقـات ، والاتفاق الذى « جمد » الفدائيون بموجبـه نشاطاتهم عبر الحدود اللبنانية بشكل مؤقت (٢٠٩ ــ ٢١٢ ، ٢٢١ ــ ٢٢٢) .

واخيرا يلخص المؤلف فى الفصل الحـادى عشر (عودة الى الوراء ونظرة الى المستقبل « الافكار الرئيسية الـــواردة فى الدراســـة مستنتجا أن العملالفدائي » فشلفى«تحقيق» هدفه فشلا كليا « (٢٢٩) اذ ان اسرائيل لا تزال تسيطر على جميـع المناطـق التـى احتلتها فى العام ــ ١٩٦٧ . ويعزو «أوبالانس» ذلك « الفشل » الى : عدم فهـم الفدائيـين العرب لأصول الحرب الثورية ، تعدد فصائل المقاومة وتعارضها ، وعدم ظهور زعامة وقيادة حقيقية قادرة ، وعدم قدرتهم « على فهـم حقيقة مؤداها ان ليس من دولة » والحـال ينطبق على الدول العربية ــ يمكن ان تسمح بوجود « دولة » أخرى « غير مسؤولة » ضمن حدودها (٢٢٩ ــ ٢٣٢) .

الجانب الثانى : أبرز الاخطاء

تعانى الدراسة ، على الرغـم من سـعة اطلاع الكاتب ، من التشويش فى المعلومات ، ومن أخطاء عديدة تتضمنها صفحات الكتاب . ومن الامثلة على هذا التشويش وتلك الاخطاء ما ورد فى (صفحة ١٧) من أن الملك عبد الله ابن الحسين قد اغتيل فى العام ١٩٤٩ مـع ان اغتيالهكان يوم ٢٠ تموز ــ يوليـو ١٩٥١ ، كذلك قوله بأن حركة فتح تأسست فى المانيا الغربية معددا أسماء ياسر عرفـات وهانـى الحسن وخليل الوزير على أنهم كانوا الطلبة الذين أسسوها (٢٦) !!! وفداحة الخطأ فى المعلومات هنا لا تحتاج الى أكثر مـن مجـرد الاشارة ، اذ ان منشأ فتح واسماء مؤسسيها لم يعودوا خافين على ذوى المستوى العادى من الاطلاع . ثم ان « أوبالانس » يخلط بين « فرقة عبد القادر » وهى احدى الوحدات التابعة « لجبهة التحرير الفلسطينية » وبين كونها تنظيما قائما بحد ذاته (٣٢) .

ومن الامثلة الاخرى على الاخطاء المتفشية فى الكتاب قول المؤلف فى « ص ٥٣ » بأن حزب البعث فى العراق قد قام باعتقال الدكتور جورج حبش فى العام ١٩٦٦ و « معلومات » كهذه لا اساس لها من الصحة ، اذ لم يعتقل الدكتور حبش فى العراق لا فى العام ١٩٦٦ ولا فى اى عام آخر . ولا يضاهى هذا الخطأ فى المعلومات سوى قول المؤلف بأن « الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين » تبنت الدعوة الى اقامة « دولة مزدوجة القومية فى فلسطين (٧١) ، وقوله بأن احمد جبريل الامين العام «الجبهة الشعبية ــ القيادة العامة »هو رئيس « جبهة النضال الشعبي الفلسطينى » (٧٢) ثم يقع المؤلف فى تناقض فادح عندما يقول ان علاقات « الجبهة الشعبية » كانت علاقات خاصة وجيدة مع الحكومة السورية (٧٦) واغلب الظن انه يخلط هنا ما بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وبين « الجبهة الشعبية ــ القيادة العامة » . ولعل اوسع الفجوات فى معلومات المؤلف هى تلك التى جعلته يقول بأن « الجبهة الشعبية » اتصلت بشكل مباشر بالملك فيصل ، عاهل السعودية، طالبة منه دعمها ماليا (٧٨ ، ٧٩) وغنى عن الذكر ان علاقات « الشعبية » مع المملكة السعودية كانت دوما علاقات قطيعة كاملة . هذا وتتكرر الشواهد على تشوش « أوبالانس» وعدم تمييزه بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » التى يتزعمها الدكتور جورج حبش وبين « الجبهة الشعبية ــ القيادة العامة » التى يرئسها أحمد جبريل فى الصفحة(١١٨).

ولا تتوقف الاخطاء عند هذا الحد . ففى الصفحة (١٥١) يشير المؤلف الى اعتقال السلطات الاردنية لثلاثة من زعماء الفدائيين اثناء مجازر ايلول ــ سبتمبر ١٩٧٠ مشيرا الى أن احدهم ينتمى الى فتح فى حين ينتمى الآخران الى « الجبهة الشعبية » . مع العلم ان القياديين المشار اليهم هم صلاح خلف (ابو اياد) وهو أحد زعماء فتح ، وابراهيم بكر وهو قائد فلسطين مستقل ، وفاروق قدومى وهو قائد فى فتح . وفى الصفحة (٢٠٨) يقدم « أوبالانس » اكثر من دليل على نقص معلوماته عن « الجبهة الشعبية » وجذورها . فهو يقول ، مثلا ، ان الدكتور حبش قد طرد من « حركة القوميين العرب » فى العام ١٩٧٠ ، مع ان الحركة كانت قد اضمحلت قبل ذلك . أم تراه « يقصد حزب العمل العربى الاشتراكى » الذى شكل نوعا من الامتداد التنظيمى للحركة ؟ كما انه يقول أن الجبهة « تخلت » عن عمليات خطف الطائرات فى العام ١٩٧٠ مع انها « جمدت » تلك العمليات ولم تتخل نهائيا عنها . ومن افدح الاخطاء فى هذا المجال اعتباره الدكتور وديع حداد « قائدا فى قطاع غزة » مع ان عمل الدكتور حداد ــ كما اثبتت العمليات الارهابية الاسرائيلية التى استهدفت حياته بالصواريخ الموجهة فى بيروت منذ العام ١٩٦٩ ــ لم يكن فى غزة فحسب ، بل وليس له اية علاقة نضالية مباشرة بغزة . والشىء ذاته ينطبق على « اتهام » المؤلف للدكتور انيس صايغ ، وهوشخصية فلسطينية مستقلة ويعمل مديرا لمركز الابحاث فى بيروت ، بالانتماء الى الجبهة الشعبية . ثم يعود اوبالانس فيقول بأن وديع حداد ، الذى سبق وأن صنفه « كقائد فى غزة» (٢٠٨) هو نائب زعيم « الجبهة الشعبية » وانه التجأ « طلبا للامان » الى أوروبا الشرقية (٢١٣) !!!! كما انه فى مكان آخر (٢١٨) يقف ، بدون داع ، محتارا ازاء الجهة التى قادت الهجوم الانتحارى اليابانى على مطار اللد . هذا مع العلم أن « الجبهة

الشعبية » والجيش الاحمر اليابانى « أعلنا اكثر من مرة مسؤوليتهما المشتركة عن تلـك العملية .

الجانب الثالث : ابرز المغالطات

على الرغم من ان كاتبا عربيا واحـدا على الاقل يعتبر « ادجار أوبالانس » من اشـهر المؤرخين المعاصرين المعروفين بالدقة والامانة ورجاحة الرأى العسكرى « (١) فاننا نبـدى تحفظنا الشـديد على تقييم كهذا . وقـول الاستاذ كيالى فى ختـام مراجعته للكتاب ، «ان بعض الملاحظات والآراء الشخصية للمؤلف وان كانت قليلة ، قد تضلل القارىء لاسيما الغربى ، ففيها احكام جائرة وغير صحيحة » (٢) ان هذا القول فى رأينا هو أضعف ما يمكن ان يوصف به تحيز « أوبالانس » . وليـس معنى قولنا هذا ، ان المؤلف قد استخدم ، بالمقارنة مع غيره من الكتاب الغربيين ، اقذع العبارات وأشدها للهجوم على العرب ، دائما قصدنا القول بأن كتبا مثل كتاب اوبالانس ، واسلوبا مثل أسلوبه المسـتخدم في هـذه الدراسـة يشـكل خطرا اكثر من غيره على القضية العربية ، ويمثل بالتالى تحيزا افدح من زاوية قـدرتة على الاضرار بوجهة النظر العربية . فالهجوم غير المباشر ، و« تمرير » المغالطات بشكل هادىء ، والدس من خـلال التظاهر بالسذاجة اوالبراءة ،هذه كلها تساعد على « بيع » افكار الكاتب « الشخصية » والتي هى احكام جائرة وغير صحيحة للقارىء لاسيما الغربى « ـ كما ذكر اعلاه .

ويبدو ان المثل القائل : « يعرف الكتاب من عنوانه » فيه كل الصحة احيانا . فأن يجعل المؤلف عنوان كتابه « قوة الفدائيين العرب » مسألة لا يجوز ان تمر ببساطةويجب ان تفهم، ضمن سياق المغالطات التي يمتلىء بها الكتاب، على أنها محاولة لطمس الهوية الفلسطينية فى اكثر المواضع حساسية من الزاوية الاعلامية . ثم ان توقف المؤلف فى عرضه عند العام ١٩٧٢، وعند هجوم ميونخ على وجه اكثر تحديدا ، ان هذا التوقف عند هذه النقطـة الزمنيـة بالذات كأنما يقصد به ان يترسـخ فى ذهـن القارىء ذلك الحدث الدموي الذي دفع اليه الفدائيون دفعا . وهو فى تبريره لتوقفه عند هذا الحدث يقول أنه ـ أى الحدث ـ مَثَّلَ ـ « بداية جديدة » فى العمل الفدائي . وينسى « أوبالانس » أو يتناسى ، ان يقول لنا كيف تشكل كارثة ميونخ بداية جديدة ، وما هـي معالم هـذه المرحلـة الجديـدة التي يشير اليها (١٢) .

ثم ان المؤلـف يحرص على ان تكـون النتيجة الرئيسية التي يصل اليها واضحة : الحركة الفدائية الفلسطينية « لا استراتيجية لها » و « وفشلت كليا » وبـدات مرحلـة « انحدارها » (١٢ ، ٢٢٩) . وهو بهذا يقع فى تناقض مع نفسه عندما يذكر فى مكان آخر بأن المستقبل وحده هو الذي سيقرر فيما اذا كان العمل الفدائي « ظاهرة مؤقتة » أو «بداية ليقظة عربية » جديدة (١٢ ، ٢٣٣ ـ ٢٣٤) .

كذلك يقرر « اوبالانس » ـ ولا ندري ان كان ذلك ناجما عن سذاجة كلية أو تساذجا

---

(١) انظر مراجعة الاستاذ ماهر كيالي للكتاب ، شؤون فلسطينية ، عدد ٤٣ ، آذار ـ مارس ١٩٧٥ ص ١٥٣

(٢) كيالي ، المصدر ذاته ، ص ١٥٩

متخابثا – ان « الغرور والتقدير السيء » (من جانب الفدائيين) هو الذي ادى الى الحرب الاهلية (في الاردن) والقتال في لبنان (١١) . اي ان المؤلف – هكذا وبكل بساطة – يتجاهل دور أعداء العرب والعرب الاعداء في التحضير لتلك المجزرة وتنفيذها . كذلك فان عدم ذوبان النازحين الفلسطينيين في المجتمع العربي يتحول – في نظر « أوبالانس » الى « اهمال » من العرب للفلسطينيين (١٥) . أيضا قوله ان « نصف لبنان عربي ونصفه مسيحي » كأنما يقصد القول بان العربي هو فقط المسلم من ابناء العروبة ، او كأنما المسيحي بالضرورة غير عربي (١٦) . كذلك فان الغمز والمغالطة واضحان في قوله بأن الفدائيين لم يكونوا « محبوبين بشكل عام » في لبنان (١١٣) . ثم هو يتحدث عن اطلاق السوريين نيرانهم بشكل مستمر على « العمال الاسرائيليين » من فوق الهضبة السورية قبل ١٩٦٧ ، دونما اية اشارة الى ان احتلال اسرائيل للاراضي المنزوعة السلاح هو الذي ادى الى ذلك الموقف الوطني من جانب سورية . ايضا فان الكاتب حريص على وصف ما تقوم به اسرائيل بكلمة « قتل » في حين ينعت ما يقوم به الفلسطينيون والعرب بكلمات من نوع « اجرام » وعدوانية و « ارهاب » (الصفحات ١٩ ، ٢٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٣١ على سبيل المثال لا الحصر) . ولا يفوت « أوبالانس » اغتنام كل فرصة للتشكيك في موقف الاتحاد السوفياتي من الثورة الفلسطينية بشكل يحس معه القارىء بضحالة التحليل الذي يقدمه المؤلف (٧٦،١٢٣،٢١٢). ثم ان الكذب – حسبما يقول « أوبالانس » – يكاد يكون صفة ثانية للفدائيين عندما يكتبون بياناتهم ، دون ان يسمح لنفسه بالشك ، ولو للحظة في مصداقية البيانات الاسرائيلية (١١٧) ، كذلك تتحول السياسة الاسرائيلية – بقدرة قلم المؤلف – الى سياسة « شجاعة » لانها « تحول اللاجئين الى عمال » (١٩٨ ، ٢٠٣) . اما استشهاد غسان كنفاني فأمر يحيط به – وفقا لأمانة « المؤلف – غموض كبير لا يعرف معه ان كانت اسرائيل وراءه أم «الجبهة الشعبيةالثوريةلتحرير فلسطين»(٢١٢) واخيرا لا يفوت المؤلف ان « يقرر » بأن العربي انسان لا يهمه الا « حبه الفردي للحياة وتحسين وضعه المالي » وان العرب يشتهرون تقليديا بصفات « البلادة او اللا مبالاة»(٢٣٠).

●●●

وبعد ،

ثمة فجوة كبيرة بين ما يتصوره وما يقوله الناشر في معرض وصفه للمسائل الرئيسية التي يعالجها الكتاب ، وبين ما يقوله الكاتب ذاته عن طبيعة محتويات الكتاب . فالناشر ، في سعيه لتشويق القارىء ، لاسباب معروفة ، لمطالعة الكتاب ، يسارع – وعلى الصفحة الداخلية للغلاف الخارجي للدراسة – الى الادعاء بان المحتويات تجيب على الاسئلة المركزية التالية :

« ١ – ما الذي جعل الفدائيين يخطئون في تقدير الوضع ؟

٢ – ما هي التقديرات الخاطئة التي أدت الى اصطدامهم الكارثوي مع الجيش الاردني ؟

٣ – كيف تم دفعهم خارج « أرض فتح» في لبنان ؟

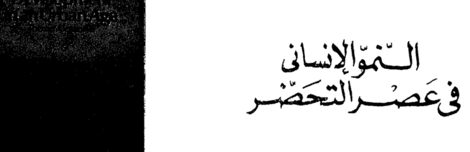
٤ ـ ولماذا كانت الحركات الفدائية غير قادرة على تحقيق وحدة فعالة فيما بينها ؟ » .

٥ ـ وكذلك ـ والكلام للناشر ـ يوضح الكاتب « المسائل التي تهز العالم العربي ، يحلل الشخصيات المنغمسة في العمل ؛ ويستقرىء الماضي ، ويصف الحاضر ،ويعالج المسقبل » .

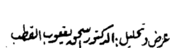
اي بعبارة موجزة : يعدنا الناشر بدراسة تحليلية .

وعلى صعيد آخر ، يصف المؤلف كتابه ـ بتواضع يعكس الحقيقة ـ بأنه « سرد » للوقائع (ص ١٢) وهو فعلا ، سرد ، يتمتع بالالمام بالتفاصيل من جهة ، ويعاني ـ كما رأينا ـ من كثير من الاخطاء والمغالطات ، من جهة ثانية .

* * *



للدكتور : ثيرون الكساندر



المؤلف : الدكتور ثيرون الكساندر عضو هيئة تدريس بجامعة تمبول بولاية فلوريدا بالولايات المتحدة الامريكية . وقبل أن يبدأ بتأليف هذا الكتاب فقد قام بعدة نشاطات خاصة فى البحوث والدراسات التي تدور حول مشاكل المعوزين والفقراء من الاطفال والشباب . وقد تأثر فى نظرته الى التطور الانسانى من دراساته فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية فى جامعة شيكاغو ، ومن خلال خبراته كعضو هيئة تدريس فى كليات الآداب والطب والتربية فى الولايات المتحدة . وقد استغرق العمل فى اعداد هذا الكتاب مدة اربع سنوات كاملة اقتنع خلالها بضرورة ايجاد منظور آخر لسيكولوجية النمو فى الآونة الحالية . وقد ازداد اهتمام المؤلف فى الجمع بين مبادىء النمو والاوضاع الاجتماعية فى فى المجتمع المعاصر .

الكتاب : يعتبر الكتاب من المؤلفات الحديثة ، اذ صدر عام ١٩٧٣ من قبل دار النشر برنتس هول فى بلدة انجلود كليفس بولاية نيوجيرزى بالولايات المتحدة ، وقد سجل فى مكتبة الكونجرس الامريكى . ويقع الكتاب فى ٣٢٣ صفحة بما فى ذلك الرسوم والجداول . بلغ مجموع المراجع التي استخدمت فى فصوله الثلاثة عشر ٥٩٧ مرجعا اى بمعدل ٤٦ مرجعا للفصل الواحد ، وقد تكررت بعض المراجع بين الفصل والآخر ، وتنوعت ميادينها بحيث اشتملت على مختلف فروع علم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا والتربية .

وقد قسم الكتاب الى خمسة أجزاء ، تضمن كل جزء عددا من الفصول يتراوح بين فصلين وثلاثة ، يبلغ متوسط عدد صفحات

Theron Alexander, Human Development in an Urban Age. Prentice- Hall, inc: N.J 1973.

الفصل الواحد حوالى ٢٥ صفحة بما فى ذلك المراجع .

يتناول **الجزء الاول بيئة الانسان ونمو المدن وقدرة الانسان على تطوير بيئته** . وفى **الجزء الثانى** يناقش المؤلف اعداد الفرد للحياة فى مجتمع المدينة الذىيتميز باختلافاتفى الثقافة وانماط الحياة فى هذا العصر . ويعالج **الجزء الثالث** النمو الانسانى فى مجالات الذكاء واللغة والابداع ، ويتطرق الى المؤثرات الثقافية والوراثية . ويتناول **الجزء الرابع** النظريات ونتائج البحوث والدراسات فى مسائل التعلم والحوافز والاحاسيس عند الانسان . اما فى **الجزء الخامس والأخير** فينحو المؤلف منحى جديدا فى دراسة النمو الانسانى ، بحيث يناقش موضوعات وقضايا تدور حول ضبط السلوك ، وعدم قناعة الشباب بالمجتمع المعاصر ومشاكل السلطة والحرية الذاتية .

ويختلف الكتاب عن غيره من الكتب التى تناولت مثل هذه القضايا والموضوعات فى ثلاثة اشياء : **الأول** ، ينظر المؤلف الى نمو الانسان من خلال حيز الحياة وكجزء من النظام الايكلوجى للكرة الارضية . **والثانى** ، تربط النمو الانسانى الى اوضاع مجتمع المدينة فى الوقت الحاضر وتؤكد على عواقب التغير الاجتماعى . **وثالثا** ، تزود القارىء باتجاه جديد مفاده أن مبادىء النمو يجب ان تفهم من خلال علاقتها المباشرة للاوضاع الاجتماعية المحيطة بها . وبعبارة اخرى فالكتاب يركز على تحقيق الهدف النهائي وهو الخبرات التي يكتسبها الانسان فى النمو والتنشئة الاجتماعية ، وبالتالى يتحدد دوره فى المجتمع المعاصر . ويعتبر هذا الكتاب مساهمة علمية جادة فى ميدان سيكولوجية النمو ، اذ يعالج مراحل التعلم من حيث علاقتها بالبيئة ، وتأثر الانسان بها وتأثيره فيها . أىان المؤلف يحاول التوصل الى قواعد وافتراضات مشتقة من اطر سيكولوجية النمو وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا .

البيئة والانسان :

ان دراسة النمو الانسانى لا تقتصر فقط على عملية التعلم وكيف يستجيب أو يتغير خلال سنوات نموه ، بل ايضا على تأثير المعطيات البيئية التى تتم عملية التعلم من خلالها . وهذه المعطيات تشمل الخصائص الكونية والطبيعية ، مثل الارض والجبال والوديان والانهار ، وكذلك البيئة الاصطناعية من مدن ومنشآت. هذا بالاضافة الى خصائص التركيب الاجتماعى الذى يسهم فى النمو .

واذا حاولنا تناول الانسان وبيئته نجد أن لمثل هذه الدراسة عدة مداخل تتخللها عدة وجهات نظر ، والانسان كأى عضو آخر هو جسم فى الفضاء يتفاعل مع المثيرات من حوله ، ويتعلم كيف يستجيب لهذه المثيرات ويتكيف معها ، اى أن البيئة تتكون من الاشياء التى يدركها الفرد . واستجابة الفرد للبيئة تتأثر بالخبرات والجزاءات والمكافئات والتحيزات والتعميمات التي تنجم عن الاستجابة للمثيرات المختلفة . وتختلف الآراء فى الاطار النظرى للبيئة والانسان .

يربط كيرت ليفين (Kurt Lewin) علاقة الانسان بالبيئة فى مجال مدى توفر الفرص للانسان فى تلبية احتياجاته الاساسية . اما بياجيه (Piaget) فيرى علاقة الانسان بالبيئة تدريجية تبدأ بالتعمق مع نمو الطفل وادراكه لما حوله للوصول الى حالة توازن من خلال عمليتين اساسيتين وهما التكيف والتمثيل . وسيجموند فرويد (S. Freud)

يرى أن الخبرات السارة فى تفاعل الانسان مع البيئة تظهر فى الادراك الواعى ، أما الخبرات غير السارة فتدفن فى الشعور اللا ارادى ، وكلاهما يؤثر فى تكوين شخصية الانسان . والاتجاه النظرى الثالث يتصل بنظرية المثير (Stimulus) والاستجابة (Response) للعالم السلوكى جون واطسون (J. Watson). الذى يرى أن البيئة يمكن ان تصقل وتهذب استجابات الانسان ، خاصة عندما يكون الثواب على السلوك متوافرا .

وقد اشار المؤلف الى اساسيات التفاعل مع البيئة ، فأشار الى استخدام الفضاء او رقعة الارض التى يتواجد عليها كعوامل أساسية فى التأثير على سلوك الانسان ، مثل المأوى ونوع المسكن وملائمته للتقلبات الجوية من حرارة ورطوبة وانخفاض فى درجة الحرارة. ان هناك علاقة بين الخصائص المناخية والوظائف العضوية والاجتماعية للانسان . وقد قسم المؤلف ، حسب وجهة نظر مخططى المدن ان مساحة المدينة يمكن تقسيمها الى ست تصنيفات منها : (١) قطاع المدينة العام (Urban Public) ، (٢) وقطاع المدينة شبه العام (Semi Public) ، (٣) قطاع الجماعة ــ العام (Group Public) ، (٤) القطاع الجماعى الخاص (Groub Private) ، (٥) القطاع العائلى الخاص (Family. Private) واخيرا القطاع الفردى الخاص (Individual Private) ، كما يرتبط استخدام مساحات المدن بعدة عوامل اجتماعية مثل الطبقة المثقفة ومفهومها فى الافادة من المساحة ، ثم طبقة العمال ورجال الصناعة ورجال التجارة ، اى ان لكل جماعة اتجاه فى استخدام بيئة المدينة .

ثم يستعرض المؤلف بناء المجتمع ونظمه والعوامل التي تؤثر فى ضبط وتوجيه السلوك والمحافظة على هوية المجتمع وبقاءه واستمراره. ويشرح مقومات وخصائص النظام والعلاقات الاسرية فى المجتمع المعاصر ، وذكر ان المكانة الاجتماعية للاسرة لا تزال مرتبطة الى حد كبير بمهنة الاب . أما بالنسبة الى النظام التربوى الذى أخذ يتصل بالانسان فى السنوات المبكرة من حياته والسنوات المتأخرة (التعلم مدى الحياة) ويواجه النظام التربوى العديد من المشاكل المتعلقة بالمنهج والأسلوب والاختيار والتنظيم والادارة وحرية التعليم وغير ذلك من المشاكل. وفيما يتعلق بنظام السلطة الذى يتكون من الجانب التشريعى والجانب التنفيذى فانه يتميز بالبيروقراطية والمركزية فى اتخاذ القرارات على كافة المستويات ، وتزداد مشكلات السلطة تعقيدا مع التقدم والتحضر. وبالنسبة الى النظام الاقتصادى فان التغيرات التى طرات فى عمليات الانتاج والتسويق والاستهلاك والاستثمار كان لها أثار نفسية واجتماعية واسعة النطاق . واما بالنسبة الى النظام الديني فانه يواجه مراحل تغير الى مواجهة تحديات العصر بالنسبة الى الوظائف الروحية والنفسية والاجتماعية التي تؤديها المؤسسات الدينية .

ثم تطرق المؤلف الى موضوع التنظيم الطبقى والحراك والتغير الاجتماعى ولاحظ انه طرأ تغييرات جوهرية فى العلاقات الاجتماعية وقلت المسافة بين الطبقات بسبب عوامل متعددة منها نفسية واقتصادية ، ذاتية وجماعية . وميز المؤلف بين التغير البطىء والتغير الثورى الشامل والسريع ، وحذر من نتائج التغير السريع فى تفكك العلاقات والبناء والتنظيم الاجتماعى .

ويخلص المؤلف الى ان الابحاث والتغيرات الاجتماعية هى مسئولة فى خبرات التنشئة التى تؤثر فى التغير فى عملية النمو الانسانى .

التنشئة الاجتماعية

كان ينظر الى التنشئة الاجتماعية من خلال نمو الخصائص الفردية للسلوك الاجتماعى ، ولم يقتصر المؤلف فى مناقشته لموضوع التنشئة على المهارات الاجتماعية أو على عملية اكتساب السلوك المتعارف عليه ، بل يتطرق الى الحديث عن تأثيرات البيئة التى تشمل الجوانب الطبيعية، النظم الاجتماعية وما تتضمنه القيم والمعطيات الثقافية .

وفى هذا المجال يتعرض المؤلف الى عدد من القضايا ذات الصلة بنظرية النمو والبحوث الخاصة بها وهى : (١) اهمية خبرات الطفولة المبكرة وانماط الاستجابات فى مراحل الطفولة المتأخرة .

(٢) اهمية الدوافع أثناء سنوات النمو المبكرة وفى الادوار السلوكية فى مرحلة المراهقة .

(٣) منشأ العقبات التي يواجهها الاطفال اثناء نموهم فى الاطر البيئية التي تختلف عن الاطر الطبيعية للثقافة الامريكية مثل الذين ينشأون فى المناطق المتخلفة فى المدن (Slums) .

(٤) دور ومكانة ووظائف المؤسسات الاجتماعية فى تنشئة الاطفال .

(٥) علاقة العمل ووقت الفراغ فى المجتمع المعاصر .

ان هذه القضايا تضع الاساس لفهم ضوابط السلوك الاستقلالي الشخصي ؛ الصراع الاجتماعي والسلطة . ويضيف المؤلف ان الثقافات تتفاوت من بيئة الى اخرى من حيث المضمون وما يتوارثه الاجيال . وأهم الخصائص الثقافية التي تؤثر فى السلوك الانساني هي نماذج السلوك المعيار ، حيث ان هذا السلوك متعارف عليه وينتقل من جيل الى آخر . أما فى حالة المجتمعات المعقدة المعاصرة فانه يصعب النقل للعناصر الثقافية فى وحدات متكاملة بسبب التغيرات الاجتماعية السريعة . وغالبا ماتسبب عملية النقل الثقافي الاحباط ، وهذا بالتالي يؤثر فى الحافز الفردي لتطوير نماذج من السلوك المقبول أو المعياري . ويضرب المؤلف مثلا لرفض الشباب العديد من أساليب المعيشة التي يسير بموجبها المجتمع ، وبالرغم من ان هذا الرفض يمثل وجود الحاجة الى التغير فان مؤسسات المجتمع لم تبد استجابات واقعية لهذه المطالب .

ويتناول المؤلف موضوع التفاوت الثقافي ــ الاجتماعي فى انماط الاستجابات ويؤكد ان مكان ولادة الفرد ، ومدى مشاركة أسرته فى النشاط الاجتماعي ، ومكانة والديه فى النظام الطبقي فى المجتمع ، ومدى نجاحهم فى اكتساب معايير سلوكية يؤثر فى مكانته فى المجتمع .

الذكاء واللغة والابداع :

يتوقف الرضاء فى التفاعل الاجتماعي للفرد والمجتمع على قدرة الفرد للاستجابة بكفاءة وبسلوك خلاق . وتنمو القدرات بفعل الخصائص البيولوجية والمعلومات وفرص التعلم والخبرات المكتسبة فى اطار البيئة . كما يتكون ادراك الفرد بفعل قدرته على الاستيعاب والتذكر وفهم الرموز وتطوير المفاهيم ، الامر الذي ينطبق على خصائص الفرد الذي يتفاعل مع الطبيعة . وتعتبر اللغة عنصرا أساسيا فى تيسير التفاعل مع البيئة والنمو الادراكي . والقدرة على استخدام اللغة عن طريق النطق من العناصر الهامة فى الذكاء ، اذ ان عدم اللياقة فى استخدام اللغة هو فى حد ذاته سببا ونتيجة للتخلف العقلي . كما تهم اللغة اولئك الذين يعنون بالحرمان الثقافي للاطفال فى المناطق المنحلة من المدن الكبيرة . والاطفال من المناطق المتخلفة هذه عندما يدخلون المدارس بالمستوى النطقي الضعيف يواجهون الصعوبة الكبيرة فى استيعاب المناهج الدراسية ، كما ان اللغة تعتبر اساسية ايضا للاطفال فى عملية الحراك الاجتماعي .

ان السلوك الابداعي والخلاق المتمشي مع قدرة عقلية فائقة يعتبر ذات قيمة فى التوصل الى الرضاء فى الحياة العصرية . وقد يعتقد البعض ان الابداع والذكاء هما قدرتان منفصلتان ، غير أنه قد تمت ملاحظة حالات عديدة حيث تواجد الابداع فى الاشخاص ذوي الذكاء العالي ، وكذلك حالات عديدة لا تتمتع بذكاء منخفض قلما يمكن تسمية السلوك عندها « خلاقا » .

ويضيف المؤلف ان البحث عن « نوع الحياة » هو هدف للعديد من الناس فى المجتمع المعاصر ويعتمد على المنهج الابتكاري الذي يمارسه الفرد ، ولتحقيق ذلك لا بد من توفير المجال ، فى مراحل النمو المختلفة ، لاكتساب الخبرات والفرصة لاكتشاف البيئة بأقل توجيه من الآخرين. ان الخبرات التي يكتسبها الاطفال فى النظام المدرسي المعاصر تفتقد بدرجة كبيرة الى مثل هذا الانفتاح والتفاعل بين الفرد والبيئة من حوله . ويعتمد نوع « نمط الحياة » المرضي فى المجتمع المعاصر بدرجة كبيرة على قدرة الفرد لايجاد حلول للعديد من المشكلات .

العواطف والدوافع والتعلم

ان النظريات ونتائج البحوث المتضاربة تؤكد عدم التوصل الى تعريف دقيق للعواطف والدوافع بالرغم من التقدم فى هذه البحوث ، الا ان الكثير غير معروف بعد .

وفيما يتعلق بالعواطف فقد تطرق المؤلف الى بعض النظريات مثل نظرية جيمس لانج James Lang التي تشير الى أن العاطفة تتبع الحالة العضوية . اما النظرية السلوكية عند جيمز واتسون James Watson فتحدد العاطفة على اساس الامتداد والسرور والألم . وبالنسبة الى نظرية كانون — بارد Canon - Bard فانها ترسي مسئولية العواطف على الجهاز العصبي ، على اساس ان العديد من الاحداث تقع عندما يتم ادراك موقف مثير ومعقد مثل حركة الدم وضغطه ، ونبضات القلب ، وتغيرات فى النشاط الهرموني ،وهناك التفسير الفرويدي للعواطف وارتباطها بمواقف « الأناهو » « الانا » و « الانا الاعلى » وكذلك النظرية الفيزيولوجية العصبية التي تنص على ان الخبرة العاطفية تحرك وتتقاطع مع الوضع العصبي الطبيعي .

اما بالنسبة الى الدوافع فان السبب الذي يعمل الانسان بجدية ، متحملا المشاق والتعب فى سبيل الوصول الى مركز ما لا ينحصر فى الخصائص الذاتية للانسان والتنشئة الاسرية فقط بل أيضا فى المجتمع والثقافة والبيئة . وحيث ان طبيعة الانسان مرتبطة بضوابط البيئة وعناصرها فان المجتمع السريع التغير يعمل كسبب ونتيجة للتغير فى سلوك الافراد . وعندما يتغير نمط الافراد وأهدافهم، فان هذا التغير يؤثر فى المجتمع .

ويتقدم المؤلف بعدة افتراضات حول القوى التي تغير الاتجاهات نحو العمل منها :

(١) تشعب الادوار للوظائف المختلفة .

(٢) الاتجاه الحديث نحو المال والنقود .

(٣) النواحي التنظيمية نحو الانجازات

(٤) وجود الانتاج التجميعي .

(٥) التنظيم الصناعي .

(٦) نمط جديد من المثالية .

(٧) تاثير الحكومة المتزايد على مصير الانسان .

وبعد تحليل هذه العوامل وعلاقتها بالدوافع يتطرق المؤلف الى مناقشة التركيب الاجتماعي وعلاقته بالدوافع ، ويذكر بشكل

خاص تأثير الاسرة على التحصيل وتدعيم مستوى الطموح عند الفرد ، كما اشار الى دور المدرسة والمناهج والنشاط المدرسي فى عملية التحصيل ، وكذلك النظام الطبقي فى المجتمع،والحراك الاجتماعي والاهداف الفردية فى المجتمع الحضري . ويمتاز المجتمع الحضري المعاصر بالمرونة والحرية النسبية ،والاتجاهات والثقافات المتباينة التي تؤثر فى الدوافع ، وبالتالي فى سلوك الانسان .

الفرد والمجتمع ــ المراهقة ومرحلة الكبار المبكرة

ماهي مواطن النجاح والفشل فى عملية التنشئة ؟ وماهي بعض الاوضاع فى المجتمع التي تساعد أو تثبط مصير الانسان فى المجتمع المعاصر ؟

هذه هي بعض الاسئلة التي يطرحها المؤلف فى الجزء الاخير من كتابه ، وقد اخذ بعين الاعتبار عند السرد على هذه التساؤلات بعض القضايا الاساسية المتضمنةفى السلطة ، الاستقلالية ، القوة والصراع فى المرحلة الحضارية المعاصرة .

بالنسبة الى التنشئة فان السؤال المطروح هو كيف يمكن للفرد ان يتعلم استيعاب قواعد المجتمع بحيث يراعى القيم الاجتماعية ويحقق السلوك الاجتماعى دون أن يكون هذا السلوك مبنيا على الخوف ؟ وبالتالى كيف يمكن لمضمون ما يستوعبه الفرد ان يتغير تدريجيا وبصورة منتظمة للوصول الى التغير الاجتماعى بدون تضحيات من قبل الفرد غير لازمة ، او تفتيت النظام الاجتماعى .

ويقترح المؤلف ان مبادىء التعلم يمكن استخدامها فى فهم عملية الاستيعاب ، ويحدد الأوضاع التى تتم بموجبها العملية . مثلا ــ فى حالة الطفولة المبكرة حيث تبدأ مرحلة اكتشاف الحياة وكما ينمو الطفل باحاسيسه وادراكاته واستجاباته فان البيئة من حوله تنمو ايضا ، وعلى الوالدين والمسئولين فى المدرسة مساعدة الطفل فى كل مرحلة تغيير فى حياته عند دخوله المدرسة ، عند وصول سن البلوغ ، وعند وصوله المراحل التي يواجه فيها حياته .

واذا نظرنا الى بيئة المدينة فنجد أن هناك العديد من الاوضاع التى تسبب السلوك الانحرافي والاحباط والمضايقات مما يؤدى احيانا الى انزواء الفرد وتقليل اتصالاته مع الآخرين وتجنب الازدحام والاماكن العامة . وعدم التفاعل الايجابى يؤدى الى عدم الالتزام بالقواعد الاجتماعية ويطور السلوك الانحرافى الفردى (الذاتى) الذى يتخذ مظاهر متنوعة .

وللحد من السلوك الانحرافى وتدعيم التنشئة السليمة يتطرق المؤلف الى الضبط الداخلي والخارجي متضمنا العقاب الجسمى والمعنوى بدرجات متفاوتة حسب درجة ونوع المخالفة، ويؤكد اهمية الضبط الذى يستخدم العقاب المعنوى لمزاياه العديدة . أما كيف يمكن للفرد استيعاب السلوك المعيارى وتطبيقه فانه فى التدريب المبكر وفق قواعد تأخذ بعين الاعتبار اسس التعلم الحديثة والخصائص البيئية والثقافية والتغيرات التى تحصل فى المجتمع وادخال التغيرات فى أساليب التنشئة حتى تستجيب للمثيرات المستجدة فى الحياة المعاصرة .

ويستعرض المؤلف بعض القضايا الاجتماعية فى مجتمع المدينة فى أمريكا خاصة ان المعارضة التي يبديها الشباب ترتبط بالتطور التاريخي للكيان الاجتماعي لمجتمع المدينة . واهم الاحداث التي ساهمت فى ابراز المعارضة بعد الحرب العالمية الثانية **أولا ــ** ماقام به مارتن لوثر كينج ومطالبته بتطبيق الحقوق المدنية ، **ثانيا ــ** المعارضة الشديدة لحرب فيتنام ، **ثالثا ــ**

الاقصاء والابتعاد عن المجتمع مثل تعاطي المخدرات وفقدان المعايير السلوكية الجنسية .. الخ .

والراديكالية الجديدة فى المجتمع المعاصر لها ، فى حد ذاتها ، مقومات شخصية واجتماعية ، ولمواجهة هذه الراديكالية عند الشباب فان على المؤسسات الاجتماعية ، مثل الجامعة ، دورا كبيرا فى تقديم المثل الأعلى لتوجيه السلوك وتعميق الخبرات العلمية والعملية التى تتمشى مع معطيات التغير الحضارى . كما ان على الجمعيات والاندية والمنظمات التى ينتمى اليها الفرد بقصد اشباع الحاجات الاجتماعية والنفسية دورا هاما فى توفير المناخ الصحى واتاحة الفرصة لبناء علاقات وقيم اجتماعية معاصرة لتساعد الفرد على مسايرة التغير واستيعابه فى حياته وقيمه ومبادئه .

واما فيما يتعلق باستقلالية الفرد فى مجتمع المدينة فيقول المؤلف ان ليس هناك ما يسمى استقلالية كاملة . والاستقلالية هي شيء محدود ونسبى ومتغيرة خلال فترة الحياة ، لأنها تتوقف على الاوضاع الاجتماعية من ناحية ، ولأن الفرد لا يستغنى عن اعتماده على الآخرين من ناحية أخرى .

وحيث أن النشاط الاجتماعى والاقتصادى والأسرى والسياسى يحتاج الى الاتجاه التخصصى فان متطلبات التخصص والتدريب والاعداد للادوار المحددة يتطلب من الفرد التعرض لمواقف نفسية واجتماعية معقدة وجديدة ، كما ان البيروقراطية فى المنظمات والعمل تشكل العلاقات المهنية والاجتماعية الجديدة،كما تعرض الفرد للمواقف والضغوط والانفعالات التي يجب ان يتكيف لها ويتأقلم مع البيئة والمعطيات الجديدة . ومن المواقف التى يواجهها الفرد فى مجتمع المدينة الصعوبة فى تحديد الهدف والمعنى لحياته ، حتى ان البعض يواجه صعوبة فى الانتساب الى الضاحية او المجتمع السكنى الذى يتواجد فيه .

وحتى يتمكن الفرد من تلبية احتياجات الدور المتوقع منه فى المجتمع الحضرى لا بد ان يتعلم الاشياء التالية خلال سنوات نموه : أن يعمل بجلد ولوقت طويل ، دون توقع مكافأة ، ومواصلة العمل بعد الجهد الضائع ، ضبط الحواس والشعور حول متطلبات العمل المعقد والطويل ، الاهتمام والمتابعة للتعليمات للمواقفالسلوكية المعقدة ، استيعاب الحقائق والمناهج والاساليب لتنفيذ العمل ، التفاعل والاتصال مع الآخرين .

ويتناول المؤلف فى الفصل الاخير موضوع القوة الاجتماعية والتعلم الاجتماعى فى المجتمع الديموقراطي ، ويطرح التساؤل التالى : هل يحصل الفرد على الرضاء بصورة أوفر فى المجتمع الديموقراطي ؟ واذا كان الامر كذلك فما هى الخصائص النظرية والعلمية للديموقراطية ؟ وبالتالى لماذا يبدو أن بعض افراد المجتمع يحصلون على رضاء اكثر من الآخرين .

بالنسبة للديموقراطية فهناك النظرية الكلاسيكية والحقائق التنظيمية ، وحسب النظرية الكلاسيكية يؤثر الافراد فى السياسات عن طريق ممثلين يعكس اتجاهاتهم ورغباتهم . ويعتبر التنافس أساسا للتنظيم ، والقيادة تسعى جادة لمراعاة راى واتجاه الاغلبية .

وتتحدد قدرة الفرد على التفاعل مع القوة والضبط فى المجتمع المعاصر بموجب الخبرات التي يكتسبها فى مراحل نموه . ويجب أن يكونالتعليمعن القوة والسلطة والقدرة الذاتية

للتأثير فيها أو تحقيقها جزءا من عملية التنشئة. واذا كان الشباب اليوم يرفضون جميع السلطة والقوة ، فهم بحاجة الى دراية ومعرفة عن النتائج المترتبة على هذا الرفض . ويمكن تحقيق مثل هذا التعلم من خلال المؤسسات الأسرية والتربية . ويجب ان نقر بأن الخبرات التي يكتسبها الشباب اليوم لم تساعدهم في مواجهة مشكلة ايجاد المكانة المناسبة لهم في المجتمع . واذا اردنا مساعدة الشباب في الوصول الى حالة الرضاء عندما يقومون بادوار الكبار فلا بد من ان ندرك مزايا وقيم ونواقص التنظيمات والمنظمات الاجتماعية . واذا أردنا تحقيق التغير الاجتماعي والمجتمع الافضل فيجب علينا ان نعير الاهتمام الكافي للوسائل والاساليب والطرق المناسبة لتحقيق التغيرات المرغوبة . والخبرات التي يكتسبها الفرد في نموه لا يمكن ان تكون ميدانا للبحث بصورة منفصلة عن المجتمع والثقافة التي تتم من خلالهما عملية النمو ذاتها .

●●●

يعتبر هذا الكتاب من المؤلفات الحديثة التي تناولت موضوع النمو الانساني في بيئة المدن في المجتمعات المعاصرة ومصير الانسان وعملية التنشئة الاجتماعية والذكاء واللغة والابتكار والعواطف والدوافع والتعلم، وكذلك المؤثرات في مراحل النمو في فترة المراهقة وما بعدها .

وقد تمكن المؤلف من اضافة منهج جديد في دراسة النمو الانساني ، وهي ربط النمو بالبيئة الاجتماعية والطبيعية ، وقدم الدراسات التي تبين مثل هذا الربط ودعا الى المزيد من البحوث في مختلف ميادين النمو النفسي والاجتماعي والبيولوجي .

الا أن المؤلف في مناقشته للابعاد المشار اليها لم يتوصل في النتيجة الى نظرية او قاعدة يمكن تجربتها بالبحوث الميدانية ، واكتفى بابراز مختلف جوانب العلاقة بين الفرد والبيئة، مشيرا الى النظريات القديمة والمتطورة فيما يتعلق بالنمو والتنشئة والذكاء والتعلم .

والعبرة التي يمكن استخلاصها من هذا الكتاب ، ان الفرد في بيئة المدينة في المجتمع الامريكي المعاصر تتجاذبه عدة اتجاهات متضاربة في التركيب الاجتماعي والسلطة والتنظيمات السياسية والاقتصادية ، وتؤثر عليه وتعمق في سلوكه اتجاهات سلبية مثل ما يحصل حاليا في ثورات الشباب والمواقف السلوكية السلبية .

واذا ما تساءلنا عن مدى الافادة من هذه الدراسات والخبرات التي تعرض لها المؤلف وعرضها بين صفحات هذا الكتاب في واقع مجتمعنا العربي الذي يمر في مرحلة تغيرات سريعة وواسعة ، لها تأثيرات متفاوتة على سلوك الفرد وعملية التنشئة الاجتماعية ، وتقييم الوضع الراهن والسياسات والمفاهيم التي تستخدم في التوجيه الاسري والمنظمات التربوية والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ؟ كما أن هناك حاجة ماسة الى اجراء المزيد من الدراسات حول تكيف الفرد مع البيئة في المجتمعات العربية الحضرية .

هذا وقد اكتفى المؤلف في عرض المشكلة وتشخيص مثل السلوك الانحرافي والانعزالي، كما أنه اكتفى بالتنويه عن دور الاسرة والمدرسة في تكوين الاتجاهات لدى الفرد ، ولكن لم يتطرق الكتاب الى اقتراح بعض الحلول والوسائل التي تحقق التوافق والتماثل بين الفرد والنمو الاجتماعي في المجتمعات الحضرية.

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ،وسوف نعرض لها بالتحليل فى الاعداد القادمة

1. Bottomore, Tom, Marxist Sociology,
Macmillan Press, 1975.

2. Devlin, D. D., Jane Austen and Education,
Macmillan Press, 1975.

3. Hudson, Donald W., Wittgenstein and Religious Belief,
Macmillan Press, 1975.

4. Hudson, Kenneth, A Social History of Museums,
Macmillan Press, 1975.

5. John Lewis, Max Weber and Value-Free Sociology, Lawrence & Wishart, London, 1975.



العدد التالي من المجلة

العدد الاول ــ المجلد الثامن

ابريل ــ مايو ــ يونية ــ ١٩٧٧

قسم خاص عن

التراث

بالاضافة الى الابواب الثابته

الثمن ٢٥٠ فلساً

الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليماً
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليماً
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشاً
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بايسه
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلساً	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت

